عصر النّهضة في الحضارة الإسلاميّة



تأليف: آدم مِتس
ترجمة ومقابَلة: د. أحمد إيبش


مكتبة
Telegram Network
عصر النّهضة
في الحضارة الإسلاميّة
تأليف: آدم مِتس
ترجمة ومقابلَة: د. أحمد إيبش

عصر النّهضة
في الحضارة الإسلاميّة

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

روّاد المشرق العربي

عصر النّـهضة
في الحضارة الإسلاميّة

للمستشرق الألماني
آدم مِتس

عن أصل المؤلّف الألماني، وترجمة
صلاح الدّين خُدابَخش
ودا□يد صموئيل مَرغوليوث

تعريب ومقابلة
د. أحمد إيبش

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التّاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيَّارا موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد

منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة

هذا الكتاب

بلغ اهتمام الدّولة الإسلامية إبّان الخلافتين الأمويّة والعباسيّة أوجه بالعلوم الدّينية والمدنية، فأضفى ذلك على حضارتنا الإسلامية صبغة فريدة بالرّبط بين العقل والرّوح، امتازت بها عن كثير من الحضارات السابقة. فالإسلام حضّ على طلب العلم وعدّه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأكرم العلماء كورثة للأنبياء. وتميّزت الحضارة الإسلامية بسموّ عقيدة التوحيد، وبالتّنوّع العِرقي في مفردات الفنون والعلوم والعمارة.

طفقت مشاعل هذه الحضارة الفتيّة تبدّد ظلمات الجهل وتنير للبشرية طريقها من خلال التمدّن الإسلامي المتنامي على كل صعيد. وفيما كانت أوروپا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في جهل وظلام حضاري وصراعات سياسيّة، كانت حضارة الإسلام ترتقي وتسمو بديار الإسلام من الأندلس غرباً إلى تخوم الصّين شرقاً. وكان الكتاب الذي يصدر في دمشق أو بغداد تحمله القوافل التجارية ليصل إلى قُرطُبة بإسپانيا في غضون شهر. وهذا الرّواج حقق وحدة ثقافية فريدة وانتشاراً واسعاً للغتنا العربية العتيدة.

مع هذه النّهضة العلمية ظهرت الجامعات العربية لأول مرّة بالعالم الإسلامي قبل أوروپا بقرنين، فأنشئت أول جامعة «بيت الحكمة» في بغداد سنة 830 م على يد الخليفة العبّاسي المأمون، العالم المُستنير الذي شجّع المسلمين على طلب العلم، أنشأها لتكون أكاديمية للبحث العلمي تحت رعايته الشخصية، وأقام بها مرصداً ومكتبة ضخمة. ثم تلتها جامعة القرويين سنة 859 م في فاس، وجامعة الأزهر سنة 970 م في القاهرة. وأول جامعة في أوروپا أنشئت في «ساليرنو» بصقلية سنة 1090 م بعهد الملك روجيرو الثاني Ruggero II، نقلاً عن العرب. ثم تلتها جامعة «پادو□ا» Padova بإيطاليا سنة 1222 م، وكانت الكتب العربية تُدرَّس بها آنذاك.

* * *

نستشفّ في هذا الكتاب القيّم صورة إجمالية مشرقة حول عصر النهضة في حضارتنا الإسلامية إبّان حكم الخلفاء من بني العبّاس في بغداد، للأكاديمي الألماني المُجيد آدم متس، الذي دوّنه بروح العالم المُنصف والمعجب بهذه الحضارة العظيمة وألقها الكبير.

ولد آدم مِتس Adam Mez يوم 8 أبريل عام 1869 في فرايبورغ إم برايسغاو Freiburg im Breisgau بجنوبيّ ألمانيا. واهتمّ في مطلع حياته بدراسة الحقوق واللاهوت ثم دخل مدرسة الاستشراق وسافر إلى المشرق وابتدأ بتعلّم اللغات الشرقيّة، وفي سنيّ شبابه أغرم بدراسة الأدب العربي في القرن الرّابع الهجري وما تلاه. ثم استقرّ به المقام في بازل بسويسرا يدرّس اللّغات الشّرقيّة في جامعتها Universität Basel (أنشئت 1460)، حتى وفاته عام 1917 وهو لم يزل في سنّ الثّامنة والأربعين.

خلال فترة حياته في التّدريس التي امتدّت 25 عاماً، لم ينشر آدم مِتس الكثير من الأبحاث والدّراسات، ومنها مثلاً «حكاية أبي القاسم» لأبي مُطهَّر الأزدي، بعنوان: Abul Kâsim, ein Bagdader Sittenbild (هايدلبرغ 1902) وزوّدها بمقدّمة ممتازة وتعليقات وفيرة ومعجم ألفاظ. غير أنّ اسمه ارتبط بمؤلّفه الأشهر «عصر النّهضة في الإسلام»:

DIE RENAISSANCE DES ISLÂMS

هذا الكتاب كرّس له مِتس حياته، وظلّ يشتغل فيه طوال سنيّ تدريسه، لكنه لم يُطبع مع الأسف حتى توفي في ديسمبر من عام 1917. ثم نُشر الكتاب بعد وفاته ضمن منشورات جامعة كارل □ِنترز في هايدلبرغ عام 1922 بإشراف ها. ريكِندورف H. Reckendorf.

وفي السّنوات التّالية، صدرت تقاريظ على عمل مِتس، كان أخصّها ما نشره كارل هاينريش بيكَر بعد عام من صدوره، فاعتبره سيبقى لوقت طويل «المرجع الأول حول ثقافة المجتمع الإسلامي في عصر خلفاء بني العبّاس». ثم في عام 1925 قام بتقريظه ريخارد هارتمان، وتلاه □اسيلي بارتولد الذي عدّه نموذجاً يحتذى للبحث وتحليل المعطيات. كما تمّت ترجمة الكتاب إلى الفرنسيّة والإسپانيّة والإنكليزيّة والرّوسيّة والپولونيّة والتُّركيّة والفارسيّة.

ومن الجدير بالذّكر أنّ ثمّة جهداً مماثلاً في دراسة أحوال الحضارة الإسلاميّة، في الفترة ذاتها استناداً إلى المصادر العربية، قد قام به المستشرق الألماني ألفِرد فون كريمَر في كتابه «التّاريخ الثّقافي للمشرق في عصر الخلفاء»، ونُشر في □يينّا عام 1875-1877:

A. von Kremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien, 1875-7.

* * *

كتب العلّامة المصري الكبير د. عبد الرّحمن بدوي في «موسوعة المستشرقين»:

وكتاب مِتس هذا عرضٌ ممتاز للحضارة الإسلاميّة في القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي)، يتناول كلّ مرافق المدنيّة: من إدارة، وماليّة، ونظام للحكم، وحياة اجتماعيّة لعامّة النّاس، والسّلوك في الحياة، والأعياد، وإدارة المدن، وأحوال التّجارة، وأسباب المواصلات، والعادات والأعراف الجارية. وإلى جانب هذا تناول الحياة الأدبيّة والفكريّة، والدّينيّة في ذلك العصر.

والفكرة القاصدة في هذا الكتاب هي أنّ هذا العصر كان عصر «إحياء» للحضارة السّابقة على الإسلام، وخصوصاً الحضارة الهيلنستيّة (أي اليونانيّة المتأخّرة والبيزنطيّة). ومن هنا سمّى كتابه باسم «نهضة الإسلام» وكأنّ القرن الرّابع الهجري يناظر في الحضارة الإسلاميّة عصر النّهضة Renaissance في الحضارة الأوروبيّة...

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى عدّة لغات، ومنها العربيّة (في جزأين، القاهرة، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر)، وقام بهذه التّرجمة العربيّة محمّد عبد الهادي أبو ريدة، الذي أساء إلى النّص إساءة بالغة، لأنّه في معظم المواضع كان لا يترجم كلام المؤلّف – وهو شرح موسّع متّسق – بل ينقل النّصّ العربي الذي إنّما يشير إليه المؤلّف دون أن يترجمه. ولهذا بدا الكتاب في ترجمته العربيّة هذه مجرّد سرد لنصوص طويلة، فضاع عمل المؤلّف الأصلي، وصرنا بإزاء سلسلة من الاقتباسات غير المتّسقة المعنى ولا المطّردة الحجاج. وهذا الصّنيع هو أسوأ ما يمكن أن يصنعه مترجم بمؤلّف يترجم عنه! ولهذا يحسُن بالقارئ العربي أن يطرح جانباً هذه التّرجمة العربيّة، وأن يرجع إلى ترجمة أخرى إن كان لا يعرف الألمانيّة.

* * *

أدّى هذا النّقد من الدّكتور بدوي إلى نشوء جملة من المآخذ على طبعة القاهرة التي صدرت عام 1940. ومن خلال نظرة فاحصة سريعة يلاحظ المرء أنّ حجم الكتاب قد تضخّم كثيراً إلى جزأين (570 + 503 = 1073 صفحة) بينما يبلغ أصل الكتاب في طبعته الألمانيّة 492 صفحة فقط، ويتبيّن أنّ المترجم قد استفاض كثيراً بنقل النّصوص والأشعار عن مصادر العصر العبّاسي، ممّا أثقل على الكتاب وأفقده رشاقته وتسلسله.

لذلك كان من المفيد لا بل من اللازم إعادة العمل على هذا المرجع الثّمين، ولتحقيق هذه الغاية قمتُ بالرّجوع إلى طبعات ثلاث: طبعة هايدلبرغ الألمانيّة الأصلية بقلم مِتس الصّادرة عام 1922، والتّرجمة الإنكليزيّة التي قام بها الباحث الهندي الكبير صلاح الدّين خُدابَخش وتابعها بعد وفاته الباحث البريطاني دا□يد صموئيل مرغوليوث، وأصدرتها دار لوزاك Luzac بلندن عام 1937 (538 ص)، لتليها طبعة صدرت في پاتنا Patna بالهند العام ذاته (517 ص). كما استندت مليًّا إلى طبعة لجنة التّأليف 1940.

كانت غاية العمل تقديم طبعة عربيّة تماثل إلى أكبر حدّ أصل المؤلّف بالألمانيّة، ولذا لم آخذ بالتّعليقات الكثيرة التي أضافها الأستاذ صلاح الدّين إلى ترجمته الإنكليزيّة، والتزمت بروح النّص الألماني ومرجعيّته وأسلوبه في سوق المصادر. غير أنّني أفدتُ كثيراً من عمل المترجمين الثّلاثة: الهندي والبريطاني والمصري، وأنوّه إلى أن كلام د. بدوي يحمل قسوة زائدة، فالأستاذ أبو ريدة بذل

في ردّ النّصوص إلى فحواها بالعربيّة من مظانّها الأصلية جهداً كبيراً (والكتاب قائم برمّته على النّصوص)، وهذا لعَمري أمرٌ يستلزم كثيراً من العناء ويوجب الثّناء. لكن كان الأولى حقاً عدم الاستفاضة بالنّقل، والاكتفاء بما يفيد الدّلالة والإشارة، دون تشتيت سياق المتن بالإطالة.

أخيراً، فهذه هي اليوم الطّبعة العربيّة المكثّفة للكتاب، كما وضعه مؤلّفه قبل قرابة المئة عام، بلغة الاستطراد والإيجاز، وهذا ما يجعله حتى أقرب إلى ذائقة العصر الذي نحن فيه. قابلتُ الطّبعات الثّلاث، وحذفت الزّوائد، وصحّحت الأغلاط، ناهيك عن ضبط المتشابه بأسماء الأعلام والأماكن (كالهَمْداني والهَمَذاني)، وتحقيق نُقول المصادر التي نُشرت لاحقاً. فنرجو أن يجد القارئ فيه الفائدة. والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 4 يونيو 2014

د. أحمد إيبش

DIE RENAISSANCE DES ISLÂMS

VON

A. MEZ

WEILAND O. Ö. PROFESSOR DER ORIENTALISCHEN SPRACHEN
AN DER UNIVERSITÄT BASEL



HEIDELBERG 1922
CARL WINTERS UNIVERSITÄTSBUCHHANDLUNG

Verlags- Nr. 1703

الطبعة الألمانيّة الأولى، جامعة كارل *□ِنترز،* هايدلبرغ *1922*

DIE RENAISSANCE DES ISLÂMS

VON

A. MEZ

WEILAND O. Ö. PROFESSOR DER ORIENTALISCHEN SPRACHEN
AN DER UNIVERSITÄT BASEL



HEIDELBERG 1922

CARL WINTERS UNIVERSITÄTSBUCHHANDLUNG

Verlags- Nr. 1703

نموذج الطّبعة الإنكليزيّة الأولى، پاتنا 1937

THE

RENAISSANCE OF ISLAM

(*Translated From German*)

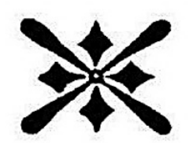
BY

SALAHUDDIN KHUDA BAKHSH

AND

D. S. MARGOLIOUTH

FIRST EDITION



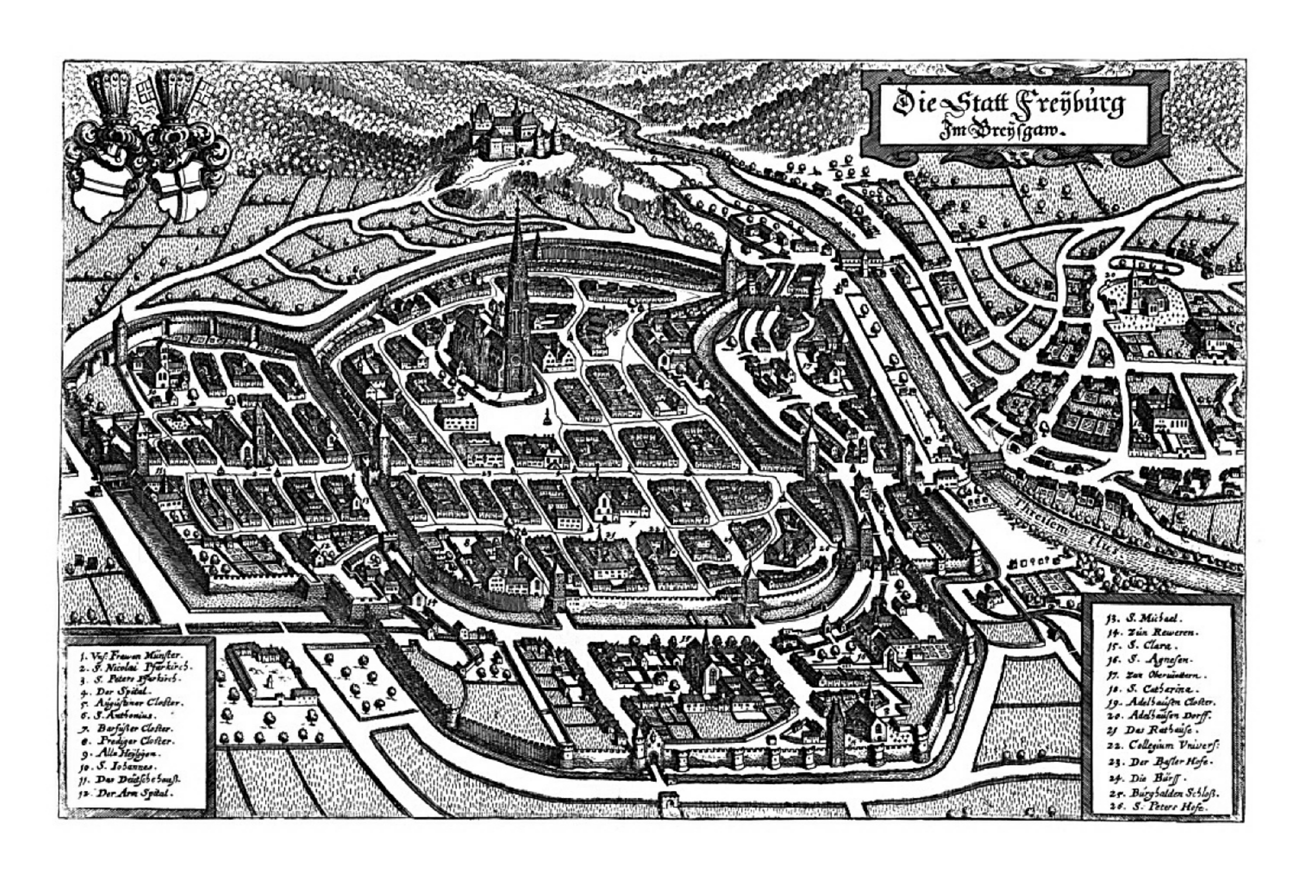
THE

JUBILEE PRINTING & PUBLISHING HOUSE

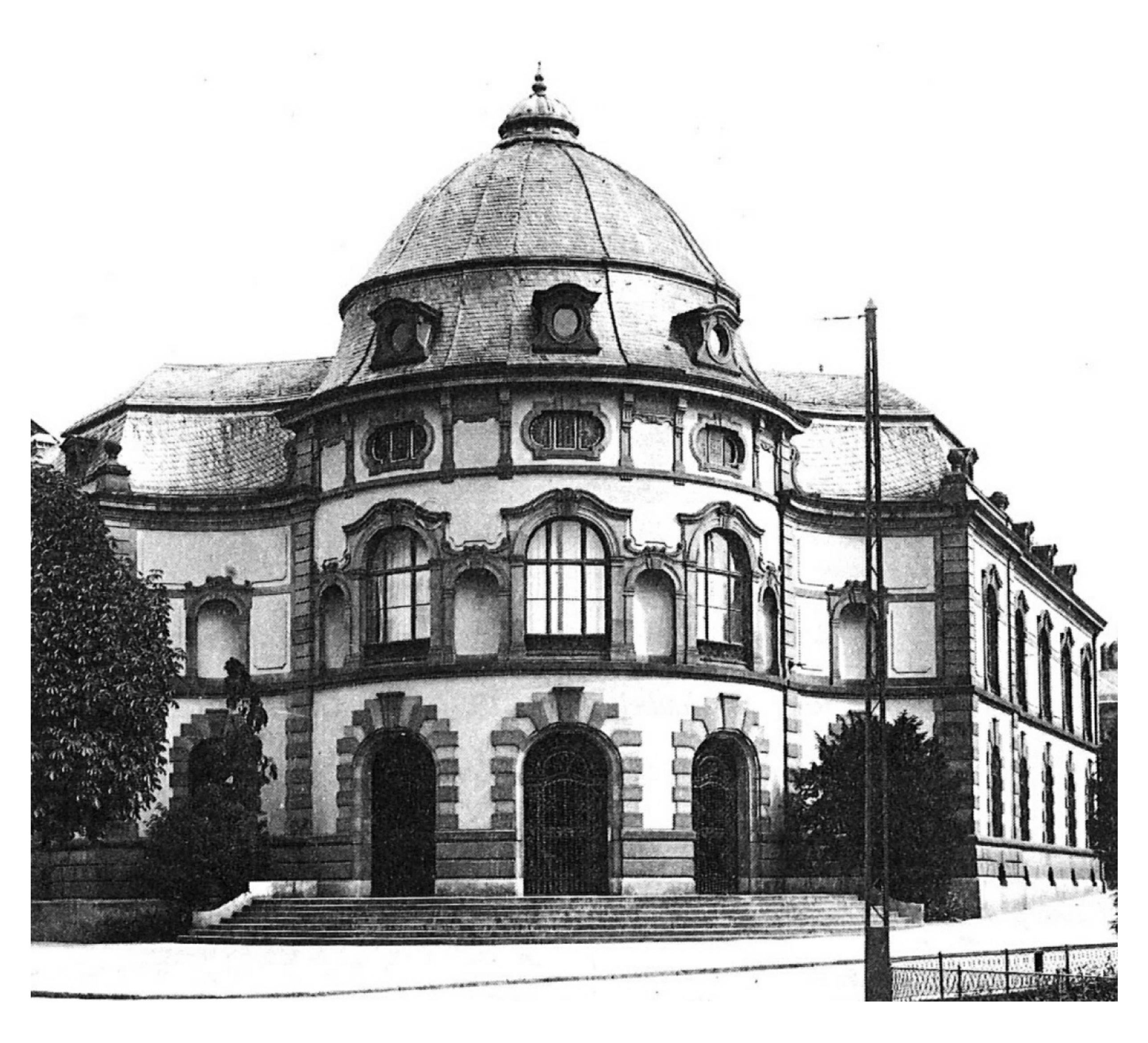
PATNA.

1937.

نموذج طبعة لوزاك الأولى 1937، معادة بالأوفست بيروت 1973



فرايبورغ إم برايسغاو بألمانيا مسقط
رأس المؤلّف، نقُيشة مؤرّخة 1644



مكتبة جامعة بازل عام 1896، حيث قام مِتس بتأليف كتابه



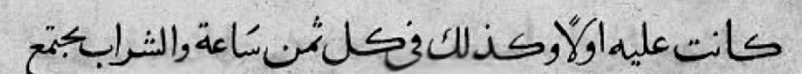
دينار ذهبي ضُرب في أيّام الخليفة العبّاسي المُستكفي بالله
(ولي الخلافة بين 333-335 هـ = 944-946 م)



بغداد، عاصمة الخلفاء العبّاسيين،
نُقيشة من القرن التّاسع عشر



نموذج من مخطوط مقامات الحريري من العصر العبّاسي



كانت عليه اولا وكذلك فى كل ثمن ساعة والشراب يجتمع
فى حوض والحوض
وهو بطنه وعند
رفعه من المجلس
يميل الرجل الى يمينه
فيخرج ما فى بطنه
من الشراب من
كمه وذلك ما
اردت ايضاحه
جليا واصف ما صنعته
وهو سرير وعليه
شخصان يتنادمان

الشكل التاسع من النوع الثانى

وهو سرير عليه
شخصان فى يدى
كل واحد منهما
قدح وقنينة يصب
فى قدح صاحبه من
قنينة شرابا فيشربه وينقسم الى فصلين

الفصل الاول

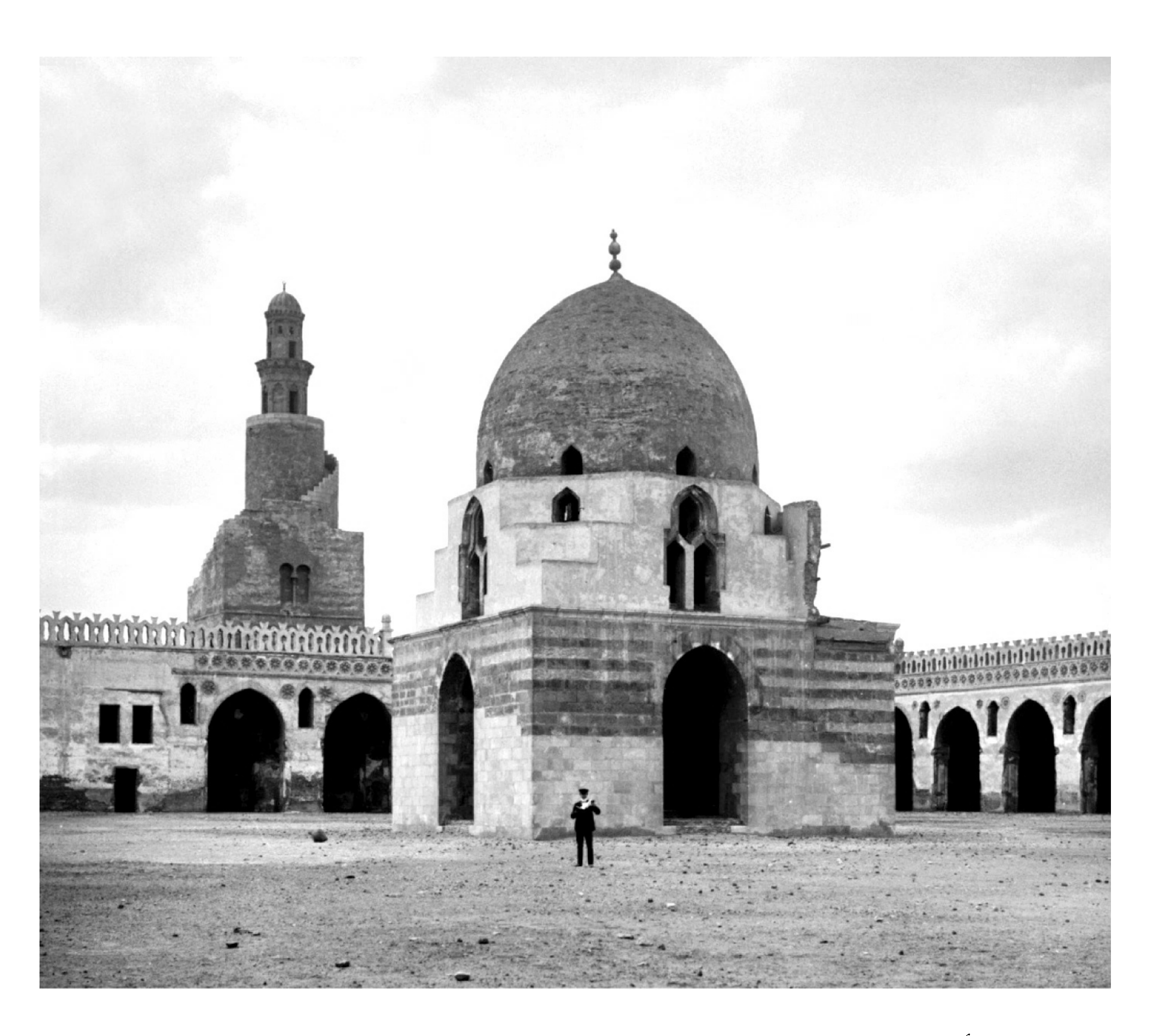
نموذج من مخطوط عربي ثمين، يعود إلى العصر العبّاسي



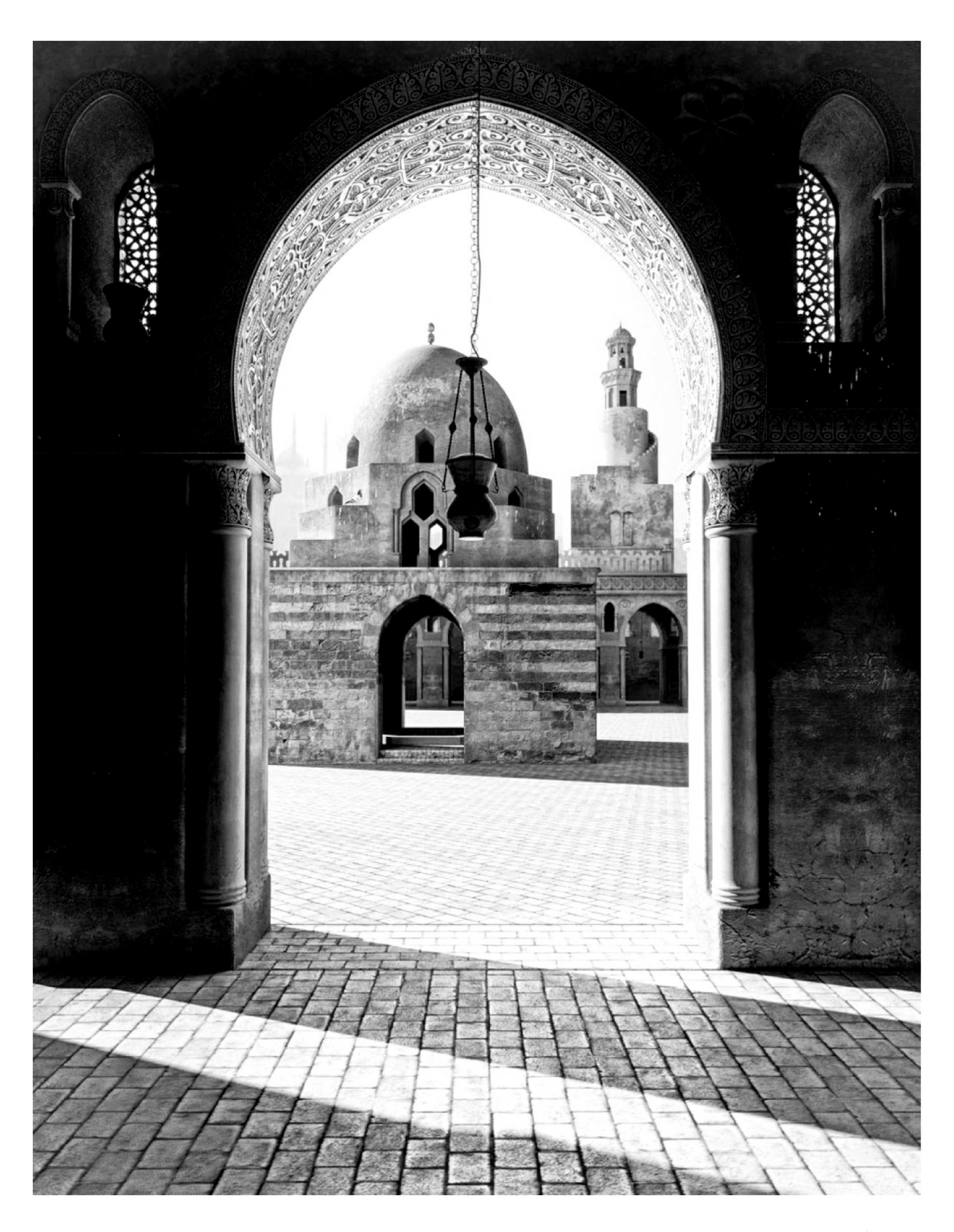
أضرحة بعض خلفاء بني العبّاس في القاهرة، صورة من القرن التّاسع عشر



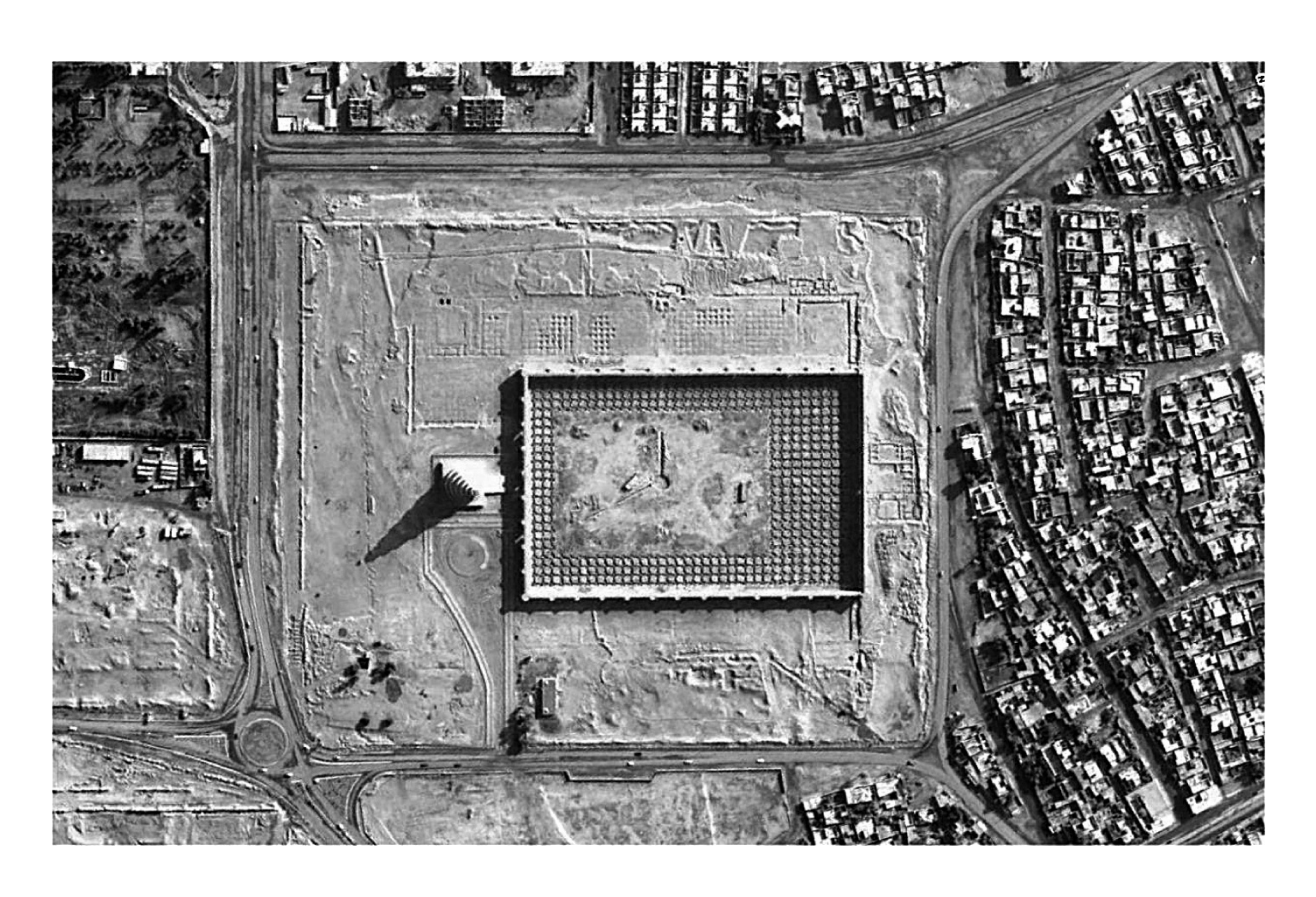
مسجد الأقمر بالقاهرة، أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله



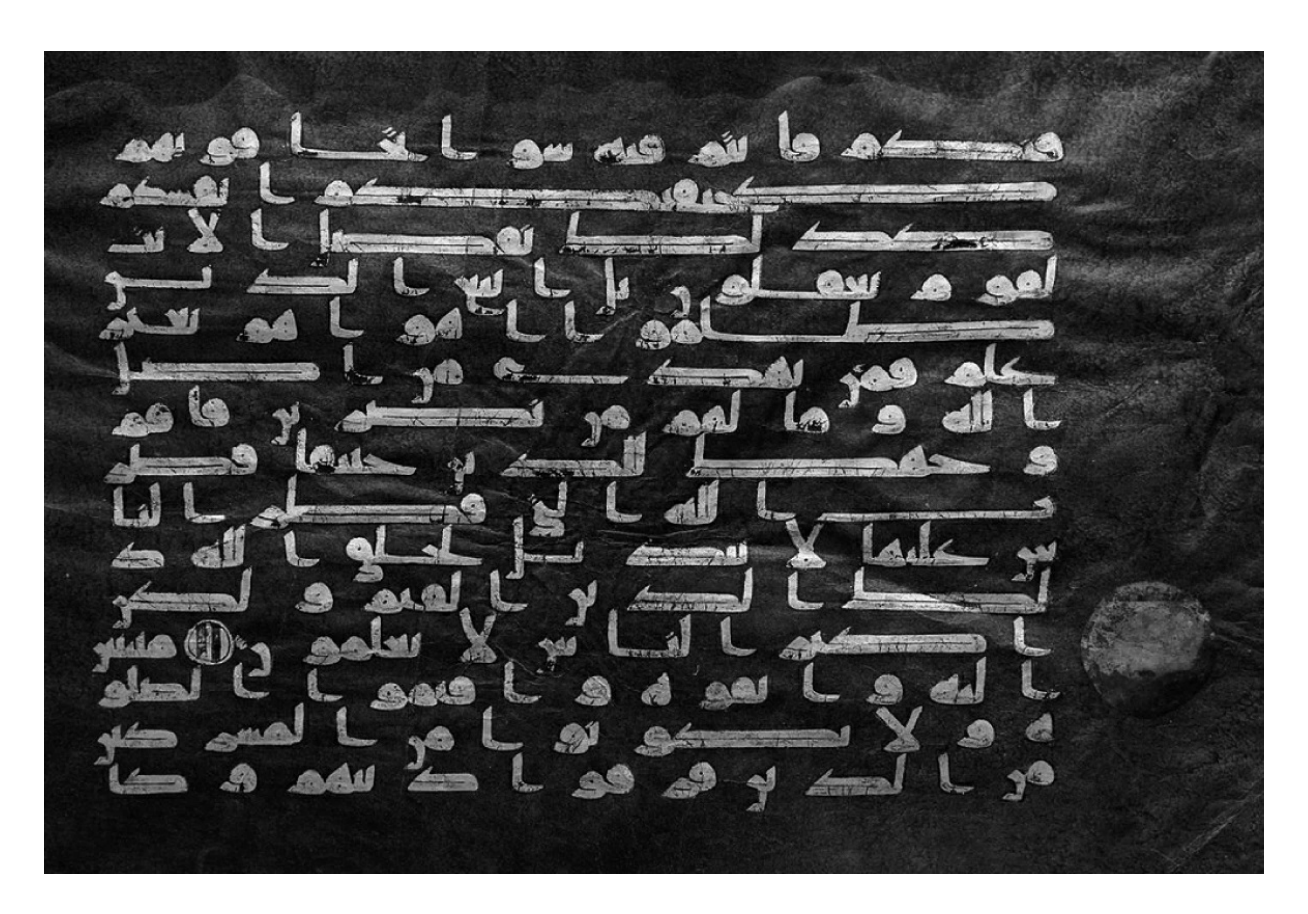
صحن مسجد أحمد ابن طولون بالقاهرة، في مطلع القرن العشرين



مسجد أحمد ابن طولون بالقاهرة



مسجد سامرّاء ذو *المئذنة الملويّة*، صورة جويّة عموديّة



نموذج من مصحف ثمين، كُتب بالقيروان في العصر العبّاسي

عصر النّهضة في الحضارة الإسلامية

الفصل الأول
الدّولـــة

Das Reich

في القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي) عادت الدّولة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربي؛ ونشأت فيها دولٌ صغيرة بعضها منفصل عن بعض، كما كان الحال دائماً في تاريخ الشّرق، إذا استثنينا فترات قصيرة. وقد تمَّ هذا الانقسام حوالي سنة 324 هـ - 935 م. لم تكن الدّويلات الصّغيرة سوى أجزاء من الإمبراطورية ذاتها، وشرع المؤرّخون يبيّنون التّقسيمات التي آلت إليها المملكة: صارت إيران الغربية في أيدي بني بُوَيْه Buwayyids، وبلاد الرّافدين في أيدي بني حمدان Hamadanids، ودانت مصر والشّام للإخشيديين Ikshidids، وأفريقيا للفاطميين، وإسپانيا للأمويين، وما وراء النّهر Transoxania وخُراسان للسّامانيين Samanids، وجنوب جزيرة العرب والبحرين للقرامطة Karmathians، وجُرجان للدّيالمة Dailamites، والبصرة وواسط للبريديين؛ ولم يبق تحت السّيطرة الفعلية للخليفة إلا بغداد وجزء من بابل[1] Babylonia.

ويشبِّه المسعودي في عام 324 هـ الوضع بحالة دول الطّوائف Diodochi States التي انبثقت عن إمبراطورية الإسكندر الأكبر[2]. على أن سيادة الخليفة في بغداد ظلّت قوية لم تضعف؛ والمسعودي نفسه يقول إن إمبراطورية أمير المؤمنين تمتدّ من فرغانة والحدود الشّرقية لخُراسان إلى طنجة غرباً، أي مسافة 3,700 فرسخ parasangs؛ ومن القفقاس Caucasus إلى جدَّة لمسافة 600 فرسخ[3].

كان أصحاب الأطراف أو ملوك الطّوائف (Ashab-al-Atraf or Muluk-al-Tawaif) يعترفون بالسّيادة العليا للخليفة، ويدعون له في المساجد، ويشترون منه ألقابهم، ويرسلون إليه الهدايا السّنوية. وبهذا لما تمّ لعضد الدّولة ابن بُوَيْه Buwayyid فتحُ كرمان في سنة 358 هـ / 968 م، أنفِذ إليه عهدُ الخليفة والخِلعة[4]. وهو يشبه في ذلك قيصراً من قياصرة الإمبراطورية الرُّومانية المقدّسة الذي يحكم الأمّة الألمانية دون أن يكون له عليها إلا سلطان قليل. ولكن فكرة الخلافة لم تَفْقِد، رغم هذا، ما كان لها من القوة والسُّلطان، حتى إن بني أميَّة في الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب «أمير المؤمنين»، بل قنعوا باسم «بنو الخُلفا» Banu-l-Khulafa. ثم جاء الفاطميون ليكونوا أول من يخرج على هذه القاعدة، فلم يكتفوا بكونهم أمراء ذوي سلطة دنيوية فقط، بل أرادوا أن يكونوا الخُلفاء الحقيقيين للنّبيّ، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخليفة بعد فتح القيروان في سنة 297 هـ - 909 م[5]. ومنذ ذلك الحين انتشر لقب «أمير المؤمنين»، حتى نرى الحاكم السُّنّي لسجلماسة، الواقعة جنوبي جبال الأطلس، يسمِّي نفسه بأمير المؤمنين في سنة 342 هـ - 953 م[6]. ولمّا علم عبد الرّحمن بالأندلس أنّ الفاطميين تلقَّبوا بأمير المؤمنين اتخذ لنفسه اللقب ذاته في سنة 350 هـ - 961 م[7]. لم يؤدِّ هذا الأمر إلى تقيد الإسلام بحدود سياسية معينة بل اتّسعت رقعته أكثر فأكثر وبرز للوجود ما سُمّي بالإمبراطورية الإسلامية - وهو اصطلاح لم يستعمله المسعودي. وبينما امتدّ الإسلام إلى مساحات واسعة، نرى أن الإمبراطورية الرُّومانية المقدَّسة ذات الهويّة الألمانية قد أظهرت العكس على مرّ العصور، أي تقلّصها إلى مملكة أصغر حجماً. يرى البِشاري المقدسي أن مملكة الإسلام تمتدّ من كاشْغِر في أقصى المشرق إلى السّوس الأقصى على المحيط الأطلسي، وأنها تحتاج إلى عشرة أشهر لاجتيازها[8]. أما عند ابن حَوْقَل فحدود مملكة الإسلام في الشّرق هي الهند والخليج العربي؛ وفي الغرب شعوب السّودان الذين يسكنون ضفاف المحيط الأطلسي؛ وفي الشّمال بلاد الرُّوم والأرمن والألان Alans والأران Arrans والخَزَر والرّوس والبُلغار والسّلا□ والتُّرك والصّين؛ وفي الجنوب بحر العرب[9]. وكان المسلم يرتحل داخل حدود هذه المملكة في ظلّ دينه

حيث يعبد النّاس الإله ذاته، ويصلون كما يصلّي، ويجد الشّريعة والعادات نفسها. وكان يوجد في هذه الدّولة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حقّ المواطنة، بحيث يكون آمناً على حريته الشّخصية، وبحيث لا يستطيع أحد أن يستعبده بأي شكل من الأشكال[10].

لقد طوّف الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون خوف من أحد، على عكس ما كان يحدث في ألمانيا في القرن الثامن عشر الميلادي.

وكان الخليفة الفاطمي على أشد ما يكون من المنافسة للخليفة العبّاسي، فكان يُدعى له في أفريقيا القصوى واليمن والشّام، وكان له دعاة منبثّون في كل وادٍ[11]؛ وتدلّنا هذه الحكاية الصّغيرة على ما يمكن للخليفة الفاطمي فعله. كان للسّلطان عضد الدّولة أسد فضّي مثبت على مؤخرة مركبه في بغداد، فسُرق. قُلبت الأرض رأساً على عقب بحثاً عن السّارق، لكن دون جدوى؛ وظن النّاس أن الفاطميين هم الذين أرسلوا من قام بارتكاب هذه السّرقة[12]. وفي عام 401 هـ، بلغ من جرأة أحد زعماء البدو، شيخ بني عقيل Agel حاكم الأنبار والكوفة، أنه أمر بالدُّعاء تحت أنظار العبّاسيين للخليفة المصري الحاكم حتى ثاب إلى رشده على يد بهاء الدّولة البُوَيْهي[13] Buwayyid Baha-ud-Dawlah. كان الخليفة في بغداد يجد بعض العزاء حين يجد أن السُّلطان محمود الغَزْنَوي، الذي أخذ نجمه في الصّعود، يُظهر له احتراماً عظيماً، ويطلعه على انتصاراته، ويخبره بالمصاعب التي يلاقيها. وفي سنة 403 هـ / 1012 م أرسل الحاكم الفاطمي إلى السُّلطان محمود كتاباً يدعوه فيه إلى مساندته، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة العبّاسي بعد أن مزّقه وبصق عليه[14]. كان النّزاع على أشد ما يكون فيما يتعلّق بمكّة والمدينة، لأن امتلاكهما أصبح له شأن أكبر من ذي قبل؛ لم توجد من قبل مناسبة للبحث في شارة الخليفة الحقيقي؛ أما الآن فقد ظهرت بسبب النّزاع حول هذا المنصب نظرية جديدة، هي أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان مَلِكاً للأراضي المكرّمة[15]. وهذه هي النّظرية التي يعتمد عليها الخُلفاء العثمانيون للمطالبة بحقهم في الخلافة. كان العلويون Alids هم الخصم الثّالث في النّزاع على الأراضي المكرّمة، وكان الحَسَنيّون Hasanids منهم يتمتعون دائماً في المدينة بمال وجاه عظيم. ودون أدنى معارضة من الطّرفين القويين، الخليفتين في بغداد ومصر، استطاع علويو المدينة الاستيلاء على مكّة في منتصف القرن الرّابع الهجري / العاشر الميلادي. ونرى أن الحال في أواخر القرن قد عاد في الدّيار المكرّمة إلى الوضع الذي نراه اليوم[16]. لقد أضحت مكّة، بدلاً من المدينة، مركز الثّقل السّياسي، وصار الأشراف سادة الحرمين[17].

في ذاك العصر نجد أن الإمبراطورية الإسلامية قد عادت من جديد شرقية تماماً من النّاحية الجغرافية. صار البحر الأبيض المتوسط بعد عصر شارلمان بحراً عربياً؛ واستطاع العبّاسيون منذ أوائل القرن الرّابع الهجري / العاشر الميلادي أن يحافظوا على حدودهم الغربية من اعتداءات البيزنطيين، وكانت أخبار الانتصارات تُعلن من منابر العاصمة. وفي عام 293 هـ - 904 م استولى قراصنة المسلمين على مدينة سالونيكي Thessalonica، ثاني مدن الدّولة البيزنطية أهمّية، وهي مدينة كبيرة محصَّنة بأسوار وحصون وأبراج، وأسروا من سكانها اثنين وعشرين ألفاً ساقوهم كالعبيد[18].

بدأ زحف الإغريق سنة 314 هـ - 924 م باستيلائهم على مدينة ملطية[19] Malatias. في عام 331 هـ - 941 م وبعد مباحثات مطولة سُلِّمت للمسيحيين أيقونة السّيد المسيح المحفوظة في الرُّها Edessa، وبناءً على نصيحة من الوزير المسنّ علي بن عيسى، مقابل إطلاق عدد من أسرى المسلمين. أحضرت الصّورة في موكب مهيب إلى آيا صوفيا[20] Hagia Sophia. ويرثي المسعودي «ضعف الإسلام في هذا الوقت وذهابه، وظهور الروم على المسلمين، وفساد الحج، وعدم الجهاد، وانقطاع السّبيل، وفساد الطريق، وانفراد كل رئيس وتغلبُّه على الصّقع الذي هو فيه، كفعل ملوك الطوائف بعد مضيّ الإسكندر... ولم يزل الإسلام مستظهراً إلى هذا الوقت، فتداعت دعائمه، ووهى أُسُّه، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة (942 م)، في خلافة أبي إسحاق إبراهيم المتَّقي لله أمير المؤمنين، والله المستعان على ما نحن فيه»[21].

أمّا الإمبراطورية البيزنطية فقد أسعدها الحظ في هذا القرن بثلاثة قوّاد ذوي كفاءة نادرة، تعاقبوا على عرشها، وهم نقفور فوكاس Νικηφόρος Β΄ Φωκᾶς، ويوحنّا تزيميسكيس Ιωάννης Α΄ Τζιμισκής، وباسيليوس[22] Βασίλειος Β΄ Βουλγαροκτόνος. وقد بقي آخرهم وأكفؤهم على رأسها خمساً وخمسين سنة. في سنة 350 هـ - 961 م فتح نقفور جزيرة إقريطش Κρήτη (كريت)، المركز الرّئيسي للقراصنة المسلمين، بعد حصار دام ثمانية أشهر. وبعد خمس سنين سقطت قبرص، ولم تعد للمسلمين السّيادة المطلقة التي كانت لهم في البحر الأبيض المتوسط. في سنة 351 هـ - 962 م سار نقفور إلى حلب، وفي سنة 354 هـ - 965 م سقطت مدينة المصيصة Mopsuesta، وأخيراً وقعت طرسوس، أقوى معاقل الإسلام، وقد بلغ الأمر بالنّاس إلى أكل الميْتة[23]. وفي سنة 357 هـ - 968 م فتح نقفور حماة وحمص واللاذقية Hamah, Emesa, Laodicea. وفي الشّتاء التّالي سقطت مدينة أنطاكية بعد أن كان يُخَيّل للنّاس أنها لن تُغْلَب[24]. ولما خُربت بلاد الرّافدين بشكل مخيف في سنة 362 هـ - 972 م ونُهبت نصيبين، ثار أهل بغداد بغضب يائس، فامتنعوا عن أداء الشّعائر الدّينية وحطّموا المنابر وهجموا على مقر الخليفة واقتربوا منه إلى درجة يمكن معها رميهم من نوافذ القصر[25]. وفي عام 363 هـ / 974 م فتحت بعلبك وبيروت، وأخذ الفاتح من بيروت تمثال المسيح وهو يقوم بالمعجزات، ووُضع في أحد قصور القسطنطينية. أما دمشق فقد نجت مقابل دفع ستة آلاف دينار سنوياً[26].

أما في الجنوب فقد حافظ المسلمون على الحدود النّوبية Nubia التي كانت للرّومان قديماً. ويحدثنا المسعودي وهو بمصر في عام 332 هـ - 943 م أن النّوبيين كانوا يسدّدون حتى ذلك اليوم للإمبراطورية جِزية يسمّونها baqt pactum؛ يدفعونها إلى نائب حاكم مصر في أسوان[27]. وفي عام 344 هـ - 955 م فقد النّوبيون مدينتهم الحدودية إبريم[28] Ibrim Primis. وفي أقصى الجنوب الغربي ضُمَّت إلى بلاد الإسلام مدينة أودغشت Andagust، وهي المدينة التّجارية الكبرى في غرب الصّحراء الإفريقية، وصارت من أكثر المدن تحضراً في وسط أفريقيا[29].

إن انحسار الإسلام في الغرب كان يقابله تقدّمه المستمرّ في الشّرق. ففي عام 313 هـ - 925 م فُتحت بلوخستان الوثنية[30]. وفي سنة 349 هـ - 960 م أسلم من الأتراك نحوٌ من عشرين ألف شخص[31]. وفي أواخر القرن الثّالث الهجري / التاسع الميلادي كانت أسبيجاب Asfigab آخر

مدينة للمسلمين ممّا يلي التّرك؛ وإن دخول خانات بُغْرا Buğra Hans في سلك أمراء المسلمين جعل حدود الدّولة الإسلامية تمتدّ إلى قاعدة Tarin[32].

يرى البِشاري المقدسي أن حدود مملكة الإسلام تصل إلى كاشْغِر[33]. وفي عام 397 هـ - 1006 م كانت خُتَنْ Khotan مسلمة. في الوقت ذاته أخضع محمود الغَزْنَوي مناطق واسعة من بلاد الهند للإسلام. «كانت علامة التّحالف عند ملوك الهند قطع أصابعهم». وكان عند السُّلطان محمود من هذه الأصابع الكثير.

لا نريد هنا البحث فيما إذا كان انقسام دول بني العبّاس من دلائل التّدهور، إذا نظرنا في هذه المسألة بمنظار هذا العصر الذي نعيش فيه والذي يحكم في مثل هذه الأحوال على أساس الكمّ وعلى أساس ما يسمّونه بالوحدة؛ لكن يمكننا القول إن الإمبراطوريات العالمية الكبرى ترتكز دائماً إما على شخص زعيم عبقري وإما بشكل خاص على وجود طائفة تتصف بالقوة والوحشية، والحالتان معاً غير طبيعيتين.

لا نجد في مصر في عهد الإخشيديين والكافوريين والفاطميين ما يدلّ على تأخرها؛ وكذلك يشهد الرّحالون بمناقب السّامانيين في الشّرق[34]. أما بغداد فهي التي قد تنكرّت لها الأيام، وفي عام 315 - 927 م سقطت بأيدي الهمجيين الذين تفاقم أمرهم مع الضّعف الذي أصاب الحكومة[35]، وكانت أسوأ أيامها السّنوات الواقعة بين مقتل بجكم Bagkams ودخول بني بُوَيْه Buwayyids، أي ما بين عامي 329 هـ و334 هـ = 940 - 945 م.

وكإنذار بسقوط الخلافة، تحطّمت قبّة قصر الخليفة المنصور في سنة 329 هـ - 940 م، إثر عاصفة شديدة. وكانت تلك القبّة تمثل مجد بغداد وعظمتها[36].

وفي سنة 331 هـ - 942 م استطاع ابن حمدي، وهو زعيم جماعة من اللصوص، أن ينهب أموال المدينة تحت حماية ابن شيرزاد، الذي كان أمين سرّ للقائد الأعلى في الحكومة وتمكن من الاستيلاء على الحكم. وقد توجب على ابن حمدي دفع مبلغ شهري مقداره 15,000 ألف دينار ممّا يسرقه هو وأصحابه، يسدّده لابن شيرزاد ويأخذ البراءات والوثائق الرّسمية على ذلك.

وبهذا حمى المواطنون أنفسهم بإطلاق الأبواق وامتنع عليهم النّوم بأمان[37]. هجر السّكان منازلهم، وصاروا يعطون من يسكن الدّار أجرة للحفاظ عليها. أغلق العديد من الحمّامات والمساجد[38]. أضف إلى هذا ما كان بين السُّنّة والإماميّة من نزاع دائم، فكانوا يُحرقون بعضهم عمداً. وفي سنة 362 هـ - 972 م حدث حريق هائل نتج عنه تدمير 300 دكّان و33 مسجداً وإزهاق أرواح 17,000 شخص. يُقال إنه كان بفعل الحكومة لإنهاء الصّراع بين النّاس. بدأ النّاس ينتقلون إلى الجانب الشّرقي من المدينة، ولايزال هذا الجانب إلى اليوم أكثر سكاناً[39]. في العام التّالي تسلم ابن شيرزاد منصب القائد الأعلى بعد موت صاحبه، وفرض ضرائب باهظة أدَّت إلى مغادرة كثير من التّجار المدينة، ولم يعد الأمن مستتباً فدخل بعض اللصوص دار أحد القُضاة، الذي ما كان منه إلا أن تسلّق حائطاً لينجو بنفسه، فوقع ومات[40].

يقول البِشاري المقدسي عن بغداد إنها «كانت أحسن شيء للمسلمين، وأجل بلد، ووفوق ما وصفنا، حتى ضعف أمر الخلافة، فاختلّت وخفَّ أهلها؛ فأما المدينة فخراب، والجامع فيها يُعمر في الجمع، ثم يتخلَّلها بعد ذلك الخراب... وهي في كل يوم إلى وراء وأخشى أنها تعود كسامُرّا Samarra، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان»[41].

وأضحى الجزء من المدينة الذي كان سابقاً في وقت الظّهيرة مزدحماً بالتّجار والزّبائن؛ وبالتحديد الزّاوية التي يلتقي فيها شارع الحذّائين بشارع تجار القطن، أضحى في سنة 393 هـ - 1000 م مرتعاً للعصافير والحَمام[42]. وبهذا صارت عاصمة مصر أكبر وأكثف سكاناً من بغداد، وبقيت منذ ذلك العهد أعظم مدن الإسلام.

الفصل الثّاني
الخُلفاء

Die Chalifen

في عام 295 هـ - 907 م كان الخليفة على فراش الموت وكان الوزير راكباً من القصر إلى داره ذات يوم ومعه، كالعادة، أحد مستشاريه الأربعة الرّئيسيين. ولمّا شاوره فيمن يصلح لتولّي الخلافة بعد وفاة الخليفة الحالي، صرَّح الوزير بأنه يميل إلى ابنه الخليفة، المُعتزّ؛ لكن المستشار أجابه - وهو آنذاك ابن الفُرات الذي صار وزيراً فيما بعد - أنه يجب أن يولّى في هذا الأمر من عرف دار هذا وأرض هذا وبُستان هذا، ومن هو لبق يهتم بأمور النّاس، ومن اختبر الحياة وحنَّكته التّجارب. أشار بعدها بتقليد الأمير المُقتدِر فأخذ الوزير بمشورته وولّاه الخلافة[43] – وهو صبيّ في الثّالثة عشرة من عمره لا يدري من أمور الحياة سوى الاستمتاع بالعُطل المدرسية[44].

وبما أن المُقتدِر كان قاصراً، فقد كان انتخابه للخلافة انتخاباً غير شرعيّ، وقد فقد أحد القُضاة حياته لأنه أطاع ضميره حين طلبوا منه المبايعة للمقتدر، فرفض[45]. لكن المتآمرين أخطأوا التّقدير، فقد استولت أم المُقتدِر، وهي أمَة روميّة، على زمام الأمور هي وأقرباؤها بيد من حديد، وصارت تُولّي

وتعزِل، ومنعت نهب خزينة الدّولة. وقد برزت قوة شخصيتها من خلال طريقتها في العناية بما يدرسه أحفادها. بينما كان الرّاضي، الذي صار خليفة فيما بعد، يقرأ في كتبه، جاء خدم من خصيان[46] جدّته ومعهم قطعة قماش بيضاء حملوا بداخلها الكتب ومضوا؛ وبقي الرّاضي مغتاظاً. وبعد ساعتين ردّوا الكتب بحالها الذي كانت عليه، فقال لهم الرّاضي: «قولوا لمن أمركم بهذا: قد رأيتُ هذه الكتب، وإنّما هي حديثٌ وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسُّنّور والفأر». فخشي الصُّولي Suli، صديق الأمير وراوي الحادثة، أن يذهب الخدم ويخبروا بأمر مَن كان عنده فيلحقه من ذلك مكروه؛ فلحق بهم وطلب منهم ألا يعيدوا ما قاله الأمير، فقالوا: «والله لم نحفظه، فكيف نعيده؟»[47]. خلع الثّوّار المُقتدِر في أثناء حُكمه مرتين، وقد مكث على عرش الخلافة خمسة وعشرين عاماً، تحت جناح أمّه؛ ولم يخرج في جيش ليقاتل إلا مرّة واحدة حيث أرغمه قوّاده، رغماً عنه وعن والدته، على الخروج معهم في حملة قُتل أثناءها. قُطع رأسه في المعركة ومُزقت ثيابه بما فيها بُردة النّبيّ التي كان يرتديها، وتُرك عاري الجسد إلى أن مرّ به جندي أشفق عليه، فستر عورته بحشيش. كان المُقتدِر رَبع القامة، إلى القصر أقرب، دُرّي اللّون، صغير العينين أحور، حسن الوجه واللّحية أصهبهما[48]. كل ما كان يقال عنه يدلّ على لطفه وحبه للخير وحسن طويّته؛ لمّا نقل إليه الوزير خبر إنفاق 300 دينار شهرياً من أجل المسك الذي يوضع في طعامه، ضحك الخليفة وطالب بتخفيض النّفقات، فلعلّ هذه الدّنانير تُصرف في أقوات ونفقات قوم هم بحاجة إليها.

لكن المُقتدِر كان مولعاً بشرب الخمر[49].

انتخب النّاس أخاه القادر خليفة بعده، إذ هو ليس بقاصر ولا أمَّ له تضعه تحت إمرتها[50]. كان أخوه ممتلئ الجسم أحمر البشرة أيضاً. له عينان واسعتان ولحية كثيفة، وكان بطيء الكلام[51]. وفي سنة 317 هـ - 929 م قامت ثورة لخلع المُقتدِر وتنصيب أخيه مكانه فأخمدت، وأخذ القادر يصيح قائلاً: «نفسي نفسي، الله الله»، يرجو أخاه أن يُبقي على حياته[52]. قيل إن القادر كان مدمناً على الشّراب بخيلاً منافقاً محبًّا لسفك الدّماء[53]. تمكن من القضاء على مؤنس القائد الأعلى كما أنه اقتصد كثيراً في النّفقات[54]. ولما لم يقبل بالتّخلّي عن الحكم، خُلع بالقوة وسُمِلت عيناه، ولم يلقَ هذا المصير من قبله أحد من الخُلفاء وأمراء الإسلام[55]. وسَمل الأعين هذا عادة أخذها المسلمون عن البيزنطيين. عاش القادر بعد هذه الحادثة سبعة عشر عاماً كأمير؛ وقد قيل إنه بلغ من الفقر درجة لم يعد يملك معها سوى رداء قطني وقبقاب من الخشب[56]. كان يخرج بردائه المتواضع وقد غطّى وجهه، لكن أحد الهاشميين عرفه يوماً ما فأعطاه ألف درهم واصطحبه إلى داره[57].

ولمّا عُيِّنَ الرّاضي (322 - 329 هـ = 933 - 940 م) ابن أخي القادر خليفة كان له من العمر خمسة وعشرون عاماً. وكان أسمر، أعين، دون الأقنى، مسنون الوجه، خفيف العارضين واللّحية، دحداحاً نحيفاً[58]. كان محبا للشّعر والغناء، وقد ترك لنا مجموعة قصائد من تأليفه. كان مولعاً أيضاً بجمع أواني البلّور حتى إنه أنفق عليها من المال ما لم ينفقه على أي شيء آخر[59]. أُولع كذلك بهدم المباني القديمة وبناء اخرى جديدة مكانها. وكان شغفه الرّئيسي يتمثل في إنشاء الحدائق[60]. كان سخياً بالفطرة لكن مصادره المحدودة حالت دون تماديه بالعطاء. وجده أتباعه يوماً جالساً على

حزمة من الحبال يراقب أعمال البناء، فأمرهم بالجلوس على لفائف أخرى من الحبال موجودة إلى جانبه؛ ولما فعلوا أمر أن توزن كل حزمة ويُدفع إلى مَن جلس عليها وزنها بالقطع الذهبية أو الفضية[61].

يُروى أن أحد العلماء تحدّث أمامه عن جارية جميلة رآها عند تاجر الرّقيق، ولما عاد إلى منزله وجدها هناك؛ فالخليفة كان قد اشتراها له[62]. لم يجد أصحاب الرّاضي فيه سوى عيب واحد هو أنه ينصاع للملذات، وكان لا يأبه بتوصيات أطبائه، فيسرف في طعامه[63]. توفي وهو في الثّانية والثّلاثين من العمر بعد أن أعدّ كل شيء لتغسيله وتكفينه. لقد وضع كل ما يلزم في صندوق وكتب رقعة فيها: هذه جهاز الآخرة[64].

لكن عهده لم يَسْلم من سفك الدّماء؛ فقد احتال على الوزير ابن مُقلة حتى وقع في قبضته؛ وقبض على جماعة من أهله وأقاربه ممّن سعى في تقليد الأمر لنفسه ونيل مبايعة النّاس، فاحتجزهم ثم قتلهم[65].

ارتقى عرش الخلافة بعده أخوه المتّقي وهو في السّادسة والعشرين من العمر. وكان رَبْعَةً دُرِّيّ اللون، حسن الوجه، أبيض، أشهل، مستدير العينين، مقرون الحاجبين، قصير الأنف، في شعره شقرةٌ وجُعودة[66]. لم يشرب الخمر قط، وكان كثير الصّيام، ولم يتخذ مجالس لهو أبداً. كان جليسه الوحيد هو القرآن[67]؛ لكن سوء الحظ نال نصيبه منه. يقال إنه في ليلة ختانه انهار أحد الحمّامات وقتل كل الجواري اللاتي كن يتهيئن للمناسبة. مات كل خدامه فجأة وصار الخدم لا يقبلون الالتحاق بخدمته بعدها. وفي أحد الاحتفالات على ضفاف دجلة احتشد النّاس ليحيّوه فانكسرت المنصة، وبعدها غرق عدد من الرّجال والنّساء إثر فيضان مياه النّهر فجأة[68]. وظلّ سوء الطّالع يلاحقه بعد ارتقائه العرش، فهو أول خليفة ترك «مدينة السّلام»[69] خوفاً وطلباً للنّجاة؛ لقد لحق بالحمدانيين المهزومين، وظل يتنقل معهم في أنحاء بلاد الرّافدين. رفض حماية الإخشيديين المصريين، ووثق بالقائد التّركي الذي غدر به مقابل ستمئة ألف درهم أخذها من أحد المطالبين بالعرش، ثم سُملت عيناه بيد عبد هندي[70]. عاش المتقي بعد هذه المأساة أربعاً وعشرين سنة ومات بداره[71].

ثم خلفه المستكفي الذي اعتلى العرش بمؤامرة شائنة، وهو ابن جارية روميّة[72]. كان أبيض البشرة طويل الأنف واسع العينين صغير الفم وافر اللحية، وكان بديناً أقرب إلى الطّول. كان يميل إلى النّساء الزّنجيات[73]. لم تكن السّعادة من نصيبه وهو يعيش بين امرأة جشعة رفعته بدسائسها إلى منصب الخلافة، وبين التّرك الذين يحكمون البلدة فعلياً. وأخيراً جاء بنو بُوَيْه، فكان أول ما فرضوه عليه هو تعيين وزير له كان قد أقسم سابقاً على عدم استخدامه. قال ذكاء Duka مولى الراضي: «وكنت حاضراً فأجابه المستكفي على كُره منه، ورأيت عينيه وقد تغرغرتا بالدّموع، لعظم ما ورد عليه من سؤال ابن بُوَيْه»[74]. ولما جاؤوا إليه ليخلعوه رضخ للأمر، لكنه اشترط عليهم ألا يبتروا أو يشوّهوا أياً من أعضائه[75]. لكن خليفته، أخا سلفه المتقي، أمر أن تُسْمل عيناه انتقاماً لأخيه. لم يُقْدِم على تنفيذ العقوبة أحد إلا خادمٌ كان المستكفي قد جلده أثناء خلافته[76]. أما الخُلفاء اللاحقون فلم يكن لهم عمل بالفعل في إدارة الدّولة، فطالت بذلك فترة حكمهم. وبعد أن أصيب المطيع بسكتة

دماغية تنازل عن العرش لابنه الطائع الذي خُلع بعد ثمانية عشر عاماً من حكمه. وقد أمضى بقية حياته سجيناً لدى خليفته؛ ولا نعرف الكثير عمن تلاه من الخُلفاء. كانت أم المطيع، وهي جارية سلا□ية، أكثر شهرة من ابنها. كانت تعرف بالصّفَّارة؛ أي يمكنها بوضع ورقة من السَّوسَن على فمها إصدار موسيقى جميلة وبمهارة فائقة. وكانت تستطيع تقليد جميع أنواع الطّيور المغرّدة[77].

وأمّا الطّائع فكانت عليه ملامحُ الجنس الشمالي؛ فقد كان أبيض أشقر، حسن الجسم شديد القوّة؛ ويُروى أنه كان في دار الخلافة أَيْلٌ عظيم يقتِل بقرنه الدّوابّ، ولا يتمكّن أحد من مقاومته؛ فاحتال الطّائع حتى أمسك قرنيْه بيديه، فلم يقدر أن يخلِّصُهما منه؛ واستدعى النجار، فركَّب المنشارَ عليهما، ولما بقيا على يسير قطعهما بيديه[78].

كان القادر تقيًّا لطيف المعشر، وكان يوزّع ثلثي طعامه على المساجد المختلفة[79]. كان يصبغ لحيته الطّويلة ويلبس ثياباً بسيطة، ويقصد المزارات في بغداد مثل ضريحي معروف الكرخي وابن بشّار Ibn Bessar؛ وكان مولعاً بالمغامرات. وقد ألّف كتاباً في أصول التّوحيد على مذهب أهل السُّنّة؛ وكان هذا الكتاب يُقرأ كلَّ جمعة في حلقات العلم بجامع المهدي[80].

مقابل هذه الظّلال السّريعة نرى تولّي الخلافة في أفريقيا الذي يخالف الحال هنا تماماً. كانت الخلافة منذ البداية تنتقل من الوالد إلى الولد، وكان في ذلك نجاتهم من النّزاعات الملطخة بالدّماء حول عرش الخلافة؛ ويضاف إلى هذا هدوءُ السّياسة الحازمة في عهدهم. لما كتب والي الشّام مباشرةً إلى المُعِزّ (341 - 365 هـ = 952 - 975 م) وتخطّى من دونه، منع الخليفة ذلك وأعاد الكتاب إلى الوالي من غير أن يفضّ أختامه.

كان العزيز (365 - 386 هـ = 975 - 996 م) من أبرز هؤلاء الخُلفاء؛ وكان أسمر طويلاً، أحمر الشّعر أزرق العينين كبيرهما، وكان صيَّادا شجاعاً وخبيراً بالخيول والأحجار الكريمة، وكان المثل الأول للفروسية العربية التي تركت أثراً عميقاً في الغرب. لقد هزم القائد التُّركي وألقى القبض عليه، هذا القائد الذي كان قد استولى على عسقلان وجعل الجيش المصري يمرّ تحت سيفه المجرّد، لكنه لم يعمد إلى الانتقام منه. بل على العكس أمر بنصب خيمته الخاصّة وزوّده بالخيول ولبّى كل احتياجاته وأعاد إليه خاتمه كما سمح له بمرافقة أصدقائه بين أسرى الحرب. وفي اللقاء الأول بينهما أحضر له قدح شراب لكن التُّركي تردّد خوفاً من أن يكون في القدح سمٌ، فأخذ الخليفة القدح وشرب منه[81].

وأخيراً تلوح في الأفق شخصية الحاكم Hakim الفريدة! كان أحياناً يجلس نهاراً في ضوء الشّموع وأحياناً يمضي الليل في الظّلام[82]. وبما أنه يحبّ التّجول، مع بعض أصحابه، في شوارع القاهرة ليلاً، فقد كان التّجار يُبقون دكاكينهم مفتوحة ومُضاءة. وبهذا صارت الأسواق عامرة في الليل كما في النّهار[83]. وقد أمر بقتل كل الكلاب عدا تلك المستخدمة للصّيد، لأنها كانت تزعجه بنباحها اثناء جولاته الليلية[84]. ولما اعتلّ ولم يعد قادراً على الرّكوب اتخذ مِحفّةً يستلقي عليها ويحملها أربعة من رجاله، ثم يتجول بها ليل نهار[85]. في تلك الأحيان كان يتلقى المظالم شرط ألا يُكتب فيها سوى سطر واحد، ويأمر أصحاب الشّكاوى أن يأتوا له من جهة اليمين، ثم يأمرهم بالمثول بين يديه في مكان محدّد في اليوم التّالي. كان يضع أوامره وعطاياه في كُمِّه، ويسلمها لأصحابها بنفسه[86]. لم

يضع حدوداً قط على النّفقات وكان معطاءً لطيفاً مع رعيته، وقد ساد العدل والقانون في أيامه. أما أعوانه فلم يكن أحد منهم آمناً على نفسه إذ كان يفاجئ أعز أصحابه مفاجأة رهيبة. كان يحب خادمه الأسود عين Ain، ومع ذلك قطع يده اليمنى. لكن ذلك لم يمنعه من إسباغ النّعم عليه، بل منحه أفضل الألقاب وعيّنه في أكثر الوظائف أهمية. وفي أحد الأيام عمد إلى قطع لسانه، ليعقب ذلك بإجزال العطايا له. وسنذكر لاحقاً معاملته الغريبة لليهود والنّصارى.

في آخر أيامه أخذ يتجوّل في الصّحراء، وأطال شعره حتى بلغ كتفيه؛ ولم يعد يقلّم أظافره أو يغيّر عباءته الصُّوفية السّوداء المليئة بالغبار والعرق.

شبّهه العالم المسيحي يحيى بنبوخذ نصر الذي صار كالوحوش البرّية وعاش بأظافر تشبه مخالب النّسر وشعر يشبه لبدة الأسد، لأنه قام بتدمير معبد الرّب. لكن يحيى كان متفهِّما حين شخّص مرض الخليفة بأنه نوع من السّوداوية، وأنه بحاجة إلى حمَّام من زيت البنفسج ليعيد النّشاط إلى دماغه الذّاوي بفضل رائحته العطرة الرّطبة.

الفصل الثّالث
أمراء الدّولة

Die Reichsfürsten

كان لقبهم «أمير» Amir وكذلك أبناء بيت الخلافة إلا كافور الإخشيدي بمصر، فقد اتخذ له لقب «أستاذ»[87] Ustad. أما لقب «أمير الأمراء» في بلاط الخلافة فلا شأن له في الأصل بالخلافة؛ فهو لقب القائد الأعلى، وقد كان القائد مؤنس يحمل لقب أمير الأمراء، وإن لم يكن يعدّ نفسه أميراً. لم يكن لأمراء الإمبراطورية الإسلامية علامة تميّزهم من الجهة الرّسمية؛ وكان يُدعى لهم في المسجد مع الدّعاء للحاكم، وذلك بعد الدّعاء للخليفة. أمّا في العراق، حيث كان أمير المؤمنين يدير الأمور بنفسه، فكان من غير اللائق أن يُذكر أحدٌ مع الخليفة في الخُطبة. في عام 323 هـ - 934 م استولى رئيس الحجَّاب محمّد بن ياقوت على السّلطة وأرغم الوزراء على الإدلاء بتقاريرهم إليه، وألا يفعلوا أمراً إلا بعد الحصول على توقيعه. وكانت النّتيجة أن تراجع منصب الوزير ولم تعد له

سلطة فعلية[88]؛ ولكن لما دعا أئمة بغداد له أقالهم الخليفة من مناصبهم[89]. وفي العام التّالي رضي الخليفة بالدّعاء علناً لابن رائق بعده في الخُطبة، ومعنى هذا أنه اعترف بأمير دونه في العراق[90].

ومن بين هؤلاء الأمراء كان الحمدانيون يمثلون أخشن أصناف البدو (Lane Poole, Mohammadan Dynasties ص 111-13). في اجتماع في الموصل نزل الخليفة الرّاضي في أحد المنازل وكذلك فعل القائد ابن رائق؛ أمّا الحمداني فقد نزل في خيمة أقامها بالقرب من الدّير. قال ابن رائق للحمداني: «وهل أنتم إلا أعراب؟» (كتاب العيون، ج 4 ص 182 ب). سنتحدث لاحقاً عن سوء إدارة الحمدانيين وميلهم إلى النّهب والسّرقة، وجورهم على الزّراع وتخريبهم للأشجار، ونقضهم الدّائم للعهود والمواثيق. وقد غدر زعيمهم بالوزير فقتله وهو يرافقه يوماً في نزهة ودِّية (كتاب العيون، ج 4 ص 60 أ)، وكذلك فعل ناصر الدّولة بابن رائق، فقتله وهو ضيفٌ عنده في خيمته قتل غدر وخيانة[91]. كان النّزاع وعدم رعاية حقوق الطّاعة سائدين في بيت بني حمدان، ليس فقط في فرعهم ببلاد الرّافدين بل في كل مكان – ويظهر ذلك من خلال مقتل أبي فراس على يد ابن أخيه سيف الدّولة[92]. لم يُظهر أحدٌ من الحمدانيين شيئاً من الفروسية والشّجاعة والإنجازات المهمّة إلا سيف الدّولة. لكن يذكر المؤرّخون أنه كان يقع دائماً في أخطاء تكتيكية، وذلك بسبب إعجابه الشّديد بنفسه وعدم ميله لاستشارة أحد، لئلا يُقال إنه نجح بفضل غيره (أبو الفداء، ص 349). وعلى الرّغم من أعماله الرّائعة فكثيراً ما ألحق به الهزيمة القائدان التُّركيان توزون Tuzun وبجكم Begkem.

وكذلك للبريديين Baridis نصيب في الإمبراطورية الإسلامية الأولى[93]، فقد كانوا حكَّاما للعراق زمناً طويلاً. كانوا كُتَّاباً secretaries أكثر من كونهم جنوداً (مسكويه، ج 6 ص 154)، ومع هذا فقد خاضوا حروباً كثيرة بشجاعة فائقة؛ ولكنهم لم يخضعوا للحمدانيين طمعاً وقصر نظر. وقد بدأ عهد الفساد الحقيقي ببغداد عام 330 - 941 م، عندما استولى أحد البريديين على بغداد وفرَّ الخليفة إلى الموصل. في شهر مارس من ذاك العام رفع قيمة الضّرائب المفروضة على الأراضي واضطهد مُلّاكها وفرض ضرائب باهظة على المسيحيين واليهود، كما فرض ضرائب إضافية ضخمة على القمح وأخذ جزءاً من أملاك التّجار وانتزع قروضاً إجبارية من السّكان[94]. وقبل عهد مُعزّ الدّولة فرّ آخر البريديين إلى القرامطة في جنوب جزيرة العرب، لكنه بعد ذلك عقد صلحاً مع الخليفة وعاد إلى بغداد وأصبح أحد أفراد مجلس النّدماء Nudama الخاص بمُعزّ الدّولة[95].

ولو أننا قارنا بين هؤلاء الأمراء الذين يقترن حكمهم بالنّهب وبين القواد الذين جاؤوا من الشّمال وأقاموا مُلكهم في داخل بلاد الإسلام، لوجدنا أن هؤلاء الأخيرين أحسن سيرة في الحكم وأشبه بآباء لرعيتهم. يدّعي السّامانيون انتسابهم إلى الفرس ويعودون بأصولهم إلى السّاسانيين. وقد بلغوا أوج عزتهم في أواخر القرن الثّالث الهجري حيث كانت بلاد ما وراء النّهر Transoxania والجبل Media وإيران كلها إلى كرمان تحت سلطانهم. ولكن كان في داخل حدود دولتهم الكبيرة ولاياتٌ تكاد تكون مستقلّة، مثل سِجِسْتان (أفغانستان) التي يحكمها الصَّفّاريون Saffarids؛ وهؤلاء وإن كانوا يدعون في خُطبهم لحاكم بُخارى فلم يكن له عليهم إلا أداء الجِزية. ولقد اضطروا نظراً لسعة أرجاء دولتهم إلى إنشاء حكم بالنّيابة، فكانوا يقيمون في بُخارى بينما يقيم صاحب الجيش في نيسابور التي جعلها الطّاهريون Tahirids عاصمة خُراسان[96]. أما عن أسلوبهم في الحياة

فالبِشاري المقدسي يمتدح سيرتهم ـ ربّما لأسباب شخصية ـ ويقول إنهم من أحسن الملوك إجلالاً للعلم والعلماء؛ فقد كانوا مثلاً لا يكلِّفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم، ويقول المقدسي لو أن شجرة وقفت في طريقهم لذوت[97]. حتى عندما سار عضد الدّولة بجيشه، الذي بقوته فتح البلاد، إلى السّامانيين أهلكه الله ومزّق جيشه، ومكّن أعداءه من ممالكه[98]. لكن الدّيلم Dailamites أخذوا من السّامانيين إيران كلها بعد صراع مرير. وكان سَبُكتكِين Sebük Tegin، قائد معزّ الدّولة ببغداد، يضطر إلى الإسراع للرّي في كل عام تقريباً لمساندة أخي معز الدّولة في حربه ضد السّامانيين هناك.

لم يمضِ عشرون عاماً على الإطراء السّخي للمقدسي على السّامانيين حتى سقطت مملكتهم بأيدي التّرك من الشّمال والجنوب، وقُتل آخر ملوكهم وهو هارب. لكن ملوك السّامانيين كانوا دائماً يُظهرون ولاءهم للخليفة في بغداد ولم يكفّوا أبداً عن إرسال الهدايا إليه، بل إننا نجد أحمد بن إسماعيل يرسل في سنة 301 هـ - 913 م إلى الخليفة ببغداد طلباً بتولي منصب صاحب الشّرطة بعد وفاة من كان يشغله من بني طاهر؛ وكذلك ارسل نصر السّاماني للخليفة رأس أحد الثّوار، كونه أحد الحكام الخاضعين للخلافة[99].

كان المستقبل مخبئاً للشّعوب التي تسكن سلسلة الجبال الواقعة في شمال فارس. كان القائد مرداويج الدّيلمي Dailamite Merdawigh أهم من استرعى نظر المؤرّخين من بين قوادهم الذين حكموا إيران الغربية بعد موت يوسف بن أبي السّاج Yusuf ibn Abissagh. لم يكن الإسلام عميقاً في قلب هذا القائد، فقد فعل بأبناء المسلمين وبناتهم فعل الكفار وسبى منهم الكثير، حتى قيل إنه استرق من الأطفال والنّساء بين 50,000 و100,000. كما اتّبع فعل الكفار فأعمل السّيف في أهل هَمَذان[100] Hamadan؛ حتى إن أهل فارس تجمعوا في سنة 320 هـ 932 م أمام دار الخليفة ببغداد واعترضوا على فرض الحكومة للضّرائب في حين أنها لا تقف إلى جانب المسلمين لتحميهم. وقد التقى بعض الرّجال المتديّنين في دينوَر Dinawar بأحد قواد مرداويج، فحمل زعيمهم بيده مصحفاً مفتوحاً وطلب من القائد أن يتقي الله ويترك المسلمين وشأنهم، إذ لا ذنب لهم ولا جناية يستحقون بها ما نزل بهم. لكن يُقال إن القائد ضربه بالمصحف على وجهه، ثم ضرب عنقه بالسّيف[101].

كان مرداويج رجلاً متفائلاً واسع الآمال والمخطّطات؛ كان يأمل باستعادة إمبراطورية العجم والقضاء على إمبراطورية العرب[102]. ولقد اتخذ تاجاً جُمعت فيه أنواع الأحجار الكريمة وفقاً للنّمط العجمي، وضُربت له منصّة من الذّهب وُضع العرش في وسطها، وجعل أمامه منصّة من الفضّة مغطّاة بالبسط، ومقابلها مقاعد مذهَّبة ليجلس عليها وجهاء المملكة. كان يعتزم الاستيلاء على بغداد وإعادة بناء قصر كسرى في طيسفون Ctesiphon ويحكم العالم بأسره من هناك[103]. كان جنوده يخشون سطوته وغدره. ولمّا أقيمت الاحتفالات الشّتوية المهمّة في أصفهان وجدها سخيفة حقيرة في عينه، لكن الوزير استطاع بعد جهد كبير إقناعه بالظّهور أمام النّاس، وقد رأى الجميع علامات الامتعاض وعدم الرّضى على وجهه. لقد التفّ بعباءته وجلس في الخيمة بعد أن أدار ظهره إلى المدخل ولم ينبس ببنت شفة[104]. وكان له، إلى جانب خمسين ألفاً من الدّيلم، أربعة آلاف من الأتراك اتخذهم عبيداً له[105] وفضلهم بقلّة حكمته على قومه، ممّا جعلهم يحقدون عليه حقداً

شديداً[106]. وعلى الرّغم من أنه يُؤثر حراسه الأتراك فقد صادف أن استيقظ من نومه يوماً على أصوات تجهيزهم دوابّهم، فأمر أن يسوق الغلمان الأتراك الدّوابّ من ألجمتها وأن يحملوا السّروج والعدّة على ظهورهم. وكطريقة مباشرة للانتقام بسبب هذه المعاملة السّيئة انقضوا عليه وهو في الحمّام وقتلوه[107]. استطاع أخوه وُشْمگير Wašmigir وابن أخيه قابوس Kawus أن يحتفظا بإمارة صغيرة في أقصى شمال إيران. أما ميراثه فقد آل إلى بني بُوَيْه، وهم قواد مرتزقة من جبال فارس.

كان بنو بُوَيْه بعيدين عن الثّقافة العربية، حتى إن مُعزّ الدّولة احتاج لما حكم بغداد إلى من يترجم له الكلام أثناء مجلس عربي[108]. وقد ارتفعت مكانة البُوَيْهيين بالدّهاء والمكر والمهارة العسكرية؛ وكانوا لا يتردّدون في ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول؛ ولما هُزم ماكان Makan، استأذنوا بالرّحيل متعلّلين بأنهم لا يريدون إرهاقه بدفع أجورهم والاعتناء بهم، وأنهم سيعودون عندما تتحسّن الأحوال[109].

كان من أبرز صفاتهم هي أنهم كانوا قادرين دائماً على جمع المال والمحافظة عليه. يُروى أن مؤسّس دولة البُوَيْهيين كان بحاجة ماسّة للمال، وفجأة خرجت أفعى من حفرة اتضح أن فيها كنزاً دفيناً[110]. عمد البُوَيْهيون إلى رشوة وزير مرداويج، وتمكّنوا من نهب الخُرَّميّين المتعصّبين الذين يقطنون قلاعاً في مرتفعات الكرج Kerag. وبواسطة المال الذي حصل عليه الزّعيم البُوَيْهي استطاعوا استمالة عدد كبير من المواطنين المنضمّين إلى جيوش أخرى، وبهذا أصبح من السّهل عليهم دحر قوات الخليفة والاستيلاء على إيران الجنوبية. كان بنو بُوَيْه إلى جانب هذا يحسنون معاملة الأسرى ممّا جعلهم ينضمّون إلى صفوفهم[111]. وقد أهمل ركن الدّولة حاكم الرّي إدارة البلاد خشية إنفاق درهم واحد من الخزانة، وقنع بالعائدات التي تُجبى إليه مهما بلغت[112]. أما عضد الدّولة فقد جمع بحرصه ثروة هائلة، وكذلك ترك فخر الدّولة (توفي عام 387 هـ - 997م) في العصور الأخيرة التي لم تكن عصور غنى عظيم، مالاً وفيراً؛ ذكر ابن الصّابي أنه خلّف 284,875,2 درهماً وأنواعاً كثيرة من الكنوز والثّروات؛ وكان شحيحاً حتى إنه كان يضع مفاتيح خزائنه في حقيبة حديدية لا تفارقه أبداً[113]. وكذلك كان بهاء الدّولة (توفي عام 403 هـ - 1012 م) يبخل بإنفاق درهم واحد، وقد جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بُوَيْه قبله[114].

والسِّمة الثّانية التي اتصفت بها أسرة البُوَيْهيين الحاكمة هي الوحدة والنّظام التّام، وذلك في أجيالهم الأولى على الأقل. يرجع الفضل في ذلك إلى علي الذي لُقّب فيما بعد بعماد الدّولة. يرجع إليه الفضل حقاً فيما بلغه بيت بني بُوَيْه من قوة وعظمة. ولما زاره مُعزّ الدّولة، أخوه الثّالث، وكان حاكماً على العراق إذ ذاك، زيارة رسمية قبّل الأرض بين يديه، وبقي واقفاً عنده بالرغم من الإلحاح عليه بأن يجلس[115]. ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الزّعامة إلى أخيه الثّاني ركن الدّولة في الرّيّ، وكان مُعزّ الدّولة مطيعاً لأوامره طاعة تامّة[116].

ولمّا كان مُعزّ الدّولة على فراش الموت أوصى ابنه بطاعة ركن الدّولة واستشارته في كل ما يعرض له من أمور مهمّة، وكذلك احترام ابن عمّه عضد الدّولة وتوقيره لأنه أكبر منه سناً[117]. ولما أراد عضد الدّولة هذا انتزاع العراق من يد ابن عمّه بعد ما أظهر من عدم الكفاية، هبَّ ركن

الدّولة، والد عضد الدّولة، من مجلسه ورمى بنفسه على الأرض وصار يتمرّغ ويزبد، وامتنع عن الأكل والشّرب أياماً. وكان يقول: إني أرى أخي معزّ الدّولة متمثلاً إزائي يعضّ على أنامله، ويقول: «يا أخي هكذا ضمنتَ لي أن تخلفني في أهلي وولدي!».

وبناءً على أوامر الأب الغاضب خرج عضد الدّولة من بغداد بعد أن كان قد أقام بها وبنى لنفسه قصراً فيها[118].

أما عماد الدّولة فلم يكن ذا شخصية مَلكية، بل كان أشبه بتاجر بارع يتمتع بفطنة ومكر الفلاحين. لقد اتفق مع الخليفة إقطاعه ولاية فارس مقابل مليون درهم. أرسل إليه الوزير الخلعة واللواء، وأوصى رسوله ألا يسلمها إليه إلا بعد استلام المال المتفق عليه. لكن عماد الدّولة أخذ منه كل شيء بالقوة ولم يدفع درهماً واحداً[119].

كان ركن الدّولة حليماً عادلاً رؤوفاً برعاياه[120]. لما لجأ إليه المَرْزُبان Marzuban «بحصانه وسوطه»، أكرمه ركن الدّولة بهدايا كثيرة يقول المؤرّخ ابن مسكويه إنه لم يرَ مثلها قط. كان المؤرّخ يعمل حينها قيًّما للكتب لدى الوزير في الرّيّ، وقد هُرع مع الكثيرين غيره إلى القصر لحضور الموكب وتقديم الهبات والعطايا[121].

اقترح الوزير على رُكن الدّولة الاستيلاء على بلد اللاجئ إليه بعد ما رأى أن حاكمها لا يقوى على السّيطرة عليها وإدارتها بشكل جيد. لكن رُكن الدّولة رفض لأنها غير ذات قيمة له. كان مسكويه يعرف الخليفة جيداً من خلال وزيره، وكان يصفه بأنه رجل ذو مبادئ سامية لكن وزيره ابن العميد عانى كثيراً أثناء خدمته[122]. يذكر مسكويه أن رُكن الدّولة كان، مع فضله على أقرانه من الدّيلم، يتبع طريقة الجند اللاهثين وراء تحقيق الانتصارات، فيستولي على ما يقدر عليه، دون النّظر إلى الغد. لم يكن يحسن إدارة جنده بل كان ضعيفاً في تعامله معهم، ممّا أثار قلق النّاس فخرج بعضهم إلى الصّحراء واجتمعوا لينظروا في طريقة يأمنون بها على أنفسهم.

كان يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد، فكان لذلك لا يتدخّل بشؤون هؤلاء النُّهّاب. ولما قيل له إن إحدى القوافل قد نُهبت وسُلبت مواشيها، أجاب ببساطة أن النّاس بحاجة إلى لقمة العيش[123].

كان مُعزّ الدّولة، أمير العراق، فظًّا في تعامله وسريع الغضب. كان يُهين وزراءه والعاملين في بلاطه[124]، وضرب مرّة وزيره المُهلّبي. لكنه رقّ نوعاً ما في مرضه، كان كلما اشتدّت عليه العلة، - كان لديه حصى في مثانته - يبكي ويندب نفسه على عادة الدّيلم[125]. كان سريع الدّمعة، ويُروى أنه لما كاد ينهزم في إحدى المواقع، بكى أمام غلمانه الأتراك، ثم رجاهم أن يحملوا حملة واحدة على العدوّ تحت قيادته[126].

كان يتعامل مع الخليفة بصلف وعجرفة، وقد صادر أموال وممتلكات وزيره المُهلَّبي إثر وفاته بعد أن ولي له الوزارة ثلاث عشرة سنة، وكان ينتزع المال من عُمَّاله، حتى من أصحاب المراكب،

فكره النّاس كلهم سلوكه وتصرفاته[127]. بنى لنفسه قصراً جديداً في شمال بغداد، وأنفق عليه ثلاثة عشر مليون درهم من الأموال التي اغتصبها من أنصاره دون رحمة أو شفقة[128].

كان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيته. لقد أسكن جنده في الأحياء المدنية من بغداد، ممّا فرض عبئاً ثقيلاً على السّكان. وأقطع جنوده الأراضي القابلة للزّراعة، وفي عهده فقد المفتشون نفوذهم وأهملت حقوق المواطنين، وكان الجنود يخربون إقطاعاتهم حتى تجف تربتها ثم يردُّونها ويستبدلونها بأخرى أفضل. لكنه بالمقابل اعتنى بإصلاح السّدود حتى إنه خرج بنفسه وحمل التّراب مشاركاً بالعمل وحذا العسكر كلهم حذوه. وبذلك أعاد إلى إقليمي النّهروان Nahrawan وبادرايا Badaraya خصوبتهما، فمال إليه النّاس في بغداد وأحبوه[129]. أما ابنه بختيار Bakhtyar فقد وُهب قوة جسديّة هائلة، وبلغ من قوته أنه أمسك مرّة ثوراً عظيماً من قرنيه فألجمه[130]. ولكنه فيما عدا ذلك كان فاشلاً تماماً. كان لا يفي بوعده ولا ينفّذ وعيده، فيتحدّث كثيراً ولا يفعل شيئاً[131]. كان يحب قضاء أوقاته في الصّيد والأكل والشّرب وسماع الموسيقى والمزاح ومصارعة الدّيكة، ومع كلابه والنّسّاء المتبذّلات. ولما نفد ما لديه من مال عزل وزيره واستولى على أملاكه ثم عيَّن وزيراً آخر مكانه[132]. لكنه كان مولعاً بالكتب القيّمة والجواري الصّغيرات المتقنات لمختلف الفنون، والخيول العربية الأصيلة التي كان يحب تدريبها في البادية[133]. ولما أُسِر غلامه التُّركي المفضّل لديه، امتنع عن الطّعام والشّراب وانصرف إلى النّحيب والبكاء؛ وإذا جاءه وزيره أو أحد قوّاده لأمرّ مهم أخذ يشكو حزنه وهمَّه أمامهم، وكانت النّتيجة أن خفَّ ميزانه عند النّاس وسقط من أعينهم[134].

كان عضد الدّولة هو الوحيد الذي يمثل السّيد الحاكم تمثيلاً حقيقياً؛ وقد خضعت لسلطانه، في آخر عهده، البلادُ الممتدّة من بحر الخَزَر (قزوين) Caspian Sea إلى كرمان وعُمان؛ فلا عجب أن يلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرّة في الإسلام، بعد أن كان هذا اللقب يُوحي من قبل بالكُفر[135]؛ وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك أسرته، إحياءً لعادات الشّرق القديمة. كان يحمل طابع أهل الشّمال، فكان أزرق العينين أحمر الشّعر[136]. لقّبه الوزير بأبي بكر تشبيهاً له برجل يسمّى أبا بكر كان يبيع السّماد لمزارعي بغداد[137]. كان عضد الدّولة رجلاً قاسياً، وقد بلغه عن الوزير ابن بقية أنه يعمل ضده، ولما سُلم إليه مسمول العينين طرحه أمام الفيلة التي داسته بأقدامها فمات، وهذه العقوبة هي الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام[138]. وقد بلغ من هيبته وخوف عُمّاله منه أن عمد وزير آخر إلى قتل نفسه بعد أن فشل في تنفيذ أحد أوامره[139]. لكن عضد الدّولة كان أيضاً قاسياً على نفسه، فيُروى أن إحدى الجواري شغلت قلبه عن تدبير شؤون المملكة، فأمر بطردها فوراً (ابن الجوزي، ورقة 120 أ).

كان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها، شأن كل من يريد أن يحكم دولة كبيرة حكماً قوياً؛ كان يعاقب كل من يتأخرفي إيصال الأخبار إليه. فكان البريد يصل من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام؛ أي أنه يقطع كل يوم ما يزيد على مئة وخمسين كيلو متراً[140]. وقد أحكم كذلك نظام الجاسوسية، «فكانت كل كلمة تقال بمصر تصل إلى مسامعه؛ فكان النّاس يحترزون في كلامهم وأفعالهم من نسائهم وعبيدهم». وقد طهَّر شوارع بغداد من اللصوص، ويروى أنه زجَّ بهم في السّجون

كالجرذان (ابن الجوزي، كتاب الأذكياء، ص 38 نقلاً عن تاريخ الهَمَذاني «عيون السِّيَر»). وقد أعاد النّظام إلى الصّحراء العربية وإلى صحراء كرمان، حتى أن الحجّاج لم يعودوا يخشون الابتزاز أو المضايقات على الطّريق. وحفر للحجّاج الآبار في الطّريق وأقام لهم أحواض المياه، وأنشأ سوراً منيعاً حول المدينة Medina. أمر بعمارة العاصمة بغداد شبه المتهدمة، وبنى فيها المساجد وأنشأ الأسواق، وقد كانت على الأقنية جسور قد تهدَّمت وأهملت، حتى صار مَن يجتازها من النّساء والأطفال والبهائم يسقطون من فوقها، فأصلحها وأحال الجسر المبني فوق نهر دجلة، والذي كان لا يجتازه إلا المُخاطر بنفسه، إلى جسر فسيح آمن وحصَّنه بالدّرابزينات وأقام عليه الحراس والمراقبين؛ كما أعاد إحياء الحديقة الشّهيرة التي كانت قد أصبحت مرتعاً للكلاب ومقبرة للجيف. لقد جعل الطّبقات الغنية من النّاس تقوم بإصلاح ما فسد من الأسوار وأعاد حفر الأقنية الممتلئة بالأوحال وبنى الطّواحين على ضفافها؛ ورمّم الحفر التي أصابت السّدود وأنشأ مستعمرة بين فارس Fars وكرمان فزرعوا البراري وعمروها[141]. ومع هذا فلم تكن العراق مركز الدّولة، بل كان مركزها في فارس حيث يقيم قاضي القُضاة أيضاً، بينما يقيم في بغداد أربعة خُلفاء يمثلون الحكومة[142]. ويُقال إن عضد الدّولة كان يكره بغداد ويزدريها، حتى قال: ما وقعت عيني في بغداد على أحد يستحق أن يسمّى برجل غير شخصين؛ فلما تأملت وجدتهما ليسا من أهل بغداد، بل هما من الكوفة[143]. لقد أقام سوقاً للبزّارين seed-sellers، وشجّع على زراعة الفواكه الغريبة، وأدخل زراعة النّيلة إلى كرمان[144]. وبنى بشيراز قصراً مهيباً يشتمل على ثلاثمئة وستين حجرة[145]، ووسّع الدّار الكبيرة التي كانت للقائد سَبُكتگين Sebük Tegin ببغداد، وذلك بشرائه المنازل المحيطة بها، وأجرى إلى بُستانه الماء في مجرى عالٍ يخترق الصّحراء والأرياف؛ لقد استخدم الفيلة في نقض هذه الدّور، وفي دكّ الأرض، وكان أول من استعمل الفيلة في الجيوش الإسلامية[146]. وقد حال الموت بينه وبين القيام بمخططات بناء أكبر[147]. كان من عادته أن يستيقظ قبل الفجر، فيستحمّ ويصلّي الفريضة ثم يدخل إليه أصدقاؤه المقرّبون فيتحدث معهم، ليباشر بعد ذلك أعماله اليومية ثم يتناول طعام الفطور وطبيبه حاضر، ثم ينام إلى الظّهر. كان يخصّص فترة ما بعد الظّهر للأصدقاء والرّاحة وسماع الموسيقى[148]. كان له معلِّمون بارزون[149]؛ وكان يحب العلم والعلماء، ويهب الأعطيات لعلماء الدّين والفقهاء وعلماء اللغة والأطباء وعلماء الرّياضيات والميكانيكا[150]. وسنذكر مكتبته في موضع آخر من الكتاب. كان يتدارس أصناف العلوم كثيراً ويقول: إذا فرغت من كتاب إقليدس كله سأتصدّق بعشرين ألف درهم؛ وإذا فرغت من كتاب أبي علي النّحوي سأتصدق بخمسين ألف درهم؛ وكان يحبّ الشّعر ويقرِّب الشّعراء، ويؤثر مجالسة الأدباء على صحبة قواده[151]. كان بارعاً في قول الشّعر[152]، وقد ذكر الثّعالبي شعراً عربياً يُنسب إليه، وهو لا يعدو كونه كلاماً موزوناً ليس ذا قيمة. ولكن هذا كله لم يمنع عضد الدّولة من إساءة معاملة الصّابي، مع أنه كان سيد الكتّاب في ذلك العصر. وقد خصّص للفلاسفة حجرة كبيرة في قصره قريبة من جناحه الخاص، فكانوا يجتمعون فيها لمناقشة أمورهم دون أن يزعجهم أحد. وأمر بصرف الرّواتب لخُطباء المساجد والمؤذنين وخصّص معونات لمن يأوى إليها من الغرباء والفقراء، كما بنى مارستاناً كبيراً في بغداد. كان ينفق عن كل ابن يولد له عشرة آلاف درهم، فإن كان من زوجة أثيرة لديه ينفق خمسين ألف درهم؛ ويُخرج عن كل بنت خمسة آلاف. وتجاوزت صدقاته إلى أهل الذِّمَّة، فأذن للوزير نصر بن هارون، وهو مسيحي، بعمارة كنيسة وترميم الأديرة القديمة، وإطلاق الأموال للمحتاجين من المسيحيين[153].

غير أنّ عضد الدّولة لم يكن أباً لرعيته أبداً، بل ظل الحاكم الأجنبي الذي يعرف تماماً كيف يعتني برعيته لينتفع منهم بأكبر نصيب. لقد أحدث رسوماً جائرة، وزاد الرّسوم القديمة؛ وكان يحصِّل منهم المال بكل الطّرق والأساليب[154]. وفي آخر عمره بلغت إيراداته السّنوية ثلاثمئة وعشرين مليون درهم. كان يتمنّى لو تبلغ ثلاثمئة وستين مليون درهم، ليكون دخله كل يوم مليون درهم. كان يدَّخر كل دينار ولا يدع الدّرهم الواحد يفلت من يده[155].

والحكم الأخير الذي انتهى إليه مسكويه في كلامه عن عضد الدّولة، وهو الذي عمل في خدمته شخصياً، أنه قال: «لولا خِلالٌ كانت في عضد الدّولة يسيرة، لا أستحسن ذكرها، مع كثرة فضائله لبلغ من الدّنيا مناه ورجوتُ له من الآخرة رضا، والله ينفعه بما قدَّمه من العمل الصّالح، ويغفر له ما وراء ذلك»[156].

وتتجلّى مواهب عضد الدّولة السّياسية في اختياره لولاته: فقد ولَّى بدر بن حسنويه الكردي (توفي عام 405 هـ - 1014 م) على ميديا Media (الجبل). كان شجاعاً عادلاً أجرى على الفقراء والأرامل مبلغ ألف درهم كل يوم جمعة، ويصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار إلى الأساكفة والحذّائين بين هَمَذان وبغداد ليزوّدوا الفقراء من الحجّاج بالأحذية. وكان يخصّص لتكفين الموتى كل شهر عشرين ألف درهم. لقد بنى الجسور، واستحدث في أعماله ثلاثة آلاف مسجد وخان. ولم يكن يمرّ بماء جارٍ إلا بنى عنده قرية. وكان ينفذ كل سنة على مكّة وصيانة طريق الحج عشرة آلاف دينار؛ كما أنفقَ على عمارة الخزّانات والأحواض وتأمين كل ما يحتاجه النّاس في الطّريق إلى الحرمين الشّريفين. كان يعطي الأموال للعلويين Alids في الكوفة وبغداد، ولقراء القرآن، وللأعيان[157]. وقد تخرَّج من مدرسة عضد الدّولة أمير الجيوش (توفي عام 401 هـ - 1010 م)، وهو الذي أُرسل إلى بغداد لتدبير أمورها وإعادة النّظام إليها عام 392 هـ - 1002 م، فحوَّل المدينة التي كانت نهباً للصّوص إلى مدينة آمنة، حتى صار بإمكان الغلام أن يحمل طبقاً من الفضّة فيه دنانير ذهبية، فيسير به ليلاً دون أن يعترضه أحد[158].

لم يخرج من البُوَيْهيين بعد عضد الدّولة مَن له شأن أو أهمية؛ وانهارت مواردهم المالية في أواخر عهدهم، حتى اضطر جلال الدّولة[159] إلى بيع مخزن الأقمشة الخاص به في السّوق، وخلا قصره من الحجّاب والخدم والحرّاس، بل لم يعد لديه من يؤذّن لدخول أوقات الصّلاة[160].

أما أمراء التُّرك فيمثلهم بجكم وإخشيد[161]، وكل منهما جندي ماهر وحاكم قدير، وإن لم يكن مظهرهما الخارجي يوحي بذلك. أما بجكم فكان من المرتزقة، وانتقل من خدمة ماكان Makan إلى خدمة مرداويج؛ وبعد مقتل مرداويج - ويُقال إن لبجكم يداً في قتله - ذهب مع مئات قليلة من التُّرك والعجم لينضمّ إلى ابن رائق في العراق. ظل جند مرداويج تحت إمرة بجكم، ولم يكن عددهم عظيماً، بل لم يكونوا يتجاوزون ثلاثمئة رجل[162]؛ ثم تقدم ابن رائق إلى بجكم بأن يكاتب أصدقاءه السّابقين في إيران، فاستجابوا له وانضمّوا إليه[163]. وبعد ذلك دخل الشّؤون السّياسية فأزال اسم ابن رائق من راياته ودروعه، وأخرجه من بغداد، وصار هو أميراً على العراق بأكملها؛ وكان معه أنذاك سبعمئة من التُّرك وخمسمئة من العجم[164]. أحب الخليفة بجكم أكثر من سلفه[165]، وخلع عليه لقب «نديم»[166]. لكن الجندي التُّركي[167] لم يجد نفعاً في مصاحبة الأدباء ولم يجد من بينهم

من أعجبه سوى الطّبيب سنان بن ثابت[168]. لقد طلب منه أن يداويه من نوبات الغضب التي تعتريه وأن يدلّه على عيوبه كلها.

كان بجكم يتحلّى بشجاعة نادرة، فقد هزم عشرة آلاف من جند البريديين ولم يكن معه إلا مئتان وتسعون من الأتراك (كتاب العيون، ج 4 ص 154 ب)؛ لقد رمى بنفسه ورجاله في نهر دجلة، وسبحوا وعبروا النّهر تحت أنظار الجميع إلى حيث يظن الأعداء أنهم في مأمن، فهاجمهم. وقد تبعه رجاله من العجم في قواربهم[169]. ولما كان مع الخليفة في سامرّاء وورد خبر خروج ابن رائق من بغداد إلى الشّام، استأذن بجكم الخليفة في الذّهاب إلى هيت Hit مجتازاً الصّحراء ليقطع على ابن رائق الطّريق، فلم يأذن له الخليفة وقال إنه قد أعطى ابن رائق الأمان فلا يجوز قتاله.

ولما جاء بجكم إلى بغداد حمل معه كثيراً من الممارسات العنيفة التي اقترنت بحياته العسكرية، عندما طالب أهلها بالمال اشتدّ في تعذيبهم حتى كان يضع على بطونهم أوعية فيها جمر؛ فنبّهه البعض إلى أن عمل مرداويج هذا ينبغي ألا يدخل مقرّ الخلافة.

وقد أبغض أهل بغداد بجكم لطريقته التّعسفية، وسرُّوا كثيراً عندما هجم ابن رائق على بغداد في غيابه[170]. وصار الرّعاع والصّبيان في الشّوارع يهزأون ببجكم ورجاله ويقولون: لقد حُلق نصف شارب بجكم، وإذا رأوا تركياً يرتدي قلنسوة صاحوا به: اذهبوا من هنا! بجكم ليس أميرنا[171]. غير أنّ بجكم اكتسب لقب الأمير بعد أن بنى مستعمرة في المدائن.

أما جدّ محمّد بن طغج فقد جاء من تُركستان في عهد الخليفة المعتصم؛ وكان هذا الخليفة أول من جلب الكثير من الجنود الأتراك واستخدمهم. ارتقى أبوه حتى صار والياً على دمشق، لكنه عُزل ومات في سجنه، وذاق ابنه الحياة بحلوها ومُرِّها؛ فقد عمل ابنُ طغج في خدمة عدد من القادة، حتى إنه عمل مرَّة صقَّارا لأحد الأعيان. وقد أتيحت له الفرصة لإظهار شجاعته وبطولته عند حاكم مصر ممّا رفعه إلى منصب والي مصر، ثم صار أميرها المستقلّ[172]. وامتدّ حكمه أخيراً إلى بلاد تساوي تلك التي حكمها ملوك الفراعنة، فدانت له مصر والشّام واليمن ومكّة والمدينة[173]. لا عجب إذاً أن يرفض طلب الخليفة المستكفي إذ عرض عليه تولي إمارة بغداد بعد موت ابن توزون[174].

كان الإخشيد بديناً أزرق العينين، وكان شديد القوة لا يقدر على أن يجرَّ قوسه غيره؛ لكنه كان مصاباً بنوبات لم يقدر أحد على تشخيصها[175]. وقد حسن حال مصر على يديه، وعني بالنّظام فيها، وأمر بضرب الدّينار الإخشيدي على عيار كامل[176]. كان جيشه أعظم جيوش عصره، ولما قدم إلى منطقة الفُرات في عام 333 هـ - 944 م، دُهش سكان الرّقة والرّافقة من نظام العسكر وعددهم وجودة عدَّتهم. لم يكن قد سبق لهم رؤية شيء كهذا من قبل[177]. لقد اجتمعت في شخصيته خصلتان: السّذاجة والطّمع، وقد شرع بكل برود بالاستيلاء على أموال الموظفين الأغنياء، أصدقاءً كانوا أم أعداء. وكان كثير منهم يستحق هذا المصير.

اشتهر بحبّه للعنبر، فكان يُهدى إليه من جميع الأمصار؛ وكان يعقد أحياناً سوقاً لبيع الهدايا الفائضة من العنبر[178]. وتروي الحكايات أنه كان لا يأنف من الحصول على بعض الأرباح الزّهيدة. مع ذلك لم يكن يعذّب أو يضرب أحداً، وكان لا يتعرّض للحريم[179]، كان يحب الصّالحين ويكرمهم ويركب إليهم يطلب دعاءهم. «يقول مسلم بن عبيد الله الحسين: وصفتُ للإخشيد رجلاً صالحاً بالقرافة يعرف بابن المسيَّب، فركب معي إليه، وسأله الدّعاء، ثم انصرف. فقال لي: تعال أريك أنا أيضاً رجلاً صالحاً. مضيت معه إلى أبي سليمان بن يونس، فرأيت شيخاً أديباً جالساً على حصيرة مُبَطَّنة، فقام مستقبلاً الإخشيد وأقعده على الحصير؛ فقال الإخشيد: يا أبا سهل اقرأ عليَّ شيئاً من القرآن، فإن رياح الصّحراء قد آذتني. فأدخل الشّيخ يده تحت الحصير وأخرج منديلاً نظيفاً مطوياً وضعه على رأس الإخشيد وأخذ يتلو عليه آيات من القرآن»[180].

كان الإخشيد يحبّ أن تُتلى عليه آيات القرآن، ويبكي لدى سماعها[181].

وقد وقع له مرّة أمرٌ عجيب؛ وذلك أن رجلاً من أهل العراق وقف عند بئر زمزم بمكّة وصاح: يا معشر النّاس! أنا رجل غريب، وقد رأيت البارحة في المنام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم وهو يقول لي: سِرْ إلى مصر، والقَ محمَّدا بن طغج، وقُلْ له أن يطلق سراح محمّد بن المادرائي ibn al-Maderai. سارت القافلة إلى مصر ومعها الرّجل الغريب ولما وصل إلى الفسطاط بلغ الإخشيد خبرُه، فأحضره وسأله عن رؤياه فأخبره، فقال: كم أنفقت في مسيرك إلى مصر؟ قال: مئة دينار، فقال: هذه مئة دينار من عندي، وعُدْ إلى مكّة، ونمْ في الموضع الذي رأيتَ فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، فإذا رأيته قل له: يا رسول الله، قد بلّغت رسالتك إلى محمّد بن طغج، لكنه يقول إن له عند الرّجل كذا وكذا، وذكر شيئاً كثيراً، فإذا دفعه إليه أطلقه؛ فقال له الرّجل الغريب: ليس في ذكر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم هَزْلٌ، سأخرج إلى المدينة، وأنفق من مالي الخاص وأسير إلى رسول الله صلّى الله عليه وأنا يقظان وليس في المنام، وأقول: يا رسول الله أدَّيْتُ رسالتك إلى محمّد بن طغج، فقال لي كذا وكذا؛ فقام الرّجل فأمسكه وقال: صار الأمر جدًّيا الآن؛ إنما أردت أن أختبرك، والآن فما تبْرَح مكانك حتى أُطلقه[182]. ولقد أرسل إليه رسولاً وأطلق سراحه.

وفي عام 331 هـ - 942 م ورد خبر من دمياط بأن رجلاً كانت يده قد قطعت قديماً كعقاب له، فتاب وصار خادماً لله في أحد المساجد، ثم عاد وقد رجعت له يده. فأرسل الإخشيد من أحضره إلى داره في القاهرة، وسأله عن قصّته فقال: رأيت في النّوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إليّ منه ثلاثة أنفس: النّبيّ محمّد وجبريل وعليٌّ عليهم السّلام؛ فسألت النّبيَّ أن يردَّ عليّ يدي، فَفعل، وانتبهت من نومي فإذا هي قد عادت. وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من الثّقات رأوه مقطوع اليد؛ فأعطاه الإخشيد الهدايا وأكبر قدرة الله تعالى فيه. ثم قيل بعد ذلك إنّ الأمر كله كان مجرّد كذبة، وخمدت تدريجياً الفتنة التي أحدثها بروايته[183].

الفصل الرّابع
النّصارى واليهود

Christen und Juden

إن أكثر ما يميّز الإمبراطورية الإسلامية عن أوروبا المسيحية في العصور الوسطى هو وجود عدد هائل من أهل الدّيانات الأخرى يعيشون بين المسلمين، وأولئك هم «أهل الذِّمَّة» الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً دون تكوين وحدة سياسية في الإمبراطورية الإسلامية. ووفقاً للعهود والحقوق الممنوحة ظلّت كنائس اليهود والنّصارى وأديرتهم أجزاء غريبة عن الدّولة ولم تندمج معها. وقد حرص اليهود والنّصارى على أن تظلّ «دار الإسلام» غير مكتملة التّكوين، حتى إن المسلمين ظلّوا دائماً يشعرون أنهم فاتحون وليسوا مواطنين. وحتى فكرة الإقطاعية لم تمت؛ بل أنشأت مبادئ حديثة لها. وقد دعت الحاجة إلى المعيشة المشتركة إلى ظهور جو من التّسامح لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى. ومظهر هذا التّسامح هو نشوء علم مقارنة الأديان، والإقبال عليه بحماس كبير. بغض النّظر عن الدّخول في الإسلام، كانت الفرق الدّينية المختلفة منفصلة بعضها عن بعض تماماً. وكما أن قانون الدّولة البيزنطية كان يقضي بقتل المسيحي إذا اعتنق الإسلام، فقد كان المسلم الذي يرتدّ عن دينه[184]

في ديار الإسلام يُعاقب بالموت[185].

لم يكن هناك تزاوجٌ بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك لأن المرأة النّصرانية لا تستطيع الزّواج برجل غير نصراني، وكذلك لا يجيز قانون الكنيسة للرّجل النّصراني الزّواج بغير النّصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النّصرانية (Sachau, Syrische II,11,75,170, Rechtsbucher). أما زواج المسيحي من مسلمة فهو مستحيل. على أن قوانين الدّولة الإسلامية كانت تضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذِّمَّة كيانَها الخاص، فكان لا يجوز للمسيحي أن يتهوَّد، ولا لليهودي أن يتنصّر؛ ولا يكون تغيير الدّين إلا إذا كان ذلك دخولاً في الإسلام؛ ولم يكن النّصراني يرث اليهودي ولا العكس، كما لم يكن اليهودي أو النّصراني يرث المسلم ولا المسلمُ يرث يهودياً أو نصرانياً[186].

وقد أصدر الخليفة في سنة 311 هـ - 923 م كتاباً في المواريث أمر فيه بأن تُرَدّ تركة من مات من أهل الذِّمَّة ولم يخلف وارثاً، على أهل ملّته، بينما تُرَدّ تركة المسلم إلى بيت المال[187].

وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري صدر منشور موجَّه للصّابئة يؤكد أن السّلطات الإسلامية لا تتدخل في مواريثهم، عملاً بقول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم: «لا يتوارث

أهلَ ملّتيْن»[188].

وفي القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي) اعتُرف للمجوس Zarathustrians بأنهم أهل ذمّة[189] تماماً كاليهود والنّصارى؛ وكان لهم أيضاً رئيس يمثّلهم في البلاط ولدى الحكومة.

ومع ذلك هناك اختلاف بين الطّوائف الثّلاث.

على الرّغم من المخاطر والصّعوبات التي نشأت عن الاتحاد المفكك للإمبراطورية، فقد استطاع اليهود الحفاظ على وضعهم السّياسي بشكل جيد. لم يكن المجوس سوى بقيّة شعب لم يتمَّ فتح بلاده البعيدة. أما النّصارى الذين كانوا يخضعون لحكم السّاسانيين ثم حصلوا على وضع أهل الذِّمَّة، فقد كانت الظّروف التي عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم وأقل حفظاً لمصالحهم من اليهود[190] أو من النّصارى الذين كانوا يقطنون الأقاليم الخاضعة لحكم الإمبراطورية البيزنطية. «وبهذا كانت الزّعامة لدى المجوس واليهود وراثية، وكان هؤلاء الزّعماء يلقبون بالملوك، ويدفعون الضّرائب لرؤسائهم، خلافاً لما كان عليه حال النّصارى»[191]. قال بطريرك اليعاقبة في مجلس له مع الخليفة إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون، وإنه هو رئيس روحي، ولا يستطيع سوى فرض العقوبة الرّوحية، كأن يحكم بعزل القسيسين والأساقفة من مناصبهم أو منع العلمانيين من الحضور إلى الكنيسة[192]. وبعد أن انتقل مركز الدّولة الإسلامية إلى الشّرق، صار الكاثوليكوس النّسطوري، رئيس المسيحيين الشّرقيين، هو الرّئيس الأكبر لكافة المسيحيين في الإمبراطورية الإسلامية. كانت الكنيسة تنتخبه ويصادق الخليفة على ذلك، ويكتب له عهداً بالتّعيين كما يكتب لكبار الموظفين. وقد وَرَدَ في أحد العهود عام 533 هـ - 1139 م[193] ما يلي: «لقد اجتمع حشد رسمي من النّصارى واتفقوا بآرائهم على اختيارك لرئاستهم ومراعاة شؤونهم وصيانة أملاكهم والتّسوية العادلة بين قويّهم وضعيفهم، وقد طلبوا الإذن بتعيينك، وإنني، كإمام، أقرّ بتنصيبك كاثوليكاً للنّساطرة في «مدينة السّلام» وفي بقية ديار الإسلام، وأن تكون زعيماً أيضاً على من سواهم من الرُّوم واليعاقبة والمَلَكيّة Melkites في كافة أرجاء الإمبراطورية، مع منحك الحرّية في ارتداء ثوب الكاثوليكوس لدى أداء العبادات وكافة الاجتماعات الدّينية دون أن يشاركك أي مطران أو أسقف أو شماس شرف ارتداء الثّوب أو حمل شارة المنصب[194]. وإن أبى أحدٌ ما النّزول على حكمك، فسوف تتمّ معاقبته. لقد أمر الخليفة بمعاملتك كما كان سلفك يعامَل فيما مضى، كما أمر بحمايتك وأهل ملتك في الأنفس والأموال، وإبقائكم في ظروف جيدة والمحافظة على العادة السّائدة في دفن أمواتكم. تستوفى الجِزية منكم مرّة واحدة سنوياً، وتقتصر على البالغين الرّاشدين من رجالكم، دون النّساء والأطفال. أخيراً ينبغي عدم التّلاعب بالقوانين، ويحق لك التّوسّط بين طوائف النّصارى في خلافاتها فتنتصف للضّعيف من القوي».

وكذلك كان يُكتب لبطريق اليعاقبة عهدٌ كهذا، وكان لا بدّ له من الذّهاب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد[195]. لكن الخليفة منعه في عام 302 هـ - 912 م من أن يتخذ من بغداد مقرًّا له[196].

كان للنّصارى النّوبيين مركز خاص ممتاز في الدّولة الإسلامية، فكانوا يدفعون الضّرائب لملكهم، وكان للضّرائب عامل من قِبَله في بلاد الإسلام. وقد حدث أن واحداً منهم اعتنق الإسلام، وكان ابن ملك النّوبة ببغداد زائراً، فأمر باعتقاله وتقييده بالأغلال[197].

لا يتحدّث المؤرّخون المسلمون كثيراً عن رئيس اليهود؛ ويقول مؤرّخو اليهود إنه عانى في القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي) أياماً شديدة[198]؛ وقد ذكره بنيامين التّطيلي Benjamin of Tudela وپتاخيا فون ريغنزبورغ Petachjä von Regensburg في القرن السّادس الهجري. لقد كان لانقسام الإسلام إلى خلافة ببغداد وأخرى بالقاهرة أثر في تنظيم المجتمع اليهودي، ولذلك نجد ببغداد «روش جالوت» ראש גלות Roshaglutha (الذي لقّبه المسلمون بسيّدنا Sayyadana)، والذي يسري نفوذه شرقي الفُرات فقط[199]؛ ونجد في القاهرة رئيساً آخر يُلقّب «سَر هَسَريم» Sarhassarim (أي أمير الأمراء)، وهو الذي يعيِّن أحبار اليهود في الشّام ومصر، أي في حدود مملكة الفاطميين[200].

ولا بدّ أن يكون الفاطميون قد أوجدوا هذا المنصب الخاص من الأمراء (نَجيد) Nagids بالقاهرة رغبة منهم في معارضة كل ما هو بغدادي؛ لدينا رسالة (تعود للقرن الثّاني عشر الميلادي، أي بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة) من رئيس الطّائفة اليهودية بمصر يشكو فيها من إمام غير مقبول أُرسل إليهم من بغداد[201]؛ يقدّر بنيامين التّطيلي (وهو رحّالة سافر عام 1165 م) عدد اليهود في الدّولة الإسلامية - باستثناء الغرب - بنحو ثلاثمئة ألف يهودي. وبعد عشرين عاماً يقدّر پتاخيا عدد اليهود في العراق وحدها بستمئة ألف[202]. لا تنطبق هذه الأرقام على الشّام في القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي) لأن السّياسة التي جرى عليها قواد الصّليبيين إزاء اليهود قد قوّضت دعائم المجتمع اليهودي في تلك المناطق[203]. يقدِّر بنيامين عدد سكّان الحيّ اليهودي Ghetto في القدس بأربعة أنفس[204]؛ ولم يجد پتاخيا هناك شخصاً واحداً. ويقول البايلو مورسيليوس جورجيوس Bailo Morsillius Georgius في تقرير يرجع تاريخه إلى شهر أكتوبر عام 1243 م إنه لم يكن في الحيّ الخاص بالبنادقة في صور إلا تسعة من شبّان اليهود[205].

أمّا بنيامين فيقول إنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين - وعند پتاخيا عشرة آلاف، وفي حلب خمسة آلاف يهودي. أما على نهري دجلة والفُرات فكان اليهود مجتمعين بكثرة كما كانوا في ذلك الوقت على نهري الرّين والموزل. وقد كانوا كثيرين على نهر دجلة بشكل خاص، وهناك تجمعات يهودية في جميع المدن والقرى الواقعة بين نينوى ودجلة[206]: في جزيرة ابن عمر أربعة آلاف، وفي الموصل سبعة آلاف (وعند پتاخيا ستة آلاف)، وفي مدينة حربة بأقصى شمال العراق خمسة عشر ألفاً، وفي عكبرى وواسط عشرة آلاف لكل منهما. ولكن من العجيب أنه لم يكن يوجد ببغداد إلا ألف يهودي[207]. أما المدن التي يكثر بها اليهود على الفُرات فهي مدينة الحلّة، وفيها عشرة آلاف، والكوفة، وفيها سبعة آلاف، والبصرة وفيها ألفان. وفي أوائل القرن الرّابع الهجري كان معظم سكان مدينتي سورا Sura ونهر ملك Nahr Malik من اليهود[208]. وكلما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود، ففي هَمَذان ثلاثون ألفاً، وبأصفهان خمسة عشر ألفاً، وبشيراز عشرة آلاف، وبغَزْنَة ثمانون ألفاً، وبسَمَرقند ثلاثون ألفاً[209]. ويؤيّد البِشاري المقدسي هذه الأرقام في

القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي)، فيذكر أن بخُراسان يهوداً كثيرين ونصارى قليلين[210]، وأن في ميديا Media يهوداً أكثر من النّصارى[211]؛ ومع ذلك كان بالمشرق مدينتان وحيدتان أطلق عليهما اسم اليهودية: إحداهما قرب أصفهان والأخرى شرقي مرو. وكذلك وجد المقدسي في إقليم خوزستان عدداً قليلاً من النّصارى وعدداً غير كبير من اليهود أو المجوس[212]. أما في فارس فكان عدد المجوس أكثر من عدد اليهود، وفيها قلّة من النّصارى[213].

وفي جزيرة العرب، كان عدد اليهود أكثر من النّصارى وفي مدينة قرْح - ثاني أكبر مدن الحجاز - كانت أغلبية السّكان من اليهود[214]. أما في مصر فالأرقام التي ذكرها بنيامين أقل[215]: فكان بالقاهرة سبعة آلاف وبالإسكندرية ثلاثة آلاف، وبمدن الدّلتا نحو ثلاثة آلاف، وستمئة في المدن التّجارية بالصّعيد.

وبالنّسبة لعدد النّصارى فلا يمكن تعيينه إلا تعييناً تقريبياً؛ وفي عهد عُمر بن الخطّاب كان عدد الذين دفعوا الجِزية في العراق خمسمئة ألف إنسان[216]، ومعنى هذا أن عدد أهل الذِّمَّة بلغ مليوناً ونصف بما فيهم اليهود. ويدلّ إحصاء سكان مصر في القرن الثّاني الهجري على أنه كان بها خمسة ملايين من القِبْط يدفعون الجِزية، وهذا يدلّ على أنه كان بمصر زهاء خمسة عشر مليوناً من النّصارى الأقباط. بلغ مقدار الجِزية ببغداد في أوائل القرن الثّالث الهجري مئة وثلاثين ألف درهم، وفي أوائل القرن الرّابع بلغت ستة عشر ألف دينار[217]؛ ويدلّ هذان الرّقمان على أنه كان ببغداد نحوٌ من خمسة عشر ألفا من أهل الذِّمَّة يدفعون الجِزية، لا بدّ أن منهم حوالي ألف يهودي. ونستطيع أن نقول بشيء من اليقين إنه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصراني، والمدينتان الوحيدتان فيما بين الفُرات ودجلة اللتان يقول ابن حَوْقَل إن أكثر أهلهما نصارى هما الرُّها وتكريت، مركز اليعاقبة ومقر بطريركهم. يقول ابن حَوْقَل إن بعض الكنائس والأديرة هناك يعود إلى عهد عيسى عليه السلام والحواريين[218]. وفي العراق، وبشكل رئيسي في جنوب بلاد فارس، كان هناك عدد كبير من المجوس[219]. وفي سنة 369 هـ - 979 م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامّة شيراز من المسلمين؛ ونُهبت أثناء ذلك دور المجوس، وعاقب عضد الدّولة كل من له علاقة بتلك الفتنة[220]. ولكن شيراز كانت مدينة هادئة في العادة، وقد عجب البشاري المقدسي من أن المجوس لم يكونوا يضعون أية علامات تميّزهم، وأن الأسواق كانت تُزيَّن في احتفالات وأعياد الكفار. وفي عام 371 هـ - 981 م مات أحد كبار الصُّوفية، فمشى في جنازته المسلمون واليهود والنّصارى. وفي شرقي صحراء فارس كانت تقع مدينة القرينين التي لا يسكنها إلا المجوس، الذين كانوا يكسبون قوتهم من تأجير حميرهم وتجولهم بها في كل الاتجاهات[221].

وفي نهاية القرن الثّاني الهجري، في عهد الخليفة الأمين، ازدهر مجتمع الصّابئة للمرة الأخيرة. ففي ذلك العصر «عاد شأن الوثنية بحرّان إلى الظّهور، وَقِيدَتْ الثّيران في جميع الشّوارع مزيَّنَةً بغالي الثّياب والورد والرّياحين وبالأجراس على قرونها، وسار خلفها الرّجال بالمزامير»[222].

وفي عام 320 هـ استفتى الخليفة محتسب بغداد في الصّابئين، فكان رأيه كالتّالي: «يجب أن يُقتلوا، لأنهم ليسوا نصارى ولا يهوداً، بل هم عبدة نجوم»؛ لكنهم جمعوا مبلغاً كبيراً من المال دفعوه

للخليفة حتى يكفّ عنهم[223]. وقد صدر حوالي منتصف القرن الرّابع الهجري مرسوم يخص الصّابئين أمر فيه الخليفة بحمايتهم وسمح لهم بالإقامة في حرّان والرّقّة وديار مضر[224] Osrhoene؛ ولكنهم انقرضوا تقريباً في عام 400 هـ - 1009 م، ويقدّر ابن حَزْم عددهم بأربعين شخصاً[225]. ولم يكن في التّشريع الإسلامي ما يُغلق دون أهل الذِّمَّة أيَّ باب من أبواب الأعمال؛ وكان قدمُهم راسخاً في المهن التي تدرّ الأرباح الوافرة، فعملوا كصيارفة وتجار أقمشة وأصحاب ضيع وأطبّاء[226].

لقد نظّم أهل الذِّمَّة أنفسهم بحيث كان معظم الصّيارفة في الشّام مثلاً من اليهود، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة من النّصارى[227]. وكان رئيس النّصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان محاسب الخليفة رئيساً في مجتمع اليهود كذلك[228].

في الطّبقة الدّنيا من دافعي الضّرائب هناك اليهود من الصّرافين والدّباغين وصانعي الأحذية، والصّبّاغين تحديداً[229]. وقد وجد بنيامين التّطيلي (في القرن الثّاني عشر الميلادي) أن اليهود في القدس يحتكرون صنعة الصّباغة[230]، وكذلك الاثني عشر يهودياً الذين وجدهم في بيت لحم، فقد كانوا جميعاً صبّاغين[231]؛ ولو كان اليهودي يعيش وحده في بلد فإنه يشتغل بهذه الصّناعة[232].

أما حياة الذِّمّيّ فإنها عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافىء حياة المسلم، وديته دِيَة المسلم؛ وهي مسألة مهمّة جداً من حيث المبدأ. أما عند مالك فدِيَة اليهودي أو النّصراني تعادل نصف دِيَة المسلم، وعند الشّافعي ثلثها؛ أما المجوسي فدِيَته جزء من خمسة عشر جزءاً من دِيَة المسلم[233].

وكان من الإهانة للمسلم أن يُقال له: يا يهودي أو يا نصراني[234].

لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشّعائر الدّينية لأهل الذِّمَّة، بل كانت تسمح لهم بإقامة أعيادهم واحتفالاتهم الصّاخبة[235].

وفي حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب يسير فيها النّصارى وعلى رأسهم الأسقف، واليهود ومعهم النّافخون في الأبواق[236].

عاش الرُّهبان في أديرتهم بازدهار وسلام[237]؛ ويُقال عن دير Qura، الذي يقع على بعد 100 كيلومتر من بغداد، ويبعد مسافة ميل عن الجانب الشّرقي لدجلة، إنه دير حسن نزهٌ عامر، وفيه مئة كوخ لرُهبانه كل واحد منها يشغله ساكن واحد فقط؛ وكان يُسمح للرّاهب أن يبيع كوخه لراهب آخر بسعر يتراوح بين خمسين إلى ألف دينار[238]. وحول كل كوخ بُستان فيه من جميع الثّمار والنّخل والزّيتون، وتُباع غلّته بين خمسين دينار إلى مئتي دينار، وحول أراضي الدّير سور عظيم يحيط به وفي وسطه تجري قناة مياه؛ وفي هذه الأراضي كان النّاس يجتمعون لإقامة الاحتفالات بعيد الصّليب[239].

وكان أكبر الأديرة بمصر الدّير المعروف بدير القديس أنطانيوس الذي يقع في الصّحراء، وبينه وبين النّيل مسيرة ثلاثة أيام، وهو على تلّ مرتفع، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة. ووراء أسوار الدّير يوجد بُستان كبير ومزارع خضروات وثلاثة جداول مياه وأشجار فواكه متنوعة، وحوالي 3,000 شجرة نخيل[240].

على أن الكنيسة الرّسمية في الدّولة الرُّومانية الشّرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التّفكير أبعد ممّا ذهب إليه الإسلام بالنّسبة لأهل الذِّمَّة؛ فلما أعاد الإمبراطور نقفور Νικηφόρος افتتاح بلاد الشّام في القرن الرّابع الهجري - العاشر الميلادي - كان ممّا وعد به أهل الشّام وأمّنهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدّولة. لكنه، رغم هذا الأمان، قام بمضايقة اليعاقبة بأقصى ما يستطيع، فاضطرهم مثلاً إلى الخروج من أنطاكية ولذلك نجد مؤرّخي اليعاقبة يصفون البطريرك الذي عيَّنته الدّولة في أنطاكية بأنه أضلّ من فرعون وأشد كفراً بالله من نبوخذنصر. ولما أعيد فتح ملطية أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعةٌ من كبار أساقفتهم إلى القسطنطينية وسُجنوا هناك، ووضع الملكانيون Orthodox community أيديهم على الكنيسة الكبرى هناك[241]؛ فأمّا البطريرك فإنه مات منفيًّا على حدود بلغاريا، وكذلك مات أحد أصحابه في السّجن ورُجم الثّالث أمام قصر الإمبراطور، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبي وأعيد تعميدهم، ولكنهم لم يجدوا السّكينة التي يرجونها، وصاروا موضع السّخرية. وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السّريانية أن يقيموا في مقر بطريركهم، فاضطروا إلى الانتقال إلى آمد Amida طلباً لتسامح أكثر في بلاد الكفار[242].

لقد منعت الكنيسة الرّسمية نصارى أرمينيا من استعمال النّواقيس[243].

وكثيراً ما كان رجال الشّرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النّصرانية لمنعهم من المشاجرات، حتى عيَّن حاكم أنطاكية في القرن الثّالث الهجري شرطياً يتقاضى ثلاثين ديناراً من النّصارى في الشّهر، وكان مقرّه قرب مذبح الكنيسة، ومهمته منع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً[244].

حدثت فوضى عارمة واضطرابات في السّنة العشرين من القرن الرّابع الهجري بعد انتخاب أسقف تنيس Tennis (بمصر)، ولم يعد الأب يكلّم ابنه ولا المرأة تخاطب زوجها. وكانت النّتيجة أن استعانوا بالحكومة التي ما كان منها إلا أن وضعت ختماً على باب الكنيسة الرّئيسية[245].

وفي سنة 200 هـ - 815 م أراد الخليفة المأمون أن يصدر كتاباً لأهل الذِّمَّة[246] يضمن لهم حرّية الاعتقاد وحرّية تدبير شؤونهم الكنسية، بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم - ولو كانوا عشرة أشخاص - أن يختاروا زعيمهم الخاص، وأن يعترف الخليفة به. لكن كانت النّتيجة أن هاج رؤساء الكنائس وأحدثوا شغباً، فعدل المأمون عن إصدار الكتاب.

أمّا فيما يتعلّق ببناء الكنائس فقد كانت الدّولة السّاسانية أكثر تسامحاً من القانون الرُّوماني في العهد الأخير الذي كان يحرِّم على اليهود إنشاء كنائس جديدة لهم، وإنما يسمح لهم فقط بإصلاح ما تهدّم منها. أما في الإسلام فنجد أن سياسية الدّولة تجمع في أوقات متتابعة بين تسامح العجم وتعصّب

الرُّومان، فكان يُسمح للنّصارى أحياناً ببناء كنائس جديدة، وأحياناً كانوا يُمنعون حتى من إصلاح الكنائس القديمة. فيما بين عامي 169 و171 هـ - 785 و787 م هدم والي مصر الكنائس حديثة البناء هناك مع أنه قد عُرض عليه مبلغ خمسين ألف دينار كرشوة. ويذكر المؤرّخ هذه الحقيقة بإعجاب وتقدير. ثم جاء بعده والٍ آخر، فأذن للنّصارى بإعادة بناء تلك الكنائس وأقرّ المرسوم الذي يعدّ بناء الكنائس جزءاً من النّظام الاقتصادي للبلاد، واحتجّ على ذلك بأن عامّة الكنائس التي بالقاهرة إنما بُنيت في عهد قوة وهيمنة الإسلام[247]. وفي عام 300 هـ - 912 م هدم المسلمون كنيسة في تنيس (بمصر) فأعانت الحكومة النّصارى حتى أعادوا بناءها[248]. وفي سنة 326 هـ - 938 م بذل النّصارى للأمير مالاً ليوافق على ترميم كنيسة أصابها الخراب، فقال: خذوا فتوى الفقهاء؛ فأما ابن الحداد فأفتى بألا تُعمَّر، وأفتى بذلك المالكيون أيضاً، أما محمّد بن علي فقد أفتى بأنّ لهم أن يرمّموا الكنائس القديمة ويعمروها. ولما ذاع ذلك عنه، أشعل عامّة النّاس في داره النّار وطلبوا منه الرّجوع والتّوبة عن فتواه. ثارت الرّعية وأغلقت الطّرقات وأحاطت بالكنيسة؛ ولما جاء العسكر ليحافظوا على النّظام رماهم النّاس بالحجارة فأمر الحاكم بانسحابهم، ثم استدعى المفتي أبا بكر بن الحداد الذي أصدر الحكم ضد النّصارى، وقال له: «اذهب إلى الكنيسة، فإن كانت قائمة فاتركها على حالها، وإلا فاهدمها، لعنهم الله!» أخذ ابن الحداد معه مهندساً، فدخل الكنيسة وبيده شمعة، فتفحَّصها ثم قال: تبقى هكذا خمس عشرة سنة، ثم ينهار جزء منها. أما الباقي فيصمد إلى تمام الأربعين، وإذا لم يتمَّ ترميمها ستسقط جميعها. بناءً على هذا التّقرير منع الأمير إعادة عمارتها، وفي عام 366 هـ - 976 م أعيد ترميمها قبل تمام أربعين سنة، فتمَّ بذلك إنقاذها[249].

كـان أهل الذِّمَّة يُعامَلون في مشافي العاصمة معاملة المسلمين. ولكن حدث وباءٌ في أوائل القرن الرّابع، فوجَّه الوزير طبيب الخليفة، وهو الذي كان يتولّى المعالجة وإعطاء الأدوية للمرضى خارج بغداد، بأن يُعالَج المسلمين قبل أهل الذِّمَّة[250]. وكان موتى المسلمين وأهل الذِّمَّة يُدفنون كلّ على حدة، ولكن يُروى أنه في عام 319 هـ - 931 م جاء إلى تكريت في العراق سَيْلٌ كبير، فدُفن المسلمون والنّصارى مجتمعين لا يُعرف قبرُ أحدهم من الآخر[251]. لم يكن هناك أحياءٌ مخصّصة لليهود والنّصارى، وإن آثر أهلُ كل دين العيش متقاربين. وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية.

ولمّا كان الشّرع الإسلامي خاصًّا بالمسلمين فقد خلّت الدّولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصّة بهم؛ والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كَنَسيَّة، وكان رؤساء المحاكم الرّوحيون يقومون فيها مقام كبار القُضاة أيضاً؛ وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون. ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزّواج والميراث بل كانت تشمل إلى جانب ذلك أكثر المنازعات القائمة بين المسيحيين والتي لم تتدخل الدّولة بها. على أنه كان يجوز للذّمّي أن يلجأ للمحاكم الإسلامية؛ ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرّضا، ولذلك ألّف الجاثليق تيموثيوس Timothius حوالي عام 200 هـ - 800 م كتاباً في الأحكام القضائية المسيحية لكي يقطع كل عذر يتعلّل به النّصارى الذي يلجأون إلى المحاكم الإسلامية بدعوى نقصان القوانين المسيحية[252]. وفي الفصلين الثّاني عشر والثّالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموثيوس على من يذهب طائعاً إلى المحاكم الإسلامية أن يتوب ويتصدّق، ويقوم على المسح والرّماد[253]. ثم جاء خليفته فقرّر العزل أيضاً. وفي عام 120 هـ - 738 م كان قاضي مصر القديمة يجلس في المسجد

يحكم في قضايا المسلمين، ثم يجلس على درج المسجد بعد ذلك ليقضي بين النّصارى[254]. ثم خصّص القاضي للنّصارى يوماً يحضرون فيه إلى منزله ليحكم بينهم، حتى جاء القاضي الذي ولي قضاء مصر عام 177 هـ - 793 م، فأدخل النّصارى إلى المسجد ليحكم بينهم. وعلى أي حال فإن الدّولة الإسلامية لم تجبر الذّمّي على الخضوع لحكم القاضي إن لم يرغب بذلك[255]. لكنه إن خضع لحكم قاضي الإسلام فعليه المضي بذلك ويُقضى له وفقاً للشّريعة الإسلامية[256].

ولا نجد فيما وصلنا من القوانين التي وضعها البطاركة سوى عقوبات دينية كنسية؛ فمنها التّوبيخ أمام النّاس، والقيام على المسح والرّماد أمام الكنيسة، ودفع كفارة مالية للكنيسة، والمنع من حضورها والحرمان من القربان المقدَّس والدّفن على الطّريقة النّصرانية[257]. ومن أمثلة العقوبة أن النّصراني الذي يعتدي على نصراني آخر يُمنَع من دخول الكنيسة ومن القربان المقدَّس شهرين، ويقف كلَّ يومٍ أحد على المسح والرّماد، وعليه أن يتصدّق على الفقراء حسب قدرته[258]. أما في الأندلس فنعلمَ من مصدر جدير بالثّقة أن النّصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضي إلا في مسائل القتل؛ فكانوا يقدّمون المتهم إليه ويعرضون أدلّتهم، فإذا قال القاضي «حسن»، أُعدم المجرم[259].

ويقول الرّابي بتاخيا إنّ رؤساء اليهود في الموصل كانوا هم الذين يعاقبون مرؤوسيهم، حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة مسلماً؛ وكان بالموصل سجن يُسجن فيه المتّهمون[260].

وأكبر ما كان يُحْرَم منه أهل الذِّمَّة ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً أنه لم يكن يُسْمح بالتّقدّم للشّهادة أمام القضاء، كأنهم عبيد. وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يُقبل شهادتهم على أهل دينهم، ولكن وضع البعض استثناءات لذلك[261].

وكان أهل الذِّمَّة، بحكم ما يتمتّعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم بهم، يدفعون الجِزية، كل واحد منهم بحسب قدرته؛ وكانوا ثلاث طبقات: تدفع الدّنيا منها اثني عشر درهماً، والوسطى أربعة وعشرين، والعليا ثمانية وأربعين درهماً في السّنة، أو ديناراً ودينارين وثلاثة في البلاد التي تتداول العملة الذّهبية؛ وكانت هذه الجِزية أشبه بضريبة للدّفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرّجل القادر على حمل السّلاح، ويُستثنى منها ذوو العاهات والرُّهبان إن لم يكونوا يعيلون أنفسهم[262].

حتى في الإمبراطورية البيزنطية كانوا يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً في السّنة[263]؛ وكذلك فرض النّصارى على المسلمين الجِزية لما احتلّوا بلادهم[264]. على أنّ غالبية دافعي الجِزية كانوا يدفعون الحد الأدنى، حتى أن بنيامين يقول إن اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً[265]. وكذلك يقول بتاخيا إنّ اليهود في العراق لا يدفعون شيئاً للخليفة، وإنما يدفع الواحد منهم في كل عام ديناراً واحداً لرأس الجالوت[266] ראש גלות. ويحكي البندقي بايلو مرسيليوس جورجيوس Bailo Marsilius Georgius في أكتوبر سنة 1243 م، وهو في مدينة صور أن كل يهودي متى بلغ الخامسة عشرة يدفع في كل عام ديناراً بيزنطياً لعاملنا، وذلك في عيد القدّيسين[267].

وقد ظلت الجِزية بوجه عام عند المقدار الذي فرضته الشَريعة، وإنما كانت تتغير تغيراً يسيراً بحسب تغيّر العملة.

وكانت الحكومة في مصر في بداية القرن الثّالث الهجري تكتفي بأخذ نصف دينار؛ ولكن في سنة 300 هـ - 1000 م فرض البطريرك جورجيوس المصري على أتباعه دفع دينار ونصف بعد أن كانوا يدفعون نصف دينار [268].

وكذلك يخبرنا البطريرك ديونيسيوس التَّلمحْري، وكان بمصر زائراً، حوالي عام 200 هـ 815 م عن مدينة تنيس المشهورة بصناعة النّسيج، فيقول: مع أن مدينة تنيس عامرة بالسّكان وكثيرة الكنائس، فإني لم أرَ من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها؛ وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني: إن مدينتنا مُحاطة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية؛ والماء الذي نشربه يُجْلب لنا من بعيد، ونشتري الجرّة منه بأربعة دراهم؛ ولا شغل لنا سوى نسيج الكتّان، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه، ويعطينا التّجار مقابل ذلك نصف درهم في اليوم. ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن على كلٍّ منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير. وفي ذلك نُضرب ونُسجن ونُلْزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن، فيُلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار. ولو ولدت عندهم فتاة أو امرأة طفلاً فإنهم يجعلوننا نقسم على أن لا نطالب به؛ وقد يحدث أن تحلّ ضرائب جديدة قبل إطلاق سراح هؤلاء النّساء. فأجابهم البطريرك أنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت منهم الجِزية أن يدفع الغني ثمانية وأربعين درهماً والمتوسط أربعة وعشرين والفقير اثني عشر درهماً[269]. وكانت الجِزية تؤخذ على أقساط بقيمة ستة دراهم أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة[270] أو اثنين.

كانت الضّريبة تُجبى في أول الأمر بالعراق كل شهر، وذلك لأن عُمّال المسلمين كانوا يتقاضون مرتّباتهم في كل شهر؛ وكذلك كان الحال في الأندلس في القرن الثّالث الهجري[271]. ولكن في عام 366 هـ - 976 م صدرت الأوامر بأن تؤخذ الجِزية في الشّهر الأول من كل سنة، وألا تؤخذ من النّساء والقاصرين والعجائز والعاطلين عن العمل والفقراء والرُّهبان[272]. وكانت العادة جارية بإعطاء براءة لمن يدفع الجِزية، وفي العصور السّيئة كانت تعلّق على رقبة أهل الذِّمَّة علامة البراءة، وتُخْتم أيديهم[273]. وهذه العادة قديمة جداً في العراق حيث كانوا يعلّقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار مخروطية الشّكل مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيّده (المشرق، ج 5 ص 651). وكان اليهود في عهد التّلمود يعلّمون عبيدهم بالختم على الرّقبة أو الثّوب.

انظر:

Krauss: Talmudische Achäologie, II, S. (89)

وفي عام 500 م كان حاكم مدينة الرُّها Edessa يعلّق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون رطل خبز كل يوم قطعة من الرّصاص مختومة[274].

على أن الفقهاء القدماء، مثل أبي يوسف ويحيى بن آدم لم يقولوا شيئاً في هذا الباب؛ ويظهر أن هذا الأمر نادراً ما كان يقع. ويقول ديونيسيوس التلمحْري Dionysius von Tellamachre (توفي عام 845 م)، إنه كان من الممارسات الشاذة لحصر أهل الذِّمَّة ومعرفة عددهم أن يُرسل مع عُمّال الضّرائب ختّامون يختمون كل واحد باسم بلده واسم قريته، فكانوا يطبعون على يده اليمنى اسم بلدته وعلى اليسرى بلاد الرّافدين، ويعلّقون على رقبة كل رجل حلقتين على إحداهما اسم البلدة وعلى الأخرى اسم المقاطعة. وكانوا يتقاضون ثلاثة دراهم كرسم للأختام عن كل ثلاثة أشخاص. وكانوا يسجلون اسم الشّخص وأوصافه الجسمية ومسكنه، فينشأ عن هذا فوضى كبيرة؛ إذ يؤدّي إلى القبض على كثير من الغرباء، فيذكرون أسماء مساكن لهم فتُقيَّد، ولا تكون لهم هذه المساكن في الحقيقة. ولو أن هذا النّظام اتبع لفترة أطول لأحدث من الفساد أكثر من كل ما تقدَّمه من الأنظمة؛ وإذا وجد العامل أن ما لديه من عمل لا يكفيه فإنه يذهب إلى أي جهة تصادفه، ويقبض على الغادين والرّائحين؛ وقد يطوف بالمكان الواحد أكثر من عشرين مرة، ولا يهدأ له بال حتى يصل إلى تقييد جميع السّكان بحيث لا يفلت منهم أحد؛ وهكذا وقع ما قاله النّبيّ دانيال والحواري يعقوب James: كل النّاس طُبعوا بطابع هذا الحيوان على أيديهم وصدورهم وظهورهم[275].

من الواضح أن البطريرك ديونيسيوس لا يتكلّم هنا عن الختم والعلامات باعتبارها شيئاً عادياً.

لكن شاعراً بَصْرياً من العصر العبّاسي الأول يقول[276]:

موضع الخاتم من أهل الذّمم	ختم الحبُّ لها في عنقي

وقد روى الجاحظ (توفي عام 255 هـ - 869 م) نقلاً عن أحد الكتّاب أنه من صاحب الحانة أن يكون ذِمِّياً مختوم العنق[277]، وقد وُجدت حول مدينة هَمَذان علامة من هذا النّوع يرجع تاريخها إلى السّنة الأولى من القرن الرّابع الهجري. ولدينا دليل صريح على أنه كانت تكتب لأهل الذِّمَّة في الرّبع الأول من القرن الرّابع براءةٌ مختومة عند أدائهم للجِزية[278].

لم يكن رجال الدّين المسيحيون العاديّون يُعفون من الجِزية، لكنّ الرُّهبان منهم يعيشون على الصّدقات كالمتسوّلين ويُعفون من الجِزية[279]. وفي مصر عام 312 هـ - 942 م أخذت الجِزية من جميع الرُّهبان والأساقفة بأسفل مصر وصعيدها، ومن رُهبان شبه جزيرة سيناء؛ فارتحل قوم من الرُّهبان إلى بغداد واشتكوا إلى الخليفة المُقتدِر، فكتب لهم ألا تُؤخذ الجِزية من الرُّهبان ولا من الأساقفة أبداً[280].

وحتى في عام 1664 م كان جميع الأوروبيين وغير المتزوجين من الكنيسة القِبْطية والبطاركة وجميع الأتراك (أي المسلمين) يُعفون من الجِزية بمصر[281].

ولم يكن أخذ الجِزية أرحم من جباية غيرها من الضّرائب، فهي تحصَّل بشكل عنيف قاسٍ مع أن الشّريعة الإسلامية قد نهت عن القسوة في تحصيلها، وحرَّمت اتباع الأساليب القديمة القاسية، من الاعتداء والتّعذيب وإبقاء النّاس تحت أشعة الشّمس الملتهبة وصب الزّيت على رؤوسهم ونحو ذلك؛ وإنما كان المتخلّف عن دفع الجِزية يوضع في الحجز إلى أن يؤدّيها[282].

أمّا ما يتعلّق باللباس؛ فقد أمر هارون الرّشيد عام 191 هـ - 807 م[283] بأن يستعمل أهل الذِّمَّة الحبل بدلاً من الحزام، وأن تكون قلانسهم مخيطة، وأن يلبسوا نعالاً مختلفة عن تلك التي يلبسها المسلمون، وأن يستبدلوا الشّرابات في سروجهم بقطع مدورة من الخشب، وألا تركب نساؤهم الخيل، بل يكتفين بركوب الحمير [284].

وكان اليهود في القرن الثّاني (الثامن الميلادي) يلبسون قبعات عالية شبّهها بعض الكتّاب بالسّارية أو بالإبريق[285]. وكان النّصارى في ذلك الوقت يلبسون البرانس، ولما صارت القلانس الطّوال عند المسلمين لباساً قديماً لبسها النّصارى وصارت مميزة لهم[286].

أما اللّون فلم يصلنا في الأنظمة القديمة أن أحداً أُلزم باتخاذ لون معين؛ ويظهر أن هذه المسألة كانت مجرّد عادات محليَّة[287]. يصف الجاحظ (توفي عام 255 هـ - 869م) العادات المتبعة في العراق فيقول إن الخَمَّار يجب أن يكون ذمّيًّا، ويكون اسمه آذين Adin أو مازبادا Mazbar أو أزدانقاذا Azdankad أو ميشا Misa أو شلوما Sluma، وأن يرتدي ثياباً سوداء وبيضاء مرقطة وأن يكون مختوم العنق.

وقد حدث في عهد هارون الرّشيد أن أساء النّاس لذكر القاضي في المسجد، وكانوا قد كرهوه، لكن القاضي وقف عند باب المسجد ونادى بأعلى صوته: «أين أتباع الأكنسية العسليَّة؟ أين أبناء البغايا؟ لم لا يتكلّم متكلّمهم بما شاء حتى أراه وأسمعه؟»[288].

وقد صدر أمر الخليفة في عام 235 هـ - 849 م بارتداء غير المسلمين هذه الطّيالسة العسلية. ومن أراد لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين (القبعة المدبّبة) فليجعل عليها زرَّيْن مختلفين في اللون المستخدم في قلانس المسلمين. وكذلك أمر بأن يجعل عبيد النّصارى واليهود على لباسهم رقعة عسلية بعرض أربعة أصابع عند صدورهم وظهورهم، كما يُمنعون من لبس المناطق وأمرهم باستبدالها بأشرطة تلفّ حول الخصر، بالإضافة إلى تثبيت صور شياطين من الخشب على أبواب منازلهم[289]. وفي عام 239 هـ - 853 م أمر الخليفة أن يقتصر أهل الذِّمَّة في ركوبهم على البغال والحمير، وعدم ركوب الخيل[290]. لكن هذه الإجراءات كانت دون فائدة؛ وكان أهل الذِّمَّة يمتنعون عن تنفيذها. وفي سنة 227 هـ - 885 م ثار عامّة بغداد على النّصارى لأنهم خالفوا وركبوا الخيل[291]. ونجد الشّاعر ابن المُعتزّ يشكو حوالي عام 290 هـ من مغالاة النّصارى في ركوب البغال واستعمال سروج الخيل، ومن ظهورهم بمظهر مماثل للمسلمين (ديوان ابن المُعتزّ، ج 2 ص 9؛ ابن تَغْري بِرْدي، ج 2 ص 181). وقبل بداية القرن الرّابع بأربع سنين عادت القوانين الخاصّة باللباس إلى الظّهور، وشُدِّدَ في أمرها، ثم لم نسمع عنها شيئاً في القرن الرّابع كله؛ فقد خمدت ولم

تظهر إلا عندما قوي أمر أهل السُّنّة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث عادت بشكل جدّي.

وفي عام 423 هـ - 1031 م اجتمع جاثليق النّصارى، ورأس جالوت اليهود ראש גלות في حشد من أبناء طائفتيهما، من باب الأخوة في الدّين، وأرادوا نيل مزايا ومكانة مشابهة لتلك التي للمسلمين. وفي هذه المرة، كما في سابقاتها، جاء الحكم ليقرّر منع أهل الذِّمَّة من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين. وأول من ذكر هذه الحقيقة فيما أعلم هو الماوردي[292]. وقد سرت هذه الفكرة بعد ذلك إلى الغرب، فنجد البابا إنوسنت الثّالث Innocent III يشكو من أن يهود سانس Sens بنوا كنيساً لهم يعلو على كنيسة مسيحية مجاورة له[293].

لم يكن الاستهزاء والبغضاء بين الأديان أقلّ منه بين الأجناس؛ ومن أمثلة ذلك وصف اليهود بأنهم نتِنون[294]، وكذلك وُصف النّصارى بشدّة السُّكْر وخصوصاً غداة عيد الفصح[295]، وبأن راهباتهم وشمامستهم ضُعفاء الفضيلة. وكذلك يُرمى الصّابئة بأن قلوبهم قاسية بين بعضهم[296].

كان المسلمون المثَقَّفون يعلمون تماماً أن المسيحية قد حثّت على المحبّة والوداعة أكثر ممّا حثت عليه جميعُ الدّيانات؛ ولكنهم كانوا يرون أن النّصارى قلّما يعملون بذلك؛ يقول الجاحظ (توفي عام 255 هـ - 869 م) إن كل الأعمال القاسية تأتي من قِبَل الرُّوم؛ ومن العجب أنهم يدَّعون الرّحمة والرّأفة ورقّة القلب[297]. وكذلك تكلّم البيروني عن فلسفة نبيلة بينهم منها رمي القميص خلف من يغتصب الرّداء، وتمكين لاطم الخدّ من الخدّ الأخرى، والدّعاء للعدو بالخير؛ لكن أهل الدّنيا ليسوا بفلاسفة كلهم، ومنذ تنصَّر الإمبراطور قنسطنطين عمد إلى اتخاذ السّيف وسيلة لحكم المملكة النّصرانية[298].

ومن الأمور التي تعجّب لها كثرة عدد العُمّال والمتصرّفين غير المسلمين في الدّولة الإسلامية؛ فكان النّصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام[299]؛ والشّكوى من تحكم أهل الذِّمَّة في حياة المسلمين وأملاكهم شكوى قديمة[300]؛ ويُروى أن عُمَر بن عبد العزيز الخليفة الأموي قد حذّر من تقليد النّصارى واليهود مناصب في الدّولة[301].

وقد قُلّد منصب قائد جيش المسلمين لرجل نصراني مرّتين في القرن الثّالث، وصار جنود الحق يقبّلون يديه ويمتثلون بأمره[302]. وكان المتصرِّفون النّصارى واليهود يقسمون اليمين، شأنُهم شأن المسلمين؛ وقد وردت في كتاب ديوان الإنشاء[303] الذي أُلِّف عام 840 هـ 1436 م صيغة اليمين الذي كان يقسمه اليهود في ذلك العهد؛ وذُكر أن أوّل من استحدثها هو الفضلُ بن الرّبيع وزير هارون الرّشيد، واحتُفظ بها منذ ذلك العهد كنموذج ثابت.

كانت الحركات التي يُقصد بها مقاومة النّصارى موجَّهة أولا إلى محاربة تسلُّط أهل الذِّمَّة على المسلمين، وهو أمر يثير حنق المسلم الحق[304]. وفي عام 235 هـ - 849 م أمر الخليفة ألا يُستعان إلا بالمسلمين في المناصب الحكومية؛ وبناءً على ذلك أمر بعزل النّصارى عن وظيفة قياس مستوى نهر النّيل. لكن هذا الخليفة نفسه بنى بعد عشر سنين قصراً وأوكل أموره إلى موظف

نصراني[305]؛ وفي عام 296 هـ - 909 م كان الموظفون النّصارى قد علا شأنهم وقويت شوكتهم، فأمر المُقتدِر بإصدار قوانين صارمة بحقهم[306]؛ لقد أمر بألا يُستخدم أحد من اليهود والنّصارى إلا في الطّب وجباية الضّرائب[307]، لكن أمر المُقتدِر كان ضعيف الأثر إلى درجة مضحكة؛ فقد كان وزيره الخاص يدعو أربعة من النّصارى إلى طعامه كل يوم، وكانوا من بين الكُتّاب التّسعة الذين اختصّ بهم[308]. وكان الموظفون المسيحيون منتشرين في كل مكان وكان الأمر كذلك لدى الطّاهريين في القرن الثّالث[309]. وفي عام 319 هـ - 931 م كان لا بدّ لمن يسعى للوصول إلى الوزارة من التّودّد إلى إبراهيم، الكاتب النّصراني الخاص بالأمير، وإلى إصطفان كاتب القائد مؤنس[310].

وكان أحدهم يسعى للحصول على منصب حكومي فيتقرّب إلى النّصارى بأن يقول لهم: «إن أهلي منكم، وأجدادي كانوا موظفين في الإمبراطورية البيزنطية، وإن صليباً سقط من يد عبيد الله بن سليمان، جدِّي، في أيام المعتضد، فلما رآه النّاس قال: هذا شيء تتبرّك به عجائزنا، فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم»[311]. ولقد كان تقدير هذا الوزر صائباً، ففي عهد المُقتدِر نفسه الذي أراد إقصاء النّصارى عن المناصب العامّة، تقلّد هذا الرّجل الذي كان يتقرّب إلى النّصارى ويتملّقهم منصب الوزارة. ونجد أن زعيم المتآمرين على القائد القوي مؤنس كان خادماً عبداً يدعى مفلح، وكان الأمر كله بيد كاتبه النّصراني[312]. وفي عام 324 هـ - 935 م مات إصطفان النّصراني صاحب الخزينة الخاصّة بالخليفة[313]. وكذلك اتخذ أوَّل البُوَيْهيين كاتباً نصرانياً له[314]؛ إذ لما خرج وزير عضد الدّولة إلى البصرة استخلف فيها رجلاً نصرانياً نائباً عنه[315]. وكذلك كان للخليفة الطّائع (363-381 هـ = 973-991 م) كاتبٌ نصراني[316]. وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع اتخذ كل من عضد الدّولة (توفي عام 372 هـ - 982 م) في بغداد والخليفة العزيز في القاهرة وزيراً نصرانياً. وقد استأذن وزير عضد الدّولة سيّده في عمارة الكنائس والأديرة وفي مساعدة فقراء النّصارى بالمال اللازم، فأذن له[317].

وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام بأنه يجوز للنّصراني أو اليهودي شغل منصب الوزير (في وزارة التّنفيذ) شريطة عدم منحه سلطات مطلقة. وقد وُلي على مدينة بوره المصرية Burah عامل مسيحي، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس اللباس العبّاسي الأسود وتقلّد بالسّيف والمنطقة، وركب إلى المسجد، ثم توقف عند الباب حيث يدخل نائبه، وكان مسلماً يصلي بالنّاس ويخطب، ثم يخرج إليه[318]. ويُروى أن أحد المتصوّفين أنزل وزيراً نصرانياً عن دابته، فأصدر الأمير أمره بإلقائه إلى السّباع[319].

وفي عام 389 هـ - 999 م أوكل إلى الكاتب النّصراني فهد أمر محاكمة كل من اتهم باختلاس أموال اليتامى وأموال المخازن والمستودعات بعد وفاة القاضي، فقام ببيع الأملاك التي تركها القاضي وفصل عن العمل كل من كان مسؤولاً عن تلك الأموال، بمن فيهم بعض رجال الدّين ذوي النّفوذ والسّلطة[320].

ومن العجيب أنه على الرّغم من هذا الوضع الذي لم يكن طبيعياً لا نجد المؤرّخين، حتى المسيحيين منهم، يذكرون إلا قليلاً من الاضطرابات بين المسلمين وأهل الذِّمَّة في القرن الرّابع الهجري. في عام 312 هـ = 924 م قام سكان دمشق بنهب كنيسة كبيرة، واستولوا على ما تبلغ قيمته مئتي ألف دينار من صلبان وكؤوس وأطباق ومباخر ووسائد.

ولقد نهبوا عدة أديرة كذلك[321]. وفي الوقت ذاته هُدمت ثلاث كنائس بالرّملة، لكن أعيد بناؤها بأمر من الخليفة[322]. لكن أسقف عسقلان لم ينجح في الحصول على أي شي عندما خرج بشكواه إلى بغداد مطالباً بالتّعويض عن حرق كنيسة القديسة مريم فيها. ويُقال إن اليهود قد ساعدوا المسلمين في ذلك، فكانوا يشعلون النّار في الحطب ويجرّونه إلى أعلى السّقف حتى يحرقوه ويذوب رصاصه فتقع أعمدته[323].

وفي عام 329 هـ - 937 م ثار المسلمون في بيت المقدس ونهبوا بعض الكنائس[324]. وفي سنة 381 هـ - 991 م استهزأ رجلان من المسلمين بمنجّم مسيحي لأنه لم يكن يحمل الشّارة المميزة للنّصارى. شكا ذلك إلى رئيسه، فسجنهما فنُهبت كنيستان على إثر ذلك؛ وقد هدأ الجاثليق الأمر بتقديم هداياه النّفيسة[325]. وقد هاج المسلمون أيضاً لأنهم وجدوا خنزيراً في أحد المساجد، وقيل إن النّصارى هم الذين رموه. وفي عام 392 هـ - 1002 م ثار العامّة في مدينة بغداد لمقتل أحد المسلمين، فقاموا بإحراق إحدى الكنائس، فانهارت وسقطت على جماعة من النّاس وقتلتهم[326].

وفي عام 403 هـ - 1012 م توفّيت ابنة أحد الأطباء المسيحيين، وهي زوجة موظف مسيحي ذي منصب رفيع. وأخرجت جنازتها نهاراً، ترافقها الشّموع والطّبول والابتهالات والرُّهبان والنّوائح؛ فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك، ورَجَم الجنازة بالحجارة، فوثب أحد رجال الدّين من حاشية الموظف الحكومي فضربه بهراوته فشَجَّه، وهرب النّصارى بالجنازة إلى كنيسة حي الرُّوم. ثار العامّة، ورُفعت المصاحف في الأسواق، وأغلقت أبواب الجوامع، واحتشد النّاس أمام قصر الخليفة. وطلب الخليفة من الكاتب تسليم الرّجل الآثم، فامتنع. وقد تبع ذلك نشوب قتال بالقرب من داره.

وقيل إن رجلاً علوياً قد قُتل، فزادت حدّة الأمر؛ وامتنع النّاس عن أداء الصّلوات وأمسك العامّة بقوم من النّصارى فقتلوهم، وبعد مفاوضات عدة تمّ تسليم المذنب النّصراني إلى الخليفة، ثم أُطلق سراحه بعد فترة وجيزة[327]. كانت هذه الحوادث قليلة جداً في بغداد. أما في مصر فكانت العلاقات بين المسلمين والنّصارى متوتّرة؛ فقد كان في مصر كنيسة متّحدة ضد المسلمين، وكان بها شعبٌ غير عربي يقف في وجه العرب. ولم يبدأ القِبْط بنسيان لغتهم القِبْطية إلا حوالي أواخر القرن الرّابع[328]. وفي القرنين الأوّلين للهجرة لم تنقطع ثورات القِبْط؛ بل تتابعت حتى أُخمدت آخرها عام 216 هـ - 831 م. في ذلك الوقت كان كل أفراد الطّبقة الوسطى في مصر من النّصارى؛ وكان بين العرب والقِبْط من قلّة التّفاهم ما كان بين الرُّوم والمصريين من قبل، وذلك على الرّغم من أن الأقباط قد أدخلوا منذ أول الأمر في الحديث أحاديثَ يوصي فيها النّبيّ بالأقباط خيراً؛ ومن هذه الأحاديث ما يبيِّن بكل جراءة الدّور الذي يقوم به الكتّاب النّصارى في الدّولة الإسلامية، ففي حديث ذكروه جاء أن القِبْط أعوان للمؤمنين يكفونهم أعمال الدّنيا[329].

ولقد قام الأقباط بهذا الدّور خير قيام حتى إن أكثر الفتن التي وقعت بين النّصارى والمسلمين بمصر نشأت بسبب المتصرفين الأقباط.

ولما جاءت انتصارات الرُّوم على المسلمين حوالي منتصف القرن الرّابع الهجري كان لها صداها في مصر؛ ولما ورد الخبر بأن الرُّوم قد دخلوا الشّام عام 389 هـ - 960 م وقتلوا وخرّبوا هاج المسلمون في الجامع القديم بالقاهرة بعد صلاة الجمعة ونتج عن ذلك تهديم كنيستين[330]. ولما استعاد الإمبراطور نقفور Νικηφόρος جزيرة إقريطش Κρήτη في العامِ التّالي ووصل خبرُ ذلك إلى مصر ثار المسلمون وقصدوا كنيسة ميخائيل المَلَكِيَّة ونهبوها، وظلّت مغلقة مدّة طويلة وأبوابها مطمورة بالتّراب[331].

وقد أظهر خُلفاء الفاطميين الأوائل لأهل الذِّمَّة تسامحاً عجيباً كونه صدَر عن مثل أولئك الزّعماء المتعصّبين؛ فقد كان للخُلفاء الفاطميين أطباءُ من اليهود، ولم يضطر هؤلاء الأطباء إلى اعتناق الإسلام[332]. وفي بلاط المُعِزّ صار لا يُعمل شيء إلا بمعونة اليهود. عرف ذلك الوزير الدّاهية ابن كلِّس Ibn Killis الذي كان يهودياً، فأسلم وصار يتحيّز إلى إخوانه السّابقين في الدّين[333]. وكانت النّزعة العقلية في مذهب الإسماعيلية قد مهّدت للمناقشة العلنية بين المسلمين والنّصارى لأول مرّة في تاريخ الإسلام[334]. وفي عهد العزيز ازداد في البلاط إكرام النّصارى؛ وذلك أنه كان للعزيز صلات تربطه بالمسيحيين، ومنهم أرِسْتِس Aristes الذي صار رئيس الأساقفة في مصر. وقد كان للنّصارى بشكل عام مكانة كبيرة لدى الخليفة.

ولا عجب بعد هذا أن نجد الشّاعر يتغنّى بهذه الأبيات:

تنصّر فالتّنصر دين حق	عليه زماننا هذا يدلّ
وقلْ بثلاثة عزُّوا وجلّوا وعَطِّل	ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبٌ وهذا العزيز	ابن وروح القدس فضل

ولما طالب النّاس بمعاقبة الشّاعر طلب الخليفة من يعقوب وفضل أن يعفيا عنه[335]. ثم إن هذا الخليفة نفسه استوزر بعد ذلك عيسى بن نسطورس النّصراني واستناب بالشّام يهودياً اسمه منشّا Manassah. لكن ذلك كان فوق ما يحتمل النّاس فطالبوا بعزل الرّجلين وأذعن الخليفة لطلبهم[336]. وفي عهد هذا الوزير النّصراني وقعت فتنة بين المسيحيين والمسلمين.

لمّا خرج الإمبراطور باسيليوس إلى الشّام لفتحها، جهّز الخليفة المصري أسطولاً عام 386 هـ - 996 م، لكنه أحرق وهو لا يزال راسياً في الميناء. اتهم النّاس تجّار الرُّوم بإحراقه، فثاروا عليهم وقتلوا منهم مئة وستين رجلاً، ثم تحوَّلوا من الرُّوم إلى نهب كنائس السّكان النّصارى، وجُرح في هذا الشّغب أسقفُ النّسطوريين جراحات مات فيها. وقد أعاد الوزير النّظام إلى نصابه واعتقل ثلاثة

وستين من المعتدين، وتوجَّب على كل واحد منهم اختيار رقعة من ثلاث رقاع كَتب على الأولى «تُقتل»، وعلى الثّانية «تُضرب»، وعلى الثّالثة «تُطلَق»؛ وأمر كل رجل أن يسحب رقعة منها بعد أن وُضعت تحت إزار، وكان يُعمل به بحسب ما يخرج في يده[337].

وفي عام 393 هـ - 1003 م بدأت العاصفة التي أثارها تعصّب الخليفة الحاكم تهبّ عاتية[338]. ولمّا رأى العامّة موقف الخليفة بدأوا يهدمون الكنائس، وبنى الخليفة مكانها مساجد، منها الجامع الأزهر المشهور. لكنه لم يكتفِ بذلك، فقد أعاد قوانين اللباس القديمة بأشدّ صورها، فألزم النّصارى بتعليق صلبان خشبية في أعناقهم، ومُنعت مواكبهم العامّة، وحُظِر عليهم ضرب النّواقيس؛ وأمر بألا يظهر صليبٌ خارج الكنائس وإلا سيتمّ كسره وتدميره؛ وهُدمت الكنائس الكبرى مثل كنيسة القبر المقدّس Holy Sepulchre بالقدس ودير القصير الكبير المبني على سفح جبال المقطّم، كما انتهك المسلمون حُرمة المقبرة الكبرى. لكن الحاكم لم يكن يرغب بذلك، فأمر بمنعه بمجرّد عِلمه به. وعلى الرّغم من هذا كله، فقد اتخذ الحاكم من منصور بن سعدون النّصراني وزيراً له، ووظف أطباء نصارى طول هذه المدّة. وقد تقدّم بإثبات أسماء المسلمين ذوي الكفاءة الذين يصلحون للخدمة في دواوينه ليستعيض بهم عن النّصارى؛ وكان سائر كُتابه وموظفيه وأطباء مملكته حتى ذلك الحين من النّصارى. وفي يوم الخميس الثّاني عشر من شهر ربيع الثّاني سنة 403 هـ (1012 م) اجتمع سائر من بمصر من الكتّاب وجُباة الضّرائب والأطباء والأساقفة والكهنة وتوجهوا إلى قصر الخليفة وقد كشفوا عن رؤوسهم ومشوا حُفاةً باكين مستغيثين إليه يسألونه العفو والصّفح، وصاروا يُقبّلون التّراب أمام قصره. أرسل الحاكم أحد عُمَّاله، وأخذ منهم رقعة كانوا قد كتبوا فيها شكواهم، ثم عاد الرّسول إليهم بردٍّ لطيف مطمئن. فلما كان يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الثّاني صدر أمر بزيادة حجم الصّلبان التي في رقاب النّصارى، وأن يجعلوا أذرعها بطول قدمين وثخانتها بثخانة الإصبع. كما أمر اليهود بتعلِيق كرات في أعناقهم وزن الواحدة منها خمسة أرطال إشارة إلى رأس العجل الذي عبدوه سالفاً.

أسلم كثير من المتصرفين النّصارى البارزين، وتبعهم خلقٌ من عوامهم، وصارت الشّوارع لأيام عدة لا يُرى فيها نصراني. على أن كثيرا ممّن أسلموا إنما تظاهروا بالإسلام تظاهُراً، ومنهم محسن بن بَدوس Muhass ibn Badus الذي قُتل عام 415 هـ - 1024 م وهو يلي بيت المال إذ ذاك؛ وكان قد تظاهر عند إسلامه بأنه أحضر الخاتن وختنه، ولم يكن من ذلك شيء[339].

على العكس من ذلك، بقي النّصارى واليهود في هذه المنطقة متمسّكين بدينهم، وهُدمت ألوف الكنائس والأديرة وتوجَّب على النّصارى في كل بلدة دفع نفقة هدمها؛ وأتي على جميع الأديرة في مصر إلا ديرين في الإسكندرية. وقد صودرت الثّروات في دير سيناء، لكنه نجا من الخراب لأنه يحتاج في هدمه إلى نفقات كبيرة إضافة إلى صعوبة تقويض جدرانه الضّخمة المتينة[340].

لكن الخليفة لم يستمرّ على هذا الاضطهاد، فلما وصلت إلى أنفه رائحة المذهب الدّرزي الذي كان قد ظهر حديثاً ومال إليه وأراد أن يُقوّيه على حساب الإسلام الأصيل، لم يعد أهل الذِّمَّة يثيرون غضبه. وفي عام 419 هـ - 1019 م رُفع إليه عدة مرّات أن النّصارى يجتمعون في بيوتهم يصلّون ويحتفلون بشعائرهم ويحضر معهم جماعة من الذين أسلموا فيشاركونهم في أخذ القربان، فلم يُعر

ذلك انتباهه قط. وفي العام نفسه أعاد جميع الأوقاف إلى دير سيناء، كما أذن بإعادة إعمار دير القصير [341].

وفي عهد الخُلفاء الذين جاؤوا بعده عاد كل شيء إلى ما كان عليه، فعاد النّصارى إلى الخروج في مواكبهم العامّة، ولم يبق من ذكر عهد الخليفة غريب الأطوار إلا العمامة السّوداء أو الحزام الأسود التي يلبسها الأقباط منذ ذلك الحين.

وفي عام 415 هـ - 1024 م تمَّ الاحتفال بعيد الغطاس الخاص بالأقباط بشكله القديم وتحت رعاية الخليفة نفسه. وقد ولي الوزارة بالقاهرة منذ عام 436 - 439 هـ = 1044 إلى 1047 م رجل كان يهودياً فأسلم؛ وكان يدير شؤون الدّولة معه اليهوديان العجميان أبو سعد والتّستري[342].

فكان أن أنشد الشّاعر قائلاً[343]:

يهودُ هذا الزّمان قد بلغوا	غاية آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمو	ومنهم المستشارُ والملكُ
يا أهلَ مِصرَ إني نصحتُ لكم	تهوّدوا، قد تهوَّد الفلك

الفصل الخامس
الإماميّة

Die Šî'ah

لمّا حلّ القرن الرّابع الهجري كان حزب الخوارج قد فقد ما كان له من وضع، بعدما كان أقدم حزب يناوىء الخلافة الرّسمية؛ وأمسى الخوارج مشتّتين في وسط الدّولة الإسلامية، يشكّلون جماعات صغيرة لها مذهبها الخاص؛ وكانت لهم ثورات وحروب في أوائل القرن الرّابع[344]؛ ولم تكن لهم قوةٌ إلا في الأطراف: في بلاد سِجِسْتان ونواحي هَراة[345]، وكذلك في الغرب، حيث دخل بينهم البربر القاطنون على ساحل مضيق جبل طارق[346]. وقد واصل الإماميّة المهديّون، القرامطة والفاطميون، ما كان قد بدأ به الخوارج من مناهضة الخلافة، وكانت تلك علامة من العلامات التي تنذر بنهاية الأصول الإسلامية الأولى، ذلك أنه من أميز ما امتازت به الحركة الفكرية في القرن الرّابع الهجري ظهور مذهب الإماميّة حاملاً بين ثناياه الكثير من المعتقدات الشّرقية القديمة، ليقحمها بدلاً من بعض الأفكار الإسلامية. ولقد بيّنت لنا أبحاث الباحث الألماني يوليوس لهاوزن Julius Wellhausen بصورة أقرب إلى الصّواب أن مذهبَ الإماميّة ليس ـ كما كان يعتقد البعض ـ ردّ فعل من جانب الذّهنيّة الإيرانية يخالف الإسلام[347]. ويؤيّد أبحاث لهاوزن التّوزيع الجغرافي للإماميّة في القرن الرّابع؛ وقد بيّن الخوارزمي في أواخر القرن الرّابع أن العراق هو الموطن الأول للتّشيّع[348]. وكانت الكوفة وبها قبر عليّ أكبر مركز للإماميّة حتى ذلك العهد، وكان يقال: «من أراد الشّهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) ولْيَقُل: رحم الله عثمانَ بنَ عفّان» [349]. وفي غضون القرن الرّابع امتدَّ مذهب الإماميّة إلى البصرة، وهي المنافس القديم للكوفة والتي كان يقال عنها في القرن الثّالث: «أمّا البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان، وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها عليّ وشيعته»[350]؛ وفي البصرة اضطر أبو بكر الصُّولي (توفي عام 330 هـ 942 م) لأن يتوارى عن الأنظار حتى مات لأنه روى خبراً في عليّ[351]. وفي القرن الخامس الهجري كان في البصرة ما لا يقلّ عن ثلاثة عشر موضعاً تتصل بذكرى عليّ[352]. وكان يوجد في المسجد الكبير

في ذلك الوقت أثرٌ من آثار عليّ يُعرض للنّاس، وهو قطعة من الخشب طولها ستّون قدماً وعرضها خمسة أشبار وثخنها أربعة أصابع، يقال إن عليًّا جاء بها من الهند[353].

لم تكن الشّام في بادئ الأمر تمثّل بيئة ملائمة لدعوة العلويين؛ حتى عند مطلع القرن الرّابع، ويُروى أنّ النّسائي دخل دمشق، وكان يتشيَّع، فسُئل عن معاوية وما رُوي من فضائله فقال: أما يُرضي معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضَّل؟ وفي رواية أنه قال: ما أعرف له فضيلة إلا «أشبع الله له بَطناً»، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم داسوه، ثم حُمل إلى الرّملة، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدّوْس[354] وكان أهل طبريّة ونصف نابلس وقَدَس وأكثر عُمان إماميّة[355]، ولا أعلم كيف كان ذلك. ورغم قيام الدّولة الفاطمية نلاحظ أن حزب الإماميّة لم يتقدّم إلا قليلاً؛ وكان الرّحّالة ناصر خُسرو القباذياني قد وجد أهل طرابلس في عام 428 هـ - 1037 م إماميّة[356]، ويعود ذلك إلى أن بني عمَّار، وهم واحدة من الأسر الصّغيرة الكثيرة على الأطراف، كانوا هناك على مذهب الإماميّة؛ ولا شك في أنهم اتّبعوا المبدأ الجائر الذي يعطي الأمير الحق في فرض المذهب الذي يريده، وهي قاعدة لم يقُلِ بها أحدٌ في الإسلام ناهيك عن أن تُطبّق تطبيقاً شرعيًّا. وكان في جزيرة العرب إماميّة عدا المدن الكبرى، وكان للإماميّة أسبقيّة في بعض المدن الكبرى مثل عُمان وهجر وصَعْدة[357]. وفي بلاد خوزستان التي تلي العراق كان نصف الأهواز، وهي القصبة، على مذهب الإماميّة[358]؛ أما في فارس فكان الإماميّة كثيرين على السّواحل التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالعراق وخصوصاً بالعرب الإماميّة؛ أما في جميع المشرق فكانت الغلبة لأهل السُّنّة، إلا أهل قُم فإنهم كانوا «شيعة غالية، قد تركوا الجماعات، وعطّلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدّولة عمارته ولزومه»[359] والسّبب في تفرّد أهل قُمّ بذلك أن هذه المدينة قد احتلّها من قبلُ أصحاب ابن الاشعث، وكان رئيسهم قد أدّب ابنه في الكوفة؛ وكان غلوّ أهل قُمّ موضع كثير من النّوادر «... ومن ظريف ما حكى أنه وُلي عليهم والٍ، وكان سُنّيّاً متشدِّداً، فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصّحابة لا يوجد فيهم مَن اسمه أبو بكر قط ولا عُمر، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم: بلغني أنكم تبغضون صحابة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، وأنكم لبغضكم إياها لا تسمّون أولادكم بأسمائهم، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي أنه اسمه، لأفعلنَّ بكم ولأصنع؛ فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم، واجتهدوا، فلم يروا إلا رجلاً حافياً عارياً أحوّل أقبح خَلْق الله منظراً اسمه أبو بكر، لأن أباه كان غريباً استوطنها فسمّاه بذلك فجاؤوا به، فشتمهم وقال: جئتموني بأقبح خلق الله تتنادرون علي! وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم: أيها الأمير اصفع ما شئت، فإن هواء قُمّ لا يجيء منه مَن اسمه ابو بكر أحسن صورة من هذا؛ فغلبه الضّحك وعفا عنهم...» [360].

كما كانت في قُمّ فرقةٌ من الغُلاة وهم الغُرابية، ومذهبهم أن المال كله يؤول للبنت، فولي عليهم قاضٍ حكم للبنت بالنّصف فهدّدوه بإهدار دمه؛ «وهم قوم من الرّوافض يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة»[361]. وفي عام 201 هـ - 816 م دُفنت في قُمّ السّيدة فاطمة ابنة الإمام الثّامن علي الرِّضا، لأن قُمّ كانت في ذلك الوقت أكثر مكان يحبّ العجم دفن موتاهم فيه، من بعد مشهد. أما أصفهان على العكس فقد كان في أهلها بَلَه وغُلوّ في معاوية على عهد البِشاري المقدسي؛ ويحكي المقدسي أنه وُصف له رجلٌ بالزّهد والتّعبُّد، فقصده ليسأله، فرآه يقول إن معاوية نبيٌّ مُرْسَل، فلما أنكر المقدسي

عليه ذلك أصبح يُشنِّع عليه، ولولا أن القافلة أدركته لبطشوا به[362]. وكانت أصفهان تخالف قُمّ بشكل بالغ؛ ففي عام 345 هـ 956 م وقعت بها فتنة كبيرة نجمت عن اختلاف المذاهب؛ وكان سبب ذلك أنه قيل عن رجل قُمِّي من الحرس إنه سبَّ بعض الصّحابة، فثار أهل أصفهان، ووقع بينهم قتلى، ونهب أهل أصفهان أموال التّجار من أهل قُمّ[363]. وفي أواخر القرن الرّابع الهجري يقول الهمذاني إن خراب نيسابور، وكذلك ما نزل بقهستان، كل ذلك لانتشار مقالة الإماميّة فيهما. ويحكي الهَمَذاني أنه سمع في السّوق صبياً يُنشِد: أن محمَّدا وعليًّا لعنا تيماً (منها أبو بكر) وعديًّا (منها عمر)[364]، وفي ذلك العصر لم يكن قد تمّ لمذهب الإماميّة الانتشار في البلاد التي يسود فيها اليوم، ولكنه كان سائراً في درب يؤدّي به إلى ذلك؛ وكان الاضطهاد يساعد هذا المذهب على الانتشار.

أما بخصوص العقيدة والمذهب فالإماميّة هم وَرثَة المُعتزلة؛ ولا بدّ أن تكون قلّة اعتداد المُعتزلة بالأخبار المأثورة ممّا لاءم مقاصد الإماميّة. ولم يكن للإماميّة في القرن الرّابع مذهبٌ كلامي خاص بهم؛ فكان عضد الدّولة مثلاً، وهو من الأمراء المتشيِّعين، يعمل على حسب مذهب المُعتزلة. ولم يكن هناك مذهب إمامي إلا للفاطميين؛ ويبيّن البِشاري المقدسي بأنهم يوافقون المُعتزلة في أكثر الأصول. «والزّيدية يوافقون المُعتزلة في أصولهم كلها إلا في مسألة الإمامة»[365]. وممّا يبرهن على العلاقة الوثيقة بين المُعتزلة والإماميّة أن الخليفة القادر وضعهما بمنزلة واحدة حينما نهى في عام 408 هـ - 1017 م عن الكلام والمناظرة في الاعتزال والرّفض (أي مذهب الإماميّة)[366]. وفضلاً غن ذلك فإنّ الأسلوب الذي انتهجه ابن بابويه القُمِّي، أكبر علماء الإماميّة في القرن الرّابع الهجري، في كتابه المسمّى «كتاب علل الشّرائع» يذكّرنا بطريقة علماء المُعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شيء. ولقد وردت في مذهب الإماميّة، كما في مذهب المُعتزلة، جميع صنوف الزّندقة، وفي القرن الثّاني الهجري (الثامن الميلادي)، جمع ابن معاوية حوله الزّنادقة وقتل أحدهم لأنه أنكر البعث، وكان يقول إن النّاس تفنى كالنّباتات[367]. وفي عام 341 هـ - 952 م ظهر بعض من يؤمن بالتّناسخ، ومنهم شاب يزعم أن روح عليّ بن أبي طالب انتقلت إليه؛ وامرأة تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها؛ وآخر يزعم أنه جبريل؛ فَضُرِبوا، فالتجأوا لآل البيت، فأمر مُعزّ الدّولة بإطلاقهم لتشيُّع كان فيه[368]. ومثل هذه الاتجاهات، وخصوصاً الرّجعة والتناسخ، نراها ماثلاً في مذهب الغنوصيين المسيحيين[369]. ومراراً ما نرى في العراق حوالي عام 300 هـ - 900 م من يقول إن اللاهوتية اجتمعت في عليّ، كما اجتمعت في عيسى من قبل. وكان أحد خُطباء الإماميّة ببغداد في عام 420 هـ - 1029 م يدعو في خُطبة الجمعة بعد الصّلاة على النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم، فيقول: وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مُكلِّم الجمجمة، ومحيي الأموات، البشريّ الإلهي[370]؛ ومن هذا ما يُروى عن المسيح عليه السلام. وقد لبثت هذه الصّفات عند المسلمين مختصّة بالمسيح عليه السلام مدّة طويلة، وسرى كثير ممّا كان يقال لإثارة العواطف في يوم جمعة الآلام عند المسيحيين إلى يوم عاشوراء. يقول القمّي (توفي عام 355 هـ - 966 م): «إذا نَظَرْتِ السّماء حمراء، كأنها دمٌ عبيطٌ ورأيت الشّمس على الحيطان، كأنها الملاحف المُعَصْفَرَة، فاعلمي أن سيّد الشّهداء الحسين قد قُتل».

وكذلك فقد اعتقد الإماميّة في السّيدة فاطمة بما يشبه صفات السّيدة مريم عليها السّلام، إذ سُمِّيت البتول مثل مريم. وكذلك زعموا أنّ الحسين بن عليّ لم يُقْتَلْ، وأنه شُبِّه للنّاس، كعيسى بن مريم عليه

السلام، وربّما تكون هناك علاقة بين لباس الإماميّة وبين لباس الفرق الغنوصية الأبيض. وكان الإماميّة أيضاً في بادئ أمرهم يلبسون البياض؛ يقول الشّاعر ابن سُكَّرة[371]:

يتلاقى بياضهم	بقلوبٍ من السّبج

ونرى بعض رؤساء الإماميّة المخالفين للمألوف لدى جمهورهم يقول، وقد لبس سواداً: بيّض قلبك، والْبَس ما شئت[372]. وكانت أعلام القرامطة بيضاء، وكذلك كانت ملابس خُلفاء الفاطميين وخُطبائهم[373]. أما اللون الأخضر الذي يتميّز به علويّو النَّسَب اليوم فإن أول من أمر باتخاذه سلطان مصر شعبان بن حُسين (توفي عام 778 هـ - 1376م)[374]. ولعلّ الشّيء الوحيد الجديد في مذهب الإماميّة في هذا العصر أنهم يردّون كل الأخبار والآثار إلى عليّ وأهل بيته. وقد صادف هذا الزّعم أشد الإنكار من علماء أهل السُّنّة[375]؛ وفي سنة 300 هـ - 912 م روى رجلٌ حديثاً وسنده بالسّبط والصّادق حتى انتهى إلى عليّ بن أبي طالب، ونُقل ذلك إلى مجلس فيه ابن راهويه الفقيه، فقال: ما هذا الإسناد؟[376]. وكان وضْع الأخبار من جانب الإماميّة وخصومهم في هذا الباب من الأمور التي جروا عليها من قديم، وكانوا لا يجدون في ذلك حرجاً. ويُذكر أن ابن إسحاق صاحب السّيرة النّبوية كان يروي في كتابه أشعاراً للإماميّة. ويُذكر أيضاً أن عوانة بن الحكم (توفي عام 147 هـ - 764 م) كان يضع أخباراً لمعاوية، وعامّة أخبار المَدائني مأخوذة عنه[377]؛ بينما نرى أحد الشّعراء حوالي عام 300 هـ - 900 م يعزو أساطير الإماميّة إلى ضعف معرفتهم بالأخبار[378]، فإن البِشاري المقدسي يحكي لنا أنه كان يوماً بجامع واسط، وإذا برجل يروي حديثاً بسنده عن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم: إن الله يُدْني معاوية يوم القيامة فيُجْلسه إلى جنبه، ويغلفه بيده، ثم يجلوه على النّاس كالعروس، فقال له المقدسي: بماذا؟ قال: بمحاربته علياً، فقال له المقدسي: كذبت يا ضالّ! فقال: خذوا هذا الرّافضي؛ فأقبل النّاس عليه، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه[379]. وكذلك حكى المقدسي أنه كاد يُبطش به لأنه أنكر على رجل من عُبّاد أصفهان قوله إن معاوية نبيَّ مرسل[380]. وعلى الرّغم من ذلك، فإن علياً لم يغدُ موضع نزاع في أيام المقدسي، ولم يعد من المألوف أن نرى خليفة عبَّاسيا مثل المتوكّل شديد البغض لعليّ ولأهل بيته[381]. وكان أهل السُّنّة بالإجمال يذكرون عليًّا بالإجلال، ولم يكونوا أبداً أعداءً له[382]. فالهَمَذاني (توفي عام 398 هـ - 1008 م) مثلاً قد شنَّع على الإماميّة، وردّ على طعن الخوارزمي في عُمر[383]؛ وقد ألّف مرثيةً الحسين وعليّ، وكان أشدّ ما يحزّ في نفوس أهل السُّنّة ما اعتاد عليه الإماميّة من سبّ الصّحابة الثّلاثة الأوائل. وفي سنة 402 هـ 1011 م توفي ببغداد أحد علماء أهل السُّنّة الأكابر، وكان دِّيناً حسن الاعتقاد، واجتاز يوما بالكرخ، فسمع بأذنه سبّ بعض الصّحابة، فآلى ألا يمشي في الكرخ، فلم يعبر قنطرة الصّراة حتى مات؛ وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب إمامياً لمذهبه لم تذكر اسم عليّ، بل يُجعل سببُ العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر[384]، وفي عام 351 هـ - 962 م كتب عوام الإماميّة بأمر مُعزّ الدّولة على مساجد بغداد ما هذه صورته: لعن الله معاوية بن أبي سُفيان، ولعن من غَصَب فاطمةَ فدكاً، ومن منع الحسين أن يُدْفَن عند قبرَ جدِّه، ومن نفى أبا ذرّ.. فلما جاء الصّباح

محاه بعض النّاس؛ فأشار الوزير المُهلبي على مُعزّ الدّولة أن يكتب موضع المحو: لعن الله الظالمين لآل رسول الله، ولا يذكر أحداً إلا معاوية، ففعل ذلك[385].

ولقد لاذ كثير من العلويين بمصر التي لم تكن تربطها بعرش الخلافة ببغداد أواصرُ الطّاعة التّامة. وفي سنة 236 هـ - 850 م كان المتوكّل قد حبس الطّالبيين في سُرَّ من رأى[386]، وورد كتابه إلى والي مصر بإخراج الأشراف العلويين وإعطاء الرّجل منهم ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً؛ فقدموا العراق، ثم أمروا بالخروج إلى المدينة[387]؛ ولكن كثيراً من العلويين استطاعوا أن يفلتوا من هذا النّظام، وسرعان ما ثاروا، فورد كتاب المنتصر إلى والي مصر بألا يُقبل علويّ ضيعةً، ولا يركبٍ فرساً، ولا يسافر من الفسطاط، وأن يُمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، وإن كانت بين أحد الطّالبين وبين أحد من سائر النّاس خصومة فليُقبل قول خصم الطّالبي فيه، ولا يطالب ذلك الخصم ببيّنة[388]. ولذلك شهدت مصر في خمسينيّات القرن الثّالث ثورات متعدّدة للعلويين؛ وفي القرن الرّابع الهجري بدأت الفتن تعتور مصر، فوحّد ذلك بين غايات العلويين السّياسية وغايات الإماميّة.

هذا ولقد بلغت الفتنة في يوم عاشوراء سنة 350 هـ - 961 م حدًّا شديداً في العاصمة، فاشتجر القتالُ بين الجند السّنّيين من السّودان والتّرك وبين الإماميّة، وكان الجنود يسألون من يجدونه: من خالك؟ فإن لم يقل: معاوية ضربوه[389]. وطاف أحد السّودان الثّائرين بالطّرقات، وهو يصيح: معاوية خال علي؛ فتابعه العامّة، وغدت هذه صيحة أهل السُّنّة بمصر حينما يريدون قتال الإماميّة. ولقد جهدت الحكومة للحفاظ على النّظام بقدر استطاعتها؛ وفي عام 353 هـ - 964 م ضُرب أحد كبار الإماميّة، وحُبس حتى مات في السّجن. ولما دخل جوهرٌ وصارت الحكومة إماميّة كانت العامّة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السُّنّة على الإماميّة مثل: معاوية خال علي. وفي سنة 361 هـ - 972 م قُبض على عجوز عمياء تنشد في الطّريق، وحُبست؛ ففزع جماعة من الرّعية، نادوا بذكر الصّحابة، وصاحوا: «معاوية خال المؤمنين وخال عليّ؛ فبعث جوهرٌ ونادى في الجامع العتيق: أقلّوا القول ودعوا الفُضول، فإنا حبسنا العجوز صيانةً لها»، ثم أُطلقت العجوز[390]. ويُروى أيضاً أنه شغب جماعة من الصّيارفة السُّنّيين[391]، هذا مع أن الصّيارفة أهدأ العناصر السّياسية.

إلا أن حكومة الفاطميين كانت تنحو حيّز الحكمة عموماً، ولم تكن حكومة متعصّبة، ولكنها خصّت خير المناصب في القضاء والإفتاء للإماميّة وحدهم. ولم تمنع العامّة في عام 362 هـ 973 م من الاحتفال بعيدٍ اتّخذه أهل السُّنّة، وهو اليوم الذي دخل فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم الغارَ هو وأبو بكر الصِّدّيق، فأفلتا من المشركين؛ وبالغوا في هذا اليوم في السّرور وإظهار الزّينة ونصب القباب وإضرام النّيران.

أمّا الخليفة الحاكم فقد خرج عن هذا التّسامح؛ ففي عام 393 هـ - 1002 م أمر نائبُ دمشق التّابع للحاكم بأمر الله بتنفيذ حُكم برجل مغربي، فضُرب وطيف به على حمار، ونودي عليه: هذا جزاء مَن أحبَّ أبا بكر وعمر؛ ثم أمر به فضُربت عنقه[392]. وفي عام 395 هـ - 1005 م بلغ تعصُّب الخليفة الحاكم بأمر الله للمذهب أقصى حدّ، فكان من الأشياء العديدة التي أمر بها أن يُكتب على الجوامع والمساجد والحيطان والدّروب لعنُ أبي بكر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصّحابة،

وكذلك سائر خُلفاء بني العبّاس؛ وعَظَم ذلك على أهل السُّنّة[393]. وفي عام 396 هـ - 1005 م أمر بمنع النّاس في يوم عاشوراء من الخروج للنّوح والبكاء على الحسين في الشّوارع، لأنّ العامّة كانوا يمدّون أيديهم إلى أمتعة الباعة؛ فرفعوا ذلك إلى الحاكم، فأمر بمنعهم من المرور في الشّوارع، وأن يختصّ النّوح والنّشيد بالصّحراء[394]. وفي عام 399-1099 م عاد الحاكم فأمر بألّا يُسبّ أحدٌ من السّلف الذين كان أمر بسبّهم[395].

بيد أن مذهب الإماميّة لم يمكنه أن يستقطب النّاس؛ فيحدّثنا البِشاري المقدسي أنه لم يجد الإماميّة إلا في القصبة، وكذلك أهل صندفا[396]. وكانت في الغرب على الحدود بين الجزائر وتونس مدينة تسمّى نفطة، جميع أهلها إماميّة؛ وكانت تلقّب الكوفة الصّغرى[397]. غير أنّه بعد الانحطاط السّياسي للدّولة الفاطميّة سرعان ما رجعت موجة هذا التّيار الإمامي، حتى لم يبق له أثر.

وكانت بغداد هي العاصمة الفعليّة؛ ودلالة ذلك أن جميع الحركات الرّوحية في مملكة الإسلام كانت تتفاعل وتضطرم في بغداد؛ وكان بها لجميع المذاهب أنصار. ولكن أكبر حزبين كانا بها في القرن الرّابع الهجري هما الحنابلة والإماميّة[398]؛ وكان أنصار الإماميّة يقطنون خصوصاً حول سوق الكرخ، ولم يتعدّوا الجسر الكبير ويحتلّوا باب الطّاق إلا في أواخر القرن الرّابع الهجري[399]. ولم يمكنهم التّعدّي إلى القسم الغربي، لأن الهاشميين كانت لهم عُصبة قوية هناك، ولا سيّما حول باب البصرة، وكانوا من أشدّ أعداء الإماميّة[400]. ولكن ياقوتاً وجد أنّ أهل محلّة باب البصرة كلهم سنّية حنابلة، أما الكَرْخ فأهلها كلهم إماميّة[401]. ورغم ما بادر إليه المتوكّل من تشديد في اضطهاد الإماميّة في نهاية القرن الثّالث الهجري، نلاحظ أن قوتهم كانت بالغة، حتى إن الخليفة المعتضد عزم في عام 284 هـ - 897 م على لعن معاوية على المنابر؛ وأمر بإنشاء كتاب في ذلك وصلت إلينا صورتُه، فخوّفه الوزير من اضطراب العامّة، وقال له: فما تصنع بالطّالبيين الذين هم في كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من النّاس لقرابتهم من الرّسول[402]؟ ويذكر المؤرّخون عام 313 هـ - 925 م أن الإماميّة البغداديين كانوا يجتمعون في مسجد براثا، فقام بكبسه فوُجد فيه ثلاثون إنساناً يصلّون؛ فقبض عليهم وفُتِّشوا، فوجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب إليهم[403]. وقد استصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سُوِّي بالأرض، وعفّى رسمه، وأُلحق بالمقبرة التي تليه. وفي سنة 321 هـ - 923 م همّ علي بن يَلْبَقْ، وهو من القوّاد التُّرك، مرّة أخرى بأن يلعن معاوية على المنابر؛ فاضطربت العامّة، وكان رئيس الحنابلة يثير الفتن هو وأصحابه[404]. وفي عام 323 هـ - 935 م نودي في جانبي بغداد بألا يجتمع من الحنابلة نفسان في موضع واحد، وكان ذلك لإيقاعهم الفتن المتّصلة؛ وصدر خطّ الخليفة بكتاب بَيَّن فيه أخطاء الحنابلة، وقد وصلت إلينا صورة هذا الكتاب[405]، فهو يتّهمهم بالطّعن على خيار الأمّة وبنسبة شيعة أهل بيت رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم إلى الكفر، وإرصادهم بالمكاره في الطّرقات والمحالّ وإنكار زيارة قبور الأئمة، والتّشنيع على زُوّارها بالابتداع، وأن الحنابلة مع إنكارهم لذلك، يتلفقون ويجتمعون لقصد رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، ويأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته، وفي آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليستعملن فيهم السَّيف والنّار [406].

ثم أمر بجكم بإعادة بناء مسجد براثا في عام 328 هـ - 940 م فأصبح مسجداً لأهل السُّنّة، وكتب في صدره اسم الرّاضي بالله؛ ثم جاء المتّقي بالله فأمر بنصب منبر فيه، كان في مدينة المنصور معطَّلا مخبوًّا في خزانة المسجد عليه اسم هارون الرّشيد؛ ونُصب هذا المنبر في قبلة المسجد، وافتُتِح هذا المسجد للصّلاة في عام 329 هـ - 941 م[407]. وكان الحمدانيون أول أسرة إمامية تدخّلت في أمور بغداد، وكان هذا التّدخل مثيراً للعجب؛ ذلك أن ابن حمدان على شدّة تشيّعه سعى في البيعة لابن المُعتزّ على انحرافه عن عليّ وغُلُوِّه في النّصب[408]. ولكن الأمور سرعان ما تغيّرت لما احتجَنَ الدّيلم بغداد، وكانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين؛ فبمجرّد دخول مُعزّ الدّولة بغداد قبض على الخليفة. وكان من الأسباب الظّاهريّة فبهذا الخصوص أن المستكفي كان قد قبض على رئيس الإماميّة[409]. وفي سنة 349 هـ - 960 م تعطّلت الجمعة بمساجد أهل السُّنّة لاتصال الفتن، ولم تُقَمْ الجمعة إلا في مسجد براثا الإمامي[410]. وفي عام 351 هـ كتب مُعزّ الدّولة على المساجد لَعنَ الصّحابة، فمحاه النّاس أثناء الليل. وفي العام التّالي أمر النّاس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء، وهو أكبر عيد للإماميّة، وأن يُبدوا الحزن الشّديد. فأُغلقت الأسواق وعُطّل البيع والشّراء، ولم يذبح القصّابون، ولا طبخ الهرّاسون، ولا تُرك النّاس أن يستقوا الماء، ونُصبت القبابُ في الأسواق، وعُلِّقت عليها المسوح، وخَرَجَتْ النّساء مُنَشّرات الشّعور مسوّدات الوجوه، قد شققن ثيابهن يَدُرْن في البلد وَينُحْن ويَلْطُمْنَ وجوههن على الحسين. وفي هذا اليوم كان يُزار قبر الحسين بكربلاء[411]. ويصفه البيروني فيقول: «ولذلك كره فيه العامّة تجديد الأواني والثّياب»[412]. وفي اليوم الثّامن عشر من ذي الحجة في هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خُمّ)، فاحتفل به الإماميّة ببغداد، وزعموا أنه اليوم الذي عهد فيه الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم إلى علي بن أبي طالب واستخلفه[413]، وفيه أظهروا السّرور بأمر مُعزّ الدّولة، فنصبوا القباب وأظهروا الزّينة. وأشعلت النّيران بمجلس الشّرطة، وضربت الدّبادب والبوقات؛ وفي صبيحته نحروا وبكّروا إلى مقابر قريش. أما بنو أميّة فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور، «فلبسوا فيه ما تجدّد وتزينوا واكتحلوا وعيّدوا وأقاموا الولائم والضّيافات وطعموا الحلاوات والطّيّبات». وقد حاول أهل الحديث ان يظهروا فضل يوم عاشوراء، فكانوا يزعمون أن «الاكتحال فيه مانعٌ من الرّمد في تلك السّنة»[414]. ولذلك يقول القُمّي (توفي عام 355 هـ - 966م) مشدِّداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء: «من كان يومُ عاشوراء يومَ مصيبته وحزنه وبكائه يجعل الله عز وجلّ يومَ القيامة فرحةَ وسرورَه... ومن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر بمنزله شيئا لم يُبارَك له فيما ادّخر، وحُشر يوم القيامة مع يزيد إلى أسفل دَرَك من النّار»[415]. ولمّا دالت الدّولة الفاطمية وجاء ملوك بني أيوب اتخذوا يوم عاشوراء، بعد أن كان يومَ حزن يومَ سرور جَرْياً على عادة أهل الشّام[416]. ثم إن أهل السُّنّة أرادوا أن يعلموا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوماً نسبوه إلى مقتل مُصْعَب بن الزّبير، وزاروا قبره في مسكن بالدُّجيل، كما يُزار قبرُ الحسين بكربلاء[417]. وكذلك عملوا بإزاء يوم الغدير بعده بثمانية أيام ادّعوا أنه اليوم الذي دخل فيه النّبيّ وأبو بكر في الغار، وعملوا في هذا اليوم ما يعمله الإماميّة في يوم الغدير. وكان أول ما عمل أهل السُّنّة ذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة عام 389 هـ - 999 م[418].

وفي هذه الأعياد كان يحصل شغب وفتن بين الفريقين، إلى درجة أن الحكّام الأقوياء كانوا يمنعون إقامتها أحياناً[419]. وقد حدث مرّة في فتنة بين أهل السُّنّة والإماميّة أن الإماميّة صاحوا: حاكم يا

منصور، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة؛ وقد بلغ الخليفة ذلك فأحفظه، وأنفذ الحرّاس الذين على بابه لمعاونة أهل السُّنّة؛ فهزموا الإماميّة؛ ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة، فسألوه العفو. وفي عام 420 هـ - 1029 م كان خطيب مسجد براثا، وكان إمامياً، يغلو في عليّ؛ فأمر الخليفة بالقبض عليه، وعيّن محله خطيباً آخر؛ فلما صعد المنبر دقّه بِعقِب سيفه على ما جرت به العادة، والإماميّة يُنكرون هذا، فرماه العامَّةُ حينئذ بالآجُرّ، وخُلع كتِفهُ، وكُسِر أنفُه، وأدْمَى وجْهُه؛ وعرف الخليفة ذلك، فغاظه وأحفظه؛ وكتب في الإماميّة كتاباً شديداً؛ وفي آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ، وسألوا الصّفح عن هذه الجناية، وطلبوا إقامة خطيب عُملت له نسخةٌ يعتمدها فيما يخطب، وتجنّب ما يُحْفِظ الإماميّة[420].

وأحد الأسباب المؤثرة في ثورات الإماميّة المفاجئة في القرن الرّابع الهجري أن مشهديهم الكبيرين المطهّرين عندهم كانا بالعراق. غير أنّ موضع قبر عليّ كان مشكوكاً به، وقد بيّن المسعودي ذلك في عام 332 هـ - 994 م حيث يقول إنه قد تُنوزع في موضع القبر؛ فذهب قوم إلى أنه دُفِن في مسجد الكوفة؛ وقال آخرون إنه دُفن في القصر بالكوفة[421]؛ وذهب جماعة إلى أنه حُمِلَ إلى المدينة فدُفن عند قبر فاطمة؛ وقال قوم إنه حمل في تابوت على جمل وإن الجمل تاه ووقع في بلاد طيّء[422]؛ ثم يقال إن أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان (توفي عام 317 هـ - 929 م) شَهَرَ مكانا بمشهد علي، أن يقال إنه قبر علي بن أبي طالب؛ وذلك بأن جعل عليه حصناً منيعاً، وابتنى على القبر قُبَّة عظيمة مربّعة الأركان لها باب من كل جانب[423]. ولما مرض الوزير ابن سهلان واشتد عليه المرض نذر، إن عُوفي بناءَ سورٍ على مشهد أمير المؤمنين عليّ؛ فعوفي، فأمر ببناء سور عليه عام 401 هـ - 1041 م وأول منٍ دُفن في هذا المشهد من العظماء، فيما أعلم، رجلٌ من أهل البصرة عام 342 هـ - 953 م[424]، فحمل إليه بعد أن كان قد دُفن بدار الملك ببغداد[425]. وعضد الدّولة هذا هو الذي أمر بإعادة بناء مشهد الحسين بن علي في كربلاء، بعد أن كان الخليفة المتوكّل قد أمر بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل وبأن يُحْرَث وُيبْذَر ويُسقى[426]. وكان يزعم البعض أن رأس الحسين، «سيّد الشّهداء»، يوجد في رباط صغير قريباً من مدينة مرو، وذلك في القرن الرّابع الهجري[427]. ويقول المقريزي إن رأس الحسين حُمل من عسقلان إلى القاهرة ووصل إليها في عام 548 هـ - 1153 م[428]. ويرى ابن تيمية (توفي 728 هـ 1328 م) أنّ هذا باطل باتفاق أهل العلم[429]؛ وفي عام 399 هـ - 1009 م توفي الوزير بالرّيّ، وكان قد وصى قبل موته أن يُدفن في مشهد الحسين بكربلاء؛ فكتب ابنه إلى العلويين أن يبيعوه تربة بخمسمئة دينار، فقال الشّريف إذ ذاك: هذا رجل التجأ إلى جوار جدّي، ولا آخذ لتربته ثمناً؛ وأُعطيَت للرّجل تربةٌ من غير أن يدفع شيئاً[430]. ولم يصل إلينا وصف لداخل مشهد الحسين بكربلاء أقدم من وصف ابن بطوطة له في القرن الثّامن الهجري؛ وقبل ذلك يُذكر أن القبر كان يُغَطّى بقماش، وحوله شموع مضاءة[431]. ثم بنى ابن بُوَيْه على قبر علي الرّضا بطوس حصناً ومسجداً لم يكن بخُراسان أحسن منه[432].

الفصل السّادس
الإدارة

Die Verwaltung

كانت دولةُ الخلافة تشبه اتحاداً يتألف من ولايات كثيرة، ولم تكن علاقة السّلطة المركزية بهذه الولايات تنتظمها دواوين إقليمية؛ إنما كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شؤونها. وكان كل من هذه الدّواوين يتألف من قسمين:

أولهما الأصل، وهو يختصّ بوضع الضّرائب وحملها إلى بيت المال[433]، ومراقبة الضّرائب وتقوية مواردها، أي الإدارة؛ وثانيهما الزّمام[434] أو ديوان المال. ولما ولي الخليفة المعتضد (279 - 289 = 892-902 م)، وهو أجدر حكّام القرن الثّالث[435]، ضمّ دواوين الولايات كلها، وألّف منها ديواناً سمّاه ديوان الدّار[436]، له ثلاثة فروع: ديوان المشرق؛ وديوان المغرب؛ وديوان السّواد (أي العراق). وكذلك وضع أزمّة هذه الدّواوين كلها في يد رئيس واحد[437]، بحيث جاء القرن الرّابع الهجري، وإدارة الدّولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين إحداهما للدّاخلية، وهي ديوان الأصول، والأخرى للمالية وهي ديوان الأزمّة. وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمّى بدورها دواوين؛ لأنه كان لكل ناحية ديوانُها. ولكن بما أنّ الوزير، كرئيس السّلطة المركزية، كان الذي يتولّى إدارة ديوان السّواد بنفسه، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين الدّولة. ولم تبلغ الادارة في الدّولة الإسلامية تعيين الحدود الفاصلة بين الدّواوين المركزيّة ودواوين الولايات. ويمكننا أن نذكر منها:

(1) ديوان الجيش، وله مجلسان: مجلس التّقرير، ومجلس المقابلة. وينقسم كل من المجلسين إلى أقسام خاصّة بالعساكر، كالعسكر المنسوب إلى الخاصّة، والعسكر المنسوب إلى الخدمة، وما في النّواحي من البعوث[438].

(2) ديوان النّفقات في بغداد، وأكبر مهامّه حاجات دار الخلافة. وكان أكثر أرض العراق مضمَّناً، فكان على المتضمِّنين أن يقوموا بالوفاء بالنّفقات. وهذا الدّيوان ينقسم إلى المجالس الآتية:

(أ) مجلس الجاري، ويختصّ بأمر استحقاقات الحشم.

(ب) مجلس الأنْزَال، يقوم بمحاسبة التّجّار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللّحم والحيوان، والحلوى والفاكهة، وغير ذلك من سائر صنوف الإقامات والأنزال.

(ج) مجلس الكَراع، ويجري فيه أمرُ علوفة الكراع وغيره، كالخيل والحمير والإبل وغيره ممّا يعتلف من الطّير والوحش؛ ويجري فيه أمرُ سياسة الكُراع وعلاجه، وأرزاق القُوّام والرّاضة ونحو ذلك.

(د) مجلس البناء والمرمّة، ويجري فيه محاسبة الزّرّاع والمهندسين وباعة الجصّ والآجر والنّوْرَة والأسفيداج وأصحاب السّاج والنّجارين والمزوِّقين والمذهِّبين وسائر الصّناع.

(هـ) مجلس الحوادث.

(و) مجلس الانشاء والتّحرير.

(ز) مجلس النّسخ[439].

(3) ديوان بيت المال، وهو في بغداد يشرف على ما يَرِد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وجوه النّفقات والإطلاقات. ويجب أن تَمُرّ به الكتبُ التي فيها حَمْلُ مال، قبل انتهائها إلى دواوينها، لتُثْبَتَ فيه، وكذلك سائر الكتب النّافذة إلى صاحب هذا الدّيوان علامة على الكتب والصّكاك والإطلاقات، يتفقدها الوزير وخُلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها[440]. وفي عام 314 هـ - 926 م صدر أمرٌ بمطالبة صاحب بيت المال ببغداد بتقديم الرّوزنامجات في كل أسبوع للوزير، ليستطيع معرفة ما حلّ وما قُبض وما بقي؛ وكان الرّسم إذا عُملت الخَتْمَة لم تُرفع إلى الدّيوان عن الشّهر الأول إلا في النّصف من الثّاني[441].

(4) ديوان المصادَرين[442]، وكانت الوثائق التي يُدفع بمقتضاها في هذا الدّيوان تُكتب على نسختين، إحداهما للدّيوان والأخرى للوزير.

(5) ديوان الرّسائل، وكان يسمّى في مصر أيّام الفاطميين ديوان الإنشاء[443]، وكان صاحب هذا الدّيوان بمصر في أوائل القرن الخامس الهجري يتقاضى في كل شهر ثلاثة آلاف دينار، عدا ما كان يكتبه من السّجلات والعهودات وكتب التّقليدات، فقد كان له على ذلك رسومٌ يستوفيها[444].

(6) ديوان البريد؛ وتأتي لصاحبه الكتب من جميع النّواحي، وهو المُنْفِذُ لها إلى مواضعها؛ وهو يتولّى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النّواحي على الخليفة، أو يعمل جوامعَ لها؛ وله النّظر في أمر المرتبَّين في السّكك، وتنجيز أرزاقهم، وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار، ولا غنى له، بعد أن يكون ثقةً عند الخليفة، عن معرفة الطّرق والمسالك إلى جميع النّواحي، بحيث يجد عنده الخليفة من المعرفة ما يحتاج إليه عند إنفاذ جيش أو غيره[445]. وكانت معرفةُ الأخبار وإبلاغُها قد بلغت درجة عظيمة من الرّقي في الدّولة الإسلامية؛ فقد حُكي أن الخليفة أراد أن يشغل قلب أحمد بن طُولون Ibn Tolûn، فدسّ من سرق نَعْلَه من بيت حظيَّة له لا يدخله إلا ثقاته، ثم بعثها إليه؛ فقال له الرّسول: من قدر على أخذ هذه النّعل من الموضع الذي تعرفه أليس بقادر على أخذ روحك؟[446].

وكان صاحب البريد هو صاحب الأخبار الرّسمي، وكان له «عيون» يوافونه بكل جديد؛ وهذا موروث أخذه العرب عن البيزنطيين، ففي عهد قنسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أعوانٌ يسمَّون باسم Veredarii، وكانوا يمدّونه بالأخبار[447]. وكان بعض المتعلّمين في ذلك الوقت يتعيّشون من نقل الأخبار، كما هو الحال اليوم بالنّسبة لمراسلي الصّحف ومندوبيها[448]. وجاء في عهد بولاية بريد مؤرّخ 315 هـ ما يوجب على صاحب البريد «أن يعرف حال عُمّال الخَراج والضّياع فيما يجري عليه أمرهم، وما يجري في أمور الرّعية، فيما يُعامَلون به، وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم... وأن يعرض المرتبّين لحمل الخرائط في عمله، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم، وعدد السّكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها، ويوعز إلى هؤلاء المرتبَّين بتعجيل الخرائط المُنْفَذّة على أيديهم، وأن يُفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كُتُباً بأعيانها، فيُفرد لأخبار القُضاة وعمال المعاون... والخَراج والضّياع ونحو ذلك كتباً، ليجري كل كتاب في موضعه»[449].

ولم يكن صاحب البريد يُعنى فقط بالأخبار التي تتعلّق بمهامّ سياسة الدّولة، بل كان عليه أن يبلغ كل ما عدا ذلك من طرائف الأخبار. فقد حدث في عام 300 هـ - 912 م أن ورد كتابٌ من صاحب البريد من بلدة الدَّينوَر يذكر فيه أن الموكّل بخبر التّطواف رفع إليه أن بغلة لرجل وضعت فَلْوَةً، ويصف اجتماع النّاس لذلك وتعجّبهم لما عاينوا منه، ويقول «فوجهتُ من أحضر لي البغلة والفلوة، فوجدت البغلة كَمْتاء خلوقية، والفلوة سويّة الخلق، تامّة الأعضاء، مُنْسَدلة الذّنب»[450].

(7) ديوان التّوقيع، وإليه تنتهي من يسأل شيئاً عند الخليفة، بعد أن يراها صاحبُ ديوان الدّار؛ وبعد أن يستطلع صاحبُ ديوان التّوقيع رأيَ الخليفة فيها، ويوقّع عليها بخطه في ديوان التّوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدّار بنسختها أو اقتصاص ما تضمنّت؛ ومن ديوان الدّار تُرسل إلى صاحب الدّيوان الذي تجري فيه المسألة[451]. وكان الفصل في أمر الرّقعة يُكتب على الرّقعة نفسها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه. وقد بلغت هذه التّوقيعات أقصى ما يمكن أن تبلغه من الاختصار، والبلاغة، وإظهار ذكاء موقِّعها وقدرته على حسن الفصل وإصابة الغرض. وكان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى البرمكي، الذي كان يلي ديوان التّوقيع للرّشيد، حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار [452].

(8) ديوان الخاتم، وبه تمرُّ وتُثَبت فيه الكتب التي يُحتاج إلى ختمها بخاتم أمير المؤمنين؛ وذلك بعد أن يمرَّ الكتاب على دواوين عدة وبعد المقابلة[453].

(9) ديوان الفَضّ، ومنزلة هذا الدّيوان من الخليفة منزلة مجلس الأُسكُدار في ديوان الخَراج من المتولّي له، لأن سبيل الكتب التي ترد من العُمّال في النّواحي إلى أمير المؤمنين أن يكون ابتداؤها به وخروجها إلى الدّواوين منه، فضّها وأخذ جوامعها ليقرأها الخليفة ويوقع فيها بما يراه. وكان هذا الرّسم جارياً في أول الأمر، لما كان الخُلفاء هم الذين يتولّون النّظر في الكتب بأنفسهم؛ ثم آل ذلك

إلى الوزير، فصار هو المتولي لفَضّ الكتب وإخراجها إلى الدّواوين، وانتقل عمل ديوان الفَضّ إلى حضرة الوزير، وصار المتولّي له كاتباً برسمه في دار الوزير[454].

وقُلّد ديوان الفضّ وديوان الخاتم لرجل واحد، وكان جاريهما أربعمئة دينار ودينار[455].

(10) ديوان الجَهْبَذة، ويجري فيه من الأموال مالُ الكسور والكفاية والوقاية، وما يجري مجرى ذلك من توابع أصول الأموال، ثم ما يزيده شرارُ الجهابذة من الفضول على هذه التّوابع بسبب إعنات من عليه مالٌ من أهل الخَراج ومن يجري مجراهم في النّقود والصّروف، وما يرتفقون به من التّقديم والتّأخير عمن يتعذّر عليه الآداءُ في وقت المطالبة... فإن بعضهم لما وجد ذلك في بعض النّواحي زاد في ضمان الجهبذة بتلك النّاحية على من هو ضامنٌ لها، ووقع التّزايد في هذه الوجوه بالظّلم والعدوان على الرّعية وسائر من يُقام لهم الجاري، وتُطلْق لهم النّفقة، حتى توافى مال الجهبذة إلى جُملة وافرة أصلُ أكثرها عدوانٌ[456].

(11) ديوان البِرّ والصّدقات[457].

وكان أصحاب الدّواوين في أوائل القرن الرّابع الهجري على ثلاث طبقات[458]. وكان صاحب ديوان السّواد يقبض أعلى مرتَّب بين أصحاب الدّواوين، وهو خمسمئة دينار في كل شهر[459]. وكان سواه يقبض ثُلث ذلك.

وفي عهد الخليفة المعتضد (279-289 = 892-902 م) بلغت أرزاق أصحاب الدّواوين كلها من أكابر الكتّاب إلى الخزّان والبوّابين والأعوان، وثمن الصّحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمئة دينار في الشّهر، وذلك عدا ما كان يقبضه الوزراء، وعدا أرزاق كتّاب دواوين الإعطاء وخُلفائهم على مجلس التّفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخُزّان بيت المال؛ فإن هؤلاء يأخذون أرزاقهم ممّا يوفّرونه من أموال السّاقطين وغُرَم المخلّين بدوابّهم[460]. فكانت المرتّبات التي يتقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار يقظتهم وعنايتهم. على أن الأرزاق كانت تطلق في الأسبوع الأول من الشّهر[461]. وفي أوائل القرن الرّابع ظهر رسمٌ جديد، ثم صار رسماً كثيراً ما لجأ إليه الحكام، وهو ألا يُعطى أصحاب الأرزاق أعطياتهم عن السّنة كاملة؛ ففي عام 314 هـ - 926 م اقْتُصر في أرزاق معظم العُمّال على عشرة أشهر في كل سنة؛ وكان صغار أصحاب الأرزاق أكثرهم عرضة للغُبن، فمثلاً اقتُصر في أرزاق أصحاب البُرُد والمنفقِين على جاري ثمانية أشهر[462]. وكان يُستعاض عمّا يفقده بعض أصحاب الدّواوين بتقليده دواوين أخرى، فمثلاً في حوالي عام 300 هـ - 912 م كان يتولّى ديوان الأزمَّة والتّوقيع وبيت المال رجل واحد[463].

وكان على رأس كل ولاية رجلان: الأمير (وهو قائد الجيش)، والعامل؛ ويسمّى هذا الأخير صاحب الخَراج، لأن أكبرَ واجباته حملُ خَراج الولاية إلى خزانة الدّولة؛ وهو الذي يتولّى الإنفاق على الولاية ممّا يحصل لديه من الأموال، لأن خزانة الدّولة العامّة كانت لا تتولّى إلا أمر نفقات دار الخلافة والدّواوين وما يتعلّق ببغداد[464]. وكان الأمير يُخاطَب في المراسلة بما يخاطب به العامل؛ وكانت منشورات الوزير ترسل لكل منهما في وقت واحد[465]. ولكن الأمير كان يمتاز على صاحبه

لأن له الصّلات بالنّاس، وهذا ما يجعله رئيساً لجميع المسلمين في ولايته[466]؛ وإذا اتّفق الأمير والعامل استطاعا أن يفعلا بالولاية ما حلا لهما، كما حدث في عام 319 هـ - 931 م لمّا اتفق العامل والأمير بفارسٍ وكرمان على قَطْع حَمْل الأموال إلى الخليفة المُقتدِر ببغداد مدّة طويلة[467]. ولو أنّ رجلاً واحداً قُلّد المنصبين معاً لأصبح كالحاكم المستقلّ بولايته.

وباعتبار المزيّة النّاجمة عن اجتماع هذين المنصبين استنكف بجكم، القائد التُّركي الطّموح، عن المسير إلى الأهواز لتولّي أمورها عام 325 هـ - 937 م إلا شريطة أن يكون له الحرب والخَراجُ، فأُجيب إلى ذلك[468]. وقد كانت ولاية مصر على قسمين: والٍ للحرب والصّلاة، وآخر للخراج وتدبير الأموال، فجمع ابن طُولون Ibn Tolûn بين الولايتين، وكذلك فعل الإخشيد، وكان كل منهما في الواقع حاكماً مستقلاً في مصر.

ونرى البطريرك المؤرّخ ديونيسيوس التَّلمحْري Dionysius von Tellmachre (توفي عام 229 هـ - 834 م) يتشكّى في آخر كتابه في التّاريخ، من كثرة عدد العُمّال؛ لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل[469]؛ في مدينة الرّقة مثلاً، وهي مدينة صغيرة على نهر الفُرات كان يوجد: (1) قاضٍ، (2) وكاتب سلعة، يطالِب بالخَراج ووجوه المال، (3) وصاحب جند وصاحب بريد ينهي أخبار الولاية للخليفة، ومتولٍّ للضّياع السُّلطانية (الصّوافي)، وصاحب معونة[470]. وكان يوجد مثل هؤلاء الولاة في كل «عَمَل» من أعمال الدّولة السّامانية السّتة والثّلاثين[471]. وكان أكثر هذا العدد الكبير من العُمّال يخرجون بخروج الوزير الذي عيّنهم، وعند ذلك يظلّون متعطّلين في شوارع بغداد، يثيرون الفتن حتى يعود حزبهم إلى ولاية الحكم - كما كان الحال في إسپانيا وفي الولايات المتّحدة منذ عهد غير بعيد - وإلّا شغبوا فعكّروا هدوء البلاد. ويُروى أنه قدم مرّة على صاحب أصفهان شيخ من الكتّاب يطلب التّصرُّفَ، ويحمل كتباً من إخوان لصاحب أصفهان ببغداد يوصونه به؛ فقرأ الحاكم أول كتاب، وضجر واغتاظ، وقال: «قد والله بُلينا بكم معاشرَ المتعطّلين! كل يوم يصير إلينا منكم واحد يريد تصرُّفاً أو برّاً، ولو كانت خزائن الأرض لي لكانت قد نفدت»[472].

وكان من دهاء عضد الدّولة أنه كان يوصل إلى العُمّال المتعطّلين ما يقوم بهم، ويحاسبهم به إذا عملوا[473].

وكان الإخشيد أول من رتّب الرّواتب[474]؛ وقد أقرَ الفاطميون نظامه في جملته؛ وكانوا ينوون، كما يبدو، أن يقسّموا حكم البلاد بين أوليائهم؛ وممّا يدلّ على ذلك أن جوهراً وإن كان قد ترك العُمّال في مناصبهم، فإنه لم يَدَعْ عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه[475]. ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة أكثر إتعاباً للدّولة من غيرهم لم يتمّ ما كان مُزْمَعاً من إخراج العُمّال القدماء، وهم نصارى في الغالب. أما بخصوص الأرزاق فلقد وصلنا من أخبار الإدارة الفاطمية أن الوزير كان ينال خمسة آلاف دينار في كل شهر، وهذا يماثل مرتّب صاحبه ببغداد؛ أمّا أرزاق أصحاب الدّواوين فكانت أقل بكثير ممّا في بغداد؛ فكان صاحب ديوان الإنشاء ينال مئة وعشرين ديناراً، وصاحب بيت المال مئة دينار، وأصحاب الدّواوين الأخرى ما بين سبعين وثلاثين ديناراً في كل شهر. وعيَّن

أحد أصحاب ديوان الرّسائل رجلاً بمصر، وكان يعطيه في كل شهر أربعين ديناراً ليتولى الإجابة على الرّسائل التي ترد إلى الدّيوان[476].

وبينما لا نرى بين قواد الجيش إلا أسماء قوم من الموالي فإن وظائف الدّواوين كانت وقفاً على الأحرار، «وكان العجم هم شُحْنة دواوين الخلافة... فمنهم البرامكة، وإلى يومنا هذا منهم المادرائيون والفريابيون»[477]. ولما كانت الصّبغة الغالبة على عُمّال الدّواوين هي الصّبغة الاقتصادية المالية، فقد كان لا بدّ للواحد منهم من أن تتوفّر لديه بعضُ عوائد التّاجر، وكان العجمي أمهر تاجر في الدّولة الإسلامية. ولا تزال الكفاءةُ الإدارية متوارثةً في العجم إلى يومنا الحاضر؛ كما يفيدنا الخبير النّمساوي الذي قام بتنظيم البريد في فارس: «كل فارسي يحسّ في نفسه الصّلاحية لكل عمل، وهو لا يتردّد في أن يدخل اليوم عملاً إدارياً مدنياً، ويقوم به؛ ثم يكون غداً في منصب حربي»[478]. وهذه من عوائد العجم القديمة؛ ويُروى أنه كان لبختيار بن مُعزّ الدّولة كاتبٌ عجمي، وكان مستولياً عليه؛ ثم تحقّق بالجندية، وادّعى الشّجاعة، وأعاره النّاس من ذلك ما لم يكن عنده، تقرُّباً إليه؛ ثم عزم على تقلّد الجيش والتّسمية بالاسفهسلار؛ ولكن اضطرّ إلى الفرار من بغداد عام 358 هـ - 969 م[479]. وكان الاشتغال في الدّواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الإختلاف؛ فكان المشتغل بإدارة الدّواوين هو ممثل الثّقافة الأدبية، وكان لا يعالج العلوم الشّرعية إلا بمقدار ما يتطلّبه عمله وثقافته. أما التّمايز الظّاهري بينهم فكان يتجلّى في أن الكاتب يلبس درّاعة على حين أن العالم يلبس الطّيلسان[480]. ويُروى أن الوزير العتبي أراد أن يلزم ابن أبي ذهل (توفي عام 378 هـ - 988 م) تقلُّد ديوان الرّسائل، فقال له: هذا قضاء القضاة بكور خُراسان، ولا يخرج عن حدّ العلم[481]. على أن الخُلفاء كانوا يحجمون عن استيزار العلماء وأصحاب الطّيالس.

وهذه الطّائفة من الكتّاب تميّز إلى حدّ بعيد الدّولة الإسلامية عن أوروبا في أوائل العصور الوسطى، حيث كان لا يتولّى العمل بالدّواوين إلا أهل الثّقافة الدّينية؛ ولم يكن في ذلك فائدة للإسلام، لأن العمل في الدّواوين بما يعوزه من تعمّق وما يؤدّي إليه من جمود ذهني كان يندر أن يطوّر عقولاً جديرة بالمشاركة في الحركة الفكرية؛ وكان العمل في الدّواوين ملاذاً ملائماً للمتعلّمين الذين غدوا بعملهم في الدّواوين مجرّدين من البواعث الدّاخلية والخارجية التي تدفع العقل إلى العمل؛ ولا يزال الموظف الرّاضي عن نفسه، عقبةً في طريق التّقدّم حتى يومنا هذا، وهو أخطر على التّقدّم من رجل الدّين ضيّق الأفق ومحدود الرّؤيا.

ورد في خبر يُروى عن عُمر بن الخطّاب، يحدّد القواعد الأساسية لما ينبغي أن يكون عليه العامل. فيُروى عنه أنه إذا استعمل رجلاً اشترط عليه أربعاً: ألا يركب برذوناً، ولا يلبس ثوباً رقيقاً، ولا يأكل نقيًّا (؟) ولا يغلق بابه دون حوائج النّاس ولا يتّخذ حاجباً[482]. ولكن في القرن الثّالث الهجري لعب المال دوًرا سلبياً في مهنة عُمّال الدّواوين، وكان لكل شيء ثمن وخصوصاً مناصب الدّواوين[483]. وكان العامل متى تقلّد المنصب حاول أن يستردّ ما خسره؛ فكان العُمّال مثلاً يعيّنون أرزاقاً لقوم لا يحضرون إلى العمل، وأرزاقا بأسماء قوم لم يُخْلقوا، وكانوا يقيّدون برسم الفقهاء والكتّاب مرتباتٍ بأسماء الغلمان والوكلاء في الحاشية؛ وكانوا يصرفون الورق والقراطيس، ثم يبيعونه فيحصل لهم منه مال[484].

وكان عامل مصر يقبض في كل شهر ثلاثة آلاف دينار، وهو مبلغ كبير؛ ولكن كان عليه أن يسدّد نفقات ديوانه، وكان رزقه لا يكفي نظراً لكثرة الهدايا التي يبعث بها إلى الأمير والوزير والخليفة. وقد شَكَت إحدى حظايا الخليفة مرّة من مماطلة بعض أصحاب الدّواوين، فقال لها: كان الصّواب أن تبعثي إليه بثياب وألطاف، ففعلت ما نصحها به، وتمّ لها ما أرادت[485]. ويصف ابن المُعتزّ عام 296 هـ / 908 م الولاة في شعره، حيث يقول[486]:

ووُلاتُهُ نَبَطٌ زنادقة	ملأى البطون، وأهله خُمْصُ

وكان أهل التُّقى في ذلك الوقت يعدّون عُمّال السُّلطان والفُسّاق فئةً واحدة؛ كما جمع العهد الجديد بين المذنبين وآخذي الضّرائب الجُمرُكية. ويُروى أنه بلغ من دِين بعض أهل الورع أنه امتنع من نقش فصّ للأمير، فزاد في الأجرة حتى بلغت مئة دينار، فأبى الرّجل؛ ثم جاء إليه بعد ذلك تاجر فأعطاه على نقش بعض الفصوص عشرة دراهم، فأخذها. وقد كان يضرب المثل بزهد جعفر بن مبشّر، وقد أضرّت به الحاجة، حتى كان يقبل القليل من زكاة إخوانه. وقد أعجب أحد التّجار بحُسن كلامه مرة، وعرف مسكنته، فأرسل إليه خمسمئة دينار، فردّها فقيل له: قد عذرناك في ردّ مال السُّلطان للشُّبهة، وهذا تاجرٌ مالُه من كسبه، فلا وجه لردّك له.

وحكي أن بعض المتصرِّفين احتبس الجُبَّائي للطّعام، فأجابه فأنكر رجلٌ ذلك عليه، فقال له: ألستَ تعلم أن طعامه الذي يقدمه إلينا ممّا يشتريه، وأن الغالب أنهم يشترونه لا بعين المال، أفما تعلم أن ذلك ملكه، وأنه ممّا يحلّ له تناوله[487]. «وكان أحمد بن حرب يوماً على طعام مع قوم وفدوا عليه من كبار نيسابور ووجوهها، إذ دخل ابنه في الغرفة سكران يغنّي ويلعب، ولم يسلّم على القوم؛ ولما رأى أحمد دهشتهم سألهم: ما بكم؟ فقالوا خجلنا من أن يدخل عليك ولدك على هذه الصّورة، فقال لهم أحمد: إنه معذور، فقد أكلت أنا وزوجتي ليلة من طعام بعثه إلينا جارٌ لنا، وفي هذه الليلة حُمل بهذا الغلام، فنمنا، ولم نُصلِّ، فلما كان من اليوم التّالي سألنا جارنا: من أين هذا الطّعام الذي بُعث به إلينا، فعلمنا أنه من طعام وليمة عرس في دار أحد عُمّال السُّلطان»[488]. وكان بعض النّاس لا يسلّم على عامل السُّلطان بما تجري به العادة من قول: السّلام عليكم، بل كان البعض يقول جادًّا أو مستهزئاً: تُبْ من عمل السُّلطان. وقد تاب رجل مرّة من عمل السُّلطان؛ ثم طُلب لتقليده عملاً جليلاً، فكسر التّوبة، فسمّاه النّاس المُرتدّ[489]. ونادراً ما كان الرّأي العام يعدّ قلّة الأمانة في إدارة الدّواوين شيئاً يُخلّ بالشّرف. ويعجب المؤرّخون حين يجدون أحد كبار العُمّال من أهل الأمانة. وممّا يُروى أنه توفي في عام 314 هـ - 926 م صاحب بيت مال العامّة؛ فأراد الوزير أن يقبض أمواله، ولكنه لم يجد شيئاً[490]. وكثيراً ما كان يُترك العُمّال في مناصبهم أو يُعاودن إليها بعد تركها مع الشّبهة في أمانتهم؛ وذلك بعد أن يدفعوا ما يقرّر عليهم. على أن هذا لم يكن يقع دائماً.

أما حول مصادرة العُمّال فقد بلغنا من مصدر جدير بالثّقة أن الإخشيد، صاحب مصر، كان إدارياً مالياً ماهراً، هو أول من نكب عُمّاله وكتابه مراراً[491]. فهو مؤسّس نظام العُمّال وفرضِ الأموال

عليهم. وكان العامل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرّع له أصحابه، وجمعوا مالاً للتّخفيف عنه[492]؛ وقد صادر الحاكم بأمر الله أحد أصحاب الدّواوين، وقطع يديه عام 494 هـ - 1013 م، ثم تابع تصرفاته الغريبة فقلّده ديوان النّفقات عام 409 هـ - 1018 م، ثم قلّده الوزارة عام 418 هـ - 1027 م[493].

على أن العادة الذّميمة التي جرت عليها الدّواوين في دولة الخُلفاء تبيّن أثرها السّيئ بآفة ميّزت الاشتغال في الدّواوين؛ وهيو التّهافت الشّديد على الألقاب، والتّكلف في أساليب المكاتبات. وقد بدأ ذلك في القرن الرّابع، وبقي إلى اليوم. وفي المكاتبات الرّسمية كانت تُوجَّه عنايةٌ كبيرة إلى العناوين وتعظيم المخاطَب مع الاسهاب في ذلك؛ بينما كان يُختم الخطاب ويوقع عليه بإيجاز على خلاف عادة الأوروبيين. وكانت العادة جارية في المكاتبة بين النّاس على النّحو التّالي: من فلان إلى فلان من أبي فلان إلى أبي فلان؛ حتى جاء الفضل بن سهل عام 200 هـ / 815 م، فكتب كتاباً عنوانه: لأبي فلان أبقاه الله من أبي فلان[494]؛ ثم استعمل النّاس بعد ذلك الدّعاء على عناوين الكتب. ولقد وصلتنا المخاطبات المختلفة التي كان الوزيرُ يخاطب بها العُمّال باختلاف درجاتهم في مطلع القرن الرّابع الهجري، فكان يكتب إلى أمير الشّام وأجنادها: أعزَّك الله ومدَّ في عمرك وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك؛ وإلى الزُّرّاع والمهندسين: حفظك الله وعافاك؛ وإلى أصحاب البُرُد ممّن يتقلّد الأعمال الجليلة: أكرمك الله ومدَّ في عمرك؛ وأتم نعمته عليك؛ وإلى التّجار والمبتاعين للغلّات إذا جُمعت للواحد منهم أعمالٌ: عافانا الله وإياك من السّوء[495]. وكان الوزراء والكبراء في أول القرن الرّابع يخاطَبون بسيدنا أو مولانا، ويُستعمل في ذلك ضمير المخاطب المُفرد. وفي عام 374 هـ - 984 م كان ابنُ سعدان الوزيرُ يخاطب الوزيرَ ابن عَبّاد بالصّاحب الجليل. والصّاحب ابنُ عَبّاد يخاطب ابنَ سعدان بالأستاذ مولاي ورئيسي[496].

وقول الخوارزمي[497] (توفي عام 383 هـ - 993 م) في هذه الألقاب:

مالي رأيت بني العبّاس قد فتحوا	من الكُنى ومن الألقاب أبوابا
ولقَّبوا رجلاً لو عاش أوَّلهم	ما كان يرضى به للحش بوَّابا
قلَّ الدَّراهم في كفَّي خليفتنا	هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وفي عام 429 هـ - 1037 م لقّب قاضي القُضاة الماوردي بأقضى القُضاة؛ ووقع من بعض الفقهاء إنكارٌ لهذه التّسمية، وقالوا: لا يجوز أن يسمّى به أحدٌ، هذا بعد أن كتبوا خطوطهم بجوار تلقيب جلال الدّولة بملك الملوك الأعظم، ثم تلقّب به القُضاةُ بعده[498].

وحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يلغي الألقاب؛ فبعد أن اعتاد منح الألقاب، ألغاها عام 408 هـ - 1017 م ما عدا ألقاب تسعة نفر، هم أكبر حملة الألقاب، ولكنه أعاد الألقاب بعد قليل[499] على عادته بالنّقض والإبرام. ويقال إن كاتب الخليفة القادر بالله (381 هـ - 422 هـ = 991-1031 م)

هو مبتدع لفظة «الحضرة» في المخاطبة؛ وفي هذه القضية الجزئية أيضاً نجدنا حتى الآن على عادة القرن الرّابع. وهذا الكاتب هو مبتدع عبارة الحضرة العالية الوزارية، وهو أول من وضع عبارة: الحضرة المطهّرة النّبوية في الكلام عن الخليفة، بدلاً من الأسلوب الجاري، ثم كتب عن الخليفة بفظة غريبة غير مستقيمة الدّلالة وهي «الخدمة»، حتى رأيت بخط ابن أبي الشّوارب في ترجمة رقعة: «خادم الخدمة الشّريفة فلان بن فلان»[500]. وقد لقَّب الخليفة القائم وزيره (قتل عام 450 هـ - 1058 م) بألقاب هي: رئيس الرّؤساء، وشرف الوزراء، وجمال الورى[501]. أما بين القُضاة فقد بقي المبدأ القديم جارياً، فكان قاضي القُضاة يوقّع للقُضاة: «أبو فلان بن فلان القاضي أيّده الله يفعل كذا»، ولقضاء النّواحي: «فلان بن فلان الحاكم»؛ بغير كنية ولا دُعاء ولا ذكر قضاء[502].

وكانت الدّواوين في دار الخلافة تغلق يومي الجمعة والثّلاثاء، وقد أمر المُقتدِر (279-289 هـ = 892-902 م) بذلك «لأنّ يوم الجمعة يوم صلاة، وكان يحبّه، لأن مؤدّبه كان يصرفه عن مكتبه؛ والثّلاثاء لأن النّاس يحتاجون في وسط الأسبوع إلى الرّاحة والنّظر في أمورهم، والشّاغل بما يخصُّهم»[503].

الفصل السّابع
الوَزير

Der Wesier

إبّان اختتام عهد الإدارة الإقطاعية، وحلول عهد التّنظيم البيروقراطي ظهر منصبُ الوزير في عهد الخُلفاء الأوّلين من بني العبّاس. أمّا في عهد بني أُميَّة فلم تكن الوزارة «مقَنَّنة القواعد، ولا مقرَّرة القوانين»[504].

وفي أوائل القرن الرّابع الهجري تعرّض اختصاصُ الوزير للتّحجيم؛ فأخذ الخليفةِ منه الضَّياع العبّاسية التي كانت إقطاعياً يديره الوزراء، ويَحْصُل منه مئة وسبعون ألف دينار؛ وأُجري للوزير رزقٌ ثابت قدره خمسة آلاف دينار ثم صارت سبعة آلاف في كل شهر[505]. غير أنّه كانت للوزير مكانةٌ متميّزة بين سائر رجال الدّواوين؛ فكان يُعطى لكل ولد من أولاده خمسمئة دينار في كل شهر، وهو مبلغ يساوي مرتّب وزير[506].

والتّغيُّر الكبير الملحوظ في إدارة الدّولة هو أن الوزير صار مُقَدَّماً على جميع القوّاد، مع أنه ليس إلا رئيساً للكتّاب، ومع أن الدّولة قامت أصلاً على أساس حربي؛ وكان هذا الوضع الجديد إحياءً لنظام التّدرُّج في المناصب إلى أن تنتهي برئيس أعلى، وهو النّظام القوي الذي كان موجوداً في تاريخ الشّرق القديم. ولكن عندما رجع القائد مؤنس إلى بغداد في عام 312 هـ - 924 م، ركب الوزير طيَّارَهُ للسّلام عليه ولتهنئته بمقدمه؛ وهذا ما لم تَجْرِ به العادة، ولم يفعله وزيرٌ من قبل؛ حتى إن الوزير لما خرج لينصرف خرج معه مؤنس وقبّل يَدَه[507].

وفي أول القرن الرّابع كان رسم الوزير في لباسه هو رسم سائر العُمّال؛ فكان يلبس دَرَّاعة وقميصاً ومُبَطَّنة وخُفًّا[508]؛ وكان السّواد هو اللباس الرّسمي[509]. أما في أيام الاحتفالات الرّسمية فكان يرتدي ثياب الموكب، وهي قِبَاء وسيف بمنطقة، ومع هذا عمامة سوداء. وكان الخليفة يخلع على

الوزير هذه الثياب، التي هي رسم الوزارة، عند تقليده؛ فيركب الوزير من داره إلى دار الخلافة، وبين يديه الحجّاب والقواد والغلمان، ثم يعود إلى داره، وهم معه. ويصف المؤرّخون ذلك، ويذكرون بعض ما كان يقع من الأمور النّادرة، فيُذكر مثلاً أن بعض الوزراء أخذه البول، وهو في طريقه إلى منزله، فنزل وهو في خِلَع الخليفة إلى دار أحد عُمّال الدّواوين، فبال عنده وأمر له بزيادة في رزقه[510]. وإذا وصل الوزير إلى داره حضر النّاس على طبقاتهم للسّلام والتّهنئة. وكان الخليفة يرسل له مالاً وثياباً وطيباً وطعاماً وأشربة وثلجاً[511].

كما وصلنا العمل اليومي لأحد الوزراء حوالي عام 300 هـ - 913 م، مع الإشارة إلى أن عوائده وهو وزير كانت مثلها وهو صاحب ديوان؛ «فكان من رسم الوزير أن يغدو إليه الكتّاب، فيواقفهم على الأعمال، ويسلّم إلى كل منهم ما يتعلّق بديوانه، ويوصيه بما يريد وصاته به، ثم يروحون إليه بما يعملونه من أعمالهم، فيواقفهم عليها، وعلى ما أخرجوه من الخروج وقضوه من الأمور، ويقيمون إلى بعض من الليل؛ وإذا خفّ العمل، وقد عُرضت عليه في أثنائه الكتبُ بالنّفقات والتّسبيبات والحسبانات، نهض من مجلسه، وانصرف الجماعة بعد قيامه»[512] وفي هذا المجلس كان الكتاب يجلسون أمام الوزير، كلٌّ في مكانه، ومعه دواته، ورئيس الكتّاب يجلس متقدًّما عليهم[513].

وكان الوزير يحتفظ بنسخة من الوثائق المهمّة، ويجعلها بين سجلاته، فكانت متى عُزل، تنقل إلى دار مَن يخلفه في الوزارة. ولما تقلّد ابن الفُرات الوزارة بعد علي بن عيسى عام 304 هـ - 916 كادت هذه السّجلات تبلغ سقف الخزانة التي كانت فيها[514]. ويُذكر أن بعض الرّقاع الهامة السّرّية كانت تُحفظ في سفط خيزران يُكتب عليه بخط الوزير: ما يُحتفظ به من المهمّات[515].

وكانت دار الوزير حتى عام 320 هـ - 932 م هي الدّار التي كانت قديماً لسليمان بن وهب على الشّاطئ الشّرقي لنهر دجلة، والتي كانت تسمّى دار المخرَّم؛ وكان ذرعها يربو على ثلاثمئة ألف ذراع. وقد أُريد تحصيل مال من هذه الدّار الواسعة التي كانت في حيّ من أغنى أحياء بغداد، «فقطّعت وبيعت من جماعة من النّاس بمال عظيم... وصُرف ثمنها في مال الصّلة لبيعة القاهر بالله»[516]؛ وأعدّت للوزير دار أحد أبناء الخُلفاء[517].

وكان يقف على أحد باب دار الوزير كثيرٌ من الرّجال لحراستها؛ وقد بلغ من كثرتهم أنه كان ربّما أُخذ منهم ثلاثون رجلاً في وقت واحد، وأُنفذوا في أمر مهمّ[518]. وكان في مجلس الوزير غلمان مسلّحُون يسيرون بين يدي الوجوه من النّاس، ويخرجون بين يدي الوزير دائما يجرُّون سيوفهم، والنّاس يشاهدونهم[519] وربّما بلغ عدد الحرّاس 200 رجل.

وكان نظام الوزير ألا يذهب إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب، وذلك في يومي الاثنين والخميس في أوائل القرن الرّابع[520]؛ وقد جرى النّظام أن يساير الوزيرَ إذا ركب إلى دار الخلافة واحدٌ من كتّابه الأربعة الذين يتولّون الدّيوان[521]. وكانت للوزير في دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها، والخواصّ والحواشي بين يديه، حتى يستدعيه الخليفة. ومنذ عام 312 هـ - 924 م صار يجلس في دار الحاجب، فكان هذا دليلاً على انحدار منزلته[522].

وكان الوزير يجلس في مجلس الخليفة موالياً له بوجهه، وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً في حضرة الخليفة، فقد كان الرّسم أن تُحْضَر له دواةٌ لطيفة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى، ويكتب بيده اليمنى، وفي عام 300 هـ / 913 م رأى الخليفة المُقتدِر مرّة مشقّة ذلك على وزيره علي بن عيسى، وهو يكتب كتاباً بحضرته، فأمر بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدّواة إلى أن يفرغ من الكتابة[523]. وكان للوزير في الأوقات التي يكون فيها بدار الخلافة نائبٌ يقوم في الدّار لمهمّ عساه يعرض[524]؛ وكان للوزير من بين خدم الخليفة قوم يعوّل عليهم في مراعاة أخباره[525].

وفي عام 300 هـ - 913 م أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً، وطلب من أحد ثقاته قبولَ الوزارة، فامتنع لكبر سنّه، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليرشّح منهم من يراه أهلاً للوزارة، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه، وأشار بتعيين رجل كان قاضياً، فظنّ الخليفة أن وزيره غشّه ولم يخلص في النّصح؛ ولما سُئل الخليفة في ذلك قال لعَمري إنه عالم ثقة، إلا أنني لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر، لأنني أكون بين أمرين: إما أن تُتَصَوَّر مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة، فيصغر الأمر في نفوسهم، أو أنني عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطّيالس، فأُنسَب إلى سوء الاختيار[526]. إنما في تلك الفترة تقلّد القاضي المروزي (توفي عام 334 هـ - 946 م) ببُخارى وزارة الأمير السّاماني صاحب خُراسان[527].

وكان الغالب على ذلك العهد الطبقيّة وغلبة الأعيان، حتى أفضى ذلك إلى نشوء جيل لكل طائفة من أصحاب المناصب؛ فكان هناك وجوه الحضرة من أولاد الوزراء والكتّاب والأمراء والأشراف، وكان أولاد الوزراء هم الطّبقة العليا بين أبناء العُمّال[528]. وكانت المناصب أحياناً وراثية؛ وذُكر أن الوزير ابن مُقلة خلفه ابنُه، وهو في الثّامنة عشرة[529]؛ وكذلك تولّى ابن العميد الوزارة بعد أبيه، وله من العمر أربع وعشرون سنة[530]؛ وقد ولي الوزارة من بني خاقان أربعة وزراء في سبعين عاماً، وكذلك تقلّد أربعة من بني الفُرات الوزارة في خمسين سنة؛ وكان ابن العميد وزيراً لمُعزّ الدّولة رأس أسرة بني بُوَيْه ومؤسّس مملكتهم، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدّولة في إيران. أما بنو وهب، وأصلهم من نصارى العراق، فقد توارث عشرةٌ منهم أرقى مناصب الدّولة؛ وكان أربعة منهم وزراء[531]. وقد ولي الوزارة واحد من بني وهب عام 310 هـ - 931 م، وكان في شبابه مبذّرا مُسرفاً، وقد ضيّق عليه أصحاب المطالبات حتى أمر القاضي بالحجر عليه، ووُضع تحت الوكالة؛ ولذلك رأى مؤنس القائد أن هذا الوزير سيكون سيئ التّصرف في أمور الدّولة، كما كان سيئ التّصرف في أمواله[532]. وممّا يزيد الأمر خطورة أن أهم عمل للوزير هو إدارة مالية البلاد، فهو الذي يعمل الدّخل والخرج، ويفرض الضّرائب أو يسقطها[533]، ويحصّل الأموال من النّواحي[534].

وفي عام 303 هـ - 915 م شغب الغلمان والرّجالة على الوزير يطلبون الزّيادة، فمضوا إلى داره وأحرقوا بابه، وذبحوا في إصطبله دوابّه[535]. وجميع الوزراء الذين استعفوا أو عُزلوا في القرن الرّابع أخفقوا في الصّعوبات المالية. وفي عام 334 هـ - 946 م علم الوزير أن غوغاء العسكر قد اجتمعوا يؤلّبون ويلقون عليه اللّوم في تأخير أرزاقهم، فدعا بالحلّاق، فحلق له رأسه، واغتسل بماء ساخن، ولبس الكفن، ولم يزل ليلته يصلي؛ ثم دخل الجند عليه وقتلوه؛ وكان هذا الوزير فقيهاً

مناظراً ومُحدِّثاً حافظاً، وكان يصوم الاثنين والخميس، ولا يدع صلاة الليل، وولي الوزارة للسّلطان وهو على ذلك[536].

وكانت سنة 334 هـ - 946 م أخصّ سنة في تاريخ الوزراء؛ ففيها دخل بنو بُوَيْه بغداد، وقام كاتبٌ الأمير الذي غلب على تدبير الأمور مقامَ الوزير، وبطل رسم الوزارة[537]. وقد ذكر هلال الصّابي في كتابه تاريخ الوزراء أهم وزراء القرن الرّابع الهجري، وهو يقسمهم إلى وزراء الدّولة العبّاسية «وكتَّاب» الأيام الدّيلمية[538].

ويروى أن جوهراً عند فتحه لمصر توقّف في مخاطبة أبي الفضل جعفر بن الفُرات في كتابه بالوزير، وقال: ما كان وزير خليفة[539]. أما عند الفاطمي فكان اسم الوزير غير مقبول في أول الأمر، وكان قاضي القُضاة أجلّ أرباب الوظائف عندهم، ولمَ يتخذ خُلفاؤهم وزراء إلّا في عهد الخليفة الفاطمي الثّاني، العزيز بالله، وهو الوزير ابن كلّس الذي كان يهودياً فأسلم (وتوفي عام 380 هـ - 990 م). وذكر القلقشندي في العصور المتأخرة: «وإذا كان ثَمَّ وزير لا يخاطب بقاضي القُضاة لأن ذلك من نعوت الوزير»[540]. ويقول المقريزي إنه بعد موت ابن كلّس لم يستوزر العزيز بالله أحداً، وإنما كان ثَمَّ رجلٌ يلي الوساطة والسّفارة، واستقرّ ذلك في جماعة كثيرة بقيّة أيام العزيز وسائر أيام الحاكم؛ فقط في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ثم ولي الوزارة الجرجرائي في أيام الظّاهر، وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد[541]. ولم يكن جمهور النّاس يفطن لهذا التّمييز بين الوزير والوسيط أو السّفير؛ وكذلك فإنّ يحيى بن سعيد النّصراني مثلاً حوالي عام 400 هـ - 1010 م استخدم في كلامه لفظ الوزراء.

ووظيفة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف لم تكن هي بذاتها مهمّة وزير الخلافة؛ وقد لُقّب الوزير الفضل بن سهل، وزير المأمون، من بين وزراء الدّولة الأولين بلقب ذي الرّياستين؛ وربّما كان ذلك لأنه كان خبيراً بشؤون السّيف والقلم[542]. ولكن الصّفة الحربية للوزير لم تكن بارزة في ذلك العهد، ولم يَلِ الوزارةَ قائدٌ خبير إلا الحسن بن مُخلّد الذي تقلّد وزارة المعتضد، وخُلع عام 272 هـ - 885 م[543] أما عند بني سامان وبني بُوَيْه، فقد كان الوزير يقوم بمهام الوزارة وبقيادة الجيوش في المعارك[544]، حتى أنّ الصّاحب الأديب قد قاد الجيوش في أيام وزارته[545].

وكدلالة على انحدار هيبة الوزراء، أن الأمير مُعِزّ الدّولة ببغداد، عام 341 هـ 952 م وكان أميراً حادّ المزاج سريع الغضب، ضرب وزيره المُهلَّبي، وهو من المهالبة الذين كانوا حكاماً من قديم على عهد بني أُميَّة، مئة وخمسين مقرعة، ووكّل به في داره؛ ولكنه لم يعزله من وزارته؛ وشاور مُعزّ الدّولة مَن حضره، وقال: هل يجوز أن أستنيم إلى هذا الرّجل، وقد لحقه مني هذا المكروه العظيم؟ فقال له أحد من استشاره إن مرداويج قد ضرب وزيره أعظم من هذا الضّرب، حتى كان لا يطيق المشي، ولا قدر على الجلوس لما حلّ به، ثم خلع عليه وردّه إلى أمره[546]. ثم جاء ابن مُعزّ الدّولة، وكان غير كُفء للملك، فاستوزر صاحب مطبخه في سنة 362 هـ - 973 م[547]؛ ولكن ابن عمّه، وهو السُّلطان عضد الدّولة، قبض على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه، وكان ابن العميد قد أسرف في الاتصال بالعدو، فسمل عينيه وجدع أنفه[548]. وطلب من ابن عمّه، عز الدّولة بن مُعزّ الدّولة، أن يسلّم له ابن بقيَّة وزيره لأمور ساءته منه، فسُلِّم إليه مسمولاً؛ فأمر عضد الدّولة بأن يُشهر

في العسكر، ثم طَرح إلى الفيلة وأضريت عليه، فقتله شرّ قتلة؛ وصُلب على جسر دجلة[549]. وقد اجتاز أحد أصدقاء هذا الوزير المنكود، الذي ارتكب كثيراً من ضروب القسوة، فرثاه بقصيدة طويلة جيدة منها[550]:

ولما ضاق بطنُ الأرض عن أن يضمَّ عُلاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوَّ قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السّافيات

وقد استحدث عضد الدّولة في منصب الوزارة أمرين لم يكونا قبله؛ أولهما أنه اتخذ وزيرين معاً؛ والثّاني أن أحد هذين الوزيرين، وهو ابن منصور نصر بن هارون، كان نصرانياً؛ وقد أبقى عضدُ الدّولة نصراً على بلاد فارس وطنه، وأخذ الوزير الثّاني، وهو المُطَهَّر بن عبد الله معه إلى بغداد. وكان المُطهَّر هذا معروفاً بشراسة وخبث في أخلاقه؛ وكان رديء الفكر، فلما وجّهه عضد الدّولة إلى البطيحة لاستئصال اللصوص منها، والتاثَ عليه الأمر، خشي انحطاط منزلته عند عضد الدّولة وتغيُّره له، فاختار الموت على ذلك؛ وأخذ سكيناً فقطع بها شرايين ذراعيه جميعاً، وسال دمه حتى مات[551]. وكان الوزير الذي جاء بعده خليفة لنصر بن هارون الذي كان مقيماً بفارس يدبّر أعمالها، ولم يكن الوزيران على وفاق، بل كان كل واحد يدبّر المكايد لصاحبه[552].

ولما جاء بهاء الدّولة جرى على رسم أبيه فعيّن، وهو بشيراز، وزيرين عام 382 هـ - 992 م، وجعل أحدهما مدبِّراً لأمور العراق[553]. ولما مات الصّاحب ابن عَبّاد سنة 384 هـ - 994 م، بعد أن دبّر أمور الوزارة بفارس أحسن تدبير، وقعت مساومةٌ شائنة حول هذا المنصب في إيران، وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم، فبذل الوزير الذي كان في الوزارة، إذ ذاك ستة آلاف ألف درهم على إقراره في الوزارة، فأشرك السُّلطان فخر الدّولة بينهما في الوزارة، وسامح كلًّا منهما بألفي ألف درهم من جُملة ما بذل، وجمع بينهما في النّظر، ورتّب أمرهما على أن يجلسا في دُسْتٍ واحد ويكون التّوقيع لهذا يوماً والعلامة للآخر؛ وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش، ثم سعت بينهما السّعاة، ودبّر أحدهما للآخر فقتله[554].

وبعد ذلك صار للوزير النّصراني بالمشرق مماثل في مصر، ففي عام 380 هـ - 990 م قلّد الخليفة الفاطمي العزيزُ بالله وزارتَه لعيسى بن نسطورس[555].

على أن الوزراء لم يكتفوا من تعاظم الرّغبة في الألقاب التي استشرت حوالي عام 400-1010، والتي تدلّ دلالة واضحة على تدهور المجتمع في ذلك الحين. وفي عام 411 هـ - 1020 م أكرم أمير بغداد وزيرَه، فأمر بأن تُضرب الدّبادب أمام داره في أوقات الصّلاة، وهو ما كان ينفرد به السُّلطان وحده، وكذلك لقّبه بلقب وزير الوزراء[556]، وسرعان ما استعمل الخليفة الحاكم هذا اللقب الجديد الذي كان له أثر كبير[557]. أمّا الهلال الصّابي المؤرّخ (توفي عام 447 هـ - 1055 م)، فيعدّ أن مخاطبة الملوك المدبَّرين لوزرائهم بأمثال هذا اللقب هي من انقلاب الرّسوم وتغيُّر حقائق

الأشياء[558]. وفي سنة 416 هـ - 1025 م لقّب جلال الدّولة ببغداد وزيره عَلَم الدّين سَعْد الدّولة، أمين المِلَّة، شرف المُلك[559]. وهذا الوضع لا يختلف عن وضع المشرق حالياً، وإذا قارنّا بين الوزير آنذاك مع ما يحمله من ألقاب وبين سلفه ممّن لم تكن لهم ألقاب لوجدنا أنه بالمقارنة معهم لم يكن له شيء من الأمر والسّلطة.

الوزراء في القرن الرّابع الهجري
العاشر الميلادي

نستفح بشيء عن علي بن الفُرات، الذي خلف أخاه العبّاس في منصب الوزارة عام 296 هـ - 909 م. وكان في الخامسة والخمسين من العمر. وكان وزيراً واسع الثّروة، ويذكر الصُّولي: «وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة، وهو يملك من العيْن والورق والضّياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفُرات»[560]. وقد ظهر في منصبه بسيماء الأبّهة التّامة، فكان يُجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مئة دينار في الشّهر إلى خمسة دراهم، وكان يطلق للشّعراء في كل سنة من سنيّ وزارته عشرين ألف درهم رَسْماً لهم، سوى ما يصلهم به متفرقاً، وعند مديحهم إياه، وكان فيمن يُدعى إلى طعامه كلَّ يوم تسعة كُتّاب، هم خاصّة كُتَّابه، وكان منهم أربعة نصارى. وكانت ألوان الطّعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين، وكان له في داره مطبخان: مطبخ الخاصّة، ولا يمكن أن يُحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته؛ ومطبخ العامّة الذي يختص بما يقدّم إلى الحجّاب المقيمين بالدّار ويُفرَّق منه للرّجالة والبوّابين وأصاغر الكتّاب وغلمان أصحاب الدّواوين، وكان يُقدَّم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم، وثلاثون جدياً، ومئتا قطعة دجاجا سماناً، ومئتا قطعة دُرَّاجاً، ومئتا قطعة فراخاً؛ وهناك خمسة خبّازين يخبزون الخبز ليلاً ونهاراً، وقوم يعملون الحلواء عملاً متصلاً، ودار كبيرة للشّراب، وفيها ماذيان يجعل فيها الماء المبرَّد، ويسقى منه جميع من يريد الشّرب من الرّجّالة والفرسان والأعوان والخُزَّان، ومن يجري مجراهم من الأتباع والغلمان. وبرسم خزانة الشّراب خدمٌ نظاف عليهم الثّياب الدّبيقية السّرية، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جُلّاب ومخوض وكوز ماء، ومنديل من مناديل الشّراب نظيف، فلا يتركون أحداً ممّن يحضر الدّار من القوّاد والخدم السُّلطانيين والكُتّاب والعُمّال إلا عرضوا ذلك عليه[561]. وكانت داره مدينة بذاتها، حتى كان بها فوجان من الخيَّاطين[562]. وكان في جانب الدّار أدراج كثيرة لأصحابها الحوائج والمتظلّمين، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك؛ ولما خُلع على هذا الوزير خلَع الوزارة زاد في ذلك اليوم ثمن الشّمع قيراطاً في كل مَنٍّ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما، ولأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعه منوية ودرج منصوري. وقد سُقي في داره في ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل ثلجاً[563]، وجرى رسمه مدّة وزارته أن يُعطي كلّ من يخرج من داره عند اصفرار الشّمس شمعة. وفي عام 311 هـ - 923 م اتخذ ابن الفُرات مارستانا ببغداد، وكان ينفق عليه مئتي دينار من ماله في كل شهر[564]. وكان هذا الوزير يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة، فلقد قدَّمت إليه جرائد بأسماء من يعاديه، ويدبّر في زوال أمره، فلم يفتح الصّناديق التي كانت فيها، وأحرقها[565]. ولما فسد أمره عند المُقتدِر وتألّب عليه الجميع أشار عليه بعض المشيرين أن يقسِّط على نفسه وكتّابه وعُماله ما يحمله للخليفة،

فيرضى عنه، فقال: «فأي شيء أقبح بي، مع علوّ همتي، وكثرة نعمتي، مع أن أنشىء أصحاباً وعمَّالا، يلون بولايتي، ويُنكبون بنكبتي، ويتصرّفون بتصرّفي، ويتعطلون بعطلتي، ثم أزيل نعمهم وأحوالهم بيدي وفي أيامي؟ القتل والله أهون من ذلك»[566].

وحُكي أن رجلاً اتصلت عُطْلَتُه، وانقطعت مادته؛ فحمل نفسه على أن زوَّر كتاباً من أبي الحسن بن الفُرات إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه، فارتاب العامل بالخطاب وارتبط الرّجل عنده على وعد، وأنفذ الكتاب إلى ابن الفُرات، ورأى ابن الفُرات أن يستشير كُتَّابه، فأشار بعضهم بالتّأديب أو بقطع إبهامه أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرمه، فقال ابن الفُرات: «ما أبعدكم من الخيرية! رجل توسّل بنا، وتحمّل المشقة إلى مصر في تأميل الصّلاح بجاهنا»[567]. ولما نُكب الوزير علي بن عيسى وتذلّل لابن الفُرات حتى قبَّل يده وقام لابنه المحسِّن، وكان ابن عشر سنين، قال ابن الفُرات بعد انصراف عليّ: رأيتم تَطَامُنَ عليّ بن عيسى للنّكبة واستعانتَه عليها بالاستعطاف والتّذلُّل، وكبدي في المحن كأكباد الإبل[568]. ولقد أسبغتْ عليه الخدمة الطّويلة خبرة بشؤون الوزارة وإدارة الدّولة؛ فأمكنه السّيطرة على حياة الدّولة الاقتصادية المتشعبة سيطرة كاملة، حتى استحق من وجوه كثيرة أن يقول عليّ بن عيسى لما كُذِب عليه بموت ابن الفُرات: اليوم ماتت الكتابة[569]. ومن حِكَمه السّياسية القاسية قوله: أصل أمور السُّلطان مَخْرَقةٌ، فإذا تمّت واستحكمت صارت سياسة، وقوله: تَمْشِيَةُ أمور السُّلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصّواب؛ وكان يقول: إذا كانت لك حاجة إلى الوزير فاستطعت أن تقضيها بخازن الدّيوان أو كاتب سرّه فافعل ولا تبلغ إليه فيها[570].

وعلى الرّغم من ذلك، لم يتحرّج عليّ بن الفُرات من مدّ يده إلى خزانة الدّولة؛ بل أضاف هو وأخوه كثيراً من ضياع السُّلطان إلى أملاكهما، وعظم دَخْلُهما؛ وقد وجد أعداؤه من الطّعن فيه أنه لما صودر وُجد في ودائعه ما هو مختوم بختم أبي خُراسان خازن المعتضد على بيت مال القلعة[571]. قال أبو علي بن مُقلة كاتب ابن الفُرات، وقد جرى ذكر هذا الوزير: «يا قوم! هل سمعتم بمن سرق في عشر خطوات سبعمئة ألف دينار؟ قلنا: كيف ذلك؟ قال كنت بين يدي ابن الفُرات في وزارته الأولى، ونحن في دار الخلافة نقَرِّر أرزاق الجيش، ونقيّم وجوه مال البيعة ونرتّب إطلاقه، وذلك عقيب فتنة ابن المُعتزّ؛ فلما فرغ ممّا أراده خرج وركب طَيَّاره، وبلغ نهر المعلّي، فقال: إنا لله إنا لله! قفوا! فوقف الملاّحون؛ فقال لي: وقع إلى أبي خُراسان صاحب بيت المال بحمل سبعمئة ألف دينار تُضاف إلى مال البيعة، وتُفرَّق على الرّجال، فقلت في نفسي: أليس قد وجَّهنا وجوه المال كله؟ ما هذه الزّيادة؟ ووقعت بما رسمه، وعلَّم فيه بخطه، ودفعه إلى غلام، وقال: لا تنزح من بيت المال حتى تحمل هذا المال السّاعة إلى داري، ثم سار؛ (قال) فحُمل المال بأسره، ثم ذكر أنه باب لا يتفق مثلُه سريعاً، ويحتمل ما احتمله من هذا الاقتطاع الكثير، فاستدرك من رأيه ما استدرك»[572].

وكان الوزير علي بن عيسى زميل ابن الفُرات من قبل ومنافسه من بعد يخالف أسلوبه بشكل كبير. وينتمي علي بن عيسى إلى أسرة قديمة من الكُتَّاب[573]؛ ذكر الصُّولي: ولا أعلم أنه وزر لبني العبّاس وزيرٌ يشبهه في زُهده وتعبُّده؛ فقد كان يصوم نهاره ويقوم ليله[574]. وكان يُخرج نصف ما يرتفع له في السّنة في أبواب البرّ وسبل الخير[575]؛ وكان متهاوناً قليل المبالاة حتى إنه لم يستطع أن يغيّر طبعه في كلامه عند مخاطبة الخليفة، وذلك على عكس ابن الفُرات. وقد طلب الأخفش

اللغوي من علي بن عيسى أن يجري عليه رزقاً، ووسّط في ذلك أبا عليّ بن مُقلة، فانتهره عليّ بن عيسى انتهاراً شديداً في مجلس حافل، فشقّ ذلك على ابن مُقلة، وقام من مجلسه «وقد اسودّت الدّنيا في عينيه». ووقف الأخفش على الصّورة فاغتمّ وقيل إنه قُبض على قلبه فمات[576]. وكان عليّ بن عيسى متمسَّكا بالوقار، ولارؤي قط متبذِّلا، ولا كان يفارق الخُفّ في أكثر أوقاته إلا إذا أوى إلى فراشه أو قعد مع حُرَمه[577]. وكان يشتغل بالنّظر في أمور الدّولة ليله ونهاره[578]. وكان يجعل وراء كل باب مسوَّرة، ويُسْبِل عليها ستراً طويلاً يغطّيها، وإذا جلس بعد عمله الكثير في أخريات النّهار مجلساً حافلاً ألصق بها ظهره لئلا يُشاهَد مستنداً، تمسُّكاً بالوقار. وقد رأينا فيما تقدم ما أصابه من الذّلة والاستكانة بعد عزله من الوزارة، وكان لتديُّنه وورعه يلوم ابن الفُرات على تقليده ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني[579]: وقد تحرّج من تقليد أبنائه الأعمال مدّة وزارته[580]، وحاول أن يتدارك العجز في بيت المال بالاقتصاد في الأمور الصّغيرة فأنقص أرزاق العُمّال والجند، وأسقط ما كان يُفَرق على القواد والفرسان في كل عيد؛ وكان ذلك من شاة إلى عدّة بُعران؛ وحاول أن يمنع من امتداد الأيدي إلى الأموال العامّة. ولكن ابن الفُرات شنَّع عليه بقوله: يا أبا الحسن عليّ بن عيسى! شغلت نفسك بأخلاق المملكة والنّظر في علوفة البط والحطيطة من أرزاق النّاس، وما يجري هذا المجرى من الصّغار المستهجنات؛ لعمارة بيدر واحد أصلح للسّلطان وأعْوَدُ عليه من توفيرك ما تقربت به إليه. وكان يوفر من الأشياء الصّغيرة ويُروى أنه قضى مرّة ساعة يناظر في علوفة البط حتى إن المتولّي لكيل العلوفة سأل كاتبه عن رزقه في الشّهر، ووجد أنه يتقاضى عن السّاعة عشرين ديناراً، فقال: «قد نظر الوزير في أكثر من ساعة لتوفير ما لا يبلغ ما استحقّه من الرّزق».

ولكن علي بن عيسى برغم تقواه هذه وتدقيقه في الأمور الصّغيرة لم يَصْدُق الخليفة حينا راسله ليقرّ بما عنده من أموال؛ فكتب يذكر أنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار، هذا وقد وُجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار. ولما ضيّقوا عليه استجاب أخيراً إلى دفع ثلاثمئة ألف دينار، يُعجَّل منها الثّلث في ثلاثين يوماً، ويؤدّي الباقي على رسم المصادرات[581].

وكان يوبّخ أبا عبد الله البريدي لأنه حلف للسّلطان أن استغلال ضيعته عشرة آلاف دينار، وهو في الحقيقة ثلاثون ألفاً، فقال البريدي إنه اقتدى بعلي ابن عيسى حيث حلف لابن الفُرات ان ارتفاع ضيعته عشرون ألفاً، فوجُد بعد ذلك خمسين ألفاً، فكأنه ألقم عليَّ بن عيسى حجراً[582]. فلم يكن هذا الوزير نقيّ اليد تماماً، وقد واجهه خصومه بذلك، فلم يستطع أن يبرّر.

وقد ولي أبو علي محمّد بن عبيد الله الخاقاني الوزارة مدّة سنتين، وذلك بين وزارة ابن الفُرات وعلي بن عيسى. وكان الخاقاني هذا ابن وزير، وهو من أسرة من الأشراف المتصلين بالخلافة. ويذكّرنا ما سجّله التّاريخ من أمره بكثير من الأريَحيين الذين يفتحون صدورهم للعامة: كان الخاقاني متخلّقا عامًّيا، إلا أنه كان خبيثاً داهياً[583]؛ وكان من عادته إذا سُئل حاجة أن يدقّ صدره بيده، ويقول: نعم وكرامة، حتى لُقِّبَ «دقّ صدره»؛ فانبسطت العامّة عليه فضلاً عن الخاصّة[584]. وقد صُوِّرت شخصيته وأحيطت بحكايات مضحكة قيلت عن غيره، وهي تدلّ على قلّة الأذى أحياناً وعلى سوء السّريرة أحياناً أخرى؛ وكانت طريقته كثرة التّولية والعزل، فكان يعيّن في المنصب الواحد رجالاً كثيرين واحداً بعد واحد، ولم يكن ذلك عن قلّة تقدير للمسئولية، بل ليأخذ من كل منهم

رشوة[585]. ويُروى أنه اجتمع في خان واحد بمدينة حلوان (قرب نهر ديالى) سبعة أنفس، وقد قلّد الخاقاني كلَّ واحد منهم «ماه الكوفة» في عشرين يوماً؛ واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلّدهم منصباً آخر[586]. ويُذكر أن الخاقاني قلّد عمالةَ بادوريا في أحد عشر شهراً أحد عشر عاملاً كان أغلبهم من بغداد.

وعلى ذلك فقد تقلّد منصبَ الوزارة في أوائل القرن الرّابع وزراء ثلاثة يختلف أحدهم عن صاحبه كل الاختلاف، ولا يجمع بينهم إلا صفة واحدة هي الخيانة التي انتهبوا بها خزانة الدّولة.

أمّا حامد بن العبّاس[587] الذي ولي الوزارة عام 306 هـ - 918 م فقد كان على خلاف غيره من الوزراء؛ لأنه لم يتخرَّج في الدّواوين، بل بدأ حياته بالاشتغال في أمور التّجارة والمال وضمان الخَراج، حتى عظُم شأنه؛ ولما ولي الوزارة وكان في الثّمانين من عمره، احتفظ بما كان بيده من ضمانات؛ ولم يكن يعرف شيئاً من أمور الكتابة، ولم يكن له نصيب من الوزارة إلا اللقب والخِلْعة، وكان المدبّر للأمور علي ابن عيسى الذي كان وزيراً من قبل، وقد قال الشّاعر مستهزئاً بحامد بن العبّاس:

لمَّا عُزلتَ حصلنا على وزير بدايه

وقد قيل فيهما: «هذا وزير بلا سواد؛ وذا سواد بلا وزير». ولما سأل حامدُ بن العبّاس الخليفة المُقتدِر إطلاقَ علي بن عيسى والإذنَ له في استخلافه في الدّواوين لقلّة خبرة حامد بالوزارة، قال المُقتدِر: ما أحسب أن عليّ بن عيسى يجيب إلى ذلك، ويرضى بأن يكون تابعاً بعد أن كان رئيساً، فقال حامد بحضرة النّاس: إنما مثل الكاتب كمثل الخياط، يخيط ثوباً بعشرة دراهم، ويخيط ثوبا قيمته ألف دينار؛ فضحك النّاس منه واستقصوه[588]. ولما ناظر حامدُ بن العبّاس ابنَ الفُرات بعد عزله أفحش له في القول، فقال له ابن الفُرات: ليس ما أنت فيه بَيْدَراً تقسمه. وقد أظهر من الأبّهة ما يظهره ذوو المجد الحديث لا المؤثّل؛ فكان له ألف وسبعمئة حاجب وأربعمئة مملوك يحملون السّلاح؛ وكان الملّاحون في حرّاقته من الخصيان البيض، وهم أغلى الخصيان ثمناً. وقد جرى بينه وبين مفلح الأسود كلامٌ مرة، فقال له حامد: «لقد هممتُ أن أشتري مئة خادم أسود وأسميهم مُفلحاً وأهبهم لغلماني»[589]. وكان ظاهر المروءة كثير العطاء؛ فيُروى أن أحد خدم المُقتدِر شكا إليه فناء شعيره، فكتب له بمئة كرّ من الشّعير؛ وكان ينفق على الطّعام كل يوم مئتي دينار، ولا يسمح بأن يخرج من الدّار أحد من الجلّة والحاشية والعامّة وغيرهم، إذا حضر الطّعام، إلا أن يأكل، حتى غلمان النّاس؛ وربّما نُصب في داره في اليوم الواحد أربعون مائدة. وقد أهدى إلى المُقتدِر بُستاناً أنفق على بنائه مئة ألف دينار؛ وحكى أنه ركب يوماً إلى بُستان له، فرأى في طريقه داراً محترقة وشيخاً يبكي، ولم تسمح له نفسه بالتّوجه إلى بُستانه إلا بعد أن أمر أن تُبنى الدّار كما كانت وتوضع فيها الفراش وكل ما كان فيها، حتى إذا عاد العشية من النّزهة وجد الشّيخ وعياله كما كانوا، وقد بُنيت الدّار على أحسن ممّا كانت وأُنفق في ذلك مال كثير[590]. ولكن حامد بن العبّاس لم يتورّع من خزن الحبوب في العراق وخوزستان وأصفهان، وأدّى ذلك إلى اضطراب العامّة وثورتهم عليه.

أما الوزير ابن مُقلة (ولد في بغداد عام 272 هـ - 835 م) فقد نشأ في بيت متواضع[591]؛ وتقلّد الوزارة، وهو في السّتين من العمر، وكان ممّن اشتغل بين يدي ابن الفُرات وترقّى بسببه[592]. ولقد تعلّم منه الشّيء الكثير، واستطاع أن يجمع كثيراً من المال في سنين قليلة؛ ووزر لثلاثة خُلفاء في أوائل القرن الرّابع ثلاث مرّات، وبنى لنفسه داراً عظيمة في بقعة من أحسن بقاع مدينة السّلام. وكان يعتقد بالنّجوم، فجمع المنجّمين، حتى اختاروا له وقت البناية فوضع أساس الدّار بين المغرب والعشاء، وكان له بُستان كبير أنشأه بلا نخل، وكانت تفرّخ فيه الطّيور التي لا تفرّخ إلا في الشّجر؛ وكان فيه من الغزال والبقر البدوية والنّعام والإبل وحمير الوحش. وكان يحاول أن يجرّب التّزاوج بين الحيوان، وبُشّر مرّة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بريّ، فأزوجا وباضا وأفقسا، فأعطى من بشّر بذلك مئة دينار[593].

وكان ابن مُقلة صاحب مؤامرات، جريئاً في ذلك؛ يتّهمه المؤرّخون بالتّدبير للقاهر (322 هـ - 934 م) والفتك به[594]. وقد سعى عند بجكم وعند الخليفة على ابن رائق الذي كان في ذلك الحين قابضاً زمام الأمور ببغداد؛ لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير المملكة قبض على ضياع ابن مُقلة[595]. ولكن الخليفة احتال حتى قبض عليه وسلّمه لابن رائق، على الرّغم من أنه استشار المنجّمين في اختيار الوقت للقاء الخليفة[596]. واستقرّ الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى[597]؛ ومن المؤسف أن مثل هذه اليد النّفيسة تُقطع؛ لأن خطّ ابن مُقلة كان من أحسن خطوط الدّنيا، وهو أكبر مؤسّس للكتابة العربية الجديدة التي ظلّت مستعملة طول القرن الرّابع الهجري[598]. على أن ابن مُقلة بدلاً من أن يكتب بيده اليسرى كان يشدّ القلم على ساعده الأيمن ويكتب[599]؛ ولكنّه رغم ما حلّ به، واصل سعاياته ودسائسه غير متراجع، فقُطع لسانه بعد ثلاث سنين، وظلّ محبوساً مدّة طويلة، حتى مات. وقد وصف المؤرّخون حال هذا الرّجل في آخر أيامه، بعد القوّة والرّفاه؛ حتى كان يستقي الماء بنفسه من البئر، فيجذب حبل الدّلو ثم يمسكه بفيه[600].

ومن وزراء القرن الرّابع أبو العبّاس الخصيبي؛ كان يشربَ النّبيذ بالليل وينام بالنّهار في أيام وزارته كلها؛ وكان ينتبه مخموراً لا طاقة له لعمل، فيترك فضَّ الكتب الواردة من عُمّال الخَراج وقراءتَها والتّوقيع عليها وإخراجها، إلى الدّواوين. وكانت تُعمل له جوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمّة. فيقرؤها أبو الفرج إسرائيل النّصراني، ويوقّع فيها كما يرى. وكان الخصيبي لا يحسن غير المصادرات (مسكويه، 5، 247).

وفي حوالي منتصف القرن الرّابع تولّى الوزارة الحسن المُهلّبي، فكان وزيراً ذا كفاية عظيمة؛ وأصله من آل المُهلّب بن أبي صُفرة[601]، من سادة الإسلام الأولين، وكان وطن المهالبة بالبصرة، حيث اتخذوا في القرن الثّالث الهجري دوراً عظيمة عُرفت بحُسنها[602]. وكان أبو محمّد المُهلّبي، قبل الوزارة، في شدّة عظيمة؛ وسافر مرة، وهو على تلك الحالة، فلقي في سفره عنتاً شديداً، واشتهى اللحم فلم يقدر عليه، وسمعه رفيق له، فاشترى له لحماً بدرهم. ثم تنقّلت الأحوال بالمُهلّبي وتولّى الوزارة، وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم، فأمر له بسبعمئة درهم[603].

وفي عام 334 هـ - 946 م، وهو العام التّاريخي المشهور، استولى المُهلبي على بغداد إلى أن وردها مُعزٌّ الدّولة[604]. ونرى المُهلَّبي قبل ذلك أي في عام 326 هـ - 938 م وكيلاً لأبي زكريا السّوسي، وكان السّوسي هذا من كبار رجال المال[605]؛ ثم استخلفه الوزير الصَّيْمري على الأمور بمدينة السّلام، وأنابه بعد ذلك بحضرة مُعزّ الدّولة، فحسُن موقعه عند مُعزّ الدّولة ومال إليه وقرّبه؛ فاشتدّ ذلك على الصَّيْمري، فتطلّب للمهلبي الذّنوب، وأطلق فيه لسانه بالوقيعة[606]. ولما مات الوزير في سنة 339هـ - 950 م استكتبه مُعزّ الدّولة وآثره على جميع الكتّاب؛ ولم يُخاطب بالوزارة إلا في سنة 345 هـ[607].

وكان الأصفهاني صاحب الأغاني منقطعاً إلى الوزير المُهلَّبي، كثيرَ المدح له[608]؛ ولكن المُهلَّبي كان قائداً محنَّكا، هزم صاحب عُمان حينما غزا البصرة وغنم منه وأسر[609]. ومات عام 352 هـ - 963 م وهو خارجٌ لفتح عُمان، وذلك بعد أن لبث في الوزارة أكثر من ثلاث عشرة سنة كان فيها يدبر أمور أكبر ديوان في الدّولة؛ وكان مخلصاً في المحافظة على النّظام فردَّ رسوم الضّرائب إلى ما كانت عليه قبل ظلم البريديين[610]؛ وكان يؤدّب العابثين، فقبض على حاجب قاضي القُضاة وضربه ضربَ التّلف، وكان يبلغه أن هذا الرّجل عاهر «يتعرّض لحُرَم النّاس ممّن لهنَّ خصومة أو حاجة عند قاضي القُضاة»[611]؛ ولكن المُهلَّبي كان يفعل في بعض الأحيان ما يثير سخطنا، ومن أمثلة ذلك أنه تعقّب أحد العُمّال، وأخذ في التّنقير عن أمواله وفي إرهاب غلمانه حتى ظفر بالمال الكثير واستعمل الدّهاء والمكر والبطش في بلوغ ذلك، وإن كان ليس في هذا ما يشين عند خُلفاء ذلك العهد وأمرائه، حتى إن مسكويه يذكر صنيع المُهلَّبي معجباً بذكائه[612]؛ بل لم يسلم المُهلَّبي ذاته من هذا المصير؛ فلما مات قبض مُعزّ الدّولة على عياله وولده ومن دخل إليه يوماً واحداً، حتى الملّاحين والمُكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته، وصادرهم جميعاً، وفعل بهم ما لا يُفعل إلا بعدوٌ مكاشف، حتى استفظع النّاس ذلك واستقبحوه[613]. وكان المُهلَّبي يرى سيده أميراً قاسياً، حتى لقد ضربه بالمقارع مرّة مئة وخمسين مقرعة. ولم يكن على وفاق مع سَبُكتكين Sebük Tegin القائد التُّركي الذي كان أكبر ثقات مُعزّ الدّولة[614]؛ ولكن المُهلَّبي كان له على مُعزّ الدّولة سلطانٌ في الأمور المهمّة، فلما أراد الأمير أن يترك بغداد لم يزل المُهلَّبي به حتى صرفه عن رأيه، فابتنى قصره العظيم ببغداد وبقي بها[615].

وكان نُدماء الملهبي أعيانَ الفضل، من أهل الأدب والعلوم؛ وكانوا يجتمعون على الشّراب والطّرب. وقد تكلّم مسكويه في حديث له قصير عن صفات المُهلَّبي وسخائه وآثاره، وإن لم يكن مسكويه يستسيغ المُهلَّبي[616]؛ وقد حدث مرّة أنه صاغ دواة وَمِرقعاً، وحلّاهما حلية ثقيلة، وكان بعض الكتّاب في ديوانه يتذاكرون سرَّ حسن الدّواة، وذلك على مسمع منه وغفلة منهم، فقال أحدهم: ما كان أحوجني إليها لأبيعها وأنتفع بثمنها، فقال له آخر: وأيّ شيء يعمل الوزير؟ فأجابه: يدخل في حِـ.. أمّه؛ فلم يكن الملَّهبي إلا أن أهدي الدّواة للرّجل الذي تمنّاها[617]. ويحدثنا القاضي أبو علي التّنوخي، معترفاً بفضل الوزير المُهلَّبي؛ فيقول إنه استدعاه لصداقة كانت بينه وبين أبيه وقلّده عملاً، وكان أبو علي يلازم الوزير، فدخل عليه يوماً قاضي القُضاة وكان يبغض أبا علي بزيادة عداوة كانت لأبيه؛ وأراد الوزير أن يلقي في نفس القاضي رهبة أبي علي، حتى يرهبَه ويكرمَه؛ وعلم من خلق القاضي أنه لا يجيء إلا بالرّهبة، فأخذ الوزير يكلّم الفتى، ويوهم قاضي القضاة أنه يسارّه في

أمر من أمور الدّولة، وأفهم أبا علي غرضه من هذه المسارَّة، وأنها شديدة على نفس القاضي، وقال له أن يمضي إليه في الغد ليرى ما يعامله به، فلما جاء إلى القاضي كاد يحمله على رأسه[618].

وأشهر الوزراء أواخر القرن الرّابع كان الصّاحب ابن عَبّاد[619] الذي ولد عام 326 هـ - 928 وتوفي عام 385 هـ - 995 م، وزير بني بُوَيْه بالرّي. وكان في ابتداء أمره معلِّماً في قرية، إلى أن بلغ منصب الوزير المدبِّر لأمور الملك؛ وكان الأمير الشّاب الذي استوزره والذي أنشأ له ابن عَبّاد مملكته لا يخالفه في أمر من الأمور، بل حَكّمه في كل شيء، وكان يجلّه بكل ضروب الإجلال[620]؛ ولما مات الصّاحب عُمل له ما يعمل للملوك[621]. وكان ابن عَبّاد من الأدباء ومن المعنيّين بأهل الأدب؛ وقد شبَّهه مادحوه بهارون الرّشيد، وذلك لأنه أشبه الرّشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللّسن، وكانت له مراسلات مع رؤساء الأدباء بالشّام وبغداد أمثال الرَّضي والصّابي وابن الحَجَّاج وابن سُكَّرة وابن نُباتة[622]، وملك من كتب العلم خاصّة ما يُحمل على أربعمئة بعير وذلك رغم أنه لم يكن خبيراً بالعلوم الإلهية، وأنه كان شديد التّعصّب على أهل الحكمة والنّاظرين في أجزائها كالهندسة والطّب والتّنجيم والموسيقى والمنطق والعدد[623]. وتُذكر له رسالة حسنة في الطّب[624]؛ ولم يكن الصّاحب يقدر على عطايا الأدباء عن سعة، كما يُروى عمن تقدّمه من إجزال العطاء لهم، فقد «كان لا يزيد على مئة درهم وثوب إلى خمسمئة، وما يبلغ إلى الألف نادر»[625].

وكان الصّاحب يعجبه الخَزُّ خاصّة وكان يكثر من إهدائه؛ فنظر الزّعفراني الشّاعر يوماً إلى من في دار الصّاحب من الخدم والحاشية، فوجد عليهم الخزوز الفاخرة الملونة، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من الخَزّ قال فيها:

وحاشيةُ الدّار يمشون في

ضروب من الخَزِّ إلا أنا

«فقال الصّاحب: قرأت في أخبار معْن بن زائدة أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير! فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية، ثم قال: لو عملت أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذا لحمتلك عليه؛ وقد أمرنا لك من الخَزّ بجُبّة وقميص ودَرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب، ولو عملنا لباساً آخر يُتَّخذ من الخَزّ لأعطيناكه»[626]. ولكن لسوء حظّ الصّاحب أغضب التّوحيدي، فأثار على نفسه الذّمَّ من أفحش الألسنة في عصره؛ على أنه قد وصلت إلينا رسالة من أبي حيّان كتبها للصّاحب ومدحه بها في أول اتصاله به، ثم انتهت العلاقات بينهما بأن كتب أبو حيّان رسالته في ذمّ الصّاحب؛ ومع ذلك فهي من بدائع النّثر العربي، ومن أجمل ما كُتب في تصوير شخصيات الرّجال في القرن الرّابع الهجري.

أمّا ابن العميد (توفي عام 369 هـ - 971 م) فقد صوَّره لنا ابن مسكويه في تاريخه، وكان خازناً لدار كتبه مدّة طويلة، وبقي في نفسه لابن العميد صورة وأثر قويان، حتى إن التّوحيدي يهزأ بابن مسكويه ويعيبه بأنه يُفسد بالإكثار من ذكره: قال المُهلّبي، قال ابن العميد، فعل ابن العميد.. حتى

يضجر القارئ منهما. وبدأ مسكويه بمدح بطله بقدرته على الحفظ؛ يقول المؤرّخ: «وحدّثني غير مرّة أنه كان في حداثته يخاطر رفقاء والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت في يوم واحد؛ وكان رحمه الله أثقل وزناً وأكبر قدراً من أن يتزيّد... ثم كان يختصّ بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحدٌ كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطّبيعة، والحركات الغريبة وجرّ الثّقيل ومعرفة مركز الأثقال وإخراج كثير ممّا امتنع على القدماء من القوّة إلى الفعل، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون، وحيل في الحروب مثل ذلك، واتخاذ أسلحة عجيبة بسهام تنفذ أمداً بعيداً وتؤثر آثاراً عظيمة، ومرايا مُحرقة على مسافة بعيدة جداً. وقد رأيته يتناول التّفاحة أو ما يجري مجراها؛ فيعبث بها ساعة، ثم يدحرجها، وعليها صورة وجه قد خطّها بظفره، لو تعمّد لها غيره بالآلات المعدّة وفي الأيام الكثيرة ما تأتّى له مثلها؛ فأمّا اضطلاعه بأمور الملك فقد دلّت عليه رسائله لابن حمدان. ولا سيّما رسالته التي يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدّمه لها، وما يجب أن تُتلافى به، حتى تعود إلى أحسن أحوالها؛ «فإن هذه رسالةٌ تُتَعلّم منها صناعةُ الوزارة»... ولما حصل بفارس علّم عضد الدّولة وجوهَ التّدابير السّديدة وصناعةَ المُلك التي هي «صناعة الصّناعات»، ولقّنه ذلك تلقيناً، فصادف متعلّما لقِناً؛ حتى قال عضد الدّولة مراراً: إن أبا الفضل بن العميد كان أستاذنا.

وكان ابن العميد يقود الجيوش ويحضر المعارك، ولا يركب ظهور الدّوابّ لإفراط علّة النّقرس وغيرها به. وكان لحسن عشرته إذا دخل إليه أديبٌ أو عالم سكت وأصغى إليه، حتى إذا طاوله، وأتت الشّهور والسّنون على محاضرته، واتفق له أن يسأله عن شيء تدفّق حينئذ بحرُه؛ وكان مركزه في غاية الصّعوبة، وهو بين أمير لم تكن له بين جنده هيبة إلا بالمداراة والمسامحة في أشياء كثيرة وإطلاق الأيدي بالعبث، ولم يكن يستجيب إلى عمارة البلاد، وبين جند الدّيلم الذين كانوا يطالبون بالمحاولات؛ ولكن ابن العميد تمكّن على الرّغم من هذا من ضبط النّظام حتى استقام الأمر. ويحكي ابن مسكويه أنه كان يكفي ابن العميد أن يرفع الطّرف إلى أحدهم بطريق الإنكار، فترتعد الأعضاء وتضطرب، وأنه شاهد ذلك في مواقف كثيرة. وقد استطاع أن يعرف طبائع الدّيلم وما فيهم من حسد وجشع، وبترك التّكبر عليهم، وبالظهور في مرتبة أوسطهم حالاً. ولما رأى ابن العميد أن ابنه يحبّ أن يسير في خواص الدّيلم، ويستميل قلوبَهم بالخِلَع والهدايا، ويدعوهم إلى اللعب والصّيد، ويستضيفهم في الصّحراء، نهاه عن ذلك ووعظه ألّا يسير معهم هذه السّيرة، ولكن النّصح لم ينفع؛ فتجرّع ابن العميد غيظه، وزاد ذلك في مرضه، حتى مات في هَمَذان، وهو يقول في مجلس خلواته: ما يُهلك آلَ العميد، ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصّبي[627].

الفصل الثامن
الشّؤون الماليَّة

Die Finanzen

على الرُّغم من أنّ التّشريع الإسلامي في أمر الضّرائب قد يبدو واضحاً وبسيطاً في كتب الفقه، منذ أيام أبي يوسف القاضي إلى أيام الماوردي، وفيما تمّ جمعه من كتب الحديث؛ فإنه في الواقع تشريع متشعِّب مع استفاضة وتعقيد. ولو ودّ الباحث معرفة الفروق بين النّظم المالية عند المسلمين وعند غيرهم لما كفاه دراسة هذه النُّظم في البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ الدّولتين البيزنطية والفارسية؛ هذا لأنه كانت هناك نظمٌ أخرى في الضّرائب يختلف بعضها عن بعض في الشّام ومصر وشمال أفريقيا قبل ظهور الإسلام، كما كانت هناك فروقٌ بين النُّظُم المالية في العراق وخُراسان وجنوب فارس. ولم تكن الدّولة الإسلامية كلها تضمّ ضرائب ثابتة ونافذة على نحو واحد إلّا الضّرائب الإسلامية الصِّرفة وهي: ضريبة رؤوس أهل الذِّمَّة من اليهود والنّصارى، والزّكاة المفروضة على المسلمين. وكانت هذه تحسب على أساس الشّهور، مثلها مثل أجور الأرجاء والمستغلّات والأرض المُقْطَعة وكلّ ما يجري على المشاهرات. وكانت هذه الضّرائب الشّهرية تجري بحسب السّنة الهلالية، وكان التّقويم الهلالي يعمل به في الواقع في المدن الكبيرة التي يقلّ اعتمادها على الزّراعة. أما في الأرض الزّراعية فلم يكن بدّ من أن يتمشّى نظام الضّرائب مع حال الزُّرَّاع وأوقات الغرس والحصاد، أي أنه لم يكن بدّ من التّرتيب طبقاً للسّنة الشّمسية[628].

هذه السّنة الشّمسية كانت هي القِبْطية والشّامية في البلاد التي كانت تحت حكم الرُّوم؛ أما في المشرق فكانت هي السّنة العجمية؛ وفي فارس كان يُفتتح الخَراج في إبّان النّيروز [629]؛ ولقد اعتمد العجم ذلك من قديم الزّمان، على اعتبار أنه أوان الانقلاب الصّيفي الذي هو وقت إدراك الغلات[630]. ثم حلّ دور ملوك العرب فاتّبعوا رسم ملوك العجم في المطالبة بالخَراج إبّان النّيروز.

ولكن العجم كانوا يكبسون السّنين في كل أربع سنين بيوم حسب قاعدة الرُّوم والسُّريان؛ فألغى الإسلام ذلك، ونشأ عن عدم الكبس أنّ الخَراج كان يُفتتح قبل نضج الغلال. وبينما كان المتوكّل يطوف يوماً في مُتصيَّدٍ له إذْ رأى زرعاً أخضر لم يُدرك بعد، ولم يُستحصد؛ وكان المتوكّل قد استؤذن في فتح الخَراج، فقال: من أين يعطي النَّاس الخَراج؟ فقيل له إن الأمر جارٍ على ما أسّسه ملوك العجم من المطالبة بالخَراج في أثناء النّيروز؛ فثبت عزم المتوكّل على تأخير النّيروز سبعة عشر يوماً من شهر حزيران (سنة 243 هـ / 857 م)، لتدارُك لما فات من عدم الكبس، ونفِذت الكتب بذلك إلى الآفاق. ثم قُتل المتوكّل، ولم يتمّ له ما أراد؛ فلمّا قام المعتضد احتذى بما فعله المتوكّل في تأخير النّيروز، غير أنّه قدّر الأمر بغير ما فعل المتوكّل، سنة 281 هـ / 894 م، فأخّر النّيروز إلى الحادي عشر من حزيران، ثم وضع النّيروز على شهور الرُّوم لتُكبس شهورُه إذا

كبست الرُّومُ شهورَها، لا على سنين العجم من الكبس بشهر في كل مئة وعشرين سنة. وبما أنّه لا يمكن ترك السّنة الهلالية لأسباب دينية فقد استمرّت السّنتان الهلالية والخَراجية مع اختلافهما بالطّول، وحصل اضطرابٌ كبير بسبب تفاضل السّنين؛ حتى صارت الجباية الخَراجية في السّنة التي تنتهي إليها في التّسمية إلى ما قبلها، وبما أنّه لم يكن من الجائز كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر، «لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهرُ الحُرُم عن موقعها، وانحرفت المناسكُ عن حقائقها، ونقصت الجباية عن سنيّ الأهلّة بقسط ما استرقه الكبسُ منها، فانتظروا بذلك الفضل أن تتم سنةٌ أوجب الحساب المقرّب أن تكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة هلالية، فنقلوا المتقدّمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشّمسية.. وقد رأى أميرُ المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاثمئة الخَراجية إلى إحدى وخمسين وثلاثمئة الهلالية، جمعاً بينهما، ولزوماً لتلك السّنّة فيهما». وهذا جزء من الكتاب الذي أنشأه أبو إسحاق الصّابي في هذا الصّدد[631].

وفيما يتعلّق بالمال، جَرَت العادة في النّظام الإداري الإسلامي أنّ دواوين الخَراج في الولايات تقوم مقام خزائن للدّولة، فكانت تُستوفى من مال الخَراج المرتّبات وأعطياتُ الجند، ثم يُحمل ما تبقّى إلى بيت المال العام[632]؛ ولذلك فإنّ خزانة بغداد كانت لا تُعنى إلا بدار الخلافة وبشؤون الدّواوين وبالجزء الشّرقي من بغداد، لأنه كان بحسب رسم خاص تابعاً لدار الخلافة؛ أما الجانب الغربي، وهو بغداد الفعلية، فكان جزءاً من عمالة بادوريا[633].

ولقد بيّن لنا الخوارزمي أسماء الدّفاتر والمواضيع المستعملة في الدّواوين بخُراسان في القرن الرّابع الهجري[634]، فمنها:

قانون الخَراج، ويُنقل إليه ما على كلّ إنسان، ويُثبت فيه ما يؤدّيه دفعةً بعد أخرى، إلى أن يستوفى ما عليه. الختمة، وهي كتاب يرفعه الجهبذ في كل شهر بالاستخراج والجمل والنّفقات والحاصل، كأنه يختم الشّهر به. الختمة الجامعة، تُعمل كل سنة كذلك. والعريضة، «مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج، ففي أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل، فيوضع في السّطر الأول من سطور العريضة ثلاثة أبواب، أحدها للأصل، والثّاني للاستخراج، والثّالث لفصل ما بينهما».

وصلتنا أبواب ميزانية الدّولة لسنة 306 هـ - 918 م، وهي تقوم على ميزانية عام 303 هـ؛ فكانت الميزانية العامّة تقسم كما كانت تقسم الدّفاتر في دواوين الخَراج، إلى باب الاستخراج أو الدّخل وباب النّفقات؛ وكذلك يقسم باب النّفقات إلى النّفقات الرّاتبة والحادثة؛ وكانت الميزانية تختتم بعجز كما يحصل لدينا. وكانت مقادير خَراج العراق وخوزستان وفارس وإيران تُذكر عيْناً (بالدّنانير الذّهبيّة)؛ على حين أنه حتى عام 269 هـ - 873 م كان يُذكر النّوع إلى جانب القيمة بالنّقد الذّهبي؛ وهذا يدلّ على تقدّم في النّظام المالي في شرق الدّولة الإسلامية. أمّا فيما يتعلّق بالشّام والعراق فكان الخَراج يُحسب بالعين وبالنّوع[635]. وكانت سيطرةُ العملة، التي تؤدّي إلى إحباط سائر القيم الأخرى المتدرّجة، وجَعْل قيمة الأشياء متوقفة على قيمتها النّقدية، سبباً في زوال كثير من الضّرائب الرّمزية الشّكلية التي تفرض لمجرّد تقرير الحق في الضّريبة؛ وهذه الضّرائب هي التي جعلت سجلّات الضّرائب في العصور الوسطى الأوروبية كثيرة البنود؛ ولا نجد من أمثلة هذه الضّرائب

إلا ما ذكر عن مدينة اسبيجاب في تَركستان على أقصى حدود الدّولة الإسلامية شرقاً من أن خَراجها أربعة دوانيق ومكنسة[636].

وجرى الرّسم حوالي عام 300 هـ - 912 م أن تُرسل مع الخَراج أو الهدية أشياء طريفة غريبة عن المألوف؛ ففي عام 299 هـ - 911 م أرسل مع مال مصر تيسٌ له ضِرع يحلب اللبن، وفي سنة 301 هـ - 913 م وصلت هدايا صاحب عُمان إلى السُّلطان، وفيها ببّغاء بيضاء وغزال أسود، وفي سنة 305 هـ 917 م وردت من عمان أيضاً هدايا جليلة، فيها طائر أسود يتكلّم بالفارسية والهنديّة أفصح من الببغاء وفيها ظباء سود[637].

وكان الإقطاع في الدّولة الإسلامية كلها نوعاً من أنواع تملّك الأرض؛ والإقطاع في المشرق والمغرب على السّواء ميراث قديم. ويقول أبو يوسف: فأمّا القطائع من أرض العراق، فكل ما كان لكِسرى ومَرازِبته وأهل بيته ممّا لم يكن في يد أحد[638]؛ أما في المغرب فكان الإقطاع نظاماً رومانياً، وكانتَ أرض الحكومة والأرض التي لا يملكها أحد تؤول بحسب نظام الإقطاع إلى أفراد الشّعب[639]. أما الخَراج الذي يجب أن يدفعه صاحب الأرض المقْطَعة فكان يُحَدّد باتفاق خاص بينه وبين الحكومة، وهو عند الفقهاء العُشْر[640]. ولم يكن أصحاب الإقطاعات أحسن حالاً من غيرهم من أصحاب الضّياع العاديين؛ ولقد حكى التّنوخي في القرن الرّابع الهجري أن الرّشيد اعتلّ، فداواه طبيبه، فأمر بإقطاعه فقال له: ما لي حاجة إلى الإقطاع؛ ولكن تهب لي ما أشتري الضّياع به، فأجاب الخليفة طلبه وأمر بمعاونته حتى ابتاع ضياعاً لا إقطاع فيها[641].

وفي كثير من الأحوال كان يدبّ خلاف بين الملوك والعُمّال في بعض الأراضي؛ فيذكر صاحب الأرض أنها قطيعة، على حين أن عامل الخَراج يقرّر أنها أرض خَراج عادية[642]. وكانت الأرض المُقطعة تعود دائماً إلى الدّولة، وذلك بسبب مصادرة أصحابها أو لخرابها، وكثيراً ما يكون هذا الخراب بسبب الضّرائب الثّقيلة. وفي القرن الثّالث الهجري ساد بنو الصَّفّار على فارس، فجلا قوم من أرباب الخَراج عنها لسوء المعاملة؛ فقرّرت الحكومة خَراجها على من بقي، وسُمّي ذلك بالتّكملة، ولم تزل هذه التّكملة تستوفى حتى أُعيد افتتاح فارس فتظلّم أهل فارس، وورد قوم من أجلّائهم إلى بغداد لرفع ظلامتهم عام 303 هـ - 915 م[643]. ويبدو أن أمر التّكملة كان غير نظامي في ذلك العهد في المشرق؛ أما في مصر فكانت القاعدة أن تضمن المدينة الأفراد الذين يُجلون عن الأرض؛ وفي العراق كان لا بدّ من هذا الضّمان فيما يتعلّق بالجِزية الواجبة على أهل الذِّمَّة[644]، ولم يُلْغَ نظام ضمان المدينة هذا في فرنسا إلا قبل الثّورة الفرنسية بقليل، وفي روسيا إلا منذ عام 1906.

وكانت الحكومة تملك أراضيَ أخرى تسميها الضّياع السُّلطانية وكانت هذه الضّياع تتكاثر في أيام الرّخاء بابتياع أراضٍ جديدة[645]. أما في أوقات العُسر فكان يُباع بعضها. وقد حدث في سنة 323 هـ - 935 م أن باع الوزير للتّجار ضياعاً سلطانية ليفي بما كان استدانه من مالهم. وكانت هذه الضّياع تتعرّض دائماً للخطر إذا ضعفت الحكومة؛ فعندها يقتطع كبار الملّاك والوزراء بعضها، ويضيفونه إلى أملاكهم.

وكان صغار أصحاب الضّياع يودّون الإفلات من عبء الخَراج العادي، فاعتادوا أن يُلجئوا ضياعهم إلى الكبراء الأقوياء فكانت تُجرى بأسمائهم، ويُخَفّف عن أهلها الخَراج، فيدفعون العُشر فقط، كما هو الحال في الإقطاعات؛ ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها، وإن كانت بأسماء من ألجأوها إليهم. وهذه التّلجئة نظام قديم، أوجدها في مصر على عهد الرُّوم البيزنطيين كبارُ أصحاب الضّياع، ويقال إنها كانت موجودة في عهد الأمويين، ثم صارت اصطلاحاً قائما بذاته بين مواضيع الكتاب في دواوين الخَراج بخُراسان[646]، وأصبح لها قسم خاص بها في القرن الرّابع الهجري، وكانت شائعة في فارس بنوع خاص لنقل الخَراج فيها[647]. وفي عام 415 م اعتُبِر المُلْجِئون في مصر بحكم القانون موالي تابعين للأقوياء الذين احتموا بهم[648]، ولكنهم لم يصبحوا كذلك قطّ في فارس في عام 300 هـ / 912 م.

ومن مصادر الأموال التي ترد إلى بيت المال أخماس المعادن، والمال الدّفون، وخُمس سَيْب البحر ممّا يقذف به ويستخرج منه، ومنها أثمان الأبَّاق من العبيد، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة، وإذا لم يأتِ لذلك طالبٌ يستحقه، ومنها ما يؤخذ من مواريث من يموت ولايخلّف وارثاً له[649].

ولم يكن يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين، فمثلاً كتب الخطيب البغدادي: إني إذا متُّ كان مالي لبيت المال (وكان مقدار ذلك مئتي دينار)[650]؛ وفي عام 311 هـ - 928 م أصدر الخليفة المُقتدِر كتاباً في أمر المواريث نصّ فيه على أن تُرَدّ تركة من يموت من أهل الذِّمَّة، ولا يخلف وارثاً، على أهل مِلّته لا على بيت المال، وذلك عملاً بما روي عن النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم من أن المسلم لا يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم، وأنه لا يتوارث أهل مِلّتين[651]. وقد تجادل كثير من الفقهاء في مسألة كبرى من المسائل التي تُبحث حديثاً، وهي مسألة رد التّركة إلى بيت المال بدلاً من ردّها إلى الأباعد من ذوي الأرحام؛ وقد زاد شأن هذه المسألة عند المسلمين، لأنّ كثيراً من الفقهاء نصّوا على أن بعض الأقارب الأدنين لا يحق لهم أن يحوزوا أكثر من الأسهم المفترضة لهم في القرآن؛ أما ما يفضل عن ذلك فهو نصيب بيت المال[652] وفي القرن الثّالث الهجري أنشئ ديوان خاص يسمّى ديوان المواريث، وذلك في عهد الخليفة المُعتمِد (256-279 هـ = 869-892 م). وكان هذا الدّيوان مجالاً واسعاً لظلم النّاس والإعنات في مواريثهم وأخْذ ما لم تَجْرِ به السُّنّة[653]. يقول ابن المُعتزّ قرب أواخر القرن الثّالث يشكو ما يجري على أصحاب المواريث[654]:

أليس هذا محكماً مشهّرا	وويل من مات أبوه موسرا
وقيل من يدري بأنك ابنه	وطال في دار البلاء سجنه
فتنفوا سباله حتى فني	فقال: جيراني ومن يعرفني
وانطلقت أكفُّهم في صفعه	وأسرفوا في لكمه ودفعه
حتى رمى لهم بالكيس	ولم يزل في أضيق الحبوس

ولقد تمكن الخليفة الرّاضي من كبح شهوة الأمراء للاستيلاء على مواريث النّاس؛ وقد مات رجل وخلّف مالاً عظيماً، فوجّه ابن رائق مَن حمل من داره وحوانيته مالاً ومتاعاً؛ فلما عرف الرّاضي ذلك أنكره، فأمر بردّ جميع ما أخذ من المال إلى موضعه[655]. على أن سيف الدّولة كان يأخذ المواريث أخذاً رسمياً؛ ففي عام 333 هـ - 944 م عيّن أبا حسين قاضياً على حلب، فكان هذا القاضي يصادر التّركات ويقول: التّركة لسيف الدّولة، وليس لأبي الحسين إلا أخذ الجُعالة[656].

وكان كثير من الحكام يعمدون إلى إظهار التّركة من غير وارث، ليستولوا عليها؛ ولكن لم يوجد في الإسلام قانون طبّق على المسلمين يشبه مثلاً القانون الذي كان في إنكلترا في القرن الثّالث عشر الميلادي[657]. وقد حُمل إلى حاكم بغداد (توفي عام 401 هـ - 1010 م) مرَّة مالٌ كثير قد خلّفه بعض التّجار المصريين، وقيل له: ليس للميت وارث، فقال: لا يدخل خزانة السُّلطان ما ليس بها؛ يُترك إلى أن يصح خبره؛ فلما كان بعد مدّة جاء أخٌ للميت بكتاب من مصر بأنه مستحق للتّركة، فقصد باب عميد الجيوش وأوصل إليه الكتاب، فقضى حاجته. ولما وصل التّاجر إلى مصر أظهر الدّعاء له، فضجّ النّاس بالدّعاء له والثّناء عليه، وبلغ عميدَ الجيوش الخبر فسُرَّ به[658].

ولكن الأمر لم يكن يجري على هذا النّحو بالنّسبة لغير المسلمين؛ ففي القرن الثّاني عشر الميلادي مرض الرِّابي يتاخيا، وهو بالموصل، وقال الأطباء إنها علّة الموت؛ «ولما كان الرّسم هناك في ذلك الوقت أن تستولي الحكومة على نصف ما يخلفه كل يهودي غريب يموت هناك، وكان الرِّابي يتاخيا حسن اللباس، فقد قيل إنه غني؛ وجاء عُمّال الحكومة لقبض تركته، كأنه قد مات». وكثيراً ما كان يؤخذ جزء من مال الأغنياء في حياتهم، وقد نشأ ذلك من أن بعض العُمّال كانوا يستولون على الأموال بغير حق؛ وهذا شبيه بما فعله نابوليون الأول حينما ألزم قوّاده من ذوي اليسار العظيم أن يدفعوا للخزينة مبالغ كبيرة. غير أنّ جميع التّجار الذين كانت تُبتَزُّ أموالهم كانت لهم معاملات مع الدّولة نالوا منها مالاً وفيراً. يقول ابن المُعتزّ في وصفه لجور الحكومة في عهد المُعتمِد[659]:

كان من الله بحسن حال	وتاجرٍ ذي جوهر ومال
ودائعٌ غالية الأثمان	قيل له: عندك للسّلطان
صغيرة من ذا ولا جليله	فقال: لا والله ما عندي له
ولم أكن في المال ذا خسارة	وإنما أُربحت في التّجارة
وأوقدوه بثقال اللّبن	فدخنوه بدخان التّبن
وقال: ليت المال جميعاً في سقر	حتى إذا ملّ الحياة وضجر
يستعمل المشي ويمشي العنقا	أعطاهمو ما طلبوا، فأُطلقا

ونرى من الثّبْت (Wuz, 224 ff.) الذي يحوي أسماء المصادَرين أنهم كانوا عُمَّالا من عُمّال الدّولة أو جهابذة كانوا يعاملونها. وليس فيما وصلنا من حكايات تتعلّق بالمصادرات مثلٌ واحد لأخذ الحكومة أموال العُمّال الخاصّة ظلماً وجوراً من غير وجه شرعي؛ «أن الوزير ابن مُقلة كان يعادي

أبا الخطاب، ولم يكن يجد إلى القبض عليه طريقاً ديوانياً، لأنه كان ترك التّصرّف عشرين سنة، ولزم منزله وقنع بدخل ضيعته»[660] ولنتتبّع تطوّر هذا النّظام، فكان في أوائل القرن الرّابع صنف من صنوف العقاب، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مُشتبهاً في نقاء يده.

وكان الإخشيد صاحب مصر وأكثر الحكّام خبرة بأمور المال بين عامي 300 هـ (912م) و 350 هـ (960 م)، يقوم بالمصادرات الكثيرة ببرود، فكان يقبض على عُمّاله وخاصّته وثقاته، ويصادرهم على المبالغ الكبيرة هم وأهلهم ومن يكون في دورهم يوم المصادرة. وكان أحبّ إليه أن يأخذ غلمانهم بسلاحهم ودوابّهم وثيابهم فيجعلهم بين يديه[661]؛ وكان إذا نجا أحد من المصادرة حيًّا لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته. وكانت طريقة الإخشيد أنه «إذا توفي قائد من قوّاده أو كاتب تعرّض ورثته، وأخذ منهم وصادرهم، وكذلك كان يفعل مع التّجار المياسير»[662]. ففي عام 323 هـ - 934 م توفي ابن سليمان البزّاز أجلّ تاجر كان بمصر؛ فأخذ الإخشيد من ميراثه نحو مئة ألف دينار[663]؛ ولما مات المُهلّبي (عام 352 هـ - 963 م)، بعد أن لبث في الوزارة ثلاث عشرة سنة، قبض مُعزّ الدّولة تركته وصادر عياله ومَن دخل إليه يوماً حتى الملاّحين والمُكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته؛ وقد استقبح النّاس ذلك من مُعزّ الدّولة واستفظعوه[664]. وكذلك لما مات الصّاحب الذي حكم شمالي فارس بعد أن كان وزير فخر الدّولة عدّة سنوات، المتحكّم في تدبير المُلك له، أرسل هذا الأميرُ من أحاط على دار الصّاحب وخزائنه، ووُجد له كيسٌ فيه رقاع أقوام بمئة ألف وخمسين ألف دينار مودعة عندهم؛ فطولبوا بذلك، ونُقل ما كان في الدّار والخزائن إلى دار فخر الدّولة[665]. وكان أهل المال يستعملون جميع الوسائل لإفساد خطة المصادِرين وخداعهم، فمن ذلك أنهم كانوا يودعون أموالهم عند ناس كثيرين[666]، ويلحنون أسماءهم ويكنّون عن ألقابهم[667].

ولما اعتُقل ابن العميد عام 366 هـ - 976 م وتيقّن أن القوم قاتلوه وأنه لا ينجو منهم، أخرج من جيبه رقعة فيها ثبت ما لا يحصى من ودائعه وكنوز أبيه وذخائره، فألقاها في كانون نار بين يديه، وقال للموكَّل به: والله لا يصل من أموالي المستورة إلى صاحبك دينارٌ واحد؛ فما زال يعرضه على العذاب إلى أن تلف من غير أن يخبرهم بشيء[668]. ولما صحّ عند الخليفة المتّقي قتلُ بجكم (326 هـ / 941 م) ركب المتّقي إلى داره، وحفر أماكن فيها، فحصل له من مال بجكم ما يزيد على ألْفَي ألف عيناً وورقاً، ثم أمر بغسل التّراب، فأخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم[669]. ولكن بجكم كان قد دفن أمواله في الصّحراء، ولم يقتصر على ما دفنه في البيوت؛ فكان النّاس يتحدّثون بأنه يقتل من يعاونه في ذلك، وبلغ بجكمَ ما يقوله النّاس، فأنكر ذلك، وحكى لسنان بن ثابت ما كان يفعله إذا أراد دفن مال في الصّحراء: كان يُحضر إلى داره بغالاً عليها صناديق فارغة، فيجعل المال في بعضها، ويدخل من يريد أن يكون معه من المساعدين في البعض الآخر، ويطبق عليهم؛ ثم يأخذ مقود قطار البغال بنفسه، ويسير إلى حيث يريد، ثم يفتح عن الرّجال، فيحفرون، ويدفن المال؛ وبعد ذلك يردّ الرّجال إلى الصّناديق ويطبقها عليهم، ويعود؛ فلا يدري الرّجال إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين أتوا، وكان هو يجعل لنفسه علامات يهتدي بها؛ وبهذه الطّريقة استغنى عن القتل، وأقسم لثابت أنه لم يقتل أحداً من أجل دفن المال، وأن ذلك من تشنيع النّاس[670].

وفي عام 350 هـ - 961 م، توفي خازن مُعزّ الدّولة، وكان مُعزّ الدّولة يعتقد أنه معوز لا يملك شيئاً؛ فاستأذن الوزيرُ معزَّ الدّولة في البحث عن أمواله، واستعمل طريقة رجال الشّرطة؛ فقبض

على غلمانه. وكان يخلو ببعضهم ويرهبه ويرغّبه، حتى استطاع أن يعرف أن أبا علي الخازن طرد غلاماً له مزيَّناً حبشياً من حجرة موسوعة به، وجلس في هذه الحجرة للخلوة أياماً؛ فعبر الوزير المُهلّبي دار أبي علي والتمس حجرة المزيّن، فحفر فيها، فظفر بمال؛ وكان في جُملة المدفون آلة شبيهة بالميزان من خشب السّاج، لا شيء فيها، فعجب منها؛ ثم قلبها فوجد عليها كتابة بخط رديء، فإذا هي أسماء قوم ورموز لا يفهم منها شيء؛ فلم يشكّ الوزير أنها أسماء قوم مودَعين وأن الرّموز مبلغ ما عندهم من المال؛ ولم يزل يستعمل الدّهاء والتّخمين في فك الرّموز ومعرفة المعاملين حتى صحَّ له ذلك، وبطش بمن اهتدى إليه حتى حصل منهم على المال[671]. وكان الغنيّ من النّاس إذا مات جرَّ موتُه النَّكبة لأهله ولكل من يتصل به من الأصدقاء؛ فكانوا يهربون ويستترون ويمتنعون من تسليم الوصية للحكومة، حتى لا تهتدي إلى مكان التّركة ووجوهها؛ وقد حدث مثل هذا عند وفاة أحد العلويين إل أن تقرّر أمر التّركة أخيراً على خمسين ألف دينار تحمل إلى الخزانة صلحاً على التِّركة.

والرسوم الجُمرُكية غير واردة في الشّريعة الإسلامية، إذا أمعنّا في أحكامها. ورغم ذلك فإنّ مراصد المُكوس كانت منتشرة في كل مكان. وقد حاول الفقهاء أن يحلّوا هذه المسألة بأن اعتبروا الضّرائب الجُمرُكية داخلة ضمن الزّكاة، وهذا بالنّسبة للمسلمين على الأقل؛ وهكذا نشأت فكرة أن التّاجر يستطيع أن يطوف عاماً كاملاً أينما شاء من حدود البلاد معفى من المُكوس متى دفع المكس مرّة واحدة، وهو العُشر، وأنه لا بدّ له أيضاً أن يدفع ضريبة ما معه من عين المال على معدَّل رُبع العُشْر [672]. وكانت التّعرفة الجُمرُكية في الواقع مختلفة، فكان يؤخذ في جدّة ميناء مكّة عن كل حمل من الحنطة نصف دينار، وكيل من فرد الزّاملة، وعلى سفط ثياب الشّطوي ثلاثة دنانير، وعلى سفط الدّبيقي ديناران، وعن حمل الصّوف ديناران. وكان يؤخذ بالقُلزُم (السويس) عن كل حمل درهمٌ؛ وكانت تفرض رسوم في الموانى العربية الأخرى. ولكن المُكوس كانت أقلّ ممّا تقدّم، وكانت الضّرائب تؤخذ بالإسكندرية على المراكب الآتية من الغرب وبالفَرما على مراكب الشّام[673]. وكان لصغار ملوك العرب على اختلافهم مراصد برّية تدفع إليها الضّرائب على تفاوت في القيمة؛ فكان بعضهم يأخذ نصف دينار عن كل حمل، وأكثرهم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهماً[674]. أما العراق فكانت المراصد كثيرة في البر والبحر والنّهر؛ وكانت البصرة مشهورة بصعوبة التّفتيش. وفي أيّام البِشاري المقدسي كان على باب البصرة عند حدود مملكة الخليفة من حدود بلاد القرامطة ديوان للقرامطة وديوان آخر للدَّيلَم، حتى لقد كان يؤخذ على الغنيمة الواحدة أربعة دراهم (أي ضعف ثمنها). وكان الدّيوان لا يُفتح إلا ساعة من النّهار (البِشاري المقدسي (Muq. Eng. tr. P. 217). وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية، وهي القسم التّجاري في أصفهان، ثلاثون درهماً (المقدسي، ص 400). وإن كان من قبل السِّند فبحسب القيم[675].

وفي الدّولة الإسلامية كانت تؤخذ في ضرائب على المصادرات، كما كان الحال في كل العصور القديمة. وقد نصّ الفقهاء على أنه ينبغي أن يكون للإمام مسالح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشِّرك فيفتشون من يمرّ بهم من التّجار؛ فمن كان معه سلاحٌ أخذ منه، ومن كان معه رقيق رُدّ، ومن كان معه كتب قرئت كتبه؛ فإن كان فيها خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذي أصيب معه الكتاب وبُعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه[676]. وفيما وراء النّهر كان لا يعبر الرّقيق نهر جيحون إلا بجواز من السُّلطان، ويأخذ مع الجواز من سبعين إلى مئة درهم، وكذلك على الجواري

إذا كانوا أتراكاً، ويؤخذ على المرأة عشرون إلى ثلاثين درهماً، وعلى البَعير درهمان، وعلى متاع الرّاكب درهم[677]. وفي جنوب جزيرة العرب كان لا يؤخذ بمدينة عُشر إلا عمّا يخرج[678]. وكان يعطي للمصدِّرين جوائز بكرمان، وذلك لكثرة التّمر، حتى إن الجمّالين كانوا يحملون التّمر مناصفة إلى خُراسان؛ ويقصدها كل سنة نحو مئة ألف بعير، ويعطي السُّلطان كل بعير ديناراً. وقد وصف الرّحالون صعوبة التّفتيش في عَدَن بنوع خاص[679].

وشكا ابن جُبير الرّحالة الأندلسي في القرن السّادس الهجري (الثّاني عشر الميلادي) ممّا عومل به في الإسكندرية، قال: «فمن أول ما شاهدنا فيها يومَ نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السُّلطان بها لتقييد جميع ما جُلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتب أسماؤهم وصفاتهم وأسماءُ بلادهم، وسُئل كل واحد منهم عمّا لديه من سلع أو ناضّ ليؤدي زكاة ذلك كله، دون أن يُبحث عمّا حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يَحُل؛ وكان أكثرهم مشخّصين لأداء الفريضة، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم[680]، فألزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أهل حال عليه الحول أم لا؛ واستنزل أحمد بن حسان منا ليُسأل عن أبناء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقباً على السُّلطان أولاً، ثم على القاضي، ثم على أهل الدّيوان، ثم على جماعة من حاشية السُّلطان؛ وفي كل يُستفهم ثم يقيَّد قوله فخُلِّي سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم، وما فضل من أزودتهم. وعلى ساحل البحر أعوان يتوكّلون بهم، وحمل جميع ما أنزلوه إلى الدّيوان فاستدعوا واحداً بعد واحد، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب، والدّيوان قد غصّ بالزّحام، فوقع التّفتيش لجميع الأسباب، ما دقّ منها وما جلّ، واختلط بعضهم ببعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عمّا عسى أن يكون فيها؛ ثم استحلفوه بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أو لا؛ وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب النّاس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزّحام، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك»[681].

وبما أن الدّولة الإسلامية كانت ملكاً لعامّة المسلمين، فقد قُضي منذ أول عهد الإسلام بالفصل بين بيت المال العام وبين خزانة الخليفة، المسمّاة بيت مال الخاصّة؛ ولكن لمّا كان الذي يتولّى الإنفاق من هاتين الخزانتين رجلاً واحداً لا يقدّم حساباً لأحد، فقد كان مدى انفصالهما مسألة تتعلّق بضميره[682]. ولذلك تردّدت حكايات مؤثرة فيما بعد تبيّن مقدار عناية كل من أبي بكر وعمر بالفصل بين مال المسلمين ومالهم الخاص. وكان هناك توازن بين بيتي المال، فكان إذا تقدّما في بيت المال العام ينبغي لبيت مال الخليفة أن يمدّ يد المعونة حتى لا تفلس الدّولة[683]؛ وعندنا دليل من رقعة الوزير علي بن عيسى، على أن الخليفة المعتضد (279-289 هـ = 892-901م)، وكذلك الخليفة المكتفي (289-295 هـ = 901-907 م)، على ما عُرف به من النّظر في القليل اليسير، كانا ينفقان من بيت مال الخاصّة الجُملة بعد الجُملة[684].

ولم يكن اللّجوء إلى بيت مال الخاصّة في عهد المعتضد قد صار رسماً جارياً، وممّا يُروى أن أحد الوزراء استخلف ابنه على الوزارة لمّا خرج من بغداد، فضاقت الأموال على الولد، واشتدّت المطالبة بالاستحقاقات؛ فدعته الضّرورة إلى طلب قرض من الخليفة، فكتب الوزير لابنه موبِّخا معنِّفاً، وأعلمه أنه قد أخطأ وأساء، وجنى على نفسه وعلى أبيه جناية لا يمكن تلافيها، وأنه كان يجب أن يستدين المال من التّجار، ويلتزم من ماله ومال أبيه قدر الرّبح فيه[685].

وفي أيّام الخليفة المُقتدِر (295-320 هـ = 907-932 م) استَنزف بيت مال الخاصّة، وذلك لأن المال أخذ منه بزعم إعادته متى تحسَّن الحال، وفي عام 319هـ - 931 م عرض الوزير على المُقتدِر ما كان من العجز وهو سبعمئة ألف دينار، وقال له: ليس لي مُعوّل إلا على ما يطلقه أمير المؤمنين لأنفقه، فعظم ذلك على المُقتدِر، وكتب أحد المتطلِّعين للوزارة إليه رقعة يضمن فيها القيام بجميع النّفقات من غير أن يطلب منه شيئاً، وأن يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار تذهب إلى بيت مال الخاصّة، فقلّده الخليفة الوزارة، ولكنه عُزل في العام التّالي، وَوجُد أنه احتال بأن أضاف إلى مقدار حصولُه من النّواحي أموال نواحٍ[686]. وفي عام 329 هـ - 940 م طلب الوزير من الخليفة خمسمئة ألف دينار ليفرّقها في الجند.

وكان يتعيّن على الخليفة كرئيس روحي للمسلمين أن يقوم بنفقات موسم الحجّ، ونفقات الغزوات الصّائفة، وفداء أسرى المسلمين، والقيام بنفقات الرّسل الواردين، وذلك من بيت مال الخاصّة[687]. أما العطايا وكل ما يتعلّق بنفقات دار الخلافة، فكانت تؤخذ من بيت المال العام[688]. ولدينا بيان يرجع إلى أول القرن الرّابع مشتمل على وجوه الأموال التي تُحمل إلى بيت مال الخاصّة.

(1) الأموال المخلَّفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال. ويقال إن الرّشيد خلّف أكبر مقدار من المال، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار؛ وكان المعتضد (279-289 / 892-901) يستفضل في كل سنة من سني خلافته، بعد النّفقات ممّا كان يحصّله بيت مال الخاصّة ألف ألف دينار، حتى اجتمع في بيت المال تسعة آلاف ألف دينار وكان يريد أن يكملها عشرة آلاف ألف دينار، ثم يسكبها ويجعلها نقرة واحدة؛ ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخَراج في تلك السّنة. وأراد أن يطرح السّبيكة على باب العامّة ليبلغ أصحابَ الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار، هو مستغنٍ عنها؛ فاخترَمته المنيّة قبل بلوغ الأمنية[689]. ثم جاء المكتفي بعد المعتضد (289-295 هـ / 901-907 م) فأبلغ المدّخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار [690].

(2) مال الخَراج والضّياع العامّة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط النّفقات)؛ وبلغ مقدار ذلك في كل سنة منذ عام 299 هـ إلى 320 هـ (911-932 م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال العامّة، والباقي، وهو تسعة عشر ألف ألف درهم، إلى بيت مال الخاصّة. ويجب أن نسقط من ذلك النّفقات الحادثة التي تتطلّبها هذه البلاد؛ ففي عام 303 هـ - 915 م أنفق الخليفة لفتحها ما يزيد على سبعة آلاف ألف درهم[691].

(3) أموال مصر والشّام، وكانت جِزية أهل الذِّمَّة مثلاً تُحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين إلى بيت مال العامّة[692]؛ وهذا ما يجب للخليفة نظرياً.

(4) المال الذي يأتي من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعُمّال وما يحصل من ارتفاع ضيعاتهم، والمال الذي يؤخذ من التّركات[693].

(5) ما كان يُحمل إلى بيت مال الخاصّة من أموال الضّياع والخَراج بالسّواد والأهواز والمشرق والمغرب.

(6) ما كان يستفضله الخُلفاء، فكان كل من الخليفتين الأخيرين في القرن الثالث الهجري (وهما المعتضد والمكتفي) يستفضل في السّنة ألف ألف دينار؛ وكان سبيل المُقتدِر أن يستفضل مثلها فيكون مبلغه في خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار أي ما يماثل ضعفي ما خلّفه الرّشيد. ولكن المُقتدِر أتلف كل هذه الأموال الطّائلة حتى لم يبق في بيت المال الخاصّة بعدما أنفق في محاربة القِرْمِطي عام 315هـ - 927 م إلا خمسمئة ألف دينار [694].

ولم يكن في دواوين الإسلام ديوان أعسر إجراءً وأكثر أنواعاً من ديوان فارس، لاختلاف ربوعها وتقرب الأخرجة على أصناف زروعها واختلاف أبواب أموالها وتشعُّب الأعمال على المقلّدين لها[695]. أما ضرائبها فيقول البِشاري المقدسي: ولا تسأل عن ثقل الضّرائب وكثرتها، ويقول: قرأت في كتاب بخزانة عضد الدّولة. أهل فارس أنجع النّاس بطاعة السُّلطان، وأصبرهم على الظّلم وأثقلهم خَراجاً، وهم لم يعرفوا عدلاً قطّ[696]. وكانت فارس في عام 303 هـ - 915 م تدفع ضرائب تفوق غيرها بكثير[697]؛ فليس غريباً أن نرى البَلْخي يخصّص لفارس أطول مقالة من مقالاته السّياسية[698]. وربّما كان تنظيم هذه البلاد الجبلية متنوعاً منذ عهد السّاسانيين، فكان فيها قلاع صخرية منيعة، وغابات وأشراف يملكون أرضاً واسعة، فكان هذا من دواعي تكوين نظام إقطاعي كامل منذ ذلك الحين، وأكثر الضّياع بها مقتطعة[699]. ومع هذا كان النّظام المالي من النّمو بحيث أنّ الأكَرة (الحرّاثين) الذين كانوا يزرعون الضّياع السُّلطانية بالمقاسمة أو المقاطعة كان عليهم ضرائب يؤدّونها دراهم[700]. وكان يفرض الخَراج على أساس ما إذا كانت الأرض تسقى أو لا تسقى؛ وإذا كانت تسقى فهو على أساس ما إذا كانت تسقى بآلة أم بغير آلة؛ فإن كانت لا تسقى بالآلات دُفع عنها مقدار هو المعيار، ويؤخذ ثلثا ذلك عمّا يسقى بآلة ونصف عمّا لا يسقى قطّ[701].

وأما خَراج الشّجر والغروس المثمرة، ومنها الكرم، فقد كان الخليفة المهدي قد أسقط عنه الخَراج؛ ولكن أصحاب خَراج الزّرع في عام 303 هـ / 915 م شكوا إلى الخليفة ثقل الخَراج؛ عليهم بسبب ما ألزموه من التّكملة، فحُرم أهل الشّجر ممّا كانوا يتمتعون به من الإعفاء وفُرضت عليهم ضّرائب جسيمة؛ فكان يُدفع عن الجريب الكبير من الكرم ألف وأربعمئة وخمسة وعشرون درهماً[702]، وعلى كل نخلة ربع درهم[703]. وكانت الطّواحين احتكاراً للسّلطان، وكذلك أجرة الدّور التي يعمل فيها ماء الورد[704]. وفي مدن فارس كانت أراضي الأسواق وشوارعها ملكاً للحكومة تأخذ عنها أجراً؛ أما الدّور ملكاً لأصحابها.

وكان فقهاء المسلمين يعدّون كل ما زاد عن الضّرائب الشّرعية (وهي عُشر الأرض والزّكاة وجِزية أهل الذِّمَّة) ضرائب غير شرعية. ولذلك أبطل الوزير التّقيّ عليّ بن عيسى المكس بمكّة وجباية الخمور بديار ربيعة[705]. ولهذا السّبب أيضاً نرى الخليفة الحاكم بأمر الله في مصر حينما أراد أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى يسقط جميع الرّسوم والمُكوس التي جرت العادة بها، وسرعان ما أعيدت في عهد خلفه إلى ما كانت عليه[706]. وكما أن فارس كانت هي البلاد المعروفة بخَراجها، فقد كانت مصر أرض المُكوس؛ ويدلّ بيان وجوه المال في عهد الفاطميين على أن كل شيء كانت تُفرض عليه المُكوس، ولم يسلم من ذلك إلا الهواء[707]؛ وكان لا بدّ أن يُدفع من ضمن مبلغ الضّرائب جزءٌ من اثني عشر منها «وضيعةً» وعُشْر «للصّرف» وجزء من مئة للبراءة[708].

والمؤرّخون الإسلاميون الذين يعدّون أن الإدارة الإسلامية هي التي تتمشى مع الشريعة يصفون ابن المدبِّر الذي ولي خَراج مصر سنة 247 هـ / 861 م بأنه من «شياطين الكتّاب»؛ لأنه أول من أحدث مالاً سوى مال الخَراج بمصر [709]. ولكن هذه المُكوس لم تكن حديثة بل كانت موجودة على عهد البطالمة والرُّومان والبيزنطيين، «وكان الإنسان لا يتمالك أن يسأل نفسه: هل بقي بمصر اليوم شيء ممّا يمكن أن تفرض عليه المُكوس دون مُكوس؟» (Wilker, p. 410). ويظهر أن الإسلام في العهد الأول لم يقضِ على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء إليها لسحب ثروة النّاس بين الأعوام 775-786 م بفرض ضرائب على المحلات التّجاريّة. وقد ذكر البِشاري المقدسي (ص 213) أن الضّرائب بمصر ثقيلة وبخاصّة في تنيس وهي مدينة بمصر مشهورة بمنسوجاتها. وقد بلغ من شدّة وطأة الضّرائب وكثرة الرّسوم أن أهلها شكوا إلى البطريق وهو مارٌّ بمصر حوالي عام 200 هـ - 815 م أن الواحد منهم يُلزم بدفع خمسة دنانير في كل عام، وهو مبلغ لا يقدر عليه؛ وتستعمل الشدّة في تحصيله منهم، وقد بقي النّظام القديم قائماً بتفاصيله. وظلّت الاسكندرية محافظة على مكانتها الخاصّة التي كانت لها حتى أوائل القرن الرّابع الهجري، حيث نرى في إحصاء أموال الدّولة إفرادَ باب خاص عنوانه: مصر والإسكندرية[710]، بل نرى القلقشندي، بعد القرن الرّابع بكثير، يقول إن الاسكندرية تؤدّي خَراجها إلى السُّلطان رأساً[711]. هذا إلى أن حق الملكية المطلقة عند الفراعنة، وهو الذي ورثه البطالمة والرُّومان والبيزنطيون، كان له شأن كبير في تشريع العرب المتعلّق بالضّرائب.

وكذلك لبث بمصر نظام الاحتكار في الاقتصاد بنفس قوتّه. ويحكي لنا البِشاري المقدسي الذي زار مصر في أوائل عهد الفاطميين: «أمّا الضّرائب فثقيلة بخاصّة تنيس ودمياط وعلى ساحل النّيل، وأما ثياب الشّطوية فلا يمكن القِبْطي أن ينسج شيئاً منها إلا بعد ما يُختم عليها بختم السُّلطان، ولا تُباع إلا على يد سماسرة عُقدت عليهم؛ وصاحب السّطان يثبت ما يباع في جريدته، ثم تُحمل إلى من يطويها، ثم إلى من يشدّها بالقشر، ثم إلى من يشدّها في السّفط وإلى من يحزمه؛ وكل واحد منهم له رسم يأخذه، ثم على باب الفرضة يُؤخذ أيضاً شيء[712]، ثم تفتش المراكب عند إقلاعها. ويوجد بتنيس على زِق الزّيت دينار، ثم على شطّ النّيل بالفسطاط ضرائب ثقال. سمعت رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً، قيل: قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار، ومثله عدّة على ساحل البحر بالصّعيد وساحل الإسكندرية...». أما في المشرق فلم تفرض الضّرائب على البضائع إلا في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري، وقد فرض عضد الدّولة (توفي عام 372 هـ 982) في آخر دولته رسوماً على بيع الدّواب وغيرها من الأمتعة وزاد على ما تقدم ومنع من عمل الثّلج والقَزّ وجعلها متجراً للخاص. ولذلك قال الشّاعر[713]:

وفي كل ما باع امرؤٌ مكسُ درهمِ	أفي كل أسواق العراق إتاوةٌ

ولمّا عزم ابن عضد الدّولة ببغداد في عام 375 هـ - 985 م أن يضع على الثّياب الإبْرَيْسَم والقطن المبيعة ضريبة مقدارها عُشْر الثّمن «اجتمع النّاس وعزموا على قطع الصّلاة، وكاد البلد يفتتن، فأُعفوا من ذلك»[714]. وفي عام 389 هـ - 998 م أُريد مرّة أخرى وضعُ العُشْر على ما يُعمل من

الثياب الإبْرَيْسَميات والقطنيات بمدينة السّلام، فثار النّاس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخُطبة والصّلاة، وأحرقوا دار الحمولي (التي بها سجلّات العُشر)، وقبض على جماعة من العامّة اتُّهموا بما جرى وعوقبوا؛ واستقرَّ الأمر على أخذ العُشر من قيم الثّياب الإبْرَيْسَميات خاصّة، ووضعت الختوم على كل ما يُقطع من المناسج ويُباع ويحمل[715].

لم تقتصر الضّرائب على متاع التّرف، وفي سنة 425 هـ - 1033 م خاطب الدّينوري الزّاهد الملكَ في إزالة ضرائب الملح، وأعلمه ما يصيب النّاس من الأذى بذلك، فأجاب الملك طلبه، وكتب برفع هذه الضّرائب منشوراً قُرىء في الجوامع، وكتب على أبوابها بلعن من يتعرّض لإعادة هذه الجباية، وكان ارتفاعها ألفي دينار في كل سنة[716]. على أن المصريين لم يثوروا أبداً بسبب شيء من هذه الضّرائب.

أمّا في الشّام فكانت ضرائب البضائع يسيرة، وظلّت هكذا حتى في أيّام الخُلفاء المصريين؛ ولكن كان في بيت المقدس ضرائب ثقال على الرّحْبَة، فلم يكن يجوز لأحد أن يبيع شيئاً ممّا يرتفق به النّاس إلا بها، وثَمَّ رجالٌ على أبوابها وآخرون على ما يُباع فيها[717]. وكان من الضّرائب التي اختصّ بها هذا الإقليم ضرائب الحماية على من يكون عنده مركب مثلاً، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خَراج الأرض[718]. وكانت الضّرائب في البلاد التي تُبلى بها تختلف باختلاف الحكام؛ يقول ابن حَوْقَل في كلامه عن الشّام: «وذلك أنها منذ سنة ثلاثين (330 هـ - 941) بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر، وأكثرهم عُرضة ما اجتلبه في يومه وحصله لوقته»[719]. وقد رأى هذا المؤلف نفسه ارتفاع الشّام وما في ضمنها من الأعمال والأجناد، لسنة 296 هـ - 908 م، فكان، بعد أرزاق العُمّال، تسعة وثلاثين ألف ألف درهم[720].

وكان بيت المال في كل من هذين القطرين وهما الشّام ومصر يقوم بالمسجد الجامع، وهو شبه قُبَّة مرتفعة محمولة على أساطين؛ ولبيت المال باب حديد وأقفال، والصّعود إليه على قنطرة من الخشب، وإذا صُلِّيَت العشاء الآخرة أخرج النّاس كلهم من المسجد، حتى لا يبقى فيه أحد، ثم أُغلقت أبوابه، وذلك لوجود بيت المال فيه[721]. وهنا نسأل: هل هذا من العوائد المصرية أو الشّامية قديماً؟ وهل كانت خزانة الكنيسة تُحفظ على هذه الصّورة؟ ثم هل كانت الكنيسة في العصر القديم والعصر البيزنطي خزانة للدّولة لا معبداً فقط؟[722] نلاحظ أنه حتى القرن الرّابع الهجري كان تضمين الأراضي لمستغلّيها بمصر يجري في المسجد الجامع كل أربع سنين، هذه عادة من عادة المصريين قديماً[723].

ولقد ظلّ العراق معظم القرن الرّابع (حتى عام 370 هـ - 980 م) تحت حكم بني حمدان، وكانوا أمراء شبه مستقلّين؛ وهؤلاء الأمراء الذين لم يظهر من بينهم بالأعمال العظيمة والفروسية إلا سيف الدّولة صاحب حلب، جاروا على الرّعية جوراً عظيماً، وهو ما يفعله أهل البادية الذين لا يعملون ولا يحسنون التّلطّف. وكانوا أسوأ جميع حكام القرن الرّابع. والتُّرك والعجم الذين حكموا في هذا القرن كانوا كلّهم كالآباء لرعيتهم، إذا قورنوا بالحمدانيين. وممّا نشأ عن طبيعتهم البدوية أنهم كانوا لايبالون بالشّجر، ففي سنة 333هـ - 944 م أغلقت مدينة حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدّولة، فاقتلعوا كل الأشجار الجميلة المحيطة بالمدينة، وكانت هذه الأشجار، كما يقول الشّاعر الصّنوبري

المعاصر لذلك العهد، أكبر ما ازدان به الإقليم[724] وقد اغتصب الحمدانيون أكثر أرض العراق، واشتروا منها القليل من أعشار ثمنها[725]، حتى صارت الموصل، وأكثر أعمالها ملكاً لناصر الدّولة[726]؛ وقد اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والبساتين، وجعلوا مكانها الغلال مثل القطن والأرز والسّمسم، وجلا كثير من أهل هذه البلاد، وكان ممّن جلا بنو حبيب، وهم بنو عم بني حمدان، فقد خرجوا بذراريهم ومواشيهم في اثني عشر ألف فارس إلى بلاد الرُّوم، حيث أُنزلوا على كرائم الضّياع، ثم عادوا إلى بلاد الإسلام، فشنّوا عليها الغارة سلباً ونهباً، وصارت لهم بذلك عادة. وصادرت الحكومة أرض من جلا عن البلاد وسُلِّم بعضها إلى من بقي، ولم يمكن لهؤلاء ترك البلاد، «وآثروا فطرة الإسلام، ومحبّة المنشأ حيث قضوا أيام الشّباب على مقاسمة النّصف من غلاتها على أي نوع كانت، وعلى أن يقدّر الأمير الدّخل ويقوّمه عيناً إن شاء أو ورقاً». وفي سنة 358 هـ - 968 م بلغ حاصل نصيبين من الحبوب خمسة ملايين درهم، عدا ضريبة الجماجم، فإنها بلغت خمسة آلاف دينار، وبلغت ضرائب الخمر خمسة آلاف دينار، وبلغ ارتفاع ما يؤخذ عن الغنم والبقر والدّواب والبقول خمسة آلاف دينار، ورُفع من الطّواحين والضّياع وغلّات العقار المسقَّف من الحمّامات والدّكاكين سبعة عشر ألف دينار؛ فلما زال حُكم الحمدانيين غُرست الأشجار وكثرت الكروم والفواكه[727]. فلا عجب بعد هذا أن نرى ابن حَوْقَل حوالي عام 370 هـ - 980 م يقول إن بني حمدان هم أغنى ملوك الإسلام في عهده إلى جانب عبد الرّحمن الثّالث خليفة الأندلس[728]. وفي عام 368 هـ - 978 م فتح عضد الدّولة بعض قلاع بني حمدان، فكان قيمة ما في القلعة عشرين ألف ألف درهم[729]. ومع هذا كانت تقوم بسبب دفع الجِزية منازعات مستمرّة بين الحمدانيين من جهة، وبين بغداد وبيزنطة من جهة أخرى[730].

أمّا إقليم خُراسان الذي خضع في أثناء القرن الرّابع للعديد من الأمراء وأخصّهم السّامانيون والبُوَيْهيون، فقد كانت الضّرائب فيه على وضعها في القرنين الثّالث والرّابع، وقد لاحظ ابن حَوْقَل مثل هذا في هَراة، وهو يُحسن الثّناء على السّامانيين، وعلى حُسن إدارتهم المالية وضبطهم للأعمال في شمال الدّولة الإسلامية وفي شرقها؛ يقول ابن حَوْقَل: «ولهذه الحال أعمالهم مشحونة بالقُضاة والجُباة والكُفاة والولاة، منزلين على أرزاق تتساوى، وأحوال في المراتب تتدانى، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة ووالي الصّلاة والمعونة راتبهم بقدر كل ناحية وحسب كل كورة، وليس ينقص بعضهم عن بعض»[731].

وقد ارتفعت الجباية في فارس في عهد عضد الدّولة، أعظم حكام القرن الرّابع، من 1887,500 إلى 21,50,000 وذلك في عام 309 هـ - 918 م. أي أن زيادة الدّخل كانت تقرب من السُّدس[732].

وكان بمقدور عضد الدّولة أن ينفق بسعة لأن دخله في السّنة كان ثلاثمئة وخمسة وعشرين ألف ألف درهم، ولكنه «كان ينظر في الدّينار ويناقش في القيراط»، كما يقول ابن الجوزي[733]. أما مصر فقد حافظت عموماً على المستوى العالي الذي كانت فيه، فقد استطاع أحمد بن طولون Ibn Tolûn بما كان له من قوّة عظيمة أن يستخرج خمسة آلاف ألف دينار في القرن الثّالث. أما خلال القرن الرّابع بما شهد من اضطراب فقد اشتمل ارتفاعها على ثلاثة آلاف ألف ومئتين ونيف وسبعين ألفاً من الدّنانير، وفي أواخر القرن بلغ الخَراج على يد الوزير ابن كلّس أربعة آلاف ألف[734]. ولم يحدث في القرن الرّابع تدهور مالي عام، وكان الدّخل يتوقف، كما هو معلوم دوماً، على الرّجل

القابع في سُدّة الحُكم. ففي عام 355 هـ - 965 م أشار ابن العميد على ركن الدّولة أن يدبّر ناحية أذربيجان لنفسه ويرفع له منها خمسين ألف ألف درهم، وكانت بلاد أذربيجان غنية، ولكن كان عليها حاكم ضعيف، فلم يكن يرتفع منها أكثر من ألفي ألف درهم «وذلك بسبب إقطاعات الدّيلم والأكراد، وبعد ما يستولي عليه قوم متعزّزون لا يُتَمكن من استيفاء الحقوق عليهم، وبعد ما يضيع بالإهمال وترك العمارة». ولا نرى مثالاً للانحطاط الحقيقي الكبير في دفع الضّرائب إلا في العراق؛ وكان ذلك منذ النّصف الثّاني للقرن الثّالث الهجري. وقد قدّر ابنُ خُردِاذبِه ارتفاع العراق لسنة 240 هـ - 850 م بثمانية وسبعين ألف ألف درهم، وفي عام 290 هـ - 893 م ضُمِّن جزء كبير من العراق بألفي ألف وخمسمئة ألف وعشرين ألف، وهو نصف ما كان أو أقل[735]. وقد بلغ خَراج العراق في ميزانية عام 306 هـ - 918 م 1,457,734 ديناراً، وهو أقلّ من الثّلث[736]. وزاد الدّخل بعض الزّيادة في أثناء القرن الرّابع، ففي سنة 358 هـ - 968 م عُقد ضمان العراق باثنين وأربعين ألف ألف درهم[737]. وعرض عضد الدّولة بعد ذلك مثل هذا المبلغ[738].

وكان الفرق بين حال العراق قديماً وبين ما آلت إليه فيما بعد كبيراً للغاية، فقد كان خَراجها قديما مضرب المثل في الكثرة[739]. ثم آل الحال إلى أن يقول عضد الدّولة: غرضي من العراق الاسم ومن أرَّجان (القسم السّاحلي من فارس) الدَّخل[740]. وكان أكبر أسباب هذا التّدهور أن البلاد استحالت إلى مستنقعات، ونظراً لأنها كانت تُرْوى بالأساليب الصُّنعيّة فقد كانت تحتاج إلى عناية ونظام أكثر ممّا وُجِّه لها. وقد اضطرّ الزُّرَّاع إلى الجلاء، وكان أهل الموصل مثلاً عرباً جاؤوا في القرن الرّابع إلى شمال العراق ليزرعوا تلك الأراضي السَّيحية[741]. وبعد هذا الفساد كان اعتماد الخزانة ببغداد على خَراج العراق يعرّضها للإفلاس، ثم أصيبت حكومة العراق بأول ضائقة مالية حينما منع الصَّفّار حملَ أموال فارس إليها، وقد أدّت هذه الضّائقة حوالي عام 270 هـ إلى فكرة الاقتراض؛ وذلك أن الخليفة الموفّق احتاج إلى مال يُخرج به الجندَ لمحاربة الصَّفّار، والتمس من وزيره صاعد بن مُخلّد أن يحتال في ذلك، فقال الموفّق: «أريد أن نأخذ من التّجار قرضاً، ونوظِّف عليهم وعليك وعلى الكتَّاب والعُمّال مالاً نستعين به على إخراج قائد الحملة، فاستوحش صاعد من ذلك[742]. وفي سنة 300 هـ - 912 احتاج الوزير إلى شيء من مال الأهواز، ولم يكن أصحابه متأهبين الأهواز، وطلب منه تقديم مال[743]. وفي سنة 319 هـ - 931 م تواطأ مُتَضمِّناً أعمال الخَراج والضّياع بفارس وكرمان وتعاقدا على قطْع حمل المال إلى السُّلطان، واشتدت الضّائقة بالوزير فباع من الضّياع السُّلطانية بنحو خمسمئة ألف دينار - وكان ذلك لأول مرّة[744]، واستدان من مال سنة عشرين وثلاثمئة شَطْرَهُ قبل افتتاحها بشهور، فلم يبق من مال هذه السّنة إلا أقلّه، واضطرّ فوق هذا إلى أن يقترض مئتي ألف دينار بربح درهم في كل دينار [745] أي بمقدار 7 % في كل شهر. وفي سنة 323 هـ - 934 م لم تُدفع للتّجار أموالُهم، فطالبوا الوزير بها، فدفعته الضّرورة إلى أن سَبَّبَ لهم على عُمّال السّواد ببعض مالهم، ثم باع عليهم بالباقي ضياعاً سلطانية[746]. وفي سنة 324 هـ - 935 م احتاج الوزير إلى مال لدفع استحقاقات الجند، فطالب مياسير التّجار بأموال يعجّلونها، ويكتب لهم بها سفاتج، وأمر من كان ينزل بسور المدينة أن ينتقل عنه لتُباع المنازل التي كانت هناك ملكا للحكومة[747].

ولهذا، عاد الأمر في تحصيل الخَراج بهذه الأحوال إلى ما كان جارياً قبل الإسلام من وسائل رديئة، وكانت القروض التي احتاجتها الدّولة مبدأ تضمين الخَراج في المشرق، وأول ما أخذ بطريقة القروض في عهد الخليفة المعتضد (279-289 هـ = 892-901 م): حدَّث وزير المعتضد أحد أصحابه فقال له: قد وردنا على دنيا خراب مُستَغْلِقة، وبيوت مالٍ فارغة، وبيننا وبين افتتاح الخَراج مدّة ولا بدّ لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاقتصار والتّجزية، فأشار صاحب الوزير بإطلاق عاملين لهما دهاء وخبرة بالأعمال والأموال، فخاطبا أحد الأغنياء في أن يضمن جزءاً من أرض العراق على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار، فأعطى خطّه بذلك، وعرف الوزير الأمر فاستطير هو والخليفة سروراً لهذا الحلّ الجديد بما فيه من مهارة[748]. ونرى في ثبت خَراج سنة 303 هـ - 915 م أن خُراسان والأهواز وواسِط كانت ضماناً إلا الضّياع[749].

الفصل التّاسع
بلاط الخلافة

Der Hof

اتخذ الخُلفاء في القرن الرّابع الهجري شعاراً لهم لون السّواد والبياض؛ فلما ركب الخليفة المُقتدِر في عام 320 هـ - 932 م لقتال مؤنس، وهي الرَّكبة التي قُتل فيها وعانى من عاقبتها عَنَتاً كبيراً، خرج من داره في أكمل لباس وموكب، فكان عليه خفتان ديباج فضي وعمامة سوداء، وعلى كتفيه البردة النّبوية، وفي يده القضيب؛ وسار بين يديه وليُّ عهده، وعليه خفتان ديباج وعمامة بيضاء[750]. وكانت عادة خُلفاء العبّاسين في القرن الثّالث والرّابع أن يلبسوا قلنسوة محدَّدة وقباء، وكلاهما أسود[751]، وكان هذا هو لباس وجوه رعيّتهم أيضاً، وكان السّواد هو كذلك لون الخرقة التي كانت تحضر فيها الصّدقة كل يوم صلاة الصّبح لتفريقها على المحتاجين[752]. وكانت راية الخلافة سوداء، عليها بكتابة بيضاء: محمّد رسول الله[753]. أما خُلفاء الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض، وهو شعار العلويين؛ وكانت ألويتهم بيضاء، في كلٍّ منها صورةُ سبع من الدّيباج الأحمر؛ وقد شبّهها أحد الشّعراء بشقائق النُّعمان[754]. وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يعْقِدَ لواء نفسه على الرّسم المعروف في ذلك، وأن يتسلّم خاتم الخلافة ممّن يكون ذلك معه. وهذا تتويجٌ على الطّريقة العربية البسيطة (مسكويه، V, 454). أما أمراء الأطراف فقد كان التّتويج بالنّسبة لهم تتويجاً حقيقياً تجري رسومه على العادة الوثنية؛ فكان يوضع على رأس الأمير تاجٌ مرصّع بالجواهر، ويلبس طَوْقاً وسوارَيْن من الذّهب المنظوم بالجوهر[755]. وكان لباس الحاشية الرّسمي في القرن الثّالث الهجري أحمر اللون في العادة؛ فيُروى أن المتوكّل في إحدى مناسبات الدّولة أمر الحاشية أن يُعِدَّ كل واحد منهم قباءً جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته[756]. أما في القرن الرّابع فكان الغلمان عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد وبعضهم ببياض[757].

وكان يُحمل علي رأس خُلفاء العبّاسيين والفاطميين شَمْسة الخلافة (وتسمّي في مصر مظلّة)؛ ونادراً ما نسمع عن الشّمْسة ببغداد، ففي عام 332 هـ - 943 م أمر الخليفة أن تُحمْل بين يدي أحد الكُبراء

شَمسة الخلافة، فكان هذا تكريماً لا سابق له[758]. وكانت المظلّة في القاهرة شعار أبّهة الخلافة، وكان لونها يشابه ثياب الخليفة[759]. وكان من علامات سيادة الخليفة ببغداد أن يضرب الحرس على باب داره بالطّبول والدّبادب والأبواق في أوقات الصّلوات الخمس، وكان لا يُكف عن ذلك إلا أيام العزاء بدار الخلافة. وقد حاول الخليفة أن يحافظ على هذه المزيّة ويحول دون اتخاذ الأمراء لها ولكن ذلك لم يَدُم؛ ففي عام 368 هـ - 976 م أمر الخليفة بأن تُضرب الدّبادب على باب عضد الدّولة في أوقات الصّلوات الثّلاث: الغداة والمغرب والعشاء؛ وفي عام 418 هـ - 1027 م أذن الخليفة بعد إباء لجلال الدّولة بأن يُضرب الطّبل أمام داره في الصّلوات الخمس؛ وفي سنة 396 هـ - 1014 م ضُرب الطّبل أمام دار الأمير خمساً، كما هو الحال بالنّسبة للخليفة تماماً[760].

ولقد بقي لقب الخليفة بسيطاً كبساطة لباسه، وهو اللقب المشهور: «أمير المؤمنين»[761] ؛ غير أنّه منذ أيام الخليفة العبّاسي الثّاني صار الخليفة يُسمّى باسم فيه نسبة إلى الله؛ وكان اتخاذ هذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له[762]. ولا نعلم المثال الأول الذي كان أساساً لذلك. وفي سنة 322 هـ - 933 م طلب الخليفة الرّاضي من صديقه الصُّولي - الأديب ولاعب الشّطرنج المشهور - أن يوجّه إليه بالأسماء التي تُنعت بها الخُلفاء وتكون أوصافاً لهم. ويروي لنا الصُّولي نفسه أنه بعث إليه رقعة فيها ثلاثون اسماً ليختار منها ما يريد، وأشار عليه أن يختار منها المُرتضى بالله. وقد وثق من اختياره له حتى إنه ابتدأ من وقته يعمل أبياتاً ضادية قافيتها المرتضى، على أن ينشده إيّاها؛ فلما فرغ منها جاءه رسول الخليفة برُقعة فيها: إن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام المُقتدِر بالخلافة أراد أن يكون له وليّ عهد، فأحضروا المنصور بن المهدي وسمّوه المُرتضى، وما أحبّ أن أتسمّى باسم قد وقع لغيري، ولم يتمّ له أمره؛ وقد اخترت الرّاضي بالله. وقد حفظ لنا الصُّولي في تاريخه القصيدة الأولى التي ألّفها، ولم يُقَدّر لها أن تُنْشد. وقد أمره الخليفة أن يعملها قصيدة أخرى على قافية الرّاضي، فعملها، وللأسف قد فُقدت[763].

وكان كاتب الخليفة القادر (381-422 هـ = 991-1031 م) أول من أخرج في ذكر الخليفة وصْفَه بالحضرة المطهّرة النّبوية، اختراعاً جعله قُرْبَةً، فصار سُنّة؛ ومضى في ذلك حتى خرق العُرف والعادة، فكتب عن الخليفة بالخدمة، ذكر هلال الصّابي: «رأيت بخط أبي الحسن بن أبي الشّوارب القاضي في ترجمة رقعة: خادم الخدمة الشّريفة فلان بن فلان»[764]. وكان الأمراء وكبارُ أصحاب المناصب والعُمّال يتهافتون جميعاً على الألقاب تهافتاً شديداً، وكانوا جميعاً يُلقَّبون بألقاب منسوبة إلى الدّولة مثل وليّ الدّولة، وعماد الدّولة، ومُعين الدّولة، وعزّ الدّولة، ونحو ذلك[765]. يقول البيروني (توفي عام 447 هـ - 1055 م): «وبنو العبّاس لما لقّبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة وسوّوا فيها بين المُوالي والمُعادي، ونسبوهم إلى الدّولة بأسرهم ضاعت دولتهم».

وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع لزم التّفريق بين أصحاب الألقاب فثُنّي لبعضهم التّلقيب، فكان عضد الدّولة يُلَقّب بتاج الملّة؛ وأخيراً ثُلّث التّلقيب، فلقّب بهاء الدّولة ضياء الملّة وغياث الأمّة. ثم ذاعت ألقاب الدّولة في كل مكان عند الفاطميين، وعند السّامانيين والحكّام في الشّمال والشّرق وعند بُغْراخان التُّركي Buğra Han؛ فإنه لما خرج في سنة 382 هـ - 992 م لقب نفسه بشهاب الدّولة؛ ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام وتجرّؤ على مقام الألوهية. وكان البُوَيْهيون أول من سمّوا وزراءهم بأسماء لا ينبغي أن تطلق إلا على الله مثل: الأوحد، وكافي الكُفاة، وأوحد الكُفاة؛

وجاوز بعضهم هذا الحدّ، فسمّوا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء؛ ولذلك يقول البيروني بعد ذكره ما تقدّم: «فأذاقهم الله الخِزْي في الحياة الدُّنيا، وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم»[766]. وأخيراً يُقال إن الخليفة القادر بالله (381-422 هـ = 991-1030 م) لقّب محمود بن سَبُكتگين Sebük Tegin صاحب غَزْنَة بأكبر لقب استمرّ واشتهر لدى الأجيال القادمة وهو لقب السُّلطان[767].

ولكن أمير بغداد طلب في سنة 423 هـ - 1031 م أن يُلقّب بالسُّلطان المعظّم مالك الأمم، فقال القاضي الماوردي، رسول الخليفة إلى الأمير، إن هذا لا يمكن، لأن السُّلطان المعظّم هو الخليفة؛ فعدل الأمير إلى لقب مالك الدّولة[768]. وفي سنة 429 هـ - 1037 م زيد في تعظيم ألقاب جلال الدّولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، وهو اللقب الوثني القديم؛ فنفر العامّة من ذلك، ورموا الخُطباء الذين ذكروه في المساجد بالآجُرّ؛ ومع أن الفقهاء أفتوا بأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض، وليس فيه ما يوجب النّكير ولا المماثلة بين المخلوق والخالق، وأن هذا اللقب جائز كما جاز أن يُقال: قاضي القُضاة، فإن كثيرين من أهل الجدّ والتّدقيق لم يرضوا به، وذكروا أن القاضي الماوردي منع من جوازه[769]. لكن هذا اللّقب ما زال قائماً حتى اليوم. ولم يرضَ هلال الصّابي عن تلقيب القادر بالله ابنه ووليّ عهده بالغالب بالله في عام 391 هـ - 1001 م؛ وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العبارة المعروفة التي كانت مكتوبة على قصر الحمراء: لاغالب إلا الله وحده لا شريك له[770].

ولم يكن هنالك قيمة حقيقية إلا للألقاب التي يمنحها الخليفة؛ وكان ذلك أهم موارد دَخله في أواخر القرن الرّابع الهجري؛ فبعد مساومات كثيرة لُقِّب أمير بغداد بمالك الدّولة في سنة 423 هـ - 1031 م، فبعث للخليفة ألطافاً كثيرة. وكانت هذه الهدايا ألفي دينار؛ وثلاثين ألف درهم، وعشرة أثواب خَزّ، ومئة ثوب ديباج مرتفعة، ومئة أخرى دونها، وعشرين مَنًّا عوداً، وعشرة أمنان كافوراً، وألف مثقال عنبراً، وألف مثقال مسكاً، وثلاثمئة مبخر صيني، كما أرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية[771].

وفي هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب في حضرة الخُلفاء حتى صارت على ترتيب بقي في جوهره مستمرًّا طول العصور. وكان الخليفة المأمون حوالي سنة 200هـ - 800 يُخاطَب كما يخاطب أيّ رجل آخر بلفظ أنت[772]. وكذلك كان يخاطَب الخليفة المُقتدِر عادة حوالي عام 300 هـ - 900[773]، وإن كانت تستعمل آنذاك طريقة الخطاب بضمير الغائب إلى جانب ذلك، فكان يقال أمير المؤمنين أمَرَ بكيت وكيت. وفي أواخر القرن الثّالث لم يكن من السّائغ أن يُخاطَب أيُّ رجل بمثل هذه البساطة، وفي أوائل القرن الرّابع لقي الخليفةُ المتّقي الإخشيد صاحب مصر بالرّقّة، وقد حمل الإخشيد الهدايا، وأظهر الخدمة والأدب؛ وخاطب وزيرُ المتقي الإخشيد باسمه، فأمره الخليفة بأن يكنِّيَه تأكيداً لقدره واحتراماً له[774]. وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان الخليفة المعتضد لشدّة هيبته إذا خاطب صديقه الطّبيب ثابت بن سنان في الملأ سمّاه، وإذا كان في الخلوات كنَّاه[775]. وكان المأمون يمدّ يده مسلِّما على البطريق ديونيسيوس التَّلمحْري Dionysius von Tellamachre، وهكذا كان يفعل بكل من يريد إكرامه[776]. ولما فارق مؤنس القائد الخليفة في أوائل القرن الرّابع الهجري قبّل يده[777]؛ وكان من خاص التّكريم في ذلك العهد أن يقبّل الإنسان رجل من هو فوقه[778] وكتف من يساويه. وكذلك سلّمت الجواري من قبل على تيليماخوس

Telemachos بأن قبّلن كتفه وأعلى رأسه[779]. وقد دعا الخليفة الرّاضي الأمير بجكم مرّة، فقبّل هذا القائد فخذ الرّاضي ويده[780].

وكان السَّلَف من مسلمي العرب يرون في تقبيل الأرض أمام المخلوق اجتراءً على مقام الله؛ ولما قدم على المُقتدِر بالله رسل ملك الرُّوم في عام 305 هـ - 917 م أعفاهم من تقبيل البساط كما يُطالَب المسلمون بمثل هذا في بيزنطة[781]. وفي حكاية ترجع إلى القرن الرّابع أن رجلاً صالحاً خرّ ليقبّل الأرض؛ فقال له صاحب الشّرطة: «مَهْ، عافاك الله، لا تفعلْ، هذه من سُنَن الجبّارين»[782]. غير أنّه حوالي عام 330 هـ لما لقي الإخشيد الخليفة المتّقي في الرّقّة ترجّل عن بعدٍ ومشى كالغلام بسيفه ومنطقته وجعبته بين يدي الخليفة على سبيل الخدمة، وقبّل الأرض مراراً، وتقدّم فقبّل يده، ثم صاح به محمّد بن خاقان: اركب يا محمّد، ثم صاح: اركب يا أبا بكر، فقيل إن المتّقي قال لابن خاقان: كنِّه، فكنّاه للوقت؛ ثم كان الإخشيد يقف بين يده على سيفه، وإذا ركب حجبه، وجعل مقرعته على كتفه لأنه لم يخدم خليفة غيره قطّ، وافتخر بذلك؛ وقد أعجب الخليفة من فعله، وقال له: «قد ولّيتك أعمالك ثلاثين سنة، فاستخلف لك أنُوجُور، فقبّل الأرض مراراً، وأهدى إليه الإخشيد هدية أخرى على ما فعله بابنه أنُوجُور وتكنيته له»[783]؛ وفي عام 369 هـ - 979 م تم في دار الخلافة تتويج عضد الدّولة على أفخم صورة: جلس الخليفة الطّائع على سرير الخلافة، وبين يديه مصحف عثمان، وعلى كتفيه البُردة، وبيده القضيب، وهو متقلّد بسيف، ووقف الأشراف من الجانبين؛ ودخل الأتراك والدَّيلم، ولم يكن مع أحد منهم حديد؛ فلما وصل عضد الدّولة أذن له الخليفة، فدخل؛ فلما وقع عليه طرفُ الخليفة قبّل الأرض بين يديه، فارتاع أحد القوّاد لما شاهد، وقال بالفارسية: ما هذا أيها الملك، أهو الله عز وجلّ! ثم استمرّ عضد الدّولة يمشي، ويقبّل الأرض تسع مرّات، والتفتَ الطّائع إلى خادمه، وقال له: استدْنِه، فصعد عضد الدّولة وقبّل الأرض دفعتين، فقال له الطّائع: أدْنُ إليّ أدْنُ إليّ، فدنا، وأكبّ يقبل رجله وثنى الطّائع يمينه عليه. وممّا يلي الجانب الأيمن الكرسي، فقال له: إجلس، فلم يفعل، فقال له: أقسمتُ لتجلسنّ، فقبّل الكرسي وجلس، وبعد ملاطفة قال له الخليفة: قد رأيتُ أن أفوّض إليك ما وكّل الله تعالى إليّ من أمور الرّعية في شرق الأرض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصّتي وأسبابي وما وراء بابي، فتولّ ذلك مستجيراً بالله تعالى؛ ثم أمر الخليفة بأن تفاض عليه الخِلَع، ويُتوّج، فنهض عضد الدّولة إلى الرّواق، فألبس الخلع وخرج، ثم عُقدت له الألوية؛ وبعد ثلاثة أيام بعث الخليفة إليه هديه فيها غلالة قصب وصينية ذهب وحردادي بلور: «فيه شراب ناقص كأنه قد شُرب بعضه، وعلى فم الحردادي خرقة حرير مشدودة مختومة»[784].

وكان إجلال الخليفة في مصر الفاطمية أعظم من ذلك كلّه، ففي سنة 366 هـ - 976 م قُرِىء سجلّ أحد القُضاة في الجامع الأزهر، «وهو قائمٌ على قدميه، فكلّما مرّ ذكر المُعِزّ أو أحدٍ من أهله أومأ بالسّجود»[785]. ولما أُسند القضاءُ أيضاً في عام 368 هـ - 1008 م كان القاضي كلما مرّ ذكر الحاكم في السّجل قبّل الأرض[786]، وكان إذا ذُكر في الأسواق ومواضع الاجتماع بمصر قام النّاس وسجدوا[787]. ولكن هذا الخليفة في آخر أمره أظهر الزّهد فمنع النّاس من تقبيل التّراب بين يده، ومنع من مخاطبته مولانا؛ ولكن هذه الرّسوم عادت في زمن خلفه الظّاهر إلى ما كانت عليه من قبل[788]. ولما احتضر الحاكم وصّى ابن عمّار وكان النّاس يذهبون إلى قصره، ولا يقبّل يده سوى أناس بأعيانهم، وشرّف بعض النّاس بتقبيل ركابه[789].

ولقد قدّم أحد رجال الحاشية في بُخارى في هذا العصر أحسن مثل للأدب وحُسن الإصغاء للملك والإقبال عليه؛ فبينما كان عنده يحادثه في بعض مهماته لَسعَتْهُ عقربٌ في إحدى رجليه عدة لسعات، فلم يتحرّك، ولم يظهر عليه أثر ذلك؛ فلما عاد إلى منزله نزع خُفّه، وأخرج العقرب منها[790].
ونظر الإخشيد إلى كافور يوماً، وقد جيء بفيل وزُرافة، فمال جميع العبيد والخدم بأبصارهم للفُرجة، فلم تبرح عينه من عين الإخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه، فيكون مُشتغلاً عنه[791].

وقد بيّن المسعودي في عام 332 هـ - 944 م معالم هذا الأدب في حضرة الملوك، فقصّ علينا أنّ الهُذلي حضر مجلس السّفّاح؛ فعصفت الرّيح فأذرت قطعاً من الآجرّ من أعلى السّطح إلى المجلس، والهُذلي شاخص نحو السّفاح، لم يتغيّر[792]. ويحدّثنا أيضاً عن أحد سُمَراء شيرويه بن أبرويز أنه كان يساير الملك، ويستمع حديثه مُصغياً إليه بجوارحه كلها، حتى ترك النّظر إلى موطىء حافر دابّته، فزلَّت إحدى قوائمها فمالت بالرّجل إلى النّهر، ووقع في الماء، فسُرَّ الملك بذلك»[793].

وكان الأمراء في مخاطباتهم الرّسمية وفيما بينهم يتكلّمون عن الخليفة، أمير المؤمنين، بكل إجلال، ويعبِّرون في كلامهم عنه بمولانا، ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع «المولى»[794]؛ وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة مثل: «كتابي ومولانا أمير المؤمنين سالمٌ موفور والله على ذلك محمودٌ مشكور»[795]، وكان كل شيء يُنسب إلى أمره[796].

وأهدى الصّاحب بن عَبّاد إلى فخر الدّولة في أول المحرم سنة 387 هـ ديناراً وَزْنُه ألف مثقال، وكان على أحد جانبيه أبياتٌ من الشّعر، وعلى الجانب الآخر لقبُ الخليفة الطّائع لله ولقب فخر الدّولة واسمُ جُرجان، لأنه ضُرب فيها؛ هذا مع أن الإهداء كان بالرِّيّ، في مكان طهران الحالية، مع بُعدها عن دار الخلافة[797].

ولكن أمير المؤمنين كان عند التقائه بالأمراء يرى ضعفه المتزايد وانحطاط منزلته؛ ومن ذلك أن بجكم القائد التُّركي كان من عادته في داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاؤوه به إلا بعد أن يذوقه بين يديه من جاء به؛ وعَلم الخليفة الرّاضي بذلك، فاستعمل معه ما يُعمل له في منزله؛ فكان إذا حُمل شيء وُضع بين يدي الرّاضي أولاً، فأكل منه؛ ثم يوضع بين يدي بجكم، وجرى ذلك في كل ما يوضع بين يديه، وكان بجكم يستعفي الرّاضي من هذا فلا يعفيه[798].

هذا ولقد وقع ببلاط الخلافة الأكبر فيما أنقص هيبته في عهد المستكفي (333-334 هـ = 944-946 م) لأنه وقع في سلطان امرأة عجميّة مستبدّة (اسمها حُسن)، «فالتفَّ إلى حُسْن نفرٌ ممّن كانوا معها على الأصول القبيحة... وصارت الدّار طريقاً لكل من لم يَرَها، وكان كل من وصل إلى المستكفي أجلسه بين يديه...»؛ وأرادت هذه المرأة أن تأمن توزون وتُصلح قلبه، فجعلت الخليفة يدعوه ويكرمه ويقدم له دابَّة في الرّواق التّسعيني، وهو موضع لم يركب منه خليفة قط؛ وأمر أن تحمل بين يديه شَمسةُ الخلافة[799]؛ وكان من سوء حظّ الخُلفاء أن الدّيلم الذين ملكوا بغداد كانوا إماميّة، «فذهبت حرمةُ الخُلفاء»[800]. وقد كان ثوّار دار الخلافة حتى ذلك الوقت هم الذين يخلعون الخُلفاء ويقتلونهم؛ أما بعد قدوم الدّيلم فقد صار الخليفةُ يعامَل أمام النّاس جميعاً معاملة سيئة، ففي سنة 334 هـ - 945 م ذهب الأمير مُعزّ الدّولة إلى دار الخليفة، وذهب إليها سائر النّاس على رسمهم؛ فلما

جلس المستكفي على سريره، ووقف النّاس على مراتبهم، دخل الأمير مُعزّ الدّولة، فقبّل الأرض على رسمه، ثم قبّل يد المستكفي، فتقدم نفران من الدّيلم وعلا صوتهما بالفارسية؛ فظنّ أنهما يريدان تقبيل يده فمدّها إليهما، فجذباه بها وطرحاه إلى الأرض ووضعا عمامته في عنقه، وجرَّاه؛ فارتفعت الزّعقات، وافتتنت دار السُّلطان، وضُربت الأبواق، وساق الدّيلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار مُعزّ الدّولة حيث سُملت عيناه[801].

وفي سنة 364 هـ دخل عضد الدّولة بغداد، فكان من حُسن سياسته أنه سعى حتى ردَّ الخليفة بعد أن أخذه الأتراك معهم كارهاً؛ وخرج للقائه في الماء ومعه حشدٌ عظيم من أهل بغداد، وسار معه حتى أنزله بدار الخلافة[802]؛ ولكن عضد الدّولة طلب من الخليفة فيما بعد، لما رجع إلى بغداد عام 370 هـ - 980 م، أن يخرج للقائه إلى جسر النّهروان، «ولم تكن العادة جارية بخروج الخُلفاء لتلقّي أحد من الأمراء»[803].

وكانت حاشية دار الخلافة ونفقاتهم في عهد الخليفة المعتضد 279-289 هـ = 892-901 م كما يلي:

1 - أمراء بيت الخلافة.

2 - أصحاب النّوبة من الرّجّالة، وأرزاقهم في كل يوم ألف دينار، منها سبعمئة دينار للبيضان، وهم البوّابون، وثلاثمئة للسّودان، وأكثرهم مماليك الخُلفاء[804]. ولهم وظيفة خبز يُمَيّزون بها لقلّة أرزاقهم.

3 - الغلمان المُعْتَقون، وهم في الغالب مماليك الخُلفاء؛ ومنهم يُختار الحجابُ، وعدّتهم خمسة وعشرون، وخُلفاء الحجاب، وكانوا نحو خمسمئة[805]. ولما قُتل المُقتدِر كان معه رجل من خُلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذُبح أيضاً[806]. وفي سنة 329 هـ - 940 م أُنشيء لأول مرّة منصب حاجب الحجّاب[807].

4 - المُختارون، وكان جند كل قائد ببغداد بما فيهم مماليكه المسلحون يؤلّفون وحدة قائمة بذاتها؛ وسُمُّوا بأسماء قوادهم، فقيل اليأنسيّة (وذلك نسبة ليأنس)، والمُفلحية وهكذا. غير أنّه كان للمعتضد مماليك يُختارون من بين الفرسان الذين يحسنون الرّكوب والرّمي ويسمّون أيضاً عسكر الخاصّة. وكان لخمارويه بمصر قوم معروفون بالشّجاعة وشدّة البأس اتخذهم حرساً له، وسمّاهم المُختارة؛ فكانوا يقاتلون أمام جنده، وإذا ركب مشوا خلفه[808].

5 - أصناف أخرى من المرسومين بخدمة الدّار والرّسائل الخاصّة والقراء والمؤذّنين والمنجّمين والفنجاميين والفرانقيين والأنصار والحرس وأصحاب الأعلام والبوقيين والمخرّقين والمضحكين والطّباليين والسّقايين والطّباخين والخبازين وخزنة السّروج وعمال الاصطبلات الخمسة – خامسها للإبل - وأصحاب الصّيد والملّاحين في الطّيارات، وخَدَمَة المشاعل والأطباء.

6 - الحُرَم، وأرزاقهن في اليوم مئة دينار؛ وليس عندنا معرفة دقيقة بعددهن. وقد ذكر الخوارزمي ما زعمه البعض من أن المتوكّل كان له اثنا عشر ألف سريّة[809]، ويقول المسعودي إنه كان له أربعة آلاف سريّة، وفي أحد المخطوطات أربعمئة[810]؛ وكان على رأس نساء القصر حوالي عام 300 هـ - 912 م قهرمانتان، إحداهما للخليفة والأخرى للسّيدة والدته؛ وكان يسلم للأولى كبارُ المعتقلين ليُحْبَسُوا عندها مكرَّمين حبساً هيِّنا؛ فمثلاً وُكِّل بابن الفُرات حوالي 300 هـ - 912 م[811]، كما سُلِّم إليها الأميرُ ابن حمدان، والوزير علي بن عيسى سنة 303 هـ - 915 م[812].

وكان اتخاذ الخليفة نساءً دون اكتراث بأصلهنّ، وإن كان معظمهن من جواري التُّرك والرُّوم، من الأسباب التي أدّ إلى إيجاد كثير من الخلل في البلاط وفي المناصب الإدارية العليا؛ فكانت كل سيدة تحابي من يتصل بها من الأقارب والأولياء، وترفعهم ما استطاعت؛ ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدي كتب إلى عامل جَرَش في إشخاص الغِطريف بن عطاء أخي الخيزران أم موسى وهارون ابنيْه؛ وكان الغِطريف غلاماً لرجل من أهل جَرَش، فأعتقه، وكان يؤاجر نفسه بنظر كروم؛ فحباه العامل وكساه، وحمله إلى المهدي، فرفع منزلته، ثم ولّاه على اليمين[813]. وكان للمقتدر خالٌ رومي يسمّى غريب، وكان له نفوذ كبير وكان يُخاطبِ بالإمْرة[814]. استطاعت الهاشمية قهرمانة السّيدة أم الخليفة أن تسعى في إسناد نقابة بني هاشم الطّالبيين والعبّاسيين لأخيها؛ فضجّ الهاشميون حتى ردّوا النّقابة إلى ابن النّقيب السّابق[815]. وقد أثبتت التّجربة أن كثيراً من المنازعات مصدرها أمُّ الخليفة؛ وقد ذاق المتصلون بالخليفة وبالَ ذلك، حتى إن الخليفة كان يُنتخب أحياناً لأنه لا أمَّ له رجاء أن تستقيم الأمور معه[816].

وكان في دار المُقتدِر حوالي عام 300 هـ - 912 م أحد عشر ألفاً من الخدم الخِصيان[817]، وفي رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خادم وسبعمئة حاجب[818]، وفي مصدر قديم موثوق به أن خدم المتوكّل وحاشيته كانوا سبعمئة[819].

ولقد اتّبع أباطرة الدّولة الرُّومانية في العصر المتأخر عادة العجم الفُرس القدماء، فجمعوا حولهم جماعة يدعونهم إلى الطّعام والشّراب، وسمّوهم «أصدقاء القيصَر» Friends of the Cæsar؛ عام 200 هـ - 813 م. وكذلك فعل الخليفة المأمون لما ورد إلى بغداد، فإنه أمر بأن تُثبت له أسماء من يصلح لمنادمته من أهل الأدب[820]. وقد آثر أن يكونوا من العلماء والقوّاد وممّن جالس الخُلفاء. وكذلك حاول القائد بجكم أن ينتفع بنُدماء الخليفة الرّاضي، فلم يجد من ينفعه إلا الطّبيب سنان بن ثابت. وكان الخليفة المُعتمِد (256-279 هـ = 869-892 م) مع ندمائه مجالساتٌ ومذكرات قد دُوّنت في أنواع من الأدب[821]، وكان للنّدماء أرزاق[822]. وقد وصف لنا الصُّولي أول جلسة للخليفة الرّاضي (322 – 326 هـ - 933-940 م) مع أصحابه: كانوا يجلسون على رسم وترتيب مخصوص؛ فكان على يمينه قريباً إليه إسحاق بن المُعتمِد أحد الأمراء، ويليه الصُّولي، الأديب ولاعب الشّطرنج المشهور، ثم الذي كان مرسوماً بتأديب أمير المؤمنين، ثم ابن حمدون، أحد أبناء الأشراف المتّصلين بالبلاط؛ وكان على يساره ثلاثة من آل المُنجِّم وهم من أدباء الحاشية، واثنان من بني البريدي العُمّال المشهورين. وقد افتُتح المجلس بإنشاد قصائد بمناسبة تقليد الخلافة، ثم تكلّم الخليفة، فشكا ثقلَ العبء الذي ألقاه عليه هذا المنصبُ. وكان ممّا قاله: والله لقد جاءني هذا الأمر،

ولا شرعتُ فيه، ولا جئتَه، ثم تحدّث عن إعناتِ القاهر له وخوفه من قتله إياه في ليله ونهاره، إلى أن قال: أليس بابن المعتضد وأخ المُقتدِر وعمّ لنا؟ فقال له الصُولي: قد أزال الله عن سيدنا كل عيب، وله في رسول الله أسوة حسنة، هذا عمّه أبو لهب أنزل الله فيه سورة من القرآن يعرفها كل إنسان.

يقول الصُولي: «فكُنّا بين يديه في ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب، وكان هو لا يشرب، قد ترك النّبيذ جُملة»؛ وكان لكل من الفريقين اللذين على يمينه وعلى يساره في أول جلسة نوبةٌ خاصّة به[823]. ويقول الصُولي: إنّ ما امتاز به الرّاضي في مجالس منادماته أنه كان يأمر بأن توضع بين أيدي النّدماء الصّواني عليها خماسيات المطبوخ، والمغاسل، وكيزان الماء، ليشرب كل واحد منهم ما يريد. «ولم يكن يفعل ذلك الخُلفاء إلا خصوصاً بالواحد بعد الواحد[824]، وبالجماعة في وقت من الدّهر». وكان يأمر أن توضع بين أيديهم الفواكه الرّطبة واليابسة، فينالوا منها كما ينالون في بيوتهم؛ بل يحكي الصُولي أن النّدماء كانوا يتبارون في الشُّرب بين يديه، وكان إذا شرب أحد المتبارين كأساً قبل صاحبه رفعها ليراها الرّاضي؛ وقد فعل اثنان منهما ذلك مراراً إلى أن ضجر الرّاضي فقال: كأنّها قواريرُ بَول تُدفع بين يدَي طبيب[825].

وكان لكل سطان من السّلاطين إشارةٌ لندمائه، إذا أراد نهوضهم، فكان يَزْدَجَرد يقول: شَبْ شُدْ (ومعناها تقدّم الليل)؛ وكان سابور يقول حسبُك يا إنسان! وكان عُمر يقول قامت الصّلاة؛ وعبد الملك: إذا شئتم؛ والرّشيد: سُبحان الله؛ وكان الواثق يمسُّ عارضيْه[826].

وكانت نفقات دار الخلافة هائلة للغاية؛ فكانت نفقات المطابخ والمخابز عشرة آلاف دينار في الشّهر. وكان يطلق في كل شهر في مجُمل نفقات المطبخ لثمن المِسك وحدة ثلاثمئة دينار، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مِسك، ولا يُطرح له إلا اليسير في الخشكنانج؛ وكان يُصرف للسّقايين مئة وعشرون دينارً في الشّهر، ومئتا دينار لثمن الشّمع والزّيت، وثلاثون دينارً للأدوية، وثلاثة آلاف دينار نفقات خزائن الكسوة والخِلَع والطّيب وحوائج الوضوء والحمّام ونفقات خزائن السّلاح ونفقات خزانة السّروج والفرش[827].

وبلغت نفقات دار الحُرَمِ التي بناها خمارويه مبالغ كبيرة جداً، وكان يفضل عن حاجات من فيها الشّيء الكثير للخدم والطّباخين. واشتهر بيعُهم لذلك، «بحيث أن الرّجل إذا طرقه ضيفٌ خرج من فوره إلى باب الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمّل به لضيفه ممّا لا يقدر على عمل مثله»[828].

ولما ولي القاهر الخلافة أظهر من الجدّ والاختصار والقناعة ما هابه به النّاس، فلما عُرضت عليه الفاكهة التي كانت توضع بن أيدي الخُلفاء في كل يوم استكثرها؛ وكانت تبتاع بثلاثين ديناراً، فأمر بأن يُقتصر من ذلك على دينار واحد ومن الطّعام على اثني عشر لوناً. وكان يقدَّم لغيره في كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقتصر على ما يكفيه[829].

وفي ذلك العصر كانت أيام الإعسار قد حلّت؛ ففي عام 325 هـ - 937 م أنقص عدد الحُجّاب من خمسمئة إلى ستين[830]؛ وفي سنة 334-945 م استولى مُعزّ الدّولة على كل الأمور المالية من يد الخليفة، وأقام له لنفقته كل يوم ألفي درهم[831]، وهو أقلّ من نصف ما كان يحتاج إليه[832]. وبعد

ذلك بسنتين قطع عن الخليفة الألفي درهم وعوّضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة وغيرها زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مئتي ألف دينار في السّنة؛ ثم نقص ارتفاعها على ممرّ السّنين إلى أن صار خمسين ألف دينار في السّنة[833].

ثم جرت العادة منذ عام 334 هـ - 945 م أن تنُهب دار الخلافة بعد موته أو خلعه حتى لا يبقى فيها شيء[834]. وفي سنة 381 هـ - 991 م لما خُلع الطّائع حُوِّل ما كان في دار الخلافة من الرّخام والخشب والسّاج والتّماثيل والأبواب والشّبابيك والرّصاص حتى خَلَت دار الخلافة[835]. وكانت عادة العامّة لدى الرُّومان أن يقوموا بمثل هذا الفعل عند موت البابا.

كما نلاحظ هنا تشابهاً ذا شأن بين الخليفة والبابا، وهو أن الخليفة في هذا العصر غدا رئيساً روحياً فقط ليس له سلطة سياسية، وصار الرّئيس الرّوحي لجميع المسلمين، وكان تقلُّص سلطانه عن العراق، ممّا أسرع في جعل منصب الخليفة روحياً دينياً. ففي سنة 423 هـ - 1032 م نزل السُّلطان وانحدر في سُمَيريّة، ومعه ثلاثة نفرٍ من حاشيته؛ وصعد إلى بُستان دار الخلافة، وجلس مع بعض مغنّياته تحت شجرة، واستدعى نبيذاً فشربه، وأمر الزّامر أن يزمر؛ وعرف الخليفة ذلك فشقّ عليه وأزعجه، فأرسل للسّلطان قاضياً وحاجباً فقال له: إن النّبيذ والزّمر ممّا لا يجوز في هذا الموضع على مقربة من الخليفة؛ فحضر الوزير واعتذر[836]. غير أنّ الدّور الذي كان للخليفة في هذه العصور الأخيرة كان بسيطاً، لا يشبه منصب رئيس الكنيسة؛ إذا قورن بإمبراطور بيزنطة الذي كان يُحَيَّى في ميدان الألعاب بوصفه داود الثّاني أو الرّسول بولس الثّاني؛ وكان يُحتفى به كما يحتفى بكبار القُسُس؛ وكان يمضي يومه بين الكنائس والمذابح وصور القدّيسين، كما يدّل على ذلك كتاب «المراسيم» البيزنطيّة De Caerimoniis.

الفصل العاشر
الشّريف

Der Adel

يقول العرب: أشراف النّسَب، بمعنى أنه شرافة الدّم؛ وأول ما يجب أن يتوفر للسّيد أن يكون جواداً شجاعاً، ومن عوائده أن يكون عاقلاً متغافلاً، ولا بدّ أن يكون عظيم الرّأس، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس بسيّد[837] - كالكاتب فمن صفته أن يكون صغير الهامة[838] - ومن صفاته أن يكون كثّ شعر النّاصية، أشمّ عرنين الأنف، واسع الأشداق[839]، غير مستدير الوجه، عريض الصّدر والمنكبين، مديد السّاعد طويل الأنامل[840]. ويُكره في السّيد التّصنّع في اللباس والمشية؛ ولذلك يقال: «عمامة السّيد ملويّة أي يديرها على رأسه كيفما اتفق»[841]. ويُروى عن أحد رجال الحاشية في العصر العبّاسي أنه قال: «النّاس أربع طبقات: 1 – ملوكٌ قدّمهم الاستحقاقُ، 2 – ووزراء فضّلتهم الفطنة والرّأي، 3 – وعلْيَةٌ أنهضهم اليسار، 4 – وأوساطٌ ألحقهم بهم التّأدُّب؛ والنّاس بعدهم زبدٌ جُفاء، وسيل غُثاء، لُكَع ولَكاع، وربيطةُ اتّضاع، همُّ أحدهم طعمه ونومه[842]. وكان الشّرف والسّيادة يتأتيان نتيجة للمال وللسيطرة السّياسية، وهو شيئ غير محمود. وقد أهمل المسلمون مسألة الدّم وخصوصاً دم الأم إهمالاً شديداً؛ وذهبت قلّة الأكترات بذلك إلى حدّ أن جميع الخُلفاء في القرنين الثّالث والرّابع للهجرة كانوا أبناء جوارٍ من التُّرك أو الرُّوم؛ وكاد رجلٌ أسود في أوائل القرن الثّالث الهجري أن يرتقي إلى عرش الخلافة[843].

غير أنّ دين الإسلام أوجد نوعاً من شرافة النَّسَب لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا، وذلك في قرابة النّبي أو بني هاشم أو أهل بيت رسول الله أو «أهل البيت» باختصار؛ وكانوا يأخذون، باعتبارهم قرابة النّبي، راتباً من الحكومة، وكذلك حُرّمت عليهم الصّدقة هم ومواليهم[844]. وكان لهم قضاء مستقلّ بهم يتولّاه نقيبهم الذي يعيّنه الخليفة[845]. وكان لهم نقيب لا في بغداد فقط، بل في جميع المدن الكبرى مثل واسط والكوفة والبصرة والأهواز [846] يسمّى «نقيب العلويين». وفي سنة 351 هـ - 961 م كانت نقابة الطّالبيين بمصر لابن طباطبا[847]. وكان نقيب العلويين في عهد الفاطميين أيضاً من كبار رجال دار الخلافة[848]. وقد وصلنا كتاب بتقليد نقابة الطّالبيين سنة 354 هـ - 965 م، ونرى من هذا الكتاب أن النّقيب هو الذي يحكم أيضاً النّزاع بين الطّالبيين وبين سائر رعيّة الخليفة[849].

وكان الفرعان المتخاصمان من أهل البيت، وهم العبّاسيون الذين بلغوا سُدّة الرّياسة، والطّالبيون الذين لم يبلغوها، يخضعون جميعاً لنقيب واحد حتى القرن الرّابع[850]. وفي آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيبٌ خاص؛ والسّبب الأكبر في ذلك أن العبّاسيين آل أمرهم إلى الضّعف وبدأ الآخرون يظهرون عليهم، فلم يتحمّلوا إشراف أحد على أمرهم؛ وقد مهّدت ظروفُ ذلك العصر الطّريق لما غدا عليه الأشرافُ اليوم. وكان كلّ من العلويين والعبّاسيين يخاطَب بالشّريف[851]؛ ولم يكن للعلويين شعارٌ يتميزون به كما ذكر عريب بن سعد القرطبي[852]؛ أما اللون الأخضر فلم يُجعل شارة لهم إلا أخيراً (في عهد المماليك) بالقرن الثّامن الهجري[853].

وكان يُخصّص لكل واحد من بني هاشم ببغداد دينارٌ في كل شهر في عهد المُعتمِد (256-279 هـ / 870-892 م)؛ أما الذين خرجوا من بغداد فقد تركوها خاوي الوفاض. ثم اقتصر الخليفة المعتضد على رُبع دينار. وكان عدد بني هاشم بالحضرة أربعة آلاف نفس، وجُملة الجاري لهم ألف دينار في الشّهر[854]؛ وفي سنة 209 هـ - 824 م أحصي عدد العبّاسيين، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً[855]؛ غير

أن الجاحظ حوالي ذلك الوقت يقول: «إنّ آل أبي طالب أحصوا منذ أعوام وحُصّلوا، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمئة»[856].

وكان يجري لمشايخ الهاشميين راتبٌ خاص يذكر في الميزانية مع أرزاق الخُطباء في المساجد الجامعة، وجُملة ذلك ستمئة دينار في الشّهر[857]. وكان لأولاد الخليفة جارٍ خاص، وإن كان قليلاً؛ فكان المعتضد (279-289 هـ / 892-902 م) يجري على أولاد المتوكّل وأولادهم رجالاً ونساءً ألفَ دينار في الشّهر، وكان يعطي إخوة وأخوات الواثق والمهتدي والمستعين ومن في قصر أم حبيب خمسمئة دينار في الشّهر[858]. وكانت بُخارى مركز هذه الجماعة الذي يأوون إليه، لأنه كانت ببُخارى أكبر حكومة غير إماميّة بعد بغداد. وفي ثمانينيات هذا القرن التقى بعض أولاد الخُلفاء مثل أبي طالب المأموني وأبي محمّد الواثقي، وابن المهدي[859]. وكان الواثقي يشهد بنصيبين عند الحكام والقُضاة، فأخرج من بغداد، فقصد خُراسان راجياً أن يقلَّد قضاءً أو ديوان بريد؛ فلم ينل ما أراد، فذهب مغاضباً يتوغّل في بلاد التُّرك، وافتعل مع رجلٍ آخر كتاباً عن الخليفة بتقليده العهد بعده، حتى اضطر الخليفة أن يكتب بتكذيبه إلى خُراسان في الشّمال؛ ولم يزل الواثقي يزيّن لبُغْرا خاقان Buğra Hakan محو الدّولة السّامانية والاستيلاء على المملكة؛ وبنى التّدبير على أن تكون له الخلافة، ويتقلّد التُّركي أعمال خُراسان وما وراء النّهر من يده؛ وعاد الواثقي إلى بغداد سرًّا بعد فشل مخطّطه، ولكن الخليفة فطن إليه واضطرّه إلى الخروج، فعاود بلاد التُّرك، وتقلّبَت به الأحوال، حتى قبض عليه يمين الدّولة محمّد بن سَبُكتكين Sebük Tegin الغَزْنَوي، وحبسه في إحدى القلاع موسَّعاً عليه، حتى مات[860]. أما المأموني فكان أيضاً يسمو بهمّته إلى الخلافة ويُمَنِّي نفسه قصد بغداد في جيوش تنضمّ إليه من خُراسان لفتحها، فاقتطعته المنية دون بلوغ الأمنية، ولم يكن بلغ الأربعين[861]. ثم حاول محمّد بن الخليفة المستكفي الذي خُلع سنة 334 هـ - 945 م أن يستولي على الدّولة، مستعيناً بما جاء في الأخبار من ظهور المهدي. وادّعى أنصارُه أنه «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجاهد أعداء المسلمين، ويجدّد ما عفا من رسوم الدّين»، فتطلّعت إليه نفوس العامّة. فمن كان من أهل السُّنّة قالوا له إنه عبّاسي، ومن كان من أهل التّشيّع قالوا له إنه علوي، ودخل كثيرون في هذا الأمر. وكان فيهم سَبُكتكين القائد العجمي، وكان يتشيَّع، فاستجاب للدّعوة؛ ثم ظهر لسَبُكتكين أن الرّجل عبّاسي لا علوي، فتغيّرت نيّته وتصوّره بهيئة المحتال؛ ثم انتهى أمره بأن قبض عليه وعلى أخيه وأسلمهما للخليفة؛ فأمر بجدع أنف صاحب الدّعوة، وقطع أذن أخيه[862].

وإلى جانب ما يجري لهم من راتبٍ خاص، كان الهاشميون يُقدَّمون في تولّي مناصب مشرّفة يكسبون منها المال بلا عناء: فكانت تُسند إليهم إمامةُ كثير من المساجد؛ فمثلاً كان أحد الهاشميين (توفي عام 350 هـ - 961 م) إماماً لجامع المنصور ببغداد، وهو أكبر جامع في الدّولة الإسلامية[863]؛ وكان إمام جامع عمرو بمصر في مثل هذا الوقت هاشمياً أيضاً[864]؛ وكذلك تولّى منصب قاضي القُضاة في عامي 363 هـ - 974هـ - و394 هـ - 1004 م رجلان من بني هاشم[865].

وفي أواخر القرن الرّابع كان الواثقي يتولّى الخُطبة في المسجد الجامع بنصيبين[866]؛ كما كان الذي يحجّ بالنّاس في كل عام رجلاً من بني هاشم. ولمّا احتاج المأمون أن يستعين بالعلويين على أخيه

الأمين تولى الحجّ بالنّاس رجالَ من الطالبيين منذ عام 204 هـ - 849 م، وكانت هذه أول مرّة يحجّ فيها الطّالبيون بالنّاس؛ ولكن إمارة الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك بثلاث سنين، وبقيت لهم حتى عام 336 هـ - 947 م[867]؛ ثم آلت إلى العلويين، وكانوا ينيبون من بينهم من يقوم بالحجّ[868]. وكانت أول ما تُعطى المبرّات إلى أقارب النّبي، فكان ابن الدّاية (توفي عام 340 هـ) يُجري بمصر في عهد ابن طُولون Ibn Tolûn الجرايات على الأشراف الطّالبيين، ومنهم من كان ينال مئتي دينار في كل سنة[869]. وكان الوزير علي بن عيسى في أوائل القرن الرّابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم في صِلات الطّالبيين والعبّاسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين[870]. ووصلت أمّ الخليفة المطيع لله العبّاسيين والعلويين في يوم بنيّف وثلاثين ألف درهم[871]؛ وكان أبو العلاء المَعَرِّي يصل بعض العلويين، وبعث إليه مرّة بشيء من النّفقة، وأرسل له يعتذر لقلّته ويرجوه قبوله[872]. ومن الأمثال المعروفة أنّ العلوي يأخذ ولا يُعطي[873].

وبالنّظر إلى قلّة مرتّب بني هاشم، وهو ربع دينار في الشّهر، يتبيّن أنهم لا بدّ أن يكونوا جميعاً علويين وعبّاسين في فقر شديد؛ ونرى أحد الهاشميين يشتغل عَيناً يجمع الأخبار؛ وفي عام 334 هـ - 945 م وقع غلاء ومجاعة، فقُتل كثير من النّساء الهاشميات، لأنهنّ كن يَقْتُلْنَ الأطفال ويأكلن لحمهم[874]. وكان عند الصّاحب بن عَبّاد، وزير فخر الدّولة بشمال فارس، علويَّ شاميَّ يحدّثه بما شاهد من الأعاجيب[875]. وقد تحدث ابن الحَجَّاج (توفي عام 391 هـ - 1001 م) في بعض شعره عن مُغنّية هاشمية. وممّا يُروى عن كافور الإخشيدي صاحب مصر أنه وقفت له امرأة في طريقه، فدفعها أحد رجال دفعاً عنيفاً، فسقطت؛ فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده؛ فقامت تشفع له؛ فتعجب من مكرمتها، وقال: اسألوها عن أصلها، فما تكون إلا من بيت عظيم؛ فسُئلت، فإذا بها علوية، فعظم الأمر على كافور وقال قد أغْفَلنا الشّيطان عن نساء الأشراف؛ وأحسن إليها وتفقّد سائر النّساء الأشراف وأدرَّ عليهن الإحسان والجرايات[876]. وكان «أعمام النّبيّ» من أكبر مشعلي نيران الفتنة بين عامّة بغداد[877].

وفي عام 306 هـ - 918 م وثب جماعة من الهاشميين على الوزير علي بن عيسى بسبب تأخر أرزاقهم فشتموه وخرقوا درّاعته، وأرجلوه؛ واتصل ذلك بالمُقتدِر فأمر فيهم بأمور عظام وبأن يُنفوا إلى البصرة مقيَّدين؛ وأمر الخليفة أن يُحبسوا في مجلس البصرة، فحُملوا مقيّدين على حمير إلى دار جانب المجلس، وكلمهم بجميل ووعدهم خيراً، وفرّق فيهم أموالاً إلا أنه أسر بذلك. ثم نفذ كتاب بإطلاقهم[878]. وكان كلّما قوي أمر الإماميّة ببغداد وأظهروا الاحتفال بأعيادهم، قابل العبّاسيون السُّنّيون ذلك بنهوض من جانبهم وفعلوا مثل ما يفعله الإماميّة؛ وأكبر من كان يفعل ذلك أهل السُّنّة في باب البصرة[879].

وقرابة عام 350 هـ - 961 م قبض الوزير المُهلَّبي الحازم على كثير من مثيري الفتنة من العبّاسيين وجعلهم في زوارق مطبقة مسمّرة وأنفذهم للحبس في بعض مدن العراق، ثم أُطلق الباقون بعد موت المُهلَّبي[880].

وقد أراد القائد عميد الجيوش في سنة 392 هـ - 1002 م أن يضع حدًّا لهذه العداوة القديمة بين أهل السُّنّة والإماميّة ببغداد، وهي العداوة التي كان المحرّضون المتطرّفون من العلويين والعبّاسيين

يدعون النّاس فيها للقتال والشغب، وكان عميد الجيوش قد أرسل لإخماد الفتنة القائمة، فطلب الثوار من العلويين والعبّاسيين، فكانوا إذا وقعوا أمر أن يُقرن العلوي بالعبّاسي ويغرقا نهاراً بمشهد من النّاس[881]. ثم جاء الوقت الذي يترقبه العلويون بعد طول انتظار؛ فأخذ نجمهم في الصّعود في كل مكان، على حين بدأ أمر العبّاسيين في الضّعف؛ فيقول البِشاري المقدسي في كلامه عن إقليم خُراسان مثلاً: وأولاد علي فيه على غاية الرّفعة، ولاترى به هاشمياً إلا غريباً[882]؛ وهنا نرى القرن الرّابع الهجري قد أوجد الظّروف والموقف الذي نراه الآن، فالعلويّون هم الذين يمثّلون أهل بيت الرّسول. وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين، فأنشأوا دولة علوية في جبال فارس، وفتحوا مكّة بعد منتصف القرن الرّابع، بدلاً من المدينة وجعلوها عاصمة الدّيار المكرّمة، واستطاعوا بدهاء أن يستغلّوا المنافسة الشّديدة القائمة بين القاهرة وبغداد لمصلحة هذا المركز الإمامي الجديد[883].

وكان الحكّام الجدد في الغرب والشّرق وهم الحمدانيون والبُوَيْهيون على مذهب الإماميّة؛ وكان ازدياد التّكريم للنّبي ممّا أسبغ على أبنائه تكريماً كبيراً؛ ويُروى أن كافور الإخشيدي كان يوماً في موكب فسقط منه سوطه؛ فناوله إياه أحدُ الشّرفاء، فقبّل يده شكراً وقال له «نعيتَ إليَّ والله نفسي، فما بعد أن ناولني ولدُ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم سوطي غايةٌ يُتَشَرَّف لها»؛ فمات عن قريب. وفي مطلع القرن الرّابع الهجري كان الإخشيد يخلف أباه على طبريّة، وكان أهلها إماميّة؛ وكان بها أبو الطّيِّب العلوي؛ فكتب الإخشيد لأبيه أنه ليس له أمر ولا نهي مع أبي الطّيِّب.

وكان الإخشيد بعيداً عن كل تحيّز فأحضر عبد الله بن طباطبا والحسين بن طاهر إلى مجلسه، «وكانا لا يفارقانه، هذا حَسَني وهذا حُسَيني، وبينهما عداوة الرّياسة والاختصاص»[884]. والحسين ابن طاهر هو الذي أرسله الإخشيد إلى سيف الدّولة ليفاوضه من أجل الصّلح[885] في عام 327 هـ - 939 م[886]. وكان الحجّ قد تعطّل منذ عام 317 هـ حتى عام 327 هـ لاعتراض القرامطة؛ فكاتبهم أحد العلويين، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحجّ[887]. وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسّطون عادة فيما يقوم من خصومات في بيوت الإماميّة من بني حمدان وبني بُوَيْه؛ وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التّوسط، استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحدّدوا موقفهم بإزاء الفاطميين، وأن ينبذوهم ولا يعدّوهم من أبناء علي الحقيقيين.

وفي عام 403 هـ - 1012 م صدر كتاب من الأمير بهاء الدّولة بأن يضاف إلى الرَّضي الموسوي النّظر في أمور جميع الطّالبيين بجميع البلاد، وجعله نقيب النّقباء، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت[888]؛ وخُلع على الرَّضي السّواد، فكان أول طالبي لبس السّواد على زيّ العبّاسيين[889]؛ وكان في هذا إقرار من جانب ابن عم العبّاسيين الذي كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هُزم.

وأما أبناء الخُلفاء الرّاشدين فلم يلعبوا دوراً هاماً؛ ولما اشتدّ البلاء على أهل مصر من ولاية العُمَري القضاء عليهم خرج جماعة إلى هارون الرّشيد، وشكوا إليه ما يفعله العُمَري فيهم، فقال: انظروا في الدّيوان كم لي من والٍ من ولد عُمر ابن الخطّاب، فكُشف الدّيوان، فلم يوجد غيره فقال: انصرفوا! فو الله لا عزلتُه أبداً[890]؛ ثم خَلَفَه على القضاء البكري من قِبَل الأمين؛ وقد دخل مصر مُقِلًّا، فزرع

زرعاً، فانكسر عليه خَراجُه، وطولب به؛ وكان أحد الكتّاب حاضراً، فعرفه وعرف الحال، فقال: «سبحان الله! ابن صاحب نبيكم والذي قام في مقامه بعده يُطالَب بمثل هذه المطالبة! ما كان عليه فهو عليّ، وهو له علي في كل سنة»[891]. أما اليوم فنرى أبناء أبي بكر وعُمر إلى جانب أبناء النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم هم الذين يتألّف منهم الأشراف بمصر؛ ونرى البكريين منهم بنوع خاص، ويسمّون الصّدّيقيين، يتولّون منذ أوائل القرن التّاسع عشر مناصب روحية تعود عليهم بالخير الوفير[892]. ونرى حوالي عام 400 هـ - 1009 م، العثماني يقيم بنيسابور، وينتسب إلى عثمان بن عفّان»[893]. فهذه هي أهم السّلالات الشّريفة التي نشأت عن الدّين[894].

أما سلائل الأشراف الذين كانوا قبل الإسلام فقد حافظوا على أوضاعهم وتمسّكوا بامتيازاتهم، وذلك في الأجزاء الإقطاعية من جبال فارس وغاباتها وقلاعها؛ «ولديهم تفضيل أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النّعم الأولية؛ وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدّواوين على قديم أيامهم إلى أيامنا»[895]. والغالب عليهم «استعمالُ المروءة في أحوالهم... والنّزاهة عمّا يقبح به الحديث من الأخلاق الدّنيّة، وترك المجاهرة بالفواحش، والمبالغة في تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم». أما إبّان العهد الأموي فلم يستطع الاحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة، بنو المُهلّب بن أبي صُفرة؛ وكان مقرّهم بالبصرة حيث كانت لهم دورٌ حسنة[896]. وقد لعب أحدهم دوراً في ثورة الزّنوج الكبيرة في النّصف الثّاني من القرن الثّالث الهجري[897]؛ ولعله كان يتوقّع في ذلك العهد نهاية دولة بني العبّاس. وتولّى آخرُ من المهالبة وزارة عضد الدّولة حوالي منتصف القرن الرّابع. وقد أراد آل بني الشّوارب القُضاة أن يقيموا بينهم وبين الأمويين وبالتّالي ملوك قُرطُبة والملتان[898] نسباً[899]. وكان لأبناء الدّولة الذين حاربوا لأجل الدّولة العبّاسية وجاؤوا معها من خُراسان إلى بغداد - وكانوا من الأشراف المحاربين الأحرار - شأنٌ قوي في القرن الثّالث الهجري؛ وكانوا يفتخرون بالصّبر تحت ظلال السّيوف وبأنهم فرسان شجعان؛ ولكن حلّ محلهم في القرن الرّابع فرسانٌ من المماليك المعتقين أو غير المعتقين أصلهم من التُّرك والعجم؛ بل نرى أيضاً أن آخر سلالات الطّاهريين، الذين كان بيتهم في القرن الثّالث ثاني بيت في الدّولة الإسلامية بعد بيت الخلافة، قد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم في بلاد بُخارى، ولكنهم لم يحرموا من موهبة الشّعر[900]. وكان هؤلاء السّادة جميعاً يُسمّون في جميع بلاد الشّمال حتى بلاد التُّرك بالمُصطلح الرُّومي البيزنطي: البطارقة[901].

ويروي لنا ابن رُستِه في أواخر القرن الثّالث الهجري – التّاسع الميلادي أحاديث طريفة عن البيوت الكبرى في عصره: فقد كان جدّ الأشعث من أهل فارس إسكافاً؛ وكانت عمّة الأشعث عند رجل من اليهود؛ ولم تخلّف ولداً، فأتى الأشعثُ يطلب ميراثها، فقال له عمر: لا ميراث لأهل ملّتين؛ وأما آل المُهلّب فقد كان أبو صُفرة عجمياً حائكاً؛ وأما آل خالد بن صفوان الأهتمين فإن الأهتم ابن عجلة كانت امرأة أكّار أخذها قيس بن عاصم بن سنان وجماعة من بني منقر أغاروا على الحيرة؛ وآل الجهم كان جدهم عبداً وهرب وادّعى أنه من بني قريش؛ وكان آل أبي دُلَف قوماً من العبّاديين من أهل الحيرة؛ وكانوا جهابذة بها، فخرج جدٌّ لهم يقال له إدريس من الصّيارفة النّصارى؛ والرّبيع الحاجب، وهو رأس أسرة من كبار العُمّال، كان ابن زنى من جارية سوء[902].

الفصل الحادي عشر
الرّقيق

Die Sklaven

كان الرِّق أمراً معروفاً وشائعاً عند اليهود والنّصارى والمسلمين. غير أنّ موقف الكنيسة كان يقف ضدّه بين الحين والآخر؛ وكان أقطابها يبيّنون إن المسيح لا فرق عنده بين حرّ وعبد[903]. وقد حاولت الكنيسة، على الأقل، أن تحارب تجارة الرّقيق، فأنزلت بمن يشتغل بها عقوبة الحرمان[904]. وقد لفت نظر المسلمين أن اليهود والنّصارى لا يجوز لهم أن يتمتعوا بإمائهم[905]، هذا لأن القانون المسيحي في الشّرق كان يعدّ وطء الرّجل أمته زنىً عقابُه المنع من ارتياد الكنيسة؛ ويحق للزّوجة في هذه الحالة أن تبيع الجارية وتبعدها عن البيت، وإذا حملت الجارية من سيّدها المسيحي طفلاً فإنه ينشأ رقيقاً «يحمل عار والده الزّاني»[906]. ويُروى أن الخليفة المنصور، بعد أن استدعى الطّبيب جرجيس ليعالجه من مرضه وشُفي على يديه، أرسل إليه ثلاثاً من الجواري الرُّوميات الحِسان مع ثلاثة آلاف دينار، فأخذ المال وردَّ الجواري؛ فسأله المنصور عن ذلك فقال: «هؤلاء لا يكونون معي في بيت واحد، لأننا نحن معشر النّصارى لا نتزوّج بأكثر من امرأة واحدة، وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها»، فحسُن موقعه من الخليفة[907].

أمّا في الإسلام فإن الابن الذي يولد للمسلم من أمَته يكون حُرًّا[908]، ولا يجوز للرّجل أن يبيع الأمَة أم الولد أو يأخذه عنها؛ ثم هي تصبح حرّة بعد موت زوجها؛ ولا يجوز في الشّرع الإسلامي أن يشترك رجلان في أمَة بوقت واحد[909]. وعلى حين أن القوانين في دولة الرُّوم البيزنطيين كانت تحرّم على غير النّصراني أن يتّخذ رقيقاً من النّصارى[910]، وأن الكنيسة المسيحية كانت في بلاد الإسلام تعاقب بالحرمان من بيع الرّقيق النّصراني لغير النّصارى، فإن الشّريعة الإسلامية لم تحرم على اليهود والنّصارى اتخاذ رقيق من المسلمين[911]. وفي القرن الرّابع الهجري كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا أكبر أسواق الرّقيق الأسود؛ وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذّهب والعبيد من الجنوب؛ وكان الثّمن الجاري للعبد حوالي منتصف القرن الثّاني الهجري مئتي درهم[912]. وقد اشتُري كافور صاحب مصر، وكان عبداً حبشياً، في سنة 312 هـ - 924 م بثمانية عشر ديناراً كما يقال[913]؛ وهذا الثّمن قليل بالنّسبة لكافور لأنه كان خصيًّا؛ وكان يُدفع في ثمن الزّنجي الجيّد بعُمان ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ديناراً[914]. ولما اشترى الوزير الصّاحب بن عَبّاد عبداً نوبياً بأربعمئة دينار استكثر النّاس هذا الثّمن[915]. وقد سِيمت جارية «جميلة حلواء» حوالي عام 300/912 هـ بمئة وخمسين ديناراً[916]. ويقال إن في نساء النّوبة جمالاً فائقاً[917]، وإنه لا أحسن للجِماع منهن وإن الجارية منهن يبلغ ثمنها ثلاثمئة دينار. والزّنجية لا تكاد تنشط لغير

الزّنجي، والزّنجيات يصيبهن العُقم في البلاد الشّمالية[918]. وكان يُستعمل عبيد البيوت السّود بوّابين كما هو الحال اليوم[919].

وطالما أنّ المجتمع كان يهتمّ بالشّعر الجيّد وبالموسيقى الجميلة أكثر ممّا يعنى بغيرهما من أصناف الفن، فقد عَلَت فيه قيمة الغلمان والجواري الموهوبين المتعلّمين. وكان في عهد الرّشيد ببغداد مُغَنٍّ مشهور قد يتفق عنده وجود ثمانين جارية لإخوانه يودعونهنّ عنده لتعليمهن فنّ الغناء[920]. وكانت تُشترى الجارية من هؤلاء بألف دينار إلى ألفين[921]. وقد يحدث أن يكون بيت النَّخّاس مكاناً يُكثر غشيانَه الشّعراء[922]. وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في سنة 306 هـ/ 912 جواريَ، وقليل منهن أحرار[923]. وكان للمشهورات من حُذّاق المغنيات أثمان كبيرة، كما نقدّرهن نحن اليوم؛ فحوالي عام 300 هـ / 912 م اشترى أمير العراق جارية سمراء موصوفة بحُسن الغناء، بثلاثة عشر ألف دينار، وأعطى من دلّه عليها ألف دينار[924]؛ وذُكر[925] في عام 326 هـ - 937 م إن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار، فاستعظم النّاس ذلك.

وكان ثمن العبيد البيض يزيد على ما ذُكر لأنهم أعلى العبيد شأناً؛ فكانت تؤخذ الجارية الحسناء من غير صناعة على جمالها بألف دينار وأكثر[926]. وكانت لأبي بكر الخوارزمي جارية، فطُلبت بعشرة آلاف درهم فلم يَجُدْ بها[927]. وقد ارتفعت أثمان الخدم البيض ارتفاعاً خاصاً حينما خربت الثّغور الغربية في القرن الرّابع، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي للرّقيق، وهو بيزنطة وأرمينية[928]. وممّا زاد في ذلك أن أهل الدّولة الإسلامية من المسلمين وأهل الذِّمَّة لم يكن من الجائز أن يُسْتَرقّوا بوجه من الوجوه القانونية؛ ولم يكن الإجرام سبباً يكفي لحرمانهم من حريتهم كما هو الحال عند غير المسلمين. وكذلك كان يحرّم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم، كما كان الأمر عند اليهود مثلاً؛ فإنهم كانوا، إذا احتاجوا، باعوا بناتهم الصّغيرات غير البالغات[929]. وقد حدثت فتنة في مصر في القرن الثّالث الهجري، فقُبض على بعض النّصارى المصريين وبيعوا في دمشق كما يباع الرّقيق؛ فأثار هذا العمل أكبر السّخط، لأنّه فعلٌ يخالف الشّريعة.

القضيّة أنّه كان يوجد بين المسلمين بعضٌ من شرار الفرق يعدّون أنفسهم خيار المسلمين، ويعدّون جميع من خالفهم أهلاً للحرمان من الحقوق الشّرعية؛ ومن هذه الفرق الضّالة فرقةُ القرامطة الذين عظم شأنهم في القرن الرّابع، فقد أحلّوا استرقاق من يقع في أيديهم من الأسرى؛ فسرعان ما صار الكثيرون من الآمنين المسالمين من أهل الشّام وجزيرة العرب والعراق أرقّاء في أيديهم؛ وقد اعترض القرامطة قافلة الحاج عام 312 هـ - 924 م، فأسروا من الرِّجال ألفين، ومن النّساء نحو خمسمئة وساروا بهم إلى هَجَر عاصمة القرامطة؛ وكان الأزهري اللّغوي الأديب (توفي عام 370 هـ - 980 م) من ضمن الأسرى، ووقع في سهم قوم من العرب الذين نشأوا بالبادية؛ وقد بقي في أسرهم دهراً طويلاً (قيل سنتين) واستفاد من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمّة، ونوادر كثيرة أورد أكثرها في كتابه[930].

أما في سائر الدّولة الإسلامية فقد اقتصر المسلمون في العبيد البيض على التُّرك وعلى الصَّقالبة، وهم الجنس الذي لا يُعدّ ولا يُحصى، والذي اشتقّ منه الاسم الذي أطلق على الرّقيق في أوروبا: die Sklaven. وكان الصَّقالبة يُقدَّمون على التُّرك، حتى قال الخوارزمي: «ويُستخدم التُّركي عند

غيبة الصُّقلبي[931]. وأكثر ما كان يُجلب من بلغار، وهي قصبة على نهر إتِل، رقيق كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون[932]، وكانت سَمَرقند أكبر سوق لهم، وهي مشهورة بأنّ خير رقيق ما وراء النّهر ما كان من تربيتها[933]؛ وكانت بلدهم لذلك مشهورة بأنها مركز للتّقويم والتّهذيب، وكان أهلها يحترفون من ذلك صناعة يتعيّشون منها كما هو الحال اليوم في جُنيف ولوزان.

أما الدّرب الثّاني الذي كان يأتي منه رقيق الصَّقالبة، فقد كان يخترق ألمانيا إلى الأندلس وإلى الموانيء البحريّة بإيطاليا وفرنسا[934]. وكان أغلب تجّار الرّقيق في أوروپا من اليهود، وكان الرّقيق يُجلب كله تقريباً من الشّرق الأوروپي، كما هو الحال اليوم في تجارة النّساء[935]. ومن الجليّ أن استقرار جاليات يهودية في مدن مقاطعة ساكسونيا الشّرقية Ostsachsen مثل مدينة ماغديبورغ Magdeburg ومِرزيبورغ Merseburg كان راجعاً إلى تجارة الرّقيق[936]. وكان اليهود في أثناء نقلهم للرّقيق يدفعون ضرائب جسيمة، وذلك في ألمانيا على الأقل، فكان قانون الجمارك في مدينة كوبْلِنتْس Koblenz مثلاً يقضي بأن يُدفع عن كل رأس من الرّقيق أربعة دنانير[937] (انظر كارو Caro, I, 192). وكان أسقف مدينة خُور Chur بسويسرا يفرض على الرّأس دينارين يُدفعان في جُمرُك مدينة الِنْشتات[938] Wallenstadt.

والطريق الثّالث لتجارة الرّقيق يسير من بلاد الرّقيق في الغرب – وكانت هذه البلاد بسبب حروبها مع الألمان وفيرة الإنتاج لهذه البضاعة البشريّة - ويتجه نحو الشّرق رأساً ماراً بمدينة پراغ Prague ثم پولونيا وروسيا. وهذا الطّريق الذي اتبعه الرِّابي پتاخيا في القرن السّادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)؛ وكانت مدينة پراغ هي أول هذا الطّريق لأنها كانت مركزاً لتجارة الرّقيق في بين القرن الرّابع والقرن الرّابع عشر الميلادي. وقد اضطر القدّيس أدالبِرت Adalbert أسقف مدينة پراغ سنة 989 م إلى اعتزال منصبه الأسقفي، لأنه لم يستطع أن يعتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي[939].

وكان في المدن سوق للرّقيق يُوكل الإشراف عليه لموظف خاص. وقد وصلنا وصف سوق الرّقيق التي بنيت في مدينة سامُرَّا في القرن الثّالث الهجري؛ فهي سوق في مربعة، فيها طرق متشعّبة، وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرّقيق؛ وكان بيع الرّقيق الجيد في السّوق العام بمثابة عقوبة تحطّ من قدره[940]؛ والأولى أن يُباع في منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير؛ وكان تاجر الرّقيق موضع تشنيع، مثله مثل تاجر الخيل في أيامنا؛ وكان صاحب شرطة مصر يصعد المنبر ويشتم أحد القواد فيقول: «النَّخّاس الكذاب»[941]. يذكر ابن عبدون في رسالة له عن الرّقيق: «فكم من سمراء كَمِدة بيعت بصفراء مُذهبة، وممسوح العجز بثقيل الرّوادف، وبطين بمجدول الحشا؛ وكم من مرّة جعلوا العيْن الزّرقاء كحلاء، وحمَّروا الخدود المصفرّة، وسمنوا الوجوه المقعقعة، وأعدموا الخدود شعر اللّحا، وأكسبوا الشّعور الشّقْر حالك السّواد، وجعَّدوا الشّعور السّبطة، وأذهبوا آثار الوشم والجُدري والنَّمَش والحكة». ولذلك يجب على الإنسان أن يكون على حذر من شراء الرّقيق في المواسم، ففي مثل هذه الأسواق تتم للنّخاسين الحيَل، حتى يبيعوا الغلام بالجارية؛ سمعنا بعض النّخاسين يقول: ربع درهم حِنَّا يزيد ثمن الجارية مئة درهم فضّة».

ومن عادة النّخّاسين أن يطوِّلوا الشَعور بأن يصلوا في طرفها من جنسها، وأن يزيلوا روائح الأنف بالسّعوط، وأن يجلوا الأسنان بالسّواك بالأشنان والمسكر ومسحوق الصّيني أو الفحم أو الملح المدقوق. ومن وصايا النّخاسين للجواري أن يتبرَّجن للمشتري، وأن يدارين المشايخ والنّافري الطّباع ويستمِلْنهم، ويتجنّبن الشّباب، ويمتنّعن عليهم ليتمكنَّ من قلوبهم. وكان الجواري يخضبن أطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر، وإن كانت صفراء بالأسود، «ويجرون الصّناعة مجرى الطّبيعة في كشف الضّدِّ بالضّدِّ».

هذه النّصوص من رسالة لابن بُطلان الطّبيب النّصراني المشهور الذي عاش في النّصف الأول من القرن الخامس الهجري[942]. ونجد في هذه الرّسالة إلى جانب النّاحية النّظرية كثيراً من التّجارب القديمة النّافعة في شراء الرّقيق: «فالهنديات لهنّ حُسن القوام، ولين نعمة؛ لكن الشّيخوخة تسرع إليهنّ... وهن يصلحن للولد، ورجالُهم لحفظ النّفوس والأموال، وعمل الصّنائع الدّقيقة. غير أنّ النّزلات يُسرع إليهم... والقندهاريات في معنى الهنديات، ولهن فضيلة على كل النّساء، فإن الثّيّب منهن تعود كالبكر. والسِّنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشّعور، والمدنيَّات سمر الألوان معتدلات القوام، قد اجتمع فيهن حلاوةُ القول، ونعمة الجسم، وملاحة دلّ وحُسن شكل وبِشر؛ لا غيرة فيهن على الرّجال؛ قنواعات بالقليل، لا يغضبْن ولا يصخبْن، ويصلحْن للقيان... والمكّيّات خنثات مؤنثات ليِّنات الأرساغ، وعيونهن مِراض فاترة؛ والطّائفيات سُمر مُذهبات مجدولات، وأحسنهم فكاهة ومزاحاً؛ لسن بأمهات أولاد، يكسلْن في الحبل، ويهلكن عند الولادة... والبربريات مطبوعاتٌ على الطّاعة نشيطات للخدمة ويصلحْن للتّوليد؛ ويقول أبو عثمان وهو من سماسرة هذا الشّأن: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تُجْلَب، وهي بنت تسع حجيج، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وبمكّة ثلاث حجج؛ ثم جاءت إلى العراق ابنةِ خمسة عشر عاماً، فتأدبت بالعراق، وكانت ابنة خمسة وعشرين، فجَمَعَتْ إلى جودة الجنس شكلَ المدنيات وخنث المكّيات وآداب العراقيات. والزّنجيات مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن وتحددت أسنانهن، وقلَّ الانتفاع بهن؛ والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب، والرُّقص والإيقاعُ فطرةٌ لهن[943]؛ ويقال: لو وقع الزّنجي من السّماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع. وهم أنقى النّاس ثغوراً لكثرة الرّيق، وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن؛ أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها، يتعاهدهن السّل والدّق؛ لا يصلحن للغناء ولا للرّقص؛ رقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها؛ يصلحن للائتمان على النّفوس؛ يخصّهن قوةُ النّفوس وضعف الأجسام. والبجاويات مذهبات الألوان، حسنات الوجوه، مُلْس الأجسام، ناعمات البشرة؛ إن جُلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن يُنَكَّل بها - لأنهن يُقَوَّرن ويُمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم. والشّجاعة والسّرقة في رجال البجَّة (بلادهم بين الحبشة والنّوبة) طبع وغزيرة؛ ولهذا لا يؤمّنون على مال، ولا يصلحون أن يكونوا خُزَّاناً. والنّوبيات من جُملة أجناس السّودان، ذوات ترف ولُطف، وهواء مصر يوافقهن؛ لأن ماء النّيل شربهن في بلادهن، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العللُ الدّموية. والتُّركيات قد جمعن الحسن والبياض والنّعمة؛ وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة[944]؛ وقدودهن ما بين الرّبْع والقصير، والطّول فيهن قليل، وهن كنوز الأولاد ومعادن النّسل، قلَّ ما يتفق في أولادهن وحش ولا رديّ التّركيب. والرُّوميات بيض شُقر، سباط الشّعور، زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة، يصلحن للخزن لضبطهن وقلّة سماحتهن، ولايخلو أن يكنَّ يألفن صنائع دقيقة. أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خُصّوا به من وحشة الأرجل مع صحّة بنية

وشدّة أسْر، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة، والسّرقة فيهن فاشية وقل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غِلظ طبع ولفظ، متى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يَدْعُه خاطره إلى خير، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة؛ والواحد منهم إذا رأيته كسلان فليس ذلك عن عجز قوة، بل دونك والعصا؛ وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر؛ ونساؤهم لا يصلحن لمتعة، ومُجمل الأمر أن الأرمن أشرّ البيضان كما أن الزّنج أشر السّودان.

والعادة قد جرت منذ القرن الأول للإسلام بألّا يسمّى العبيد عبيداً، بل يسمّى العبد فتىً والأمَةُ فتاةً، وقد نُسب هذا كما نُسب كثير غيره - إلى أمر النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم. وكان من التّقوى وشرف النّفس ألا يضرب الرَّجل عبْدَه؛ ويُروى عن النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «شرُّ النّاس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده». وهذا الشّعور نبيل عبَّر عنه الليث السَّمَرقندي (توفي سنة 387 هـ - 997 م) بروايته هذا الحديث[945]. وفي القرن الرّابع الهجري اتخذ البعضُ من قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} نقداً يوجِّهونه لمن يضرب عبده، وكذلك قال الشّاعر:

وكن لخِلّك عبدا فكن لعبدك خِلّا

وجاء في وصف رجل من أشراف اليمن وذِكْر جميل خصاله (حوالي عام 500هـ - 1106 م) أنه لم يكن يضرب مملوكا أبداً[946]. وقد حدث في أول عهد الأمويين أنّ امرأة من حِمْيَر كانت بمصر جدعت أنف أمَة لها، فقضى قاضي مصر بعتقها، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويربّونها[947].

وكان قانون الكنيسة المسيحية في الشّرق يهدّد بعقوبة الحرمان من يُكره جاريته على البُغاء. وذلك بأن يدفعها إليه مباشرةً، أو أن يمتنع عن إعالتها[948]. وكانت دور البغايا في بلاد الإسلام قوامها الجواري المملوكات؛ وتدل على هذا حكايات كثيرة؛ ولكن كتب الفقه لم تتعرّض لهذه المسألة؛ لأنّ الفقهاء يعدّون الزّنا محرَّماً بالكلّيّة، أما رجال الكنيسة فد احتفظوا في هذه المسألة بشيء من الصّراحة السّالفة. غير أنّه جاء في القرآن الحضُّ على تزويج الأيامى والإماء؛ قال تعالى: {وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} [949]. وكان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرّقيق؛ وهو أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حرّيته بدفع قدر من المال؛ وللعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده؛ فيحدّثنا المسعودي مثلاً عن عبدِ خيَّاط كان عليه لمولاه ضريبةٌ قدرُها درهمان يدفعها له كل يوم، ويتصرّف بعدها في حوائجه بما يبقى[950]. وكذلك كان من البِرّ والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم. وفي القرن الثّالث الهجري أوصى الخليفة المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه[951]. وقد أخذ هذا الخليفة أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة دموية فأمر ألا يُفرّق بين أفراد العائلات[952] التي وقعت في الأسر.

وقد تمتّع بعض الجواري وأظهرن النّعمة؛ فيُروى عن جارية لأحد كبار العُمّال الأغنياء بمصر أنها كانت تجلس في الشُّبّاك، وحولها الجواري قائمات بالمذبّات[953]. ويُروى أن ابن سمعون الواعظ

ذكر الحلواء وهو على كرسيِّه في ليلة النّصف من رمضان، وكان بين الحاضرين جارية لتاجر مشهور بكثرة المال؛ فلما أمسى أتاه غلام ومعه خمسمئة خشكنانكة في داخل كل منها دينار، فحمل الدّنانير بنفسه إلى التّاجر؛ فقال له التّاجر: إن الدّنانير وضعت بحضرته وبرضاه[954].

وكان بعض الغلمان يملكون قلوب سادتهم، وذلك لميل الشّرقي إلى مَن يجمع بين الجَمال والفطنة؛ وعندنا قصيدة للشّاعر سعيد بن هشام الخالدي في وصف غلام له[955]:

خوَّلنيه المهيمنُ الصَّمد	ما هو عبدٌ لكنه ولد
والتفاح والجلّنار منتضدُ	وورد خدَّيه والشّقائق
فهو ماء النّعيم مطَّرد	رياض حسن زواهر أبداً
جوهرُ حسن شرارُه يقدُ	ظريف مزح مليح نادرة
فليس شيء لديّ يُفتَقَدُ	خازن ما في دارى وحافظه
وبذّرت فهو مقتصدُ	ومنفق مشفق إذا أسرفت
وهو على أن يزيد مجتهدُ	ويعرف الشّعر مثل معرفتي
المعاني الرّقاق منتقدُ	وصيرفيّ القريض وزّان دنانير
يطوي ثيابي فكلها جددُ	يصون كتبي فكلها حسن
وإن تنمَّرت فهو مرتعدُ	إذا ابتسمت فهو مبتهج
له صفاتٌ لم يَحْوِها أحدُ	ذا بعض أوصافه وقد بقيت

وأضحى هذا العبد لتوفير جميع الخصال الحسنة فيه مثالاً مذكوراً بين الأدباء[956]. وقد ذكر الشّاعر كُشاجم (توفي عام 330 هـ - 941 م) غلامه بشراً بما يؤثر في القارىء[957].

ونار كَيْس أطفأتها المنونْ	أيُّ حراك غال منك السّكونْ
بمثل ما صرت إليه رهينْ	يا بشر إن تودَ فكل امرئ
عناية تعجز عنهَا القيونْ	من لدواة كنتَ تُغنى بها
أسرع ممّا تمتلي في الجفونْ	أم من لكتب كنت في طيها
واللصق في الإلصاق لا يستبينْ	يطوي الطّوامير بلا كلفة
مذاقَها فالغث فيها سمينْ	طاهي قدور طيّبت كفُّه
ويا أميني إذ يخون الأمينْ	يا ناصحي إذ ليس لي ناصح

وأرسل أبو العلاء رسالة لصديق له فأهدى السَّلام فيه لغلامه مُقبِل وقال: «فهو وإن اسودّت بُردته آثرُ عندنا من أبيض لا تَصْدُق مودتهُ»[958].

وأرقى العبيد مكانة حملة السّلاح منهم؛ وذلك لأن منهم من كانوا قواداً كباراً مثل مؤنس وجوهر؛ بل منهم من كان حاكما مثل كافور بمصر وسَبُكتكين Sebük Tegin في بلاد الأفغان. ومنذ عهد العبّاسيين الأولين نرى عبداً تركياً يتولّى إمارة مصر، ولي الإمارة من سنة 162-164 هـ /779-781 وكان أبو جعفر المنصور إذ ذكره قال: «هو رجل يخافني ولا يخاف الله»[959]؛ هذا إذا صرفنا النّظر عن بعض الغلمان الذين كان لهم سلطان عظيم على سادتهم؛ لأن هؤلاء كانوا يقتتونهم للاستهتار بهم.

وكانت ذهنيّة ذلك العهد توازي ما كان في فرنسا، حيث نرى الأرقّاء المُعتقين قد بلغوا أكبر مكان من الرِّفعة، وأطاعهم الأحرارُ؛ وكان الكثيرون ممّن تولّوا القيادة في الجيوش وحُكْمَ الولايات وحراسةَ المَلكِ عبيداً من قبل[960]، ولكن لم ينجح المعتقون في أن يتفوّقوا على الأحرار في الشّرق مدّة طويلة إلا نادراً؛ وذلك بخلاف ما نجده في أوروبا بالنّسبة لمن كانوا في مركز المَوالي؛ ويرجع ذلك إلى أن بقاء الرّقّ في الشّرق دون زوال التّمايز بين الأحرار والعبيد.

ولكن الرّأي العام كان مُجحفاً بحقوق الأرقّاء بالإجمال؛ ومن الأمثال السّائرة أن العبد إذا جاع نام وإذا شبع زنى، ويقول المُتنبّي[961]:

فلا تَرجِّ الخيرَ عند امرئٍ

مرَّت يدُ النَّخَّاس في رأسِهِ

وكذلك هوميروس Ὅμηρος يقول: «تبصَّرْ، إن زيوس، مدبّر هذا العالم، يسلب الرّجل الذي طلعت عليه شمسُ العبودية نصفَ رجولته»[962]. وعلى الرّغم من كل الظّروف والضّمانات القانونية والمكانة الحسنة التي يتمتّع بها رقيق البيوت في الشّرق اليوم، فلا ينبغي أن نصوّر مركز الرّقيق عند المسلمين في العصور الوسطى تصويراً يزيده بهاءً؛ وكانت سائر ولايات الإسلام في القرن الرّابع غاصَّةً بالعبيد الأبَّاق؛ وكان من أول ما يُؤمر به ولاة النّواحي في كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد الآبقين ويحبسوهم ويسلموهم لمواليهم إن استطاعوا[963]. وكان لنازوك صاحب الشّرطة ببغداد غلامٌ، فطرده، فلم يجد جهة يلجأ إليها، فذهب لرجل صالح يكتب كُتُبَ العطف ليكتب له ما يستعيد به عطف سيده»[964].

وكان معظم العبيد الأُبَّاق ممّن يشتغلون بالزّراعة وكذلك كان جيش الثّورة الوحيدة الخطرة التي قام بها العبيد في القرن الثّالث الهجري مؤلفاً من الزّنوج الذين يكسحون السِّباخ، حتى يصلوا إلى التّربة ويعمروها؛ وكانت «كسوح الزّنوج معروفة بالبصرة كالجبال، وكان في أنهار البصرة منهم عشرات ألوف يعذّبون بهذه الخدمة»[965].

الفصل الثاني عشر
العلماء

Die Gelehrten

في القرن الثّالث الهجري تحوّل الأدباء الذين نشأوا حول الخُلفاء وفي قصورهم وتعلّموا الأدب على تقاليد الفروسية، إلى صنف جديد من الأدباء، يلمّون بكل شيء، ويشبهون في عصرنا الكتّاب الصّحفيين غير المتخصّصين الذين يناقشون مختلف القضايا. ولهذا نرى العلماء يفرّقون بين أنفسهم وبين الأدباء: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً؛ ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع في العلوم»[966]. ولقد ندّت من قلب فنون الآداب القديمة مجموعةٌ من العلوم الدّنيوية؛ ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما يمتاز بمنهج علمي وأسلوب علمي غير الفلسفة وعلم الكلام؛ ثم صار لكل من التّاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص. وترك العلماء ما كانوا اعتادوه سابقاً من اتخاذ المعارف وسيلة للتّسلية؛ كما أنهم أصبحوا لا يتمادون في تكديس المعارف على تنوعها، بل توجّهوا إلى الدّراسة العملية وتنظيم المعارف، وباتوا مدركين لما ينبغي لهم من عناية وجهد في تدوينها. ولذلك تراهم عمدوا إلى إيجاز مقدّمات كتبهم إيجازاً كبيراً، ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن النَّديم صاحب الفِهْرِسْت في خُطبة كتابه عام 377 هـ - 987 م: ربِّ يسِّر برحمتك! النّفوس تشرئبّ إلى النّتائج دون المقدّمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التّطويل في العبارات؛ فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا، إذ كانت دالّة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله؛ فنقول، وبالله نستعين وإياه نسأل الصّلاة على جميع أنبيائه وعباده المخلصين في طاعته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...». ومن التّغيرات الأخرى أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدّين، وأصبح العلماء فريقين: الفقهاء، والعلماء على الحقيقة. وكانت غالبية طلبة العلم المتكسّبين يقصدون الفقهاء، لأن الفقهاء هم حملة علوم الشّريعة والعبادات، فكان لا بدّ لمن يريد تولي القضاء والخطابة في المساجد من التّتلمذ عليهم. يقول الجاحظ في نص مشهور له: «وقد تجد الرّجل يطلب الآثار وتأويلَ القرآن، خمسين عاماً، وهو لا يُعدّ فقيها، ولا يُجعل قاضياً؛ فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشّروط في مقدار سنة أو سنتين؛ وبالحريّ ألا يمرّ عليه من الأيام إلا اليسير، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان»[967].

وكان نهوضُ علم الكلام بعد أن تحرّر من قيود علم الفقه، وكذلك ظهور الأفكار الجديدة في ذلك العصر ممّا رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الاحترام والتّقدير؛ يقول المُطهَّر المقدسي حوالي عام 355 هـ - 966 م: «ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا المتجرِّد له بكلّيته ومتوفِّر عليه بأنّيتّه، مُعانٍ له بالقريحة الثّاقبة والرّوية الصّافية، مقترناً به التّأييد والتّسديد؛ قد شمّر ذيلَه، وأسهر ليله حليف النَّصب ضجيع التّعب، يأخذ مأخذه متدرّجاً ويتلقاه متطرَّفا؛ لا يظلم العلم بالتّعسف والاقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظّلام، ومع هجران عادة الشّر، والنّزوع

عن نزاع الطبع، ومجانبة الإلْف ونبذ المحاكلة واللجاجة، وإجالة الرّأي عند غموض الحق، والتّأتي بلطيف المأتى، وتوفية النّظر حقه من التّمييز بين المشتبه والمتّضح، والتّفريق بين التّمويه والتّحقيق، والوقوف عند مبلغ العقول، فعند ذلك إصابة المراد ومصادفة المرتاد»[968].

وكان المشتغل بالعلوم الدّنيوية يسمّى كاتباً، ويتميّز عن العلماء بشكل ملبسه، فكان العلماء يلبسون الطّيلسان، وكانوا في خُراسان يظهرون متطلّسين متحّنكين؛ وكانت فارس مركز الكتّاب، وكانوا في مدينة شيراز يُرفعون عن العلماء[969]. ولكن خُراسان كانت جنّة العلماء، ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لهما في سائر البلاد. ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزُّهّاد دخل خُراسان، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به. وكان يُخرج من كل بلد أصحابُ البضائع بضائعَهم، وينثرونها، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك، وهو ينهاهم، حتى وصلوا إلى الأساكفة، فجعلوا ينثرون المتاعات وهي تقع على رؤوس النّاس؛ وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن وألقينها إليه، وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة[970].

وكان في كل جامع كبير مكتبة، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع[971]. ويقال: إن خزانة الكتب بمرو كانت تحوي كتب يزدجرد لأنه حملها إليها وتركها[972]. وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثّلاثة الكبار بمصر وقُرطُبة وبغداد في أواخر القرن الرّابع ولعٌ شديد بالكتب؛ فكان الحَكَم صاحب الأندلس يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها؛ وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كرّاسة، كل منها عشرون ورقة، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. أما في مصر فكانت للخليفة العزيز بالله (توفي عام 386 هـ - 996 م) خزانة كتب كبيرة؛ وقد ذُكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد، فأمر خُزَّان دفاتره، فأخرجوا من خزائنه نيِّفا وثلاثين نسخة، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد؛ وحمل إليه رجلٌ نسخة من تاريخ الطّبري اشتراها بمئة دينار؛ فأمر العزيز الخُزّان، فأخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه. وذُكر عنده كتاب الجمهرة لابن دُرَيد، فأخرج من الخزانة مئة نسخة منه[973]. وقد أراد المتأخرون أن يقدّروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة، فيقول المقريزي إنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمئة ألف كتاب (أي مليون و600 ألف). وقال ابن الطّوير إن خزانة الكتب كانت تحتوي على عدة رفوف، والرّفوف مقطّعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصّلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مئتي ألف كتاب[974].

ولنعدّد ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة: كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كونستانتس Konstanz في با□اريا Bayern العليا بالقرن التّاسع الميلادي ثلاثمئة وستة وخمسون كتاباً، وفي مكتبة دير البندكتيين عام 1030 م ما يزيد على المئة بقليل، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبِرغ Bamberg سنة 1130 م ستة وتسعون كتاباً فقط[975]. وقد أطْلَع رئيس الفرّاشين البِشاري المقدسي على خزانة الكتب التي كانت في دار عضد الدّولة؛ والمقدسي يصفها بأنها «حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف؛ ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدّولة من أنواع العلوم إلا وحصَّله فيها. وهي أزج طويل في صفّة كبيرة، فيه خزائن من كل وجه.

وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدّفاتر منضدة على الرّفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب، ولا يدخلها إلا كل وجيه»[976].

وكان أكبر عشّاق الكتب المولعين بها ولعاً شديداً في القرن الثّالث الهجري الجاحظ، وكثيراً ما يذكر بذلك؛ والفتح بن خاقان؛ وإسماعيل ابن إسحاق القاضي. فأمّا الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنّظر؛ وقد حكى بعض المؤرّخين المتأخّرين أنه مات في حبّ الكتب، فقد روي أنه مات بوقوع مجلّد عليه؛ وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به، وهو جالس عليها، وكان عليلاً فسقطت عليه فقتلته[977].

وأمّا الفتح بن خاقان، وكان من كبار رجال دار الخلافة، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكّل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كُمّه أو خفّه وقرأه في مجلس المتوكّل إلى عوده إليه. وأما إسماعيل بن إسحاق فإني ما دخلتُ عليه الا رأيته ينظر في كتاب أو يقلّب كتباً[978]. ويقول ابن النَّديم: «وفي سنة 275 هـ - 888 م توفي السِّجِستاني المُحدِّث، وكان له كُمّ واسع وكُمّ ضيّق، فقيل له في ذلك، فقال: الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه»[979].

أمّا عليّ بن يحيى المُنجِّم، فقد أنشأ حوالي منتصف القرن الثّالث الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته، وسمّاها خزانة الحكمة؛ وكان يقصدها النّاس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلّمون منها صنوف العلم. فقدم أبو معشر المُنجِّم من خُراسان يريد الحج، فمضى ورآها، وهاله أمرُها؛ «فأقام بها وأضرب عن الحجّ»[980].

وفي سنة 272 هـ - 885 م توفّي أحد علماء أصفهان وكبار أصحاب الضّياع فيها، ويقال إنه أنفق في شراء كتبه ثلاثمئة ألف درهم[981]. وفي سنة 312 هـ - 924 م توفي حاجب بلاط بغداد وخلّف كتباً بأكثر من ألفي دينار[982]. وفي سنة 357 هـ - 967 م صودر ابن مُعزّ الدّولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد، فكان من جُملة ما أخذ منه سبعة عشر ألف مجلّد سوى الأجزاء وما ليس بمجلّد[983]. وفي سنة 355 هـ - 965 م نهب قوم من الغزاة دار الوزير أبي الفضل ابن العميد بالرِّيَّ؛ فلمّا انصرف إلى داره ليلاً لم يجد فيها ما يجلس عليه، ولا كُوزاً واحدا يشرب فيه؛ وكان ابن مسكويه المؤرّخ في ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد؛ وهو يقصّ علينا القصّة، فيقول: «فأنفذ إليه أبو حمزة العلوي فرشاً وآلة، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره، ولم يكن شيء أعزّ عليه منها، وكانت كثيرة، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، يُحمل على مئة وقر، فلما رآني سألني عنها فقلت: هي بحالها لم تمسسْها يد، فسُرِّي عنه، ووقال: أشهد أنك ميمون النّقيبة؛ أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها؛ ورأيته قد أسفر وجهه، وقال: باكِرْ بها غداً إلى الموضع الفلاني ففعلت، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله». وقد استدعى السُّلطانُ السّاماني الصَّاحب بن عَبّاد (توفي 384 هـ - 994 م) ليوليّه وزارته، فكان ممّا اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله، وأنّ عنده من كتب العلم خاصّة ما يُحمل على أربعمئة بَعير أو أكثر، وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلّدات، ولما ورد السُّلطان محمود الرِّيّ استخرج من بيت كتب

الصّاحب كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه، وكذلك لم يلقَ البيروني من قبل ولا الفردوسي من السُّلطان محمود دور المشجّع أو الحامي[984].

وكان القاضي أبو المطرف (توفي عام 420 هـ - 1011 م) قاضي الجماعة بقُرطُبة؛ وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً؛ وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من النّاس طلبه ليشتريه منه وبالغ في ثمنه؛ وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتّة، وإذا سأله أحدٌ ذلك وألحف عليه أعطاه للنّاسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير. ويُروى أن أهل قُرطُبة اجتمعوا لبيع كتبه عاماً كاملاً في مسجده، واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار[985].

ولمّا عزم البرقاني العالم البغدادي (توفي عام 425 هـ / 1033 م) على أن ينتقل احتاج إلى 63 من الأعدال، وإلى صندوقين ليحمل فيها كتبه عند انتقاله[986].

ومن قبل كان المانوية قد أظهروا عناية كبيرة بزخرفة كتبهم، ففي سنة 311 هـ - 923 م أُحرقت على باب العامّة ببغداد صورةُ ماني، وأربعة أعدال من كتب الزّنادقة، فسقط منها ذهب وفضّة ممّا كان على هذه الكتب. وقد قلّد أصحاب الحلّاج الذي قتل عام 310 هـ - 921 م المانوية في زخرفة الكتب، فكانت كتبهم تُكتب على ورق صيني، وبعضها يكتب بماء الذّهب ويبطّن بالدّيباج والحرير، ويجلّد بالأدم الجيد[987]. وكانت الكتب التي يرسلها ملك الرُّوم مزخرفة؛ ففي سنة 326 هـ937 م وصل كتاب ملك الرُّوم إلى الخليفة، وكانت الكتابة بالرُّومية بالذّهب والتّرجمة بالعربية بالفضّة[988]. وبعد ذلك ورد على الخليفة بقُرطُبة كتابٌ، وكان في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذّهب. وكان الكتاب بداخل درج فضّة منقوش، عليه غطاء ذهب فيه صورة الملك معمولة من الزّجاج الملون البديع، وكان الدّرج داخل جعبة ملبَّسة بالدّيباج[989]. وكانت أشعار الخليفة المُعتمِد مكتوبة بالذّهب[990]. ولما تولّى قاضي القُضاة عبد الجبّار منصبه، كان الوزير ابن عَبّاد (توفي عام 386 هـ - 996 م) هو الذي أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته، ويقال إنه كان سبعمئة سطر كل سطر في ورقة سَمَرقندي، وله غلاف أبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة؛ وقد أُهدي هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام المُلك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخطّ أحد الكتاب المجوّدين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه اختلافَ القرّاء بين سطوره بالحُمرة، وتفسير غريبه بالخُضرة، وكتب بالذّهب علامات على الآيات[991]. وكان أكبر ما يُعنى به عشاق الكتب، الكتب التي كتبها كبار الخطّاطين والتي لأصحابها في النّسخ أصل منسوب. غير أنّه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسّسات علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتّعليم، أوعلى الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها؛ فيُروى عن ابن حمدان الموصلي (توفي عام 323 هـ - 935 م) أنه أسّس داراً للعلم في بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعلم، لا يُمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان معسراً، أعطاه ورَقاً وورقاً؛ وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه النّاس فيُملي عليهم من شعره وشعر غيره، ثم يملي حكَايات مستطابة وطُرفاً من الفقه وما يتعلّق به[992].

هذا وقد عمل القاضي ابن حبّان (توفي عام 354 هـ - 965 م) في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق؛ ولم تكن الكتب تُعار خارج

الخزانة[993]. وقد أنشأ أبو علي بن سوّار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدّولة (توفي عام 372 هـ - 982 م) دار كتب في مدينة رام هُرمُز على ساحل الخليج العربي، كما بنى داراً أخرى بالبصرة، وجعل فيهما إجراءً على من قصدهما ولزم القراءة والنّسخ فيهما، وكان في الأولى منهما أبداً شيخٌ يُدْرس عليه علم الكلام على مذهب المُعتزلة[994]. وفي سنة 383 هـ أسّس سابور بن أردشير وزير بني بُوَيْه داراً للعلم غربي بغداد، ونقل إلَيها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها؛ وكان بها مئة نسخة من القرآن بأيدي بني مُقْلة، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمئة مجلّد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون؛ وردّ النَّظر في أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القُضاة[995].

وكذلك اتّخذ الشّريف الرَّضي (توفي عام 406 هـ - 1015 م) نقيب العلويين والشّاعر المشهور داراً سمّاها دار العلم، وفتحها لطلبة العلم، وعيَّن لهم جميع ما يحتاجون إليه (ديوانه، طبعة بيروت 1307 هـ، ج 1 ص 3). ويدلّ مجرّد اسم هذه المؤسّسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة؛ فكانت دار الكتب قديماً تسمّى خزانة الحكمة، وهي خزانة كتب ليس غير؛ أما المؤسّسات الجديدة فتسمّى دور العلم، وخزانة الكتب جزء منها.

وقد أنشئت في مصر أيضاً مثل هذه الدّور؛ فقد اشترى العزيز بالله في سنة 378هـ - 988 م داراً إلى جانب الجامع الأزهر، وجعلها لخمس وثلاثين من العلماء. وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد في كل يوم جمعة بعد الصّلاة حتى صلاة العصر. فجامعة الأزهر التي هي أكبر معهد علمي إسلامي اليوم نشأت في القرن الرّابع الهجري. وكان الوزير ابن كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقرّ بهم وأسّس مدرسة خاصّة به؛ وكان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين[996]. ثم ولي الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح في سنة 395 هـ الدّار الملقّبة بدار العلم[997] بالقاهرة، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل سائرُ النّاس إليها يقرءون وينسخون، ورُتّب فيها قوم يدرسون للنّاس العلوم[998]. وكان في هذه الدّار ما يحتاج النّاس إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق؛ وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدّار، فكان ينفق عليها في كل سنة 257 ديناراً. فمن ذلك:

للورق 90 ديناراً»

للخازن 48»

للفراشين 15»

للناظرين في الورق والحبر والأقلام 12»

لمرمّة الكتب 12»

ثمن الماء 12»

ثمن الحصر العبداني 10 دنانير»

ثمن لبود للفرش في الشّتاء 5»

ثمن طنافس في الشّتاء 4»

لمرمّة السّتارة 1 دينار»

وقد بقيت هذه الدّار إلى أن ألغاها الأفضل؛ لأنه اجتمع بها فريق من العلماء، فاستفسد بعضهم عقولَ جماعة، وأخرجهم عن الصّواب. وكانت معظم دروس الفقه والكلام تُعطى في المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرّس. وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة في المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن؛ وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النّداء: دوِّروا وجوهكم إلى المجلس[999]. وقد أحصى البِشاري المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مئة وعشرة مجلساً من مجالس العلم. وكان جامع المنصور ببغداد، وهو أقدم مسجد جامع بها، أشهر مركز للتّعليم في الدّولة الإسلامية. ويُروى أن الخطيب البغدادي[1000] لما حجّ شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله عز وجلّ ثلاث حاجات أخذاً بقول النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم: ماء زمزم لما شُرب له؛ فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد، والثّانية أن يملي الحديث بجامع المنصور، والثّالثة أن يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي. وقد جلس نفطويه (توفي عام 323 هـ - 935 م)، وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهاني، إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يُغير محلّه منها[1001]. وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ، وكان ذلك طبيعياً؛ لأن الفقهاء يعلّمون العلم الذي يؤهّل أصحابه لتولّي مناصب يعيشون منها، كما تقدّم القول؛ ولكن لو قارنّا عدد التّلاميذ في ذلك العصر لوجدناه صغيراً بالنّسبة لما نراه اليوم، وهذا يدلّ على كثرة العلماء بالنّسبة إلى التّلاميذ؛ فقد كان أبو حامد الإسفراييني (توفي عام 406هـ - 1015 م)؛ إمامَ أصحاب الشّافعي؛ وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمئة وسبعمئة فقيه[1002]. وكان مفتي نيسابور وهي مركز علماء خُراسان؛ ويقال إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمئة طالب علم في عشية الجمعة الثّالث والعشرين من المحرم سنة 387 هـ - 997 م[1003]. وكان يقعد بين يدي أصحاب الجويني «الإمام الفرد» (توفي عام 478 هـ - 1085 م) في كل يوم ثلاثمئة من الأئمة والطّلبة[1004]؛ هذا على حين أننا نرى اليوم في كاشْغِر مثلاً؛ مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً، أن أكثر من خمسمئة طالب يحضرون درس أكبر العلماء فيها[1005]. وكان عدد الطّلاب يُعرف بإحصاء محابرهم التي يضعونها أمامهم والتي كانت أهم عتاد الطّالب[1006]. ولما قدم محمّد بن جرير الطّبري بغداد قصده الحنابلة، فسألوه عن أحمد بن حنبل، وعن حديث الجلوس على العرش فقال: أما أحمد فلا يُعد خلافه؛ فوثبوا ورموه بمحابرهم غاضبين[1007]. وكان إذا مات العالم كسر تلاميذه المحابر والأقلام، وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصّياح؛ فلما مات الجويني المتقدم الذّكر، وكان خطيباً مشهوراً أيضاً؛ كسر منبره، واشتركت نيسابور كلها في حزن العلماء عليه، فلم تفتح الأبواب في البلد، ووضعت المناديل على الرّؤوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه[1008].

وكان الطلبة يحضرون كتبهم في شيء يسمّى قارورة، ولعلها سمّيت بهذا الاسم من قبيل الفكاهة العلمية[1009]. وكان الإملاء فيما مضى من الزّمان يعدّ أعلى مراتب التّعليم[1010] وكثيراً ما كان المتكلّمون واللغويون في القرن الثّالث الهجري يتبعون طريقة الإملاء خاصّة؛ فيُروى أن الجُبَّائي المُعتزِلي أملى مئة ألف وخمسين ألف ورقة، وما رؤي ينظر في كتاب إلا يوماً في زيج الخوارزمي. وقد أملى أبو علي القالي خمس مجلّدات[1011]، وكان المستملى يكتب أول القائمة: «مجلسٌ أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا».

وفي القرن الرّابع الهجري ترك اللغويون طريقة المتكلّمين والمُحدِّثين في الإملاء، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطّلبة، والمدرس يشرح «كما يدِّرس الإنسان المختصرات»[1012]. ويقال إن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الزّجّاجي (توفي عام 339 هـ - 950 م)[1013]. أما إملاء الحديث فقد بقي كما صرّح بذلك السّيوطي. ولمّا عزم الوزير الصّاحب بن عَبّاد (توفي عام 385 هـ - 995 م) على إملاء الحديث قعد للإملاء فحضر الخلق الكثير، «وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة كلٌّ يبلغ صاحبه»[1014]؛ ولكن أصحاب الإملاء اختصروا فيه حتى إن أغلب العلماء كانوا يختصرون في أماليهم ويطيلون في تدريسهم[1015].

ولدينا في كتاب الياقوت في اللغة للمطرّز (توفي عام 345 هـ - 956 م) ما يرينا كيف كان ينشأ الكتاب من الإملاء: ابتدأ المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة 326 هـ - 936 م إلى أن انتهى إلى آخره؛ ثم رأى الزّيادة فيه فزاد في أضعاف ما أملى؛ ثم قرأه عليه أبو إسحاق الطّبري وسمعه النّاس، ثم زاد فيه بعد ذلك، وقرىء عليه بالزّيادة في ذي القعدة سنة 329 هـ - 940 م؛ وفرغ منه في ربيع الثّاني سنة 331 هـ - 942 م، وحضرت نسخ جميع من كتب فقورنت؛ ثم زاد المؤلف بعد ذلك كتبها محمّد بن وهب، ثم جمع النّاس ووعدهم بعرض أبي إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرّر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة[1016].

وكان تغيُّر طريقة التّعليم سبباً في إيجاد نوع جديد من المؤسّسات العلمية؛ ذلك أنه لما انتشرت طريقة التّدريس نشأت المدارس، ولعل من أكبر الأسباب في ذلك أن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتّدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل؛ فالقرن الرّابع هو الذي أظهر هذه المعاهد الجديدة التي بقيت إلى أيامنا. ويدلّ مجموع الأخبار التي انتهت إلينا على أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد، وكانت أكبر مراكز العلم في خُراسان. ويقول الحاكم النّيسابوري المؤرّخ الثّقة إن أول مدرسة هي التي بُنيت لمعاصره أبي إسحاق الإسفراييني (توفي عام 418 هـ - 1027 م) بنيسابور[1017]. أما المدرسة التي بنيت لابن فورك (توفي عام 406-1015 هـ) فهي أحدث عهداً من تلك المدرسة بقليل. وكان كل من الإسفراييني وابن فورك أشعرياً قحاً، فلا بدّ أن يكونا قد آثرا البحث في المسائل الكلامية، بل آثرا طريقة التّدريس على مجرّد رواية الأحاديث[1018]. غير أنّه كان بنيسابور رجل من كبار الأئمة وأولي الرّياسة، وهو البُستي (توفي عام 429 هـ - 1037 م)، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره. وكان هذا الرّجل من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور[1019]. وكان المستملي في المجالس الكبيرة يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين وليعيد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه. وكان العالم يبتدىء درسه بحمد الله والصّلاة على نبيه بعد قراءة قارىء حسن الصّوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين. وبعد أن يستنصت المُستملي النّاس

يبدأ كلامه باسم الله وبالصّلاة على النّبي؛ ثم يقول المُحدِّث: من أو ما ذكرت رحمك الله؟ وكلما ورد ذكر النّبي أو أحد الصّحابة أو نحوهم[1020] صلّى على النّبي ورضي عن الصّحابة.

وفي حوالي عام 300-912 كان ابن كيسان يبدأ مجلسه بأخذ القرآن والقراءات، ثم بأحاديث الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم؛ «فإذا قرىء خبر غريب أو لفظة شاذة أبان عنها وتكلّم عليها وسأل أصحابه عن معناها»[1021]. وكان يجوز للسّامع في المجلس أن يقف ويسأل المدرس، ويدلّ على ذلك ما حُكي عن أبي عبيدة اللغوي (توفي 415 هـ - 1024 م) من أنّ رجلاً حضر مجلسه فسأله سؤالاً سخيفاً يدلّ على الجهل وسوء الفهم؛ ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك، فأخذ أبو عبيدة نعليه، واشتدّ ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته: مِن أين حُشرت البهائم عليَّ اليوم[1022].

غير أنّه قد بقي ذلك التّهيّب الشّديد للحديث، وقد كان معروفاً من قبل[1023]؛ وقد حكى البرقاني (توفي عام 425 هـ - 1034 م) أن أستاذه كان يروي الأحاديث متهيًّبا متحرًّزا، وأن تلاميذه كانوا إذا تكلّم مع أحد، يذهبون جانباً ويكتبون الأحاديث التي ترد في كلامه دون أن يفطن هو لذلك[1024]. وكان آخر يطلب التّحديث فيمتنع أشدّ الامتناع؛ ولم يقعد لذلك إلا في آخر عمره عندما بلغ السّبعين[1025]. غير أنّ التّحديث كان يعدّ نوعاً من العبادة يحتاج إلى آداب خاصّة: فيستحبّ للمُحدِّث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهّر ويتطيّب ويسرّح لحيته، وأن يجلس متمكّنا بوقار، فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره، وعليه أن يُقبل على الحاضرين كلهم[1026].

ونجد في أخبار القرنين الثّاني والثّالث للهجرة أنه كانت تُرمى رقاع في حلقة بعض العلماء الصّالحين أمام العالم، وتتضمّن هذه الرّقعة طلب دعاء لمريض أو صاحب حاجة، فيقبض العالم عليها ويقرؤها، ويدعو لصاحبها، ويؤمّن على دعائه من حضر، ثم يمضي في درسه. ووصلتنا من القرن الرّابع هذه الحكاية التّالية: لمّا عزم الصّاحب بن عَبّاد على إملاء الحديث؛ وهو وزير، خرج يوماً متطلّساً متحنّكاً بزيّ أهل العلم فقال: قد علمتم قدمي في العلم، فأقرّوا له بذلك، وأنا متلبِّس بهذا الأمر، وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدّي، ومع هذا لا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أني تائب إلى الله من ذنب أذنبته؛ واتّخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التّوبة، ولبث أسبوعاً على ذلك، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحّة توبته، ثم خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة، كلٌّ يبلّغ صاحبه[1027].

وكان الدَّارقُطني (توفي عام 385 هـ - 995 م) يقرأ عليه تلاميذه، فإذا أخطأ أحدهم سبّح أو قرأ شيئاً من القرآن بقصد التّصحيح، من الآيات التي تكون ملائمة لذلك[1028]. وتوفي أحد العلماء في سنة 406 هـ - 1015 م. وكان يبتدىء كل يوم بتدريس القرآن، ثم يدرِّس الحديث، وكان يجلس على حال واحد لا يتحرك ولا يعبث في شيء من أعضائه؛ وكان يقرأ بنفسه حتى يستنفد قوته[1029].

وكان الباهلي يدرس في كل جمعة مرّة واحدة، وكان يرخي السِّتر بينه وبين تلاميذه كي لا يروه، وسئل عن سبب إرساله الحجاب بينه وبين النّاس فأجاب: إنهم يرون السّوقة، وهم أهل الغفلة، فيروني بالعين التي يرون بها أولئك؛ «وكان من شدّة اشتغال قلبه بالله مثل والهٍ أو مجنون، لم يكن

يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره»[1030]. وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول: قوموا؛ فيقوم تلاميذه، ويأخذ هو يدعو الله[1031].

وقد وقع بين العلماء خلاف حول متى يبدأ الإنسان في سماع الحديث؛ فذهب جماعة إلى أنه يستحبّ أن يبتدىء الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة؛ وقال آخرون بعد العشرين؛ ونقل القاضي عيّاض، قاضي قُرطُبة (توفي عام 544 هـ - 1149 م) أن مذهب المُحدِّثين أنفسهم أن أول زمن يصح فيه السّماع خمس سنين؛ ويُذكر حديثٌ للبُخاري (كتاب العلم، الباب الثّامن عشر) لإثبات هذا الرّأي. ويقول النّووي (توفي عام 476 هـ - 1083 م) إن العمل استقرّ على ذلك في زمانه. ويُروى أن الحميدي المُحدِّث المشهور كان أبوه يحمله على كتفه[1032] إلى مجلس الحديث؛ ولهذا يذكر مؤرّخو الحديث السّنّ الذي بدأ عنده كل مُحدِّث في سماع الحديث. وكان يندر أن يذهب الولد لسماع الحديث وهو في السّادسة من العمر. ويقال إن القاضي التّنوخي (توفي عام 384 هـ - 994 م)، ممّن سمع الحديث وهو في سن ست[1033]. ويقال إن أبا نعيم الأصفهاني أكبر مُحدِّثي عصره سمع الحديث وهو ابن ثمان[1034]. والغالب أن يبدأ في سماع الحديث في الحادية عشرة، وفي هذا السّن سمع الحديث الخطيب البغدادي المُحدِّث المشهور وثلاثة من شيوخه[1035]؛ وكذلك ابن الجوزي[1036]. وكان بعض المُحدِّثين لا يقبل في مجلسه من لم يكن ملتحياً، خوفاً من قصص الغرام فيما يظهر. ويُذكر أن صبيًّا كان شديد الرّغبة في سماع الحديث، ومُنع من ذلك فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة[1037]. وقد اختُلف أيضاً في السّنّ التي يجوز للرّجل فيها أن يتصدّى لتدريس الحديث؛ فذهب النّووي إلى أنه يجوز للإنسان أن يجلس لذلك في أي سنّ متى احتيج إلى ما عنده؛ ويجب على الشّيخ المسنّ أن يمسك عن التّحديث، إذا خشي التّخليط بهرم أو خَرَف أو عمى[1038]. وكان الإسفراييني أكبر أئمة الشّافعية في القرن الرّابع الهجري، طالباً فقيراً، وكان يشتغل حمَّالاً[1039]. وكان آخرون في وقت طلبهم للحديث يسكنون في مئذنة المسجد الذي يستمعون فيه الحديث[1040]. ويُروى عن الوزير أبي الحسن بن الفُرات (توفي عام 312 هـ - 924 م) أنه كان يطلق للشّعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم، سوى ما يصلهم به متفرَّقا، وعند مديحهم إياه؛ فلما كان في وزارته الأخيرة تذكّر طلاب الحديث، وقال: لعلّ الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق ودونه ويُصرف ذلك في ثمن ورق وحبر، وأنا أحقّ بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم، وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم[1041].

ويدلّ هذا الأمر على أن المعاهد العلمية التي كان يستطيع الطّلاّب أن يلجأوا إليها لم تكن قد ظهرت، وكان جزء كبير من مثل هذه العطايا لا يُصرف إلى الطّلاب، كما يصرّح بها الهلال الصّابي صاحب كتاب «تحفة الامراء في تاريخ الوزراء». وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب، ولم يجد ما يعيش منه، اشتغل بنسخ الكتب كما حكي عن يحيى بن عديّ (توفي عام 364 هـ - 974 م)، وكان من أكبر فلاسفة القرن الرّابع، ومذهبه مذهب النّصارى اليعاقبة؛ وذُكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطّبري، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة. وكان بنيسابور ورّاق يسمّى أبا حاتم ورَّق بها خمسين سنة، وهو القائل[1042]:

إنّ الوراقةَ حرفةٌ مذمومة　　محرومةٌ عيشي بها زمن

إن عِشْتُ عشتُ وليس لي أكل	أو متّ متّ وليس لي كفنُ

وكان الدّقّاق (توفي عام 489 هـ - 1096 م) يعول والدة وزوجة وبنتاً من الوراقة؛ وفي سنة واحدة كتب صحيح مسلم، وهو يقول: «فلمّا كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، فقيل لي: ادخُل الجنّة؛ فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجليّ على الأخرى وقلت: آه.. استرحتُ والله من النّسخ»[1043].

وكان يقال إنّ من آفات العلم خيانة الورَّاقين. وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا[1044]. ولم تكن حرفة التّعليم تدرَّ شيئاً كثيراً؛ فقد ذهب طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسُفيان الثّوري وغيرهما إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلِّم أجراً عن تعليمه القرآن والحديث[1045]، وأجاز ذلك آخرون؛ ولكنهم جعلوا معلِّم الحديث في درجة أعلى لأنه يعلّم ابتغاء الثّواب الأخروي. وفي القرن الثّامن الهجري امتنع النّووي أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية؛ وكان الرّجل إذا انتهى من مجلس علم قعد له من غير أجر، قال له الطّالب: آجرك الله، وهو يقول: نفعك الله[1046]. وفي سنة 346 هـ - 957 م توفي أبو العبّاس الأصمّ، وكان من أكبر علماء خُراسان ومُحدِّثيهم؛ وقد ظهر به الصّمم وهو ابن ثلاثين سنة، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتّحديث وجد السّكة قد امتلأت بالنّاس، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده. وكان لا يأخذ شيئاً على التّحديث، وإنما كان يورّق ويأكل من كسب يده[1047]. وحكي عن أبي بكر الجَوْزَقي مُحدِّث نيسابور (توفي عام 388 هـ - 998 م) أنه قال: «أنفقت في الحديث مئة ألف درهم ما كسبت به درهماً»[1048]. وكان أبو بكر الخطيب البغدادي يوما في جامع صور، فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلاثمئة دينار وضعها على سجادة الخطيب، فقام الخطيب محمرّ الوجه، وأخذ السّجادة وخرج من المسجد، وترك العلوي يلتقط الدّنانير من شقوق الحصير[1049].

ولقد كانت حرفة معلِّم الصّبيان أو معلِّم الكُتّاب، كما كان أبو زيد البَلْخي العالم المشهور (توفي عام 322 هـ - 933 م)[1050]، حرفة زريّة متّضعة. وقد ألّف الجاحظ كتاباً في المعلِّمين ملأه بالحكايات التي تدلّ على حماقاتهم وقلّة عقلهم ورأيهم. ومن أمثال العامّة[1051]: أحمق من معلِّم. ولعلّ كثيراً ممّا لحق المعلِّمين من ضروب الاستهزاء إنما يقع إثمهُ على الرّوايات اليونانية الهزلية؛ لأن المعلِّم فيها كان من الشّخصيات المضحكة. وقد ذُكر أنه كان لا يستحلف المُكاري ولا الحائك ولا الملاّح، ويجعل القول قول المدّعي مع يمينه، ويقول: اللّهم إني أستخيرك في الحمَّال ومعلِّم الصّبيان[1052]. وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشّعر (توفي عام 245 هـ - 859 م) يقول إذا قلت للرّجل: ما صناعتك؟ فقال: معلِّم، فاصفع[1053]. ويحكي ابن حَوْقَل عن أهل صقلية أنهم كانوا يكثرون التّغذّي بالبصل النّيّء، «وهو الذي نقص أفهامهم، حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على غير ما هي عليه. والذي دخل تحت العدة أن فيها أزيد من ثلاثمئة معلِّم يؤدّبون الصّبيان؛ وهم يرون أنهم

أفضلهم، وأنهم أهل الله، وهم شهودهم وأمناؤهم. هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفّة أدمغتهم؛ وإنما لجأوا إلى هذه الصّناعة هرباً عن الجهاد ونكولاً عن الحرب»[1054].

وكان أجرُ المعلِّم يُدفع أحياناً عدا المال أشياء ممّا يأكله النّاس وينتفعون به، ولذلك كانت رغفان المعلّم مثلاً يُضرب في الاختلاف وشدّة التّفاوت، لأن «رغفانُ المعلِّم» تختلف بحسب اختلاف آباء الصّبيان في الغنى والفقر، والجود والبخل. وقد أنشد الجاحظ في معلّم:

منتثر الزّاد لئيم الوصيف	مختلف الخبز خفيف الرّغيف

أما المعلِّمون الذين يؤدّبون الأولاد في البيوت الغنيّة فكانوا أحسن حالاً؛ يقول الجاحظ[1055]: «وهو يرضى أن يعلّم أولادنا بستين درهماً؛ ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التّخريج للمعاني، ليس عنده غير ذلك لم يرضَ بألف درهم»[1056]، وكان عند قائدٍ لعبد الله بن طاهر مؤدّب رزقه في الشّهر سبعون ديناراً، وذلك في القرن الثّالث الهجري. وكان مثل هذا المعلّم يظلّ تحت إشراف من اختاره، وهو الذي يقدّر رزقه، ويطوف عليه ويتعهّد من بين يديه من الصّبيان؛ وهو يصرفه ويبدّل به غيره إذا لم يعجبه[1057]. وكان مؤدِّبو الأمراء أحسن المؤدِّبين حالاً، وكان الذين يختارون لتأديب أبناء الأمراء هم علماء اللغة المشهورون؛ فمن ذلك أن محمّد بن عبد الله بن طاهر، وكان من أجود أمراء زمانه، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمد بن يحيى ثعلب النّحوي اللغوي، فأفرد له داراً في داره كان يقيم فيها هو وتلميذه، وكان يتغدّى معه؛ وقد أقام له الأمير مع ذلك في اليوم سبع وظائف من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السّميد وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة رأس، وأجرى له في الشّهر ألف درهم[1058].

وفي عام 302 هـ - 914 م احتفل ابن وزير بدخول ابنه الكُتاب، فدعا من القواد والرّؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفساً، وأمر الدّاعي بإعطاء المعلِّم ألف دينار[1059]؛ وكان يلازم المأمون في الكتاب غلامٌ لمعلّمه، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه، فأخذ اللوح من يده فمسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره[1060].

وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقاً من السُّلطان، وكانوا فريقين: فقهاء وعلماء؛ وثَمّ فريق ثالث أكثر رزقاً، وهم النّدماء يجالسون الحضرة؛ وكان البعض يأخذ رزقاً في هذه الطّوائف كلها، ومبلغ ذلك ثلاثمئة دينارفي الشّهر مع دار للسّكن[1061]. وقد أجرى الخليفة المقدر على ابن دُرَيد (توفي عام 321 هـ - 933 م) خمسين ديناراً في كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً[1062]. وكذلك أجرى سيف الدّولة صاحب حلب على الفارابي (توفي عام 339 هـ - 950 م) أربعة دراهم كل يوم، فاقتصر عليها[1063]. ويندر أن نرى في هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة يعيش منها إلى جانب العلم. فيُروى أنّ أبا بكر الصِّبغي (توفي عام 344 هـ - 955 م) كان يبيع الصِّبغ بنفسه، وكان حانوته مجمع الحُفّاظ والمُحدِّثين[1064]. وقد أوصى الصِّبغي لأحد العلماء في أمور مدرسته «دار

السُّنَّة»، وفوّض إليه تولية أوقافه في ذلك[1065]. وكان دعلج (توفي عام 351 هـ - 962 م) شيخ أهل الحديث، وكان فقيهاً، وقد خلّف ثلاثمئة ألف دينار؛ ويُروى أنه بعث بالمسند إلى رجل لينظر فيه، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً ذهبياً؛ «وكان يقول: ليس في الدّنيا مثل بغداد، ولا ببغداد مثل القطيعة، ولا بالقطيعة مثل درب أبي خلف، ولا في الدّرب مثل داري»[1066].

وكذلك كان بمصر الخياط (توفي عام 373 هـ)، وكان قُوته وكسبه من خياطته، وكان يخيط قميصاً في جمعة بدرهم ودانقين، طعامه وكسوته منها غلاءً ورخصاً، «وما ارتفق من أحد بمصر بشربة ماء»[1067]. وكان بمصر عالم آخر توفي عام 494 هـ - 1101 م، وكان يبيع الخلع لأولاد الملوك[1068]. غير أنّنا نرى أن المطرّز (توفي عام 345 هـ - 956 م)، وكان أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين في عصره، قد منعه اشتغاله بالعلوم عن اكتساب الرّزق، فلم يزل مضيَّقًا عليه[1069]. ويقول أحمد بن فارس اللغوي المتوفى عام 369 هـ - 979 م:

فأرسل حكيماً ولا توصِه	وذاك الحكيم هو الدِّرهمُ

وكان يقول[1070]:

يا ليت لي ألف دينار موجّهة	وأن حظي منها فلس فلّاس

وأخيراً دخل علماء الإسلام في نهاية هذا العصر في عداد العظماء وأصحاب الألقاب، وكان الإسفراييني الأصغر (توفي عام 418 هـ - 1027 م) بنيسابور أول من لُقّب بين العلماء برُكن الدّين[1071]. وفي ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التّكريم وهو لقب شيخ الإسلام الذي صار له شأنٌ كبير فيما بعد، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين[1072].

ولم يخلُ الأمر من طرائف مضحكة بين المعلّمين، فبين المُبرِّد وثعلب مثلاً كانت منافراتٌ كثيرة، والنّاس يختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه[1073]. ويُروى أن قتادة السَّدوسي قال مرة: ما نسيتُ شيئاً قط؛ ثم قال: ياغلام! ناولني نعلي، قال: نعلُك في رجلك[1074].

وكان ابن خالويه اللغوي عالماً فظًّا، فيُروى أنه وقع بينه وبين المتنبّي كلامٌ في مجلس سيف الدّولة، فوثب ابن خالويه على المتنبّي وضرب وجهه بمفتاح كان معه؛ فخرج المتنبّي ودمه يسيل على ثيابه[1075]. وكان نفطويه مشهوراً بعلمه كما كان مشهوراً بالقذارة والصِّنان ونُتن الرّائحة.

أمّا الجوهري صاحب المعجم المشهور (توفي عام 390 هـ - 1000 م) فقد أثّرت في عقله كثرة علمه، إذ صنّف كتاب الصِّحاح في اللغة حتى وصل إلى باب الضّاد؛ ثم اعترَته وسوسِة فانتقل إلى

الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه، وقال: أيها النّاس! إني عملتُ في الدّنيا شيئاَ لم أسبق إليه؛ فسأعمل للآخرة شيئاً لم أُسبق إليه؛ وضمّ الى جنبيه مِصراعَيْ باب وتأبَّطهما بحبل، وصعد مكاناً عالياً من الجامع وزعم أنه يطير، فوقع فمات.

الفصل الثّالث عشر
علوم الدّين

Die Theologie

في القرن الرّابع الهجري قُدّر لعلم الكلام الإسلامي أو علم العقائد أن يبلغ أوج أدواره، وهو دور تحرّره من الفقه، بعد أن ظلّ حتى ذلك الحين تابعاً له؛ فحتى القرن الثّالث الهجري – التّاسع الميلادي كانت جميع كتب الكلام المعتبرة عند جمهور الأُمّة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية. ويرجع الفضل في حدوث هذا التّغيير إلى المُعتزلة الذين كانوا طول القرن الثّالث الهجري يعالجون مسائل كلامية محضة، وهم في القرن الرّابع يضطرون خصومهم إلى الإجابة عن هذه المسائل. وكانوا أول فرقة إسلامية تحرّرت من نزعات الفقهاء كلها، فكانوا هم الفرقة «الكلامية» الوحيدة[1076] التي تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التي كان المسلمون منقسمين إليها في ذلك العهد، وهي أهل السُّنّة والمُعتزلة والمرجئة والإماميّة والخوارج[1077]. وقالوا إن لكل مجتهد مصيب في الفروع[1078]. وكان منهم رجال في جميع المذاهب الفقهية حتى بين أصحاب الحديث الذين يُعدّون عادةً ألدّ أعداء المتكلّمين[1079].

ومن جهة أخرى كان الصُّوفية خصوماً ألدّاء لجميع الفقهاء، وكانوا يصرّحون بازدرائهم لعلم الفقه الذي يسمّونه «عِلم الدّنيا»؛ فمثلاً يقول المَكّي (توفي عام 386 هـ - 996 م) نقلاً عن المسيح عليه السلام: «وروينا عن عيسى عليه السلام: مَثَل علماء السّوء مثل صخرة وقعت على فم النّهر، لا هي تشرب الماء، ولا تترك الماء يَخْلَصُ إلى الزّرع؛ وكذلك علماء الدّنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجلّ؛ ومثل القبور المشيّدة، ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى»[1080].

ولقد تفوّق الصُّوفية في ذلك؛ ففي القرن التّالي جاء الغزالي إمام جمهور المسلمين المتأخرين، فجاهر بأن علم الفقه علم دنيوي لا ديني[1081]. ونرى بين الصُّوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم

إجمالاً، حتى إنه يُروى عن ابن خفيف (توفي عام 371 هـ - 981 م) أنه كان يخبّيء المحبرة والورق في ثيابه ويذهب إلى أهل العلم خفية؛ فإذا علم به الصُّوفية خاصموه وقالوا: لا تفلح[1082].

ولقد فرّق الصُّوفية أيضاً بين المعرفة (علم الحقائق) وبين العلم (العلوم المألوفة للنّاس). يقول الحلّاج (توفي عام 302 هـ - 914 م) مستهزئاً بالعلم: «يا عجباً ممّن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء، كيف يعرف مكوّن الأشياء!». ويحكي الحلّاج في موضع آخر: «رأيتُ طيراً من طيور الصُّوفية عليه جناحان، وأنكر شأني حين بقي على الطّيران، فسألني عن الصّفاء، فقلت له: اقطع جناحك بمقارض الفناء، وإلا فلا تتبعني، فقال: بجناح أطير، فوقع يومئذ في بحر الفهم وغرق»[1083]. ولكن نرى قوماً آخرين، كالجُنيد (توفي عام 289 هـ - 901 م)، يصرّحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتمّ وأشمل[1084]. ونجد بين العلماء كالشّافعية مثلاً كثيراً من الصُّوفية، وهذه حقيقة واقعة؛ وكانت علوم الصُّوفية الدّينية أهم العلوم وأكثرها نجاحاً؛ فقد كانت هي الحركة العلمية التي ضمّت أعظم القوى الدّينية في ذلك العهد؛ والحركة الصُّوفية أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادىء أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهي: ثقة وطيدة كاملة بالله تعالي، والاعتقاد بالأولياء، وإجلال النّبي محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم؛ ولا تزال هذه المبادىء الثّلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية[1085].

وتزايدت الرّغبة في دراسة القرآن والحديث، لأن ذلك واجبٌ من أوّل الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة[1086]، ولكن نشأ في القرن الرّابع مبدأ جديد، وهو الذي يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله، ومن غير إجازة مكتوبة تخوّله حق الرّواية[1087]؛ وبهذا حلّت دراسة الكتب محل الأسفار التي كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل للقاء رجاله. وقد استطاع ابن يونس الصّفدي (توفي عام 347 هـ - 958 م) أن يكون إماماً فطناً حافظاً في الحديث، وإن كان لم يرحل، ولا سمع بغير مصر [1088].

وكان العالم الذي يطلب الحديث كالتّاجر أو عامل السُّلطان في كثرة انتيابه للخانات التي يأوي إليها المسافرون. وفي سنة 395 هـ - 1005 م توفي ابن مندة «آخر الرَّحّالين» الذين رحلوا لسماع الحديث؛ وقد جمع ألفاً وسبعمئة حديث، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وِقْرْاً من الكتب[1089]. ويقول أبو حاتم السَّمَرقندي: لعلّنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشّاش والإسكندرية[1090]. ويروى عن السّرخسي، وهو مُحدِّث أفغاني أنه طلب الحديث فأكثر، حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومئتي شيخ[1091]. غير أنّ الغزالي على شهرته ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل القرون التي جاءت بعده، لم يسافر في طلب العلم إلا قليلاً: فقد خرج من بلده طوس، وسمع بجُرجان في الشّمال، ودرس في نيسابور، وكانت أكبر مدينة علمية في بلاده؛ وهذا كل ما عُرف من أسفاره لطلب العلم. وقد بيّن السَّمَرقندي (كتاب بُستان العارفين ص 18 وما يليها) في القرن الرّابع اختلاف الآراء في هذا الباب أوضح بيان. ومن أمثلة النّقد الذي وُجّه للمُحدِّثين أن النّوبختي يصف أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني (توفي عام 356 هـ - 967 م)، وهو الذي سمع منه الدَّارقُطني المُحدِّث المشهور، بأنه أكذب النّاس؛ لأنه «كان يدخل سوق الورَّاقين، وهي عامرة، والدّكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصُّحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها»[1092].

غير أنّ المُحدِّثين كانوا يُعدّون أكبر العلماء شأناً؛ وكان يُعدّون من أعظم رجال الإسلام، ولا يفوت المؤرّخين ذكرُ وفاتهم؛ وهم يقصّون الحكايات العجيبة التي تدلّ على مقدرتهم في الحفظ. فيُروى أن عبد الله بن سليمان (توفي عام 316 هـ - 928 م) كان مُحدِّث العراق، وكان يحدث في دار الوزير علي بن عيسى، وقد نصب له السُّلطان منبراً حدَّث عليه؛ وقد خرج إلى سِجِسْتان فسأله أهلها أن يحدّثهم فقال: ما معي أصل، فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث، فلما قدم بغداد، قال، البغداديون: مضى ابن أبي داود إلى سِجِسْتان ولعب بالنّاس؛ ثم فيَّجُوا فيَّجا بستة دنانير إلى سِجِسْتان ليكتب لهم النّسخة فكتبت، وجيء بها وعُرضت على الحُفّاظ فخطّأوه في ستة أحاديث، لم يكن أخطأ إلا في ثلاثة منها[1093].

ويُروى أن ابن عقدة (توفي عام 332 هـ - 943 م) كان يحفظ بالأسانيد والمُتون خمسين ومئتي ألف حديث[1094]. وكان قاضي الموصل (توفي عام 355 هـ - 966 م) يحفظ مئتي ألف حديث عن ظهر قلب[1095] وفي سنة 401 هـ 1010 م مات بمصر الحافظ ميسر؛ وكان عنده درج طويل طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوء الوجهين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث[1096].

ويروي العلماء ما جرى لأبي الفضل الهَمَذاني (توفي 398 هـ - 1007 م)، إذ كان يحفظ المئة بيت إذا أنشدت بين يديه مرّة وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة، فسمع به الحاكم النّيسابوري فوجَّه إليه بجزء وأجّله جُمعةً في حفظه. فردَّ الهَمَذاني إليه الجزء بعد جُمعة، وقال: من يحفظ هذا! محمّد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان، أسامٍ مختلفة، وألفاظ متباينة[1097].

وحول سرعة تعلّم الحديث نستطيع معرفة ذلك ممّا حُكي عن الخطيب البغدادي أنه قرأ صحيح البُخاري على كريمة بنت أحمد المروزي في خمسة أيام[1098]. وأكبر مُحدِّثي القرن الرّابع هما أبو الحسن علي الدَّارقُطني (توفي عام 385 هـ - 995 م) والحاكم النّيسابوري (توفي عام 405 هـ - 1014 م). وقد خلفهما في القرن الخامس أبو بكر الخطيب البغدادي (توفي عام 403 هـ - 1012 م).

ولقد ألفوا في كتب الحديث التي جُمعت في القرن الثّالث الهجري موضوعاً لبحثهم بما كان في هذه الكتب من تبويبٍ وما كان فيها من تناقض. ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة في الحديث، فمثلاً ألف الدَّارقُطني كتاباً في السُّنّة؛ واستدعاه الوزير جعفر بن الفضل وبرّه بمال كثير، وأنفق عليه نفقة واسعة، وخرّج له المُسند[1099]؛ وتم تأليف الاستدراكات أو المستدركات، كما فعل الدَّارقُطني والحاكم، لاعتقادهما أن كثيراً من الحديث الصّحيح قد فات جامعيه الأولين؛ أو بعمل المخرَّجات أو المستخرجات، وقد فعل ذلك كلُّ مُحدِّثٍ كبير في القرن الرّابع[1100].

وظهرت أيضاً في القرن الرّابع كتبٌ جديدة تعالج تصحيفات الحديث، ومنها كتب للخطيب وللدَّارقطني[1101]. وقد اعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء؛ ثم نظروا في الصّفات التي يجب توفرها في المُحدِّث الثّقة. ويقال إن أول من ألف في هذا الباب يحيى بن كتان (توفي عام 198 هـ - 914 م) [1102]. وبعد أن اشتغل العلماء بتأليف كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها بدأوا في الفحص عن الرّجال المذكورين

فيها وألفوا الكتب في رواة الصّحيحين وهكذا. وقد أدَّت بهم حاجتهم إلى السَّنَد المتصل[1103] أن يتجاوزوا البحث في حياة الرّواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم؛ وهكذا وجدت «تواريخ» القرن الثّالث الهجري مثل تاريخ البُخاري (توفي عام 256 هـ - 870 م)، ومثل الطّبقات الكبرى لابن سعد (توفي عام 230 هـ - 845 م) التي روعي في تأليفها الزّمان والمكان؛ وكذلك ظهرت تواريخ المدن، وهي المؤلفات التي ظهرت في القرنين الثّالث والرّابع للهجرة، وتمثّل كمالُها في تاريخ نيسابور الذي ألّفه الحاكم النّيسابوري (توفي عام 406 هـ - 1015 م) والذي يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادي، وفي تاريخ أصفهان لأبي نعيم (توفي عام 430 هـ - 1039 م)، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

وممّا يدلّ على الدّقة التي أظهرها العلماء في طريقة النّقد ما ذُكر عن الخطيب من أنه ألّف كتاباً في «رواية الآباء عن الأبناء» وآخر في «رواية الصّحابة عن التّابعين»[1104]. وكانت هذه المعارف المتعلّقة برجال الحديث تنال أعظم التّقدير في ذلك الوقت؛ ويُروى عن القاضي أبي حامد المروزي (توفي عام 362 هـ - 972 م)، والمشهور بأنه أستاذ أبي حيّان التّوحيدي الكاتب الكبير أنه كان بحراً يتدفق حفظاً للسِّير وقياماً بالأخبار، «وكان يزعم أن السّير على قدر اطّلاع الفقيه عليها يكون استنباطه»[1105]. وأكبر ما كان يثير إعجاب النّاس في الخطيب البغدادي دقته وقدرتُه على نقد الوثائق المكتوبة وإثبات تزويرها[1106].

وفي القرن الرّابع الهجري ألّف الكرابيسي (توفي عام 378 هـ - 988 م) كتاباً في أسماء الرّواة وألقابهم؛ وقد عُدّ هذا الكتاب أحسن الكتب قديمها وحديثها[1107].

غير أنّ الدّراسات التّاريخية لم تكن محمودة عند العلماء؛ ويُروى عن ابن إسحاق (توفي عام 151 هـ - 767 م) أنه سأل أحد التّلاميذ الذين يدرّسون التّاريخ مستهزئاً به: من الذي كان يحمل لواء الجالوت؟[1108]؛ أما الآن فيحكي لنا الزّنجي عن المُحدِّثين الذين سمع منهم في أول القرن الرّابع الهجري قصصاً تاريخية محضة مثل أخبار المبيّضة، ومقتل حُجْر بن عديّ زعيم الإماميّة، وكتاب معركة صفِّين، وكتاب معركة الجَمَل ونحوها[1109]. ولكن الاتجاه تغير فيما بعد حتى نرى النّووي يعيب ابن عبد البرّ (توفي عام 463 هـ - 1071 م) بأنه أفسد كتابه بما ضمّنه من أخبار المؤرّخين[1110].

وكذلك وُضعت الأصول التي يُبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها في القرن الرّابع. وقد رتّب ابن أبي حاتم الرّازي (توفي عام 327 هـ - 239 م) ألفاظ الجرح والتّعديل مراتب فأعلاها: «ثقة» أو«مُتقن» أو «ثَبْت» أو «حُجّة» أو «عَدل» أو «حافظ» أو «ضابط»، والثّانية «صَدُوق» أو «محلُّه الصّدق» أو «لا بأس به»[1111].

ويُفترض أنّ الخطّابي (توفي عام 388 هـ - 998 م) هو أول من عيَّن أقسام الحديث الثّلاثة الكبرى وهي: الصّحيح، والحَسَن، والضّعيف؛ ثم حدّد الدَّارقُطني (توفي عام 385 هـ - 995 م) معنى التّعليق؛ وجاء الحاكم (توفي عام 405 هـ - 1015 م) فجعل أصول الحديث علماً مستقلاً ووضع هيكله الذي بقي في جملته إلى أيامنا، بحيث إن القرون التّالية لم تُضِفْ في هذا الباب لما تمَّ في القرن

الرّابع الهجري إلا أشياء ثانوية. بل إن تقسيم الرّواة إلى أنواع صار هو المستعمل منذ عصر الحاكم[1112]؛ ويرجع إلى الخطيب ما جرى عليه كتّاب الحديث من وضع نقطة في وسط الدّائرة التي تكتب في نهاية الحديث بعد التّصحيح بالمقارنة والمقابلة[1113].

أما بالنّسبة للدّور الثّاني في النّاحية العلمية الدّينية فقد قام به مُقرئو القرآن. ونرى أن البِشاري المقدسي مثلاً لا يُغفل في كلامه عن البلاد التي وصفها عن ذكر أصحاب القراءات فيها، وإن كان قد أبان عن عدم محبته للمقرئين بأن وصفهم بأنهم لا ينفكّون من الطّمع وسوء السّمعة[1114]. وقد وضع ابن مجاهد حوالي عام 300 هـ - 912 م أصول هذه النّاحية[1115]. ولقد قامت حوالي هذا الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن، وتدخلت الحكومة، فاضطهدت بعض أصحاب القراءات؛ مثلاً ضرب الوزيرُ أبو علي بن مُقلة ابنَ شنبوذ (توفي عام 328 هـ - 939 م) بالسّوط واضطرّه أن يتبرّأ من قراءات قرأ بها، فكتب: «يقول محمّد بن أيوب: قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان المُجمع عليه والذي اتفق أصحاب الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم على قراءته، ثم بان لي أن ذلك خطأ، وأنا منه تائب وعنه مُقْلع وإلى الله جل اسمه منه بريء؛ إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه ولا يُقرأ غيره»[1116].

وفي عام 398 هـ - 1008 م أظهر بعض النّاس مصحفاً ذكروا أنه مصحف ابن مسعود؛ وكان مخالفا للمصاحف، فأشار القُضاة بإحراقه، وأُحرق، ثم ورد أن رجلاً حضر المشهد ليلة النّصف من شعبان، ودعا على من أحرق المصحف وسبّه، فقُتل[1117]. وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلّت محلّ غيرها، فكذلك حلّت الحروف السّبعة الشّرعية المتفق عليها محل القراءات الشّاذّة في القرن الرّابع الهجري[1118]؛ وفي هذا القرن أيضاً ظهرت كتب فيما سمي بالقراءات الثّمان. (انظر بحث نولدِكِه Nöldeke).

غير أنّ جواز تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلَّماً به في القرن الرّابع دون استيفاء شروطه؛ فيحكي لنا الطّبري أن الشّعبي مرّ على السّدّي، وهو يفسر القرآن فقال: «لأن يُضرب على إس... بالطّبل خيرٌ لك من مجلسك هذا»[1119].

ويروي السَّمَرقندي أن عُمر بن الخطّاب رأى في يد رجل مصحفاً، وقد كتب عند كل آية تفسيرها، فدعى بمقراض فقرضه[1120]. ونقل للسّيوطي عن أنه كان شديد التّأله، فكان لا يفسّر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن، وكذلك الحديث تحرُّجاً[1121].

غير أنّ الطّبري قد ذكر أمثلة على أن الصّحابة، وخصوصاً ابن عبّاس، كانوا يفسرون القرآن تفسيراً محموداً[1122]. ولكن نقده[1123] (ص 26 وما بعدها) يدلّ على أن الفريق الذي كان يحجم عن تفسير القرآن كان قوياً جداً. وقد روي عن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم حديثٌ من شأنه أن يوفق بين الفريقين، وهو قوله: «من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار»؛ فكل تفسير يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النّبي، ولا يجوز أن يُعتمد فيه على الرّأي؛ ولا يكون القول بالرّأي إلا في التّفسير اللغوي للألفاظ[1124] (ص 27).

ولكنّنا نجد في تفسير الطبري نفسه دليلاً على أن المفسّر يستطيع رغم هذه القيود أن يقول في تفسيره بحذقٍ ومهارة أشياء كثيرة ينبغي ألا تقال في التّفسير [1125]؛ هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطّبري إنه لم يؤلّف مثله، لأن صاحبه جمع بين الرّواية والدّراية.

غير أنّ السَّمَرقندي مع حرّيته الكبيرة في الرّأي، ومع كونه حنفيًّا، قد تكلّم في هذه المسألة بلا لُبس، ومنع كل تفسير بالرّأي؛ وكلُّ ما أجازه هو أن يحكي المفسّر ما سمعه من الأئمة على سبيل الحكاية؛ أي أنّ التّفسير عند السَّمَرقندي يكون على صورة الفصول المتعلّقة بتفسير القرآن عند البُخاري ومسلم، وهو ما يفعله الفريق الثّاني من المفسّرين عند السّيوطي (De. Inter Korani, text p. 2).

والجديد الذي نلاحظه في تفسير القرآن في هذا القرن وفي القرن الذي تقدّمه هو تعاون المُعتزِلة واجتهادهم في تفسير القرآن. وممّن ألّف في التّفسير منهم الجُبَّائي؛ ويقول الأشعري تلميذه وخصمه وابن زوجته إنه في هذا التّفسير ما روى حرفاً واحداً عن المفسّرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به في صدره وشيطانه[1126]. غير أنّ أهل المغرب من السُّنّة تردّدوا في اتباع الأشعري في تفسيره للقرآن؛ وكانوا يتركون التّأويل ويُمرُّون المتشابهات كما جاءت[1127].

هذا ولقد ألّف علي بن عيسى الرّماني (توفي عام 385 هـ - 995 م)، وهو عالم بالكلام والفقه والنّحو واللغة، تفسيراً للقرآن؛ وقد بلغ من قيمة هذا التّفسير أنه قيل للصّاحب ابن عَبّاد (توفي 385 هـ / 995 م): هلّا صّنفت تفسيراً! فقال: وهل ترك لنا عليُّ بن عيسى شيئاً[1128]؟

وكذلك ألّف النّقّاش المُعتزِلي (توفي ببغداد عام 351 هـ - 962 م)، تفسيراً كبيراً يقع في اثني عشر ألف ورقة[1129]؛ و«كان يكذب في الحديث». وكذلك صنّف أبو بكر الإدفوي (توفي عام 388 هـ - 998 م) تفسيراً يقع في مئة وعشرين مجلّدًا[1130]. وفي القرن التّالي لم يزد عليه في عظم التّأليف إلا عبد السّلام القزويني شيخ المُعتزِلة ببغداد (توفي عام 483 هـ - 1090 م) فإنه ألّف تفسيراً في ثلاثمئة مجلّد منها سبعة مجلّدات في الفاتحة[1131]. ونستطيع أن نأخذ فكرة عن طريقة هؤلاء المفسّرين من خلال أن عبيد الله الأسدي المُعتزِلي (توفي عام 387 هـ - 997 م) صنّف تفسيراً للقرآن ذكر فيه في بسم الله الرّحمن الرّحيم مئة وعشرين وجهاً[1132]. ولما كانت كل فرقة من الفرق في هذا العصر تعتدّ بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاستشهاد وموئلها الذي تستند إليه في أدلّتها فقد كان لا بدّ للقرآن، ككتاب مطهّر، أن يتعرّض لكثير من التّكلّف في التّفسير. وقد اشتهر الصُّوفية والإماميّة بأنهم أصحاب تأويلات؛ وقد جروا على عادة مألوفة من قبل وهي الخروج عن ظاهر القرآن بالتّأويل البعيد لإثبات دعاويهم[1133]. وحاول بعض الإماميّة أن يؤوّلوا كثيراً من الأسماء الواردة في القرآن بأنها أسماء أشخاص؛ كقولهم في البقرة التي أمر قوم موسى بذبحها[1134]، وإن الجِبْت والطّاغوت[1135] هما معاوية وعمرو بن العاص[1136].

ولكنّ المفسّرين العلماء كانوا على خلاف ذلك؛ ومنهم أبو زيد البَلْخي (توفي عام 322 هـ - 934 م) الذي تتلمذ للكندي ببغداد، وأخذ عنه الفلسفة والتّنجيم والطّب وعلوم الطّبيعة. كان البَلْخي يتنزّه عمّا يقال في القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظّاهر المستفيض من التّفسير والتّأويل؛ وقد بيّن ذلك

في كتابه المسمّى «نظم القرآن»[1137]. ثم صنّف كتاباً في البحث عن التّأويلات أغضب فيه رجلاً قِرْمِطياً، فقطع هذا القِرْمِطي عن البَلْخي صِلاتٍ كان يُجريها عليه[1138].

وكذلك بادر اللّغويون إلى التّدقيق في الألفاظ لوضع مصطلحات دينية خاصّة تتميّز عن اللغة المألوفة[1139]. غير أنّه وإن كان أصحاب المذهب الظّاهري بأجمعهم قد جعلوا أساس مذهبهم الأخذ بالظّاهر في تفسير كتب الشّريعة، وأولها القرآن، فإن أحداً منهم لم يصنّف تفسيراً للقرآن، وذلك لأسباب بيِّنة، وهي أن التّفسير الحرفي للقرآن لم يكن يروق المسلمين في ذلك العهد كما أنه لا يروقهم اليوم. وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة في القرآن ميداناً خاصاً لاختلاف ونزاع شديد؛ وكانت هي النّقطة التي يواجه العلم فيها مشكلة الخوارق، لأن هذه القصص لا تعرف مَن تقدّم محمَّدا محمد صلى الله عليه وسلّم من الأنبياء عليهم السّلام إلا بأنهم أصحاب معجزات؛ ولذلك نرى أن أشهر الكتب التي ألّفها أحمد بن إبراهيم الثّعلبي (توفي عام 427 هـ - 1036 م)، والذي كان أوحد زمانه في علم القرآن، هو كتابه المسمّى «عرائس المجالس في قصص الأنبياء»[1140].

وقد أولع البعض بالغرائب ليقصّوها على النّاس؛ «الحديثُ لهم عن جَمَل طار أشهى إليهم من الحديث عن جَمَل سار، ورؤيا مرّيَّة آثر عنهم من رواية مَرْوية». وأنكر قوم العجائب رأساً، وصرفها آخرون إلى تأويل متحوّل.

وقد ألّف الرّازي الطّبيب المشهور حوالي عام 300 هـ 912 كتاباً سمّاه «مخاريق الأنبياء» لم يستجز المُطهَّر ذكر ما فيه «فإنه المُفسد للقلب، المُذهب للدّين، الهادم للمروءة، المورث البغض للأنبياء صلوات الله عليهم». وقد حاول البعض أن يوفقوا بين ما في القرآن وبين العقل، فكان ما وصلوا إليه توفيقاً مضحكاً غير مُحكَم كالذي خرج به البروتستانت (الإنجيليّون) الذين فسّروا الإنجيل تفسيراً عقلياً.

فمثلاً تألّم بعض العقليين من أن يكون الأطفال قد غرقوا مع آبائهم في الطّوفان بغير ذنب؛ فقالوا إن الله أعقم أرحام النّساء قبل الطّوفان، فلم تحمل منهن واحدة خمس عشرة سنة، حتى لم يأت الغرق إلا على مستحق للعذاب[1141]؛ وذهب آخرون إلى أن سفينة نوح إنما هي مثل للدّين الذي جاء به؛ فأما لبثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فهو مَثَلٌ لبقاء شريعته[1142]. وزعم قوم أنه يجوز أن يكون خروج النّاقة المنسوبة لصالح عليه السلام من الصّخرة معناه حجة دامغة وسلطان قاهر أذعن له القوم، وأن يكون شربها ماء العين معناه إبطالُ تلك الحجة جميع ما خالفها. وقال البعض يشبه أن يكون خبّأها تحت الصّخرة، ثم أخرجها؛ وزعم آخرون أن اسم النّاقة كناية عن رجل وامرأة[1143]. وزعم غير هؤلاء أن إبراهيم عليه السلام سحر القوم الذين أوقدوا له النّار وطرحوه فيها، وطُلي ببعض الأدوية التي يبطل معها عمل النّار؛ وساق هؤلاء قصّة لبعض الهند وشبّهوا إبراهيم بها[1144]. أما أصحاب الفيل الذين أهلكهم الله بحجارة ألقتها عليهم طيرٌ أبابيل، فقد أوَّل البعض هذا بأن القوم أحرقتهم ثمار اليمن، وأوبأهم ماؤها وهواؤها، فحُصبوا، وجدروا فهلكوا[1145]. أما عين القِطر التي وردت في قوله تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} [1146] فهي إشارة إلى ما اهتدى سليمان إلى استخراجه من معدنه كسائر الجواهر. والهدهد الذي لم يره حين تفقّد الطّير [1147] كناية عن

رجل، وكذلك أوّل النّمل في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} الآية[1148]، بأنهم قوم ضعاف؛ والجن والشّياطين الذين سُخِّروا لسليمان هم عتاة النّاس وأشداؤهم وحُذاقهم وعرفاؤهم بالأمور الغامضة[1149].

وبخصوص المعجزات، فالأمر الوحيد الذي اهتمّ به العلماء، ما خلا إعجاز القرآن هو معجزات محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم؛ وهي، وإن لم ترد في القرآن، فقد ذكر في الأحاديث التي جُمعت في القرن الثّالث الهجري نحوُ المئتين منها. وقد حاول بعض العقليين أن يؤوّلوا هذه المعجزات؛ فمثلاً قالوا إن أبصار من اجتمع من قريش ليلة الدّار للفتك بالنّبي لم تَقْمَ حقيقة، بل هم أعماهم الحقدُ والغيظ والغضب. ولم يكن إبليس هو الذي كلّم المتآمرين ليعينهم بالرّأي، بل هو رجل ممّن يعمل بعمل إبليس فسُمّي بذلك[1150].

غير أنّه كان بين المسلمين المثقفين طائفة ممّن حسُن إسلامهم قالوا بهذه المعجزات من غير أن تطمئنّ قلوبهم لذلك. وقد ألف المُطهَّر المقدسي حوالي عام 355 هـ - 966 م كتابه المسمّى البدء والتّاريخ ليحمي الإسلام ممّن يشحنون صدور العامّة بترَّهات الأباطيل، ويقصون عليهم غرائب العجائب، معتقدين كل غريب وحاكين كل أسطورة، وليحميه أيضاً من الشّكاك الذين لا يؤمنون بشيء. وهو لا يملّ من الإعراب عن رأيه بالتّصديق بما نزل به الوحي وبما جاءت به السُّنّة الصّحيحة، وهو كذلك لا يستطيع إخفاء سروره حينما يوفّق إلى تأييد إحدى المعجزات بأدلّة العقل الذي يعدّه «أمَّ العلوم كلها». وهو يجيب على من ينكر ما ورد في الحديث من رفع إدريس إلى السّماء بأن «أعظم منه هذا الغيم الرّاكد في الجو، وهذه الأرض في ثقلها واقفة في السّماء»[1151]. وأما من أنكر قصّة يونس وأحال إمكان بقاء روح حي في بطن حيوان، فإن المُطهَّر يردّ عليهم بقوله: «أوليسَ الجنين في بطن أمّه بمتنفّس حي؟»[1152].

ويمكن للقارئ أن يلمس ما في نفس المُطهَّر من انشراح، حينما يناقش المعجزات النّبوية بطريقة عقلية، ويبيّن جريانها على سُنن الطّبيعة؛ وقد بادر لوضع مبدأ يقوم على أن الشّيء قد يكون معجزة في وقت ويكون بعينه غير معجزة في وقت آخر[1153]. ويروى عن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم أنه وعد أمّته بقوله: «يبعث الله على رأس كل مئة سنة رجلاً من أهل بيتي يبيّن لهم أمر دينهم». وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء «المجدِّدين» الذين يُبعث كل واحد منهم في أوائل قرنه.

ولقد انتقى العلماء حوالي عام 400 هـ / 1010 م ثلاثة رشّحوهم لهذه المهمّة، وكلهم لم يكونوا ذوي شأن عظيم؛ وفي حوالي عام 300 هـ / 912 م لم يقع اختيارهم إلا على الأشعري (توفي عام 325 هـ - 936 م)[1154]. ويدلّ هذا على قلّة العلماء بين جمهور أهل السُّنّة، لأنّ أعظم مفكري الإسلام في ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المُعتزلة الذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل التي يعالجها المتكلّمون. ولم يكن المُعتزلة كفرقة لها مذهبها الخاصّ أشدّ مخالفة لأهل السُّنّة من الإماميّة في ذلك العهد بالقرن الخامس الهجري[1155]. وفي القرن الرّابع الهجري كانت مخالفة المُعتزلة لجمهور المسلمين مخالفة كلاميّة محضة لا تخرج عن حدود مسائل علم الكلام، وهي شبيهة بخلاف الصُّوفية. لأنّ هؤلاء اعتبروا فِرقة إلى جانب الفِرق الأخرى الكبيرة[1156]. كان بين المُعتزلة إماميّة

كالزّيدية؛ وكان من هؤلاء بعض أهل البيت مثل أبي عبد الله الدّاعي، وهو أحد تلاميذ أبي عبد الله البَصْري[1157]. وكان من الإماميّة المُعتزِلة المشهورين إلى جانب من تقدم أبو الحسن الرّاوندي والرّماني اللغوي[1158] (توفي عام 384 هـ - 994 م)، وكان أساتذتهم كلهم تقريباً عجماً هاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان؛ بل يقال إن الجُبَّائي (توفي عام 303 هـ - 915 م) ألّف تفسيراً للقرآن بالفارسية[1159]. وكان موضوع بحث المُعتزِلة علم العقائد بمعناه المحدود، وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشّر. وكانت هذه المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمغتهم التي تأثرت بمذهب زرادشت. وكان إمام المُعتزِلة في عصر المأمون أبو الهُذيل العلّاف وأكبر ما ظهرت فيه مقدرته وانتصاراته وردوده على الثّنوية[1160]. وفي أواخر القرن الثّالث الهجري أخرج المُعتزِلة أكبر مدافع عن مذاهب الثّنوية، وهو ابن الرّاوندي الذي كان من المُعتزِلة، ثم انسلخ عنهم، حتى استعانوا بالسُّلطان على قتله[1161].

وفي القرن الرّابع الهجري كان مآل المُعتزِلة في أصفهان على الأقل[1162] مآل الصُّوفية من أنهم دخل فيهم بعض الإماميّة فانتسبوا بسبب ذلك لعلي[1163]. ويذكر الخوارزمي أن المُعتزِلة يعتدّون بالحسن البَصْري - الذي يعتدّ الصُّوفية به ويدّعونه لأنفسهم اعتداد الإماميّة بالوصيِّ، واعتداد الزّيدية بزيد بن علي، والإمامية بالمهدي[1164]. ونرى آثاراً متفرّقة تدلّ على أثر مذاهب الغنوصيين في المُعتزِلة، كقولهم إن للعالم خالقين: أحدهما قديم وهو الله تعالى؛ والآخر حادث، وهو كلمة الله عز وجلّ، عيسى بن مريم، التي بها خلق العالم[1165].

وكان بعض المُعتزِلة في القرن الرّابع يتكلّمون في القدر وفي تحديد معنى الفسق. ولكن كان أسساسهم الذي يتمسّكون به هو الكلام في التّوحيد وما يوصف به الله تعالى؛ ثم يزيد بعضهم غير ذلك[1166]. ولا يخلو ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية التي كان لها أثر فعال في تجييش النّفوس في أثناء القرن الثّالث، وإن كان تأثيرها مقصوراً على الطّبقة العليا من المتكلّمين كالنّظام والجاحظ[1167]، ومن تأثير علم العقائد المسيحي الذي كان طول تلك المدّة مهتماً ببيان وحدة الذّات وتنزّهها عن الكثرة[1168]. ولما كان المُعتزِلة قد جعلوا عُمدة بحثهم الكلام في ذات الله وصفاته، لم يقتصر الأمر على أن صارت هذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم، بل أدى كلامهم في هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص، كما أن مباحثهم في هذا الموضوع كان لها أثر في مذهب باروخ سبينوزا Baruch Spinoza، ونفذ التّأثير من مذهب سبينوزا إلى الفكر الأوروبي.

ويقول ابن حَزْم إن المُعتزِلة هم الذين اخترعوا لفظ الصّفات، وكان المستعمل قبل ذلك هو كلمة «النّعوت» أو «الأسامي»[1169]. أما ما يمتاز به المُعتزِلة من الخصال فيقول البِشاري المقدسي[1170]: إنهم لا ينفكّون من أربع خصال: اللطافة والدّراية والفسق والسّخرية. وممّا يدلّ على أن المُعتزِلة كانوا مولعين بالمناظرة والجدل أن مذهبهم كله يقوم على الجدل[1171]، ولذلك قال

المُعتزِلة إن المختلفين كلاهما على صواب[1172]. ومع ذلك كانوا متكاتفين حتى إن تكاتفهم في القرنِ الرّابع كان مضرب المثل[1173].

وكان المتكلّمون ينظرون في كل شيء، «وأرادوا معرفة كل شيء»[1174]. وكان من يسمّون بالفلاسفة ينظرون إليهم بعين التّصغير، كما ينظر الباحث في علم النّفس التّجريبي إلى صاحب ما بعد الطّبيعة»[1175] وكان الفلاسفة يرمون المتكلّمين بالتّعصّب وسدّ باب اليقين عنهم، ولهذا قلّ تنزّههم»[1176]. ولما كان المتكلّمون ينكرون السّحر بجميع صوره والتّنجيم، بل أنكروا كرامات الأولياء: «اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلّمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبد الله اللّطفي، وأبو زيد البَلْخي»، والأول والثّالث من هؤلاء الثلاثة ـ ولا أعرف من أمر الثّاني شيئاً ـ رجلان يمثلان الفكر الحرّ على نحو جدير بالتّقدير؛ أما الجاحظ «فيزيد لفظه على معناه»؛ وأما أبو زيد «فيتوافق لفظه ومعناه»[1177]، والجاحظ يشبه ولتير Voltaire؛ أمّا أبو زيد (توفي عام 322 هـ - 933م) فقد كان أثبت وأكثر اتزاناً، وهو يشبه ألكساندر هُمبولت Alexander Humboldt. وقد جمع إلى دراسة الفلسفة دراسة التّنجيم والطّب والجغرافيا وعلوم الطّبيعة؛ وألّف كتاباً سمّاه «نظم القرآن»، تكلّم فيه بكلام لطيف وكان يتنزّه عن التّأويل البعيد للقرآن. وكان المروزي يجري عليه صلات دائمة، فلما أملى كتابه في البحث عن التّأويلات قطعها عنه قُطبٌ من أقطاب القرامطة.

وهذا مثال من نظر خصوم الجاحظ إليه فيما كتبه ابن قتيبة: «هو أشدّهم تلطفاً لتعظيم الصّغير حتى يَعظم وتصغير العظيم حتى يصغر؛ ويبلغ به الأقتدار إلى أن يعمل الشّيء ونقيضه، ويحتجّ لفضل السّودان على البيضان، وتجده يحتجّ مرّة للعثمانية على الرّافضة ومرة للزّيدية على العثمانية وأهل السُّنّة، ومرة يفضّل علياً ومرة يؤخّره؛ ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النّصارى على المسلمين؛ فإذا صار إلى الرّدّ عليهم تجوز في الحجّة، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضّعفة من المسلمين. وتجده يقصد في كتابه للمضاحيك والعبث؛ يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النّبيذ؛ ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم، كذكره كبد الحوت، وقرن الشّيطان، وذكر الحجر الأسود، وأنه كان أبيض فسوّده المشركون، وقد كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا؛ ويذكر الصّحيفة التي كان فيها المنزل في الرّضاع تحت سرير عائشة، فأكلتها الشّاة، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادُم الدّيك والغُراب، ودفن الهدهد أمُّه في رأسه، وتسبيح الضّفدع، وطوق الحَمامة، وأشباه هذا. وهو مع هذا من أكذب الأمّة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل»[1178].

ولقد روي أنّ زعيمهم ثُمامة بن أشرس رأى قوماً يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فوت الصّلاة فقال: «انظروا إلى البقر! انظروا إلى الحمير! ثم قال لرجل من إخوانه: ما صنع هذا العربي بالنّاس؟»[1179].

في القرن الثّالث الهجري كان أهل السُّنّة ينظرون إلى المُعتزِلة بعين المَقت والازدراء؛ ثم خرج الأشعري عام 300 هـ / 912 م على المُعتزِلة، بعد أن كان منهم، وبدأ يحاربهم بسلاحهم؛ وعلى هذا نشأ في القرن الرّابع الهجري المذهب الكلامي الرّسمي القائم على العلم والنّظر العقلي، وكان مذهب الأشعري مذهب توفيق، وذلك شأن كل مذهب رسمي، ولذلك سمّي مذهباً أوسط[1180]؛ وقد حسب الأشعري أن في قدرته أن يوفّق بين مذهب أهل السُّنّة وبين العقل، وأعلن فيما كتبه تمسّكه بمذهب

الحنابلة؛ يقول الأشعري: «نحن معتصمون بما كان عليه أحمد بن حنبل، ولمن خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل والرّئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضّلال»[1181].

ولكن الحنابلة كانوا يخاصمون الأشعري[1182] بالحق، فيقول ابن الجوزي إن الأشعري ظلّ مُعتزلياً دائماً[1183]؛ وقد قدرٍّ لمذهب الأشعري ما يقدّر عادة لغيره من المذاهب التي تميل إلى التّوسط والتّوفيق بين ما اختلف؛ فانحرف عنه أهم تلاميذ الأشعري مائلين إلى رأي الخصوم العقليين، وأكثر ما نرى ذلك عند الباقلّاني (توفي عام 403 هـ - 1012 م)؛ فإنه أدخل في علم العقائد مسألة الجزء الذي لا يتجزّأ، والخلاء، وغير ذلك من الأشياء الغريبة عنه[1184].

وكان القاضي عبد الجبّار بالرِّي في ابتداء حاله يذهب في الأصول مذهب الأشعرية، ثم انتقل إلى خصومهم المُعتزلة وإليه انتهت الرّياسة فيهم[1185]. وكان الصّاحب بن عَبّاد قد أحسن إليه وقدّمه وولاّه القضاء؛ فَلما توفي الصُّاحب قال عبد الجبّار: لا أرى التّرحُّم عليه، لأنه مات من غير توبة ظهرت منه؛ فنُسب عبد الجبّار إلى قلّة الوفاء[1186]. ونرى من هذا أن المُعتزِلة لا يستحقون كل ما ينسب إليهم من أنهم أصحاب الفكر الحرّ.

وفي خلال القرن الرّابع الهجري كان أصحاب مذهب السُّنّة القدامى يحاربون الإماميّة الذين تمادوا ببغداد، ويضيّقون على متكلّمي المُعتزلة في سائر البلاد؛ ولكنهم على الرّغم من استهوائهم للعامة وإثارتهم لهم لم ينجحوا في ذلك إلا قليلاً، ولا نسمع من أمثلة هذا الاضطهاد إلا قليلاً[1187]؛ ولم يكن مذهب الأشعري قد قوي في ذلك العهد بحيث يُعدّ خصماً ويُهاجَم، فإنه لم ينشر في العراق إلا منذ نحو سنة 380 هـ - 1000 م[1188]، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الاضطهاد له؛ وقد حاول الحنابلة أن يمنعوا الخطيب البغدادي من دخول المسجد الجامع ببغداد، لأنه كان يذهب مذهب الأشعري[1189]؛ وكان أكابر الأشاعرة في ذلك العهد يُضطهدون ويُنفون في أيام طُغْرُل بك Tuğrul Bey. وقرب أواخر القرن الرّابع تحاملت الحنابلة على رجل من كبار الأشاعرة ذوي النّفوذ، وهو القُشَيري (توفي عام 514 هـ - 1120 م)؛ ووقع بسبب تهييج الحنابلة قتالٌ في الشّوارع، واضطر القُشَيري إلى ترك بغداد[1190].

وبدءاً من هذه الواقعة أرّخ ابن عساكر أوّل وقوع الانحراف بين الحنابلة والأشاعرة[1191]. ولم ينتشر مذهب الأشاعرة، وهو المذهب الكلامي الجديد الذي قدَّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئاً في الدّولة الإسلامية؛ ففي أقصى المشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة، وذلك على الرّغم ممّا بين الفريقين من تشابه في أصل المذهب، وكان لا بدّ للأشاعرة أيضاً أن يدرأوا هجمات الحنابلة الذين كان شيخهم حوالي عام 400 هـ - 1010 م يلعن أبا الحسن الأشعري أمام الملأ وينال من الأشاعرة[1192]، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكِرامية الذين تحزّبوا على الأشاعرة، ورفعوا أمرهم إلى السُّلطان مدَّعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم ليس نبياً اليوم وأن رسالته انقطعت بموته[1193].

أما في المغرب فقد انتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر، فقامت لهم سوقٌ في صقلية والقيروان والأندلس، «ثم رقّ أمرهم والحمد لله ربّ العالمين»[1194] في أيام ابن حَزْم. ولم يكن مذهب

الأشاعرة معروفا قط في شمال أفريقيا حتى حمله إليها ابن تومرت حوالي عام 500 هـ - 1107 م[1195].

وكانت الدّولة في أوائل القرن الخامس الهجري تتدخّل بشكل رسمي إلى حدٍّ ما لفضّ النّزاعات المذهبية، ففي عام 408 هـ - 1017 م أصدر الخليفة القادر كتاباً ضدّ المُعتزلة، فأمرهم بترك الكلام والتّدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام، وأنذرهم - إن خالفوا أمره - بالنّكال والعقوبة. وامتثل السُّلطانُ محمود في غَزْنَة أمر أمير المؤمنين واقتدى بسنّته في قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم، وأمر بلعنهم على المنابر، «وصار ذلك سُنّة في الإسلام»[1196]. وصدر في بغداد كتابٌ آخر، وذلك في سنة 433 هـ - 1041 م وقُرئ في الدّواوين، «وكتب الفقهاء خطوطهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر»، وكان هذا أول اعتقاد رسمي يعلنه الخليفة، وكان معنى ذلك نهاية تطور علم الكلام؛ ويستطيع الرّجل ثاقب النّظر أن يتبين في كل كلمة من هذا الاعتقاد جراثيم المنازعات التي مضت عليها قرون، وهاك نصه: «على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجلّ وحده لا شريك له، لم يَلِد ولم يُولَد، ولم يكن له كفواً أحد»، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، وهو أوَّل لم يَزل، وآخرٌ لا يزال، قادرٌ على كل شيء، غير عاجز عن شيء، إذا أراد شيئا قال له كن، فيكون، غني غير محتاج الى شيء، «لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ» «يُطْعِم ولا يُطْعَم»، لا يستوحش من وحدةٍ ولا يأنسُ بشيء، وهو الغني عن كل شيء، لا تُخلقه الدُّهور والأزمانُ، وكيف تغيُّره الدّهور وهو خالق الدّهور والأزمان، والليل والنّهار، والضّوء والظّلمة، والسّموات والأرض، وما فيها من أنواع الخلق، والبر والبحر وما فيهما، وكل شيء حي أو موات أو جماد؟ كان ربُّنا وحده لا شيء معه، ولا مكان يحويه، فخلق كل شيء بقدرَتِه، وخلق العرش لا لحاجته إليه، فاستوى عليه كيف شاء وأراد، لا استقرار راحة، كما يستريح الخلق؛ وهو مدبر السّموات والأرضين ومدبّر ما فيها ومن في البرّ والبحر، لا مدبّر غيره، ولا حافظ سواه، يمرضهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم، والخلق كلهم عاجزون، الملائكة والنّبيّون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون، وهو القادر بقدرةٍ، والعالم بعلم أزليّ غير مُستفاد، وهو السّميع بسمع والمُبصِرُ ببصر، يعرفُ صِفتَهما من نفسه، ولا يبلغ كنههما أحدٌ من خلقه، متكلّم بكلام، لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين، لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيّه عليه السلام؛ وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهي صفةٌ حقيقية لا مجازية؛ ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق، تكلّم به تكليماً، وأنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلّم على لسان جبريل بعدما سمعه جبريل منه، فتلاه جبريل على محمّد، وتلاه محمّد على أصحابه، وتلاه أصحابه على الأمّة، ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقاً، لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلّم الله به، فهو غير مخلوق فبكل حال متلواً ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً؛ ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر، حلال الدّم بعد الاستتابة منه.

ويعلم أن الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةُ: قولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان والجوارح، يزيد وينقص، يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية، وهو ذو أجزاء فأرفع أجزائه، لاإله الا الله؛ والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان، والصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد؛ والإنسان لا يدري كيف هو مكتوب عند الله، ولا بماذا يُخْتَمُ له، فلذلك نقول إنه مؤمن إن شاء الله، وأرجو أن أكون مؤمناً، ولا يضرّه الاستثناء والرّجا، ولا يكون بهما شاكًّا ولا مرتاباً، لأنه يريد بذلك ما هو مغيَّبٌ عنه من أمر آخرته وخاتمته؛ وكلّ شيء

يتقرَّبُ به إلى الله تعالى ويُعمل لخالص وجهه من أنواع الطاعات فرائضها وسننها ونفائلها فهو كله من الإيمان منسوب إليه، ولا يكون للإيمان نهاية أبداً، لأنه لا نهاية للفضائل ولا للمتنوع في الفرائض أبداً.

ويجب أن نُحبَّ أصحاب النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم كلهم، ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم وأن خَيْرَهم كلِّهم وأفضلهم بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم أبو بكر الصّديق، ثم عُمر بن الخطّاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، ونشهد للعشرة بالجنّة، ونترحَّم على أزواج رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم؛ ومن سبَّ عائشة فلا حظ له في الإسلام، ولا نقول في معاوية إلا خيراً، ولا ندخل في شيء شجر بينهم، ونترحم على جماعتهم، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} (10) [1197]، وقال فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [1198] ولا يكفَّر بترك شيء من الفرائض غير الصّلاة المكتوبة وحدها، فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ، حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر، وإن لم يجحدها، لقول النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم: بين العبد والكفر ترك الصّلاة؛ فمن تركها فقد كفر، ولا يزال كافراً حتى يندم ويعيدها، فإن مات قبل أن يندم ويُعيد أو يُضمر أن يُعيد لم يُصلَّ عليه وحُشر مع فرعون وهامان وقارون. وسائر الأعمال لا يُكَفَّر بتركها، وإن كان يُفسَّق حتى يجحدها؛ ثم قال: هذا قول أهل السُّنّة والجماعة الذي مَن تمسّك به كان على الحقّ المُبين، وعلى منهاج الدّين والطّريق الواضح ورُجي به النّجاة من النّار ودخول الجنّة إن شاء الله، وقال النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم: الدّين النّصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم؛ وقال محمد صلى الله عليه وسلّم: أيُّما عبد جاءته موعظة من الله تعالى في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها بشكر، وإلا كانت حجَّة عليه من الله تعالى ليزداد بها إثماً ويزداد بها من الله سخطاً، جعلنا الله لآلائه شاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسُّنّة معتصمين، وغفر لنا ولجميع المسلمين[1199].

ولقد كان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنّصارى؛ وهو التّسامح الذي لم يُشاهد مثله في العصور الوسطى، سبباً في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قطّ من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة المِلل؛ ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلّمين؛ ذلك أن النّوبختي، وهو مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء والدّيانات، كان من نقلة كتب اليونان إلى لسان العرب[1200]. وكذلك ألّف المسعودي كتابين في الدّيانات[1201]. ثم جاء أحد عُمّال الدّواوين المُسبَّحي (توفي عام 420 هـ - 1029 م)، ومن مؤلفاته كتاب درك البغية في وصف الأديان والعبادات، وهو كتاب مطول على طريقة المُسبَّحي، ويقع في ثلاثة آلاف وخمسمئة ورقة؛ وإذن فقد عني هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث في الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدّولة؛ وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي يتصل بعلوم الدّين من بين كتب المُسبَّحي؛ ومرجع عنايته بذلك إلى أن أسرته من حران، ولذلك عني بما كان يعنى به الصّابئة[1202].

ثم بادر إلى البحث في الملل بعض المتكلّمين الميّالين إلى معرفة ما غاب عنهم، فمن ذلك كتاب المِلل والنِّحَل، (وقد صار هذا الاسم شائعاً بين المؤلفين في هذا الباب) لأبي منصور البغدادي (توفي عام

422 هـ - 1031 م)[1203]؛ ثم جاء ابن حَزْم الأندلسي المتّقد حماسةً وتقوى (توفي عام 456 هـ - 1064 م) فألّف كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل»، وردّ فيه على مختلف المذاهب، وفي أوائل القرن الخامس الهجري ألّف البيروني (توفي عام 400 هـ - 1009 م) كتابه المسمَّى «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، وجعله كتاب حكاية لمذاهب الهند على وجهها، ولذلك لم يناقض الخصوم، وإن باين الحقّ[1204]، فكان كتابه بحثاً علميًّا حياديًّا.

وعلينا أن نلاحظ أن عقيدة مؤرّخي النِّحَل كانت في الغالب موضعاً للشّكّ والطّعن؛ فاتُّهم الشّهرستاني بالتّخبُّط في الاعتقاد، وبأنّه لم يكن في مجالس وعظه «قال الله» ولا «قال رسول الله صلّى عليه وسلّم» ولا جوابٌ من المسائل الشّرعيّة[1205].

الفصل الرّابع عشر
مذاهب الفقه

Die Rechtsschulen

في القرن الرّابع الهجري كانت أهم نقطة فاصلة في تاريخ التّشريع الإسلامي؛ إذ يُعدّ أنه في هذا القرن توقّف التّكوين المستقل للتّشريع الإسلامي المبني على الاجتهاد المُطلق وعلى الحكم بالرّأي في فهم القرآن والحديث[1206]. ومضى عصر الابتكار في التّشريع، وعُدّ العلماء الأوّلون كالمعصومين، وأصبح الفقيه لا يمكنه إصدار حكمه الخاص إلا في المسائل الصّغيرة؛ وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجيء الرّبانيين بعد مضي عهد علماء الكَتَبة (هَسّوفيريم) الذين يعلمون الكتاب ويحقّ لهم الاجتهاد.

غير أنّ هذه هي وجهة النّظر الإسلامية في المسألة. والواقع أنه ظهر في هذا الميدان الفقهي ما ظهر في غيره من الميادين، وأخصّه تسرّب آراء في التّشريع ممّا كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامي، كما أحييت من جديد بعض النّظريات اليونانية والرُّومانية القديمة. وكان يمثِّلها الفقهاء، ويخالفهم أصحاب الحديث؛ وكان المتمسّكون بالسُّنّة القديمة يقيّمون الحياة بمقياس نصوص الوحي والسّنة النّبوية. ولم يشأ هؤلاء المتمسّكون بالقديم أن ينزلوا عن مكانهم بسهولة. فقد كانت لهم الغلبة

في إقليمين من أهم أقاليم الدّولة الإسلامية وهما فارس والشّام؛ وكذلك كانت لأهل الحديث غلبة في السِّنْد، كما كانت هَمَذان وأجنادها أصحاب حديث[1207].

وكان أخصّ المذاهب بين أصحاب الحديث: الحنابلة، والأوزاعية والثّورية[1208]. ولم يكن الحنابلة في ذلك - خلافاً لما آل إليه الحال فيما بعد - يعدّون من جُملة الفقهاء، وفي سنة 306 هـ - 918 م ذُكر أصحاب المذاهب فكانوا: الشّافعية والمالكية والثّورية والحنفية والدّاودية[1209]. وفي أواخر القرن الرّابع كانوا: الحنفية والمالكية والشّافعية والدّاودية[1210]. ولم يذكر الحنابلة بين الفقهاء في هاتين المدتين؛ ولما توفي الطّبري عام 310 هـ - 922 م وقعت في جنازته قلاقل بتأثير الحنابلة؛ وقد تعصب عليه هؤلاء، لأنه جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسُئل في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً، وإنما كان مُحدِّثاً[1211]. ولم ينل الحنابلة الاعتراف بأنهم فقهاء إلا أخيراً[1212]. أما مذهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء، ففي القرن الثّالث الهجري غلب المالكية على أصحاب الأوزاعي في الأندلس. وكان قاضي دمشق المتوفى عام 347 هـ - 958 م أوزاعي المذهب[1213]؛ وكان للأوزاعية على عهد البِشاري المقدسي مجلس بجامع دمشق[1214]. ويرى المقدسي أيضاً أن مذهب الأوزاعي لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه كان مُتَطَرِّفاً، فقلَّ الواردون عليه والنّاقلون عنه؛ «ولو كان على سابلة الحج لنَقَلَ مذهبه أهلُ الشّرق والغرب»[1215]؛ وكذلك يَعُدُّ البِشاري المقدسي مذهب سُفيان الثّوري بين المذاهب المدرسة، بعد أن كان لهذا المذهب جَلَبةٌ في أصفهان[1216] وفي سنة 405 هـ - 1014 م توفي أبو بكر الدّينوري ببغداد، وهو آخر من أفتى بجامع المنصور على مذهب الثّوري[1217]. ولم تكن المذاهب قد استقرّت في مطلع المئة الثّالثة، رغم ما قيل من أنه في هذا التّاريخ كان قد بطل نحوٌ من خمسمئة مذهب[1218].

ولقد أسّس داودُ الأصفهاني (توفي عام 270 هـ - 883 م) مذهباً كان له شأن، وهو مذهب الظّاهرية؛ وقد عَظُم شأن هذا المذهب في الشّرق في القرن الرّابع الهجري، وكان من بين أتباعه كثير من أصحاب الجاه بإيران[1219]. وكان الدّاودية بفارس يتقلّدون الأعمال والقضاء، وكانت لهم الغلبةُ، لأن السُّلطان عضد الدّولة كان يتقلّد هذا المذهب[1220]. وقد أنكر الظّاهرية أشد الإنكار ما فعله الشّافعي من محاولة التّوفيق بين المنهج الفقهي القديم الذي انتهى إليه وبين المنهج الجديد[1221]؛ وكان مذهب الظّاهرية سبباً في وضوح المناهج، شأن غيره من مذاهب المتطرّفين، وكانت القاعدة الكبرى التي استندوا إليها هي التّمسُّك بحرفيَّة النّصوص تمسًّكا دقيقاً. ولكن هذه قاعدة علمية، وسرعان ما أدْركوا أن الفقه ليس علماً نظرياً، بل هو عمل؛ ولم يكن الأثر الأكبر لمنهجهم القائم على محو اللّبس، في الفقه، بل كان في المباحث التّاريخية واللغوية. ويرى البِشاري المقدسي أن أكبر عوائد أصحاب داود هي: الكبر، والحدّة، والكلام، واليسار[1222].

كما أسّس الطّبري صاحب التّاريخ (توفي عام 310 هـ - 923 م) مذهباً خاصاً به، وقد ظل النّاس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصّلاة على قبره ليلاً ونهاراً[1223]. وكان للطّبري صاحبٌ يسمّى ابن شجرة (توفي سنة 350 هـ - 961 م)، وقد ناهز التّسعين؛ وكان جريري المذهب، ثم خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه، ولا يضع لأحد من الأئمة أصلاً؛ ومع هذا تقلّد قضاء الكوفة (ياقوت،

إرشاد الأريب ج 2 ص 18)، وهذا دليل على مرونة الظروف في المشرق؛ وكذلك كان ابن حربويه الشّافعي المذهب، قاضي مصر (توفي عام 319 هـ - 931 م) بعد أن جاوز المئة، يختار في أحكامه دون أيّ تأثير من السّلطة. «وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه؛ لأنه كان لا يُطْعَنُ عليه في علم» (الكندي ص 528؛ طبقات السّبكي ج 2 ص 303).

وعلى ذلك، استقرّت المذاهب الفقهية الكبرى في ذلك العصر وتوطّدت أركانها على النّحو الذي نجده اليوم، إذا استثنينا البلاد التي آل أمرها إلى الإماميّة؛ ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا في القرن الرّابع الهجري[1224].

وفي هذا القرن فتح مذهب الشّافعي - وهو أهم المذاهب اليوم - البلاد التي يحتلّها اليوم، وكان أكبر مراكزه مكّة والمدينة[1225]. ويقول السّبكي: «وأما بلاد الحجاز فلم تَبْرَح أيضاً منذ ظهور مذهب الشّافعي، وإلى يومنا هذا، في أيدي الشّافعية القضاءُ والخطابةُ والإمامة بمكّة والمدينة، والنّاس من خمسمئة وثلاث وستين سنة يخطبون في مسجد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، ويصلّون على مذهب ابن عمّه محمّد بن إدريس، وهو محمد صلى الله عليه وسلّم حاضرٌ يبصر ويسمع، وفي ذلك أوضح دليل على أن هذا المذهب صواب عند الله تعالى»[1226] ؛ ولم يكن للشّافعي أتباع كثيرون في العراق، وكان الغالب على فقهاء هذا الإقليم وقضاته أصحاب أبي حنيفة[1227]، وإن كان قد وَلِي قضاء ببغداد أحد الشّافعية سنة 338 هـ - 949 م[1228]؛ وقد أفلح الشّافعية في التّغلب على الحنفية بالمشرق[1229]، وكان أكبر حصن لهم في الشّام ومصر. وكان أبو زرعة (توفي عام 302 هـ - 914 م) أول من ولي قضاء مصر من الشّافعية، وهو أول من أدخل في دمشق مذهب الشّافعي وحكم به، ولم يَلِ بعده قضاء الشّام إلا شافعيٌّ المذهب[1230]. وكان ينافسهم في مصر المالكية الذين استولوا على مصر منذ منتصف القرن الثاني الهجري. وفي سنة 326 هـ - 938 م كان للمالكيين في المسجد الجامع بالفُسطاط خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة؛ ثلاث حلقات فقط[1231]. وفي عهد البِشاري المقدسي تولّى إمامة مسجد ابن طُولون Ibn Tolûn أحد الشّافعية لأول مرة، ولم يقدّم في محراب هذا المسجد إمامٌ قط قبله إلا وهو يتفقّه لمالك[1232]، وكان معظم الفقهاء بمصر من أصحاب مالك. وكان النّعّالي (توفي عام 380 هـ - 990 م) إمام المالكية بمصر، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها[1233]. ولهذا اشتدت الدّولة الفاطمية في محاربة المالكية؛ ففي سنة 381 هـ - 991 م مثلاً ضُرب رجل بمصر وطيف به في المدينة، لأنه وُجد عنده كتابُ الموطَّأ لمالك بن أنس[1234].

وحينما سقطت دولة الفاطميين وحلّت محلّها دولة الأيوبيين، وهم من الأكراد الشّافعية، أتمّوا انتصار هذا المذهب بإيثارهم للفقهاء الشّافعية؛ ولكن الصّعيد بقي بالإجمال مالكي المذهب إلى أيامنا، ولم ينتشر مذهب الشّافعي غرباً أكثر من ذلك؛ وقد اقتسم المالكية والحنفية بلاد المغرب؛ وكان مذهب الحنفية بفضل مرونته أكثر ملاءمة للحكومة الفاطمية من مذهب مالك، ولكن لما خرجت بلاد المغرب من أيدي الفاطميين سنة 440 هـ - 1048 م لم يقتصر البلاء على مذهبهم الإمامي فقط بل شمل مذهب الأحناف السّنّيين، وانتقل المغرب إلى مذهب مالك، ولا يزال عليه إلى اليوم[1235]، أما في الأندلس فكانت السّيادة المطلقة لمذهب مالك[1236].

أما في بغداد نفسها فقد كان الحنابلة، دون سائر أهل السُّنّة، أكثر من أثار القلاقل وأتعبوا الحكّام؛ ثم إنهم اشتدّوا في محاربة الإماميّة ببغداد؛ وقد بنوا ببغداد مسجداً «وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة»[1237]؛ وكان المالكيّة في عام 323 هـ - 935 م إذا مرّ بهم شافعيّ المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيّهم حتى يكاد يموت[1238]. وكان الشّافعية أشد الفقهاء قدرة على الشّغب، كما وصف البِشاري المقدسي.

والمؤرّخ معرّض للخطأ في هذه المسائل لأن معظم معلوماتنا عن هذه الحركات مستقاة من مصادر شافعية؛ ولكن الشّافعية لم يكونوا بمعزل عن النّزاع الفقهي، على حين كان خصومهم يتصالحون ويبحثون عن طريق للوفاق. غير أنّ المذاهب كانت في المُجمل على وفاق ومسالمة تامّة في القرن الرّابع. ونرى العلماء - كالبِشاري المقدسي - يوصون بترك الخلاف، ولزوم أحد المذاهب، ولم يكن الانتقال من مذهب إلى آخر بالأمر العسير:

فيُروى أن أحمد بن فارس، أكبر اللغويين (توفي عام 369 هـ - 980 م) كان شافعياً، فصار مالكياً وقال: دخلتني الحَمِيَّة لهذا البلد، يعني الرِّي، كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرّجل المقبول القول على جميع الألسنة[1239]. وقد اختير لإمامة مسجد ابن طُولون بمصر أحد الشّافعية بعد أن كان لا يقدّم فيه إلا مالكي؛ وكان ذلك لسبب بسيط، وهو أنه لم يوجد أطيب منه[1240]. ولما سُئل البِشاري المقدسي عن سبب تفقّهه لأبي حنيفة، مع أنه شاميّ وأهلُ ناحيته أصحاب حديث يتفقّهون للشّافعي، أجاب بأنه استحسن مذهبه لخِلالٍ ذَكَرَها[1241].

الفصل الخامس عشر
القاضي

Der Qâdî

لم يجهد المسلمون في التّفكير إلا بعض الشّيء في الشُّرعة التي تقضي بالفصل الاساسي بين السّلطتين: القضائية والتّنفيذية، وكان هذا أيضاً حال أوروبا المسيحية حتى أحدث العصور. فقد كان النّبيّ هو القاضي الأعلى للمسلمين، وكذلك كان خليفته من بعده، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السّلطة بالنّيابة عنه، ثم جرى أنّ كثرة الواجبات تطلّبت الاستعانة ببعض القُضاة، كما يُروى عن

المختار، فإنه في البدء كان يجلس للقضاء بنفسه، وقد نشط في ذلك وأحسن، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القُضاة[1242]. ولهذا السّبب نفسه لم يحدّد اختصاص القاضي بالنّسبة لاختصاص الوالي تحديداً دقيقاً. وقد احتفظ الوالي لنفسه بما كان «يعجز عنه القاضي الماوردي»؛ وإذا لم يقبل الوالي حكم القاضي لم يكن أمام القاضي إلا أن ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس في منزله مضرباً على الأقل[1243]. ولكن مثل هذا الإهمال لحكم القاضي لم يكن كثير الوقوع؛ فلم يذكر الكندي صاحب تاريخ القُضاة بمصر من أمثلة التّصادم بين حكم القاضي وبين الوالي في مسائل ممّا يمسّ الأحوال الشّخصية إلا حادثتين طوال القرون الأولى؛ وكانت إحدى هاتين الحادثتين مسألة هامة جداً من حيث المبدأ؛ وذلك أن امرأة تزوّجها رجلٌ ليس من أكفائها، فقام بعض أوليائها وأنكروا الزّواج، وترافعوا إلى القاضي ليفسخ النّكاح، فأبى؛ فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضي بفسخ النّكاح، فامتنع أيضاً؛ ثم فرق الأمير بينهما[1244]. ونرى هنا اصطداماً بين مبدأين: المبدأ العربي القائم على الأرستقراطية والدّم، ومبدأ الإسلام الدّيمقراطي الذي يحكم على النّاس لا باعتبار الدّم بل على قاعدة: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

وبتأثير من القُضاة على الإدارة الإقطاعية في عهد العبّاسيين خرج القاضي من سلطان الوالي، وصار يُعَيِّنه الخليفة مباشرة أو يقرُّ تعيينه على الأقل. وكان أبو جعفر المنصور أوّل خليفة ولى قُضاة الأمصار من قِبَله[1245]. وفي سنة 324 هـ – 935 م سلَّم الإخشيد قضاء مصر إلى أبي بكر بن الحداد، فألّف البعض فيه الأشعار يثلبونه، لأنه تولّى القضاء من قِبَل الإخشيد لا من قبل الخليفة[1246]. وفي سنة 394 هـ - 1004 م قلّد السُّلطان بهاء الدّولة النّقيب أبا أحمد الموسوي نقابة العلويين بالعراق، فلم ينظر في قضاء القُضاة لامتناع الخليفة من الإذن له بذلك[1247]. ومن الحقوق القليلة الباقية التي يمتاز بها الخليفة اليوم تعيينه قاضي القُضاة بمصر[1248]. وقد عظم شأن القُضاة وقوي مركزهم منذ عهد الخُلفاء الأولين من بني العبّاس؛ فقد كانت العادة أن الولاة يُحضِرُون القُضاة إلى مجالسهم؛ فلما قدم الكندي قاضياً على مصر من قبل الرّشيد عام 177 هـ - 793 م أرسل إليه الأمير يأمره بحضور مجلسه، فقال: لو كنت تقدّمت إليك في هذا لفعلت بك وفعلت يا كذا وكذا[1249]. ولكنّ الأمر انعكس في القرن الثّالث الهجري، فكان الولاة يحضرون مجلس القاضي[1250] إلى أيام القاضي ابن حربويه عام 321 هـ - 933 م، فكان آخر من ركب إليه الأمراء، لأنه كان لا يقوم للأمير إذا أتاه. وكان هذا القاضي مثلاً أعلى للعدالة، وكان لا يؤمِّر أحداً من ولاة مصر بل كان يدعوهم بأسمائهم؛ ويُروى من تصميمه أنّ مؤنساً الخادم، وهو أكبر أمراء المُقتدِر، أرسل إلى القاضي يطلب شهوداً يشهدهم أنه أوصى بوقف على سبيل البر، فقال القاضي: لا أفعل حتى يثبت عندي أنّ مؤنساً حُرٌّ.

وكان ابن حربويه مهيباً وافر الحرمة، لم يَرَه أحدٌ يأكل ولا يشرب ولا يغسل يده، وإنما يفعل ذلك في خلوة. ولاراه أحد يتمخّط ولا يبصق ولا يمسح وجهه؛ وكان عليه من الوقار والحشمة ما يتذاكره أهل بلده؛ وكان يختار في أحكامه، ويرى أن من قلّد فهو متعصّب أوغبي؛ وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه، ولم يكن يلحق علمه طعن، ولا رشده تهمة[1251]. وقد اختصم عنده رجلان، وكان المدَّعى عليه قد سبق إليه وجعل نفسه المدَّعي صاحب الحق، فضحك خصمه متعجباً؛ وعند ذلك صاح ابن حربويه صيحة ملأت الدّار، وقال: «ممّ تضحك، لا أضحك الله سنّك، تضحك في

مجلس، الله مطلع عليك فيه، ويحك! تضحك وقاضيك بين الجنّة والنّار؟»؛ فأرعب القاضي الرّجل، ومرض ثلاثة أشهر[1252]. وكان القاضي الإسفرائيني قاضي بغداد (توفي عام 406 هـ - 1015 م) قد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشّيخ: اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي، وأن أقدر أن أكتب إلى خُراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك[1253]. وممّا يدلّ على رهبة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد أننا نرى الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السّجن، ولا يُروى مثلُ ذلك إلا عن قليل من القُضاة، ولم يَمُتْ في أثناء السّجن إلا قاض واحد، ولا يعلم أن قاضياً مات في السّجن سواه، وهو القاضي أبو أميَّة، وكان أمر هذا القاضي غريباً؛ فإنه كان قليل العلم، وكان يتّجر في البزّ ببغداد، فاستتر عنده الوزير ابن الفُرات أيام محنته، وقال له: إن وُليّت الوزارة فأيّ شيء تحب أن أصنع بك؟ فقال: تقلّدني شيئاً من أعمال السُّلطان، قال: أقلّدك القضاء، قال: قد رضيت. ثم خرج ابن الفُرات، وولي الوزارة مرّة أخرى وأحسن إلى أبي أميَّة، فولّاه قضاء البصرة وواسط والأهواز؛ وربّما أراد بذلك أن يغيظ الفقهاء؛ ولكن عفّة أبي أميَّة وتصوّنه غطيّا على نقصه في العلم، وكان يتيه على أمير البصرة، ولا يركب إليه، حتى ورد على الأمير كتاب مع طائر بنكبة ابن الفُرات والقبض عليه، فقبض على أبي أميَّة وأدخله السّجن[1254].

غير أنّ دوائر الفقهاء لم تكن من النّاحية النّظرية تنظر إلى منصب القضاء بعين الرّضا؛ ونرى الكلام في قبول القضاء وعدم قبوله يمتدّ حتى إلى القرن الرّابع الهجري، ويقول السَّمَرقندي (توفي عام 375 هـ - 985 م): اختلف النّاس في قبول القضاء، فقال بعضهم: لا ينبغي أن يُقبْل القضاء، وقال بعضهم: إذا ولي رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يقبل إذا كان يصلح لذلك الأمر[1255]. وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم من شأنها أن ترهب القُضاة حتى العادل منهم[1256].

ولمّا كتب عُمر بن الخطّاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنّة على القضاء، أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين، فقال كعب: والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة، ثم يعود فيها أبدا إذا أنجاه الله منها، وأبى أن يقبل القضاء[1257].

وفي سنة 70 هـ - 689 م تولّى قضاء مصر ابن حجيرة، فلما بلغ أباه ذلك قال: إنا لله وإنا اليه راجعون، هَلَكَ الرُّجل[1258].

لستُ أدري كيف كان موقف المسيحيين الأولين من مسألة القضاء؛ أمّا المسلمون فلقد تمسّكوا بالوصيّة التي جاءت في (موعظة الجبل) للمسيح من عدم التّصدّي لإدانة النّاس والحُكم عليهم.

ويُروى من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قُلابة دُعي للقضاء، فهرب من العراق حتى أتى الشّام، فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمامة؛ وروي عن سُفيان الثّوري أنه دعي إلى القضاء، فهرب إلى البصرة حيث مات وهو مُتوار؛ وروي عن أبي حنيفة أنه ابتلي بالضّرب والحبس فلم يقبل[1259]؛ وقد حكى الطّبري أن قوماً من أهل الحديث تحاموا حديث أبي يوسف القاضي من أجل غلبة الرّأي عليه مع صحبة السُّلطان وتقلّده القضاء[1260]. وفي عهد الخليفة المهدي أُلزم قاضي المدينة ولاية القضاء بعد أن أشرف عليه والي المدينة بضرب السّياط.

وكان القاضي شَريك قد ولي القضاء حوالي هذا العصر بعد تأبٍّ، وذهب إلى الصّيرفي ليأخذ رزقه، فضايقه في النّقد فقال له الصّيرفي: إنك لم تبع به بزًّا، فقال له شريك: بل والله بعتُ أكثر من البزّ، بعتُ به ديني[1261].

بل يُروى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هرباً من تولّي منصب القضاء[1262].

وكان الصُّوفية بنوع خاص يقفون من القُضاة الذين يسمّونهم علماء الدّنيا على طرفي نقيض، ويقولون: «إن العلماء يُحشرون في زُمرة الأنبياء، والقُضاة يُحشرون في زُمرة السّلاطين»؛ ويُروى أن إسماعيل بن إسحاق القاضي كان من علماء أهل الدّنيا، وكان مؤاخياً لأبي الحسن بن أبي الورد، وكان هذا من أهل المعرفة، فلما ولي إسماعيل القضاء هجره ابن أبي الورد، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه في شهادة، فضرب ابن أبي الورد على كتف إسماعيل القاضي، وقال: يا إسماعيل! علم أجْلَسَك هذا المجلس لقد كان الجهل خيراً منه؛ فوضع إسماعيل رداءه على وجهه وبكى حتى بلّه[1263].

وكان الحنفيّة فيما يتعلّق بالقضاء أول من خضع لما اقتضته ظروف الحياة، وهذا شأنهم بالإجمال فيما عدا ذلك؛ ويُروى عن الفقيه الشّافعي ابن خيران (توفي عام 310 هـ – 922 م) أنه كان يعيب صاحبه على تولّي القضاء، ويقول له: هذا الأمر كان في أصحاب أبي حنيفة. وكان ابن خيران قد امتنع من تولّي قضاء بغداد، فوكّل الوزير به في داره، وختم الباب بضعة عشر يوماً[1264].

ولكنّ أبا بكر الرّازي (توفي عام 370 هـ - 980 م)، الذي كان إمام أهل الرّأي في عصره، خوطب في أن يلي قضاء القُضاة فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يفعل[1265]. وكانت العادة حتى أواخر القرن الرّابع تقضي ألّا يقبل أحد منصب القضاء إلا بعد إحجام وتردّد. ولما صُرف ابن عبد الواحد عن قضاء البصرة، وحلّ محلّه أبو الحسن ابن أبي الشّوارب وذلك في عام 399 هـ - 1009 م قال الشّاعر [1266]:

هذا، وذاك يُهنَّى	من قاضيين يعزى
فمن يصدُّق منّا	ويكذبان جميعاً

وقد اختُلف هل يأخذ القاضي عن القضاء رزقاً؟ ويقال إن عُمر بن الخطّاب منع من ذلك. أما الخصَّاف الفقيه الحنفي (توفي عام 261 هـ - 874 م) فقد حاول أن يثبت جواز أخذ القاضي لرزق من بيت المال مستنداً في ذلك إلى أحاديث نبوية وإلى أمثلة جرت في الصّدر الأول[1267]. ولما ولي القضاء بمصر ابن حُجيرة سنة 70 هـ - 689 م كان رزقه في السّنة من القضاء مئتي دينار (حوالي 200 مارك)، وكان لابن حُجيرة إلى جانب ولاية القضاء القَصَصَ وإدارة بيت المال؛ وكان رزقه من القصص ومن إدارة بيت المال أربعمئة دينار، وكان عطاؤه مئتي دينار، وكانت جائزته مئتي دينار، فكان مجموع رزقه في السّنة ألف دينار[1268]، وفي سنة 131 هـ - 748 م كان رزق قاضي

مصر عشرين ديناراً في الشّهر [1269] (حوالي 200 مارك)، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لا يكاد يكفي للإنفاق على كتاب القاضي وعلى غير ذلك ممّا يتطلّبه ديوانه؛ ومع أن القاضي ابن حُجيرة كان يأخذ ألف دينار في كل سنة، فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء[1270].

وقد دخل رجل على قاضي الفسطاط في سنة 90 هـ - 709 م، فأتت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء، فقال ابلل وكُل، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز [1271]. وكان القاضي بمصر عام 120 هـ - 736 م يتّجر -إلى جانب منصبه - بالزيت، فقال له رجل حديث السّنّ: وأنت أيضاً تتّجر! فيقول: «فضرب بيده على كتفي، ثم قال انتظر حتى تجوع ببطن غيرك، قلت في نفسي كيف يجوع إنسان ببطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم[1272].

وكان القاضي الذي ولي قضاء مصر عام 144 هـ - 761 م، متحرًّيا جداً فيما يتعلّق برزقه، فكان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازةً أو اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل، «وكان يعمل الأرسان، كل يوم رسنين، واحداً ينفقه على نفسه وأهله، وآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الإسكندرية»[1273].

وكما جعل العبّاسيّون للقاضي منصباً مستقلًّا فإنهم رفعوا رزقه أيضاً، فكان رزق الذي ولي القضاء على مصر ثلاثين ديناراً في كل شهر؛ وكان رزق قاضي مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً في كل شهر أيضاً، وكان يأخذ عسلاً بدل عشرة منها[1274]. أما في عصر المأمون بما كان فيه من كرم فقد أجرى والي مصر على القاضي مئة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر (أي 1680 ماركاً)؛ وكان الفضل أول قاض أُجري عليه هذا الرّزق الكبير[1275]. ولما تولّى مصر ابن طاهر، كان مشهوراً بالكرم، قلّد قاضياً القضاء؛ ولمّا عرف أنه مُقِل أجرى عليه سبعة دنانير كل يوم، «فجرت في القضاء إلى اليوم»[1276]. ويذكر أبو الحَسَن المسعودي عن قاضي حلب أنه كان ببغداد «يعالج الفقر ويتلقّاه من خالقه بالرّضا ناصراً للفقر على الغنى، فما مضت أيام حتى لقيتُه بحلب، وذلك في سنة 309 هـ - 921 م، وإذا هو بالضّد ممّا عهدته متوليّاً للقضاء على ما وصفنا، ناصراً ومشرّفاً للغنى على الفقر... وقد أخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوبا تستريًّا وقصباً وأشباه ذلك من الثّياب على مقراض واحد»[1277].

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القُضاة وبين أخذ الأموال بغير حقّ، فأمر بأن يُضاعف للقاضي رزقه، وشرط عليه ألا يتعرّض من أموال الرّعية لدرهم فما فوقه[1278].

ويحدّثنا الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني في القرن الخامس الهجري أنّ رزق قاضي القُضاة بمصر ألفا دينار في الشّهر[1279]. ويذكر في ملحق أخبار القُضاة للكندي أن دخل القاضي في السّنة كان يزيد على عشرين ألف دينار [1280].

وكان القاضي في المشرق يأتيه رزقه من بيت المال، ولكن وصلنا من النّصوص ما يدلّ على أنه كان لا يأخذ شيئاً من رزقه، إما لأنه كان لا يكفيه أو رغبةً عن رزق القضاء على سبيل اتّقاء الشّبهة والرّغبة في التّحرُّز؛ ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق، فإن الحسن بن عبد الله (توفي عام 369 هـ

- 978 م) لبث على قضاء مدينة سيراف خمسين عاماً، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة، فقد كان الحسن يعيش ممّا يبيعه من منسوخاته المشهورة بجودة خطّها[1281]. وقد امتنع قاضي المدينة في عهد المهدي أن يأخذ رزقاً، لأنه لم يرد أن يصيب مالاً من هذا المنصب الذي يكرهه[1282].

ولمّا ولي قضاء القُضاة ببغداد ابن صالح الهاشمي في سنة 303 هـ - 915 م، اشترط عند تولّي منصبه شروطاً منها ألا يتناول على القضاء أجراً، ولا يقبل شفاعة في فعل ما لا يجوز ولا في إثبات حق[1283]. وكان عليّ بن المحسّن التّنوخي (توفي عام 447 هـ - 1055 م) قد تقلّد قضاء عدّة نواحٍ في العراق، وكان دخله كل شهر من القضاء ودار الضّرب التي كان يتولّاها مع القضاء ستين ديناراً في الشّهر [1284].

وفي سنة 334 هـ - 945 م كبس اللّصوص دار أحد القُضاة ببغداد، وأخذوا جميع ما كان في منزله ولم يكن شيئاً مذكوراً، لأنه كان مشهوراً بالفقر؛ فضربوه ليستخرجوا منه، فهرب إلى السّطح ورمى بنفسه إلى ما جاوره فسقط فمات[1285]. وفي سنة 352 هـ - 963 م تقلّد ابن أكثم القضاء ببغداد، على ألا يأخذ رزقاً[1286]. وكان للقاضي أبي الطّيب الطّبري (توفي 450 هـ - 1058 م) عمامة وقميص بينه وبين أخيه، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت[1287]. وكان ابن المظفّر الشّامي قاضي قُضاة بغداد (توفي عام 488 هـ - 1095 م) له كراء بيت قدره في الشّهر دينار ونصف (حوالي 15 ماركاً)، وكان من ذلك قوته، وكان له عمامة من الكتّان وقميص من القطن الخشن؛ وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز، فإذا جاع وضع عليه قليلا من الماء وأكل منه[1288].

وكذلك كان أحمد بن يحيى القاضي الأندلسي يختلف إلى غلّة كان يعمرها بالعمل ليعيش منها[1289].

يروي الرّحّالة الألماني يوليوس هاينريش بيترمان J. H. Petermann بدمشق عام 1852 م: «في كل سنة يُرسَل قاضٍ جديدٌ من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام ويرسله؛ وهو يأخذ نصيباً ثابتاً من تركة كل من يموتَ (قيل لي إنه الرّبع، وهو كثير بالطّبع)، ويأخذ نصف العُشر عن كل قضية يحكم فيها، وهذا هو المقدار الذي يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالي عن القضية التي يتقدّم بها (ولو خسرها). أما الرّعايا الأوروبيون فإنهم يدفعون خُمس العُشر»[1290].

وفي مَرَّاكش اليوم يأخذ القُضاة، باعتبارهم عُمَّالاً دينيين، أرزاقَهم من الحبوس (الأوقاف الخيرية). ولما كان هذا نادراً فإنهم يُتركون لقبول الهدايا من المتحاكمين إليهم[1291].

وفي سنة 350 هـ - 961 م تقلّد ابن أبي الشّوارب قضاء بغداد، بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير مئتي ألف درهم في كل سنة. وكان هذا القاضي «مع قبح فعله قبيح الصّورة مشوّهها»[1292]، وقد اتُّهم «بالغلمان والشّهوات والخمور»[1293]؛ ولكن الأمور لم تَسر معه على عادتها، فقد امتنع الخليفة من أن يصل إليه، ثم عُزل من منصبه بعد عامين، وتولّى مكانه خَلَفه وأُعفي ممّا كان يحمله ذاك، لأنه اشترى منصبه شراء[1294].

وقد كان القاضي توبة (توفي عام 120 هـ - 738 م) أول قاضٍ بمصر وضع يده على الأحباس؛ وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وأيدي أوصيائهم، «فلم يمت حتى صارت الأحباس ديواناً عظيماً»[1295]؛ وكان القاضي إلى جانب هذا يتولّى أموال اليتامى؛ ومنذ عام 133 هـ - 751 م أوردها القاضي بيت المال وسجّل في كل مال منها سجلاً بما يدخل منها وما يخرج[1296]. وفي سنة 389 هـ - 999 م توفي القاضي القاهري ابن النُّعمان، فوُجد عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار، فأمر الخليفة الحاكم أن تُصادر أمواله، وأرسل فهد النّصراني فاحتاط عليها، وشرع في تغريم الشّهود (وهم خيار أهل البلد) إلى أن تحصل نصف الدّين؛ وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك عند أحد الشّهود مال يتيم ولا غائب؛ وأفرد موضع يوضع فيه المال ويختم عليه أربعة من الشّهود ولا يُفتح إلا بحضورهم[1297].

ولم يكن من اختصاص القاضي النّظر في المواريث بصورة نهائية إلا في القرن الرّابع الهجري، ثم صار إليه أخيراً الإشراف على سجون البلاد التي يلي قضاءها، وهي الخاصّة بمن يُحبس لدَيْن عليه، وذلك في مقابل حبوس المعونة.

وفي سنة 402 هـ - 1011 م أمر الوزير فخر الدّولة ليلة الفطر بتأمّل من في حبوس القُضاة ببغداد، فمن كان محبوساً على دينار إلى عشرة أُطلق، وما كان أكثر من ذلك كُفل، وأُخرج ليعود بعد التّعييد على صحيفة الوزير [1298].

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدّموا للقاضي برقاع في الرّقعة منها اسم المدّعي واسم خصمه وأبيه؛ وكان الكاتب يأخذ هذه الرّقعة عند قبل مجيء القاضي، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضي، وإذا كانت الرّقاع كثيرة لا يقدر القاضي أن يدعو بها كلها في يوم، فرّقها في كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك[1299].

وكانت جلسات القاضي للحُكم عَلَنيّة؛ وقد خاصم رجلٌ المأمونَ مرّة، وأذن المأمون للقاضي في القضاء بينهما في دار الخلافة؛ ثم أمر القاضي بفتح الباب، وأذن للعامة في الدّخول ونادى المنادي وأخذ الرّقاع ودعا بالنّاس، ثم قضى بين الخليفة وخصمه[1300].

وبما أنّ جلسات القضاء كانت علنية، فقد كان القاضي في أول الأمر يجلس في مكان لا يُمنع أحد من المسلمين من الدّخول إليه، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستنداً إلى أسطوانة من أساطين المسجد[1301]؛ وكذلك كان القاضي يجلس أحياناً للقضاء في داره، ويُروى عن خير بن نعيم الذي تولّى قضاء مصر عام 120 هـ - 738 م أنه كان له مجلس يشرف على الطّريق على باب داره، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصوم من الكلام[1302].

وقد ولي قضاء مصر ابن الجرّاح سنة 204 هـ - 918 م، وقد سخط المصريون عليه، وكان مُصلّاه موضوعاً في المسجد الجامع. فجاء المصريون وألقوه في الطّريق، فجلس للحكم في منزله، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صُرف[1303].

ولمّا ولي القاضي هارون بن عبد الله قضاء مصر سنة 219 هـ - 834 م جعل مجلسه في الشّتاء في مقدَّم المسجد، واستدبر القبلة، وأسند ظهره بجدار المسجد، «ومنع المصلّين أن يقربوا منه، وباعد كتّابه عنه، وباعد الخصوم، وكان أول من فعل ذلك». واتخذ مجلساً للصّيف في صحن المسجد وأسند ظهره للحائط الغربي[1304].

ولقد ارتأى أهل السُّنّة بعد تغلّبهم حوالي منتصف القرن الثّالث الهجري أن جلوس القاضي في المسجد ينافي ما يجب لبيوت الله من الحرمة، فأمر المعتضد ألا يقعد القُضاة في المسجد[1305]. ولكن هذا الأمر لم يثمر إلا قليلاً، فقد كان قاضي القُضاة ببغداد حوالي عام 320 هـ - 932 م يجلس للقضاء في داره[1306]؛ أما في مصر فكان القاضي يجلس للقضاء في داره أحياناً، وفي الجامع أحياناً أخرى[1307].

ولمّا تولّى البسطامي (توفي عام 407 هـ - 1016 م) قضاء نيسابور أُجلس في مجلس القضاء في المسجد في السّاعة التي قُرئ فيها عهده[1308].

يقول المَعَرِّي شاكياً حال العدول وسوء فعلهم[1309]:

في البدو خُرَّاب أذواد مسوَّمةٍ

وفي الجوامع والأسواق خُرَّاب

فهؤلاء تسمّوا بالعدول أو التّجار

واسم أولاك القوم أعرابُ

ويقول في العدول في موضع آخر [1310]:

عدول *لهم ظلم الضّعيف سجيةً*

يسمّون أعراب القرى والجوامع

أما في عصر الفاطميين فكان قاضي القُضاة بالقاهرة يجلس السّبت والثّلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير. وكان الشّهود يجلسون حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم، وبين يديه خمسة من الحجّاب، اثنان بين يديه، واثنان على باب المقصورة، وواحد ينفذ الخصوم إليه؛ وأمامه كرسي الدّواة، وهي دواة محلّاة بالفضّة تُحمل إليه من خزائن القصور [1311].

وكان المتحاكمون إلى القاضي في العصر الأول يبسطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه، وقد أتى الأمير الأموي عبد الملك بن مروان النّصيري، فقعد على مفرش القاضي، فقال له القاضي: قُمْ مع ابن عمّك، فغضب الأمير، وقام ولم يخاصم[1312].

ثم صار التّرتيب أن يجلس المختصمون بين يدي القاضي صفًّا متساوين. وقد وقع بين أم المهدي وبين أبي جعفر خصومة؛ فقالت لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان، وكان هذا قاضياً على مصر من قِبَل المهدي؛ فحُمل إلى العراق للحكم بينهما، فوكَّلت أم المهدي عنها وكيلاً، جلس أمام القاضي، فطلب القاضي من أمير المؤمنين أن يساوي خصمه في مجلسه فانحطّ عن فرشه، وجلس مع الخصم[1313].

وقد جاء في مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضي يحيى بن أكثم، فنودي الخليفة ليجلس مع خصمه، فأقبل، ومعه غلام يحمل مُصَلّى، فأمره القاضي بالجلوس، فطرح المصلّى ليقعد عليه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين! لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، فطرح للخصم مُصلّى آخر فجلس عليه[1314].

وكذلك خوصم مولى السّيدة زبيدة، زوجة الرّشيد، ووكيلها إلى القاضي ابن مسروق؛ فأمر بإحضاره، فجلس متربِّعا، فأمر به ابن مسروق فبُطح وضُرب عشراً[1315]. وقد تعرّض أهل النّظر للبحث في جميع الأمور الصّغيرة التي قد تؤثر على عدالة القاضي؛ هل يجوز للمتخاصمين أن يسلّموا على القاضي؟ إذا سلّم عليه أحد الخصمين فقال: «السّلام عليكم» ينبغي للقاضي أن يقول: «وعليكم»، ولا يزيد على ذلك شيئاً، لأن هذا يكفي؛ أما إن قال: «وعليكم السّلام» فإن كلمة السّلام زيادة في الجواب[1316].

وكذلك شدّد أهل العدالة على القاضي في ألا يؤثّر على المتخاصمين أقل تأثير، فلا يصيح على أحدهم ليكرهه على الرّدّ الذي يريده.

وقد كانت هذه المعاملة الليّنة من القُضاة لمن يختصم إليهم وعجز القُضاة أحياناً عن إلزام أحد الخصمين بإعطاء المال لصاحبه، سبباً في وضع قصّة القاضي الذي ثبَّت في قلنسوته قَرْنَيْ ثور لينطح بهما المعاند من المتخاصمين، كما ابتدعها أهل الفكاهة بمصر. وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك، فلام القاضي على ما فعل، فطلب القاضي من الخليفة أن يجلس وراء السّتار في مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار بلادة النّاس؛ فحضر الخليفة، ومثل بين يدي القاضي خصمان يطالب أحدهما الآخر بمئة دينار؛ فاعترف المدَّعى عليه بالدّين، ولكنه طلب أن يدفعه مقسَّطا؛ فاقترح القاضي في أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير في كل شهر، ولكنه اعترض فخفض القاضي ذلك إلى خمسة دنانير، ثم إلى دينارين، ثم إلى دينار، ثم نصف دينار، فأظهر العجز؛ وأخيراً سأله القاضي أن يبيّن ما يستطيع أن يدفعه فقال ربع دينار في كل عام؛ ولكنه شرط أن يبقى خصمه في السّجن، لأنه إن أُطلق وعجز هو عن أداء ما عليه فربّما قتله. عند ذلك سأل الحاكمُ القاضي: كم نطحته؟ فقال: واحدة، فقال الحاكم: انطحْه مرّتين، أو انطحْه مرّة وأنا أنطحه الأخرى[1317].

وكان القاضي يلبس السّواد على هيئة عُمّال بني العبّاس؛ وكان قاضي مصر من قِبَل المهدي عام 168 هـ - 784 م يعتمّ بعمامة سوداء خفيفة على قلنسوة طويلة[1318]. ولما ولي ابن مسكين قضاء مصر عام 237 هـ - 851 م طلب إليه أن يلبس السّواد، فامتنع فخوفه أصحابه سطوة السُّلطان به، وقالوا له: يقال إنك من موالي بني أميَّة، فأجابهم إلى لباس كساء أسود[1319]. وفي غضون القرن الثّالث الهجري كانت القلنسوة، وتسمّى أيضاً الدّنية، هي لباس القُضاة الذي يميزهم؛ وكانت تلبس مع الطّيلسان[1320]. ولما صرف القاضي أحمد التّنوخي عن القضاء في عمر خمسة وثمانين عاماً، ثم أعيد إليه قال: أحب أن يكون بين الصّرف والقبر فرجة، ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة[1321]. وقد شبه أحد الكتاب رجلا فقد الملاحة فقال مثل قاض بلا دنية[1322]. وكان ببغداد في سنة 368 هـ - 978 م قاض، وكانت له هيبة وجبَّة مهولة ولحية طويلة، فقدم إليه امرأتان ادَّعت إحداهما على الأخرى، فقال لهذه: ما تقولين في دعواها قالت: أفزع، أيَّد الله القاضي. قال: ممّاذا، قالت: «لِحية طولها ذراع، ووجه طوله ذراع، ودنيَّة طولها ذراع، فأخذتني هيبتُها». فوضع القاضي دنيته، وغطّى بكمّه لحيته، وقال: قد نقصتك ذراعين، أجيبيني عن دعوتها[1323].

وكان القُضاة الفاطميّون يحملون سيفاً[1324].

وكان موظّفو ديوان قاضي القُضاة ببغداد في سنة 300 هـ - 912 م هم:

الكاتب، وقد رُتِّب له في كل شهر ثلاثمئة درهم.

الحاجب، ورزقه مئة وخمسون درهماً في الشّهر.

ومن يعرض الأحكام، وراتبه في الشّهر مئة درهم.

وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان، ولهم ستمئة درهم[1325].

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما يلفت النّظر في النّظام القضائي، وهو إيجاد جماعة من الشّهود الدّائمين أمام القاضي؛ ويخبرنا الكندي وهو مؤرّخ ثقة، عن نشأة الشّهود، فيقول: كان القُضاة إذا شهد عندهم أحدُ، وكان معروفا بالسّلامة، قَبِلَهُ القاضي؛ وإن كان غير معروف بها أوقف، وإن كان الشّاهد مجهولاً لا يُعرف سئل عنه جيرانه. وفي خلافة المنصور، فكان ابتداء السّؤال عن الشّهود في السّرِّ، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزّور، وكان من عُدِّل عنده قبله، ثم يعود الشّاهد واحداً من النّاس، ولم يكن أحد يوسم بالشّهادة ولا يشار إليه بها.

ثم إن القاضي عيّن رجلاً يسمّى صاحب المسائل سنة 185 هـ - 801 م فاتخذ الشّهود «وجعل أسماءهم في كتاب، ثم فعلت القُضاة ذلك من بعده حتى اليوم.

وقد سخر الشّعراء من هذا القاضي لأنه اتخذ من أهل المدينة من موالي قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مئة شاهد، ثم أسقط جمعاً منهم، نحواً من ثلاثين رجلاً ممّن ألّب عليه من العجم[1326].

ومن الشهود نشأت بطانة القاضي لتَعينه في عمله. وقد أمر القاضي الذي تولى القضاء بمصر عام 200 هـ - 815 م صاحب مسائله أن يجددِّ السّؤال عن القود والموسومين بالشّهادة في كل ستة أشهر، ليقف من حدثت له جرحة. وقد اهتم أحد القُضاة، بأمر الشّهود اهتماماً كبيراً، فكان يتنكّر بالليل، ويغطّي رأسه، ويمشي في السّكك ليسأل عن الشّهود[1327]. ونرى في عهد بولاية القضاء في كتاب الخَراج لقُدامة بن جعفر (الذي تم تدوينه بعد عام 316 هـ - 928 م) أن التَّثبُّت في شهادة الشّهود من أهم واجبات القاضي[1328].

وكان عضد الدّولة (توفي 327 هـ - 982 م) لا يجعل للشّفاعات طريقاً، ويُروى أن مُقَدِّم جيشه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته، ويُعَدله، فقال عضد الدّولة: «ليس هذا من أشغالك، وإنما الذي يتعلّق بك الخطاب في زيادة قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلّق بهم، وأما الشّهادة وقبولها، فهو إلى القاضي وليس لنا ولا لك الكلام فيه»[1329].

ويُروى أن الخليفة الحاكم جرى في هذه المسألة، مسألة العدول، على ما عُرف عنه من فعل الشّيء ثم نقضه؛ ففي سنة 405 هـ - 1014 م سأله جماعة من المصريين أن يؤهِّلهم للعدالة، فأذن لهم في ذلك، وبلغ عدد العدول ألفاً ومئتين ونيِّفاً؛ فأعلمه قاضي القُضاة أن كثيراً منهم لا يستحقون العدالة؛ فأذن له، على حسب عادته، بتصفحهم وإقرار من يرى إقراره منهم[1330].

ولما كان هؤلاء العدول يختارهم القاضي ويعدلِّهم بنفسه، فإنهم كانوا يُعزلون بعزله أو موته[1331]. وكان قاضي مصر سنة 321 هـ - 933 م يُلزم الشّهود أن يركبوا معه[1332]. وحوالي ذلك الوقت كان الرّسم أن يجلس مع القاضي عند نظره في القضايا أربعة شهود، اثنان يجلسان عن يمينه واثنان عن يساره[1333].

وفي القرن الرّابع الهجري نلاحظ أنّ الشّهود قد أصبحوا نوعاً من العُمّال الثّابتين، بعد أن كانوا في أول الأمر من حاشية القُضاة الأمناء الذين يوثق بشهادتهم. وهذا القرن أيضاً هو الذي أوجد هذا النّظام الذي لا يزال باقياً إلى اليوم وأحله محلّ النّظام الإسلامي القديم، بل نرى أن القاضي في القرن الثّالث الهجري قد عيّن في أثناء ولايته ستة وثلاثين ألف شاهد، منهم عشرون ألفاً لم يشهدوا بعد تعيينهم، فلم يحظوا بشرف منصبهم[1334]. وكان ببغداد حوالي عام 300 هـ - 912 م نحو من ألف وثمانمئة شاهد. وفي سنة 322 هـ - 934 م أكثر الشّهود التّردّد على القاضي بمصر، فقال لهم: مالكم معاش عندنا، فلا يجيء أحد منكم إلا لحاجة أو لشهادة[1335]. فكأن الشّهود أرادوا أن يكونوا موظفين، ولكن القاضي كان على الرّأي القديم في أمر الشّهود. وفي سنة 383-993 م بلغ عدد الشّهود ببغداد ثلاثمئة وثلاثة، ولكن هذا القدر كان يعدّ كثيراً[1336]، ثم أنقص قاضي القُضاة بالقاهرة عدد الشّهود[1337].

ولقد أوصى الدّمشقي التّاجر أن يحتاط في شهادة من يشهدون على العقود التي يريد إمضاءها، فيسأل عنهم إن لم يكن خبيراً بهم، حتى يعرف المشهورين بالأمانة والنّزاهة في الدّين واليسار فيأخذ بشهاداتهم؛ وذلك لأنه في أكثر الأوقات يدخل في الشّهود من لا يستحق منزلة العدالة لعناية به أو

جاه بعض أقاربه ويلبث مدّة، ثم ربّما حدث أمر آخر فيسقط الشّاهد وتضيع قيمة الكتاب أو العقد الذي شهد عليه[1338].

وكان ينوب عن القاضي شاهد في كل محكمة من المحاكم الخمس الصّغرى بالقاهرة ليحكم فيها باعتباره قاضياً مستقلًّا[1339]. وكان الشّهود في عصر إدوارد وليَم لاين E. W. Lane يجلسون في دهليز المحكمة الكبرى، ويقدّم الشّاكي قضيته لمن يجده غير مشغول منهم، فيقيّدها هذا، ويأخذ عن تقييدها قرشاً أو أكثر، فإن كانت القضية صغيرة، ورضي المدّعى عليه بحكم الشّاهد حكم هذا فيها، وإلا أدخل الخصمين إلى القاضي.

هذا ولقد أوصى الخليفة الطّائع في عهده لقاضي القُضاة[1340]، وهو العهد الذي كتبه الصّابي في سنة 366 هـ - 976 م، وصيّة متكرّرة بالإكثار من تلاوة القرآن، وبالمحافظة على الصّلوات في أوقاتها، وأن يوازي بين الفريقين المتحاكمين إليه، ولا يحابي مليًّا على ذمّي. وأمره بالقصد في مشيته، بالغضّ من صوته، وحذف الفضول من لفظه، وأن يخفّف من حركاته ولفتاته، وأن يستصحب كاتباً دَرِباً بالمحاضرات والسّجلات، وحاجباً سديداً رشيداً لا يسفّ إلى دنيئة، وخُلفاء يرد إليهم ما بعد من العَمل عن مقره، وأعجزه أن يتولّى النّظر فيه بنفسه، ويجعل لكل من هذه الطّوائف رزقا يكفه ويكفيه، وأن يبحث عن أديان الشّهود ويفحص عن أماناتهم؛ وأمره أن يضبط ما يجري في عمله، ويحتاط على أموال الأيتام ويسندها إلى أعفّ وأوثق القوام؛ وأمره إن ورد عليه أمر يعييه الفصل فيه أن يرده إلى كتاب الله، فإن وجد فيه الحكم وإلا ففي السّنة، فإن أدركه وإلا استفتى ذوي الفقه والفهم وأهل الدّراية، وأمره ألا ينقض حكماً حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء، عند ذلك ينقضه نقضاً يشيع ويذيع[1341].

وهذا الإجماع الذي ينعقد من جماعة العلماء الذين لا يخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم في ميدان الأحكام القضائية الهامة هم المظهر الذي أثبتت فيه الدّيمقراطية الإسلامية وجودها، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين.

وكان في حياة الدّواوين ميلٌ قوي إلي جعل المناصب وراثية من الأب إلى الابن؛ وأكثر ما كان ذلك في مناصب القضاء. ففي القرنين الثّالث والرّابع تقلّد قضاء القُضاة من أسرة واحدة هي أسرة أبي الشّوارب ثمانية رجال ببغداد، هذا ما خلا ستة عشر قاضياً آخرين من هذه الأسرة[1342]. وظل بنو أبي بردة منذ حوالي عام 325 هـ - 937 م يتقلّدون قضاء القُضاة بفارس أجيالاً كثيرة، كما ظلّوا قروناً كثيرة منذ عام 400 هـ - 1010 م قُضاة في غَزْنَة (ابن البَلْخي JRAS, 1912, S. 14 ff.) وكذلك توارثت آل النُّعمان قضاء القُضاة ثمانين سنة في عهد الفاطميين بمصر[1343].

وقد تعاظمت في القرن الثّالث الهجري - التّاسع الميلادي قوّة هذه الأسر التي توارثت القضاء زيادة هائلة، وذلك لأن نظام الاستخلاف في المناصب ظهر في القضاء، كما كان في مناصب الولاية وحكم الأقاليم.

ونرى في صور المخاطبات التي ترجع إلى أوائل القرن الرّابع الهجريّ أنه كان بمصر قاضٍ واحد[1344]، وأن فارس والأهواز كانا يُجمعان لقاضٍ واحد. وكان قاضي قُضاة بني بُوَيْه يجمع بين قضاء الرّي وهَمَذان والجبال[1345].

وكان قاضي مكّة في سنة 336 هـ - 947 م له قضاء مصر وغيرها[1346]. وفي عهد الفاطميين كان ربّما جمع قضاء الدّيار المصرية وأجناد الشّام وبلاد المغرب لقاضٍ واحد[1347]. ونرى في العهد الذي كتب لقاضي قُضاة مصر الهاشمي سنة 363 هـ - 974 م ما يجعله قاضياً على الدّولة الإسلامية كلها تقريباً من البلاد الواقعة غرب جبال فارس إلى مصر، وكان تحته حكام في البلاد عهد إليه في تصفح أحوالهم واستشراف ما يجري من الأحكام في سائر النّواحي[1348].

وإلى جانب القضاء كان هناك النّظر في المظالم، وكان النّاظر في المظالم ينظر في كل حكم يعجز عنه القاضي، فينظر فيه من هو أقوى منه شأناً[1349] وكان القضاء والنّظر في المظالم يقومان جنباً إلى جنب في جميع البلاد الإسلامية[1350]. ولكن اختصاص كل من هذين القضاءين لم يحدّد تحديداً دقيقاً؛ وكانت المسألة الهامة دائماً هي: أيّهما أقوى سلطان الإسلام الذي يمثله القاضي أم السّلطة الدّنيوية؟ وكانت الأمور المتعلّقة بالحدود تقدّم إلى صاحب المظالم[1351]. وكان القاضي أحياناً ينظر في المظالم، وكان قاضي القُضاة بنوع خاص ينظر في المظالم بدار السُّلطان[1352].

وكان الوزير هو الذي يعيّن أصحاب المظالم في البلاد[1353]. وقد حاول رجال الشّرع مرتين أن يشرفوا على أعمال الشّرطة؛ ففي سنة 306 هـ - 918 م أمر الخليفة الطّولوني صاحب الشّرطة ببغداد بأن يُجْلِس في كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من النّاس ظلاماتهم، ويفتي في مسائلهم[1354]؛ فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب الشّرطة من الفقهاء «فضعفت هيبة السُّلطان بذلك، وطمع اللّصوص والعيّارون» (زُبدة الفكرة، مخطوط باريس، ورقة 186 أ). وكذلك نصَّب الخليفة الحاكم في الشّرطة في كل بلد شاهدين من العدول، وأمر ألا يُقامُ على ذي جزيرة أو مرتكب جريمة حدٌّ إلا بعد أن يصح عند ذيْنك الشّاهدين أنه مستوجب لذلك[1355]. ولكن هاتين المحاولتين لم يكن لهما تأثير؛ بل نرى الآية قد انعكست، فكانت ترفع الظُّلامات من حكم القُضاة إلى أصحاب المظالم، ولا سيّما إلى الوزير الذي يجلس للمظالم.

ولقد جاء بيانٌ بجمهور المستصرخين إلى الوزير الذي كان يقعد للمظالم بأنهم كانوا «قوماً كثيرين قد قصدوا من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مُسْتَصْرخين متظلّمين، فهذا من أمير وهذا من عامل، وهذا من قاض وهذا من متعزِّز»[1356].

وحدث حوالي سنة 420 هـ - 1029 م أنّ رجلاً مات بمصر وترك مالاً جزيلاً، ولم يخلِّف سوى بنت واحدة؛ فورثت جميع المال، وتطاول النّاس لتزوّجها لكثرة مالها، ومن جملتهم القاضي الفاروقي؛ فامتنعت عليه، فحنق عليها، وأقام أربعة شهود بأنها سفيهة، وأخذ مالها؛ فهربت إلى الوزير، وعرّفته لما فعله القاضي فعمل محضراً برشدها وأشهد عليه، وأمر بإحضار القاضي؛ فأحضر مُهاناً، وأخذ المال منه، وأنيب ولده عنه في الأحكام، ولزم داره فلم يخرج منها؛ ثم قبض الوزير على الشّهود الذين شهدوا بسفهها، فأودعهم السّجن[1357].

وقد داوم ابن طولون Ibn Tolûn صاحب مصر النّظر في المظالم بكل عناية، «حتى استغنى النّاس عن القاضي». ولم يكن في مصر قاضٍ في ذلك العهد سبع سنين، فكان كل شيء يُرَدُّ إلى النّاظر في المظالم[1358]. وكذلك كان كافور الإخشيدي الأسود يجلس للمظالم حتى «كان القاضي كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم»[1359]. وفي سنة 369 هـ - 979 م وقع نزاع بين صاحب الشّرطة وبين القاضي، فوقّع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به[1360]. وفي حوالي سنة 400 هـ 1000 منع القاضي أصحاب الشّرطة من التّكلّم في الأحكام الشّرعية، ثم أنهى الخليفة النّزاع بأن أضاف للقاضي النّظر في المظالم[1361]. وكانت الظّلامات تقدّم مكتوبة[1362]، وكان يحدث أحياناً حوالي عام 320 هـ - 932 م أن تُرمى الرّقعة في ورق المظالم أمام القاضي في المجلس[1363]. وكانت الأحكام تصدر مكتوبة، وقد جرت بعض هذه التّوقيعات مجرى النّصوص الأدبية المشهورة التي تؤْثَر لحسنها، وهي شبيهة بتذييلات فريدريش الأكبر Friedrich II التي كان يكتبها على هامش ما يُرفع إليه[1364].

وكان يخصّص في دار الخلافة يومٌ في الأسبوع لسماع المظالم، وكذلك كان الحال من قبل في العصر البيزنطي؛ ففي سنة 496 م كان حاكم الرُّها يجلس كل يوم جمعة في الكنيسة للقضاء (تاريخ يوشع العمودي Josua Stylites ص 29). وفي عصر الخليفة المأمون مثلاً خُصِّص يومُ الأحد للنّظر في المظالم (الماوردي). وكان أحمد بن طولون Ibn Tolûn بمصر يجلس لذلك يومين في الأسبوع (خطط المقريزي ج 2 ص 207). وكان الإخشيد يجلس للمظالم بنفسه كل يوم أربعاء[1365]؛ وبعده كان كافور يجلس كل سبت، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقُضاة والشّهود ووجوه البلد[1366].

وآخر من جلس من الخُلفاء المهتدي (255-256 هـ = 868-869 م)[1367]. وكان المهتدي يجلس للمظالم، وقد بنى قبّة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها وسمّاها «قبّة المظالم»، وكان تقيًّا. وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب النّاس ويؤمّ بهم[1368] وكان إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحرّك البرد؛ فإذا جلس المتظلم «أمر بأن يُدفّأ ويجلس ليسكن ويثوب إلى عقله، ويقول: متى يلحن المتظلّم بحجّته إذا لم يُفعل به هذا وقد تداخله رهبة الخلافة وألم البرد؟»[1369].

ولقد تعهّد الخليفة القاهر، وهو يطلب الخلافة، أن يقعد للنّظر في المظالم بنفسه[1370]. وفي عهد الخليفة المعتضد (279-289 هـ - 820-829 م) قام مقامَ الخليفة في النّظر في مظالم العامّة الوزيرُ، وناب عنه القائد في النّظر في مظالم الخاصّة؛ وكان يوم المظالم يوم الجمعة[1371].

ولكنّنا نرى الوزير في أوائل القرن الرّابع يجلس للمظالم يوم الثّلاثاء، وكان أكثر الكتاب يحضر مجلسه.

وفي سنة 306 هـ - 918 م جلست للمظالم قهرمانةٌ لأم المُقتدِر[1372]. وبما أنّ النّظر في المظالم كان غير مقيَّد بتدقيقات الفقهاء، فقد كان صاحب المظالم أكثر حرّية من القاضي. وقد بيّن الماوردي

بما له من قدرة على الإحصاء وبيان الفروق أنّ الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء من عشرة أوجه: أهمّها أن نظر المظالم يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء، ليفصلوا التّنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ، وليس للقاضي ذلك، وأنه يجوز له إحلاف الشّهود، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشّهود وسؤالهم عمّا عندهم؛ وعادة القُضاة تكليف المدعي إحضار بيّنة، ولا يسمعون البيّنة إلا بعد سؤاله.

ولكن هذا كلّه لا يعدو الجانب النّظري، وكان يُتّبع في كل بلد ما هو مألوف في قانونها وعاداتها. وكانت الوسائل القديمة التي أثبتت التّجربة قيمتها كالضّرب منتشرة، ولو أنّها كانت على القاضي مُحرّمة.

الفصل السّادس عشر
علم اللغة

Die Philologie

أتى القرن الرّابع الهجري بجديد في كل من النّاحيتين الرّئيسيتين لعلوم اللغة العربية، وهما: النّحو، والمعاجم. وقد تخلّص علم اللغة من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من النّاحية الشّكلية؛ ويصف السّيوطي طريقة علماء اللغة المتقدّمين في الإملاء كطريقة المُحدِّثين: يكتب المُستملي أوّل القائمة: مجلسٌ أملاه شيخنا فلان في يوم كذا؛ ثم يورد المُملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريبٌ يحتاج إلى التّفسير، ثم يفسّره، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره؛ وقد كان في هذا الصّدر الأول فاشياً كثيراً، ثم مات الحفّاظ وانقطع إملاء اللغة.

«وآخر من عَلِمْتُه أَمْلَى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزَّجّاجي، له أمالٍ كثيرة في مجلّدٍ ضخم؛ وكانت وفاته سنة تسعٍ وثلاثين وثلاثمئة، ولم أقِفْ على أمالٍ لأحد غيره»[1373]. كان هؤلاء العلماء المتقدّمون يضعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض، مفكّكة لا رابط بينها، وكان اهتمامهم يَركّز على الجزئيات: على حادثةٍ واحدة، أو صورةٍ واحدة، أو كلمةٍ واحدة، كما نرى ذلك في كتاب المُبرِّد (توفي عام 285 هـ - 898 م)، بل في كتب القالي (توفي سنة 356 هـ - 967 م) وهي كتب مؤلفةٌ من علوم اللغة ومن القصص والتّاريخ، وكان غلام ثعلب (توفي سنة 345 هـ - 956 م) يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين. فمثلاً كان يسأله بعضهم: أيها الشّيخ ما القنطرة عند العرب[1374]؟ أما أئمّة اللغة في القرن الرّابع الهجري فقد أدركوا الحاجة إلى منهاجٍ يسيرون عليه، وإلى تناوُل مادة بحثهم بأسلوب منظّم. وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان اللّسانية في ذلك أثرٌ كبير. وكان البحث يدور في مجلس عضد الدّولة (توفي عام 371 هـ - 981 م) حول الفرق بين النّحو العربي والنّحو اليونانيّ؛ ولقد أطّر أبو سليمان النّزعة الجديدة في النّحو بأن قال: «نحوُ العرب فِطرةٌ، ونحونا فِطْنَةٌ»[1375]. وإذا وجدنا ابن فارس (توفي عام 395 هـ - 1005 م) يؤلّف لأول مرّة «مقدّمة في النّحو»، فذلك كان حصيلة لفنّ المقدّمات (إيساغوجي Εἰσαγωγή) التي كان يكتبها علماء اللغة اليونان.

وأخصُّ ما تم على أيدي علماء اللغة كان تحديد معاني الكلمات ووضع المعاجم؛ ونلمس هنا حدًّا واضحاً يفصل بين عهدين؛ وكان حمزة الأصفهاني (توفي بين 350-360 هـ = 961-970 م) خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات للخُطباء؛ ففي كتاب المُوازنة مثلاً ذكر أربعمئة كلمة في معنى «الشّقي»، وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخُطباء من عبارات المفاضلة من نحو أبيض من الثّلج وأجشع من الفيل، ولم يضف علماء القرون التّالية شيئاً إلى ما جمعه؛ وكان سَلَفُه قد جمع من هذه العبارات ثلاثمئة وتسعين فجمع هو ألفاً وثمانمئة، ولم يفعل الميداني (توفي عام 518 هـ - 1124 م) أكثر من نقل ما كتبه حمزة، واستطاع أن يزيد على كل فصلٍ مثلاً واحداً أو مثلين أو أربعة على الأكثر. وكذلك أخذ الميداني كل الشّروح عن سلفه[1376]. وفيما يتعلّق بالأمثال الخالصة نرى أن أكبر كتاب هو الذي ألّفه في القرن الرّابع الحسن العسكري (توفي سنة 395 هـ - 1005 م).

غير أنّ المدرسة الجديدة أظهرت بعد جيلٍ ما كانت تعني، ويتجلّى ذلك في الصّحاح للجوهري (توفي عام 392 هـ - 1001 م). وتدلّ كل مقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذي ألفه ابن دُرَيد (توفي عام 321 هـ - 933 م) على مقدار التّقدّم في المنهج والوضوح. ويقول ابن فارس (توفي عام 395 هـ - 1005 م) «والمقصود من كتابنا هذا من أوله إلى آخره التّقريب والإنابة عمّا ائتلف من حروف العربية»[1377] ؛ وكان شأن الجوهري عظيماً حتى إن الكتب الكثيرة أُلّفت في الطّعن فيه والدّفاع عنه[1378]، بل نجد السّيوطي (توفي عام 911 هـ - 1505 م) قد ألّف بمكّة كتاباً في الدّفاع عن الجوهري. وكان السّيوطي قاسياً بنوعٍ خاص على معاصره الجوهري (توفي عام 889 هـ - 1484 م) [1379].

وكافّة المعاجم التي عُملت بعد الجوهري هي أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه، وهنا نرى أيضاً نهاية عهدٍ قديم وبداية عهدٍ جديد بقي أثره قروناً متطاولة. وكذلك ظهرت في القرن الرّابع دراسةٌ جدّية للاشتقاق اللغوي، وبقيت عصراً طويلاً، وكان أستاذ هذه الدّراسة ابن جنِّي الموصلي (توفي عام 392 هـ - 1002 م). وكانت أمّه جاريةً روميّة، وهو الذي ينسب إليه ابتداع مبحث جديد في علم اللغة، وهو المسمّى باشتقاق الأكبر[1380]، وهو البحث الذي لايزال يؤتي ثمره إلى اليوم؛ ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا.

وبقيت لغةُ التّخاطب الدّارجة إلى جانب لغة الكتابة؛ وكان الفارق بينهما كبيراً، حتى نجد المؤرّخين يذكرون مع العجب أن يكون في بغداد في القرن الثّالث الهجري من يستطيع الكلام الصّحيح من غير تكلّف للإعراب[1381].

وما ظهر في الأدب من عناية بالعامَّة وبحياتهم جعل علماء اللغة يهتمون بدراسة لغة العامّة، وما يعرض فيها من خطأ، فألف أبو بكر محمّد بن الحسن الزُّبيدي الأندلسي (توفي عام 330 هـ - 941 م) كتاباً في لَحَن العامّة، ثم ألّف ابن خالويه (توفي عام 370 هـ - 980 م) بحلب كتاب «ليس»[1382]. أما ما تُرك لعلماء اللغة وخصوصاً للحريري فهو مضمارٌ لبحث جديد.

الفصل السّابع عشر
الأدب

Die Literatur

الواقع أن اختلاط دم الأُمّة العربية ونضوب فورة الطّبقة العليا فيها، وبروز الشّعوب الشّرقية القديمة التي تتألف من أجناس مختلطة؛ إنّما تجلّى بكل جلاء على أديم الأدب. فمنذ حوالي عام 200 هـ - 800 م بدأ الأدب يتحرك، وأصبحت القصيدة التي جرت عادة شعراء العرب القدماء أن يتغنّوا فيها بأسمى المشاعر شيئاً طويلاً، وبدت مسرفةً في تصوير الشّعور، وأخذت تفقد ما كانت تتمتّع به من تفرُّد بالسّيادة. وعمل أهل المدن شيئاً فشيئاً، بعد أن صاروا هم الطّبقة الممتازة، على تأخير شعر البطولة وكذلك على تأخير اللغة القوية البارعة، وأخذت الأساليب البدوية الخشنة تفسح المجال للعبارات الليّنة، ومال النّاس إلى الأوزان القصيرة.

وغدا ميل الشّعراء إلى أن يبعثوا في النّفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقلّ من ميلهم إلى أخذ ألباب النّاس بمادة جديدة للأدب، وبمعانٍ دقيقة وعبارات وأخْيِلَة جميلة. وتيقظ في النّاس ميلٌ إلى الطّرائف المستحدثة - وهو أخطر شيء على شعر البطولة بجميع أنواعه - وعاد الأدب مرّة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإنسان في حاضره، وأصبح يلذّ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة النّواحي، وبدأ العامّة - وخصوصاً عامّة المدن غير المتعلمين - يدخلون في الأدب العربي، وهم لم يقتصروا على تعلّم القصائد والحُكْم عليها بنظرهم الخاص وعلى التّغني بها على أوزانهم الشّعبية، بل إن الكلام المُرسل أيضاً أصبح عندهم يستعمل في التّعبير عن كل ما جدَّ في الحياة من نواحٍ متنوعة. وهكذا نشأ النّثر في الأدب، بعد أن كان حتى ذلك الحين مقصوراً على العلماء وأهل الدّين، أو على الأكثر على كتبٍ شعبيَّةٍ قليلة نُقلت عن الفارسية. ويُروى عن قوم حوالي عام 250 هـ - 864 م. أنهم فضّلوا الكلام المنثور على المنظوم[1383].

أولاً: النثر

كان التّقدير والإجلال للكلام المنثور، مبدأ كل نثرٍ جيد، أكبر فضيلة للعرب القدماء؛ وهم قد فاقوا في ذلك جميع الشّعوب، فكان في كل قبيلة خُطباء إلى جانب الشّعراء يساوونهم في المكانة، وكانت ملكة الخطابة تعتبر أشبه بملكة خارقة، حتى نشأ الاعتقاد في بعض القبائل أنه لا ينشأ فيها خطيب قطّ إلا إذا مات من قبله[1384].

وكانت مَلكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للمَلكة الشِعرية، إلى درجة أنّ المؤرّخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان في الشّعر مُجيداً في الرّسائل والخُطب[1385]. وقد بلغ من شدّة تقدير النّاس للّفظ الحسن أنه أصاب أهل مكّة سنة 208 هـ - 823 م سَيْلٌ عارم، فأنفذ الخليفة المأمون إلى أهل مكّة أموالاً كثيرة، وكتب مع ذلك كتاباً، فكان كتابه «أسرَّ إلى أهل مكّة من الأموال التي أنفذها إليهم» [1386].

وأول صورة تجلّى فيها اهتمام الأدباء بما يحيط بهم إقبالُهم على دراسة أخلاق العامّة، فمثلاً حوالي ذلك الوقت ألّف أبو عقّال كتاباً في أخلاق العوام؛ وكذلك ألّف قاضي صَيْمَر (توفي عام 275 هـ - 888 م)، كتاب مساوئ العوام وأخبار السِّفْلَة والاغتام[1387].

كذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التي أحبّ الجاحظ معالجتها[1388]. وهذا الأديب (توفي عام 255 هـ - 869 م) والذي يُروى الكثير من الحكايات الطّريفة عن دمامة خلقته - كانت عيناه جاحظتين، وكان جدّه أسود[1389] - هو أبو النّثر العربي الجديد ويعدّه الثّعالبي أوَّل كُتَّاب النّثر [1390].

وكان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتَّاب الرّسائل الدّيوانية إذا ورد حضرته أحد من منتحلي العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ[1391]؛ ولذلك دُعي ابن العميد الجاحظ الأخير[1392]. وقد صنف أبو حيّان التّوحيدي - الذي ربّما كان أعظم كُتّاب النّثر العربي على الإطلاق - كتاباً في تقريظ الجاحظ؛ وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضّلون الجاحظ وبيّن عِظَم مكانتهم[1393]. وبلغ من تقديره للجاحظ أنه كان يسلك مسلكه في تصانيفه[1394].

وقد كتب الجاحظ في كل شيء، من الكتابة في المعلّمين[1395] إلى الكلام عن بني هاشم[1396]؛ ومن ذكر اللّصوص[1397] إلى الكلام عن الضّباب؛ ومن الكلام في صفات الله إلى الكلام في قبائح ما يُروى من كيد النّساء.

وكان أسلوب الجاحظ مستحدثاً، يشوب طريقته في الكتابة الثّرثرة والاستطراد إلى حدّ الإملال؛ ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع لذة المعجبين بالجاحظ؛ وكانوا يشعرون بأنه إنقاذ لهم من طريقة العلماء الثقيلة لكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم؛ كذلك كان معجبوه يعدّون الثّرثرة الطّبيعية فنًّا تعمَّد الجاحظ أن يعالجه. وقد أثنى المسعودي حوالي عام 332 هـ - 943 م على قدرة الجاحظ على التّنسيق ومدَحَ متانة بناء تآليفه بقوله: «وكان إذا تخوّف مَلَلَ القارئ خرج من جدٍّ إلى هزل، ومن حكمةٍ بليغةٍ إلى نادرةٍ ظريفة». ويذكر المسعودي كتب الجاحظ فيبدأ بالبيان، ويقول إنه أشرف كتب الجاحظ، ويشبّه المسعودي المصنف المجيد بأنه حاطب ليل، لأنه يذكر في تصنيفه من كل نوع[1398].

ثم إن التّصوُّف الذي جاء حوالي أوائل القرن الثّالث الهجري على أثر اضمحلال الرّوح العربية ساعد كثيراً على نشر الأدب والكتب بين الجماهير، بالإضافة إلى أثره في تقوية المذهب الواقعي الطّبيعي - كما فعل ذلك أيضاً في الآداب الأخرى- هذا إلى أن أهل التّصوُّف كانوا يشنعون على

العلماء وعلمهم، ويعتمدون في الغالب على عامّة النّاس؛ وكان هذا التّصوُّف يتجه إلى وعظ العامّة وتحليل حياتهم والعناية بحاجاتهم، وقد تأثر بكلامهم وأساليبهم. وأخيراً، يتضح لنا أنه لولا اضمحلال الطّريقة والرّوح العربية القديمة لما دخل السّجع في البلاغة العربية في ذلك العصر.

وكان لا يزال في مأثور العرب قليلٌ من النّثر الوثني المسجوع؛ وكان المسلمون ينفرون منه نفورَ المسيحيين في الإمبراطورية الرُّومانية من الأوزان القديمة. ويبيّن لنا الجاحظ (توفي عام 255 هـ - 868 م) علّة كراهية الأسجاع، فيقول: «وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها، وإن كانت دون الشّعر في التّكلّف والصّنعة أن كُهّان العرب كانوا يحكمون بالأسجاع... قالوا فوقع النّهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية، فلمّا زالت العلّة زال التّحريم»[1399].

غير أنّ المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام وكان لهم الشّأن الأكبر في ذك العهد كانوا قد أَلِفوا استعمال السّجع في مواعظهم الدّينية؛ وكذلك يظهر أنه «حوالي منتصف القرن الثّالث الهجري دخل السّجع في الخُطب الرّسمية، ونجد كثيراً منه في كتابٍ وجّهه الخليفة للمسلمين، وإن لم يكن كله مسجوعاً»[1400].

ولم يَعْدَم قط بين الأدباء من لم يأبه للاعتبارات الدّينية في كراهية السّجع، فكان يكتب سجعاً كالسّجع العربي القديم، وكان عامّة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي[1401].

غير أنّ الرّسائل الدّيوانية كانت هي مقياس العرف اللغوي العام؛ ونرى وزير الخليفة المأمون حوالي عام 200 هـ يكتب كتابة مرسلة لا سجع فيها[1402]؛ كما كتب ابن ثوابة (توفي عام 277 هـ - 890 م) رسالة فيها بعض السّجع؛ وكان هذا الكاتب معروفاً بالتّكلف في كتابته[1403]؛ وكذلك نجد الكتاب الذي أُنشئ للعن الأمويين، وكان يُراد قراءته على جميع المنابر ببغداد سنة 284 هـ - 897 م، نثراً مرسلاً، وإن كان لا يخلو من أثرٍ طفيفٍ للسّجع[1404]. وحوالي هذا الوقت كتب أحد المنشئين في الدّيوان من غير سجع[1405].

ولكنّ السّجع قد أصبح حوالي عام 300 هـ هو الطّريقة الجديدة المستحدثة عند كبراء بغداد، فنرى الخليفة المُقتدِر يكتب إلى عُمّال البلاد سجعاً[1406]؛ وكذلك كان الوزير علي بن عيسى يحلّي كتبه بالسّجع الكثير[1407]؛ ولكن أمر السّجع لم يصل في سائر أجزاء المملكة إلى ما وصل إليه ببغداد؛ فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المسجوعة تقع لدى عُمّال الولايات موقع الشّيء الغريب، وكان أصحاب الدّواوين في البلاد يكتبون على الطّريقة القديمة من غير سجع[1408]؛ ثم انتشر السّجع. وكان من كُتّاب المُحدِّثين من يستعمل السَّجع ولا يكاد يخلّ به، وهو الصّابي، والببَّغاء؛ ومنهم من كان يتركه ويتجنّبه.

ويُروى عن ابن الوزير ابن عَبّاد، وزير البُوَيْهِيين، أنه كان مُغرماً بالسّجع إلى حدّ الإفراط فيه؛ فيُقال إن الصّاحب خرج فجاوز في طريقه قريةً كالمدينة إلى قرية غامرة وماء ملح، لا لشيءٍ إلا ليكتب قائلاً: كتابي هذا من النّوبهار، يوم السّبت نصف النّهار[1409]؛ وكان أثلب أهل زمانه، فيُروى

أنّه كان عنده أبو طالب العلوي، فلحقه غشي بسبب كلام ابن عَبّاد المسجوع، فرشّ على وجهه ماء الورد[1410]. وهذا هو شأن السَّجع إلى اليوم[1411].

ورسائل القرن الرّابع الهجري هي أجمل مثال من ازدهار الفن الإسلامي؛ ومادتها هي أرقى ماعالجته يد الفنان، وهي اللغة؛ ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة من الزّجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرّسائل مبلغ تقدير المسلمين للرّشاقة الرّقيقة، وامتلاكهم لناصية البيان في صورته الصّعبة؛ وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التّقدير ما جعلها خليقة أن تنتشر كتباً للنّاس. وكان من أولئك الوزراء: الخصيبي، وابن مُقلة[1412]، والمُهَلَّبي[1413]، وابن العميد والصّاحب بن عَبّاد، والإسكافي وزير السّامانيين. ويُروى أن الإسكافي كان أكتب النّاس في السُّلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير الباع[1414]. وهذا يدلّ على التّمييز الدّقيق بين نوعي الرّسائل.

وكانت الرّسائل الهامة مثل كتب تولية العُمّال ونحو ما تكتب في ديوان خاص يسمّى ديوان الرّسائل. وقد بلغ من العناية بهذا الدّيوان أنه قُلِّد ببغداد لإبراهيم بن هلال الصّابي (توفي عام 384 هـ - 994 م)، وكان أكبر المنشئين في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري؛ مع أن الصّابي ظل طيلة حياته معتنقاً دين الصّابئة، ومصرًّا عليه، وقد عرضت عليه الوزارة، إن أسلم، فأبى[1415]. ولما مات ألّف نقيبُ العلويين قصيدةً في رثاء هذا الذي رفض الإسلام؛ وهذا يدلّ على أن قيمة الإنشاء الجيد كانت في نظرهم أعظم من قيمة صحة العقيدة. وكان الصّابي يعرف قدر نفسه، وهو يقول مفتخراً:

وقد علِم السُّلطان أني أمينُه

وكاتبُه الكافي السَّديد المُوفَّقُ

وتنقسم رسائله كلها قسمين: في الجزء الأول إجمال للخطاب الذي تُراد الإجابة عنه، وهذا القسم كان يتيح المجال لإظهار الأدب في الثّناء على المُرْسِل؛ فمثلاً كتب الصّابي عن الوزير إلى قاضي القُضاة، فقال في أول الكتاب: «وصل كتاب قاضي القُضاة بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته»[1416]؛ ثم يمضي في الإجابة عن الكتاب مبتدئاً بقوله: وفهمته... ولا تزال رسائل الصّابي تُقرأ إلى اليوم بلذة يحسّ بها القارئ وإعجاب وهي تُلْبِس موضوعها ثوباً من جمال الإنشاء القشيب.

وكان الصّابي يدبج رسائله بعباراتٍ جميلةٍ مسهبةٍ مسجوعة في أولها وآخرها، مليئة بضروب المجازات والاستعارات؛ ومع هذا لا يختفي المعنى بين ضغط الألفاظ، ولا يطغى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السّجع، بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المُراد من غير تلك المشقّة التي يعانيها الإنسان في فهم رسائل من جاء بعده. وحتى لو ترجمت هذه الرّسائل، وجُرِّدت من كل ما تتحلى به، فإنها لا تزال خليقة بالقراءة. ولنذكر من أمثلة الرّسائل الدّيوانية التي كتبها الصّابي كتاباً عن عز الدّولة إلى

ابن عمّه عضد الدّولة جواباً عن كتاب عضد الدّولة الذي أخبره فيه بفتح جبال القفص والبلوص سنة 357 هـ - 968 م.

«... وصل كتاب سيّدي الأمير عضد الدّولة أدام الله عزه! بما سهّل الله على يده ويَّسره بيُمْنه وبركته من فتح جبال القفص والبلوص، وما بلغه، أدام الله علوَّه! من أهلها المعادين كانوا للمَّلة، العادلين عن سبيل الله، حتى استنزلهم عن مَعْقِلٍ بعد معقل، واستباحهم في موبلٍ بعد موبل، وقتل حُماتَهم، وأفنى كَماتَهم، وأباد خضراءهم وغبراءهم، وعفى معالمهم وآثارهم، وألجأهم إلى الإذعان وطلب الأمان، وتسليم الرّهائن، والإفراج عن الذّخائر، والاستقامة على سواء الدّين، والدّخول في عصمة المسلمين؛ وفهمتُه وحمدت الله على ما منح الأمير عضد الدّولة، حمدَ المتحقِّق بما أفاء الله عليه، المغتبط بما أزلّه إليه، المشارك له فيما يخصه، المساهم له فيما يمسُّه؛ ووجدتُ الأثر فيه كبيراً بمؤثِّره، والتّدبير جليلا كمدبِّره؛ وتلك عادة الأمير، أيده الله! في الصّمد للفاسد حتى يصلح، وللمعتاص حتى يسمح، وعادة الله عنده في المعونة الضّامنة للنّجاح، الكافلة بالفلاح؛ فما تَردُ عليّ من جهته بشرى إلا كنت متوقِّعا لتاليةٍ لها أخرى، ولا أستقل منها بشكر ماضٍ سالف إلا ارتهنني بترقّب حادثٍ مُستأنف، والله أسأل أن يهنئه نعمته، ويملأه موهبته، ويبلغه في الدّين والدّنيا آماله؛ ويجمل فيهما أحواله، ويجعل رايته منصورةً على أعدائه، صغروا أم كبروا، وكلمته العليا عليهم، قلّوا أم كثروا، ويمكّنه من نواصيهم، سالموا أم حاربوا، ويقودهم إلى التّسليم له، رضوا أم كرهوا؛ ولا أَعْدَمَه فيما اختصّه به من حياءٍ وكرامة، وظاهَرَه عنده من إعلاءٍ وأنافة، مزيداً تتَّصل مُدَّتُه إليه، وتحل عائدته عليه بحوله وطوله؛ والأمير عضد الدّولة أطال الله بقاءه وليُّ مواصلتي بما يبهجني من أخباره، ويغبطني من آثاره، ويسرني من عافيته، ويؤنسني من سلامته، وامتثله من أمره ونهيه، وأقف عنده من حده ورسمه، إن شاء الله»[1417].

ثم انتقل استعمال الأساليب المُحَلّات بالسّجع من رسائل السُّلطانية إلى الرّسائل الإخوانية؛ على أنه في القرن الثّالث الهجري كتب الأمير الشّاعر ابن المُعتزّ إلى الأمير الشّاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رسالة تعزية وقد ردَّ عبيد الله شاكراً، والرّسالتان كلتاهما لا سجع فيهما[1418]. أما في القرن الرّابع فكان لا يخطر على البال أن تُكتب مثل هذه الرّسائل دون سجع، وقد عظم شأن فنّ كتابة الرّسائل الجيدة، في أواخر القرن الرّابع حتى كان النّاس يستطيعون أن يعيشوا من هذه الصّناعة، كما عاش الشّعراء قديماً من التّكسُّب بالشّعر. وكان أبو بكر الخوارزمي، (توفي عام 383 هـ - 993 م)، أشهر كتاب الرّسائل الإخوانية.

تقلّب الخوارزمي في شرق الدّولة الإسلامية، فورد بُخارى ونيسابور، وهَراة، وأصفهان وشيراز، وغيرها[1419]. وكانت رسائله توجَّه إلى الأمراء والوزراء والقُضاة والعُمّال والعلماء واللُّغويين، وكان موضوعها ما يرد في الرّسائل عادة من التّهنئة بالأعياد، وارتفاع المنصب، والتّعزية بالوفاة والكتابة بعد نكبة، أوالكتابة بمناسبة المرض، أو الخروج لحرب، أو للشّكر على هدية. ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخَراج فوَضَع صاحب الخَراج عنه خَراجَ سنة[1420]. ويظهر أن صيت الخوارزمي جذب إليه كثيراً من التّلاميذ، وخصوصاً من الفقهاء؛ ونجد في رسائله الكثير موجَّها إلى تلاميذه الجدد أو القدماء؛ ومنها رسالةٌ شَكَرَ فيها رجلاً على اصطناعه فقيهاً من تلاميذه[1421]. ومن أمثلة ما كتبه لبعض تلاميذه: «كُتُبُك، يا ولدي، عندي تُحفٌ وشمامات وأنوارٌ

وباكورات، أفرَحُ بأولها، وأنتظر ورود ثانيها، وأشكرك على ماضيها، وأعُدَّ الأيام والليالي على باقيها، فكثِّر عليَّ سوادَها، ووفِّر عليَّ أعدادها، واعلم أني أحبّك حبًّا مستكناً وبادياً.

أُحِبُّك ما لو كان بين معاشر	من النّاس أعداء لجرّ التّصافيا

وأني آنس بك حاضراً، وأشتاق إليك غائباً، شوقاً لو عرفتَه لتكبرت على الورى، ولم تُقِم وزناً لأهل الدّنيا، وكنتَ لا تنظر إليهم إلا بمؤخر عينك، ولا تكلّمهم إلا ببعض شفتيك»[1422].

ولو قارنّا بين رسائل الخوارزمي ورسائل الصّابي لوجدنا هذه أكثر اتّزانا، وأقرب إلى الواقع؛ وكان أهم ما عند الخوارزمي المحسِّنات البديعية والسّلاسة؛ أما موضوع الرّسالة فهو بمثابة خيط ينسج الفنان حوله ثمرات خياله وبلاغته؛ وبين هذا الأسلوب والأسلوب العربي القديم كثيرٌ من أوجه الشّبه، من شغفٍ بالألفاظ الجَزلة ذات الجَرْس، والتّشبيهات الحسنة، وقلق نفس الكاتب؛ غير أنّ ما كانت تنطوي عليه الفروسية قديماً من نبلٍ في العاطفة قد تغيّر وصار موضع سخرية.

اتّصف أسلوب الخوارزمي بالأسلوب السّاخر: وهي المبالغة والتّكرار والحشو؛ وهو يعمد إليها باعتبارها طريقة فنّية في الكتابة؛ فمن ذلك في إحدى رسائله: «فلان أبطأ عليَّ، فليت شعري الرّيح قلعته، أم الأرض ابتلعته، أم الأفعى نهشته، أم السّباع افترسته، أم الغول أغوته، أم الشّياطين استهوته، أم أصابته بائقة، أم أحرقته صاعقة، أم رفسته الجمال، أم اغتاله الجمّال، أم انتكس على ظهر جمل، أم تدحرج من رأس جبل، أم وقع في بير، أم انهار عليه جرف شفير، أم جفت يداه، أم قعدت رجلاه، أم ضرَّ به الجذام، أم أصابه البرسام، أم جمس غلاماً فقتله، أم تاه في البر، أم أغرق في البحر، أم مات من الحرّ، أم سال به سيل زاعب، أم وقع فيه سهم من سهام الآجال صائب، أم عَمِلَ عَمَلَ أهل لوط، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود مسوَّمة عند ربك، وما هي من الظّالمين ببعيد!»[1423].. وكتب إلى رجل طلب نسخة من رسائله: «... ولو قدرت لجعلت الورق من جلدي، بل من صحن خدي، والقلم من بنانتي، والمداد من أجفاني»[1424]. وقد تؤتينا مبالغته في كثير من الأحيان مجموعةً قيمة من الأحوال المتعارضة في ذلك العصر، كالذي كتبه إلى أبي عليّ البلعمي، فقال في وصف حاله: «...حتى لقد ركبت غير دابّتي، وأكلت غير نفقتي، ونزلتِ بيتاً بكراً، وشربت الزّبيبي، ولبِست الصّوف في المصيف، والبردى في الخريف، وكوتبت مواجهةً، وخوطبت بالكاف مشافهةً، وأجلستُ في صنف النّعال، وحتى لقد نشرت عليّ جاريتي، وحزنت دابتي، وتقدمني في المسير رفيقي الذي جمعني وإيّاه طريقي، وحتى إني أخذت الدّرهم الجيد، فصار في يدي ستوقاً، وقطعت الثّوب المشترى فصار على بدني مسروقاً، وغسلت ثيابي في تموز، فغابت الشّمس وطلع السّحاب، وسافرت في حُزَيران، فعصفت الرِّيح وسد الأفقَ الضُّباب، وفقدت كل شيء ملكته غير عرضي الذي عهده الشّيخ معي، وصبري الذي عرفه مني»[1425]. وقد يصل باستعمال الحشو إلى الملاطفة والتملّق، ويذكر لنا مع ذلك مجموعة من الكتب التي يستطيع الإنسان أن يرجع إليها حينما يريد أن يكتب خطاباً من السّجع الحسن؛ فقد جاء في إحدى رسائله: «ذكر السّيد أنه كتب جواب كتابي من الظّهر إلى العصر؛ ولقد استبطأته على ما أعرفه من بُعد غوره، وغزارة بحره، ولكني

أغلقت لهذا الجواب بابي، وأرخيت له حجابي، وضممت إلى نشر كتب آدابي، وجلست من الدّواوين بين آل الجراح وآل بُوَيْه وبني الخصيب وبني مُقْلة؛ ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شدّاد، وحشرت من الآخرة ابن المُقَفّع البَصْري، وسهل بن هارون الفارسي، وابن عبدان المصري، والحسن ابن وهب الحارثي، وأحمد بن يوسف المأموني، ووضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان، وعن يساري كتاب البيان والتّبيين، وبين يديَّ صول بزرجمهر بن البختكان، وقبل ذلك رسائل مولانا الصّاحب،عين الزّمان»[1426].

على أن الخوارزمي كان في نظر معاصره الهَمَذاني لا يحسن من الكتابة إلا النّوع الواحد المتداول بكل قلم[1427].

وكان أبو الفضل الهَمَذاني هو زعيم الطّريقة الجديدة، وورد حضرة الصّاحب فتزود من ثمارها؛ ثمّ وافي نيسابور بعد أن فارق وطنه باثني عشر عاماً؛ وشجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً في عُلُوِّ أمره؛ ثم أجاب الخوارزمي داعي ربّه، فخلا الجو للهَمَذاني، ولم يبقَ من بلاد خُراسان وسِجِسْتان وغَزْنَة بلد إلا دخلها، واستفاد خيرها؛ وألقى عصاه بهَراة، ثم صاهر رجلاً كريم الأصل، واقتنى ضياعاً فاخرة، وحين أربى على الأربعين سنة ناداه ربّه فلبّاه في سنة 398 هـ[1428].

كان أبو الفضل يُنشدُ القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها، ويؤديها[1429]. وكان من العجائب التي يقدر عليها، ويعجز عنها الخوارزمي أنه كان يستطيع أن يكتب كتاباً إذا قرئ من أوله إل آخره كان كتاباً، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً، أو كتاباً لا يوجد فيه حرفٌ منفصل، أو خالياً من الألف واللام، أو كتاباً إذا قرئ معرجاً كان شعراً، وإذا فُسّر على وجه كان قَدحاً[1430]. وكان هذا أعلى درجات القدرة على الإنشاء في ذلك العصر.

وكذلك يعيب الهَمَذانيُّ الجاحظَ بأن كلامه سهلٌ، قليل الاستعارات، قريب العبارات، وأن الجاحظ «مُنقادٌ لعُريان الكلام يستعمله، نُفُورٌ من معتاصه يُهْمِلُه»[1431].

غير أنّ رسائل الهَمَذاني التي انتهت إلينا ليس فيها لحسن الحظ مثل هذه الإشارات المعتاصة، لكنها أكثر التّواء وتكلفاً من رسائل الخوارزمي وأحفل بالتّشبيهات البعيدة المطلب وبأنواع الجناس.

وقد ظهر شيء جديد تجاوز أسلوب الرّسائل، وهو الميل إلى القصص والحكاية؛ فنرى الأدباء يذكرون في سياق رسائلهم بين حين وآخر حكاياتٍ طويلةً أو قصيرةً على سبيل التّمثيل؛ فمثلاً يشبِّه الهَمَذاني حال الطّامع الذي يذهب بعيداً، والخير منه قريب، بحال الرّجل البُخاري الذي ضاع حمارُه، وخرج في طلبه ينشده في كل مرحلة، وهو لايجده، حتى جاوز خُراسان وانتهى إلى طَبَرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق؛ فلما لم يجده، وأيس، عاد، وقد طالت أسفاره، ولم يَحْصُل حماره، حتى إذا حصل في بلده، بين أهله وولده، أحبّ الله أن يَلطف به لُطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى إصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه وثغره وحزامه قائماً على المعلف ينشّ...» [1432].

وهو يقول مُدَلِّلاً على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه: «إن الإبل على غلظ أكبادها لتحنّ إلى بلادها، وإن الطّير لتقطع عرض البحر إلى مظانّها».

وَيَحْكي عن ذي اليمينين طاهر بن الحسين أنه «لمّا وَلِيَ مصر وافاها مضروبةً قبابُها، مفروشةً أرضُها، مزخرفة جدرانُها، والنّاس رُكباناً ورجالاً، والنّثار يميناً وشمالاً؛ فأطرق لا ينطق حرفاً، ولا يرفع طرفاً، ولايهشّ إلى أحد، فقيل له في ذلك، فقال: ما أصنع بهذا، وليس في النّظارة عجائز بوشنج (وهي بلده)؟!»[1433]. وكذلك يحكي الهَمَذاني حكاية التّاجر مع ولده ويتمثل بها؛ وكان التّاجر قد جهّز ولده بمال للتّجارة، وأوصاه عندما خرج من بلده بأن يحذر النّفس وسلطانها. وكان ممّا قاله له: ودعني من قولهم: «أَلَيْس الله كريماً؟ بلى، ولكن كرمه يزيدنا ولا ينقص»؛ فلما فصلت العير لجّت بالفتى همة العلم، فأنفق ما معه من المال في طلبه. ولمّا انسلخ من طارفه وتالده رجع بالقرآن وتفسيره إلى والده، وقال: يا أبتِ جئتك بسلطان الدّهر، وحياة الخُلْد؛ جئتك بالقرآن وتفاسيره، والحديث بأسانيده والفقه بأبازيره، والكلام بأفانينه، والشّعر بغريبه، والنّحو بتصاريفه واللغة بأصولها، فاجْنِ العلم نَوْراً ونُوراً والآداب حُرًّا وحُوراً؛ فأتى به إلى السّوق وقدّمه للصّراف والبزاز والعطار والخباز والقصاب، وانتهى إلى البقال؛ فساومه عن باقة بقل، وقال: انتقِ تفسير أي سورة شئت، فتنحّى البقال، وقال: إنما نبيع بالكسْرة المكسَّرة لا بالسّورة المفسّرة، فأخذ الوالد تراباً بيده، ووضعه على رأس ولده، وقال: يا ابن المشؤومة، ذهبتَ بقناطير، وجئت بأساطير، لايبيع بها ذو عقل باقة بقل»[1434].

وإن كنا نرى عند الهَمَذاني ميلاً إلى القصص والحكاية، فقد كان يقابل ذلك عند الصّاحب بن عبَّاد ومن يتصل به اهتمامٌ خاصٌّ شديدٌ بالجوّالين المكدِّين وحكاياتهم ومخاطراتهم ولغتهم. وكان الصّاحب بن عَبّاد نفسه يحفظ «مناكاة بني ساسان»؛ ويعجبه من أبي دُلَف الخزرجي الشّاعر وفورُ حظه منها؛ وكان أبو دُلَف قد طاف ببلاد الهند والصّين، كما كان ينتاب حضرة الصّاحب ابن عَبّاد، ويكثر المقام عنده.. «ويتزود كتبه في أسفاره، فتجري مجرى السّفاتج في قضاء أوطاره»[1435].

ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية، بل شملت أحطّ طبقات أمته، وهي الطّبقة التي يجهلها المثقفون في العادة جهلهم لما ليس في بلادهم؛ وكان الجاحظ أيضاً هو أول من كشف عن هذه النّاحية؛ فقد تكلّم قبل ذلك العهد بمئة وخمسين سنة عن المُكدِّين، وأسمائهم، وما يمتازون به[1436]؛ ثم جاء البيهقي في أوائل القرن الرّابع فنقل عن الجاحظ[1437].

أما أبو دُلَف فإنه ألَّف قصيدةً طويلة في أصناف المكدِّين وشرحها شرحاً وافياً كافياً، وتقدّم كثيراً على كلٍّ من الجاحظ والبيهقي[1438].

ويرجع الفضل في حفزه على ذلك إلى الأحنف العكبري؛ فقد كان جوَّالا، طاف البلاد، وتغنى تغنياً مؤثراً بحرمانه من وطن يأوي إليه؛ لكنّه لم يحاول أن يذكر في شعره كلّ الألفاظ الصّعلوكية؛ وإنما ترك بعض ذلك لأبي دُلَف[1439].

أما الهَمَذاني فقد ظهر في هذا الميدان متميزاً بنزعةٍ خاصّة إلى الحكايات القصصية التّمثيلية القصيرة التي تغلب عليها الصّبغة البلاغية؛ وكانت ثمرة ذلك مجموعةٌ من المقامات، منها واحدة تسمّى الرّصافية، وهي معرض الاصطلاحات المتعلّقة بالمكدّين، كما هو الحال في قصيدة أبي دُلَف[1440]. والهَمَذاني نفسه يشير إلى تأثّره في مقاماته بأبي دُلَف؛ وذلك بأن أخذ من قصيدته الأبيات التي ذكرها في المقامة الأولى[1441]. وقد قدح الخوارزمي في الهَمَذاني بأنه لم يحسن سوى هذه المقامات؛ فثارت لهذه التّهمة ثائرة الهَمَذاني[1442]. ومن أسف أننا لا نعرف النّاحية التي أعجبت الخوارزمي في هذه المقامات.

أما عندنا فالتّقدّم الكبير هو أن جميع المقامات تدور حول رجلٍ واحد هو أبو الفتح الاسكندري؛ وبذلك تقوم الحكايات المختلفة الأشكال على أساسٍ واحد، وهذا تمهيدٌ للكتابة الرّوائية على صورةٍ أكبر؛ ولم يكن قد بقي على الهَمَذاني إلا خطوةً واحدة ليأتي لنا بقصص المحتالين واللّصوص من أجمل وألطف نوع لم يصل إليه أحدٌ إلى اليوم. ولكن هذه الخطوة لم تتم مع الأسف؛ ولم يكن ذلك لنقصٍ في القدرة على نسج القصص؛ فهذه القدرة كانت موجودة، ونحن نلاحظها في القصص الشّعبية؛ ولكن السّبب هو أنّ المقامات كانت ولا تزال أدباً يؤلّف للبلغاء، وهؤلاء لا يعنون بربط أجزاء القصّة بعضها ببعض. وقد أوجدت هذه المقامات ميلاً إلى الخُطب ذات الأساليب الوضاءة التي تشبه الشُّهُب التي تنطلق لامعة، ثم تفنى ولا تترك أثراً.

غير أنّه قد جُمعت أشعار الهَمَذاني أيضاً[1443]؛ وهي قصائدٌ تدلّ على أن صاحبها كان بفطرته كاتباً موهوباً، ولم يكن شاعراً؛ فهي أساليبٌ بلاغيّةٌ محضة، وفيها فرط تكلّفٍ في الألفاظ والمعاني، وهو يتلاعب في شعره بعلم اللسان فيكتب قصيدةً معرَّاة من الواو، وهو ما لم يستطع الصّاحب بن عَبّاد أن يفعله، مع أنه استطاع عمل قصائد كل واحدة منها خالية من حرفٍ من حروف الهجاء[1444]. وتدلّ عناية الحُصري[1445] (توفي عام 453 هـ - 1061 م) برسائل الهَمَذاني على أن الهَمَذاني قد غلب على من تقدمه؛ فالحُصري يذكر أجزاءاً طويلةً من رسائل الهَمَذاني؛ أما الخوارزمي فلا يذكره أصلاً.

وكان أبو العلاء المَعَرِّي (363-449 هـ = 973-1057 م) أكبر كتّاب النّثر في عصر الحصري، ويقول الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني الذي ورد المعرَّة سنة 428 هـ - 1037 م «إن فضلاء الشّام والمغرب والعراق يقرُّون أنه لا نظير له في هذا العصر، ولن يكون له نظير»، وقد أشاد الرّحالة بوصف كتابٍ لأبي العلاء «جاء فيه بكلماتٍ مرموزةٍ وأمثلةٍ بألفاظٍ فصيحةٍ وعجيبة، بحيث لا يقف عليه النّاس إلّا قليلٌ منهم، وهؤلاء يقرؤونه عليه أيضاً».

وكان ذلك هو المثل الأعلى للنّثر الجيّد؛ وقد ادّخر أبو العلاء التّعبيرات العويصة لقصائده، ولكنّنا نرى الأسجاع قد صارت في رسائله أقصر ممّا نراه عند الهَمَذاني، كما أننا نجد تشبيهاته أكثر تكلّفاً؛ وكثيراً ما تطغى الصّناعة والتّكلف الفظيّان على الغرض من الرّسالة، وكثيراً ما نرى في رسائله تشبيهاتٍ مطوّلة، فمن ذلك قوله: «واأسفي لفراق سيدي الشّيخ، أسف ساقٍ حرّ، ساقه الطّرب إلى الحرّ، توارى بالوريقة، من حرّ الوديقة، كأنه قينةٌ وراء ستر، أو كبير حجب من الهتر، في عنقه طوق، كربٌ يفصمه الشّوق، لو قدر لانتزعه باليد، من المقلّد أسفاً على إلفٍ، غادره للكمد، أي

حِلَف، أرسله، فهلك، نوح فالحمائم عليه تنوح، يُسمعك بالغناء أصناف الغناء، ويظهر في الغصون خبيّ الوجد المصون» وهلمَّ جرَّاً[1446].

ونرى الكلام تلمع من ثناياه الإشارات اللّطيفة وأنواع الجناس اللفظي، ونكاد نجد في كل جملةٍ صدى من ذلك قليلاً أو كثيراً.

وهذا التّعبير عن الشّوق للمرسل إليه هو الموضوع الذي تُبدأ به الرّسائل عادةً، غير أنّنا نرى الهَمَذاني قد عبَّر عن شوقه بما هو أبسط من ذلك: «لكنني أفتقر إليه افتقار الجسد إلى الحياة، والحوت إلى الفُرات»[1447].

أما بعد ذلك فنرى الكتَّاب يعبّرون عن الشّوق بالتمثّل بالحمام أو نحوه ممّا لم تجرِ به عادة.

فمثلاً يقول أبو العلاء: «وشوقي إليه وإلى الجماعة الذين عرفتهم بمدينة السّلام كالنّسيم لا يجمد، ونار فارس ليس تخمد؛ وفقري إلى لقائه ولقائهم فقرُ بيت الشّعر إلى القافية المتصلة».

ويقول أيضاً: «شوقي إلى مولاي الشيخ طول الدّهر، لا ينفد بنسبةٍ وشهر، وكلما ذهب زمانٌ صادف، أعقبه من الأزمنة رادف».

ويقول: «وانتظاري لقدومه انتظار تاجر مكّة وفد الأعاجم».

ويقول أيضاً: «وأنا والجماعة نبعث إلى سيدي الشّيخ مع راكب الطّريق ونسيم الرّيح الخريق، والعقيق المومض، والخيال المتعرض، سلاماً»[1448].

أو نرى في بعض الرّسائل مبالغةً في المجاملة؛ فمن ذلك أن أحد الأدباء أهدى إلى أحد الأمراء مختصراً لكتابٍ في النّحو، فشبَّهه المَعَرِّي بالفُرات، جرى من سَمِّ الخياط؛ وأول ما نجده في رسائله رسالته التي بعث بها إلى رجلٍ بمصر، وفي أولها يقول: «إن كان للآداب، نسيمٌ يتضوَّع وللذكاء نارٌ تلمع، فقد فَغَمَنا على بُعدِ الدّار أرجُ أدبه ومحا الليلَ عنا ذكاؤه بتلهبّه؛ وذلك أنَّا معشر أهل هذه البلدة، أُلقي إلينا كتابٌ كريم؛ أجلَّ عن التّقبيل، فظلالُه المقبَّلة، ونُزِّه أن يبتذل فنسخه المبتذلة؛ وإنه عندنا لكتابٌ عزيز... وإنما المنازل التي ينزلها السّيد كالشّهب الشّآمية الموفية على العشرين بثمانية، نزل بها الزّبرقان فتشهّرت، ونسبت العرب إليها كلَّ سحابة أمطرت»[1449]. وكتب أبو العلاء إلى رجل أخبره بأنه سيزور بلدته المعرَّة: «مثله بقدوم هذه النّاحية مثل النّسر الذي هو من ملوك الطّير وعظمائها، تتصل من أوصاله رائحة المسك، يهبط على نبيلة جدّ وبيلة، وهذه جمل من صفة المعرَّة: هي ضد ما قال الله عز وجلّ: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ...} اسمها طيرة وعند الله تُرجى الخيرة؛ المورد بها محتبس، وظاهر ترابها في الصّيف يبس؛ ليس لها ماءٌ جار، ولا تغرس بها غرائب الأشجار، وإذا أبرز لأهلها ذِبْحٌ يؤمّل به الرّيح، تحسبه صبغ بحظر، فكأنّما يرمق به هلال الفطر؛ وقد يجيئها وقت يكون فيها جدي المعز في العزة كجدي الفرقد، ومثَّل حمل الكوكب حمل النّقد، ويبكر فقيرها على الهداية قبل أبي الفرخين ابن دأية، حتى يقف ببائع الرّسل، فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان»[1450].

والفن البديع الذي يتجلى في هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة، جعل اللغة سلسةً إلى درجةٍ نادرة، قوية التّعبير برغم الاختصار، وهي الطّريقة التي استند إليها كل الذين كانوا يريدون التّعبير عمّا في نفوسهم مراعين في ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرّية في التّعبير.

وقد بلغ أبو حيّان التّوحيدي (توفي حوالي عام 400 هـ - 1009 م) مرتبة الأستاذ لهذه الطّريقة. وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرّائع؛ غير أنّنا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التّكلف الذي نراه عند غيره. ولم يُكْتَب في النّثر العربي بعد أبي حيّان ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه ممّا كتب أبو حيان؛ لكنّ الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع؛ وكان أبو حيّان يعاني وحشة من يرتفع عن أهل زمانه؛ وهو يقول: «والله لربّما صلّيت في المسجد، فلا أرى إلى جنبي من يصلّي معي؛ فإن اتفق فبقّال، أو عصّارٌ، أو ندّافٌ، أو قصّاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنَتْنِه؛ فقد أمسيتُ غريب الحال غريب النِّحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصّمت، ملازماً للحيرة، ومحتملاً للأذى»[1451].

وفي آخر حياته أحرق كتبه، فلمّا عُذل في ذلك قال: «إني فقدتُ ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً مُنيباً؛ فشقّ عليّ أن أدعها لقومٍ يتلاعبون بها، ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها...وكيف أتركها لأناس جاورتُهم عشرين سنةً، فما صح لي من أحدهم ودادٌ، ولقد اضطررت بينهم في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصّحراء، وإلى بيع الدّين والمروءة»[1452].

وكتابه في ذم الوزيريْن مشحون بالثّلب المُقذع، وقد ظلّ النّاس زماناً طويلاً يعتقدون أن هذا الكتاب يجلب النّحس على من يقتنيه.

وآخر مظهرٍ لتدارك الذّوق العربي الأصيل، أنه منذ القرن الثّالث الهجري بدأت قصص السّير الأجنبية تحتلّ مكاناً كبيراً في الأدب العربي[1453]. وكانت الإسرائيليّات وقصص البحريّين تقوم، حتى ذلك الحين، بحاجة من يريد التّسلية. أما منذ القرن الثّالث فقد أضيف إلى ذلك ما تُرجم من قصص الهند والعجم، وكان أهمها في ذلك حكايات ألف ليلة وليلة أو (ألف حكاية)، وهو اسمها العجمي، وإن كانت هذه الحكايات دون المئتي سَمَر موزَّعةً على ألف ليلة[1454].

غير أنّ هذه الحكايات لم تكن تروق الأدباء الذين يؤثرون قراءة النّثر الفني؛ فكانوا يرون أنها «كتابٌ غثّ بارد الحديث»[1455]؛ وكذلك نرى أبا العلاء، المفتنّ الكبير، يتكلّم عن كتاب «كليلة ودِمنة» كلام من لم يتحمَّس له[1456].

لكنّ الروح الجديدة لذلك العصر كانت تتَّجه إلى ما هو أجنبي، وسرعان ما وجدنا حتى من العلماء والمعتبرين من الأدباء من لم يجد غضاضةً على مكانته أن يؤلِّف أسماراً من النّثر السّهل، غايتها مجرّد التّسلية؛ فمثلاً ابتدأ أبو عبد الله محمّد بن عبدوس الجهشياري، بتأليف كتابٍ على نسق كتاب ألف ليلة وليلة، وكتب أربعمئة وثمانين سمراً، لكنّ المنيّة عاجلته قبل تتميمه الألف. وممّا تجب ملاحظته أن الجهشياري لم يهتم لوصل قصصه بعضها ببعض؛ ولهذا الوصل سحره وتأثيره الخاص فينا، لأنه يحبّبنا في مواصلة القراءة، بل جعل الجهشياري كلّ سمرٍ قائماً بذاته، ويكفي لليلةٍ

واحدة[1457]. ومن هذا النّوع الكتبُ المسلّية التي ألّفها القاضي التّنوخي (توفي عام 384 هـ - 994 م). وأخيراً جاء مسكويه (توفي حوالي عام 420 هـ - 1029 م)، أكبر مؤرّخي القرن الرّابع، فألّف كتاب «أنس الفريد»، «وهو أحسن كتابٍ صُنِّف في الحكايات القصار والفوائد اللطاف»[1458].

وتختلف هذه عن القصصِ القديمة التي ألَّفها ابن قتيبة وصاحب العقد؛ ففيها نجد لأول مرٍّة طريقة القصص التي ليست عربيةً خالصة، وإلى جانبها انتشرت كتبٌ شعبيةٌ كثيرة لايُعرَف مؤلفوها؛ منها قصصٌ في الفروسيَّة كالتي تحكي عن عروة بن عبد الله، وأبي عمر الأعرج، وكتبٌ في النّوادر والحكايات مثل جُحا وحكايات ابن المعاملي المغنِّي المشهور، وكتبٌ هزلية مثل قصّة عاشق البقرة، والسِّنور والفأر[1459]، وخرْء الطّائر، وكتاب ذات الطِّيب، ثم مجموعةٌ كبيرة من القصص الغراميَّة وخصوصاً حكايات الشّعراء المشهورين وأهل الدّهاء من النّساء العاشقات. وكذلك شغلت قصص الحب بين الآدميّين وبين الجن مكاناً كبيراً[1460]؛ وقد ذكر المؤرّخ حمزة الأصفهاني حوالي عام 350 هـ - 961 م أنه كان في عصره من كتب السّمر ما يقرب من سبعين كتاباً[1461]. ومن بينها القصصُ التي كان يؤثرها أهل الطّبقة الرّاقية، والتي يغلب عليها الوَلَهُ؛ وكان يثير تولَّهَ العشاق ما روي عن بني عُذرة أنَّ أحدهم «كان يموت إذا عشق»، وعن أبطال القصص الغراميّة الذين تتضعضع أعضاؤهم من شدَّة الوجد[1462].

وإلى هنا وقف النّثر العربي إلى اليوم.

ثانياً: الشّعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المُحْدَثين؛ أما قائدهم فيعدّ بشّار بن بُرد الذي نشأ بالبصرة، وتوفِّي عام 168 هـ - 784 م[1463]. وكان أبوه طيَّانا[1464]. وُلد بشّار أعمى، وكان ضخماً طويلاً؛ وقد سخر منه رجلٌ عندما رُوي له قولُ بشّار[1465]:

لو هبَّت الرِّيح به طاحا	في حُلّتي جسمُ فتى ناحل

وكان بشّار إذا أراد أن ينشد شعراً صفّق بيديه، وتنحنح، وبصق عن يمينه وشماله، ثم يُنشد، فيأتي بالعجيب[1466]. ويُروى أنّ رجلاً قال: «عهدي بالبصرة وليس فيها غَزلٌ ولا غَزلَةٌ إلا يروي من شعر بشّار؛ ولا نائحةٌ، ولا مغنِّية إلا تتكسّب به،، ولا ذو شرفٍ إلاَ وهو يهابه ويخشى معرّة لسانه»[1467]. على أن بشَّارا قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهديّ؛ ويقال: إنه ألَّف اثني عشر ألف قصيدةً من الشّعر[1468].

وكانت لغة شعر بشّار هي لغة كل الشّعراء القدماء؛ ويُذكر أنه كان ينزل بظاهر البصرة قومٌ من أعراب قيس عيلان؛ فكان بشّار يأتيهم وينشدهم أشعاره[1469]؛ وكان بشّار عليماً بأسرار اللغة حتى اعتبره اللّغويون حجَّة. ولكن هذا كلّه كان على الطّريقة القديمة، فلم يبتكر الشّعراء المُحدثون صوراً جديدة، ولا هم اكتشفوا مادةً جديدةً إلا نادراً، وإن كانوا قد افتتحوا قصائدهم بذكر الورد وأزهار الرّياض والبساتين، على حين كان أهل البادية يفتتحون قصائدهم بذكر الخُزامى ونحوها من زهر البريَّة[1470]، وإن كانوا أيضاً تركوا وصف حمار الوحش إلى وصف البهائم، كما فعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف[1471]، أو إلى وصف القِطط المنزلية، كما فعل ابن العلّاف (توفي عام 318 هـ - 930 م)[1472].

أما الجديد فكان هو البحث عن الطّرائف البديعة التي تخالف المألوف والتي تسمَّى الطّيّبة[1473]، وهو أثرٌ من آثار تدهور الحضارة التي دخلت في الشّعر العربي حينما آلت القيادة إلى الأخلاط الذين سكنوا المدن.

وحدث في الشّعر ما حدث في النّثر؛ ذلك أن الميل إلى الطّرائف والمسلّيات قتل في النّاس الميل إلى شعر البطولة القديم؛ وقد امتدح الجاحظ لأنه كان مؤسّس الطّريقة الجديدة التي تجمع بين الجدِّ والهزل؛ وكذلك نال بشّار - زعيم الشّعراء المُحدَثين - إعجابَ أبي زيد اللغوي. وأول ما أعجبه فيه أنه كان يجدّ ويهزل، على حين أن منافسيه من المتمسّكين بمذهب الأوائل لم يكونوا يحسنون إلا واحداً من هذين[1474]. وكذلك أعجب الأصمعي في بشّار أنه كان أكثر تصرفاً في فنون الشّعر من غيره[1475]. أما إسحاق الموصلي الذي كان يتحمَّس لمذهب القدماء فقد كان لا يعتدّ بشعر بشّار، ويقول: هو كثير التّخليط في شعره، وأشعاره منها المتناهي في الجودة ومنها غير الجيد؛ وهو يذكر لبشّار هذين البيتين[1476]:

إنما عظم سليمى حبَّتي	قصب السُّكّر لا عظم الجَمَل
وإذا أدنيت منها بصلاً	غلب المسكُ على ريح البصل

وكان «الطّيّب» في نظر الشّعراء القدماء شيئاً زائفاً، لكنه انتشر عند المُحدَثين، وكانت الكلمة الجارية في وصف الشّعر الحسن في القرن الثّالث هي «البديع»، أي الطّريف المستحدث[1477]. وقد كتب ابن المُعتزّ (توفي عام 396 هـ - 909 م)، وهو من أكبر الشّعراء، كتاباً خاصاً بهذا المعنى.

وقد تبوّأت المعاني المقام الأول، كما هو الحال في كل شعر غايته الجري وراء المستطرفات وكان الشّعراء يتلمّسون التنويع في الأبيات الشعريّة وما تتضمَّنه من تشبيهات وتصورات. ومن هنا جاءت المعاني التي زادها بشّار بن بُرد وأصحابه، فإنهم أتوا «بمعانٍ ما مرّت قطّ بخاطر جاهليٍّ ولا مخضرمٍ ولا إسلامي»[1478].

وقال بشار: «لم أقبل ما تورده عليَّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعث به فكري؛ ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات؛ فسِرْتُ إليها بفكرٍ جيّد».

ومن شعر بشّار الذي يُعدّ «مستحدثاً» قوله في وصف حُبّه، وهو المكفوف البصر، لصوت امرأةٍ تكلّمت معه:

يا قوم أُذْني لبعض الحي عاشقةٌ	والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم	الأذنُ كالعين توفي القلب ما كانا

وهو يزيد هذا المعنى بساطة ودقة في صورة أخرى له، حيث يقول[1479]:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلّقها	قلبي، وأمسى به من حبها أثرُ
أنَّى ولم ترها تهذي فقلتُ لهم	إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

وكانت عادة الشّعراء، فيما سلف، أنهم كانوا يشبّهون الخدود بالورد؛ أما اليوم فإن الورد يشبّه بالخدود يضاف بعضها إلى بعض.

وقد نال أعظم الإعجاب، واعتُبر من «البديع» قولُ ابن الرُّومي (توفي عام 280 هـ - 893 م):

طرَّة من نقرته يجذب من نيله	إلى مدى يقصر عن
فوَجْهه يأخذ من رأسه	أَخْذ نهار الصّيف من ليله

وهو يشير بالليل والنّهار إلى لون الشّاعر الأسود وجمال بياض جلد الرّأس[1480].

وكان ابن الرُّومي هذا متطرًّفا في حكمه على الشّعراء المُحدَثين، حتى كان يزعم أن بشًّارا أشعر النّاس جميعاً ممّن تقدّم وتأخّر[1481]، وهو حكم كان يقفّ شَعْر الأدباء واللّغويين في ذلك العصر. غير أنّ ابن رشيق، ناقد الشّعر المعروف (توفي عام 463 هـ - 1071 م)، قرّر بعد ذلك بمئتي عامٍ

أن ابن الرُّومي نفسه أكبر الشَعراء المُحدَثين. وهو يروي له البيت المتقدّم ويقدّمه بقوله: فقال ابن الرُّومي، وأحسن ما شاء[1482].

وهذه الطّريقة الجديدة قوّت ما عند الشّعراء الموهوبين من ميلٍ طبيعيٍّ إلى الاستقلال في رؤية الأشياء بعيونهم والابتكار في عباراتهم، وأصبح لا يحمد لهم أنٍ يسيروا على المناهجِ السّهلة المطروقة. ولهذه الطّريقة الجديدة يرجع الفضل في هذه الملاحة الطّبيعية التي نجدها مثلاً في رثاء بشّار لبُنَيَّةٍ صغيرة له[1483]:

ما كنت إلا خمسة أو ستّا	يا بنتَ من لم يَكُ يهوى بنتا
فتنت قلبي من جوى فانفتّا	حتى حللت في الحشى وحتى
يصبح سكرانَ ويمسي بهتا	لأنتِ خيرٌ من غلامٍ بتّا

أو ما قيل في وداع جارية[1484]:

لِيَ الكبدُ الحرّى، فسِرْ ولك الصّبر	تقول غداة البنين إحدى نسائهم
على خدها بيضٌ وفي نحرها صفر	وقد خَنَقَتْها عبرةٌ، فدموعها

أو في أنواع التّصوير القويّة التي نراها عند أبي نواس[1485] (توفي حوالي عام 195 هـ - 810 م)، والتي تذَكرنا بما في أغانينا الشّعبية من نحو تشبيه فعل الحبِّ بالقلب بفعل القطّ بالفأر[1486].

أو في التّمثيل الرّفيع الذي نراه عند ابن المُعتزّ (توفي عام 296 هـ - 909 م) في قوله[1487]:

أميرٌ على رأس اليفاع خطيب	وجلجل رعدٌ من بعيدٍ كأنه

أو في قوله[1488]:

كما رُدَّ الحسامُ إلى القراب	رددتُ إلى التّقى نفسي، فقَرّت

أو في قوله في إحدى الخمريات[1489]:

فانْظُر إلى دنيا ربيع أقبلت ... مثل النّساء تبرّجت لزناة

والكمأة الصّفراء بادٍ حجمُها ... فبِكُلِّ أرضٍ موسمٌ لحياة

أو قوله[1490]:

زارني، والدّجى أصمّ الحواشي ... والثريا في الغرب كالعنقود

أو قوله[1491]:

ظللت بها على كُرهٍ مقيماً ... كعِنِّينٍ تعانقه العجوز

وكثيراً ما يكون في شعر هؤلاء الشّعراء ابتكارٌ كبير فمن ذلك قول أبي نواس[1492]:

وقد خَضَّبَتْها عبرةٌ فلدمعها ... على خدّها خَدُّ وفي نحرها نحر

أو قول ابن المُعتزّ[1493]:

انْظُرْ إلى حُسْنِ هلال بدا ... *يهتك من أنواره الحِنْدِسا*

كمِنْجَلٍ قد صيغ من فضّةٍ ... يحصد من زهر الدّجى نرجسا

أو قول ابن الرُّومي[1494]:

على الأرض دُكْناَ وهي خُضْرٌ على الأرض	وقد نثرت أيدي السّحاب مطارفا
على أحمرَ في أخضرَ وسط مُبْيَضّ	يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر
مصبَّغة، والبعضُ أقْصَرُ من بعض	كأذيال خودٍ أقبلت في غلائل

ونرى هذا الجرْيَ وراء ما هو غير مألوفٍ من المعاني الجديدة، يتمشّى في الشّعر العربي طول القرن الرّابع الهجري؛ وهو قد أيقظ جميع حواس الشّاعر ليستخرج أعمق ما في باطن الأشياء من أسرار، وليكشف عن أغرب خصائصها. وأول ما نلاحظه أن الشّعر يقوم مقام الفن التّصويري؛ فالكثير ممّا يعبّر عنه الشّعر هو رسمٌ لما تجيش به نفس الشّاعر ويضطر إلى إبرازه في صورةٍ من الألفاظ. وقد قويت في الشّعراء رغبة عظيمة للنّظر بأعينهم، وقامت في نفوسهم حاجة إلى النّظر في الأشياء نظرةً فنّية، وإلى الإبانة عنها إبانةً توضحها لهم. وهذا ما لم يعرفه العرب الأوَّلون؛ فقد كان لهم فَنًّا لغوياً أداته الألفاظ. اتصل العرب بشعوبٍ أخرى تختلف عنهم، فوضعوا في أيديهم القلم بدلاً من ريشة الرّسام المصوِّر؛ ولمّا آل الأمر إلى هذه الشّعوب وأصبحت هي القابضة على زمام الفن الأدبي، زاد الشّعر التّصويري زيادةً كبيرة، بعد أن لم يجد أبو تمَّام ما يصلح للاختيار في باب الأوصاف حتى يذكره في ديوان الحماسة إلا بضعة عشر بيتاً. وكان شعراء العرب القدماء قد اختصروا دائماً في وصف الطّبيعة، وكانوا منذ القدم يذكرون شيئاً من وصفها في شعر الشّراب، وخصوصا في وصف الأيام الممطرة المُدْجِنِة التي كان يحلو لهم فيها الشّراب عادة؛ أما الشّعراء المتأخرون فقد جاؤوا في هذا الباب بأدق التّشبيهات؛ فيقول ابن الرُّومي مثلاً[1495]:

يومُنا للنّديم يومُ سرور	والتذاذٌ ونعمةٌ وابتهاجُ
ذو سماءٍ كأدكن الخَزّ قد غيّمت	*وأرض كأخضر الدّيباج*

ويقول الوزير أبو محمّد المُهَلَّبي[1496]:

شبهُ الحصان الأبرش يومٌ كأن سماءَه

وكان القدماء يفضّلون الشّراب في اللّيل أو عند طلوع الفجر الأول، في الوقت الذي قال فيه ابن المُعتزّ [1497]:

ونادى الدّيك حيّ على الصّبوح حان ركوع أبريق لكأس

وكذلك قال أبو نواس في قصيدتين له شيئاً من هذا، فمن ذلك[1498]:

قد هتك الصُّبح ستورَ الدّجى

فانحسرت أثوابه الجون

وبعد ذلك بنحو قرنٍ نجد ابن المُعتزّ قد جاء في هذا بالكثير المتنوّع فمن ذلك قوله[1499]:

قد كاد يبدو الصّبح أو هو باد	قم يا نديمي نصطبح بسواد
قدم تبدّت في ثياب حداد	وأرى الثّريا في السّماء كأنها

وقوله[1500]:

كهامة الأسود شابت لحيته	قد بدت فوق الهلال كرته

غير أنّه في عصر ابن المُعتزّ نفسه بدأ النّاس ينصرفون عن الشّراب في هذا الوقت الغريب، وابن المُعتزّ يصفه بعدم الملاءمة، فمن ذلك قوله[1501]:

والنجم في لجّة ليلٍ يسري	إذا أردتَ الشّرب عند الفجر
وريقه على الثّنايا قد جمد	وكان برد فالنّديم يرتعد
وشتمةٌ في صدره مجَمْجَمَه	وللغلام ضجرةٌ وهمهمه

وعند ابن المُعتزّ نفسه نرى الشّعور بجمال الطّبيعة والتّمتع به يظهر قوياً في الخمريات؛ فقد بدأ أصحاب الشّراب يتمتَّعون بجمال الجنان والأشجار، ويشربون بين الورد والنّرجس والجُلَّنار والأُقحوان وغناء الطّيور، وذلك كله في الرّبيع «وموسم الحياة»[1502].

وفي النّصف الأول من القرن الرّابع الهجري نبغ شاعران شاميان، وكانا صديقيْن؛ فأنشآ قصائد تغنّيا فيها بالبساتين وما لها من جمال يخلب الألباب، وبلغا بذلك الشّعر إلى الذّروة.

أما أوّلهما فهو أبو بكر محمّد بن أحمد الصّنوبري[1503]. ولد هذا الشّاعر بأنطاكية؛ وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدّولة[1504]. ويدلّ لقبه، «الصّنوبري»؛ على أنه هو أو أباه كانا يتّجران في خشب الصّنوبر[1505]. ولمّا كان المخروط الشّكل يسمّى الصَّنَوبَرة[1506]، فقد يجوز أن يكون هذا الشّاعر لُقّب بهذا اللقب على سبيل الإشارة إلى صورته. وله لقب آخر هو«الصِّيني»، وليس في هذا ما يدعونا إلى الظّن بأنه ذهب إلى الصّين؛ فقد كان بالكوفة مثلاً رجلٌ يسمّى الصّيني، لأنه كان يتّجر إلى الصّين[1507]. وقد مات الصّنوبري في عام 334 هـ - 945 م[1508]، وهو يناهز الخمسين على الأقل[1509]. ونعرف من حياته أنه كان صديقاً للشّاعر كُشاجم، وأن كُشاجم وصفه بأنه «بحرٌ ما له شطٌّ»[1510]، وأنه طلب يد ابنته[1511]، وعزّاه عن فقد ابنةٍ أخرى له تُوفِّيت بِكراً[1512].

وقد تغنّى كثيراً بذكر حَلَب والرَّقة، وهما أكبر بلدين كانا مقرًّا لسيف الدّولة. غير أنّه سكن الرُّها، وكان يجتمع في دكّان ورّاق بكثير من أدباء الشّام ومصر والعراق[1513]. وكانت له بمدينة حلب حديقةٌ بها قصرٌ فخم، حوله الغروس والرّياحين وشجر النّارنج[1514]، ولذلك يسمّى الحلبي. وكان الصّنوبري صغيراً فلم يَنَل مكاناً في كتاب الأغاني، وكان مسنًّاً فلم ينل مكاناً في يتيمة الدّهر؛ ولذلك بقي ديوانه مفرَّقا، ولم يوجد منه إلّا أجزاءٌ صغيرة؛ وإنْ كان الصُّولي قد رتّبه على حروف الهجاء، وجمعه في مئتي ورقة؛ فلا بدّ أن تُجمع بقاياه من كل نَاحية. يقول الصّنوبري في وصف سريرٍ من الشّقيق أحاط به وردٌ أبيض:

خلال بُستانك الأنيق	قد أحدق الورد بالشّقيق
مستشرقات إلى حريق	كأن حوله وجوه

ويقول[1515]:

ق إذا تصوَّب أو تصعّد	وكأنّ مُحْمَرّ الشّقيـ
ن على بساط من زبرجد	أعلام ياقوت نُشر

ويقول[1516]:

ما للرّبى قد أظهرتْ إعجابها	يا ريمُ قومي الآن ويحك فانظري
فالآن قد كشف الرّبيع حجابها	كانت محاسنُ وجهها محجوبةً
يحكي العيونَ إذا رأت أحبابها	وَرْدٌ بدا يحكي الخدودَ ونرجسٌ
بَلَق الحَمام مُشيلة أذنابها	وثياب باقِلاء يشبه نوْرُه
قد شمّرت عن سوقها أثوابَها	والسّرو تحسبه العيون غوانياً
خودٌ تلاعب موهناً أترابها	وكأن إحداهن من نفحِ الصّبا
يوماً لما وطئ اللئام ترابها	لو كنت أملك للرّياض صيانة

ويعدّ الصّنوبريُّ النّرجس ملك الأزهار، فمن قوله في النّرجس[1517]:

من زعفران ناعمات الملمس	أجفان كافورٍ حففن بأعين

والنَّرجس هو أعظم أزهار الشّام، وهو الذي يجعل مراعيها بيضاء ناصعة[1518]. وكذلك وصف هذا الشّاعر معركة بين الأزهار فقال[1519]:

عن ثنايا لثامهن نضار	وغدا الأقحوان يضحك عجباً
صار فيها من لطمه آثار	عندها أبرز الشّقيق خدوداً
ب حدادٍ دخانها الاصطبار	فاكتسى البنفسج الغضُّ أثوا
جس بالجحفل الذي لا يبار	فاستجاشوا على محاربة النّر
ـه تغني الأطيار والأوتار	فجمعناهمو لدى مجلسٍ فيـ

وفي القرن الثّالث وصف البُحتُري بركة دار الخلافة فقال:

كالخيل خارجةً من حبل مجريها	تنصبُ فيها وقود الماء مُعْجَلةً
من السّبائك تجري في مجاريها	كأنما الفضّة البيضاء سائلةٌ
ليلاً حسبت سماءً ركبت فيها	إذا النّجوم تراءت في جوانبها

والآن نرى الصّنوبري يشبّه بركة بموضع يصفه، تشبيهاً لا يخلو من تطرِّف ومبالغة، فيقول[1520]:

مكان الطّيور يطير السّمك هي الجو من رقة غير أن

ولكن لما كان الصّنوبري شاعراً وصَّافاً للجنان فهو يقول في تلك القصيدة:

وقد نظم الزُّهر نظم النّجوم	فمفترق النّظم أو مشتبك

وكان الصّنوبري، وهو أول شاعر للطّبيعة في الأدب العربي، يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسّماء والضّياء والهواء مع التّطلع إلى أسرارها الجميلة، فهو يقول في إحدى أغاني الرّبيع:

إن كان في الصّيف ريحانٌ وفاكهة	والأرض مستوقدٌ والجو تنُّور
وإن يكن في الخريف النّخل مخترقاً	فالأرض عريانة والجو مقرور
وإن يكن في الشّتاء الغيث متصلاً	فالأرض محصورة والجو مأسور
ماالدهر إلا الرّبيع المستنير إذا	جاء الرّبيع أتاك النّوْر والنّور
والأرض ياقوتة والجو لؤلؤة	والنبت فيروزج والماء بلّور

وكان أول من تغنّى بالقصائد الثّلجيات، ومن ذلك قوله[1521]:

ذَهِّبْ كؤوسَك يا غُلا	مُ فإنّه يومٌ مُفَضَّض
والجوّ يُجلى في البيا	ضِ وفي حُليّ الدُّرِّ يُعرض
أتظنّ ذا ثلجاً وذا	ورد على الأغصان ينفض
ورد الرّبيع ملونٌ	والورد في كانونَ أبيض

وقد ترك الصّنوبري آثاراً قوية في الأدب العربي، وظهر أول أثر له عند كُشاجم[1522] شريكه في الوطن وصديقه الحميم؛ وقد عبّر كُشاجم عن هذه الصّداقة بقوله[1523]:

به كالماء في الخمرِ	أتنسى زمناً كنا
على الإيسار والعمرِ	أليفيْن حليفيْن
ت في الصّحو وفي السُّكْرَ	مكبَّيْن على اللّذا
ب كالشّمس وكالبدر	ترى في فلك الآدا

وقد سار كُشاجم في شعره على الطّريق الذي رسمه صديقه الصّنوبري، فاقتدى به، في التّغني بملذّات العين، فمن ذلك قول كُشاجم[1524]:

زرقة لقيت بجري الماء	أقبلت في غلالةٍ زرقاء
جمد النّور في قميص الهواء	فتأملت في الغلالة نهباً
ظهر البدر فيه لون السّماء هي بدرٌ، وإنّ أحسن لونٍ	

وهو يصف مليحةً في لباس حِدادٍ بقوله[1525]:

وردةٌ في بنفس في حِدادٍ كأنه

ويقول في غلام:

حتى تنقّب وردٌ ببنفسجِ	مازال يخمش خده ببنانه

وقال يتغزّل في نهر قويق بحلب[1526]:

ياض وشياً معمّد	والأرض تكمى بزهر الرّ
وخضرةٌ في زبرجد	وحمرةٌ في شقيق
من لؤلؤٍ قد تبدّد	وأقحوانٌ كعقدٍ
مهنّدات تجرّد	كأنّ فيه سيوفاً
وتارةً هي تغمد	فتارةً هي تنضي
فيه سراجٌ توقد	كأن لنيلوفر النّهر
بشدّة الرّيح تخمد	طوراً تضيء وطوراً

وهو يقول في وصف نيل مصر[1527]:

وفاض بها وكسرت التّراع	كأن النّيل حين أتى بمصر
سماواتٌ كواكبها ضياع	وأحدق بالقرى من كل وجهٍ

وكذلك نظم قصيدةً في وصف الثّلج منها قصيدةٌ أولها:

أم ذا حصا الكافور ظلَّ يفرك	الثلج يسقط أم لجيْنٌ يُسبك

غير أنّه في هذه القصيدة قال ما يدلّ على عدم انصقال الذّوق، ومن ذلك قوله في وصف الثّلج[1528]:

من كلِّ ناحيةٍ بثغر تضحك	راحت به الأرضُ الفضاء كأنها

وكان لكُشاجم كثيرٌ من المعجبين، وقد قال أحدهم[1529]:

يهمي على حجب الفؤاد الواجم	يا بؤس من يُمنى بدمعٍ ساجمٍ
ورسائل الصّابي وشعر كُشاجم	لولا تعلّله بكأس مدامةٍ

وكان كُشاجم يلقب في منتصف القرن الرّابع الهجري «ريحانة أهل الأدب» في بلاد الموصل؛ وكان الخالديّان شاعرين كبيرين في الموصل؛ وكان بهذه المدينة من الشّعراء السَّريّ. وكلهم- رغم ما كان بينهم من تنابزٍ وعداوةٍ وكيد- كانوا يسيرون في طرق كُشاجم. وكان السّريّ ينسج ديوان كُشاجم، ويدسّ فيه أحسن شعر الخالديّيْن، ليزيد من حجم ما ينسخه من شعر كُشاجم[1530].

اتّخذ الخالدي دعوة، وجمع الشعراء، وحضر السّلامي معهم (توفي عام 394 هـ - 1004 م)؛ فلم يلبثوا حتى جاء مطرٌ شديد وبَرَدٌ ستر الأرض، فألقى أبو عثمان نارنجاً كان بين أيديهم على ذلك البَرَد، وقال: يا أصحابنا هل لكم في أن نصف هذا، فقال السّلامي ارتجالاً[1531].

أهدى الخدود إلى الثّغور لا تعذلوه فإنه

وقال أحد الخالديّين في وصف الفجر [1532]:

زهر الأقاحي في رياض بنفسج	أرعى النّجوم كأنها في أفقها
ميلانَ شارب قهوةٍ لم تمزج	وتمايل الجوزاء يحكي في الدّجى
هي فيه بين تحفُّزٍ وتبرُّج	وتنقَّبت بخفيف غيم أبيض
كملت محاسنها ولم تتزوَّج	كتنفُّس الحسناء في المرآة إذ

ويقول أيضاً[1533]:

زرقاء تحملها يدٌ بيضاء	ومدامةٌ صفراء في قارورةٍ
والكفُّ قطبٌ والإناء سماء	فالرَّاح شمسٌ والحباب كواكبٌ

وكان الوزير المُهَلَّبي شاعراً في مرتبةٍ أرقى من مرتبة الطّبقة الوسطى من الشّعراء؛ وقد أنشأ مجلساً حافلاً للأدباء، وكان يحب الطّبيعة والشّراب، فنشر طريقة الصّنوبري ببغداد. ويحدّثنا الصّاحب بن عَبّاد في يوميات رحلته إلى بغداد، أن الوزير المُهَلَّبي كان كثير الإنشاد لشعر الصّنوبري[1534]؛ بل نرى المُهَلَّبي ينسج على منوال أستاذه فيصف الثّلج، وهو من الأعاجيب ببغداد، ومن ذلك قوله[1535]:

نلتذّ بابنة كرمةٍ لم تمزج والثلج يهبط كالنّثار فقم بنا

وكذلك يقول القاضي التّنوخي - وكان من ندماء المُهَلَّبي - متأثراً بطريقة الصّنوبري في وصف امرأةٍ بدت في رداء مُعَصْفر [1536]:

كالشَمس غابت في حمِرة الشَّفق	ثم تغطت بكمِّها خجلاً

ويقول[1537]:

والبدر في أفق السّماء مغرّب	لم أنسَ دجلة والدُّجى متصوّب
وكأنه فيها طراز مُذهب	فكأنهما فيه بساط أزرق

ويتأثر الواثقي بالصّنوبري حين يصف نار فحم الغَضَا بقوله[1538]:

بينها نيلوفر أزرق أو سبح في ذهب أحم

ولما قال الصّاحب بن عَبّاد بخُراسان أواخر القرن الرّابع في الثّلج:

وكأنّما الدّنيا به كافورة	أوَما ترى كانونَ ينثر وردَه

لا حظ أبو بكر الخوارزمي أن هذه وأمثالها كلَّها عيال كما قال الصّنوبري[1539].

وكان الشّريف أبو الحسن العقيلي بمصر حوالي عام 400 هـ يمثّل طريقة الصّنوبري في الوصف «وكان له متنزٌّهات بجزيرة الفسطاط، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطانٍ ولا يمدح أحداً»[1540]، ومن شعره[1541]:

عليه شقيقاً نارُه تتضرّم	ونهرٌ من الأنهار ألقت يد الصّبا
صفيحةُ سيفٍ قد جرى فوقها الدّم	كأنّ ابيضاضَ الماء تحت احمرارِه

ولقد أهمل وصف المسموعات كثيراً؛ فمثلاً وصف السّلامي الشّاعر (توفي عام 394 هـ - 1004 م) السِّكْر المبني بشيراز من غير أن يذكر شيئاً عن خرير المياه[1542]؛ ولم أجد من هذا القبيل إلا

مثالاً في شعرٍ للأمير البُوَيْهي عز الدّولة، هو قوله في سياق قصيدةٍ له[1543]، وصف فيها مجلساً على شاطئ دِجلة:

مثل القيانِ رقصن حول الزّامر   والماء ما بين الغصونِ مصفِّقٌ

وفي أواخر القرن الرّابع الهجري أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على اختلافها، فنرى وصف الميزاب إلى جانب وصف الشّاعر صورته في المرآة[1544]. وقد وصف المأموني ببُخارى جميع أصناف الأطعمة من جبنٍ وزيتون والسّمك المشوي وماء الخردل والبيض المفلق[1545]. وقال أبو العبّاس في وصف شمعةٍ نُصبت في بِركة:

تميس في الماء ميس مرتبك   وشمعةٌ وسط أيمن البرك

وقال في فوَّارة أقلّت تُفّاحة[1546]:

بتفاحةٍ مثل خدّ العشيق   وفوارةٌ سائلٌ ماؤها
ج تُدار بها كرةٌ من عقيق   كمنفخة من رقيق الزّجا

وقال عبد الوهاب الحاجب الشّاعر المصري (توفي عام 378 هـ - 997 م) في وصف الهرمين[1547]:

ظمئت لطول حرارة الكبد   وكأنما الأرض العريضة قد
تدعو الإلَه لفرقة الولد   حَسَرتْ عن الثّديين بارزةً
ريًّا وينقذها من الكمد   فأجابها بالنّيل يشبعها

وممّا هو عظيم الدّلالة أننا لا نجد في الشّعر العربي مكاناً للمُكدِّين الطّوّافين قبل القرن الرّابع[1548] فقيل فيهم:

نَ فقاشانَ إلى الهندِ   لهم أرضُ خراسا
إلى البلغار والسِّند إلى الرُّومِ إلى الزِّنج

على الطراق والجند ... إذا ما أعوز الطرق
من الأعراب والكرد ... حذاراً من أعاديهم
بلا سيفٍ ولا غمد ... قطعنا ذلك النّهج

وقد دخل في الأدب على أيدي المكدّين شعرٌ حرٌّ مُزْهِر ترنَّموا به، كما دخل الشّعر الغنائي الذي لا تكلُّف فيه. وأكثر شعراء المكدّين وظريفهم هو الأحنف العكبري من العراق؛ وهو لم يعبأ في خمرياته بوصف شيءٍ من جمال الطّبيعة، فمن قوله[1549]:

على دفّ وطنبور ... شَرِ شَرِبتُ بماخور
وصوت النّاي طلّير ... وصوت الطّبل كردم طَع
كأنا وسط تنّور ... فصرنا من حمَّى البيت
كمثل العمي والعور ... وصرنا من أذى الصّفع
ولكن أيَّ مخمور ... لقد أصبحت مخموراً

وقال يصف آلام المكدّين[1550]:

تأوي إليه ومالي مثله وطن ... العنكبوت بنت بيتاً على وهن
وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكن ... والخنفساء لها من جنسها سكن

ولا نرى في هذا الشّعر صناعةً لفظية ولا عبارات من التي تجري مجرى الأمثال أو الحكم. وهذا هو الأسلوب الذي جرى عليه الأدب الفرنسي من أيّام □ِيّون Villon إلى أيّام □ِرلين Verlaine.

وقد جرى على هذه الطّريقة الشّاعر محمّد بن عبد العزيز السّوسي؛ فقد قال قصيدةً تربو على أربعمئة بيت، وصف فيها حاله وتنقّله في الأديان والمذاهب والصّناعات وقد افتتحها بقوله[1551]:

الحمد لله ليس لي بختُ

ولا ثيابٌ يضمّها تخت

وإلى جانب هذا الشاعر نرى الشعراء الشعبيين الذين ظهروا في مدن العراق الكبرى مثل ابن لنْكَك البَصْري، «إذا قال البيت والبيتين والثّلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع؛ فأما إذا قصد القصيد فقلّما يفلح وينجح»[1552]؛ وابن سُكَّرة الذي يقال إن ديوانه يربي على خمسين ألف بيت، منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها في قينة سوداء يقال لها خمرة[1553].

وكان أكبر هؤلاء الشّعراء الشّعبيين ابن الحَجَّاج الذي كان ببغداد، وتوفي عام 391هـ - 1001م[1554]. وكان نحيفاً ولذلك يقول[1555]:

لا تخافي عليّ دقّة كشحي	لا تُكال الرّجال بالقفزان

وقد قال مدافعاً عن نفسه، لمَّا خرج هارباً من غُرَمائه[1556]:

يقول قومٌ فرَّ الخسيسُ، ولو	كان فتى غير فرَّار
لا عيب لاعيب في الفرار فقد	فرَّ نبيّ الهدى إلى الغار

ويظهر أنه قال في ذلك الوقت العصيب هذين البيتين الآتيين مفتخراً[1557]:

قد قلتُ لمّا غدا مدحي فما شكروا	وراح ذمّي فما بالوا ولا شعروا
عليَّ نحتُ القوافي من معادِنِها	وما عليَّ إذا لم تفهم البقرُ

وكان ابن الحَجَّاج لسخفه ورداءة مَهيب الجانب، مقضي الحاجة، ولم يزل أمره يتزايد حتى حصَّل الأموال، وصار من أهل الجاه.

وقد ضمن ابن الحَجَّاج فرائض الصّدقات بسقي الفُرات، وصار أخيراً محتسباً على مدينة بغداد. ولشدّة ما حسده ابن سُكّرة، زميله في المذهب الشّعري، لأنه كان أقل نجاحاً من ابن الحَجَّاج[1558].

وكان ابن الحَجَّاج في قصائده يستعمل عبارات المكدّين وأهل الشّطارة[1559]. وقد أتاح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع في المدن الشّرقية، لأن الذي كان يسيطر على النّزعة الأدبية هم البدو، الذين هم أكثر عفَّةً واعتدالاً[1560]. وما أشبه ابن الحَجَّاج برجلٍ كانت تقيّده سلطةٌ خارجية،

فتحرَّر منها وانطلق في السّخف. وكان أساس مبالغته في ذلك أنه أراد أن يتخذ طريقاً لمعارضة الشّعراء الآخرين الذين كانوا يعالجون في شعرهم الموضوعات الحسنة؛ وهو يقول[1561]:

فقد طبنا وزال الاحتشام	وشعري سخفة لابدَّ منهئ
فيمكن عاقلاً فيها المقام وهل دارٌ تكون بلا كنيفٍ	

وهو يقول:

فإن أنشدتُ ثار لك الكنيفُ	تراني ساكناً حانوت عطر

ومن قوله:

ومن كان يحوي العطر دكّان شعره

فإني كنَّاس وشعري له مخرج

ولهذا جاء في كتابٍ في الحِسْبة لمؤلِّفٍ متأخر ما يقضي بمنع الصّبيان من النّظر في أشعار ابن الحَجَّاج[1562]. ولكن يظهر أن ابن الحَجَّاج لم يلحقه ضررٌ من وراء ذلك، فمثلاً كان الشّريف الرَّضي نقيب العلويين وأكبر أصحاب المكانة في الدّولة العبّاسية من أكبر المعجبين بابن الحَجَّاج والمتعصِّبين له؛ واختار من شعره السّليم أشياء كثيرة. وقد حمل إليه الخليفة الفاطمي، صاحبُ مصر عن مديحٍ مدحه به ألف دينار مغربية[1563]. ويُروى أنه كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين. وقد سأل الهنكري مُغَنّي سيف الدّولة ابن الحَجَّاج أن يصنع شعراً ليغنِّي به بين يدي سيده[1564]. ويقول ابن الحَجَّاج نفسه[1565]:

كواكب الليل كيف تسري	لو جدّ شعري رأيتَ فيه
يمشي به في المعاش أمري	وإنما هزله مجون

وكان ابن الحَجَّاج لا يبني جُلَّ أقواله إلا على سُخف، وكان لا يبالي بالوزن والقافية؛ وقد حوى ديوانه كثيراً من الكلمات غير المعروفة أخذها من لغة العامّة ببغداد في القرن الرّابع الهجري[1566]. وكان يعرف النّماذج الشّعرية المأثورة، غير أنّه يتجاهلها، فممّا قاله عند موت سَبُكتكين Sebük Tegin:

لفقد عيني سَبُكتكين واستي تبكي بفرد عيْن

إلى أن قال[1567]:

لازال يُسقى غيث البطون ما لكنيفٍ دُفنتَ فيه

ولكنا نرى بين حين وآخر معاني وألفاظاً مثل كواكب الليل، ونستطيع أن ندرك لماذا كان معاصرو هذا الماجن يعدّونه شاعراً كبيراً.

أما المتنبِّي الذي يرجع أصله إلى العراق أيضاً، والذي نشأ في الشّام، فنراه يتمسّك بطريقة العرب القدماء، خلافاً لهؤلاء الشّعراء[1568] المُحدَثين.

كان أولئك الشّعراء واقعيِّين في نزعتهم الشّعرية، فكانوا يتغنون بما يرونه؛ أما المتنبِّي فهو مثال للأستاذ الذي يستهويه المعنى الكلِّي؛ فمن ذلك أن رجلاً خرج للصّيد مرة، وكان معه كلبٌ فطرد به ظبياً، ولم يكن معه صقر، فاستحسن صيد الكلب؛ فأجاب المتنبِّي أنه يستطيع أن يفعل ذلك ومن غير أن يحضر الصّيد أو يرى الكلب؛ وقال قصيدةً على الطّريقة المأثورة[1569].

وكان المتنبِّي كثير الأخذ من ابن المُعتزّ[1570]. وقد عاداه شعراء العراق كابن سُكَّرة وابن لنكك[1571]، وابن الحَجَّاج[1572]، وعملوا على ثلبه والتّماجن به، وقد وصلنا وصف محاورة بين المتنبِّي شاعر الملوك وبين أدباء بغداد؛ ذلك أن المتنبِّي قدم إلى مدينة السّلام، وقد التحف رداء الكبر؛ فذهب إليه الحاتميّ، فوجده يلبس سبعة أقبية، كلّ قباءٍ منها لون، مع أن الوقت كان أحرّ أيام الصّيف فأعرض المتنبِّي عنه، وتجاهله، ولم يسأله عن قصده[1573].

وكذلك كان أبو فراس الشّاعر الشّامي (توفي عام357 هـ - 998 م) ينسج على منوال القدماء. وأغرب ما نراه فيه قلّة تعرّضه في قصائده لذكر الحروب الشّعواء التي كانت ناشبة في غرب الدّولة الإسلامية؛ نظراً لأنه كان ابن خال سيف الدّولة الأمير الحمداني، فلا بدّ أن يكون قد ذاق الكثير من أثر حوادث ذلك العصر، وإن كان الكثير من شعره في الفخر ليس إلا خيالاً لا حقيقة وراءه. وقد يستحيل على من لم يكن ملمَّاً بحوادث ذلك العصر أن يستنبط من قصائده أن الرُّوم والمسلمين والنّصارى كانوا يتحاربون بجيوشٍ جرّارة مسلّحين بأكمل عتاد حربيٍّ عرفه ذلك العصر؛ ولا يزيد وصفه لهذه الحروب الكبيرة في شعره عمّا يمكن أن يقال في وصف قتالٍ بين قبيلتين من البدو.

ولا أرى في القصائد التي قالها في سجنه ببلاد الرُّوم إلا أنها نثرٌ مسجوع؛ وإذا وجدنا من يبالغ في امتداحها من المؤلِّفين كالصّاحب والثّعالبي فهذا برهانٌ جديد على ضعف الفارق بين الكاتب

والشاعر.

وقد ولد الشّريف الرَّضي عام 361 هـ - 970 م ببغداد؛ وكان في الثّلاثين من عمره، لما مات ابن الحَجَّاج؛ وكان الرَّضي شاعراً عظيماً، وقد اختار من شعر ابن الحَجَّاج كتاباً[1574]. وكان الشّريف الرَّضي سيداً كبيراً انحدر من شجرةٍ عظيمة عريقة النّسب، فلم يستطع مخالفة التّقاليد والنّزول إلى ما نزل إليه ابن الحَجَّاج من معالجةٍ لنواحي الحياة التي لا تليق بالرَّضي؛ فقد كان أبوه نقيباً للعلويين جميعاً، فلمّا مات في سنة 400 هـ - 1009 م تولّى الرَّضي منصب أبيه وجميع ما كان يتقلّده ويُعهد به إليه، وإن لم يكن الشّريف أكبر إخوته. وكانت داره مثال الأبهة في المظهر، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم، وهيأ لهم فيها ما يحتاجون إليه[1575]. وكان الرَّضي مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً، وقد رفض مرَّة هديةً من وزير[1576]؛ وكان فخوراً بأنه قاضٍ على من تحت أمره من العلويين؛ ويُروى عنه أنَّ امرأة علوية شكت إليه زوجها، وأنه يقامر بما يتحصّل له من حرفة يعاينها، وأن له أطفالاً، وهو ذو عيلةٍ وحاجة؛ وشهد لها من حضر بالصّدق فيما ذكرت؛ فاستحضر الرّجل، وأمر به فبُطح، وأمر بضربه؛ فما زال يضربه، والمرأة تنتظر أن يكفّ، والأمر يزيد، حتى بلغ ضربه مئة خشبة، فصاحت المرأة: وايُتْمَ أولادي! كيف تكون صورتنا إذا مات! فكلّمها الشّريف بكلام فظّ، وقال: ظَنَنْتِ أنكِ تشكينه إلى المعلِّم[1577]؟ وكان الشّريف الرَّضي أول عظيم من عظماء العلويين ألقى سلاح النّضال وغيَّر لباس السّواد بلباس البياض على الرّسم العبّاسي للعُمّال ورجال الخلافة تاركاً الشّعار الذي كان يلبسه آباؤه بكبرياء يوازي ما كانوا يشعرون به من حزن. وهو يشير في بعض شعره إلى أن حذره يرجع إلى شيءٍ من الكآبة والهم؛ فهو يقول مثلاً[1578]:

ونفسي أعدى لي من النّاس أجمع	أروم انتصافي من رجال أباعد

ويقول:

تقضى ويمضي طارقُ الهم أجمع	وقالوا تعلّل إنما العيش نومة
ولكنه نوم مروع مُفَزَّع	ولو كان نوماً ساكناً لحمدته

ولم يكن يخرج من فم هذا الرّجل النّبيل حقيقةً كلمةً واحدة من الكلمات القبيحة، والتي نرى مثلها عند إبراهيم الصّابي صاحب ديوان الرّسائل وعند الوزير المُهَلّبي، وعند الوزير ابن عَبّاد. وإذا كان غيره من الشّعراء قد استباحوا لأنفسهم في الذّم كل قبيح فإننا لا نرى للشّريف الرَّضي في باب الهجاء أقوى من هذه الأبيات[1579]:

وتقيء عند غنائه الأسماع تعفى بمنظره العيون إذا بدا

زجل الضّراغم بينهن قراع أشهى إلينا من غنائك مسمعاً

وإذا كنا نرى رجلاً كالشّريف الرَّضي قد كلف نفسه مشقّة قراءة ديوان ابن الحَجَّاج، وانتخاب أشعاره الخالية من السُّخف والمجون، ثم ألف مرثية لهذا الشّاعر[1580] فإن في ذلك شرفاً لهذين الرّجلين معاً. غير أنّ الرَّضي كان أكثر ميلاً إلى المتنبِّي، لأن ابن جنّي صاحب الشّرح لديوان المتنبِّي كان أستاذه؛ وهو يقول الشّعر في كل ما كان يقرض الشّعر فيه الشّعراء المتمسّكون بمذهب القدماء في ذلك العصر كالتّهنئة بالنّيروز، وعيد الفصح، وبشهر رمضان، وبانتهاء شهر الصّوم، وبالمهرجان، وبالتهنئة بمولد بنتٍ أو ولد، وبمدح الخُلفاء والسّلاطين والوزراء، وبرثاء من يموت من العظماء أو من المقرَّبين إليه، وخصوصاً برثاء الحسين في عيد وفاته، وهو يوم عاشوراء. وهو يفتخر بأهل بيته وبالأشراف، ويشكو الزّمان والشّيب. وقد شكى المشيب وهو صغير، كما جرى عرف الشّعراء؛ ولحسن الحظ حلق الشّريف مقدّم رأسه مرَّة وفاءً بيمين، فوجد شعراً أبيض، وكان إذ ذاك في العشرين من العمر، فكان هذا على الأقل سبباً شخصيًّا يبرّر له أن يبدأ الكلام في المشيب[1581]. ويعدّ الشّريف الرَّضي في تاريخ الأدب العربي سيّد أصحاب المراثي، وهو يفعل ذلك متّبعاً للطّريقة المأثورة تماماً من غير تعرٍّض لشخص المرثي[1582]، وهذا غريب.

وفي سنة 392 هـ - 1002 م فقد الشّريف الرَّضي أستاذه وصديقه ابن جنّي، وقد بدأ رثاءه له بالشّكوى من الفناء، وهو يقول[1583]:

كأنا قذى يرمي به السّيل كلّما	تطاوح ما بين الرّبى والأبارق

ثم يمضي مكثراً من تساؤله أين؟:

فأين الملوك الأقدمون تساندوا	إلى جذم أحساب كرام المعارق

وبعد هذا يذكر ما امتاز به الفقيد من المواهب فيقول:

فمَن لأوابي القول يبلو عراكها	ويحذفها حذف النّبال الموارق
إذا صاح في أعقابها اضطردت له	ثواني بالأعناق طرد الوسايق
وسوّمها مُلس المتون كأنها	نزائع من آل الوجيه ولاحق
تغلغل في أعقابهن وسومه	بأبقى بقاءً من وسوم الأيانق

ومَن للمعاني في الأكمّة ألقيت   إلى باقر غيب المعاني وفاتق
يطوح في أثنائها بضميره   مرير القوى ولّاج تلك المضايق
تسنَّم أعلى طودَها عير ماثر   وجاوز أقصى ضحضحها غير زالق

وهنا ينتهي كلام الشّريف الرَّضي عن صفات المرثي؛ أما بقية القصيدة فهو ما يصلح أن يقال في كل رثاء.

ورغم أن الشّريف الرَّضي كان يقيم في العاصمة، وكان عالماً هادئاً، فإنه تجاوز حياة المدن، ومضى في شعر الفروسيّة الخياليّ من كلامٍ في الحرب والصّحراء والجمال وكرام الخيل.

غير أنّ الكثير من شعره ثمرة لتجربته الخاصّة أحسّ به إحساساً عميقاً، وعبّر عنه تعبيراً خاصاً به، بحيث نستطيع أن نستشفّ من وراء هذه الأشعار أنه تلميذٌ لابن الحَجَّاج. ومن غرر قصائد الشّريف الرَّضي القصيدة التي ألقاها في مجلس الخليفة القادر، حينما جلس يحتفل بالحجيج من أهل خُراسان ومطلعها[1584]:

لمن الحدوج تهزّهن الأيْنُق   والرّكب يطفو في السّراب ويغرق
يقطعن أعراض العقيق فَمُشئِمٌ   يحدو ركائبه الغرام ومُعرق
أبقوا أسيراً بعدهم لا يفتدى   ممّا يجنّ وطالباً لا يلحق

ومن أروع قصائده قوله في النّسيب[1585] بامرأةٍ جميلة في قافلةٍ تسير ليلاً:

طلعت والليل مشتملٌ   سابغ الأذيال والأزر
من خصاصات الغبيط، وقد   غرّد الحادي على أقر
ورقاب القوم مائلة   من بقايا نشوة السّهر
فاستقاموا في رحالهم   يتبعون الضّوء بالنّظر
فامترينا ثم قلت لهم   ليس هذا مطلع القمر

وهكذا نجد الصّنوبري والمتنبِّي وابن الحَجَّاج والشّريف الرَّضي يقفون جنباً لجنب في القرن الرّابع الهجري، وكل واحد منهم يشبه في النّاحية التي نبغ فيها قِمَّةً تشرف على كل القرون التّالية للأدب العربي.

الفصل الثّامن عشر
الجغرافيا

Die Geographie

في القرن الرّابع الهجري نجد أنّ التّقدّم في البحث الجغرافي غدا واضحاً إلى حدّ كبير؛ ولا أريد أن أتناول بالبحث من هذه النّاحية إلا بخصوص ما صُنِّف من المؤلفات.

كان هذا البحث وليدَ النّهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثّالث الهجري، وأول ما كان من ذلك كتبُ الكندي[1586]، حوالي عام 200 هـ - 800 م وكان الكندي من رؤساء حَمَلَةِ العِلم اليوناني بين العرب.

ثم ظهر بعد ذلك، حوالي 232 هـ - 846 م، كتابُ «المسالك والممالك» لابن خُرَّداذبه؛ ويَعْتَرِف هذا المؤلف بأنه اعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها على ما كتبه بطليموس في ذلك[1587]. ويقول المسعودي حوالي عام 332 هـ - 943 م، إن كتاب ابن خُرَّداذبِه هو أحسنُ كتاب في موضوعه[1588]. أما البِشاري المقدسي، فهو يرى أن كتاب ابن خُرَّداذبِه مختصرٌ جداً، لا يُحصَّل منه كبيرُ فائدة[1589].

ونجد المقدسي أيضاً ينتقد كتابَ أبي عبد الله الجيهاني (حوالي آخر القرن الثّالث الهجري)، وهو الذي جاء بعد ابن خُرداذبِه وردَّد كلامه: «إنه وكان صاحبَ فلسفة ونجوم، كرَّة يورد ما ليس للعوام فيه فائدة، وتارة ينعت أصنام الهند، وطوراً يصف عجائب السِّند...».

أما أبو زيد البَلْخي، فيقول المقدسي عنه إنه اختصر، وترك كثيراً من أمّهات المدن، فلم يذكرها.

كذلك يقول المقدسي عن ابن الفقيه (حوالي آخر القرن الثّالث الهجري) إنه لم يذكر إلا المدائنَ العظمى، وإنه «أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، فدفعة يُبكي، وحيناً يُضحك ويُلهي»[1590]. وابن الفقيه جعل بين الكلام عن اليمن والكلام عن مصر بابَيْن: أحدهما في تصريف الجدّ إلى الهزل، والثّاني في مدح الغُربة والاغتراب. وهو يجعل من وصف مدينة رومية مناسبةً للكلام في مدح

البناء وذمِّه؛ ثم يتكلم عمّا جُبل عليه النّاس من حبِّ الأوطان. أما معاصره ابن رُستِه فأكبر ما كان يستهويه الأشياء العجيبة النّادرة في اليمن ومصر والقسطنطينية والهند وفي بلاد المَجَر والصَّقالبة.

ونرى الهَمْداني (توفي عام 334 هـ - 945 م) يصف جزيرة العرب وَصْفَ عالم اللغة. وكذلك وَصَفَ قُدامةُ بن جعفر (توفي عام 310 هـ - 922 م) مملكة الإسلام، وما جاورها من الممالك، في كتابه الصّغير المسمّى «كتاب الخَراج».

وكان اليعقوبي (حوالي آخرِ القرن الثّالث الهجري) أولَ جغرافيّ وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصّة، ومتوخِّياً قصد ما أراد من وصف البلاد وخصائصها؛ لأنه سافر حديثَ السّنِّ، واتصلت أسفاره؛ وقد طاف في بلاد الدّولة الإسلامية كلها، فنزل أرمينية، وورد خُراسان وأقام بمصر والمغرب، بل سافر إلى الهند؛ وكان متى لقي رجلاً سأله عن وطنه ومصره، وعن زرعه ما هو؟ وساكنيه من هم؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم. وهو يقول: «ثم أُثْبِتُ كلَّ ما يخبرني به من أثِق بصِدقه... فلم أزَلْ أكتب هذه الأخبار، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً وأضيف كلَّ خبرٍ إلى بلده، وكلَّ ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدّمت عندي معرفته»[1591]. وقد وصف الدّولة الإسلامية، مبتدئاً ببغداد، وصفاً منظَّماً مع إصابة جدير بالثّقة والإعجاب؛ ولكن لم يخطر له، مع الأسف، أن يؤلّف كتاب رحلة يصف فيه تجاربه الخاصّة، ولم يكن جغرافيّو ذلك العهد قد بلغوا هذه الدّرجة من اعتقاد الطّرافة في أنفسهم.

غير أنّ المسعودي (الذي ألّف حوالي عام 332 هـ - 944 م) لم يفعل من ذلك أكثر ممّا فعله اليعقوبي، مع أن حبّه للاستطلاع حمله إلى بلادٍ بعيدةٍ في أفريقيا وفي الصّين؛ ولكنه تكلّم في كتبه التّاريخية عن كثيرٍ ممّا لقيه من التّجارب والمشاهدات في أسفاره، وهذا ما تجنّبه اليعقوبيّ. ثم جاءت كتب اليعقوبيّ وابنِ حَوْقَل في القرن الرّابع الهجري، فكانت هي الذّروة التي بلغها العرب في وصف البلدان؛ وكلاهما قد سافر حتى جال بأنحاء الممالك، وحملته الأسفار على طريقة المسلمين. فأما البِشاري المقدسي فيقول عن نفسه إنه لم يبقَ شيء ممّا يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً[1592]، غير الكُدْية وركوب الكبيرة، وإنه أنفق في أسفاره ما يزيد على عشرة آلاف درهم.

وأمّا ابن حَوْقَل فيقول إنه شاهد كلَّ ما كَتب عنه وعاينه إلا الصّحراء الغربيّة الكبرى. وقد اقتصر كلّ من المقدسي وابن حَوْقَل على وصف مملكة الإسلام؛ ويعترف المقدسي بأنه لم يذكر إلا مواضع المسلمين منها؛ وكان عدمُ دخوله لها كافياً لمنعه من التّعرُّض لوصفها، لأنه كان يجعل المشاهدة أولَ دعامةٍ لكتابه[1593].

وكلاهما أيضاً قد اطلع على الكتب التي صُنِّفت في هذا الفن؛ فقد صرّح المقدسي بذلك في وضوح وإيجاز؛ أما ابن حَوْقَل فهو يقول إنه لم يزل منذ عهد الصّبا شغوفاً بقراءة كتب المسالك... «فلم أقرأ في المسالك كتاباً مُقنِعاً، وكان لا يفارقني كتاب ابن خُرَّداذبِه وكتاب الجيهاني وتذكرةُ أبي الفرج قُدامة بن جعفر».

وكلاهما قد انتهت إليه اللّغة أكثر صقلاً ودقّة، وقد استعملاها في فنّهما بكلّ براعة، وإن كان ابن حَوْقَل في ذلك أقلّ إظهاراً للجمال من المقدسي.

غير أنّ بعض العلماء من معاصري البِشاري المقدسي قد رموه بالعدول عن التّقسيم السُّباعي المعروف إلى التّقسيم الرُّباعي في كلامه عن الفِرَق والمذاهب[1594]؛ وكذلك حاول المقدسي أن يثبت من القرآن أن في العالم بحريْن فقط هما: بحرُ الرُّوم، والبحرُ الصّيني.

ثم إنه أضاف إلى كتابه خارطة، إلا أنها لم تصل إلينا، وهو يقول إنه بيَّن فيها الطّرق المعروفةَ بالحُمْرة، والرِّمال الذَّهبية بالصُّفْرة، والبحار بالخُضرة، والأنهار بالزُّرقة، والجبال بالغُبْرة[1595]؛ ويذكر أنه رأى مثل هذا التّصوير في كتاب البَلْخي (توفي عام 322 هـ - 934 م)، وفي خزانة أمير خُراسان، وفي نيسابور، وفي خزانة عضد الدّولة والصّاحب، هذا إلى دفاتر رآها مع البَحْريّين[1596] وقد لقي إمام التجّار بساحل عدن؛ فمسح الرّمل بكفّه، ورسم صورة البحر أمام المقدسي وبيَّن له معارجه المتلسّنة وشُعَبَه الكثيرة[1597]؛ وقال له غسان الحكيم، وهو بأريحا: أترى هذا الوادي؟ قال: بلى، قال: هو يمتدّ إلى الحجاز، ثمّ يخرج إلى اليمامة، ثمّ إلى عمان وهَجَر، ثمّ إلى البصرة، ثمّ إلى بغداد، ثمّ يصعد إلى مَيسرة الموصل إلى الرّقة، وهو وادي الحرّ والنّخيل[1598]. وكذلك زعم ابن حَوْقَل أن رمل الهبير يمتدّ من المغرب، إلى الصّين[1599]؛ وهو يزعم كذلك أن جبال الصّين تمتدّ إلى التّبت وفارس وأرمينية، حتى تتّصل بجبال الشّام وجبال المقطم وجبال المغرب[1600]. غير أنّ الجغرافيّين المتأخّرين نسجوا على منوال ابن حَوْقَل أكثر ممّا نسجوا على منوال البِشاري المقدسي[1601].

وكلاهما كان أكثر نقداً وتحرًّيا من الإدريسيّ، وهو أحد الجغرافيّين المتأخّرين؛ فإنّه نقل عن «كتاب العجائب» للحَسَن بن المُنذر أخباراً لو رآها المقدسي وابن حَوْقَل لرفضاها.

وفي القرن الرّابع الهجري ترسّخت روح الاستطلاع العلمي، وأخذت تمتدّ في كلِّ ناحية. فكان النّاس يُصْغُون متشوّقين لما يقصّه عليهم البَحْريّون من حكاياتٍ، ومن مشاهداتهم وتجاربهم في بحر الصّين وبحر الهند[1602].

وحوالي منتصف القرن الثّالث أرسل الخليفة بعثةً برِّيَّة إلى سدِّ يأجوج ومأجوج[1603]. وقد وصف ابن فُضلان رحلته التي قام بها حوالي عام309 هـ - 921 م إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر (ال□ولغا)[1604]. وكذلك حكى أبو دُلَف خبرَ رحلته إلى بلاد آسيا الوسطى والشّرقي حوالي عام333 هـ - 944 م[1605].

وحوالي هذا الوقت عرف الإصطخري من رجلٍ كان يخطب بمدينة بُلغار أن اللّيل عندهم يقصر في الصّيف بحيث لا يتهيأ للإنسان أن يسيرَ فيه أكثر من فرسخ، وفي الشّتاء يقصر النّهار ويطول الليل، حتى يكونَ نهار الشّتاء مثل ليالي الصّيف[1606].

وكذلك خرج من مدينة لشبونة جماعةٌ ركبوا بحر الظّلمات، واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب[1607]. وكان ابن النَّديم صاحب الفِهْرِسْت يستقي أخبارَ الصّين حوالي عام 377 هـ - 987 م من راهبٍ نجرانيّ ومعه خمسةٌ منَ النّصارى القائمين بأمر الدّين، فأقام بها سبع سنين[1608].

وكان التّجار يزوّدون أهل بلادهم بأخبار بلاد الألمان وبلاد الفرنسيّين. وفي سنة 375 هـ - 985 م كتب المُهَلّبي للخليفة الفاطميّ العزيز بالله كتاباً، وهو أول كتابٍ وصف بلاد السّودان وصفاً دقيقاً، وكان علماء الجغرافية في القرن الرّابع لا يعرفون من أخبار السّودان إلا قليلاً جداً[1609]. وكذلك ألّف محمّد التّأريخي (توفي عام 363 هـ - 973 م)، وهو عالمٌ جغرافيٌّ أندلسي، كتاباً في وصف أفريقيا والمغرب[1610].

وكذلك وضع المعلِّم خواشير بن يوسف بن صلاح الأَركي الذي أبحر حوالي عام 400 هـ - 1009 م، في مركب دَبَوْكُرَه الهندي، وطاف بسواحل أفريقيا الجنوبية، ووضع أصول المُصَوَّرات البحريّة (وكانت تسمّى الرّهمانيات) التي عملت في القرن السّادس الهجري أو الثّاني عشر الميلادي[1611].

وحوالي ذلك الوقت[1612] بدأت الحروب تُشَنّ من غَزْنَة على الهند، فكان ذلك مناسبةً للبيروني كي يؤلّف أول كتاب، والكتاب الوحيد الخاص بالهند «تحقيق ما للهند من مقولةٍ مقبولة في العقل أو مرذولة»، وهو يعيب فيه الهنود بأن علومهم غيرُ مهذَّبة، وأن كتبهم غير منظَّمة، مشوبةٌ بخرافات العوام؛ ويشبّه ما في كتبهم بصَدَفٍ مخلوطٍ بخزف، أو بدُرٍّ ممزوجٍ ببعر[1613].

غير أنّ كلًّا من الجاحظ والمسعودي قد كتب على نحو ما كتب الهنود، لكن نقد البيروني للهند يدلّ على أن مؤلّفي العرب قد خطوا في التّأليف خطوة جديدة.

الفصل التّاسع عشر
الدِّيـن

Die Religion

شعر المسلمون بحاجاتٍ جديدةٍ في دينهم منذ القرن الثّالث الهجري؛ وسرعان ما بادرت للإيفاء بهذه الحاجات الدِّيانات القديمة التي كانت دائماً متوارية خلف ستارٍ ظاهري، ولا سيّما المسيحية، أي تُراث الفلسفة اليونانيّة، والحركة التي غيّرت صورة الإسلام في غضون القرنين الثّالث والرّابع ليست في مجموعها سوى نتيجةٍ لتأثير بعض التّيارات الفكرية النّصرانية في فلسفة الدّين الجديد[1614].

وعبّر البعض عن المثل الأعلى الجديد في الدّين بأنه «معرفة الله»، وهي عبارة ربّما كانت في نظر محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم تنتقص من قدر الذّات الإلهية. وهذا حتى من حيث التّسمية، هو مذهب الغنوصيين القديم، يعود إلى الظّهور في وطنه الأول وتصبح له الغلبة في جميع نواحي الحياة الرّوحية طول هذين القرنين؛ وقد ظهر عند أهل التّفكير الحرّ في صورة مذهبٍ عقليّ أو مذهبٍ لاهوتيٍّ علميّ، وعند الآخرين في صورة التّصوُّف؛ والتّصوُّف عند المسلمين أيضاً يحمل دلالةً واضحة على صلته الوثيقة والتحام نسبه بالمذهب العقلي.

وكذلك عادت إلى الظّهور كل علامات المذهب الغنوصيّ الأول، من علوم سرَّية، وتنظيم للجمعيات السّرية، وإنشاءٍ لدرجاتٍ في المعرفة، وقولٍ بصدور الموجودات عن اللهً، وبالتّوازي والتّقابل بين العالِمَيْن، ونشوء مذاهب تتردَّد بين الزّهد والإباحة، وتصوّر الكمال والسّموّ الرّوحي على أنه «طريق».

وتدلّ أقدمُ الكتب الصُّوفية التي وصلت إلينا، وهي مصنّفات المحاسبي (توفي سنة 243 هـ - 858 م) دلالة واضحة على أنه تأثّر بالنّصرانية؛ فإنه قد بدأ أحد كتبه بمَثَل طارح البذور المذكور عن المسيح عليه السلام؛ والكتاب الآخر نستطيع أن نعتبره صورةً مكبَّرة لموعظة الجبل[1615]. وكذلك

نرى الحكيم التِّرمذي، وهو من كبار شيوخ الصُّوفية القدماء (توفي عام 285 هـ - 898 م)، يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء[1616]. وصار بعض المتصوّفة يدَّعون الوصول إلى درجة الاتحاد بالله؛ ويروي أبو العلاء لبعض أهل النِّحلة الحلولية[1617]:

رأيتُ ربي يمشي بلا لكّة في سوق يحيى، فكِدْتُ أنفطر

وكان بين يدي بعض طوائف القائلين بالمهدي من يعبث بالقول؛ فيصف الخُلفاء بالألوهيّة، على نحو لا نظير له من قبل ولا من بعد؛ فمن ذلك غلوّ ابن هانئ في مدحه للخليفة المُعِزّ، حتى كفّره العلماء في قوله:

فاحكم فأنت الواحدُ القهار ما شِئْتَ لا ما شاءتْ الأقدارُ

وقوله مخاطباً حاملَ لواء الخلافة:

ولطالما زاحمتَ تحت ركابه جبريلا

ولما نزل هذا الخليفة في مدينة رقَّادة، قال ابن هانئ[1618]:

حلَّ برقّادة المسيحُ *حلَّ بها آدمٌ ونوحُ*

حلَّ بها اللهُ ذو المعالي وكلُّ شيء سواه ريحُ

وفي آخر ذلك العصر ظهر أمر الخليفة الحاكم بأمر الله، ولا يزال الدّروز حتى اليوم يعظّمونه معتقدين أنه إله.

وكان أول ظهور طوائف الصُّوفية حوالي عام 200 هـ - 800 م، وذلك في مصر، مهد الرّهبة النّصرانية.

«ففي عام 200 هـ ظهرت في الإسكندرية طائفة يسمَّون بالصُّوفية، يأمرون بالمعروف، فيما زعموا، ويعارضون السُّلطان في أمره؛ وترأس عليهم رجلٌ منهم، يقال له أبو عبد الرّحمن الصُّوفي»[1619].

وكذلك يُطْلِق ابن قدَيْدٍ (توفي عام 312 هـ - 925 م) اسمَ الصُّوفية على جماعةٍ كانت تحيط بعيسى بن المنكدر، الذي وُلّي قضاء مصر، وكان هؤلاء القوم «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»؛ لم يزالوا به، حتى جعلوه يكتب إلى المأمون كتاباً كان سبباً في خلعه من القضاء[1620].

وإذن فقد كان ثمَّ صوفية أتقياء من أصحاب النّزعة العملية، أخذوا جادّين بالواجبات المفروضة على المسلم، وكانوا يتدخّلون في حياة المجتمع تدخلاً شديد الوطأة.

وأول ما أُطلق اسم الصُّوفية على هذه الجماعات، وذلك أنه كان يقال لخواص النّاس، ممّن لهم شدّة عنايةٍ بأمر الدّين، ثمّ اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة[1621].

ولم يكن في مذهب هؤلاء القوم في أول أمرهم شيءٌ من مذاهب الصُّوفية الذين جاؤوا بعدهم؛ غير أنّ إبيفانيوس Epiphanius يشكو في القرن الرّابع بعد الميلاد من أنه كان لا يزال بمصر عددٌ كبيرٌ من الغنوصيّين الذين لا ضابط لأخلاقهم[1622] والذين تسرّب الكثير من آرائهم إلى جماعات الصُّوفية. وقد أشار الأستاذ رينولد نيكولسون Reynold A. Nicholson إلى الأثر الكبير الذي أحدثه ذو النّون؛ الكيميائي المصري (توفي عام 245 هـ - 859 م) في مذهب الصُّوفية[1623]؛ والحقّ أن كثيرين من مشايخ الصُّوفية في المشرق تأثّروا بالتّصوُّف المصري[1624]، ولم تنقطع حجة «الفقراء في دخولهم مصر إلا بعد موت أبي بكر الزَّقّاق»[1625].

أما نموّ مذهب الصُّوفية وتكامله فقد كان كله في المشرق، وخصوصاً بغداد[1626]، وكان نموًّا سريعاً.

ويُروى أن أول من تكلّم في علوم التّوحيد والورع ببغداد هو أبو الحسن السَّريّ السَّقَطي (توفي عام 253 هـ - 867 م)؛ وكان تاجراً، فترك التّجارة، وقام من السّوق، ولزم بيته للعبادة[1627]، وقد اشتهر بأنه أول من تكلّم ببغداد في الحقائق والتّوحيد[1628]، ويقال أيضاً إنه أول من تكلّم في المقامات والأحوال[1629].

وكان أوّل من تكلّم في اصطلاحات الصُّوفية من صفاء الذّكر، وجمع الهمَّة، والمحبّة والعشق، والقرب، والأنس، أبا حمزة محمّد بن إبراهيم الصَّدَفي البغدادي (توفي عام 269 هـ - 882 م)، وكان تلميذ أحمد بن حَوْقَل، وهو الذي خاطبه بقوله له: يا صوفي![1630].

ويظهر أنّ معاصره طيفوراً البسطامي هو الذي أضاف إلى ذلك استعمال لفظة السُّكْر؛ فكان لها، إلى جانب كلمة العِشق، أكبر مكانة في التّصوُّف الإسلامي[1631].

وقد روي لعليّ بن الموفق (توفي عام 265 هـ - 878 م) دعاءٌ لا يتمشّى في صميمه مع ظاهر الإسلام، وهو قوله[1632]: اللهُمَ إن كنتَ تعلم أني أعبدُك خوفاً من نارك فعذّبني بها، وإن كنتَ تعلم أني أعبدك حُبًّا مني لجنّتك فاحرمْنيها وإن كنتَ تعلم أني إنما أعبدك حبّاً مني لك فأبِحنِهُ وافعلْ بي ما شئت!». ثم جاء أبو سعيد الخرَّاز البغدادي (توفي عام 277 هـ - 890 م)، وهو تلميذ ذي النّون المصري، فكان أول من تكلّم في «الفناء»، وهو من أقوال الغنوصيين القديمة بينهم، ولا شأن له مطلقاً بالنِّير□انا Nirvana عند الهنود[1633].

وكان حمدون القصَّار النّيسابوري (توفي عام 271 هـ - 884 م) أول من سلك طريق الملامة، وكان يفضّل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أن يصرفه تعظيم النّاس له عن الله[1634].

غير أنّ فكرة الملامتيّة أيضاً فكرة قديمة؛ فقد وصف أفلاطون في أول الكتاب الثّاني من الجمهورية العادلَ الحق الذي يُظنّ به أنه ليس عادلاً.

وهكذا خرج الصُّوفية عن طريقهم الأول بالكلّيّة؛ فقد كانوا في أول الأمر تدفعهم غَيْرَةُ الأتقياء إلى التّدخل في حياة الجماعة، وإلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حتى جرَّهم ذلك إلى معارضة أمر السُّلطان أحياناً، فنرى ابن نخشد (توفي بمكّة عام 366 هـ - 976 م) يقول: هو الصّبر تحت الأمر والنَّهي[1635]، وعدم المبالاة بما تكون عليه حياة الجماعة.

وكانت بغداد والبصرة مختلفتيْن في أمر التّصوُّف، كما كانتا مختلفتين في مسائل اللغة وعلم الكلام؛ فكانت بغداد أكبر مركز للمتصوّفين، على حين كانت البصرة أكبر مركز للزّهاد، وبقيت كذلك حتى أيام البِشاري المقدسي.

ويُنسب للحسن البَصْري، شيخ زهاد البصرة، أنه رأى على مالك ابن دينار كساءً صوف، فقال له: يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال: إنه كان على شاةٍ قَبْلَك[1636]. إلا أنّ هذا النّقد للصّوفية لم يمنعهم من أن يضمّوا إلى رجالهم أكبر رجلٍ من خصومهم، فيعدّوا الحسن البَصْري - وهو أشهر عُبَّاد العراق - أول أستاذٍ أوضح سبيل مذهبهم. غير أنّ سند المذهب امتدّ أكثر من ذلك؛ فأراد قوم أن ينسبوا مذهب التّصوُّف إلى النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم، فردُّوا علم الحسن إلى حُذَيفة ابن اليمان الصّحابي المشهور؛ ويروى أن النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم اختصّ حُذيفة من بين الصّحابة بعلوم منها علم معرفة النّفاق والمنافقين، «وكان عُمر رضي الله عنه إذا دُعي لجنازة ليصلّي عليها، نظر، فإن حضر حذيفةُ صلّى عليها، وإن لم يرَ حذيفة لم يُصلِّ عليها»[1637].

وحوالي أواخر القرن الثّالث الهجري حمل تلاميذ السَّريّ السَّقَطي مذاهب الصُّوفية البغداديين إلى أنحاء الدّولة الإسلامية؛ فحملها موسى الأنصاري بمرو (توفي حوالي عام 320 هـ - 933 م) إلى خُراسان، والرّوذباري (توفي حوالي عام 322 هـ - 934 م بالفسطاط) إلى مصر، وأبو زيد الآدمي (توفي بمكّة عام 341 هـ - 952 م) إلى جزيرة العرب[1638]؛ وكذلك ظهر التّصوُّف بمدينة نيسابور على يد الثّقفي (توفي سنة 328 هـ - 940 م)[1639] ؛ وكانت شيراز بنوعٍ خاص مملوءة بالصُّوفية حوالي آخر القرن الرّابع[1640].

وفي النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري لقي الحجويري الأفغاني ثلاثمئة من مشايخ الصُّوفية بخُراسان وحدها، «لكلٍّ منهم مشرب، والواحد منهم يكفي الدّنيا بأسرها»[1641].

وكان يعيش في بغداد حوالي عام 300 هـ - 912 م ثلاثةٌ من كبار مشايخ الصُّوفية متقاربين وهم: أبو بكر الشّبلي المشهور بإشارته، وكان أبوه حاجباً بدار الخلافة، وتولى هو نفسه إدارة دواوين كثيرة؛ والمرتعش (توفي عام 328 هـ - 940 م) صاحب النّكت الصُّوفية؛ والخُلْدي (توفي عام 348

هـ - 959 م)، عن خمس وتسعين سنة، وهو أول من ألف في تاريخ الصُّوفية وحكاياتهم، وكان يفتخر بأنه يحفظ أكثر من مئة ديوان من دواوين الصُّوفية[1642].

وكان في الدّولة الإسلامية خوانق وأماكن للعبادة قبل ظهور الصُّوفية؛ ويُذكر لنا مثالٌ واحدٌ يدلّ على أن صاحبه كان يقلّد النّصارى؛ فيُروى أن أبا الخير فهر بن جابر الطّائي (توفي عام 225 هـ - 836 م) دخل بلاداً كثيرة، واجتمع بالنّصارى ورُهبانهم؛ ولما دخل في السّنة الخمسين من عمره اعتزل النّاس في جوار دمشق؛ وقد ألف كتاباً ذكر فيه تاريخ الزّهد عند النّصارى[1643].

ويحدثنا البِشاري المقدسي أنه لقي في جبل الجولان من جبال الشّام أبا إسحاق البلوطي في أربعين رجلاً، يقتاتون بالبلوط، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعيرٍ برِّيٍّ، ويلبسون الصّوف[1644].

وكان الكِرامية[1645] أصحاب محمّد بن كِرام هم الذين أنشأوا أكبر عدد من الخوانق؛ ويذكر المقدسي أنه كان لهم خوانق كثيرة بإيران وما وراء النّهر، وكان لهم أيضاً خوانق ومجالس ببيت المقدس؛ وكان لهم فوق ذلك محلةٌ بالفسطاط، ويذكر المقدسي أنه قرأ في كتاب صنّفه بعض مشايخ الكِراميّة بنيسابور أن المغرب سبعمئة خانقاه لهم، ثم يقول: فقلت: لا والله، ولا واحدة. وكان لهم في خوانقهم مجلسُ ذكر يقرءون فيه من دفتر، كما كان ذلك لأصحاب أبي حنيفة[1646]. وكان الكِراميّة جماعة من المتسوِّلين، وقد دعوا إلى الزّهد وترك الكسب الدّنيوي؛ ويقول البِشاري المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال: التّقى، والعصبية، والذّلّ، والكُدْية[1647].

ولم يكن للصّوفية خوانق في ذلك الوقت[1648]، وكلّ ما كان لهم بيوت صغيرة للذّكر في المدن، سمُّوها رباطات، بالاسم الحربي[1649]. ولكن يظهر أنه كان يعيش في هذه البيوت المنعزلة بعض العبَّاد في ذلك العصر؛ فيُروى عن عليّ بن إبراهيم الحصري الصُّوفي (توفي عام 370 هـ - 980 م) «أنه كبرت سنّه، فصعب عليه المجيء إلى الجامع، فبُني له الرُّباط المقابل لجامع المنصور، ثم عُرف بصاحبه الزّوزني»[1650].

وكان الكِراميّة يلبسون رداءً من الصّوف وفُوطةً[1651] مُدَلّاة على رؤوسهم؛ ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق، إمّا لأنه لباس الحداد، وإما لأنه يلائم حال الجوّالين في البلاد[1652]؛ وربّما كان الأول هو الصّحيح، لأن الفوطة أيضاً كانت لباس الرّأس عند الحزن[1653]؛ ويقول ابن عبد العزيز السّوسي في القرن الرّابع الهجري من قصيدته التي ذكر فيها تنقُّله بين المذاهب والدّيانات، يصف عهده في التّصوُّف[1654].

سلكت في مسلك التّصوُّف تنـ	ـميساً، فكَمْ للذّيول قصَّرتُ
سوَّيت سجادةً بيوم وأحـ	ـفيت سبالاً قد كنت طوَّلتُ

وكان للأغاني الرّوحية العاطفية شأنٌ كبيرٌ في عبادات الصُّوفية، كما كان الحال بين عُبّاد الألمان. ويقول الجاحظ: «ومن تمام آلة الشّعر أن يكون الشّاعر أعرابيًّا ويكون الدّاعي إلى الله صوفياً»[1655].

ويحدثنا البِشاري المقدسي عن حضوره مجالس الصُّوفية بمدينة السّوس قائلاً: «فكَرَّةً أزعق معهم، وتارةً أقرأ لهم القصائد»[1656].

وفي القرن الخامس الهجري زاد الرّقص إلى جانب الغناء؛ ويقول الحجويري إنه لقي طائفةً من العوامّ يظنّون أن مذهب التّصوُّف ليس إلا الرّقص[1657]؛ وكذلك يعيب المَعَرِّي (توفي عام 449 هـ - 1057 م) ذلك على الصُّوفية وهو يقول[1658]:

كلوا أكل البهائم وارقصوا لي؟	أقالَ الله حين عبدتموه:

وكانت عادة النّساء أن يشاهدن غناء الدّراويش من فوق الأسطح أو من مكانٍ آخر؛ ولذلك يحذّر الحجويري المبتدئين من السّماع وما يتصل به[1659]. وسرعان ما اخترع خيالُ أهل التّصوُّف أنّ في الجنّة كراسي يجلس عليها الصُّوفية وهي تميل بهم وتدور، فتكفيهم مؤونة الرّقص؛ وذلك، كما قالوا، بأن يبعث الله لأهل الجنّة مغاني من الحور العين، فيطرب القوم ويهيمون، فتقدّم الملائكة إليهم كراسيَ من ذهب، وتقول لهم: لا تزعجوا أعضاءكم بالرّقص! فقد كفى ما تعبتم في الدّنيا بالصّلاة والعبادة، واجلسوا على تلك الكراسي، وهي تميل بكم وتدور! فيغيبون عن وجودهم من الطّرب[1660].

ولم يكن ثمّ ما يوجب على الصُّوفية أن يلتزموا الكُدْية؛ لكن الخوارزمي يقول إن «الفقير هو مسجد يُحمل إليه ولا يُحمل عليه»[1661]؛ وكذلك سُمِّي الصُّوفية فُقراء[1662].

ويحكي لنا البِشاري المقدسي أنه دفعت به الظّروف إلى مجلسِ الصُّوفية بشيراز فحُملت إليه الثُّياب والصُّرر، فكان يأخذ ذلك ويدفعه إليهم، قائلاً: «لأني كنتُ غنياً في وسطي نفقة وافرة، وأنا كل يوم في دعوة وأيّ دعوة»[1663].

وكان الرّوذباري (توفي سنة 369 هـ - 979 م)، وشيخ الشّام في وقته، سيداً غنياً عالي الهمّة رفيع النّفس؛ فكان إذا دعا أصحابه معه إلى دعوةٍ في دور السّوقة ومن ليس من أهل التّصوُّف، لا يخبر الفقراء بذلك؛ وكان يُطعمهم شيئاً، وبذلك لا يمكنهم أن يمدُّوا أيديهم إلى طعام الدّعوة إلا بالتّعزُّز؛ وإنما كان يفعل ذلك لئلا تسوء ظنون النّاس بهذه الطّائفة، فيأثموا بسببهم[1664].

وكان خاله أبو علي الرّوذباري (توفي عام 322أو323 هـ - 933 م) أحد أئمة الصُّوفية، وقد أقام بمصر؛ ويروى أنه «اتخذ مرّة أحمالاً من السُّكّر الأبيض، ودعا بجماعةٍ من الحلوانيّين، حتى عملوا

من السُّكَر جداراً عليه شرافاتٍ ومحاريب على أعمدة، ونقشوها كلها من سُكَر؛ ثم دعا الصُّوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها». وكان الصُّوفية في كثيرٍ من الأحيان مشهورين بكثرة الأكل وجودته، حتى ليُضرب المثل «بأكل الصُّوفية»[1665].

وكانت أكبر نقائص الصُّوفية في ذلك العصر «مخالطة المخالفين الذين ليسوا على شاكلتهم، ومصادقة النّساء»؛ وهذه هي بعينها النّقائص التي تعرّض لها، وكان يعاني التّغلب عليها، الفقراءُ المسيحيون في العصور الوسطى! غير أنّه أُضيفت إلى ذلك آفةٌ شرقيةٌ خاصّة هي «صحبة الأحداث»[1666]؛ وقد نُظر إليها نظرة الجدّ، حتى يُروى عن أبي سعيد الخرّاز (توفي عام 277 هـ - 890 م) أنه قال: «رأيت إبليس في النّوم، وهو يمرّ عني ناحيةً، فقلتُ له: تعال، مالَك! فقال: إيش أعمل بكم، أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أُخادع به النّاس، فقلت: وما هو؟ قال: الدُّنيا، فلما ولّى عني التفت إليَّ، وقال: غير أنّ لي فيكم لطيفةً، فقلت: وما هي؟ قال: «صُحبة الأحداث»[1667].

ويُروى عن الواسطي (توفي عام 320 هـ - 932 م) أنه قال: «إذا أراد الله هَوان عبدٍ ألقاه إلى هؤلاء الإنتان والجيف»، يريد به صحبة الأحداث[1668]. ويعترف الحجويري أيضاً في القرن الخامس الهجري أنه قد بلغ من جهال الصُّوفية أنهم جعلوا صحبة الأحداث بما فيها من مفاسد قاعدةً في مذهبهم، وأن العامّة أخذوا عليهم ذلك وأنكروه[1669].

غير أنّه قد ظهرت عند الصُّوفية نزعةٌ قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما في هذه الدّنيا، فيحكي ابن حَزْم «أن من الصُّوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشّرائع، وزاد بعضهم: واتصل بالله تعالى. وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً، مرَّة يلبس الصّوف ومرةً يلبس الحرير المحرّم على الرّجال، ومرةً يصلّي في اليوم ألف ركعة، ومرةً لا يصلّي فريضةً ولا نافلة؛ وهذا كُفرٌ محض..»[1670].

ويشكو ابن حَزْم فوق ما تقدّم من أنّ طائفة من الصُّوفية ادّعت «أنه من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشّرائع كلها من الصّلاة والصّيام والزّكاة وغير ذلك، وحلّت له المحرماتُ كلها من الزِّنى والخمر وغير ذلك؛ واستباحوا بهذا النّساء غيرهم، وقالوا: إننا نرى الله ونكلّمه، وكل ما قُذف في نفوسنا فهو حق»[1671].

ويقول الحجويري إن دعوة «سقوط الشّريعة إذا كُشفت الحقيقة» هي مقالة الزّنادقة من القرامطة والإماميّة ومن وَسْوسوا إليهم من الأتباع[1672]. ويحكي القُشَيري أنّ أبو علي الرّوذباري (توفي عام 322 هـ - 933 م) سُئل عمّن يسمع الملاهي، ويقول: هي لي حلالٌ، لأني وصلتُ إلى درجة لا يؤثر فيَّ اختلاف الأحوال؛ فقال: نعم، قد وصل، ولكن إلى سَقَر [1673].

وكان أكثر الصُّوفية القدماء متزوِّجين. ويُروى أن امرأة أحد الصُّوفية كانت سيئة الخلق، ولم ينقذه من سوء خلق امرأته إلا كرامة[1674].

وكانت تخدم الجُنيد جاريةٌ تسمّى زيتونة، وكذلك خدمت شيخين غيره، ويدلّ اسمها[1675] على أنها كانت أَمَةً مملوكة؛ وأعطى الجُنيد جارية أخرى أُهديت إليه إلى أحد أصحابه ليتزوّجها[1676]. وكان الشّبلي متزوِّجاً[1677].

ويُروى عن ابن أبي الحواري، ريحانة الشّام، (توفي عام230 هـ) أنه كان له أربع نساء، وعن حاتم الأصمّ من أكابر مشايخ خُراسان أنه خلف تسعة أبناء[1678].

وممّا يزيد في غرابة مثل هذه الحكايات أننا نجد بين جماعة الزُّهّاد العبّاد الذين لا ينتمون لأهل التّصوُّف من تمسّك بالتّجريد، وهي نزعة غير إسلامية مطلقاً. ففي كتاب بُستان العارفين (ص 197-198) لأبي الليث السَّمَرقنديّ الحنفيّ (توفي عام 383 هـ - 995 م) حضٌّ من يستطيع الاستغناء عن الزّواج أن يظل حصوراً، وأن يتفرّغ إلى عبادة الله، فهي أفضل[1679].

ولا بدّ أن يكون هذا الرّأي قد غلب على الصُّوفية في القرن الرّابع الهجري، حتى يقول الحجويري في القرن الخامس: «وقد أجمع شيوخ هذه الطّريقة على أن أحسنَ الصُّوفية وأفضلهم المجرَّدون، فإن قلوبَهم خاليةٌ من الآفات، وطباعَهم مُعْرِضة عن المعاصي والشّهوات، وبالمُجمل فإن أساس هذه الطّريقة هو التّجريد، وأن الزّواج لغيرهم»[1680].

لكنّ هذا يخالف ما قد وقع بالفعل بشكل كبير، والحجويري أيضاً أوّل من حكى أخبار الزّواج الظّاهري الصُّوري فقط؛ فذكر أن أحد مشايخ الصُّوفية في القرن الثّالث الهجري عاش مع زوجته خمسةً وستين عاماً من غير أن يقربها[1681]؛ وحكي عن ابن خفيفٍ الشّيرازيّ المشهور (توفي عام 371 هـ - 981 م)، وكان من أبناء الملوك، أن بنات الملوك والرّؤساء كُنَّ يتقرَّبْن منه تبرُّكاً حتى يعقد عليهن؛ وقد عقد أربعمئة نكاح؛ ولكنه كان يقبل الزّواج، ثم يطلّقهن قبل الدّخول بهن[1682].

غير أنّ الحجويري نفسه لم يكن متزوجاً، وهو يقول: «وبعد أن صانني الله من آفة الزّواج أحد عشر عاماً قُدِّرَ لي أن أقع في فتنة، وأن أصير أسيراً لتلك التي لم أرَها، وبقيت في ذلك عاماً، حتى قرب ديني من الهلاك، إلى أن مَنَّ الله عليَّ بكمال فضله، فأرسل عصمته إلى قلبي الضّعيف، وخلّصني من هذه الأوزار»[1683].

ويظهر أن الكثيرين من بين الصُّوفية أنفسهم لم يكونوا راضين عن تطوّر مذهبهم؛ فلمّا صنّف الشّيخ أبو سعيد الأعرابي (توفي عام 341 هـ - 952 م) كتاب طبقات النُّسَّاك، وصف أول من تكلّم في هذا العلم، ثم من بعده من البَصْريين والشّاميين وأهل خُراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين؛ وهو يجعل أول التّصوُّف آخره، فيقول مثلاً إنَّ آخر من تكلّم في هذا العلم هو الجُنيد، وإنه ما بقي بعده «إلا مَنْ يُستَحْيى من ذِكْره»[1684].

وقد حُكي عن أبي سهل التّستري الإمام الصُّوفي (توفي عام 373 هـ - 886 م أو 283 هـ - 896 م كما يقول القُشَيري) أنه «كان يقول: بعد سنة ثلثمئة لا يحلّ أن يُتكلّم بعلمنا هذا، لأنه يحدث قوم

يتصنّعون للخلق، ويتزيّنون بالكلام، لتكون مواجيدُهم لباسَهم، وحِلْيَتَهم كلامَهم، ومعبودُهم بطونَهم»[1685].

وفي سنة 437 هـ - 1045 م كتب القُشَيري رسالته المشهورة إلى جماعة الصُّوفية ببلدان الإسلام؛ وذلك أنه لمّا رأى انقراضَ أكبر شيوخ الصُّوفية المحقّقين، وفسادَ حالِ كثيرٍ من الباقين ألّف رسالته، وممّا قاله في أولها: «وارتحلت عن القلوب حرمةُ الشّريعة، فعدُّوا قلّة المبالاة بالدّين أوثقَ ذريعة، ورفضوا التّمييز بين الحلال والحرام؛ ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام؛ واستخفّوا بأداء العبادات؛ واستهانوا بالصّوم والصّلاة؛ وركنوا إلى اتباع الشّهوات وقلّة المبالاة بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من السّوقة والنّسوان وأصحاب السُّلطان؛ وادعوا أنهم تحرروا عن رقّ الأغلال، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتبٌ ولا لوم؛ وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، وزالت عنهم أحكام البشرية»[1686].

وفي هذا العصر المتأخّر شاعت عن قدماء مشايخ الصُّوفية حكاياتٌ تدلّ على الشّدّة والقسوة في قمع شهوات النّفس والتّكفير عن ميولها.

فيُروى عن السَّريّ السَّقَطي (توفي عام 251 أو 257 هـ)، أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة، فإذا أصبح جاءت عصفورة وأكلت تلك اللقمة من يده[1687]؛ وقد لبث ستين سنة لم يضطجع، فإذا غلبه النّوم نام قاعداً القرفصاء[1688].

وتُحكى عنه حكايةٌ شبيهةٌ بما يؤثر عن ديوجينيس Diogenes؛ قال تلميذُه الجُنيد: «دخلتُ يوماً على السَّريّ السَّقَطي، وهو يبكي، فقلت له: ما يُبكيك؟ فقال: جاءتني البارحةَ الصّبيَّة، فقالت: يا أبتِ؟ هذه ليلةٌ حارّة، وهذا الكوز أعلّقه ههنا؛ ثم إنه حملتني عيناي، فنمتُ فرأيت جاريةً من أحسن الخلق قد نزلت من السّماء، فقلتُ: لمن أنتِ؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان؛ فتناولْتُ الكوز، فضربتُ به الأرض، فكسرتُه»[1689].

ويُروى عن رُوَيْم (توفي عام 303 هـ - 915 م) أنه اجتاز ببغداد وقت الهاجرة ببعض السّكك، وهو عطشان؛ فاستسقى من دارٍ، ففتحت الصُّبية بابها، ومعها كوز ماء، فأخذ منها وشرب؛ فقالت الجارية: صُوفيٌّ يشرب بالنّهار! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[1690].

ويروى عن الجُنيد أن وِرْده كان في كل يوم وليلة ثلاثمئة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة[1691]، وأقام عشرين سنةً لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع[1692]. غير أنّه يُروى خلافاً لهذا أنه كان بديناً، ولذلك كان يشكّ النّاس في زهده[1693].

ويُروى عن بِشر الحافي (توفي سنة 227 هـ) أنه مرَّ ببعض النّاس، فقالوا: هذا الرّجل لا ينام الليل كله، ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة؛ فبكى بِشر، فقيل له في ذلك، فقال: إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة، ولا أني صمت يوماً ولم أفطر من ليلته، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر ممّا يفعله العبد لطفاً منه سبحانه وكرماً[1694].

ولا مُشاحّة في أن مذاهب الصُّوفية تأثرت بمذاهب المتكلمين (المُعتزلة)؛ هذا لأن الصُّوفية أخذوا المسائل والمناهج من المُعتزلة؛ فمثلاً يقول ابن الكاتب الصُّوفي (توفي 340 هـ - 951 م): «إن المُعتزلة نزّهوا الله من حيث العقل، فأخطأوا؛ والصُّوفيةُ نزّهوه من حيث العلم، فأصابوا»[1695]؛ ولذلك انتشر التّصوُّف أسهل انتشار في فارس التي كانت كلها مُعتزلة[1696]. ثم إن الصُّوفية جعلوا مسألة القدر - وهي أهم شيء عند المُعتزلة - نقطةً أساسيَّة من مذهبهم، فقالوا بالجَبر على نحوٍ لا شكّ فيه: «من استوى عنده المدحُ والذّمّ فهو زاهد؛ ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابدٌ؛ ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجلّ فهو موحِّدٌ»[1697].

غير أنّ الجبر عند الصُّوفية ليس هو ذلك الاقتران التّلقائي بين الأسباب والمسبّبات على النّحو الذي يذهب إليه أوساط المتفلسفين، بل إن الصُّوفية جعلوا للجَبر معنى دينيًّا. وكان الإسلام قد دعا من أول الأمر إلى الثّقة بالله؛ أما الصُّوفية فإنهم لم يألوا جهداً في دعوة النّاس إلى التّوكل على الله والثّقة المطلقة به، تاركين الأمر كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئاً، ذاهبين إلى أنَّ «أول مقام التّوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجلّ كالميت بين يدي الغاسل»[1698]؛ ومعظم كرامات الصُّوفية إنما هي جزاءٌ وتحقيق لهذه الثّقة التي بفضلها تبقى خزائن الله مفتوحةً للمتوكّلين. وكان التّوكّل أكبر عقيدةٍ للصّوفية في القرن الرّابع الهجري؛ وكان مذهبهم يقوم على أربعة أصول؛ فكان فيها بعد التّوكل الصَّبر والرّضا والرّجاء، وهذا الرّجاء شبيهٌ باعتقاد البروتستانت بالفضل الإلهي. وقد أثّر الصُّوفية تأثيراً قوياً في الإسلام من طريق قولهم بالتّوكّل، حتى طبعوه بطابعه، وهو ما يسمّى بالاستسلام أو الجَبر الإسلامي.

ولم يكن القول بالجَبر عند المتكلّمين ولا عند المنجّمين من الأثر في الإسلام ما كان لتوكّل الصُّوفية، وما ذلك إلا لأن الصُّوفية كانوا يطبّقون قاعدة التّوكل، جادّين كل الجدّ، في شؤون الحياة اليومية العملية.

غير أنّ الاصطلاحات الإسلامية الخاصّة بالجبر لم يكن ظهورها في هذا العصر، بل هي جمعت فيه ورسخت، كما هي عليه اليوم[1699].

وهذه هي النّقطة الهامة، وقد رسّخ المتصوفة في ذهن كلِّ مسلم أن أرزاق النّاس قد قُسِّمت، وكُتبت قبل خلقهم بزمانٍ طويل، «وأن لكلّ عبدٍ رزقاً هو آتيه لا محالَة، لو هرب العبد من رزقه، كما لو هرب من الموت، لأدركه»، «وأن من اهتمّ برزق غدٍ، وعنده اليوم قوت، فهي خطيئة تُكتب عليه»؛ وأن رزق كلّ إنسانٍ قد كُتب في اللوح المحفوظ، «ولا يُزاد فيه بحَولٍ ولا حيلة»[1700] ، وأن الأرزاق قد خُلقت قبل الأجسام بألفي عام[1701]. وقال أحدهم: «لو كانت السّماء نحاساً والأرض رصاصاً ثم اهتممتُ برزقي لظننت أني مُشرك»[1702].

وأخيراً قوَّى الصُّوفية روحَ التّوكل - وهذا شيء في غاية الأهمية من النّاحية الدّينية - وفسروه بأنه الرّضا التّام بكلّ الأحكام الإلهية، بحيث يكون العبد راضياً عن المصيبة والنّعمة على السّواء؛ ويُروى عن بعض مشايخ الصُّوفية أنه قال: أرجو أن أكون عرفتُ طرفاً من الرِّضا: لو أدخلني النّار لكنت بذلك راضياً[1703].

وتدل على توكل الصُّوفية الحقيقيّين تلك الحكاية المشهورة التي تروى عن الدّرويش الذي وقع في دجلة؛ فقد أبصره رجل من المارّة، ورأى أنه لا يعرف السّباحة، فقال له: أتريد أن أرسل إليك من ينقذك؟ فقال: لا؛ فقال له الرّجل: أفتريد أن تغرق؟ فقال: لا؛ فقال له: فأيّ شيء تريد؟ فقال: أيّ شيء أريد! أريد ما يريده الله لي[1704].

وفي أوائل حركة التّصوُّف كان المحاسبي (توفي عام 243 هـ - 858 م) أوّل من فصل بين الرِّضا بمجاري الأحكام الإلهية Amor fati وبين التّوكّل بمعناه المعروف، وقال: إن الرِّضا من جُملة الأحوال التي لا تكتسب وإنما هي نوازل تحلّ بالقلب[1705]؛ والمحاسبي هو أوّل من جعل للرّضا الحظ الأوفر من عنايته؛ ونستطيع أن نعتبر المحاسبي مؤسّس مذهب الاستسلام Fatalismus الذي يُنسب للمسلمين.

غير أنّ الصُّوفية لم يبنوا عقيدتهم في القدر، كما أنهم لم يتشرَّبوها على منهج المنطق، بل هم اقتصروا في ذلك على النّاحية العلمية الدّينية؛ فمن ذلك أنهم مثلاً لم يقعوا في الجمود في التّفاصيل، ولم يتأدوا إلى رأي صارمٍ صلب فيما ذهبوا إليه بين حين وآخر من القول بالقدر[1706].

أما النّظرية الثّانية الكبرى في مذهب الصُّوفية، وهي مسألة الولاية، فإنها مذهبٌ نصرانيٌّ غنوصي؛ والوليّ[1707] هو من يواليه الله وينصره، وهذه فكرة صوفية أدخلها الصُّوفية في الإسلام، فلم ينفك عنها في كل عصوره؛ وهذا هو أكبر نجاحٍ ظاهر للصّوفية، وهو النّجاح الذي بدأ يظهر في القرن الرّابع الهجري. وينسب للمحاسبي (توفي عام 243 هـ) الذي تأثر بالمسيحية تأثراً قويًّا، أنه تكلّم في مسألة درجات الأولياء وفي مقدّمات الحياة الصُّوفية[1708]. ويقال إن الذي أدخل مسألة الولاية في مذهب الصُّوفية هو التّرمذي (توفي عام 285 هـ - 898 م)، والذي ينسب إليه أنه قال إنّ عيسى عليه السلام خاتَم الأولياء[1709].

أما مؤرّخو القرن الرّابع وأصحاب التّراجم فيهم، فلا يعرفون من الأولياء إلا الطّائفة المسمّاة بالأبدال[1710]؛ ويذكر ابن دُرَيد (توفي عام 321 هـ - 933 م)، أن الأبدال جميع بدل، وهم فئة من الصّالحين لا تخلو الدّنيا منهم أبداً وعددهم سبعون، أربعون منهم في الشّام وثلاثون في سائر البلاد[1711]. أما الحجويري في القرن الخامس الهجري فهو يذكر طبقاتٍ أخرى من الأولياء: فهناك ثلاثمئة يسمَّون الأخيار، وأربعون يسمَّون الأبدال، وسبعة يسمَّون الأبرار، وأربعة يسمَّون الأوتاد، وهم يطوفون العالم بجملته في كل ليلة، وثلاثة نقباء. وأخيراً يوجد القطب أو الغوث؛ والأولياء هم ولاة العالم، والحلُّ والعقد منوطٌ بهم، وتدبير العالم موصولٌ بهمتّهم[1712]. ومن الجليِّ أن القطب هو الذي يقوم مقام الإله Demiurgos عند الغنوصيين، وكانت صحراء تيه بني إسرائيل تعتبر في ذلك الوقت موضع لقاء الغوث[1713] وكانت الأُبُلّة مقرّ الأبدال[1714].

ولم يكن يدفع عن نفسه تقديس الأولياء إلا أهل السُّنّة المتمسّكون بالنّزعة القديمة. وكان الصُّوفية يزدرونهم بأنهم حشويّة (مشبّهة)، ولم يكن أولئك السّنِّيون يعترفون بالدّرجة الرّفيعة في القرب من الله إلا للأنبياء، أما المُعتزِلة فكانوا ينكرون بالكلّية أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض، ويرون أن جميع المسلمينَ الذين يطيعون الله ويقومون بأحكام الدّين هم أولياء الله[1715].

وأدّى انتظام الصُّوفية في جماعات إلى أن قوّى اعتقادهم بالأولياء، ثم ألحقوا بهم الأولياء الأقدمين مثل معروف الكرخي، وبِشر الحافي. وقد عُدّ على رأس هؤلاء الصُّوفية الحَسَن البَصْري[1716]، وهو الرّجل الذي كان يستبشع تظاهر الصُّوفية بلباسهم الخاص؛ فيُروى أنه تكلّم عن كساء الصّوف الذي كان يرتديه الصُّوفية، فقد رأى على مالك بن دينار كساء صوف فقال له: يعجبك هذا الطّيلسان؟ قال: نعم؛ قال: إنه كان على شاةٍ قبلك[1717].

ولقد امتاز القرنان الأوّلان في حياة التّصوُّف بوجود كثير من الصّالحين الذين اجتمع لهم شرطا الولاية: أن يكون الوليّ مُجاب الدّعوة، وأن تقع على يديه الكرامات[1718]؛ وأولئك هم أولياء الإسلام القدماء الذين تؤثر أخبارهم في جُملة المأثورات القيّمة؛ فالقزويني مثلاً لم يذكر في كلامه عن بغداد - عدا بِشر الحافي - إلا الأولياء الذين عاشوا حوالي عام 300 هـ - 912 م[1719]. وكان كتاب طبقات الصُّوفية للسُّلمي (توفي عام 412 هـ - 1024 م) أول كتاب في تراجم الأولياء، ويُشْعِر ما قاله ابن تَغْري بَرْدي الذي قرأ هذا الكتاب[1720] بأن ظهور الأولياء إنما كان منذ القرن الثّالث فما بعده، وأنه امتلأ منهم القرن الرّابع[1721].

وكرامات الأولياء كثيرةٌ متنوعة، «وقد تكون إجابةَ دعوة، وقد تكون إظهار طعامٍ في أوان فاقةٍ من غير سببٍ ظاهر، أو حصول ماءٍ في زمانٍ عطش، أو تسهيل قطع مسافةٍ في مدّةٍ قريبة، أو تخليصاً من عدو، أو سماع خطابٍ من هاتف، أو غير ذلك من فنون الأفعال النّاقضة للعادة»[1722]. ومنها أيضاً الأعاجيب التي تظهر عند موتهم.

فيُروى أنه وجد مكتوباً على جبهة ذي النّون المصريّ بعد موته: «هذا حبيب الله، مات في حبِّ الله، قتيل الله»، وعندما سارت جنازته تجمعت طيور السّماء فوقها وألقت أجنحتها على الجنازة لتظلّلها[1723].

ولما مات البربهاري في عام 329 هـ - 941 م كانت أخت توزون قد أغلقت الأبواب، فاطَّلعت فإذا الدّار ممتلئة رجالاً بثيابٍ بيضٍ وخُضر[1724].

وكذلك أمر ابن طُولون Ibn Tolûn بأن يُطرح بُنانٌ (توفي عام 316 هـ - 928 م) بين يدي سَبع، فطُرح، فكان السَّبع يشمّه ولا يضرّه[1725]. وقد سُمّي الشّيخ صاحب الكرامات (توفي عام 341 هـ) بالبُناني، وربّما كان ذلك لأنه كان من كراماته أن الوحوش تأنس به[1726].

وكان المروزي، أحد الأبدال، قاطناً بقزوين وكان يمشي على الماء، ويقف له بحر جيحون[1727].

ويُروى عن أحد الصُّوفية أنه كان يتناول الجواهر من الهواء، وعن رجلٍ أسودٍ فقير يأوي إلى الخرابات أنه أشار بيده إلى الأرض، فإذا الأرض كلها ذهبٌ تلمع؛ وجاءه رجلٌ فهاله الأمر وهرب؛ وعن بعضهم أن حماره نفق في بعض الطّريق، فصلّى ودعا الله أن يبعثه، فقام الحمار ينفض أذنيه؛ وعن رجلٍ منهم أنه وقع فصٌّ له في دجلة، فدعا بدعاءٍ مجرَّب عنده، فوجد الفصّ في أوراقٍ كان

يتصفحها؛ وعن غيره أنه أوى إلى مسجدٍ من المطر، وكان سقفه يَكِفّ، فأراد إصلاح السّقف بخشبة كانت معه، وكانت قصيرة، فطالت، حتى ركبت الحائط.

ويُروى عن صوفي أنه لما مات ضحك على المُغْتَسَل؛ فلم يجسر أحد على غسله.

ورُوِي عن آخر أنه انكسرت به السّفينة، وبقي هو وامراته على لوح، وولدت امرأتُه في تلك الحال صبيَّةً، فصاحت به وقالت له: يقتلني العطش! فقال: هو ذا يرى حالنا؛ فرفع رأسه، فإذا رجلٌ في الهواء جالس، وفي يده سلسلة من ذهب، ويها كوزٌ من ياقوتٍ أحمر، وقال: هاكما، اشربا منه شيئاً أطيب من المِسك، وأبرد من الثّلج، وأحلى من العسل.

ويُروى عن شابٍّ كان يكثر الصّلاة عند الكعبة أنه سقطت عليه رقعة مكتوبٌ فيها: من العزيز الغفور إلى عبدي الصّادق، انصرف مغفوراً لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر. ويُذكر عن رجل أنه كان يتعبَّد في غرفة ليس إليها سلّم ولا درج، فكان إذا أراد أن يتطهَّر يجيء إلى باب الغرفة، ويمرّ في الهواء، كأنه طير، ثم يتطهَّر، فإذا فرغ، يعود إلى غرفته.

ويُروى عن آخر أنه دخل الأتون، وهو موقد، فلم يصبْه شيءٌ، على نحو ما يُروى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ وعن أحدهم أنه تزوّج امرأة، فلما أراد الدّنوَّ منها زُجِر عنها، فخرج، فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج؛ كما يُروى عن ذي النّون المصري أنه أمر السّرير أن يدور في أربع زوايا البيت، وعن الفُضَيل أنه كان على جبل من جبال مِنىً فقال: لو أن ولياً من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يَميد لماد، فتحرك الجبل.

ويُروى عن السَّريّ السَّقَطي أن الدّنيا كانت تأتي له على هيئة عجوز، فتكنس بيته، وتحمل إليه في كل يوم رغيفين؛ وعن بعضهم أنّه مات وهو في مركب، فجفَّ البحر، ونزلت السّفينة، فحفروا له القبر ودفنوه؛ فلما فرغوا استوى الماء، وارتفع المركب.

وكثيراً ما يذكر أن الخَضِر يظهر للأولياء، ولا يزال الخَضِر إلى اليوم موئل الدّراويش.

ويُروى عن ابن حَزْم[1728] عن بعض نوكى الصُّوفية أنهم زعموا «أن الخَضِر وإلياس، عليهما السّلام؛ حيَّان إلى اليوم؛ وادَّعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات، والخَضِر في المروج والرّياض، وأنه متى ذُكر حضر على ذاكِرِه».

وقد يفطن البعض إلى كرامات الوليّ بعد فوات عصره؛ فيحكي القُشَيري مثلاً أن ممّا شاهده من أحوال الدّقَّاق أنه كان به علّة حرقة البول؛ لكنه كان إذا قعد على رأس الكرسي يتكلّم لا يحتاج إلى الطّهارة، ولو امتدَّ به المجلس زماناً طويلاً، ثم يقول القُشَيري: «ولم يقع لنا في حياته أن هذا شيء ناقض لعادته، وإنما وقَع لي هذا وفُتح عليّ علمُه بعد وفاته»[1729].

غير أننا لا نرى أنّه قد وقع على أيدي المسلمين في ذلك العهد ما كان يدّعى على أيدي أصحاب الخوارق النّصارى من إحياء الموتى[1730]؛ أما المسلمون فلم يصلوا إلا إلى قيام دوابهم بعد موتها

على أيديهم[1731].

ولم يكن يتعلّق بالخوارق والكرامات إلا عوامُّ الصُّوفية؛ أما الخاصّة المتعلّمون فكانوا لا يجعلون لها شأناً، إذا قورنت بالقوى العجيبة في الحياة النّفسية.

فيُروى أنّه قيل للمُرتعش (توفي عام 328 هـ - 940 م): إن فلاناً يمشي على الماء، فقال: «عندي أنَّ من مكّنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشي في الهواء»[1732].

وحكي عن بعض الصُّوفية أنه قال: كان في نفسي شيءٌ من هذه الكرامات، فأخذتُ قصبة من الصّبيان وقمت بين زورقين، ثم قلت: وعزَّتك لئن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنَّ نفسي، قال: فخرجت لي سمكة فيها ثلاثة أرطال؛ فبلغ ذلك الجُنيد، فقال: كان حُكمه أن تخرج له أفعى تلدغه[1733].

ويُروى عن أبي يزيد البسطامي (توفي عام 261 هـ - 874 م) أنه قيل له: فلان يمشي في ليلة إلى مكّة، فقال: الشّيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله؛ وقيل له: فلان يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فقال: الطّيْر يطير في الهواء والسّمك يمرّ على الماء.

وكان أبو سهل التّستري (توفي عام 273 هـ أو 283 هـ - 886 م أو 896 م) لا يعتدُّ بإظهار الكرامات؛ فكان جزاؤه أن أضيف إليه كرامات. ويُروى عنه أنه قال: أكبر الكرامات أن تُبدِّل خُلقاً مذموماً من أخلاقك[1734]. وجاء رجل إلى سهلٍ وقال له: إن النّاس يقولون إنك تمشي على الماء؛ فقال: سَلْ مؤذِّن المحلّة، فإنه رجل صالح لا يكذب، قال: فسألته، فقال المؤذن: لا أدري هذا، ولكنه نزل الحوض في بعض الأيام ليتطهّر، فوقع في الماء، فلو لم أكن أنا لبقي فيه[1735].

وقد ذهب بعض العلماء الذين هم أئمة وحجّة عند الصُّوفية إلى أنّ المعجزات دلالات صدق الأنبياء، ودليل النّبوة لا يوجد مع غير النّبي[1736].

وكذلك اختلفت الآراء في الوليّ: هل يجوز أن يعلم أنه وليٌّ أم لا؟[1737] ويُروى عن السَّريّ السَّقَطي، شيخ التّصوُّف، أنه قال: لو أن واحداً دخل بُستاناً فيه أشجارٌ كثيرة، وعلى كلِّ شجرةٍ طيرٌ يقول له بلسانٍ فصيح: السّلام عليك يا وليّ الله؛ فلو لم يَخَفْ لأنه مكرٌ لكان ممكوراً[1738].

والذي يدلّ على أن تعظيم الأولياء، رغم كل ما يقال فيه، كان إلى حدٍّ كبيرٍ شأن المتصوّفة والعامّة هي كتب العلماء والأدباء، فلسنا نرى من علماء الجغرافية في القرن الرّابع من يتكلّم عن وليٍّ من الأولياء، ولا نرى شاعراً يذكر أحداً منهم.

وأخيراً فإن المذهب الصُّوفي أنشأ اعتقاداً كانت له قوةٌ جاذبةٌ كبيرةٌ جداً من النّاحية الدّينية؛ لأنه كان يشبع حاجةً للتّقديس موجودة قبل عهد الإسلام: فقد رفع هذا الاعتقاد محمَّدا إلى درجة فوق درجة الإنسان، حتى أوشك أن يقرّبه من درجة التّقديس. أما المسلمون الأولون فقد كانوا معتدلين مقتصدين؛ فيُروى عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنه دخل على حبيبه وهاديه النّبي محمد صلى الله

عليه وسلم، وهو مسجًّى، فقبّله؛ ثم بكى وقال: بأبي أنت وأمي يا نبيَّ الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مِتَّها[1739].

أما الحلّاج، فإنه - وإن كان يعظّم قدر عيسى عليه السلام - يبدأ في الفصل الأول من كتاب الطَّوَاسين بما يشبه أنشودة حماسية عن النّبي محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم:

من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، همَّتُه سبقت الهمم، ووجودُه سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم... كان مشهوراً قبل الحوادث والكواين والأكوان، ولم يزل كان مذكوراً قبل القبل وبَعد البعد، فوقه غمامةٌ برقت، وتحته برقةٌ لمعت، وأشرقت وأمطرت وأثمرت، العلوم كلها قطرةٌ من بحره، الحِكَم كلها غَرفةٌ من نهره، الأزمان كلها ساعةٌ من دهره..[1740].

بهذه الأصول الثّلاثة الكبرى، وهي ما سمّي بالاستسلام، ثم تعظيم الأولياء وتعظيم النّبي محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم رسم الصُّوفية في القرنين الثّالث والرّابع للهجرة، للحركات الإسلامية الاتجاهات الكبرى التي مضت عليها والتي بقيت إلى اليوم.

لكنّ التّصوُّف لم يكن يضمن للنّاس اليقين بالفوز بالنّجاة في الآخرة، كما أنه لم يكن يحقق لهم تبديد ما يساورهم من المخاوف والشّكوك فيما يتعلّق بحُسن الخاتمة. فيُروى أن المكّي وكان من أكابر الزُّهّاد المتعهّدين، وصاحب كتابٍ في التّصوُّف - لما حضرته الوفاة عام 368 هـ / 966 م - قال لأحد أصحابه: «إذا علمتَ أنه قد خُتم لي بخير، فانثر عليّ سكَّرا ولوزاً إذا خرجت جنازتي، وقل: هذا للحاذق؛ فقال صاحبه: من أين أعلم؟ فقال: خذ بيدي وقت وفاتي، فإذا أنا قبضتُ بيدي على يديك، فأعلم أنه خَتم الله لي بالخير، وإذا أنا لم أقبض على يدك، وسيَّبت يدك من يدي، فاعلم أنه لم يُختَم لي بخير». قال صاحبه: فقعدت عنده، فلما كان عند وفاته قبض على يدي قبضاً شديداً، فلما أخرجت جنازته نثرت عليه سكَّراً ولوزاً، وقلت: «هذا للحاذق» كما أمرني[1741].

ويُروى مثل هذا عن الماورديّ (توفي عام 450 هـ - 1058 م)، فقد قيل «إنه لم يُظهِر شيئاً من تصانيفه في حياته، فلما دنت وفاته قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلّها تصنيفي، وإنما لم أظهرها، لأني لم أجد نيةً خاصّة؛ فإذا عاينتُ الموت، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها، فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمدْ إلى الكتب وألْقِها في دجلة؛ وإن بسطتُ يدي، ولم أقبض على يدك، فاعلم أنها قد قُبلت وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النّية». قال ذلك الشّخص: «فلما قارب الموت وضعتُ يدي في يده، فبسطها ولم يقبض على يدي»[1742].

وممّا يقرأه الإنسان مع التّأثر أنه في أواخر التّراجم الغريبة التي تُكتب للأولياء يُذكر أن الوليّ يظهر في المنام لأحد أصحابه أو تلاميذه، وعليه ملابس تدلّ على ما ناله من الرّحمة والإلهية والفضل، وأن أصحابه يسألونه متلهّفين عن الشّيء الذي نال به السّعادة.

وكان أكبر شيء يضمن للإنسان الجنّة عند المسلمين هو أن يستشهد الإنسان، وهو يقاتل الكافرين. وقد فطن الإمبراطور نقفور Νικηφόρος - وهو أكبر عدوّ للإسلام في القرن الرّابع الهجري -

لقيمة هذه المسألة من النّاحية الحربيّة؛ فأراد أن يعلن أن كل من يموت في الحرب مع المسلمين هو شهيد، لكنّ الكنيسة كانت ساخطة على نقفور لأسبابٍ مالية، فلم تُجبْه إلى ذلك[1743].

غير أنّ حركة التّصوُّف قد خرجت كثيراً عن حدود المبادئ الإسلامية، وهذا هو الذي يجعلها فرعاً غير أوروبي له مميّزاته الشّرقية الخاصّة، فلم يكتف المتصرّفون بأن يجعلوا للإحساسات صِبغةً إلهية، بل هم أرادوا فوق ذلك أن يجعلوا للإرادة الإنسانية هذه الصِّبغة، وادّعوا أنّ لهذه الإرادة الإلهية في زعمهم القدرة الإلهية على كل شيء، وبهذه المذاهب عرَّضوا هدوء الدّولة وسكينتها لأكبر الأخطار، وازدادت قائمة الزّنادقة حوالي عام 300 هـ - 912 م زيادةً كبيرةً ملحوظة.

ففي عام 309 هـ - 921 م- قُتل الحلّاج قتلةً شنيعة[1744]؛ وقد سمع كثيراً من شيوخ التّصوُّف المشهورين، ومنهم الجُنيد، أن البيروني[1745] يقول عن الحلّاج إنه رجل متصوّف؛ ويقول ابن النَّديم صاحب الفِهْرِسْت إنه كان يظهر مذاهب الإماميّة للملوك ومذاهب الصُّوفية للعامة[1746]. ويُروى أنه كان يصلّي في كلّ يوم أربعمئة ركعة[1747]. وقد ظهر بعد وفاة الحلّاج بستٍّ وستين سنة سبعة وأربعين من مصنّفاته[1748]، ونشر المستشرق لوي ماسينيون Louis Massignon أحد هذه الكتب وعلّق عليه.

وقد تمكّن الحلّاج من أن يعبّر عن النّقط الدّقيقة في تفكيره، وعمّا كان له من نزعٍ قويٍّ إلى إفناء المخلوقات في الخالق، وهو تعبيرٌ أدبيّ يتجلّى فيه الحذق والمهارة المدهشة، ولم تكن هذه القدرة بنت أمسها بل هي تنمّ عن نسبها وصلتها بمذاهب الغنوصيّين، وهي تذكّرنا أيضاً في كثيرٍ من الأحيان بأجمل المقاطع في أناشيد الغنوصيّين.

أما طريقة الحلّاج فهي من كلّ وجوهها طريقة المُعتزلة، فقد أخذ عنهم فكرة تنزيه الذّات الإلهية عن جميع الصّفات الإنسانية وجميع صفات الحوادث - كما أخذ عنهم تسمية الذّات الإلهية باسم الحق - وتلك الفكرة هي آخر ما يصل إليه الإنسان بطريق التّنزيه.

لكننا إذا وجدنا الحلّاج يميّز بين اللاهوت والنّاسوت في الذّات الإلهية - وهما كلمتان غريبتان عن الإسلام - وإذا وجدنا عنده القول بأن الله سيحكم بين النّاس يوم القيامة بصورة النّاسوتية[1749]، وأنه قبل إيجاده للخلق ظهر أولاً في صورة الإنسان[1750]، وهذه هي فكرة الإنسان القديم: وباليونانية Πρίν ἀνθρωπος (پرين أنثروپوس) في مذهب الغنوصيّين (انظر مثلاً كتاب هِلغنفِلد «التّاريخ الهُرطقي» Hilgenfeld, Ketzergeschichte. S. 294)، ثم إذا وجدنا أنه يقول إنّ الله بدا لخلقه ظاهراً في صورة الآكل والشّارب، فإننا عند ذلك نرى أنفسنا وسط ذلك العالم الغريب، عالم الغنوصيين النّصارى، وهو الذي كان من ناحيته مجرّد صورة باهتة للأساطير القديمة.

ونستطيع أن نلاحظ صلة النّسب والشّبه بين ما ذهب إليه الحلّاج وبين مذهب الغنوصيّين حتى في التّفاصيل. فمثلاً نرى عند باسيليديس Basilides كما حكى مذهبه إيرينايوس Irenaeus أن الأب صدرت عنه الكلمة Logos ثم الحكمة Phronesis ثم القدرة Dynamis ثم العلم[1751] Sophia. وكذلك نرى الحلّاج يتكلّم في طاسين المشيئة عن أربع دوائر؛ الأولى مشيئته، والثّانية حكمته،

والثّالثة قدرته، والرّابعة معلوماته وأزليّته[1752]. فطريقة التّمثيل بالدّوائر وهي التي وجدها قِلسوس Celsus عند الغنوصيّين، نراها أيضاً عند الحلّاج في كتابه الوحيد الذي نعرفه إلى اليوم؛ ونجدها أيضاً في مصنّفات الدّروز كما هو معلومٌ جيداً؛ ويمثّل العقل عند الغنوصيّين بالشّكل المعمّل[1753]، وفي كتاب الطَّوَاسين يمثّل الفهم بالمستطيل (ص 31). ولما كبست دار أحد أصحاب الحلّاج وجدت فيها دفاتر كثيرةٌ مكتوبةٌ على ورقٍ صينيّ، وبعضها مكتوبةٌ بماء الذّهب ومبطنةٌ بالدّيباج والحرير ومجلّدةٌ بالأدَمّ الجيِّد[1754]. وكانت هذه أيضاً من عادات الغنوصيّين في العناية بكتبهم. وكان المنانية أيضاً يزيّنون كتبهم الدّينية بالذّهب والفضّة[1755] وكذلك نرى ما كان عند الغنوصيّين من تنسّك النّاس وتطهّرهم مجتمعين، ويصرّح الحلّاج بأن عيسى عليه السلام هو المثل الأعلى الذي ينتهي إليه الإنسان بالتّصفية، وقد بيَّن الإصطخري[1756]، أحد معاصري الحلّاج المتأخرين مذهبه بقوله: «وكان رجلاً حلَّاجا ينتحل النُّسك، فما زال يرتقي به طبقاً عن طبق، حتى انتهى به الحال إلى زعم أن مَن هذّب في الطّاعة نفسه، وأشغل بالأعمال الصّالحة قلبه، وصبر على مفارقة اللّذات، وملك نفسه في منع الشّهوات، ارتقى بها إلى مقام المقرّبين؛ ثم لا يزال يتنزّل في درج المصافاة، حتى يصفو عن البشريّة طبعه؛ فإذا لم يبقَ فيه من البشرية نصيب، حلّ فيه روح الله الذي كان منه عيسى بن مريم، فيصيرُ مطاعاً، فلا يريد شيئاً إلا كان، من كل ما ينفذ فيه أمر الله، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله وجميع أمره أمر الله».

ويقول الحلّاج نفسه[1757]:

تُمزج الخمرةُ بالماء الزُّلال	مُزجت روحُك في روحي كما

ويقول[1758]:

نحن روحان حَلَلْنا بَدَنا	أنا من أهوى، ومن أهوى أنا
وإذا أبصرته أبصرْتَنا	فإذا أبصرتني أبصرته

وقد مثّل الوصول إلى الحقيقة تمثيلاً جميلاً فريداً؛ فهو يقول في طاسين الفَهم[1759]: «الفراش يطير حول المصباح إلى الصّباح، فيلقي جملته فيه:

«مثلَ جري الدّموع من أجفاني	أنت بين الشّغاف والقلب تجري

غير أنّ الصُّولي في كلامه عن الحلاّج مراراً يقول إنه رجلَ جاهلَ يتعاقل؛ بينما يقول الإصطخري إنه استمال جماعةً من الوزراء وطبقاتٍ من حاشية السُّلطان والأمراء. وقد اتُّهم نصرٌ الحاجب، بوجهٍ خاصّ ومع عظم شأنه، بالميل إليه؛ وكذلك استحضر الوزير بعض القُضاة فذكروا أنهم لا يُفتون بقتله؛ ومكث الحلاّج محبوساً في دار الخلافة ثمانية أعوام موسَّعاً عليه. وتشعرنا أخباره بأنّ الدّسائس هي التي كانت فيما بعد سبباً في قتله. وأغلب ما وصلنا من أخبار الحلاّج إنما ذكره خصومه، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح أن الحلاّج قد أثّر في كُبراء أهل بغداد تأثيراً قوياً نادر المثال، ويدلّ على عظم شأنه أن كلًّا من الذّهبي وابن الجوزي كتب عنه كتاباً خاصًّا، ولكن يظهر أن هذين الكتابين قد فُقدا مع الأسف، ولم ينل هذا الشّرف إلا القليلون بين رجال الإسلام.

وقد أثّر الحلاّج في علوم الدّين عند المتصوّفة أثراً كبيراً! ورغم قتله فإنَّ كثيرين من تلاميذه حملوا مذهبه من بعده، وخصوصاً فرقة السّالمية. ويحدثنا الحجويري في القرن الخامس الهجري أنه رأى بالعراق أربعة آلاف يسمُّون أنفسهم الحلاّجية[1760]. ويصرِّح الحجويري نفسه بعطفه على الحلاّج ويقول إنه لم ينكر فضله وصفاء حاله وكثرة اجتهاده ورياضته إلا فئةٌ قليلة من مشايخ الصُّوفية[1761]؛ وكان لا يزال في عصر أبي العلاء (توفي عام 449 هـ - 1057 م) قومٌ في بغداد ينتظرون خروجه ويقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقعون ظهوره[1762].

وكانت المذاهب النّصرانية أيضاً هي الأصل التي أتت منه جميع الآراء الأخرى الّتي جاء بها زنادقة ذلك العصر؛ فمثلاً ذهب منصور العِجلي الملقب بالكِسف إلى أن أول من خلق الله عيسى بن مريم (عليهما السّلام)، ثم خلق بعده عليًّا[1763]. وكذلك ادعى الشَّلمَغاني وهو من قرية من قرى واسط، أن روح الله حلّ فيه[1764]. وقد تقدَّم أمير المؤمنين إلى الوزير أبي علي بن مُقْلة ليكشف أمر الشَّلمَغاني وأمر صاحبَيْه، وطلب من الرّجلين التَّبرؤ من ابن أبي العزاقر ونَيْلَه بمهانة يَصْغُر بها قدره؛ فأما أحدهما فصفَعَهُ مرّة، وأما الآخر فإنه أرعد خوفاً من ذلك، فمدَّ يده إلى لحيته وقال: مولاي مولاي! فجُلدا وقُتلا وصُلبا، وأحرقت أجسامهما.

وكان الشَّلمَغاني يقول إن الله يحلُّ في كلّ شيءٍ على قدر ما يحتمل، وإنه خلق الضّدّ ليدلّ به على مضدوده؛ والدّليل على الحق أفضل من الحق؛ والضّد أقرب إلى الشّيء من شبيهه. وكان يقول إن اللاهوتية اجتمعت في آدم وإبليس، وكذلك في إبراهيم ونمرود، وفي هارون وفرعون، وفي داود وجالوت، وكان المسعودي يعدّ الشَّلمَغاني من الإماميّة[1765].

وكذلك أوَّل الشَّلمَغانية القرآن عن معانيه الظّاهرة، فقالوا إن معنى الجنَّة معرفتُهم وانتحالُ مذهبهم، ومعنى النّار الجهلُ بهم والصُّدود عن مذهبهم. وكانوا يغتفرون ترك الصّلاة والصّيام والاغتسال، ولا ينكرون أن يطلب أحدُهم من صاحبه حُرْمَتَه، وكانوا يرون أنه لا بدّ للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النّور فيه[1766].

غير أنّ هذه الفرقة لم تكن فرقة عَوَام؛ فقد كان ابن أبي العزاقر نفسه كاتباً ببغداد، وكذلك كان صاحبه إبراهيم بن أبي عون شاعراً، ومشتغلاً بالأدب؛ وكان من القوّاد. ويقال إنَّ أحد وزراء أسرة بني وهب كان يعتقد أن ابن أبي العزاقر إله[1767].

أما الحركات الّتي منشؤها القول بظهور المهديّ، فكانت من نوعٍ آخر؛ فالأشخاص الذين تكلمنا عنهم هم قومٌ كلٌ منهم على حدة يبحث عن الله، وقد ساروا في طريقهم على هدى علوم دينٍ قديمة؛ وأعجب ما في أمرهم أنهم وجدوا من يصدِّقهم. أما الحركات المتعلّقة بالمهديّ فكانت منذ أول أمرها حركاتٍ سياسية، اتجهت إلى الجماهير، فكانت لها نتائج أخرى.

فحوالي منتصف القرن الثّالث الهجري ظهر حمدان قِرْمِط[1768]، والتفّت عليه العناصر الثّائرة في العراق؛ إلا أنّ الخليفة المعتضد أخمد هذه الفتنة، ولم يصبح لدعوة حمدان شأنٌ سياسيّ إلا بعد انتقال هذه الفتنة إلى جزيرة العرب، وكانت الجزيرة أكبر مركزٍ يحتشد إليه الثّوار على اختلاف مشاربهم، حيث يكونون على قدم الاستعداد دائماً لاتباع قائد يسير بهم إلى أراضي الفلّاحين الخصبة، يقتلون وينهبون.

وقد مات الخليفة المعتضد عام 289 هـ - 901 م وهو الخليفة القدير، وفي نفسه حسرة من القرامطة[1769]. وقد أتاح القدر لهؤلاء القرامطة قائديْن عظيمين، عرفا كيف ينظّمان ما في جزيرة العرب من قوى خشنة، ويقودانها في أكبر ثورةٍ شهدتها الجزيرة منذ أيام الإسلام الأولى.

فحوالي أواخر القرن الثّالث الهجري خرّب القرامطة الشّام تخريباً شديداً؛ وفي أوائل القرن الرّابع امتدّت غاراتهم إلى العراق، ففتحوا البصرة والكوفة، وأعملوا فيهما النّهب، وألقوا الرّعب في بغداد، وقطعوا الطّريق بين مكّة والمشرق. وفي عام 316 هـ = 928 م شنّوا غاراتٍ متفرقة، تقوم بها العصابات من صحراء الشّام حتى بلغوا بها إلى جبال سِنجار [1770]. وفي عام 317 هـ - 929 م بلغ الحُجّاج مكّة من غير أن يصيبهم أذى، ولكن وافاهم بعد ذلك أبو طاهر القِرْمِطي، في عددٍ قليل يدهشنا لقلّته - إذ كان معه ستمئة فارس وتسعمئة راجل - فاقتحم مكّة، ونهب هو وأصحابه أموال الحجّاج، وقتلوهم في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع باب البيت وقلع الحجر الأسود. ولم ينهض لمقاومة هؤلاء المغيرين إلا البدوُ الذين لا يقيمون بمكّة، فأمّا أهل مكّة فقد شاركوا المُغيرين في نهب بلدهم الحرام.

غير أنّ هذا الحادث لم يؤثّر في أهل ذلك العصر ما كنا ننتظر له من أثر، ولم ينظر إليه بعين السّخط الشّديد إلا أهلُ الأجيال التّالية. أما ذلك العصر فكان فيه كثيرون لا يكترثون بالدّين ويمنعهم الأدب من التّظاهر به نفاقاً؛ ومن جهةٍ أخرى فإن المتصوِّفة الذين صاروا يتجمعون حول التّصوُّف النّاهض كانوا يرون في ذلك شيئاً أعظم من الحجر الأسود؛ بل يظهر أن المسلمين المتمسّكين بأصول الإسلام كانوا يعظّمون هذا الحجر من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك تمام الاطمئنان. وكان هذا الحادث منتهى ما وصلت إليه فتنة القرامطة وثورتهم.

وبعد ذلك أغاروا على المشرق، ينهبون حتى بلغوا فارس؛ وقد ألقوا الرّعب في الصّحراء حتى أشفق النّاس من اجتيازها؛ وكثيراً ما كان أهل بغداد يغلقون أسواقهم خوفاً منهم.

لكنّ الخليفة استطاع بسياسته أن يشلّ حركتهم، فدخل جنودُ القرامطة في خدمة الخُلفاء، وفي سنة 327 هـ - 938 م سألهم أن يؤمّنوا الحاجَّ، ويعطيهم مَكْسَاً عن كلّ حِملٍ مع القافلة، فرَضَوا بذلك.

وفي سنة 339 هـ - 950 م رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة؛ وقد استطاع بعيرٌ نحيلَ أن يحمله، وقد سمن بحمله له؛ على حين أنه قبل ذلك باثنتي عشرة سنة وقع تحته ثلاثة جمالٍ أقوياء.

ولم ينتهِ ما أصاب الحجر الأسود عند هذا الحدّ؛ ففي عام 413 هـ - 1022 م عمد أحد الحجّاج المصريين - وهو من الجهّال الذين استغواهم الحاكم بأمر الله - إلى الحجر الأسود، فضربه ضربات متوالية فكسر قطعاً منه؛ لكن النّاس عاجلوا الرّجل، وقتلوه. ثم أُخذت القطع التي سقطت من الحجر وعُجنت بالمِسك واللَّك، وحُشيت بها المواضع التي ثُقبت[1771].

وفي سنة 350 هـ سار القرامطة، وهجموا على مصر والشّام، فساعدوا الفاطميين على قصد مصر؛ ولكن أمرهم انتهى عام 358 هـ - 968 م إلى مسألة الخليفة العبّاسي ببغداد، فخطبوا له على المنابر، وأعطاهم مالاً وسلاحاً[1772]. ثمّ أغاروا على الشّام، كما أغاروا عليها في أوّل أمرهم، ولكن كان عدوّهم بها في ذلك العهد هو حليفهم من قبل، وهم الفاطميون. وسوّد القرامطة أعلامهم[1773]؛ ولكنهم هُزموا في الشّام آخر الأمر، وارتدُّوا إلى جزيرة العرب، على أن يدفعوا قدراً من المال في كلّ عام، وبعد ذلك ببضع سنين أخرجهم بنو بُوَيْه نهائيًّا من العراق، ولم يبقَ لهم في أواخر القرن الرّابع إلا ولايةٌ صغيرة على الشّاطئ الشّرقي للجزيرة العربية، لا تستطيع قطع الطّريق على الحجيج، ولكن كان لها على باب البصرة ديوانٌ لأخذ الضّرائب[1774].

وحتى عام 443 هـ وجد الرّحّالة ناصر خُسرو القباديانى عندما زار الأحساء - عاصمتهم - أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذي فيه قبرُ مؤسّس مذهبهم فرساً بسرج ولجام، لا يغادر مكانه لا ليلاً ولا نهاراً؛ ويقولون إنه للمهدي يركبه متى ظهر[1775].

ويحكي أبو العلاء المَعَرِّي عمّن سافر إلى اليمن أن بها في عهده جماعةً «كلهم يزعم أنه القائم المنتظر، فلا يَعْدَم جِبايةً من مال».

ولا نستطيع أن نتبيّن مقدار إيمان هؤلاء الناس، ولا مبلغَ حبّهم للتكسّب من وراء ادعائهم هذا، كما لا نستطيع معرفة مقدار ما في تلك الحركة بجملتها من إخلاص وتديُّن.

ولكن ينبغي أن نلاحظ أنّ اليمن كانت دائماً من أغرب الأقاليم في العالم بخصوص الرّوحانية، مثلاً يقول أبو العلاء المَعَرِّي: «وما زال اليمن، منذ كان، معدناً للمتكسّبين بالتّديُّن، والمحتالين على السُّحت بالتّزيُّن»[1776].

غير أنّ مذهب القرامطة المتشبّثين بفكرة المهدي لم يكن مذهباً حسن الإسلام، فقد كان وراء عقائدهم دائماً القولُ بالحلول، كما كان الحال في مذاهب الغنوصيّين من النّصارى. يقول ابن حَزْم: «ثم زادت فرقة على ما ذكرنا، فقالت بإلهيّة محمّد بن اسماعيل بن جعفر، وهم القرامطة؛ وفيهم من قال بإلهيّة أبي سعيد الجنَّابي وأبنائه بعده، وقالت طائفةٌ منهم بإلهيّة عبيد الله، ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا؛ وقالت طائفةٌ منهم بإلهيّة أبي الخطّاب بن أبي زينب بالكوفة، وكثر عددهم بها، ثمَّ قالت طائفةٌ منهم

بإلهيّة مُعمَّر، بائع الحنطة بالكوفة، وعبدوه؛ وكان من أصحاب أبي الخطاب، لعنهم الله أجمعين»[1777]. وكذلك نرى ابن أبي زكريا الطّمّامي، مهدي القرامطة، قد ادّعى الرّبوبية[1778].

وقد استطاع الفاطميّون، وهم سادة القرامطة منذ عهد طويل، أن يستغلُّوا فكرة ظهور المهدي بمقدرة وتوفيق لم يتهيأ لهم من بعد. وما أشبه الفاطميّين بالنّسبة للقرامطة في تفوّقهم عليهم وبلوغهم ما بلغوه من الانتفاع بهذه الفكرة، بجبال الألب السّوداء في وقوفها شامخة وراء تلاع «جورا» Jura الخضراء. وإن رجوع موجة سلطان العرب نحو المشرق ودخول الخليفة الفاطميّ القاهرة، ومعه توابيتُ أجداده، لهو أغرب وقائع ذلك العصر المضطرب. وفي ذلك العهد كأنما «قد طلعت الشّمس من مغربها»[1779].

وإنّ قيام دولة الفاطميّين لهو أهم الحوادث السّياسيّة في القرن الرّابع الهجريّ، ولم يكد يمضي قرن على ظهور أول مهديٍّ لهم، أي أنه لم تكد تأتي سنة 360 هـ - 970 م حتى امتدّ سلطان الفاطميّين على أفريقيا الشّمالية كلها وعلى الشّام، وحتى بلغ نهر الفُرات. وكان لهم «دعاة منبثّون في كلِّ صقع وناحية»[1780]. ولقد قال الخليفة المُعِزّ في كتابٍ كتبه لأحد قوّاد القرامطة عام 362 هـ - 972 م: «وما من جزيرةٍ في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حججٌ ودعاةٌ يدعون إلينا، وينشرون علمنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن»[1781].

وكان القرامطة يطيعون أمرهم، وكانت بلوخستان تعترف لهم بالسّيادة، فيجمعون ببلادهم أموالاً وذخائر كثيرةً، ويقولون إنها للإمام المُعِزّ لدين الله[1782]. ولما قدم الهَمَذانيّ الأديب الشّاعر حوالي عام 380 هـ على جُرجان في أقصى الشّمال من فارس - وكان الهَمَذانيّ رجلاً يعرف دائماً أين تكون القوة الكبرى والمال الأوفر - أقام هناك مدَّة على مداخلة الإسماعيلية[1783].

بيد أنّ الفاطميين لم يأتوا بشيءٍ جديد من النّاحية الرّوحيّة، وقد فاتهم أنّ الذي يحدّد مدّة أجل العروش هو الرّوح لا كثرة عدد الجنود، فلم تكد تمضي عشرون سنةً على بلوغ دعوتهم ذروتها في أيام المُعِزّ، حتى «تناقص أمرُ المذهب، وقلّ الدّعاة له، حتى إني لا أرى من الكتب المصنَّفة فيه شيئاً... هذا ما أعلمه في هذه البلاد، وقد يجوز أن يكون الأمر على حاله بنواحي الجبل وخُراسان، فأمّا ببلاد مصر فالأمر مشتبه، وليس يظهر من صاحب الأمر المتملّك على الموضع شيءٌ يدلّ على ما كان يُروى من جهته وجهة آبائه»[1784].

أمّا مذهب الإسماعيليّة في القرن الرّابع الهجري فلا نعرف عنه إلا القليل، وأكبر مصدرٍ يرجع تاريخه إلى ذلك العهد، هو ما حكاه أخو محسِن، وحفظه لنا النّويريّ والمقريزيّ، وترجمه دى ساسي[1785]؛ وهو كتاب مطعون في مصدره، لأنه مأخوذٌ من كتابٍ في الرّد على الإسماعيليّة لابن رزَّام، وقد أوجس ابن النَّديم صاحب الفِهْرِسْت خيفة من النّقل عن هذا الكتاب[1786]. وكذلك يعدّ المقريزي أن هذا الكتاب مزيج من الحق والباطل. أما النّصوص التي نشرها غويار Guyard فلا نعرف تاريخها حتى الآن؛ ولا يكفي مجرّد ذكر أسماء القدماء فيها لإثبات تاريخها، لأن الانتحال في الكتب كان على أشدّه بين جميع هذه الفرق. وإن معظم الكتب المنسوبة لعبدان قد وضعت في القرن الرّابع؛ وأكثرها منحولة إليه[1787].

غير أنّ المهم هو ما نجده عند الشهرستاني من أن بين الإسماعيلية في القرن الرّابع الهجري وبين متأخّريهم في القرن الخامس الهجري فارقاً كبيراً، وأننا يجب أن نفرّق بين اعتقاد الخليفة المُعِزّ وبين اعتقاد «شيخ الجبل» تفريقاً تامًّا. وممّا يلاحظ أن ابن حَزْم يكاد يسكت عن الإسماعيليّة سكوتاً تامًّا يدعو إلى الاستغراب، وهو يكتفي بأن يقول إنهم والقرامطة طائفتان خارجتان عن الإسلام بالكلّيّة وقائلتان بالمجوسيّة المَحضة[1788]. وكذلك سكت عنهم أبو العلاء في رسالة الغفران، فلم يقل إلا قليلاً جداً، ولعلّ وجوده على مقربةٍ من سلطانهم هو الذي أمسك لسانه عنهم. فليس عندنا إذن معلومات نثق بصحّتها فيما يتعلّق بهم إلا عند ابن النَّديم صاحب الفِهْرِسْت، وهو يذكر أنه كان عندهم سبع درجاتٍ من الأتباع - خلافاً لما ذكره أخو محسن من درجاتٍ تسع - ولكلّ طبقة كتابٌ يسمّى بالبلاغ، والبلاغ الأوّل للعامة، والثّاني لمن فوقهم قليلاً، ثم يُعطى بعد ذلك بلاغا كلما طال بقاؤه سنة أخرى. لكنّ ابن النَّديم لم يحدِّد متى يبلغ الإنسان الدّرجة السّابعة؛ وهو يقول إنه قرأه فوجد فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشّرائع وأصحابها[1789].

وكانت هذه الفرقة في ذلك العهد يستعملون التّأويل، حتى إن أحد القرامطة الأثرياء كان يُجري رزقاً على أبي زيد البَلْخي (توفي عام 322 هـ - 933 م)؛ فلما ألّف أبو زيد كتابه المسمّى البحث في التّأويلات قطع الحسين عنه ما كان يُجريه عليه[1790].

وإن ما نراه عند هذه الفرق من تصوُّر الدّين بأنه معرفة الله معرفة عقليّة، ومن تقسيم النّاس طبقاتٍ بحسب درجتهم في المعرفة، ثم ما نجده في كتب من جاء بعدهم من عنايةٍ وتدقيق في بيان اثنيْنيّة العوالم وتوازيها، كل هذا يشير مرَّة أخرى إلى مذاهب الغنوصيِّين القدماء.

ويتّهم ابن النَّديم صاحب الفِهْرِسْت مؤسِّسي مذهب الإسماعيلية، بأنهما كانا على مذهب الدّيصانية[1791]. ونستطيع أن نردَّ مذهب الإسماعيلية بأجزائه إلى مذهب المُعتزلة والإماميّة، وهذا بعينه هو الذي ساعدهم أن يضيفوا إلى مذهبهم كل ما ليس عبَّاسيا ولا سُنِّياً[1792].

غير أنّ هؤلاء القوم أحدثوا شيئاً جديداً، وهو التزام الخطّة المرسومة والاشتداد في اتباعها؛ وللشّرقيّ فهمٌ خاص في ذلك، إذا كانت الخطة ذات ظاهرٍ دينيّ؛ وقد استخدمها الحسين الأهوازي الدّاعي الفاطمي في إدخال حمدان قِرْمِط في المذهب، على صورةٍ تمثّل النّموذج الذي احتذاه أولئك القوم في دعوة النّاس إلى رأيهم. يقول المقريزي: «لمّا خرج الحسين الأهوازي داعية إلى العراق لقي حمدان بن الأشعث قِرْمِط بسواد الكوفة، ومعه ثورٌ ينقل عليه، فتماشيا ساعة، فقال حمدان للحسين: إني أراك جئت من سفرٍ بعيد وأنت مُعْيٍ، فاركبْ ثوري هذا؛ فقال الحسين: لم أومر بذلك؛ فقال له حمدان: كأنك تعمل بأمرٍ أمر لك، قال: نَعم، قال ومن يأمرك وينهاك؟ قال: مالكي ومالكك ومن له الدّنيا والآخرة؛ فبُهت حمدان قِرْمِط يفكر؛ ثم قال: يا هذا! ما يملك ما ذكرته إلا الله؛ قال: صدقت، والله يهب ملكه لمن يشاء، ثم بدأ يدعوه، وصار الحسين معه إلى منزله، وأقام به. وكان الحسين على غاية ما يكون من الخشوع، صائماً نهاره، قائماً ليله؛ فكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة؛ وكان يخيط لهم الثّياب ويكتسب بذلك، فكانوا يتبرَّكون به وبخياطته»[1793].

وهذه الفرقة، التي أدمجت في مذهبها كثيراً من المذاهب القديمة التي كانت في العراق، استعملت طريقة الكتابة على الطّين؛ فكان دعاة القرامطة يعطون أتباعهم خواتيم من طينٍ أبيض كُتِبَ عليها مثلاً: محمّد بن إسماعيل الإمام المهديّ وليّ الله[1794]. وممّا استُحدث أيضاً في دولة الفاطميّين أنها أوجدت هيئةً شبيهة بالكهنوت، تعترف بهم رسمياً وتعطيهم أرزاقاً، وهو ما لم يحدث قط في الإسلام، وهم المسمَّون الدُّعاة الذين أصبحوا أشبه بالقسّيسين، ورئيسهم الأعلى الذي يشرف عليهم يُسمَّى داعي الدُّعاة، وهو أكبر أصحاب الدّرجات بينهم[1795].

غير أنّه كلما زاد عدد من يدّعي المهديّة والألوهيّة أصبح ادّعاء النّبوة شيئاً قديماً. ومنذ قرنٍ ادّعى بعض الجهال النّبوة فكانوا موضعاً للتّندّر والاستهزاء. وفي أخبار الخليفة المأمون أحاديث له مع كثير من المتنبّئين. أما في القرن الرّابع فتجد بين الحين والآخر من يظهر بدعوى النُّبوّة في إقليمٍ من الأقاليم.

ففي عام 322 هـ - 934 م، ظهر بباسند من أعمال الصّغانيان - وهي المشهورة بالتُّقى والصّلاح - رجلٌ ادّعى النّبوة؛ فكان يدخل يده في حوض ملآن بالماء ويخرجها مملوءة دنانير، إلى نحو ذلك. ولما كثر جَمْعُه وخِيف شرُّه أنفَذَ إليه الحاكم جيشاً، فقتلوه[1796].

وتنبأ رجلٌ بمدينة أصفهان حوالي عام 325 هـ، فسُئل عن آيته وحجّته، فقال: من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة، فليحضرها إليّ، أحبلها بابن في ساعة واحدة؛ فقال والي الخَراج: أما أنا فأشهدُ أنك رسول الله، واعْفِني من ذلك! وقال له رجل: نساءٌ ما عندِنا، ولكن عندي عنزٌ حسناء، فأحبِلْها إليّ، فقام يمضي فقيل له: إلى أين؟ قال: أمضي إلى جبريل، وأُعرِّفه أن هؤلاء يريدون تَيْساً، ولا حاجة بهم إلى نبيّ، فضحكوا منه وأطلقوه[1797].

وقد لُقِّب الشّاعر أبو الطّيب المتنبِّي (توفي عام 354 هـ - 965 م) بالمتنبِّي، لأنه ادّعى النّبوة.

إلا أنّ هذا القرن لم يَخْلُ من قوم تنكّبوا عن الدّعوى العريضة، واكتفوا بأن يكونوا عابدين لله خاشعين، يبتغون شيئاً فوق العبوديةً له، الواحد منهم لا يخرج إلا يوم الجمعة للصّلاة[1798].

ولقد آلى أبو العلاء المَعَرِّي الشّاعر (توفي عام449 هـ - 1057 م) على نفسه ألا يترك بيته أبداً. وكان كثيرٌ من عبَّاد ذلك العصر مأواهم المسجد[1799]. ويُروى أن الخليفة القادر كان يقسم الطّعام الذي يُهيَّأ له ثلاثة أقسام، فيترك قسماً بين يديه، ويأمر بحمل القسمين الآخرين، ليُفَرَّقا على المجاورين في جامِعَيْن ببغداد[1800].

وفي سنة 384 هـ - 944 م توفّي أبو العبّاس الزّاهد، وكان طيلة سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى مخدّة[1801].

ويروي الحجويري أنه لقي بخُراسان رجلاً من الصّالحين، مضت عليه عشرون سنة لم يجلس إلا للتّشهد في الصّلاة؛ وسئل في ذلك فقال: ليست لي هذه الدّرجة بعد، حتى أجلس، وأنا أشاهد

الحق[1802].

ويُروى عن آخر أنه لم يُعرف له فراشٌ أربعين سنة[1803]. وكذلك بنى آخر قبراً لنفسه بجنب بِشْر الحافي؛ وكان يمضي إلى ذلك الموضع، فيختم فيه القرآن[1804].

ويُروى عن الصَّفّار الأصبهاني (توفي عام 339 هـ - 950 م) أنه لم يرفع رأسه إلى السّماء نيفاً وأربعين سنة[1805].

وفي سنة 336 هـ - 947 م توفيت بمكّة ابنةُ أحد الصّالحين، وكانت وَرِعةً عابدة، وكانت تقتات طول عامها من ثلاثين درهماً يُنفذها لها أبوها[1806].

وفي سنة 348 هـ - 959 م توفّي أحد العلماء، وكان يصوم الدّهر ويفطر كل ليلةٍ على رغيفٍ ويترك منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة تصدّق بذلك الرّغيف وأكل اللّقم التي استفضلها[1807].

وفي سنة 404 هـ - 1013 م توفي ابن البغدادي الزّاهد العابد، وكان يخرج إلى النّاس، وقد انشقّت رأسه أو انفتحت جبهته؛ لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة، وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو قدح أو شيء من الأشياء موضوع، فإذا غلبه النّوم سقط على ما يكون بين يديه، فيؤثّر في جبهته أثراً؛ وكان لا يدخل الحمّام، ولا يحلق رأسه، لكن يقصّ شعره إذا طال بالجلم. وكان يغسل ثيابه بالماء حَسْبُ من غير صابون[1808].

وكان أبو بكر بن إسحاق (توفي عام 342 هـ - 935 م) يبكي، وربّما ضرب برأسه الحائط حتى تكاد تدمي رأسه[1809]. ويُروى عن البيهقي (توفي عام 458 هـ - 1066 م) أنه كان يصوم الدّهر قبل أن يموت بثلاثين سنة[1810].

وذُكر في عداد العُبَّاد أيضاً جماعة من أشدّ المدقّقين في مراعاة أحكام الشّريعة؛ فيُروى عن ابن يوسف الجويني (توفي عام 438 هـ - 1046 م) أنه كان وَرِعاً زاهداً، ومن ورعه أنه ما كان يستند في داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه، ولا يدق فيه وتداً، وكان يحتاط في أداء الزّكاة، حتى كان يؤدي الزّكاة في سنة واحدة مرتين حذراً من دفع الزّكاة إلى غير المستحق[1811].

وتوفي في عام 494 هـ - 1101 م أحد الزُّهّاد، وكان لا يأكل الأرُزّ لأنه يحتاج - إذا زُرِع - إلى ماءٍ كثير، وصاحبُه قلَّ ألّا يظلم غيره في سقي الماء[1812].

ويُروى عن والد إمام الحرمين الجوينيّ أنه كانت عندهم جاريةٌ مُرضعة للجيران، فأرضعته مَصَّة أو مصَّتَين، فأنكر أبوه ذلك، وقال: هذه الجارية ليست لنا، وأصحابُها لم يأذنوا بذلك؛ فقَلَبَ ابنه وفوّعه، حتى لم يَدَعْ في باطنه شيئاً إلا أخرجه[1813].

وكذلك جلس على عرش الخلافة بمصر خليفةٌ أراد حيناً من دهره أن يعيش على طريقة الزُّهّاد الأوّلين من المسلمين، وأن يطرح الدّنيا وشؤونها بعيداً، وهو الحاكم بأمر الله؛ ففي حوالي عام 400 هـ - 1009 م أغلق مطبخ دار الخلافة، واكتفى بأكل ما ترسله له أمُّه؛ ومنع النّاس من بوس اليد، ومن مخاطبته بمولانا، وربَّى شعره، وصار يختلط بالنّاس بلا مظّلة وأسقط الألقاب وجميع الرّسوم والمُكُوس المستحدثة، وأعاد للنّاس كلّ ما كان أخذ من أملاكهم وعقارهم في عهده أو عهد جدّه بمصادرةٍ أو بغير حق، وفي محرّم من عام 400 هـ أعتق سائر مماليكه من الإناث والذّكور، وحرّرهم جميعاً لوجه الله تعالى، وملّكهم أمر نفوسهم. وكان قبل ذلك قد أخرج من قصره جماعةً من خطاياه وأمهات أولاده، بل غرّق بعضهن في صناديق سُمِّرت عليهن، وُأثقلت بالحجارة وأُلقيت في النّيل، وذلك رفضاً منه للذّة الجسدية. وكان وليُّ عهدِه يركب بمراكبِ الخلافة المرصعة، وعليه لباسها، والحاكم يركب على حمارٍ بسرجٍ ولجامٍ من حديد، وعليه ثيابٌ صوف بيضٌ ثم سود، وفوطةٌ زرقاء، وعمامةٌ سوداء[1814].

وكثيراً ما يُروى لنا خبرُ قوم غيَّروا مجرى حياتهم رأساً على عقب، فآثروا الإعراض عن الدّنيا ومشاغلها.

فيُروى عن أبي محمّد إسماعيل الذي برع في العلم والأدب وعلوم اللّسان وأخذ عن الجوهريّ، أنه آثر الإعراض عن الدّنيا، وأزمع الحج والزّيارة، وقد سأل الثّعالبيّ ألّا يوردَ في كتابه شيئاً من شعره في الغزل والمدح[1815].

ويُروى من خبر أبي جعفر البحّاث، أنه قال قصيدة في الشّباب والمشيب، والحياة والموت، منها:

شبابٌ كلامع برقٍ رحلْ	وشيْبٌ كمثل غريم نزلْ

ويختم قصيدته بالتّوجّع لما مضى مسلّماً مرّات كثيرة على عادة شعراء هذا الطّراز [1816]:

سلامٌ على الكتب ألّفتها	ووشَّحتها بصحاح العلل
سلامٌ على مِدَحٍ صغتها	وحبّرتها في الليّالي الطّول
سلام امرئ ما اشتهى لم يجد	وما رام مجتهداً لم ينَلْ
أناب إلى ربه تائباً	ومستغفراً للخطا والزّلل

وكثيراً ما كان انقلاب النّاس فجأة سببه سماعهم آياتٍ من القرآن لا يظهر لها في رأينا هذا الأثر الكبير.

فيُروى عن جعفر بن حرب (توفي عام 349 هـ)، وكان يتقلّد كبار الأعمال للسّلطان، وكانت نعمتُه تقارب نعمة الوزارة، أنه اجتاز يوماً راكباً في مركب عظيمٍ له، فسمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} (سورة الحديد آية 16) فصاح: اللّهم بلى! وكرَّرها دفعات، وبكى، ثم نزل عن دابته، ونزع ثيابه، ودخل إلى دجلة، واستتر بالماء، وفرَّق جميع ماله؛ فاجتاز رجلٌ، فوهب له قميصا ومئزراً، فاستتر بهما وخرج[1817].

ولكننا نرى، خلافاً لذلك، آخرين لا يلتفتون إلى التّأهب لاتّقاء شدائد يوم المعاد إلا في آخر عمرهم؛ فيُروى عن نصر بن أحمد السّاماني (توفي عام 310 هـ - 942 م) أنه في مرضه الطويل الذي مات فيه بنى لنفسه بيتاً أمام باب القصر، وسمّاه «بيت العبادة»، وكان فيه يصلّي ويدعو ويتضرَّع وهو في لباس التّوبة[1818].

ويُروى أيضاً عن السُّلطان مُعزّ الدّولة (توفي عام 356 هـ - 966 م) أنه لمّا اشتدّت به العلة وأحسَّ بالموت، أظهر التّوبة، وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء، وسألهم عن حقيقة التّوبة، وهل تصحّ له؟ فأفتوه بصحّتها، ولقّنوه ما يجب أن يقول ويفعل؛ فتصدّق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه[1819].

وكان الحجّ في تلك العصور، بسبب ما كان في الطّرق العربية من المخالفات وقلّة الأمن غير ممكن أحياناً. فمنذ خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحجّ وإيقاعهم حتى بقافلة السُّلطان[1820] صار الحاجّ يدفعون مَكْسَاً للأعراب ليسمحوا لهم بالمرور آمنين. وفي سنة 385 هـ أرسل إلى الأُصيفر أمير العرب تسعة آلاف درهم عوضاً عمّا كان يأخذه من الحجيج[1821]. وكان بعض الأمراء يدفعون أيضاً مالاً من عندهم لتأمين طريق الحجيج، إلى جانب ما كانت تدفعه حكومة بغداد؛ فكان أمير الجبل حوالي عام 386 هـ - 996 م يبعث أيضاً خمسة آلاف دينار في كل عام[1822]. وفي سنة 384 هـ - 994 م خرج الحجيج إلى مكّة، فاعترضهم الأُصيفر الأعرابي، ومنعهم من الجواز، وذكر أن الدّنانير التي أرسلها السُّلطان عام أوّل كانت دراهم مطليّة وأنه لا يفرج لهم عن الطّريق إلا بعد أن يعطوه رسمه لسنتين؛ وطالت المخاطبة والمراسلة حتى ضاق الوقت على الحجّاج، فرجعوا[1823]. وفي سنة 421 هـ - 1030م لم يخرج من العراق إلا قومٌ ركبوا من الكوفة على جمال البادية، وتخفّروا من قبيلةٍ إلى قبيلة، وبلغت أجرة الرّاكب إلى أربعة دنانير[1824].

وكان الحجيج في أوقات السّلام والأمن يعانون الشّدائد المخيفة بسبب قلّة الماء في الصّحراء حتى بالنّسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب؛ ويشبّه ابن المُعتزّ صاحب السّوء الذي لا بدّ منه، بماء طريق الحج[1825].

وكثيراً ما نقرأ في تراجم المسلمين هذه العبارة المؤلمة، وهي أن يقال: «ومات في طريق الحج».

وفي عام 295 هـ - 907 م أصاب الحجّاج في مُنصرفهم ببعض الطّريق عطشٌ، حتى مات منهم جماعة، وقيل إنّ الرّجل كان يبول في كفّه ثم يشرب[1826].

وفي سنة 402 هـ - 1011 م بلغ ثمن القربة من الماء مئة درهم[1827].

وفي عام 403 هـ - 1012 م سبق بعض الأعرابُ الحجّاج إلى مواضع الماء، فنزحوها، وغوّروها، وطرحوا الحنظل في الآبار وترصّدوا الحجّاج، ومنعوهم من الاجتياز؛ وقيل إنه هلك منهم خمسة عشر ألفاً، وكوتب عامل الكوفة - وكان عليه أن يحفظ طريق الحجيج[1828]، فلحق بهم في البرّية وأوقع بهم وقتل كثيراً منهم، وأسر خمسة عشر من وجوههم، وأرسلهم إلى بغداد، فشُهروا هناك، وأودعوا الحبس، وأُجيع منهم جماعة وأُطعموا المالح، وتُركوا على دجلة، حتى شاهدوا الماء حسرة، وماتوا عطشاً.

وتم الظّفر بعد سنتين ببني خفاجة الذين كانوا أضرّ النّاس بالحجّاج في ذلك العهد، فأُفلت من في أسرهم من الحجّاج، وكانوا قد جعلوهم رُعاةً لأغنامهم، فعادوا، وقد قُسمت تركاتهم وتزوّجت نساؤهم[1829].

وفي سنة 405 هـ - 1014 م هلك من الحجيج كثيرون، وكانوا عشرين ألفاً، فسلم ستة آلاف، وقد اشتدّ الأمر بهم، حتى شربوا أبوال الجمال، وأكلوا لحومها[1830].

وكانت سيول الأنهار الصّغيرة التي تنشأ عن المطر في الصّحراء تصيب الحجّاج أيضاً ببعض الأذى، ففي سنة 349 هـ - 960 م «انصرف حجّاج مصر فنزلوا في وادٍ بمكّة، فلما كان بالليل حملهم الوادي، وهم لا يشعرون، فغرق أهل مصر، وكانوا عدداً كبيراً، وكنسهم الماء مع أمتعتهم إلى البحر»[1831].

وكان المفرطون في الصّلاح والعبادة يحجّون سيراً على أقدامهم، ويُروى عن أحد العُبّاد أنه كان في طريق الحج يصلّي عند كل ميل ركعتين[1832]. وكانت من عادة الصُّوفية أن يخرجوا في هذا السّفر الطّويل متوكّلين بلا زادٍ ولا مال.

وعلى عكس هؤلاء كان هناك قوم يأخذون أجراً نظير قيامهم بالحج بَدَلَ من يَأْجُرهم على ذلك، وفي هؤلاء يقول البِشاري المقدسي: «ورأيتُ مَن حجّ بأُجرة انتكس قلبه؛ فإن عاد ازداد نكوساً، وقلّ ورعُه، حتى ربّما أخذ الحجّتين والثّلاث، ولم أرَ لهم بركة، ولا جمعوا منه مالاً قط»[1833].

وكانت عودة الحجّاج عيداً كبيراً، فكان الحجّاج يبيتون بالياسريّة، إحدى ضواحي بغداد، ثم يبكّرون لدخول بغداد[1834]. وكان الخليفة يستقبل الحجّاج العائدين الذين يمرّون ببغداد في طريقهم إلى المشرق، ففي عام 391 هـ - 1000 جلس الخليفة القادر بالله وقرئ في هذا الحفل العظيم على رؤوس الملأ كتابُ تقليد ولي العهد[1835].

وكان ثمّة أماكن مطهّرة في كثير من الجهات من شأنها أن تأخذ نصيباً من مجموع الحجّاج الذين يقصدون مكّة؛ وممّا له دلالته أنّ البعض كان يزعم أن سبع زورات لمسجد يونس قرب نينوى القديمة يعدلن حجَّةً؛ ولا شك في أن المشاهد التي هي أهم من مسجد يونس تكون زياراتها التي تعادل حجّة أقل من ذلك[1836]. ونرى مدينة بيت المقدس بوجهٍ خاص قد استفادت في هذه الظّروف الجديدة ممّا كان لها منذ عهدٍ طويل من مزايا تجذب النّاس إليها. ويحدّثنا الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني، في القرن الخامس الهجري، أنه في وقت الحجّ كان النّاس، الذين لا يستطيعون الذّهاب إلى مكّة من سكان الشّام وأطرافها، يقصدون بيت المقدس في موسم الحج، وكان يجتمع بها أكثر من عشرين ألف إنسان في بعض السّنين، وكانوا يحملون أبناءهم ويؤدّون السُّنّة[1837].

ويُروى لنا أيضاً إنشاء نماذج للأماكن المكرّمة، فقد رُوي عن الخليفة المتوكّل في القرن الثّالث الهجري أنه بنى بمدينة سامُرّا كعبةً، وجعل هناك طَوَافاً، واتخذ منًى وعرفات ليغرَّ بذلك أمراء كانوا معه، لما طلبوا الحجّ، خشية أن يفارقوه[1838].

وكان في ذلك العصر بين بعض الصُّوفية معارضة قوية للحجّ بالإجمال. ويُروى عن أحد الصُّوفية الأوّلين أنه أمر أحد الحُجّاج بالرّجوع عن الحج والقيام بحقوق أُمِّه[1839]. ويُؤثر عن صوفي توفي

عام 319 هـ - 931 م أنه قال[1840]: «عجبتُ لمن يقطع البوادي والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه، لأن فيه آثار أنبيائه، كيف لا يقطع نفسه وهواه، حتى يصل إلى قلبه، لأن فيه آثار مولاه!».

ويُذكر لأبي حيّان التّوحيدي، وكان صوفيًّا على مذهب المُعتزِلة، أنه ألّف حوالي عام 380 هـ - 990 م «كتاب الحجِّ العقليّ إذا ضاق الفضاء عن الحجِّ الشّرعي»[1841]. ويُروى أن الوزير نظام الملك في القرن الخامس الهجري استأذن السُّلطان في الحج، فأذن له، وفي الطريق جاءه فقيرٌ تلوح عليه سيما القوم (الصُّوفية)، وأعطاه رقعة مطويَّة كان فيها: رأيت النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم، وقال لي: اذهب إلى الحسن، وقل له: أين تذهب إلى مكّة؟ حجُّك ها هنا، أما قلتُ لك: أقم بين يدَيْ هذا التُّركي، وأَعِن أصحاب الحوائج من أمتي؟[1842].

ويقول الحجويري نفسه في القرن الخامس الهجري وهو مثال الصُّوفية المعتدلين: «من كان غائباً عن الله في مكّة كمن كان غائباً عنه في بيته؛ ومن كان حاضراً مع الله في بيته فهو كمن كان حاضراً معه في مكّة»[1843].

ويخيّل للإنسان أن طوائف المثقّفين صاروا يجعلون لزيارة المدينة شأناً أكبر.

ويُروى أنّ البُخاري صنّف كتابه في التّاريخ عند قبر الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم[1844]. ويقول أبو محمّد النّيسابوري الذي أخذ عن الجوهري[1845]:

ملكتُ سواد عيني أمتطيه	أتيتُك راجلاً ووددْتُ أني
إلى قبرٍ رسولُ الله فيه	ومالي لا أسير على المآقي

ويُروى عن وزير كافور الإخشيدي، أنه اشترى داراً بالمدينة إلى جانب المسجد من أقرب الدّور إليه وأوصى أن يُدفن فيها[1846].

ويُروى عن الوزير أبي شجاع (توفي عام 488 هـ - 1095 م) أنه «مات، وهو أحد خُدَّام روضة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يكنس المسجد، ويفرش الحصر، ويشعل المصابيح»[1847].

وكذلك لم يهمل النّاس واجب الجهاد، واعتنوا به جادِّين على عادتهم دائماً؛ وقد أراد كثيرٌ من المؤمنين الصّالحين أن يدخلوا الجنّة من باب الجهاد في سبيل الله، فكان غزاة المسلمين من كلّ بلدٍ وناحية يتدفقون كالسّيل إلى مدينة طَرَسوس؛ وكانت قاعدةً حربيّة تلي حدود الرُّوم، وهم أعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلاً بعد جيل؛ كما كانت تَرِد على تلك المدينة صِلاتُ أهل البرّ وأرباب النّعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم، يقول ابن حَوْقَل: «ليس من مدينةٍ

عظيمة من حدّ سِجِسْتان وكرمان... إلى مصر والمغرب إلا وبها (طرَسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاةُ تلك البلدة، وتَرِدُ عليهم الأموال والصّدقات العظيمة الجسيمة، إلى ما كان السّلاطين يتكلفونه، وينفذونه متطوِّعين متبرِّعين»[1848].

وكان أهل الثّغور يُكرَمون في بغداد؛ ويروي القالي اللغوي المشهور (توفي عام 356 هـ - 967 م) أنه سُمِّي القالي، لأنه لمّا انحدر إلى بغداد كان في رفقةٍ فيها أهل قالي قلا، وهي قريةٌ من قرى منازجرد بأرمينية[1849]. وكثيراً ما كان من الحِيَل التي يلجأ إليها بعض المُكَدِّين والتي يجنون منها المال الوفير، أن يسيروا مخادعين للنّاس بدعوى جمع المال للجهاد أو لفكِّ الأسرى؛ وكثيرٌ من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون الدّواب كالغُزاة[1850].

وكانت ثغور مصر المسمّاة بالمواحيز يعمرها أهل الدّيوان والمطَّوِّعة؛ وكانت أحباس السّبيل التي يتولاها القُضاة تُجمع في كلِّ سنة، فإذا كان شهر أبيب بعث القاضي ما اجتمع من أموال السّبيل، ففرِّقت على مواحيز مصر[1851]. وكانت بلاد ما وراء النّهر ثاني ناحية تلي طَرَسوس بخصوص وقوف أهلها للجهاد، فهم أكبر أهل الإسلام نصيباً في التّضحية وأعظمهم حظاً في الجهاد؛ يقول الإصطخري: «لا تجد في بلاد الإسلام أهلَ الثّروة إلا والغالبُ على أكثرهم صرفُ نفقاتهم إلى خاصّ أنفسهم في الملاهي وما لا يرضاه الله، إلا القليلَ منهم؛ وترى الغالبَ على أهل الأموال بما وراء النّهر صرف نفقاتهم إلى الرّباطات وعمارة الطّرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير». وكان في مدينة بيكَنْد بين بُخارى ونهر جيحون ما يقرب من ألف رباطٍ للغزاة المجاهدين[1852]؛ ويقال إنه كان بمدينة إسبيجاب ألفٌ وسبعمئة رباط يجد فيها أصحاب الحاجة طعاماً لهم وعلفاً لدوابهم[1853].

وكانت رغبة الخُراسانيين في الجهاد وحميّتهم له سبباً في سيرهم إلى الجبهة الغربية في مملكة الإسلام، وذلك عندما توالى ظفرُ الرُّوم في مهاجمة بلاد الإسلام؛ ففي عام 355 هـ خرج من خُراسان قومٌ يُظهِرون أنهم غزاة، وكان عددهم نحواً من عشرين ألفاً؛ وساروا حتى بلغوا الحدود الشّرقية لدولة بني بُوَيْه، بَيدَ أن سيرتَهم لم تكن سيرة الغزاة، فلم يكن لهم رئيسٌ واحد، بل كان لأهل كلِّ بلد من بلادهم رئيس، وقد اجتمع رؤساؤهم إلى الوزير، وخاطبوه أن يسأل الأمير ركن الدّولة أن يطلق لهم مالاً يستعينون به على أمرهم؛ فإذا هم يطمعون في شيء كثير، وقالوا: «نحتاج إلى مال خَراجِ هذه البلاد كلها التي في أيديكم، فإنكم إنما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبةٍ أن تأتيهم، ولا نائبةَ أعظمُ من طمع الرُّوم والأرمن فينا، واستيلائهم على ثغورنا، وضعف المسلمين عن مقاومتهم»؛ وسألوا مع ذلك أن يخرج معهم جيشٌ ينضمُّ إليهم، فلما لم تُجب مطالبُهم شغبوا، فكانوا يكفّرونهم ويلعنونهم؛ وكان ذلك في شهر رمضان، فكانوا يخرجون ليلاً، ومعهم آلاتهم من السّيوف والحراب والسّهام، ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف، فيسلبون العامّة مناديلهم، ويضربون بطبولهم الليل كله ويتواعدون القتال؛ فلما أصبحوا باكروا الحروب، وهجموا على دار الأستاذ ابن العميد، فكسرهم؛ ثم كثروا عليه، حتى طعنه أحدهم فجرح ساعِدَه، واضطر أخيراً إلى أن يرجع إلى دار الإمارة؛ واشتغل الخُراسانية بنهب داره وإسطبلاته وخزائنه حتّى أتى الليل، فانصرفوا؛ فلما رجع الوزير إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه. ثم استفحل أمر هؤلاء الخُراسانية وقويت نفوسُهم، لكنّ الوزير وركن الدّولة تمكنّا من هزيمتهم، حتى انصرفوا

«ولو أنهم خرجوا بالمال الذي كان لهم لبلغوا من الرُّوم كل مبلغ، ولكرَّ غزاة المسلمين معهم، ولله أمر هو بالغه»[1854].

* * *

قيل لعبد الملك بن مروان: أسرع إليك الشّيب، فقال: كيف لا، وأنا أعرض عقلي في كلّ جمعةٍ على النّاس، وقيل: نِعْم الشّيء الإمارة، لولا قعقعةُ البريد وصعوبة المنبر[1855]. وكان ارتقاء المنبر في كلّ أسبوع للخُطبةِ في النّاس واجباً شاقًّا حتى على كبار الأمراء؛ لأنه يخرج بهم عمّا اعتادوا من صناعة السّيف دون صناعة اللّسان والكتب، ويُروى عن أحد الولاة أنه خطب، فذكر أبياتاً للشّعراء في الوعظ، وقدم لها بقوله: قال الله عزّ وجل في كتابه[1856].

وكان الرّشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلامِ غيره؛ فيُروى أنه استدعى الأصمعي اللّغوي لتأديب ولده محمّد، وقال: أريد أن يصلّي بالنّاس إماماً في يوم جمعة[1857].

وفيما يتعلّق بهذه النّاحية قليلة الشّأن من نواحي الحياة الدّينية، نرى أنه في القرن الثّالث الهجري قد انقطعت العادة الإسلاميّة التي جرى عليها الإسلام في عهده الأول؛ فترك الخُلفاءُ والولاةُ الخُطبةَ في الجمعة، وعهدوا بذلك إلى خُطباءَ ندبوا لذلك واختصّوا به[1858]، حتى إنه يُروى عن الخليفة المهتدي (255 – 256 هـ = 866-867 م)، أنه كان يحضر كلّ جمعة إلى المسجد الجامع، فيخطب النّاس ويؤمّ بهم[1859]. وفي عام 279 هـ صلّى الخليفة المعتضد بالنّاس صلاة الأضحى، ولم يُسمع منه خُطبة[1860]. ولم يكن الخليفة يخطب إلا في الأعياد. ويُروى عن الخليفة الرّاضي بالله (334-363 هـ = 945-974 م) أنه لمّا عزم على الصّلاة بالنّاس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله[1861]. وقد رُويت لنا الخُطبة التي قالها الخليفة الطّائع بعده في عيد الأضحى سنة 362 هـ؛ وكانت خُطبة قصيرة أشار فيها بكلمةٍ أو كلمتين إلى مسألة إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام، وكانت:

«الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، والذي صيَّرني إماماً منصوصاً عليه، الله أكبر الله أكبر، مُقِرًّا بجميل آلائه فيما أسنده إليَّ من حفظ الأمم وأموالها وذراريها وقمع بي الأعداء في حضرها وبواديها، وجعلني خير مستخلَفٍ على الأرض ومن فيها؛ الله أكبر، الله أكبر، تقرَّبا بنحر البدن التي جعلها من شعائره، واتّباعا لسنّة نبيه وخليله صلّى الله عليه في فدية أبينا إسماعيل؛ وقد أمر بذبحه، فاستسلم لإهراق دمه وسفحه، فتقرّبوا إلى الله في هذا اليوم العظيم بالذّبائح! الله أكبر الله أكبر، وصلّى الله على محمّد خيرته من خليقته، وعلى أهل بيته وعترته، وعلى آبائي الخُلفاء النُّجباء... وأيَّدني بالتّوفيق فيما أتولّى، وسدَّدَني من الخلافة فيما أعطى. وأنا أُخَوّفكم معشر المسلمين غرور الدّنيا، فلا تركنوا إلى ما يَبيد ويَفنى، وإني أخاف عليكم يوم الوقوف بين يدي الله غداً، وصحفكم تقرأ عليكم، أعاذنا الله وإياكم من الرّدى، واستعملنا وإياكم بأعمال أهل التّقوى، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين[1862].

أما الخُلفاء الفاطميّون فكانوا يعنون عناية كبرى بالمظهر الدّيني خاصّة، وكانوا يخطبون في كل جمعة من مسطورٍ يُحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء[1863]. وكان الخليفة الحاكم بأمر الله مثلاً

قبل بناء الجامع الحاكميّ يخطب في جامع عمرو جمعة، وفي جامع ابن طولون Ibn Tolûn جمعة، وفي الجامع الأزهر جمعة، ويستريح جمعة؛ فلما بُني الجامع الحاكميّ انتقلت الخُطبة إليه[1864].

ولم تكن خُطبة الجمعة عند المسلمين عِظَةً بالمعنى الأوروپيّ، بل كانت أشبه بطقس كنسيّ، فيها للخطيب من حرّية التّصرف ما لا يكون له في بقيّة مراسيم صلاة الجمعة. ولذلك كان لا يُنتظر من الخطيب أن يأتي في كل جمعة بشيء جديد. غير أنّه يُروى أن خطيب جامعٍ بنيسابور كان ينشىء في كل جمعةٍ خُطبةً جديدة[1865].

وكان أشهر خُطباء القرن الرّابع ابن نُباتة (توفي عام 374 هـ - 984 م)، خطيب سيف الدّولة بحلب؛ وديوان خُطبه أعظم مظهر تجلّى فيه فن الخطابة في ذلك العهد. وإذا كان في مأثور الرّوايات الإسلامية أن النّبي محمَّدًا محمد صلى الله عليه وسلّم كانت خُطبته قصيرة، ولم يكن كخُطباء العرب، فأقلّ مزايا ذلك أنه حفظ الإسلام من شيءٍ بغيضٍ ممجوج، وهو أن يكون دين ثرثرة للمتشدّقين. ويُروى عن عمار بن ياسر أنه قال: أمرنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم بإطالة الصّلاة وقصر الخُطبة[1866]. ولذلك كانت الخُطبة الكبرى عند ابن نُباتة لا تزيد عن الخمس دقائق[1867]. وتبدأ الخُطبة بحمد الله والصّلاة على النّبي في إيجاز، وبعدها يجلس الخطيب لحظةً قصيرة، ثم يقف لإلقاء الخُطبة الثّانية؛ وقصر البرهة بين هاتين الخُطبتين مضرب المثل. قال ابن حمديس الشّاعر في ذلك العصر يشكو قصر زمان لقاء الحبيب[1868]:

كأنّ زمانَ اللقاء منها	أقصرُ من جلسةِ الخطيب

ويختم ابن نُباتة خُطبه دائماً بآيات من القرآن، ثم يقول في آخر كل خُطبة عبارات ثابتة وهي: بارك الله العظيم لنا ولكم ولسائر المسلمين[1869]. وكان الدّعاء في الخُطبة الثّانية أقصر قليلاً ممّا هو عليه اليوم[1870]. وفي الخُطبة الثّانية كان من عادة الخطيب أن يحوّل وجهه إلى اليمين وإلى الشّمال عند الصّلاة على النّبي[1871]. وكان هذا الجزء من الخُطبة موضع احتفاءٍ وشعور خاص. وكان للصّلاة على النّبي شأنٌ كبير حتى نرى عند ابن نُباتة صوراً مختلفة للصّلاة يستطيع الخطيب أن يختار منها ما شاء[1872].

وفي وقت الحرب كان الخطيب يدعو للأمير بالنّصر بمثل هذا الدّعاء: اللّهمّ انصر الأمير فلاناً على أعدائك الكفرة البغاة، الفجرة الطّغاة، الذين صدُّوا عن سبيلك، وكذّبوا بتنزيلك، وآثروا خلاف رسولك، حتى لا يدع منهم فيلقاً إلا أهلكه، ولا سملقاً إلا سلكه، ولا دماً إلا سفكه، ولا هارباً إلا أدركه، ولا مغلقاً إلا فتحه ودكدكه، ولا حريماً إلا أباحه وهتكه، ولا عظيماً إلا أهانه وتملكه! اللهم انصره على أعدائك، ومكّنه من نواصيهم حتى يذلّهم وينزلهم من صياصيهم، ويؤدي إليه الجِزية بالصّغار دانيهم وقاصيهم[1873].

وكان قصر زمان الخُطبة لا يمكن الخطيب من شرح النّصوص. وكان للخُطبة منذ أول الأمر موضوعٌ واحدٌ لم تَحِدْ عنه، وهو الكلام في قرب زوال هذا العالم، وفي ترهيب النّاس بالموت والقبر وانقضاء الدّنيا بمجيء يوم القيامة؛ وهكذا تسير الخُطبة على نمطٍ سريع مثير للشّعور. ولم يكن الخُطباء يعنون بالكلام في شيء من لذّات الدّنيا وآلامها التّافهة؛ ومن كانت النّار لها وراءه زفيرٌ وشهيق، فإنه لا يلتفت للأزهار التي يراها في طريقه، ويُروى عن عليّ ابن أبي طالب أنه قال في إحدى خُطبه الحماسيّة: «الفرار الفرار؟ النّجاة النّجاة؟ العدوّ وراءكم جادٌّ في طلبكم، يسعى حثيثاً ليُدرككم». فأما وصف نعيم الجنّة وعذاب النّار فكان قليلاً بالنّسبة لما كان الخُطباء فيه. وقد تركّزت بلاغتهم الملتهبة في وصف يوم الصّاخّة. وكان جديراً بقوم كانوا يعيشون في هذا العصر أقرب إلى الحسّ السّليم وإلى السّذاجة والفهم المستقيم أن ينبّهوا النّاس إلى التّفكير في نهايتهم.

جاء في خُطبةٍ من خُطب ابن نُباتة: «أيها النّاس قلّقوا القلوب عن مراقدها، واعدلوا بالنّفوس عن موارد شهواتها، وذلِّلوا جوامحها بذكر هجوم مماتها، وتخيَّلوا فضاءها يوم تُعرف بسماتها، وترقبوا داعياً من جو السّماء تُنْشَر به الرّمم! ياله داعياً أسمع العظام البالية، ومنادياً جمع الأجسام المتلاشية. من حواصل الطّيور، وبطون السّباع، وقرار البحور، ومتون اليفاع، حتى استقام كلّ عضوٍ في موضعه، وقام كل شلو من مصرعه! فنهضتم أيها النّاس لميقات الكرَّة، بوجوهٍ من هبوات الثّرى مغبرَّة، وألوان من هول ما ترى مصفرَّة، حُفاة عُراة، كما بدأكم أول مرة؛ يسمعكم الدّاعي؛ قد ألجمكم العرق وغشيكم القتر، ومادت الأرض، فهي بما عليها ترتجف، وبُسَّت الجبال، فهي برياح القيامة تُنسف، وشخصت الأبصار فما ترى عين تطرف، وغصّ بأهل السّماء والأرض الموقف، فبينما الخلائق يتوكعون حقيقة أنبائها وقوفاً، والمَلَك على أرجائها صفوفاً، إذا أحاطت بهم ظلمات ذات شُعَب، وغَشِيَهم منها شواظ نحاسٍ ولهب، وسمعوا لها جرجرة زفير مصطخب، يفصح عن شدّة تغيّظ وغضب، فعند ذلك جثا القائمون على الرّكب، وأيقن المجرمون بالعطب، وأشفق البرآء من سوء المنقلب، وأطرق النّبَّاء لسلطان الرّهب، ونودي أين عبد الله وأين أمَته؟ أين المسوف نفسه بخديعته؟ أين المختطف بالموت على حين غرته؟ فعرف من بين الخلائق بسمته، وأحضر لتصفّح صحيفته، والموافقة على ما أسلف في مدّته، مطالباً بإقامة حجّته، مروَّعاً بين يدي عالم خفيته، بوقع خطابٍ كالصّواعق، ولذع عتابٍ كالمقامع، وشهادة كتابٍ للفضائح جامع، وصحة حسابٍ للمعاذين قاطع، فخاب، والله، من كان على نفسه منصفاً، {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا}. عدل الله مسرفاً ولم يجد من خلطائه مُنيلاً ولا مُسعفاً، بل وجد المحاكم له وعليه عدلاً بنا وبكم إلى سبيل السّلامة، وحمل عنا وعنكم أعباء الظّلامة، وجعل الإخلاص بتوحيده نوراً لنا في ظلمات القيامة. إن أغزر ينابيع الحكم، وأنور مصابيح الظّلم، كلام بارئ النّسيم: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} (18)

[1874]. وقليلاً ما كان الخُطباء يتعرّضون للكلام في الجنّة أو في موضوع كثيراً ما يتكلّم فيه النّصارى، وهو اللقاء بعد الموت؛ ولعلّ الخوف من يوم النّشور، ومن أهوال يوم الحساب كان أقوى من أن يسمح بالكلام في ذلك. ويُروى عن إحدى شهيرات نساء العرب أنها قالت: إني أشتاق ليوم

البعث لأرى وجه بَعلي؛ فكان قولها مثلاً مدهشاً يُضرب لبيان قوة الحبّ الذي لا يَرهَب أشد الأهوال[1875].

وقد ألّف ابن نُباتة كل خُطبه سجعاً، وكان ثَمَّ في الخُطبة نقطةٌ أساسية تدور حولها كما تدور الأنغام في مقطوعة موسيقية حول أساس النّغم.

وهذا السّجع في الخُطب هو أيضاً من المُستحدثات التي ظهرت حوالي منتصف القرن الثّالث الهجري، وبلغت منتهى ازدهارها في القرن الرّابع. ويحكي ابن خلكان من مناقب أحد الخُطباء المتأخرين، أنه ترك السّجع في خُطبه حين وُلِّيَ الخطابة رجوعاً إلى طريقة السَّلَف[1876].

غير أنّه فيما يتعلّق بالخُطبة وُضعت في القرن الرّابع صورة الخُطبة وقوانينها[1877]. وإذا كانت «خُطب النّصارى البلاغيّة التي تلقى في أيام الأعياد الكبرى ليست إلا أناشيد منثورة»[1878]، فهذا ينطبق أيضاً على الخُطب الإسلامية في القرن الرّابع تمام الانطباق؛ وإن بين هذه الخُطب المسجوعة وبين الخُطب التي كتبها القدماء في أواخر العهد القديم شبها كبيراً جداً، بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر تأثير خُطب القدماء في طريقة المسلمين، وربّما كان في طريقة القرآن شيء من ذلك.

ويحتوي ديوان ابن نُباتة من خُطب الأعياد، على خُطب تُقال في رأس السّنة، وفي يوم وفاة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم، وفي شهري رجب رمضان، وفي عيد الفطر. وكانت الخُطب الجهاديّة ثمرة من ثمرات أيام سيف الدّولة بما كان فيها من حروب، وهي لا تقل روعة عن أجود الخُطب الحربية التي أثِرت عن القدماء[1879].

فمن ذلك خُطبة ابن نُباتة:

أيها النّاس! إلى متى ستسمعون الذِّكر ولا تَعون، وكم ستسمحون لأنفسكم أن تُقْرَعُون بالزّجر، فلا تُقلعون! كأنّ أسماعَكم تمجُّ ودائع الوعْظ، أو كأن قلوبَكم بها استكبارٌ عن الحفظ! وعَدُوُّكم يعمل في دياركم عمله، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أملَه، صرخ بهم الشُّيطان إلى باطله، فأجابوه؛ وندبكم الرُّحمن إلى حَقِّه، فخالفتموه. هذه البهائم تناضل عن ذمارها، وهذه الطّير تموت حميةً دون أوكارها، بلا كتاب أنزل عليها، ولا رسول أرسل إليها؛ وأنتم أولو العقول والأفهام، وأهل الشّرائع والأحكام، تَنِدُّون من عدوكم نَديدَ الإبل، وتدرعون له مدارع العجز والفشل؛ وأنتم والله أولى بالغَزْو إليهم، وأحرى بالمُغار عليهم؛ لأنكم أمناء الله على كتابه، والمصدِّقون بثوابه وعقابه؛ خصَّكم الله بالنّجدة والباس، وجعلكم خير أمة أخرجت للنّاس؛ فأين حميةُ الإيمان، وأين بصيرةُ الإيقان، وأين الإشفاق من لهب النّيران، وأين الثّقة بضمان الرّحمن؛ فقد قال عز وجلّ في الفرقان: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (126) (آل عمران آيةَ 125، 126). فقد اشترط عليكم التّقوى والصّبر، وضَمِن لكم المعونة والنّصر؛ أفتتهمونه في ضمانه، أم تشكّون في عدله وإحسانه!؟ فسابقوا، رَحِمَكُم الله، إلى الجهاد بقلوب نقيَّة، ونفوس أبيَّة، وأعمال رضيَّة، ووجوه مُضِيَّة؛ وخذوا بعزائم التّشمير، واكشفوا عن رؤوسكم عارَ التّقصير

وهَبُوا أنفسكم لمن هو أمْلك بها منكم؛ ولا تركنوا إلى الجزَع، فإنه لا يدفع الموتَ عنكم، {لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (سورة آل عمران، آية 156).

فالجهادَ الجهادَ، أيها الموقنون! والظَّفر الظَّفر، أيها الصّابرون! والجنّة الجنّة، أيها الرّاغبون! والنَّار النَّار، أيها الهاربون! فإن الجهاد أثْبَتُ قواعد الإيمان، وأوسعُ أبواب الرّضوان، وأرفعُ درجات الجنان؛ وإنّ مَن ناصَحَ الله فيه لبيْن منزلتيْن مرغوبٍ فيهما، مُجْمَع على تفضيلهما: إما السّعادة بالظّفر في العاجل، وإما الفوز بالشّهادة في الآجل؛ وأكرَهُ المنزلتيْن إليكم أعظمها نعمةً عليكم؛ فانصروا الله! فإن نصر الله حِرْزٌ من الهَلَكات حريز،{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}. (الحج آية 40).

إن أحسنِ ما نطقت به بلغاءُ الخطاب، وأنور ما أضاءت به ظَلْماءُ الألباب كلامُ العزيز الوهّاب: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (39) (التوبة آية 38-39) ديوان خُطب ابن نُباتة، طبعة بيروت 1311 هـ، ص 188-190.

أما فيما يتعلّق بملابس الخُطباء فلم تكن الحكومة تُعنى إلا بتعيين اللون الذي عليهم أن يتّخذوه: فحيث كان يُخطب لبني العبّاس كان الخُطباء يتّخذون السّواد الذي هو اللون الرّسمي للعبّاسيين؛ وحيث كان يُخطب للفاطميين كان الخُطباء يتّخذون اللون الأبيض.

ونظراً لعدم وجود هيئة من الكهنوت وعدم وجود لباسٍ دينيٍّ خاص فقد كان الخُطباء، فيما عدا ما تقدم، يتّبعون عرف النّاحية التي هم فيها، ففي العراق وفي خوزستان كان الخُطباء يظهرون باللباس الحربي فيلبسون الأقبية والمناطِق[1880]؛ على حين أنهم في خُراسان كانوا لا يتردّون ولا يتقبّون، وإنما يكتفون بلبس درَّاعة[1881]. وفي عام 401 هـ - 1010 م خُطب بالموصل للحاكم بأمر الله، فظهر وعليه قباءٌ دبيقيّ أبيض - واعتُبِر هذا كافياً من النّاحية الرّسمية - وعمامةٌ صفراءَ وسراويلَ ديباجٍ أحمرَ وخُفّان أحمران[1882].

وفي البصرة وحدها، وهي مدينة الصّالحين ومدَّعي الصّلاح في العراق، كان الخطيب الرّسمي يخطب في كلّ صباح؛ وقيل إن هذه كانت عادة ابن عبّاس. وفيما عدا البصرة كان الخطيب الرّسمي يخطب يوم الجمعة فقط، ويترك الوعظ الأسبوعي للخُطباء المتطوّعين الذين كانوا منذ العصور الأولى يتزاحمون على ذلك، وكانوا يُسمَّون القُصَّاص. وقد كتب غولدتسيهر تاريخاً لهم[1883]. وأجاد المقريزي[1884] في جمع الكثير من أخبارهم باختصار؛ وهو يقول إنهم ظهروا في زمن معاوية، وقيل في خلافة عثمان.

ويحكي المقريزي عن قصص الخاصّة فهو الذي جعله معاوية، إذ ولى رجلاً على القصص، فكان إذا سلم من صلاة الصّبح جلس وذكر الله عزّ وجل وحمده ومَجَّده، وصلّى على النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة[1885].

وكان القاصّ بعد صلاة الجمعة يقرأ القرآن ويفسِّره، وكان القاضي هو الذي يتولّى القصص في أول الأمر؛ ولا يُذكر وجود هذا المنصب إلا في مصر؛ ولعلّه كان من قبل من أنظمة الكنيسة المصرية[1886]. غير أنّه ولي قضاء مصر في عام 204 هـ إبراهيم بن إسحاق القاري، وجُمع له القضاء والقصص[1887]. وبعد ذلك بطل نظام الجمع بين المنصبين، وارتفع شأن منصب القضاء، وانحطّ منصب القاص. وفي عام 301 هـ أراد الذي تولّى القصص في هذه السّنة أن يقرأ القرآن ويقصّ في كل يوم، فمنع القاضي من ذلك، فرجع القاص إلى القراءة في ثلاثة أيام[1888].

أمّا في المشرق في عصر المأمون فقد ذكر طيفور أن قصص القصَّاص وإيواءهم، إلى جانب بناء المساجد وجمع اليتامى والإنفاق على الجهاد، من أعمال البّر التي اتخذها البعض على سبيل الرِّياء[1889].

أما المغرب فيحدّثنا البِشاري المقدسي أنه كان قليل القُصّاص[1890]. ويُروى عن مالك بن أنس صاحب المذهب السّائد في المغرب أنه كان يكره القصص[1891].

وفي القرن الرّابع نزل القُصّاص إلى غِمار العامّة، وصاروا يقصّون لهم القصص الدّينية والأساطير والنّوادر في المساجد والطّرق، وينالون منهم مالاً كثيراً[1892]. وكان العامّة يحبّون القصّاص حبًّا شديداً؛ ويُروى عن الطّبري أنه أنكر على قاصٍّ ببغداد، فرمى العامُّة باب داره بالحجارة، حتى سدّوه وصعب الخروج منه[1893]. وكان القُصّاص في أواخر القرن الرّابع أكثر مثيري الفتن القديمة بين أهل السُّنّة والإماميّة[1894]؛ ويضع الهَمَذاني في المقامة السّاسانية القُصَّاص بين طبقة المشعوذين المُمخرقين من بني ساسان. وحوالي ذلك العصر فقد القُصَّاص كلَّ ثقة من جانب أهل التّقى والصّلاح، وبدأت الثّقة تتحوّل عنهم إلى طائفةٍ خَلَفَتهم، وهي طائفة المذكّرين، ويسمّى مجلسهم مجلس الذّكر[1895]. وقد نشأ مجلس الذّكر من قعود بعض الصّالحين للتّسبيح مُتَنَفِّلين بعد انقضاء الصّلاة[1896]. وكان الصُّوفية يُسمُّون خُطباءهم بهذا الاسم - اسم المذكرين[1897] - ويرجع إلى عصر التّنافس بين المذكّرين والقُصّاص ما قاله أبو طالب المَكّي من أن حضور الرّجل مجالس الذّكر أفضل من صلاته، وصلاته أفضل من حضور مجالس القُصّاص[1898].

وقد فرَّق البعض بين طوائف المتكلّمين؛ فيحكي أبو طالب المكّي: «وقد قسّم بعضُ العلماء المتكلّمين ثلاثة أقسام: أصحاب الكراسي وهم القُصّاص؛ وأصحاب الأساطين، وهم المفتون؛ وأصحاب الزّوايا، وهم أهل المعرفة؛ فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التّوحيد والمعرفة هي مجالس الذّكر»[1899].

وقد أجهد المذكَر نفسه في أن يظهر بمظهر يكسبه من التّقدير ما يزيد على سلفه القاصّ؛ وأكبر مظهر لذلك أنه كان لا يتكلّم ارتجالاً ومن غير تقيُّد، بل كان يقرأ من دفتر [1900]. وفي أيامنا هذه نرى القاصّ في بغداد يروي قصصَ الأبطال بأن يقرأها من كتابٍ صغيرٍ معه، على حين أن الأخباري اليهودي يروي حكاياته من غير دفتر؛ وكان الأول ينظر إلى الثّاني نظرة ازدراء.

وقد بيّن السَّمَرقندي (توفي عام 375 هـ) ما ينبغي أن يكون عليه المذكِّر ومن يستمع إلى حديثه؛ فأول ما يحتاج إليه أن يكون صالحاً في نفسه وَرِعاً، وأن يكون متواضعاً، ولا يكون متكبِّرا ولا فظًّا غليظاً، وأن يكون عالماً بتفسير القرآن والأخبار وأقاويل الفقهاء، لا يحدّث النّاس إلا بما صحَّ عنده؛ وينبغي ألا يكون طمَّاعا؛ ولو أهدى إليه إنسان من غير مسألةٍ فلا بأس أن يقبل هديّته، وينبغي أن يكون في مجلسه الخوف والرّجاء، فإن كان المذكِّر يحتاج إلى تطويل المجلس، فيُستحبّ له أن يجعل في خلال مجلسه كلاماً يستظرفه السّامعون، ويتبسمون له، فإن ذلك يزيدهم نشاطاً وإقبالاً على السّماع؛ ومن آداب المستمعين أن يقولوا للمذكّر عند فصل كل حديث: صَدَقْتَ أو أحْسَنْتَ! حتى يكون المذكّر راغباً في الحديث، ويصلّوا عند سماع اسم محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم كلما ذُكر، ولا يناموا في حال المجلس[1901]، وكان المجلس ينتهي بأن يأمر المذكّر سامعيه بالقيام، فيقوموا، وهو معهم، ويأخذون في الدُّعاء[1902].

وكان أصحاب المجموعات الفقهية التي أُلِّفت في القرن الثّالث الهجري لا يجهلون ما كان يُقال من أنواع الذّكر الذي هو عبارة عن تكرير لفظٍ من ألفاظ الدّعاء؛ ولكنهم لم يعلّقوا على ذلك أية قيمة. ويُروى عن النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم أنه أوصى بأن يسبِّحَ المصلِّي بعد الصّلاة ثلاثاً وثلاثين، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويكبِّر ثلاثاً وثلاثين[1903].

وفي القرن الثّاني الهجري وُبِّخ أحد الرجال توبيخاً عنيفاً لأنه ما تعلّم في مكّة سوى قصص العجائز والدُّعاء لربّه من الدَّفتر، والتسبيح بالحصى![1904].

وقد وصف الدّارمي (توفي عام 255 هـ - 869 م) في سُنَنَه قوماً كانوا يقعدون في المسجد على هيئة حلقاتٍ، ينتظرون صلاة الصّبح، وفي أيديهم حصى صغير، وكان لكل حلقة إمام يقول لهم: قولوا: الله أكبر، مئة مرة، ثم سُبحان الله مئة مرة، وكانوا يعدون ذلك بالحصى الذي في أيديهم، فمرّ بهم شيخ، فقال لهم: أولى بكم أن تعدّوا ذنوبكم[1905].

وقد بقي الذِّكر في أثناء القرن الثّالث الهجري كلّه يعدّ قليل القيمة؛ ويندر أن نجد له ذكراً في كتاب العلماء في ذلك القرن، فلمّا جاء القرن الرّابع انفصل الذّكر عن الدُّعاء غير الإجباري، الذي يُقال لغرض معيّن، وصار يقصد به الدُّعاء القصير المتكرّر على هيئة المناجاة لله، والتّحية، وما يقال عند الطّعام وفي الصّباح والمساء، وما اعتاده المسلمون من كثرة ذكر الله في أثناء عملهم اليومي[1906]، وجُعل لهذا العمل الدّيني شأنٌ كبير، ورُوي عن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «من دخل السّوق فقال: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له المُلك وله الحَمد، يُحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت بيده الخير، وهو على كلّ شيءٍ قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيّئة، ورفع له ألف ألف درجة»[1907].

ويُروى عن أبي زرعة قاضي مصر (توفي عام 302 هـ - 914 م) أنه أهدى إلى خمارويه رغيفاً ختم عليه عشر ختمات وعشرة آلاف قُلْ هو الله أحد، فقبله خمارويه وتبرَّك به[1908].

وكان أبو الحسن البُوشَنْجي (توفي عام 467 هـ - 1074 م) لا تسكن شفتاه من ذكر الله عز وجلّ، وجاءه مزيِّن مرّة ليقصّ شاربه فقال له: أيها الإمام! يجب أن تسكِّن شفتيك، فقال: قُلْ للزّمان حتى يسكن[1909].

ويُروى عن أحد العلماء الصّالحين أنه بعد أن مات رآه رجل في المنام، وعلى رأسه تاجٌ مُكَلل، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأكرمني وتوَّجني، وأدخلني الجنّة، بكثرة صلاتي على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم.

وذكر القُشَيري في رسالته[1910] بإسناد النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «لا تقوم السّاعة على أحد يقول: الله الله».

غير أنّه حلّ محلّ الحصى أو حبّ الزّيتون في إحصاء العبادات شيءٌ جاء من المشرق، وهو السُّبْحة، وأول إشارة تدلّ على استعمالها في التّاريخ ما جاء في قصيدةٍ لأبي نواس، وهو في السّجن في عهد الخليفة الأمين (193-198 هـ = 808-813 م)، وفي هذه القصيدة يخاطب أبو نواس الوزير ابن الرّبيع بقوله[1911]:

أنت يا ابن الرّبيع ألزَمتني النُّسْك	وعوَّدتنيه، والخير عادَه
في لبَّتي مكان القلادَه المسابيح في ذراعي والمصحف	

وكان حظ السُّبحة من قلّة التّقدير من جانب العلماء والمثقفين في القرن الثّالث الهجري أقلَّ من حظ الذّكر نفسه، فكانت لا تُرى إلا في أيدي النّساء أو مدَّعي الصّلاح؛ وقد رأى أحد الصُّوفية في يد الجُنيد سيّد الصُّوفية (توفي عام 297 هـ - 909 م) سبحة، فقال له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سُبحة؛ غير أنّ السُّبحة تذكر باعتبارها من أخص أهبة النّساء الصُّوفيات في القرن الخامس الهجري[1912].

وكان من أشدّ الخُطب الدّينية قوة وتأثيراً بين المسلمين المواعظ التي كان يتطوّع للقيام بها أهل الفصاحة واللّسن، علماء كانوا أو غير علماء، وكانت عادة هؤلاء أن يجلسوا لوعظ النّاس في أيام الصّوم من رمضان وأيام الجمع بعد تأدية الصّلاة. وهذه هي العادة الجارية اليوم في مصر على الأقل[1913]. وكان من عادة الكثيرين أن يستدعي أحدهم واعظاً مشهوراً، ويقول له: عِظْني أو خوِّفني[1914]. وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبّون ولا يتوقّعون من غليظ القول.

أما عامّة أهل المدن بما كان لهم من تذوُّقٍ للفنّ البلاغي، فقد كان للواعظ بينهم قدرةٌ على جذبهم لدرجة تخرج عن مألوف العادة؛ وكان مجلسه في درجة الاحتفالات الحربيّة والدّينية واحتفالات

الأعياد؛ وكان الوُعّاظ يشاطرون المكدِّين والمخرِّقين والشعراء في العمل على تغذية خيال العامّة المتعطّش. وكثيراً ما لحقتهم أخطار هذه المهمّة، وقد اتخذوا منها وسيلةً للكسب، وإن كان العصر الذي تتكلّم عنه لم ينطبق عليه بعض ما قاله الحجويري عن الوعاظ من أن صناعتهم «أغلى مرتبة بني ساسان»[1915].

غير أنّه كان في القرن الرّابع من العلماء الصّالحين من يكره الجلوس للعظة[1916]، وكانوا مُحقِّين في ذلك؛ فإن كبار الوعاظ كانوا بطبعهم أصحاب فنٍّ، ولما كانوا خُطباء مفوّهين فقد كانوا أيضاً يحبّون أبهى عادات عصرهم والظّهور بأحسن مظاهره.

وكان أشهر واعظٍ ببغداد في القرن الرّابع هو أبو الحسن بن سمعون (300-387 هـ = 912-997 م)؛ وكان من عادته أن يلبس أحسن الثّياب، ويأكل أطيب الطّعام، وقال في ذلك: كلُّ ما يُصْلِحُك لله فافعلْه، إذا صلح حالك مع الله فالبس ليِّن الثّياب، وكل أطيب الطّعام، فلا يضرّك[1917]. ويحكي الصّاحب بن عَبّاد في كتاب الرّوزنامجة أنه رآه وسمعه ببغداد، «وقد لبس فوطة قصب، وقعد على كرسيّ ساج، بوجهٍ حسن ولفظٍ عذب»[1918].

ولما دخل عضد الدّولة بغداد، أمر بمنع القُصَّاص من القصص، لأنهم كانوا يحرِّضون النّاس على القتال والنّهب: لكنّ ابن سمعون لم يخضع لهذا الأمر، فأمر عضد الدّولة بإحضاره بين يديه، فحَوَّل وجهه نحو الملك وقرأ شيئاً من القرآن، ثمّ أخذ في وعظه، فأتى بالعجب، حتى دمعتْ عينُ الملك، وما رؤي منه ذلك قط[1919]. وكانت تقع له الكرامات، فشفى بنتاً عرجاء بأن مشى على رجلها. ويُروى أن رجلاً نام، وهو في مجلس الوعظ، فأمسك ابن سمعون عن الكلام ساعة حتى استيقظ الرّجل، ورفع رأسه، فقال له ابن سمعون: رأيتَ رسولَ الله محمد صلى الله عليه وسلّم في نومك، لذلك أمسكتُ عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عمّا كنتَ فيه»[1920]. وبلغ الخليفةَ الطّائع أن ابن سمعون ينتقص عليَّ بن أبي طالب، فأرسل إليه، وهو على صفة من الغضب، فلما مثل ابن سمعون بين يديه كان أوّل ما افتتح به كلامه أن ذكَرَ عليّ بن أبي طالب وروى عنه أخباراً وأحاديث، حتى بكى الخليفة وابتلّ منديلٌ بين يديه بالدّموع؛ فأمسك ابن سمعون[1921]. أما عليّ بن محمّد الواعظ الملقب بالمصري، لأنه أقام بمصرَ مدَّة طويلة، (توفي عام 338 هـ - 949 م)، فكان يحضر مجلس وعظه رجال ونساء؛ وكان يجعل على وجهه برقعاً خوفاً من أن يفتتن به النّساء لحُسن وجهه[1922].

وكان من الوعاظ أيضاً الواعظ الشّيرازي (توفي عام 439 هـ - 1047 م) قدم بغداد، يتكلّم بلسان الوعظ والزّهد، ويلبس المرقعة؛ وعمر مسجداً كان خراباً فسكنه، ومعه جماعة من الفقراء.

ثم نزع المرقعة، ولبس الثّياب النّاعمة الفاخرة، وكثر أتباعه، فأظهر أنه يريد الغزو، فحشد النّاس إليه، وصار إلى ناحية أذربيجان[1923].

بل يُذكر لنا من أخبار القرن الرّابع ظهور واعظة، وهي ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية (توفيت عام 393 هـ - 1002 م)؛ وكان لها لسانٌ حلو في الوعظ، وكانت زاهدة، ويُروى عنها أنها

قالت: «هذا قميصي له اليوم سبع وأربعون سنة، ألْبَسُهُ، وما تَخَرَّق، غَزَلَتْه لي أمي، الثوب إذا لم يُعْصَ الله فيه لا يتخَرّق»[1924].

ولم يكن لهؤلاء في ذلك العصر أية صفةٍ رسمية، فلا نرى مثلاً ذكراً لعلماء معترف بهم في ذلك القرن يخرجون لوعظ النّاس؛ ويُروى عن ابن الجوزي بعد ذلك بقرنين أنه حضر للاستماع لمجلس وَعْظِه مئة ألف إنسان[1925]. ولم يكن للإسلام في الواقع أية صيغة كهنوتية، بحيث كان يُسمح لهؤلاء الخُطباء المتطوّعين أن يرتقوا المنابر في المساجد، دون أن يتعرّض لهم أحد، ولم يكن بينهم وبين خُطباء الجمعة الرّسميين فرقٌ سوى أنهم كانوا لا يعظون وهم وقوف، بلى كانوا يجلسون على الكراسي.

ويُروى عن أبي زكريا يحيى بن معاذ الرّازي الواعظ المشهور (توفي عام 258 هـ - 872 م) أنه جاء إلى شيراز، فصعد المنبر، واجتمع النّاس، فأوُّل ما بدأ به أنه قال شعراً:

مواعظ الواعظ لن تُقبل	حتى يعيها قلبهُ أوّل

ثم وقع من على الكرسي، ولم يتكلّم في ذلك اليوم[1926]. وكذلك كان من عادة القاصّ من قبل - في مصر على الأقل - أن يقرأ في المصحف واقفاً؛ ثم يقص وهو جالس[1927]. ولا بدّ أن يكون أصل هذه العادة أيضاً راجعاً إلى ما كان عند النّصارى الأولين، لأنه حتى في عصرنا هذا لا يتكلّم الخطيب في أيام الصّوم الكبير عند الرُّومان الكاثوليك من على منبر، بل على منصّة في وسط الكنيسة؛ ويجلس في بعض الأحيان على كرسي. ونستطيع أن نلاحظ أنه منذ القرن السّادس الهجري فما بعده كانت ترسل إلى الخطيب رقاعٌ ليجيب عنها[1928].

أما عند الفاطميين - بما كان للدّين عندهم من صبغة كهنوتية - فقد كان للخليفة جليسٌ يذاكره بما يحتاج إليه من كتاب الله وأخبار الأنبياء والخُلفاء، ويكرّر عليه ذكرَ مكارم الأخلاق؛ وله بذلك رتبةٌ عظيمة تلي رتبة صاحب ديوان المكاتبات. وهو يجتمع بالخليفة في أكثر الأيام، معه دواةٌ مُحَلّاة، فإذا فرغ من المجالسة أُلقي في الدّواة كاغِدٌ فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل نَدٍّ، ليتبخّر به عند دخوله على الخليفة ثاني مرة[1929].

وكانت المساجد تظلّ مفتوحةً ليلاً ونهاراً في أحوالٍ قليلة[1930]. وهي بحكم الشّرع يجوز أن تكون مأوىً لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبّدين؛ وكان في هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها؛ وممّا يُروى أنه انضمّ إليهم أحد الحواة؛ فلما ناموا انفتحت سلة الحاوي، وانطلق ما كان فيها من الأفاعي الغريبة فأيقظ القوم، وكان معهم أطفال وصبيان، فمنهم من طلع على المنبر، ومنهم من تسلّق العُمُد[1931].

وكان يندر أن تكون «بيوت الله» خالية أثناء النّهار[1932]، فقد كانت أشبه بمعاهد أو مجتمعاتٍ يرتادها النّاس، وخصوصاً المسجد الجامع، حيث كان القاضي يجلس في النّهار للحُكم بين النّاس[1933]، وحيث كان العلماء يعقدون حلقات التّدريس؛ وكان موضع العالِم يُعرف بالسّجادة التي يصلّي عليها؛ وكان من علامة سخط الحكومة على حلقة عالِمٍ من العلماء ومنعه من عقد مجلس علمه في المسجد، أن ترْمى سجادته خارج المسجد. وكان يبلغ النُّشاط في المسجد أقصاه في المساء، وهو وقت النّشاط الدّيني عند الشّرقيين، وحوالي هذا العصر الذي نتكلّم عنه يحكي لنا البِشاري المقدسي ما شاهده في الفسطاط فيقول: «وبين العشاءين (بالفسطاط) جامعٌ مغتصٌّ بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة. ودخلتُها مع جماعة من المقادسة، فربّما جلسنا نتحدث، فنسمع النّداء من الوجهين: وجوهكم إلى المجلس، فننظر فإذا نحن بين مجلسين؛ على هذا جميع المساجد؛ وعددت فيه مئةً وعشرة مجالس»[1934].

وكان النّاس بمصرَ يجعلون لأنفسهم كثيراً من الحرّية في المساجد؛ وقد اندهش ابن حَوْقَل، لأنه من أهل المشرق، حينما رأى النّاس يأكلون في المسجد، وحينما رأى باعة الخبز والماء يباشرون حرفتهم هناك[1935]. ويحكي لنا المقدسي، وهو شاميّ، أن المصريّين يكثرون النّخع والمخاط في المساجد، ويجعلونه تحت الحصر[1936].

وكانت المساجد الصّغيرة بالنّسبة للمسلمين الذين يعيشون على مقربةٍ منها بمثابة بيوت أخرى لهم؛ فكان التّاجر مثلاً يودع في المسجد درَّابات دكّانه التي يغلقه بها[1937].

وفي فارس كان النّاس يجلسون في المساجد ثلاثة أيام للتّعزية[1938]. فقد ظلّ المسجد محتفظاً بصبغته الأولى، وهي أن يكون «بيت النّداء» الذي لا بدَّ للجماعة منه، بحسب ما نعرف من علم أحوال الشّعوب؛ فكان يجلس فيه النّاس للحديث[1939]، ويقصّون في نهارهم حوادث ليلهم[1940]. وفيه كانت تقال القصائد الشّعرية، كما كان ملتقى أصحاب الأهواء[1941]، وكان من أكبر مراكز المحتالين واللّصوص، كما تدلّ على ذلك مجموعتا المقامات المشهورتان[1942].

وقد وصلت لنا هذه الحكاية التّالية عن بعض المتأخرين: «رأيت بحرَّان سنة ثلاثة عشر وستمئة رجلاً من بني ساسان، قد أخذ قِرداً علّمه السّلام على النّاس، والتّسبيح، والسّواك، والبكاء، فإذا كان يوم الجمعة أرسل الرّجل عبداً هندياً حسن الوجه نظيف الملبوس إلى الجامع، فيبسط عند المحراب سجادة حسنة، فإذا كان في السّاعة الرّابعة لبَّس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك، ثم أركبه بَغْلَةً بمركوبٍ مذهب محلًّى، ثم مشى في ركابه ثلاثة عبيدٍ هنودٍ بأفخر ملبوس، وهو يسلّم على النّاس، وكل من سأله عنه يقول: هذا ابن الملك الفلاني من أكبر ملوك الهند، وهو مسحور؛ فلا يزال حتى يدخل الجامع، فيُفرَش له الوَطا فوق السّجادة، ويُحَطّ له سبحةً ومسواكاً، فيقلع القرد منديله من الحياصة، ويضعه بين يديه، ويستاك بالمسواك، ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يأخذ السّبحة ويسبِّح، فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه، فسلّم على النّاس، وقال يا أصحابنا؟ من أصبح مُعافى فإن الله عليه نعمةٌ لا تحصى، واعلموا أن هذا القرد الذي ترونه بينكم، والله، لم يكن في زمانه أحسن شباباً منه، ولا أطوع لله تعالى منه؛ ولكن المؤمن مُلقىً لقضاء الله، فقد سحرته زوجه، كما ترون؛ فلما رأى والده ذلك قال: هذا اختلف به عن الملوك؛ فأمر بإخراجه من ذلك الإقليم، فأُخرج.

وقد سألناها بجميع الملوك، فادّعت أنها خلفت عنده أثاثاً، قيمته مئة ألف دينار؛ وقد تخلف عليه عشرة آلاف؛ من يساعده بشيء من ذلك؟ فارحموا هذا الشّاب الذي عدم الأهل والملك والوطن؛ فأخرج من صورته إلى هذه الصّورة؛ فعند ذلك يجعل القرد المنديل على وجهه، ويبكي فترقّ قلوب النّاس لذلك، ويرفده كل أحد بما يسَّرَه الله؛ فما يخرج من الجامع إلا بشيءٍ كثير، وهو يدور به البلاد على هذه الصّفة»[1943].

ولا نرى فيما قبل ازدياد الشّعور الدّيني في القرن الثّالث الهجري عنايةً بتزيين المسجد وإعداده بالأدوات اللائقة به؛ فمثلاً أمر الخليفة المأمون بالكتابة إلى الآفاق في الاستكثار من المصابيح في المساجد[1944]. وقد امتازت الشّام بنوعٍ خاص بإضاءة المساجد على الدّوام، وربّما كان ذلك تقليداً للنّصارى. وكانوا يضيئونها بالقناديل، «ويعلقونها بالسّلاسل مثل مكّة»[1945].

ويظهر أنه في أواخر القرن الرّابع حدثت بمصر عادة إضاءة المساجد بمصباحٍ كبير، ويسمّى لذلك بالتّنّور؛ وكان فيه مجالٌ لأصحاب الفن الزُّخرفي لكي يُظهروا روائع مبتكراتهم. وفي عام 387 هـ عُمل في جامع عمرو تَنُّورٌ يوقد كلّ ليلة جمعة؛ وفي عام 403 هـ - 1012 م أنزل إليه من قصر الخليفة الحاكم بأمر الله تَنُّورٌ كبيرٌ من فضّة، فيه مئة ألف درهم فضّة، وعُلِّق بالجامع بعد أن قُلِعت عتبتاه حتى أُدخِل فيه[1946].

وقد ذُكر من أثاث الجامع الأزهر، الذي جدَّدَه الحاكم بأمر الله، ووقف عليه أوقافاً، وهذه الأشياء كما جاء في كتاب الوقف:

الحصر العبادانية.

الحصر المضفورة.

عود هندي ومسك وكافور للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع.

شمع ومشاقة لسرج القناديل وفحم للبخور.

أربعة أحبل وستة دلاء أدم وعشر قفاف ومئتا مكنسة.

زيت للوقود.

تنّوران فضّة، وسبعة وعشرين قنديلاً من الفضّة[1947].

وكانت المساجد تحت إشراف القاضي. وكانت عادته في القاهرة على عهد الفاطميين، إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام طاف يوماً على المساجد لينظر حصرها وقنديلها وعماراتها وما تشعَّث

منها[1948].

ولم تكن صيانة المساجد كثيرة النّفقات، فذُكر مثلاً أن نفقات المسجد بمصر في ذلك العهد بلغت اثني عشر درهما في الشّهر؛ ومع هذا قُدِّر في عام 303 هـ - 1012م عدد المساجد التي لا دخل لها في مصر بنحو من ثمانمئة وثلاثين مسجداً. وفي عام 405 هـ - 1014 م وقف الخليفة عدداً من الضّياع للإنفاق منها على المساجد الجامعة التي يُخطب فيها وعلى قرّائها ومؤذنيها[1949].

أما فيما يتعلّق بالتّفاصيل في تنظيم بيوت الله وإعدادها فليس لديّ في ذلك مع الأسف إلا معلومات قليلة: ففي بلاد الآراميين لم يمكن القضاء على معابد البعل القديمة بما كان فيها من تقديسٍ للأشجار. وكان في طبريّة بفلسطين مسجدٌ سمِّي مسجد الياسمين، لأن ساحته كانت مملوءة بشجر الياسمين[1950]؛ وكان بجامع الرَّقّة شجرتا كرم وشجرة توت. وكانت عادة أهل مصر أنهم يضربون على جوامعهم شراعاتٍ وقت الخُطبة[1951]؛ وهذا شبيه بما كان جارياً في عصر الحضارة اليونانية في الشّرق عند عقد حلقات الألعاب؛ على أنه يُروى مثل ذلك عن شيراز والبصرة[1952]. وكان في جامع دار السُّلطان ببغداد منبران[1953]. وكان في جوامع خُراسان قدورٌ كبارٌ من نحاسٍ على كراسي يُطرح فيها الجمد مع الماء يوم الجمعة[1954]. وكان في جامع ابن طُولون Ibn Tolûn بمصر فوَّارة على الصّورة المألوفة حتى ذلك العهد: كان في وسط صحنه قبَّة مشبّكة من جميع جوانبها، وهي مذهّبة على عشرة عُمُدٍ من رخام؛ مفروشة كلها بالرّخام، وتحت القبّة قصعة رخام، سعتها أربعة أذرع، في وسطها فوارةٌ تفور بالماء[1955]؛ وهذه الفوّارة ذات القبّة حلّت محل القبّة التي كانت تحمل بيت المال في المساجد الأخرى. وبعد ذلك بمئة عام عملت أول فوارة تحت قبّة بيت المال في جامع عمرو[1956]. ويحكي لنا الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني بعد ذلك بمئة عام أنه رأى مثل هذه الفوارة وفيها أنبوبة من نحاس في بلدتي آمِد وطرابلس الشّام[1957].

وكذلك كانت تجمع النّفقات لبناء الجوامع أو إضافة البقاع والدّور إليها؛ ففي سنة 226 هـ - 841 م كان لأحد الذين نصَّبوا أنفسهم لذلك أثرٌ كبيرٌ في توسيع جامع بأصفهان، فكان يكلّم الرّجل بعد الرّجل، حتى اجتمعت له الجُمل الكثيرة، وكان لا يستحقر خاتماً أو قيمته أو كبّة غزل أو قيمتها[1958].

وقد اتخذت العبادة صور تختلف باختلاف البلاد، ولم تحتفظ في أي مركزٍ من المراكز الكبرى في بلاد الإسلام بالصّبغة الإسلامية الأولى في بساطتها ونقائها. وقد دخلت على العبادة الإسلامية في كل ناحيةٍ المظاهرُ الدّينية القديمة، وأهم ما نراه في القرن الرّابع ظهور التّطريب في الطّقوس، كالمؤذنين المجتمعين في جميع البلاد. ويُروى أنه كان بمسجد صنعاء اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعاً في كلّ صلاة[1959]. ومن هذه العادة نشأت هيئة المؤذّنين الرّسمية. وفي خُراسان كان للمؤذّنين سريرٌ أمام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان[1960].

وقراءة القرآن بالتّلحين أنكرها مالك رضي الله عنه، وأجازها الشّافعي، وهي القراءة الذّائعة في البلاد الإسلامية[1961].

وفي عام 237 هـ - 851 م منع قاضي مصر القرّاء الذين يقرءون القرآن بالألحان في بعض المساجد الصّغيرة لا في المسجد الجامع، من القراءة بالألحان، وهو أول قاضٍ فعل ذلك[1962].

وكان أبو بكر الآدمي القاضي (توفي عام 348 هـ - 959 م) يسمّى «صاحب الألحان»، وقد حجَّ مرّة مع بعض العلماء، فوجد أحدُ أصحابه رجلاً ضريراً يقصُّ، ويروي الكذب، فأشار أحدهم على أبي بكر أن يستعيذ ويقرأ، فما هو إلا أن ابتدأ حتى انحلّت الحلقة من حول الضّرير، وانفَضَّ النّاس جميعاً من حوله[1963].

وفي سنة 394 هـ - 1003 م خرج الأُصيفر المُنتفِقي على الحجيج، وحصرهم وعزم على أخذهم؛ وكان فيهم أبو الحسن الرَّفّاء، وأبو عبد الله الدّجاجي، فحضرا عند الأصيفر، وقرآ القرآن، فترك الحجيج، وعاد، وقال لهما: قد تركت لكما ألف ألف دينار[1964]. وهكذا أحرز هذان القارئان انتصاراً غريباً لم يكن يُتَوَقّع. وإنّ قصّة أريون Arion ليصغر قدرها إذا قورنت بقصّة هذين القارئين.

وقد اتّخذ الوعاظ المتطوّعين من هؤلاء القراء ما يشبه هيئة المنشدين؛ فكانوا يجلسون على كراسي موضوعة أمام المنبر، فيتوِّقون، ويشوّقون، ويأتون بتلاحين معجبة؛ ونغمات مطربة[1965]. وكان من الوعاظ الماهرين قومٌ يرتبون القراء، حتى يقرءوا ما يقع من آيات في الخُطبة[1966].

حكى ابن طيفور (توفي عام 278 هـ - 891 م) عن الخليفة المأمون أنه قال: «وإن الرّجل ليأتيني بالقُطيعة من العود، أو بالخشبة، أو بالشيء الذي لعلّ قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه، فيقول إن هذا كان للنّبي محمد صلى الله عليه وسلم، أو قد وضع يده عليه، أو شرب فيه أو مسّه؛ وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرّجل، إلا أني بفرط النّيَّة والمحبة أقبَلُ ذلك، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر، ثم أضعه على وجهي وعيني، وأتبرك بالنّظر إليه وبمسِّه، فأستشفي به عند المرض يصيبيني، وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً، ولا فضيلة له تستوجب المحبة، إلا ما ذُكر من مسِّ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم»[1967].

وفي القرن الرّابع الهجري كان تقديس الأثر عند أهل السُّنّة مقصوراً فقط على ما خلّفه النّبي محمّد محمد صلى الله عليه وسلّم ومن سبقه من الأنبياء؛ وهذا دليل على أن تقديس الأولياء كان في ذلك العصر في دوره الأول[1968]. ويُروى عن أبي العبّاس اليساري، وهو شيخ من شيوخ الصّوفية بمرو، توفي عام 342 هـ[1969] أنه اشترى شعرتين من شعر رسول الله بمالٍ كثيرٍ ورثه عن أبيه، وأوصى أن توضعا في فمه عن الممات[1970].

في ذلك العصر تفاقم أمر التّزوير؛ ففي أوائل القرن الرّابع قيل إنّ رجلاً من اليهود ادّعى أن معه كتاباً من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم بإسقاط الجِزية عن أهل خَيْبَر، فلما قُرأ كتابه قال الذي قرأ: هذا مزوَّر؛ لأن خيبر افتُتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً، ولكنا نَحتمل عنك جزيتك إعظاماً لحقِّ من لجأت إلى الاعتصام به[1971].

والأثر الوحيد الذي كان له حقٌ لا نزاع فيه في المساجد، وشأنٌ لا جدال فيه، وخصوصاً بالنّسبة لدينٍ أساسه كتاب منزَّل هو مخطوطات القرآن، ولا سيّما المصاحف التي يرجع أصلُها إلى عثمان والتي تُعدّ لذلك أصحّ المصاحف. وكان يوجد من أمثال هذه المصاحف خمسة: المصحف الذي كان عند أسماء، والذي كان محفوظاً بجامع عمرو بمصر، وكان يُقرأ منه ثلاث مرّات في الأسبوع؛ وكان الخليفة الفاطمي يقبّله ويتبرّك به[1972]. وكذلك كان في الجامع الكبير بدمشق، كما حكى ابن جُبير في القرن السّادس الهجري - خزانة كبيرة، فيها مصحف من مصاحف عثمان، وهو المصحف الذي وجَّهه إلى الشّام؛ وكانت تفتتح الخزانةُ كل يوم بعد الصّلاة، فيتبرّك النّاس بلمسه وتقبيله[1973].

ولما وُلِّي قضاءَ مصر الحارثُ بن مسكين عام 237 هـ - 851 م كشف أمر المصاحف التي في المسجد، ووُلِّي عليها أميناً من قبله، وهو أول من فعل ذلك من القُضاة[1974].

وفي القرن الرّابع زادت المصاحف التي تنسب لعثمان زيادةً غريبة ممّا يدلّ على خفّة النّاس في الاعتقاد بصحّة نسبها. ويُروى أن رجلاً من أهل العراق جاء إلى مصر، وأحضر مصحفاً، ذكر أنه مصحف عثمان رضي الله عنه وكان فيه أثر الدّم؛ فدُفع المصحف إلى القاضي، فأخذه وجعله في الجامع، وشهره، وكان الإمام يقرأ فيه يوماً وفي مصحف أسماء يوماً، ولم يزل على ذلك إلى أن رُفع واقتصر على القراءة في مصحف أسماء أيام العزيز بالله عام 378 هـ - 988 م[1975].

وفي عام 369 هـ - 979 م كان عند الخليفة ببغداد مصحفٌ يُنسب لعثمان[1976].

ويُروى أنه كان في مخزنٍ جامع قُرطُبة «مصحف يرفعه رجلان لثقله؛ فيه أوراق من مصحف عثمان بن عَفّان، وفيه نُقَطٌ من دمه؛ وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة، ويتولّى إخراجه رجلان من قومة المسجد، وأمامهم رجل ثالث بشمعة؛ وللمصحف غطاء بديع منقوش بأغرب ما يكون من النّقش وأدقّه وأعجبه، وله بموضع المصلّى كرسي يوضع عليه؛ ويتولّى الإمام قراءة نصف حزبٍ منه ثم يُرَدَ إلى موضعه»[1977]. وكانت ثَمّة مخلّفات أخرى متواضعة محفوظة لقلّة شأنها في بعض الجوامع الإقليمية؛ ولم يكن علماء الدّين يقرّون حفظ مثل هذه الأشياء لما فيها من تقليدٍ للنّصارى.

فكان في مسجد مدينة الخليل (حِبرون) نعالُ الرّسول[1978]. وكان في محراب الجامع بمدينة قُرْح المشهورة بتجارتها في جزيرة العرب عظمٌ، قالوا هو العظم الذي قال للنّبي محمد صلى الله عليه وسلّم: لا تأكُلْني، فأنا مسموم[1979].

وكان يقابل النَّزعة الدّينية القوية من الجانب الآخر، نزعةٌ أخرى عند فريق يزدرون كل ما هو دينيّ، ويجرُءون على الجهر بذلك على نحوٍ لم يسبق له نظير في عصرٍ من العصور؛ فكان أبو العلاء المَعَرِّي الشّاعر بالشّام (ولد عام 363 هـ - 974 م وتوفي عام 449 هـ - 1057 م) يهاجم كل ما هو ديني، مستنداً في ذلك إلى وجهة نظر عقليّة؛ وهو من أسرةٍ من القُضاة الفضلاء[1980]، وقد اعتل علّة الجُدري وهو ابن أربع سنين، وذهب فيها بصره[1981]. ثم درس اللغة، وألّف في علومها بعض التّصانيف. وفي السّابعة والثّلاثين من عمره رجع من بغداد إلى المعرَّة، بلدته، وهو يقول:

رحلتُ فلا دُنيا ولا دينَ نلتَهُ..

وأزمع على ثلاثة أشياء: «نبذة كنبذة فنيق النّجوم، وانقضاباً من العالم كله كانقضاب القائبة من القاب، وثباتاً في البلدان، إن حال أهله من خوف الرُّوم»[1982]؛ ولما بلغ ثلاثين عاماً سأل ربّه إنعاماً ورزقه صوم الدّهر، فلم يفطر في السّنة ولا الشّهر إلا في العيدين[1983]، وكان له في السّنة نيِّفٌ وعشرون ديناراً يصير إلى خادمه معظمها، ويبقى له أيسرها؛ ومع ذلك فقد رفض عطيةً أرسلها الخليفة من مصر، وذلك من غير غرضٍ خفيٍّ وراء الإرسال، فيما نعلم[1984].

وقد أدرك أبا العلاء في كبره العجزُ، حتى كان يصلّي قاعداً[1985]. ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى التّقني لهذه الكلمة؛ فلا نجد عنده مناحي اليونان في تفكيرهم، كما أنه لم يكن ينزع عن حاجةٍ إلى التّعمق في التّفكير؛ فقد كان أديباً صاحب فلسفة في تشكيل الحياة وتوجيهها، وهو شبيه بالأديب الرّوسي لي□ تولوستوي Лев Н. Толстóй، ينادي بالرّجوع إلى العقل وإلى حياة البساطة؛ وهو نباتي مدقِّقٌ جداً في مبدئه، ولم يقتصر على ترك أكل اللحم، بل ترك أكل اللبن والبيض والشّهد[1986]. وهو يحارب الخرافات والتّنجيم، ويحارب كل ما هو ديني بنوع خاص، فيقول[1987]:

ديانتكم مكرٌ من القدماء	أفيقوا أفيقوا يا غُواة فإنما
ناطقٌ في الكتيبة الخرساء	يرتجي النّاس أن يقوم إمامٌ
مشيراً في صبحه والمساء	كذب الظّن، لا إمام سوى العقل

ويقول:

ب لجذب الدّنيا إلى الرّؤساء	إنما هذه المذاهب أسبا

ويقول:

واستوتُ في الضّلالة الأديان	قد ترامت إلى الفساد البرايا

ويقول:

إن شرَّ سكان العالم هم العلماء.

ويقول[1988]:

ففي بطحاء مكّة شرُّ قومٍ	وليسوا بالحماة ولا الغيارى
قيامٌ يدفعون الوفد شفعاً	إلى البيت الحرام، وهم سُكارى
إذا أخذوا الزّوائف أولجوهم	ولو كانوا اليهود أو النّصارى

وقد راسل أبا العلاء أحدُ أهل مصر؛ وكان قد قام في نفسه أن أبا العلاء قد أُسبِل عليه من التّقيَّة سِتراً[1989]؛ ولم يكن عند أبي العلاء ما يعلّمه للنّاس سوى الأخلاق والتّسليم والرّضا مع الفرح، والدّعوة إلى حياة الزّهد والبساطة.

ويتجلّى هذا في رسالته المسمّاة رسالة الغفران التي كتبها ردًّا على رسالةٍ مشهورة بعثها له ابن القارح[1990]. وفي رسالة الغفران تتجلّى الطّرافة على أتمّها، وإن كانت رديئة التّأليف؛ وفيها تكلّم عن أشياء كثيرة، وتناول الكلام عن الجنّة والنّار والزّندقة والعقل[1991]. ولهذا فإن تعاليم أبي العلاء، رغم كثرة تلاميذه، ذهبت أكلها أدراج الرّياح.

وعلى حين كان علماء الدّين يتجادلون ويتشاجرون فيما إذا كان القرآن مخلوقاً أو قديماً، وعلى حين كان أبو بكر محمّد بن الحسن بن فورك (توفي عام 406 هـ - 1015م) لا ينام قطّ في بيتٍ فيه مصحف، إعظاماً لكتاب الله عز وجلّ[1992]؛ كان ابن الرّاوندي (توفي عام 293 هـ - 906 م)، وهو من أكبر من لحقتهم اللعنة بين الملحدين في الإسلام، يقول: إنا نجد في كلام أكثم بن صيفي ما هو أحسن من بعضِ القرآن، وقال: «إن المسلمين احتجّوا لنبوّة نبيهم بالقرآن، ولو ادعى مُدَّعٍ لمن تقدم من الفلاسفة مثلَ دعواكم في القرآن، فقال: الدّليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه، لكانت نبوّته تثبت!»[1993].

وحكي عن أبي الحسن بن أبي البغل، أنه اتُّهم بالإلحاد والاستهزاء بالقرآن[1994].

ويُروى عن أبي العلاء المَعَرِّي أنه عارض القرآن بكتاب عنونه بالفصول والغايات في محاذاة السُّور والآيات؛ وقد حفظ لنا الباخِرزي مؤرّخ الأدب قطعة من كتاب أبي العلاء هذا، بحيث لا تُدرك السّخرية فيها إلا بمشقة. وقد قيل لأبي العلاء: ليس عليه طلاوة القرآن، فقال، حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمئة سنة[1995].

وكان في القرن الرّابع أيضاً فريقٌ من الأغنياء المُترفين الذين يحبّون الحياة الجميلة واللهو ولا يعبأون بالدّين؛ وفريقٌ آخر من المتهكّمين؛ يقول قاضي البقر الشّاعر:

يا ربّ ذرني بلا فلاح	ياربّ دَعني بلا صلاح

وراحتي تحت كأس راح	يدي مدى الدّهر فوق رِدْف

ويقول السّلامي الشّاعر[1996]:

ـير ونصغي لنغمة الأوتار	ونصلّي على أذان الطّنابـ
ـكأس أو راكع على المزمار	بين قومٍ إمامهم ساجدٌ للـ

وكان ابن الحَجَّاج أكبر المتزندقين في خمرياته، فهو يقول:

ـيُ بتحريمها من القرآن	فاسقياني محض التي نطق الوحـ
مذنبٌ غير طاعة الشّيطان	والتي ليس للتّأوّل فيها
لخمس بقين من رمضان	اسقياني في المهرجان ولو كان
في قرار الجحيم أين مكاني	اسقياني، فقد رأيت بعيني

ومن خمريّة أخرى له:

وباطني في الخمر نسطوري	أمسْلمٌ أنت؟ قلت: نعم، ظاهري
حتى نصلّي بالطّنابير	واستحضرِ العود ووجِّه به
وركعةُ التّسليم ماخوري	ركعةَ الأولى سريجيّة

ومن أخرى[1997]:

ـا على القوم آية التّحريم	اسقني الخمرة التي نزلت فيهـ
ـسُ جميعاً نبولها في الجحيم	اسقني، فإنني أنا والقُسْـ

أمّا تَدَيُّن العامّة ووَرَعهم فلا نعرف عنه للأسف إلا القليل؛ كان لهم عقائد بسيطة ثابتة؛ وكان عند بعضهم استعدادٌ شديدٌ للأراجيف والخوض في الفتن الدّينية والتّنازع فيها؛ ففي عام 289 هـ - 901 م قُتل ببغداد أحدُ القرامطة، وعُلّق جسده على خشبة. يقول المسعودي: «وقد كان لأهل بغداد في قتل ابن أبي الفوارس هذا أراجيف كثيرة؛ وذلك أنه لما قدِّم لتُضرب عنقه أشاعت العامّة أنه قال لمن حضر قتله من العوام: إني أرجع بعد أربعين يوماً؛ فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوامّ تحت خشبته، ويحصون الأيام، ويقتتلون، ويتناظرون في الطّرق في ذلك، فلما تمّت الأربعون يوماً، وقد كان كَثر لغَطُهم واجتمعوا، فكان بعضهم يقول: هذا جسده، ويقول آخر: قد مرَّ، وإنما السُّلطان قتل رجلاً آخر وصلبه موضعه، كي لا تفتتن النّاس؛ وكثر تنازع النّاس حتى نودي بتفريقهم»[1998].

غير أننا نرى أبا محمّد الفرغاني (توفي عام 362 هـ - 972 م)، وكان مقرباً عند أمير مصر، يذكر هذه الحكاية التّالية في تاريخه؛ فهو يقول: نقلاً عن أبي سهل الصَّدَفي (توفي عام 331 هـ - 942 م،) – وهو الزّاهد الورع الذي كان الإخشيد يجلّه ويتبرّك بدعائه من غير أن يشاهده، بل بالمراسلة: «قَدِم علينا شيخٌ كبيرٌ راهبٌ، كان بميافارقين؛ فحدّثنا أنه أشرف في يوم كثير الضّباب، فنظر إلى طائرٍ قد سقط بحيث يراه، وفي فمه قطعة لحم، فتركها، ثم طار فأتى بأخرًى ثم أخرى، إلى أن أتى بعدة ٍ قطع، ثم إن قطع اللحم اجتمعت، حتى صارت شخص رجل، ثم أقبل الطّائر عليه، ينقره ويقطعه ويأكله، فقال له ما قصّتك يا إنسان؟ قال: أنا عبد الرّحمن بن مُلْجَم، قاتل عليّ بن أبي طالب؛ فلما نظرتُ منه ما رأيت انحدرت من الصّومعة، فأسلمتُ»[1999].

وقد صرَّح الشّاعر المعروف بالمتيّم، وكان في بُخارى في أواخر القرن الرّابع الهجري، بأن الدّين إنما هو شأن الطّبقة الأرستقراطية، وهم اليوم سادة المسلمين في كل بلاد الشّرق؛ وجاهَرَ بأن الفقراء ليس عليهم أن يصلّوا، حتى يغتنوا، وأن الذي يجب عليهم أن يحافظوا على الصّلاة هم الأغنياء والأمراء، فقال[2000]:

فقلت: اغربي عن ناظري! أنتِ طالق   تلوم على ترك الصّلاة حليلتي

يصلي له الشُّيخ الجليل وفائق   فو اللهِ! لا صلّيت للهِ مُفْلساً

ونصر بن مالك والشّيوخ البطارق   وتاش وبكتاش وكنباش بعده

سراديب مالٍ حشوها متضايق   وصاحب جيش المشرقَين الذي له
لأن له قَصْراً تَدينْ المشارق   ولا عجب إن كانَ نوح مصلّياً
وأين خيولي والحلي والمناطق   لماذا أصلّي أين باعي ومنزلي
وأين جواريّ الحسان العوانق   وأين عبيد كالبدور وجوههم
عليه يميني إني لمنافق   أصلّي ولا فتر من الأرض يحتوي
فمن عاب فِعلي فهو أحمق مائق   تركتُ صلاتي للذّين ذكرتهم

أصلي له لاح في الجو بارق	بلى إنْ عَليَّ الله وسّع لم أزَلَ
مخاريق ليست تحتهن حقائق	فإن صلاة السّيِّئِ الحال كلها

ولما خان المسلمين الحظ في حروبهم مع الرُّوم في الغرب ابْتُلوا في دينهم وامتُحنوا في إيمانهم. فلما أخذ الدُّمُسْتُق ملطية عام 322 هـ - 934 م ضرب خيمتين، على إحداهما صليب، وقال: من أراد النّصرانية انحاز إلى خيمة الصّليب، ليُرَدَّ عليه أهله وماله؛ ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى، وله الأمان عن نفسه ويُبَلَّغُ مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها صليب طمعاً في أهليهم وأموالهم، وسيَّر مع الباقين بطريقاً يبلِّغهم مأمنهم[2001].

ولما عادت بلاد اللاذقيّة إلى قبضة الرُّوم هاجر منها كثيرٌ من المسلمين، ولكن بقي في الإقليم كثيرٌ من أهله، ودفعوا الجِزية بدورهم للرّوم. ويقول ابن حَوْقَل: «وأظنهم صائرين إلى النّصرانية أنَفَةً من ذلّة الجِزية، ورغبةً، مع حذف المؤنة، في العز والرّاحة»[2002].

لكنَّ انتصارات الرُّوم لم يكن لها إلا صدىً ضعيف في داخل الدّولة الإسلامية؛ وقد تقبّلها المسلمون بإيمانٍ قويّ، وفسَّروا أمر هذا البلاء بالتّفسير المألوف، وهو أنه دليلٌ على صحّة دين الإسلام، وجزاءٌ لأهله الذين أهملوا أوامره.

الفصل العشِرُون
العوائد الاجتماعيّة

Die Sittlichkeit

جرت العادات في بيوت السّادة والكبراء عند الدّول الشّرقية القديمة وفي الدّولة البيزنطية أن تُهَيّأ هذه البيوت بالخصيان[2003]؛ وقد حرّم الإسلام ذلك وشدَّد القرآن وشدّدت السُّنّة في تحريم خصاء الإنسان أو البهائم، وأنيط بوالي الحِسْبة أن يمنع ذلك ويؤدِّب عليه[2004]، وهذا الأمر دخل على الإسلام حوالي عام 200 هـ - 815 م، بسبب تقمّص الرّوح العربية لعاداتٍ شرقيةً قديمة، رغم ما بيّنه النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم في شأنها من الإنكار والمنع الصّريح. وبلغ من كَلَف الخليفة الأمين (ابن هارون الرّشيد) بالخصيان أنه «طلبهم، وابتاعهم، وغالى بهم، وصيَّرهم لخلوته في ليلَه ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه، وفرض لهم فرضاً سمّاهم الجَرادية، وفرضاً من الحبشان سمّاهم الغُرابية، ورفض النِّساء الحرائر والإماء، حتى رُمي بهن»[2005]، وحتى قال أبو نواس ساخراً[2006]:

صيَّر التّعنين دينا	صيَّر الخصيان، حتى
بأمير المؤمنينا	فاقتدى النّاس جميعاً

وقد احتال المسلمون للإفلات من حُرمة الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان، تاركين لليهود[2007] والنّصارى إثم هذا العمل الشّنيع. وقد جاء في خبر يرجع إلى القرن السّادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، أن مدينة هَدْية بالحبشة النّصرانية هي التي كان يُدَاوَى بها الخصيان دون غيرها من بلاد الحبشة[2008]. غير أنّه في أوائل القرن التّاسع عشر كان «في الصّعيد بمصر ديران قِبْطيّان دخْلُهما

الأساسي مصدره الخصاء، وكان هذا يُعمل بنسبةٍ كبيرة، حتى كان يكفي لتمويل مصر كلها وجزءٍ من تُركية بالخصيان»[2009]. وكان بعض القِبْط بمدينة أسيوط يتَّجِرون بشراء صغار العبيد السّود وخصائهم، وكان كثير منهم يموت من هذا العمل، أما الباقون فكانوا يُباعون بما يبلغ عشرين ضعفاً من ثمن شرائهم»[2010].

ويُقَسَّم الخدم إلى أربعة أنواع: السّودان، والصَّقالبة، والرُّوم، والصّين[2011]؛ ويذكر البِشاري المقدسي[2012] أن الخدم البيض صنفان: (1) الصَّقالبة، وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يُحمَلون إلى الأندلس، فيُخْصَوْن ثم يخرجون إلى مصر[2013]. الرُّوم، وهم يقعون إلى الشّام وأقور، وقد انقطعوا بخراب الثّغور. «وسألت جماعة منهم كيف يُخصون، فتحصّل لي أن الرُّوم يسلّون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس، لئلا يشغلوا بالنّساء، وتؤذيهم الشّهوة»، وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم وأخرجوا الصّبيان منها[2014].

أما الخدم الصَّقالبة فكانوا يُجلبون إلى مدينةٍ خلف بجّانة أهلها يهود، وكانوا يقومون بخِصائهم[2015]. وقد اختُلِف في الخصاء نفسه؛ فقال البعض: يُمسح القضيبُ والمزودان في مرّة واحدة؛ وقال بعضهم: يُشَق المزودان وتخرج البيضتان، ثم تجعل تحت القضيب خشبةٌ، ويُقَطّ من أصله. «وسألتُ عُريباً الخادم، وكان من أهل العلم والصّدق، فقلت: أيها المعلِّم! أخبرني عن أمر الخدم، فإن العلماء قد اختلفوا فيهم، وأبو حنيفة يجعل لهم فراشاً، ويُلحق بهم ما تلد نساؤهم[2016]، وهذا علم لا يُستَفاد إلا منكم؛ قال: صدق أبو حنيفة رحمه الله، وسأخبرك بحالهم: اعلَمْ أنهم إذا قربوا للاختصاء شُقّت الخصيتان، فأُخرجت البيضتان، فربّما فزع الصّبي، فصعدت إحدى البيضتين، وطُلبت فلم توجد في الوقت، ثم تنزل بعد التحام الشّق، فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومنيّ، وإن كانت اليمنى خرجت له لحية مثل فلان وفلان؛ فأبو حنيفة رحمه الله، أخذ بقول النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم: الولد للفراش، وجاز أن يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم. وذكرتُ قوله لأبي سعيد الجوزي بنيسابور، قال: قد يجوز هذا لأن إحدى بيضتيّ صغيرة، وكانت لحيته نزراً خفيفة. وإذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مرود رصاص، يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرءوا كي لا تلتحم[2017].

وكانت هذه العملية الشّنيعة تقلل عدد الخصيان وتزيد أثمانهم؛ فكان ثمن الخصيّ في بيزنطة مثلاً في ذلك العصر يساوي أربعة أمثال الخادم العادي[2018]. وحوالي عام 300 هـ - 912 م أُطلق على هؤلاء التّعساء أسماء أقرب إلى الاحترام، فسُمِّي الواحد منهم بالخادم[2019] أو المعلِّم، أو الشّيخ، أو الأستاذ[2020]، على حين كانوا في العصور الأولى يسمَّوْن بالخصيان، مع ما في ذلك من تشهير.

وكان الخصيان دائماً يلقون من العوام كثيراً من السّخرية؛ ويحكي المسعودي أنّ العوام كانوا يستهزئون بالخدم السّودان في الشّوارع، ويصيحون بهم ويقولون: «ياعقيق، صُبّ ماءً واطرح دقيق؛ يا عاق، يا طويل السّاق»[2021]. وحدث في عام 284 هـ - 897 م أن وجّه الخليفة خادماً أسود عشيّة الجمعة برقعةٍ إلى ابن حَمدون النّديم؛ فلما بلغ الخادم رأس الجسر من الجانب الشّرقي صاح به صائحٌ من العامّة: يا عقيق؛ فشتم الخادمُ الصَّائح، فاجتمع قوم من العامّة، وضربوا الخادم، فضاعت الرّقعة التي كانت معه؛ فرجع إلى الخليفة وأخبره بالقصّة، فأمر رجلاً بالرّكوب والقبض

على كل من تولّع بالخدم وضربه بالسّياط[2022]. وكانت قصص الخدم موضوعاً دائماً للقصّ وأصحاب النّوادر والمضاحك في الطّرق، وكان تقليد أصواتهم وحركاتهم ممّا يجذب النّاس إليهم[2023].

وقد اشتهر الخصيان بالصّبر على طول الرّكوب، حتى فاقوا في ذلك فرسان التُّرك[2024]. وكذلك تُذكر لهم إجادة الرّمي بالنّشّاب[2025].

وإذا كان عند الرُّوم منهم في القرن الرّابع الهجري نارسيس Narses وسلمون Solomon، فقد كان عند المسلمين مؤنس القائد؛ وكذلك فائق قائد السّامانيين، فقد كان أيضاً خصيًّا[2026]؛ وكان ثمل الخادم هو القائد البحري صاحب الانتصارات بطرسوس[2027]، كما كان عند الرُّوم الأميرال نيكيتاس(NiketasΝικήτας ὁ Ὠρύφας) الذي هزم صقلية، فقد كان خصيًّا أيضاً. وفي الحرب البحريّة التي وقعت بين أسطول الفاطميّين وأسطول الخليفة عام 307 هـ - 919 م كان الأميرالان اللذان تولّيا القيادة خصيَّيْن[2028].

ولما وقعت الفتنة في مصر أيام الحاكم بأمر الله، فرّق عبيدَه السّودان على المدينة يحرقونها ويسبون أهلها وينهبون أموالهم، وكان الذي وجّه نظرَ الحاكم إلى هذه الحالة المنكرة خادماً صقلبياً له: لما شاهد فظاعةَ الأمر قتل بعض العبيد، وعاد إلى الحاكم حَنِقاً ممّا شاهد، وكان ممّا قال له: لو أن ملك الرُّوم دخل مصر لما استجاز أن يفعل مثل هذا؛ فنقم عليه الحاكم، وقتله[2029].

ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدّولة، إلا غلامٌ خصيٌّ أسود يسمّى «شُكْر»؛ فقد كان مستولياً على جميع أموره، ولم يكن أحدٌ من أولاده يجرؤ على الدّخول إليه في علته مع تطاولها. وقد استشعر ابنهُ الأكبر شرفُ الدّولة أن أباه قد مات، وأن شكراً يكتم ذلك، فهجم ودخل إلى الموضع الذي فيه أبوه، وكان حيًّا؛ فاستوحش عضد الدّولة من ولده، ونفاه إلى كرمان[2030].

وكان الوصي على الخليفة الحاكم بأمر الله في صغره خصيًّا أبيض يدير شؤون الدّولة الفاطمية.

ولم يكن الخصيان يُمنعون إلا من الوظائف الدّينية، إلى أن كان العصر الأخير من الحروب الصّليبية، فعُيِّن أحدهم قاضياً بدمياط[2031].

وقد عُرفوا في الشّرق؛ بأن الواحد منهم لا يصلع، ولم يُسمع قط بأن أحداً منهم كان مُخنَّثا[2032].

ومن صفاتهم التي يختصّون بها ولوعهم باللعب بالطّير، وهم أكثر من يرتاد أسواق الطّيور [2033]. والخصيّ من صباه يجيد دعاء الحَمام الضّواري[2034]. أما عوائدهم القبيحة فثَبْتُها طويل جداً؛ فمنها خُبث العَرَق وصِنانه، خلافاً لما يُخصى من الحيوان[2035]؛ وطولُ العظم وعرضه، خلافاً للحيوان؛ وطولُ القدم واعوجاج الأصابع؛ ويعرض لهم سرعة التّغير والتّبدُّل، والانقلاب من حدّ الرّطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتّقبّض إلى الهزال؛ وسرعة الرّضى والغضب وحب التّميمة، وضِيق الصّدر، وسرعة الدّمعة كالصّبيان والنّساء؛ والبول في الفراش، وحب

الشّراب والإفراط فيه، والشّره عند الطّعام والبخل عليه[2036]؛ وقد اتُّهِموا خاصَّة بحبِّهم لخدمة الملوك وامتلاكهم لهم وبشدّة استخفافهم بمن لم يكن ذا سلطانٍ عظيمٍ، أو مالٍ كثير أو جاهٍ عريض[2037]؛ وكان برجوان خادماً أبيض خصيًّا رُبّي في دار الخليفة الْعزيز بالله؛ فلمّا حضرته الوفاةُ وصَّاه على ابنه الحاكم بأمر الله، فترقَّت أحواله، حتى بلغ النّهاية، وصار هو الواسطة بين الحاكم وبين النّاس. ثم قصَّر عن الخدمة وتشاغل باللّذات وكثر استبداده. ومن ذلك أنه استدعاه يوماً، وهو راكب معه، فصار إليه، وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه قبالة وجه الحاكم. وكان آخر أمره أنه قتله أحد الخدم، فضربه بسكِّين في عنقه، وأثخنه آخرون بالخناجر [2038].

وقد ظهرت مع اتخاذ هؤلاء الخصيان عادةٌ جديدة وهي إلباس الخادمات ثوب الخدم.

لما أفضى الأمر إلى الأمين قدَّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم، فلما رأت أم جعفر شدّة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحِسان الوجوه وعمّمت رؤوسهن، وألبسَتْهنّ الأقبية والمناطق، فاتخذ النّاس الجواري المطمومات، وألبسوهن الأقبية والمناطق، وسمّوهنَّ الغلاميات[2039]. وكذلك كانت عريب المغنية المشهورة، وهي في سنّ السّابعة عشرة، وصيفة للأمين الذي كان «أحسن خلق الله، ولم يُرَ ذكر ولا أنثى مثله جمالاً وحسناً»، وهي تقول: «فكنت ألبس قباء ومنطقة، وأقوم على رأسه؛ وربّما سقيتُه»[2040]. ونرى في قصور الخُلفاء بعد ذلك بقرنٍ جواريَ يلبسن ملابس الغلمان[2041]، وكذلك امتدّت هذه العادة أيضاً إلى ساقيات الشّراب[2042].

ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأنٌ طوال العصور التي كانت السّيادة فيها للرّوح العربية؛ ولم يكن ثَمَّ ما يدعوا الفقهاء الأولين إلى الكلام في ذلك. أما في القرن الرّابع فقد اختلفت آراء الفقهاء في اللّواط بالغلمان اختلافاً بيِّنا؛ فأراد البعض أن يعدّوه كالزِّنا[2043]؛ وأراد آخرون أن يفرّقوا بين اللّواط بالغلام المملوك وغير المملوك، والأكثرون اتفقوا على أنه لا حدَّ فيه، وهو يوجب التّعزيز من القاضي[2044].

وفي الأخبار المأثورة بين المسلمين أن هذا اللواط أتى من المشرق مع جيوش العبّاسيين الذين جاؤوا من خُراسان[2045]. في حين أن بلاد الأفغان كانت مشهورة بذلك في القرن الثّالث أو الرّابع للهجرة[2046] ثم شاع واستقرّ في القرن الرّابع.

والغزل الذي قيل في التّوجّع من هوى الذّكران يعادل ما قيل في النّساء على الأقل؛ أما الشّعراء الذين كان تشبيبهم مقصوراً على الغلمان دون غيرهم، فقد كانوا قليلين، مثل مُصعب[2047] والسّلامي (توفي عام 394 هـ - 1003 م)[2048]. غير أنّ الشّعراء الآخرين الذين اقتصروا على التّشبيب بالنّساء ليسوا هم أيضاً بالكثيرين. بل نجد للشّاعر أبي فراس، مع شرفه ونبله واتزانه، قصائد في التّشبيب بالغلمان[2049]. وحوالي عام 330 هـ كان الخُبز أرزّي الشّاعر يخبز وينشد أشعاره في الغزل، ومن ذلك قوله[2050]:

ودِدْتُ أني بكفِّه قلم أو أنني مدّة على قلمه

إن علقت منه شعرة يأخذني مرّة بفمه ويلثمني

وكان الانهماك في الولع بالغلمان شأن العامّة والخاصّة، فلم نسمع أن أحد الخُلفاء استهتر بغلام.

ويُروى عن الأمير بُختيار البُوَيْهي أنه أُسِر له في إحدى المواقع غلامٌ تركيّ؛ فجنّ عليه جنوناً، وحدث له من الحزن ما لم يُسمع بمثله، «وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالملكة» وما زال يُظهِر الشّكوى حتى خفَّ ميزانه عند النّاس وسقط من عيونهم[2051].

بل يُروى أن سيف الدّولة صاحب حلب المشهور بحروبه وغزواته، كان له غلامٌ يسمّى باسمٍ مؤنث وهو «ثمل» وكان عزيزاً عليه[2052].

وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذي يُسْتَهْتَر به، غنَّاجاً، ألثغ السّين[2053].

وعلى شاطئ دجلة كان هناك مكانٌ للّهو فيه، إلى جانب الخمار والخمر «ظبيٌ غرير» أو «ظبية غريرة»، وقاصده لا يدفع لهذا كله في الليلة إلا درهمين[2054].

ويُروى عن الخليفة الحاكم بأمر الله أنه كان يأمر أحد رجاله بأن يأتي شيخاً خليعاً بمشهدٍ منه ومن الجمع الحاضر، ويضحك من هذا المنظر القبيح ويطرب له[2055].

وقد كان التّولع بالغلمان سبباً في قصصٍ غراميِّة شائقة، فيُروى عن نفطويه (توفي عام 323 هـ - 935 م)، وكان عالماً بالعربيّة واللغة والحديث، وأنه كان بينه وبين محمّد بن داود الأصفهاني الفقيه صاحب المذهب المسمّى باسمه مودةٌ أكيدة وتصاف تام. وكان ابن داود يهوى محمّد بن جامع الصّيدلاني هوىً أفضى به إلى التّلف، فدخل عليه رجلٌ فقال له: يا سيدي ما بك؟ فقال: عن ابن عبّاس أن النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم قال: من أحبّ فعفّ وكتم، ثم مات، مات شهيداً..؛ ثم مات من ليلته في عام 297 هـ؛ فيقال إنّ نفطويه تفجَّع عليه، ولم يجلس للنّاس سنة كاملة[2056].

ويُروى عن أحمد بن كُليب (توفي عام 426 هـ - 1035 م) أنه كان يحضر مجلساً، وكان معهم ولدٌ لأحد القُضاة يسمّى أسلم، وكان من أجمل من رأت العيون؛ فاشتد كلَفُه بأسلم، وصرَّف فيه القول، إلى أن فَشَت أشعارُه فيه، وجُرَّت على الألسنة، وتُنوشدت في المحافل، فلما بلغ الأمر هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطّلب، فكان أحمد بن كُليب لا شغل له إلا المرور على باب أسلم سائراً ومقبلا نهارَه كله؛ فانقطع أسلم عن الجلوس أمام باب داره، وكان إذا صلى المغرب، واختلط الظّلام خرج مُسْتَروِحاً، وجلس على باب داره؛ فعيل صبرُ أحمد بن كُليب، وتَزَيّا بزيّ أهل البادية، وأخذ بإحدى يديه دجاجاً وبالأخرى قفصاً فيه بيض، وتحيَّن جلوس أسلم عند اختلاط الظّلام، فتقدَّم إليه وقبَّل يده مدَّعياً أنه أحد أصحابه في الضّياع التي يملكها يقدّم له هديّة؛ فأمر أسلم بأخذ ذلك منه، ثم تأمّله، فعرفه، وأقسم ألا يقعد على باب داره ليلاً ولا نهاراً، فأنهكت أحمد العلة وأضجعه

المرض؛ وزاره أحد أصحابه، فقال له: إنَّ دوائي نظرةٌ من أسلم، فلو سعيت في أن يزورني لأعظم الله أجرك، فذهب هذا الصاحب إلى أسلم، وحكى: «فأخذ رداءَه ونهض معي راجلاً إلى منزل أحمد بن كُليب، وكان يسكن في آخر دربٍ طويل، فلما توسَّط الدّرب، وقف، واحمرَّ، وخجل، وقال لي: السَّاعة والله أموت، وما أستطيع أن أنقل قدمي، ولا أن أعرّض لهذا نفسي، فقلت: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل أن تنصرف؛ قال: لا سبيل والله إلى ذلك البتّة، ورجع مُسرعاً فأتَبَعتُه، وأخذتُ بردائه فتمادى، وتمزَّق الرّداء، وبقيتْ قطعة منه في يدي... فرجعتُ ودخلتُ الدّار على أحمد بن كُليب؛ وقد كان غلامه دخل إليه، إذ رآنا من أول الدّرب مُبشِّراً؛ فلما رآني دونه تغير لونه، وقال: أين أبو الحسن؟ فأخبرتُه بالقصّة، فاستحال من وقته، واختلط، وجعل يتكلّم بكلام لا يُعقل منه أكثر من التّوجُّع... فخرجتُ عنه، فو الله ما توسَّطتُ الدّرب، حتى سمعت الصّراخ عليه، وقد فارق الدّنيا». ثم رُؤي أسلم في يوم شديد المطر، لا يكاد أحد يمشي في الطريق، وهو قاعد على قبر أحمد بن كُليب زائراً له. وكان أحمد بن كُليب قد أهدى إلى أسلم في أول أمره كتاب الفصيح وكتب عليه[2057]:

وثم قصّة أخرى حكاها الصّنوبري الشّاعر الشّامي (توفي عام 334 هـ - 945 م)، قال: «كان بالرُّها ورَّاقٌ يقال له سعد، وكان في دكّانه مجلس كل أديب، وكان حسن الأدب، يعمل شعراً رقيقاً، وما كنا نفارق دكّانه أنا والمعوج الشّامي الشّاعر وغيرنا من شعراء الشّام وديار مصر؛ وكان لتاجر بالرُّها - نصرانيّ من كبار تجارها - ابنٌ، اسمه عيسى، من أحسن النّاس وجهاً، وأحلاهم قدًّا، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً؛ وكان يجلس إلينا ويكتب عنا أشعارنا، وجميعُنا يحبّه ويميل إليه، وهو يؤمئذٍ صبيٌّ في الكتّاب؛ فعشقه سعدٌ الورَّاق عشقاً مبرِّحاً، وعمل فيه الأشعار... ثم شاع بعشق الغلام في الرُّها خبرهُ؛ فلما كبر وشارف الأشلاف أحب الرّهبنة، وخاطب أباه وأمه في ذلك، فخرجا به إلى دير زكّى بنواحي الرّقة، وهو في نهاية حُسنه؛ فابتاعا له قلاية، ورفعا إلى رأس الدّير جُملة من المال عنها، فأقام الغلام فيها. وضاقت على سعد الورَّاق الدّنيا بما رحُبت، وأغلق دكّانه، وهجر إخوانه، ولزم الدّير مع الغلام؛ ثم إن الرُّهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به، وتوعدوه بإخراجه من الدّير، إن لم يفعل. فلما رأى سعد امتناعه منه شقّ عليه، وخضع للرُّهبان، ورفق بهم، فلم يجيبوه، وقالوا: في هذا علينا إثمٌ وعارٌ، ونخاف السُّلطان؛ فكان إذا وافى الدّير أغلقوا الباب في وجهه، ولم يَدَعوا الغلام يكلمه؛ فاشتد وَجْدُه، وزاد عشقه، حتى صار إلى الجنون، فخرق ثيابه، وانصرف إلى داره، فضرب جميع ما فيها بالنّار، ولزم صحراء الدّير، وهو عريانٌ يهيم، ويعمل الأشعار ويبكي؛ قال أبو بكر الصّنوبري: ثم عبرتُ يوماً أنا والمعوج من بُستانٍ بِتْنا فيه، فرأيناه جالساً في ظل الدّير، وهو عريان، وقد طال شَعره وتغيّرت خلقته؛ فسلّمنا عليه، وعذلناه وعاتبناه، فقال: دَعَاني من هذا الوسواس، أترَيان ذلك الطّائر على هيكل؟ وأومأ بيده إلى طائر هناك، فقلنا: نعم، فقال: أنا، وحقكما يا أخويَّ! أناشده منذ الغداة أن يسقط، فأحمِّله رسالةً إلى عيسى، ثم تركنا، وقام يعدو إلى باب الدّير، وهو مغلقٌ دونه، وانصرفنا. ومازال كذلك زماناً؛ ثم وُجد في بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدّير.

وكان أمير البلد يؤمئذ العبّاس بن كيغلغ؛ فلما اتصل ذلك به وبأهل الرُّها خرجوا إلى الدّير، وقالوا ما قتله غير الرُّهبان؛ وقال لهم ابن كيغلغ: لا بدّ من ضرب رقبة الغلام، وإحراقه بالنّار، ولا بدّ من تعزير جميع الرُّهبان بالسّياط؛ تعصّب في ذلك فافتدى النّصارى نفوسهم بمئة ألف درهم.

فكان الغلام بعد ذلك إذا دخل الرُّها لزيارة أهله صاح به الصّبيان: يا قاتل سعد الورَّاق، وشدّوا عليه بالحجارة، يرجمونه؛ وزاد عليه الأمر في ذلك، حتى امتنع من دخول المدينة؛ ثم انتقل إلى دير سمعان[2058]. وكان بعض العلماء يمنعون الشّبان غير الملتحين من حضور دروسهم؛ ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية، وكان بعض الصّبيان الشّديدي الإقبال على التّعلم يتخذون لحىً مصطنعة، ليتمكنوا من التّسرب إلى مجالس أولئك العلماء[2059].

أما البُغاء فليس هو بالشّيء الذي يستعيض به العزّاب عن الزّواج، كما يرى المفكّرون العقلانيّون من علماء الاجتماع اليوم، بل هو في أصله، نظامٌ ديني غريب في بابه، شأنه شأن نظام الخصيان. وقد ظلّ البُغاء موجوداً على الرّغم من إباحة الزّواج بأكثر من واحدة ومن كون العرف ينكر البُغاء، بحيث كان الرّجل الأعزب أو الفتاة بدون زوج، بعد هذا كله، يبدو أمراً شاذاً جداً، وأيضاً على الرّغم من أن الشّريعة جعلت حدّ الزّاني المتزوّج قاسياً، فقضت أن يُرْجَمَ حتى يموت. غير أنّ الشّارع شدّد واحتاط في إثبات تهمة الزّنا إلى حدٍّ لم يمكن معه الحكم على أحد بهذه العقوبة[2060]. وقد وصف أحد الرّحّالين المسلمين حوالي عام 300 هـ - 912 م حال البُغاء في الصّين وتكلّم عن الزّواني؛ وقال عليهن في كل سنة ضريبةٌ يؤدّينها لبيت المال، ثم قال: ونحن نحمد الله على ما طهَّرنا به من هذه الفتن[2061].

ولكن لم تمضِ على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من مخالفة عضد الدّولة (توفي عام 372 هـ - 982 م)، للشّريعة أنه فرض على الرّاقصات والقحاب بفارس ضريبة[2062]. وقد أخذ الفاطميون بهذا النّظام أيضاً، ففرضوا الرّسوم على بيوت الفواحش[2063].

وفي حكاية اختُرعت حوالي القرن الرّابع الهجري أن عضد الدّولة خطب الأميرة جميلة الحَمْدانيّة، فامتنعت عليه؛ فألزمها إما أن تؤدّي إليه فريضةً من المال أو تختلف إلى دار القحاب، فغرَّقت نفسها في دجلة[2064].

وممّا اختصت به مدينة اللاذقيَّة أن المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الرُّوم في حلقة، ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً يسمّى خاتم المطران. وإن وُجد خاطئ مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب. غير أنّ هذا النّظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الرُّوم[2065]. غير أن البِشاري المقدسي يحكي لنا أنه في مدينة السّوس، قصبة خوزستان، تُرى دور الزّنا عند أبواب الجامع ظاهرة[2066]؛ هذا على حين أن ابن حَوْقَل يقول إنه ليس في بلدان المغرب من الفواحش مثل ما في المشرق[2067].

وفي عام 323 هـ - 934 م قام الحنابلة، وهم المسلمون المتشدّدون، لمطاردة المنكر في بغداد، حتى صاروا يكسرون دور القوّاد والعامّة؛ فإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مُغنِّية ضربوها وكسروا آلة الغناء، حتّى تدخّلوا في مَشْي الرّجال مع النّساء والصّبيان؛ فإذا رأوا ذلك سألوا الرّجل عن الذي معه من هو، فأخبرهم[2068].

لكنّ المحتسب يقول إنه إذا رأى وقفة رجل مع امرأة لم يظهر منها أمارات الرّيب، لم يعترض عليهما، وإن كانت ذات محرم فَليصُنْها عن مواقف الرّيب، وإن كانت أجنبية فَليَخَفْ الله تعالى من خلوة تؤدّيه إلى معصية الله تعالى[2069].

غير أنّ العادة المستحسنة في نظر الشّرع هي أن يَقِرَ النّساء في بيوتهن. وقد رغب الحاكم بأمر الله في مصر في أن يَغْلو في مراعاة آداب الشّريعة، فمنع النّساء من المشي في الطّرقات، ومنع الأساكفة من عمل أخفاف لهن؛ وإذا دعت الضّرورة إلى حضور غاسلة أو قابلة استؤذن في ذلك برُقعةٍ ترفع إليه[2070]. وبعد أن كانت عادة استقرار النّساء في البيوت أدباً شرعياً صارت عادةً بين الأشراف والكبراء، حتى في إسپانيا، «وبتأثير الإسپان كانت لا تُرى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالي منتصف القرن السّابع عشر الميلادي»[2071].

وقيل إن «أحقُّ النّاس بثلاث لطمات من دُعي إلى طعام، فقال لصاحب المنزل: ادْعُ ربَّة البيت تأكل معنا»[2072]. وكان يَحُلُّ محلَّ ربة البيت على موائد الدّعوات ضربٌ من الحظايا، كما كان الحال عند اليونان القدماء؛ وكُنَّ نساءً مُتْقِنات لأرقى الآداب الاجتماعية مدرِّبات عليها، حائزاتٍ كل مظاهر الجمال والثّقافة والفن، قديرات على أن يتحدثن مع الرّجال حديثاً حرًّا. ويُخيَّلُ للإنسان أن هذا الفصل بين الأسرة والأجانب عنها كان فيه راحة للبيت وللجماعة. وكان أغلب أولئك النّساء جواري مملوكات، ولكن منهنّ من تعمل بأجر، ومعظم هؤلاء مُعْتَقات؛ وممّا يذكر أن مغنّية مشهورة كانت تشتغل في النّهار بدينارين وفي اللّيل بدينار[2073].

ويُروى أن غلاماً وقع في هوى جاريةٍ مغنّية، فأخذ في استعطافها بالمراسلات والمكاتبات، والجارية بغدادية لا تعلاف إلا الدينار، وجعل يصف في رقاعه عشقَه، وامتناعه من الطّعام والشّراب، وقد كتب إليها في رقعة: فَمُري بالله خيالك أن يطرقني ويبرّد حرارة قلبي. فقالت لرسولته: قولي لهذا الرّقيع: يا مُدْبِر! أنا أعمل بك ما هو خير لك من أن يطرقك خيالي؛ احْمِل دينارين في قرطاس، حتى أجيئك بنفسي[2074].

غير أنّه في هذه النّاحية كان عرف البلاد ظاهراً إلى جانب النّظريات الشّرعية؛ وقد لاحظ العرب تلك الحرّية الكبيرة التي تركها رجال القِبْط لنسائهم، وعلّل بعضهم ذلك بأنه لما غرق فرعونُ وقومُه لم يبق من الرّجال إلا العبيد والأجَراء؛ فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوَّجه، وتتزوّج الأخرى أجيرها، وشَرَطْنَ على الرّجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن[2075]. وقد احتفظ النّساء بمصر بعد الإسلام بشيء من ذلك، فيقول البِشاري المقدسي إن النّساء بمصر لا يتورّعن عن الفجور، وللمرأة زوجان[2076]؛ وهو يقول عن أهل شيراز: «وحُدِّثْتُ عن نسائهم بشيءٍ قبيح»، ويحكي أن نساء هَراة «يغتلمن إذا ازدهرت أشجار الغبيراء كما تغتلم السّنانير»[2077].

ويظهر أنه في تلك العصور ظهر صوتٌ يطالب للنّساء بالحق في المهامِّ الكبيرة حوالي عام 300 هـ - 912 م؛ لأن ابن بسام الشّاعر يقول[2078]:

بة والعمالة والخطابه ما للنّساء وللكتا

أن يَبِتْن على جنابه هذا لنا ولهنَّ منّا

وكان من النّساء عالمات بالدّين، يُقبل النّاس على دروسهن[2079].

ومن الفقهاء من جوَّز للمرأة أن تتولّى القضاء، فتقضي فيما تصحّ شهادتها فيه.

وتدلّ جميع الأخبار والحكايات على أن أهل الطبقة الوسطى كانوا يكتفون بزوجة واحدة؛ ففي مقامةٍ من مقامات الهَمَذاني مثلاً أن أحد التّجار يدعو رجلاً إلى وليمة، ويصف له نشاط زوجته، فيقول: «يا مولاي؟ لو رأيتها، والخرقة في وسطها، وهي تدور من التّنور إلى القدور، تنفث بفيها النّار، وتدقّ بيدها الأبزار؛ ولو رأيت الدّخان، وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، لرأيت منظراً تحار فيه العيون؛ ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من خليلته، وأن يسعد بظعينته»[2080].

ويُروى عن الخليفة المُعِزّ لدين الله الفاطمي أنه خاطب جماعة قائلاً لهم: «فحسب الرّجل الواحد الواحدة»[2081].

وكذلك يستحسن أبو العلاء ألا يشرك الإنسان مع المرأة سواها ويقول[2082]:

فقد أخطأت في الرّأي للتّريك	من تشرك مع المرأة سواها
لما كان الإله بلا شريك	فلو يرجى مع الشّركاء خيرٌ

أما الكبراء فلم يكن عندهم تعدُّدُ الزّوجات إلا من طريق اتخاذ الجواري للاستمتاع بهن؛ وخُلفاء القرن الرّابع كلهم أمهاتُهم جوارٍ صقلبيات، ولذلك فإنهم لم يكونوا يتزوّجون غير المملوكات إلا نادراً؛ ونظراً لغلبة المملوكات على الخُلفاء سمّيت زوجة أحدهم بالحُرّة[2083].

وقد بيّن الجاحظ العلّة التي من أجلها صار أكثرُ الإماء أحظى عند الرّجال من أكثر المُهَيْرات، بأن الرّجل قَبْل أن يملك الأمَة قد تأمّل كل شيء فيها وعرفها، أمّا الحُرّة فإنما يُستشار في جمالها النّساء، والنّساء لا يبصرن من جمال النساء قليلاً ولا كثيراً[2084].

أما زواج الأرامل فكان العُرف يسخطه سخطاً شديداً، وفي أوائل القرن الثّالث الهجري، امتحن رجلٌ كاتباً، فسأله عن صديق تزوجت أمُّه، أيكتب له تهنئة أم تعزية، فقال يُكتب له: «إن الأقدار تجري بخلاف محابّ المخلوقين، والله يختار للعباد، فخار لك الله في قبضها إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء!»[2085]. وكذلك كتب الخوارزمي (توفي عام 393 هـ - 1003 م) إلى ابن مسكويه المؤرّخ، بعد أن تزوجت أمُّه: «قد كنتُ أسأل الله أن يبارك لك في حياتها، والآن أسأله أن يعجل

بوفاتها؛ فإن القبر أكرم صهرٍ، وإن الموت أستر سترٍ، ولا تذهب نفسك حسراتٍ على ما سبقك عليه الدّهر... والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها»[2086].

وكان ميلاد البنت على العموم مناسبة للتّهنئة الحقيقية، وقد كتب الشّريف الرَّضي إلى أخيه مهنئاً بمولودة[2087]:

الآن جاءت خيول السّعد راكضة	تجري بيومٍ مضيء الوجه مجدود
مولودةٌ تهب الرّاءون بهجتَها	لثماً، وعانَقَتها في ثوب محسود

غير أنّ الخوارزمي كتب معزًّيا لرجل عن فقد ابنته؛ وهو يختم كتابه داعياً لأبيها أن يعوّضه الله عنها أخاً[2088].

ولم يكن انفصال النّساء عن الرّجال في الحياة الاجتماعية هو وحده السّبب فيما يُلاحظ في كلام أمم الجنوب من فُحشٍ ننفر منه؛ فإننا لو قارنّا قصص العرب في عصرهم الأول ونوادرهم وكلامهم وشعرهم بما في القرنين الثّالث والرّابع للهجرة لأدهشنا ما نراه في هذين القرنين من ميلٍ شديد إلى الإفحاش في القول. وليس هذا أيضاً إلا من أثر سيطرة العادات الشّرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام؛ ولا يزال البدوي إلى اليوم أعفّ وأطهر من غيره[2089]. وقد سيطرت على شعر الهجاء بنوعٍ خاص الألفاظ البذيئة؛ ولو نظرنا إلى الأشعار القديمة التي جمعها أبو تمَّام في ديوان الحماسة وقارنّاها بشعر البُحتُري ـ الذي كان يعدّ من أتباع طريقة القدماء ـ لوجدناها أشد عفّة وطهارة. أما ابن المُعتزّ، وهو الأمير العبّاسي الشّاعر، (توفي عام 269 هـ - 909 م) فإنه أجاب على حبيبٍ له في ظهر كتابه، وهو يبين سبب ذلك فيقول[2090]:

وأجبتُ في ظهر الكتاب إذا أتى	*ليلوط خطّي في الكتاب بخطّه*

وفي القرن التّالي زاد الفُحش، حتى يُروى عن الوزير سليمان بن الحسن حوالي عام 319 هـ - 931 م أنه أظهر «من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجلّ الوزراء عنه»[2091]. ولكن في أواخر هذا القرن نرى ابن عَبّاد الوزير الجليل المشهور بالصّاحب، يستعمل في شعره أفحش الأوصاف[2092]؛ وهو يبيّن رأيه في أحد شعراء أهل عصره في ثوبٍ من الفحش[2093]، ولما ورد بغدادَ قصد دار الوزير المُهَلّبي؛ فلما طال انتظار الصّاحب كتب لأبي إسحق الصّابي رقعة فيها[2094]:

وأُتركُ محجوباً على الباب	ويدخلُ غيري كالأ...

ويخرجُ كالخصيِّ

بل نرى أن الصّابي هذا، مع أنه مفخرة النّثر العربي، إذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مُقذعة من ألفاظ المقاذر والمجون[2095]. ونستطيع أن نصور لأنفسنا الفُحش في كلام المُجّان الحقيقيين كابن الحَجَّاج.

ويحكي أحد الشّعراء كيف كان يغوي الصّبيان في الجامع الكبير بالبصرة وهو يبيّن كيف يمكن أن يستغوي من كان منهم مستعصياً فيقول[2096]:

ب إليه يتلقاهفرح بالدّرهم الضّر
ما بالجو مأواه فبالدّرهم يستنزل

ويقول الهَمَذاني هاجياً[2097]:

إذا رأى وجه دانق ما كنت إلا مؤاجراً حَلِقاً
بركا

وهذا ينطبق على كثيرين من معاصريه.

ثم عادت إلى الظّهور الأوضاع القديمة لعالمٍ قديم، وأصبحت فيه للمال قوة عظيمة، وألغى الفساد كل قيمة أخرى؛ وكل شيء صار يعرض من أجل المال، وبلغت وصمةُ حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدّولة.

ويُروى أنه في عام 321 هـ - 933 م أمر الخليفة القاهر بتحريم الخمر والغناء، وأمر ببيع الجواري المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء؛ ثم وضع من يشتري له كل حاذقة في صنعة الغناء، فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان. وكان القاهر مولعاً بالغناء والسّماع[2098].

وكذلك يُروى عن أمير مصر في ذلك العهد حكاياتٍ طريفة، فقد كان يأخذ أشياء النّاس أخذ طمّاع لا يستحي؛ وحكى مزاحم بن رائق قال: استُعمل لي فَروٌ؛ قام عليّ بستمئة درهم؛ فمن حسنه وفرحي به لبسته بدمشق، وركبت إلى الإخشيد؛ فلما رآه قلبه واستحسنه وقال: ما رأيتُ مثله قط؛ فلما انصرفت اعترضني فاتِك، وقال لي: اجلس فإن الإخشيد يريد أن يخلع عليك. وجاؤوا برزمة ثياب، وقالوا: اخلع الفرو! وطووه، ومضوا به؛ وبقيت جالساً. ثم قالوا: قد نام، تعود إليه العشيّة، فانصرفت إلى داري، وقلت: هاتوا الفروَ، فقالوا: أيّما فرو؟ ما جاءنا شيء. فلما كان عشية دخلت على الإخشيد،

فإذا الفرو عليه، فلما رآني ضحك، وقال: كيفَ رأيتَ، ما أصفق وجهك! ولكنك ابنُ أبيك؛ وكم عرَّضت لك، وأنت لا تستحي؛ فلم تفعل، حتى أخذناه بلا شُكر ولا مِنّة[2099].

ويُروى أن المادرائي نزَّه الإخشيد في بُستانه ببني وائل، وفرش له، وأكثر من الطّعام والفواكه والطّيب والفرش، وقام بجميع العسكر؛ فأكل ونُصبت بين يديه التّماثيل من الذّهب والفضّة والكافور والعنبر، وجمع بين يديه المغنّون من الرّجال والنّساء، فطابت بذلك نفسه، ثم جُعل بين يديه صينيتان من الفضّة، إحداهما مملوءة بالدّنانير والأخرى بالدّراهم للنّثار؛ فأخذ صينية الدّنانير وجعلها خلفه، ونثر الدّراهم؛ فلما انصرف حمل جميع ما كان جالساً عليه وما كان بين يديه وما شرب وما أكل فيه، فأُرسل خلفه، وحُمِل على فرسين بسرجٍ ولجامٍ من ذهب[2100].

وقد نشأ عن قلّة شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه قلّة تقديره لكرامة الغير؛ وفي سنة 268 هـ - 884 م خالف العبّاس بن أحمد بن طولون Ibn Tolûn على أبيه، فأراد الأب أن يعاقبه ومن معه، فنصب دكةً عظيمة رفيعة السّمك، وجلس في علوٍّ يوازيها، ووقف العبّاس بين يدي أبيه في وعمامة وخفّ، وبيده سيفٌ مجرّد، وكان أعوان العبّاس في الثّورة ومن حسّن له الخروج على أبيه جالسين على الدّكة، فكان الواحد منهم يُضرب بالسّوط، ثم يُؤمر العبّاس بأن يقطع يديه ورجليه من خلاف، ثم يلقى من الدّكة إلى الأرض[2101].

ولما خُلع الوزير حامد بن العبّاس لم يزل ابن الفُرات بالخليفة حتى سلّمه إليه، فكان يُصْفَع ويُضرب. وكان المحسِّن، ابن الوزير الجديد، يُخْرِجه إذا شرب، «فيُلْبسه جلد قرد، له ذنب، ويقيم من يُرقِّصه ويصفعه، ويشرب على ذلك»[2102].

حكى ابن هشام أنّ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، فمرَّ بسواد بن غزيَّة، وكان «مستنصلاً» من الصّفّ؛ فطَعن في بطنه بالقدح، وقال: اسْتَوِ يا سواد! فقال: يا رسول الله أوجعتني! فأقِدني قال: فكشف رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم عن بطنه، فقال: اسْتَقِدْ، فاعتنقه سواد، وقبّل بطنه[2103]. هذا مثالٌ لشعور العربي الأول بكرامته؛ أما في القرن الرّابع فقد كانت العقوبة البدنية لا تكاد تعتبر مزرية بالكرامة. ويُروى عن الأمير معزّ في سنة341 هـ أنه ضرب وزيره أبا محمّد المُهَلَّبي بالمقارع مئة وخمسين مقرعة، يراوح بينها بأن يرفع عنه الضّرب، حتى يوبّخه ويبكّته، ثم يعيد عليه الضّرب؛ لكن هذا الوزير قَبِل بعد أن استقل من هذا الضّرب أن يرجع إلى الوزارة[2104]. وقد تولّى الوزارة بمصر في القرن الخامس رجلٌ كانت يداه قد قطعتا بسبب الخيانة[2105]. وبلغ الحال إلى ما يشبه ما عند الزّنوج، حيث لا يتولّى أحدٌ قيادة القوافل إلا بعد أن تُمْتَحَنَ مقدرتُه على احتمال الضّرب بالسّياط[2106].

وكان الثّوار الذين يُؤسَرون، وسلاحهم في أيديهم، يعاملون بحسب جُرمهم وعلى قدر ما أثاروه من سخط ورُعب. وكان الأسرى الأجانب يُعاملون بغير معاملة الخوارج من أهل البلاد. ويُروى أن الأعراب سبقوا الحجّاج إلى مواضع الماء، فنزحوها وألقوا فيها الحنظل، وهلك من الحجيج بسببهم خمسة عشر ألفاً، أنهم عوقبوا بأن تُركوا على دجلة، حتى ماتوا عطشاً[2107].

وفي عام 289 هـ - 901 م قَبض على ابن أبي الفوارس القِرْمِطي، فقَلعت أضراسه أولاً، ثم خُلع بمدّ إحدى يديه ببَكَرةٍ وتعليق صخرة في الأخرى، وتُرك على هذه الحالة من نصف النّهار إلى المغرب، ثم قُطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم، وضُربت عنقه، وصُلب[2108].

وفي عام 291 هـ - 903 م قبض على «صاحب الشّامة»، وهو أحد قوّاد القرامطة القُساة، وكان يذبح المسلمين كما تُذبح الأنعام؛ وأُدخل هو وأصحابه بغداد. وقد عزم الخليفة على أن يُشْهره، حتى يراه النّاس جميعاً؛ فأمر أن يُصلب على دقل، والدّقل على ظهر فيل، وأمر بهدم طاقات الأبواب التي يجتاز بها الفيل، ثم استسمج ذلك فأمر بعمل كرسيّ، وركبه على ظهر الفيل في ارتفاع ذراعين ونصف، وأقعد فيه القِرْمِطي، وسار بين يديه الأسرى مقيّدين على جمال، وعليهم دراريع وبرانس من حرير؛ وكان بينهم أحد أصحاب القِرْمِطي، وهو غلامٌ لم تنبت لحيته، وقد جُعلت في فمه خشبةٌ مخروطة، وأُلجم بها فمه؛ ثم شُدَّت إلى قفاه كاللجام؛ وذلك أنه لما دخل الرّقّة كان يشتم النّاس إذا دعوا عليه، ويبصق في وجوههم، فجُعِل ذلك في فمه، لئلا يتكلّم. ثم أمر المكتفي ببناء دكّة ارتفاعها عشرة أذرع لقتل القرامطة. وذُكر عن «صاحب الشّامة» أنه أخذ، وهو في حبس المكتفي، سكرجةً من المائدة التي كانت تدخل عليه، فكسرها، وقطع بشظية منها عروقه، فسال منه دمٌ كثير، فتُرك أياماً بعد أن شُدَّت يده إلى أن رجعت إليه قوته؛ ثم قُدِّم قوادُ القرامطة، وقطعت أيديهم وأرجلهم، وضُربت أعناقهم واحداً بعد واحد، وكانت تُرمى جثثُهم وأعضاؤهم من أعلى الدّكة إلى الأرض، ثم قُدِّم «صاحب الشّامة» فقطعت يداه ورجلاه، وأُضرمت نارٌ عظيمة وأُدخل فيها خشب صليب، وكانت توضع الخشبة الموقدة في خواصره وبطنه، وهو يفتح عينيه ويغمضهما، حتى خُشي عليه أن يموت؛ فضربت عنقه، ورُفع رأسُه في خشبة، وكبَّر من كان على الدّكة، وكبر سائر النّاس في أسفلها، ثم ضُربت أعناق الأسرى، فلما كان الغد حُملت الرّؤوس إلى الجسر، وصُلب بدنُ القِرْمِطي على الجسر الأعلى ببغداد[2109].

وبعد ذلك بقرن أي في عام 397 هـ - 1007 م قبض الخليفةُ الحاكم بأمر الله على أبي ركوة؛ وهو ثائرٌ كسر الحاكم وزعزع دولته؛ فأركب جملاً بسنامين وأُلبس طرطوراً، جُعِلَ خَلْفَه قِردٌ يصفعه، وأمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة، وتُضْرَب عُنُقه... فلما حُمِل إلى هناك أُنزل فإذا به ميت»[2110].

وقد حكى المؤرّخ النّصراني يحيى بن سعيد الذي كان يعيش بمصر في ذلك العهد، بدلاً من هذه القصّة الطّريفة، أن أبا ركوة أحضر إلى مصر أسيراً، فأشهر بها؛ قم قُتل في موضع يعرف بمسجد تبْر، وصُلب فيه، وأحرق بالنّار [2111].

هذه هي، كما في الأخبار، أقسى وأفظع العقوبات الرّادعة التي كانت الحكومة تعاقب بها أشدَّ الثّوار غلظةً وأكبرهم أذى، وهم الذين كانوا يحملون أوزاراً من سفك دماء الآلاف من الأبرياء. وإذا عرفنا أن قطع اليد والرّجل عقوبةٌ قضت بها الشّريعة الإسلامية من قبل، ولا تزال إلى اليوم تستعمل مع الثوار في مَرَّاكش، ثم نظرنا بعد هذا في قائمة العقوبات المروّعة التي كانت في متناول الحكام في مثل هذه الأحوال في أواخر العصور الوسطى الأوروبية، لوجدنا، مع شيء من الرّاحة، أن القاهرة وبغداد لم تبلغا مبلغ أوروبا في قسوة الحاكم المتسلّط وغلظته بمن يقع في يده.

وكان الثّوار الذي يؤخذون في الأسر بين المسلمين يُشهَرون عادة في المدن على بغالٍ[2112] أو أفيال[2113] أو على جملٍ ذي سنامين، وهو الأحبّ[2114]. وكان الخوارج يُلْبَسون على أشكال متنوعة؛ فأحياناً يُلبسون ثياباً خشنة، كالبرانس الطويلة من اللبود، وقمصاناً من الشّعر الأحمر[2115]؛ وأحياناً اخرى يُلْبسون درَّاعة ديباج وبُرْنُس خَزٍّ طويل[2116] أو بُرنساً طويلاً بشفاشج وجلاجل[2117]، أو برنساً بأذناب الثّعالب[2118]، أو برنساً طويلاً ملوناً كما يلبس النّساء[2119].

وفي القرن الرّابع كان يُجمع بين الإشهار والصّلب، فكان الثّائر يُشْهر على جمل عليه نِقْنق وهو مصلوب[2120]. ولما أُشهر الحسين بن حمدان ببغداد عام 303 هـ - 915 م صُيِّر مصلوباً على نِقْنِق، وتحته كرسي فوق جمل، ويدير النّقْنِقَ رجلٌ، فيدور الحسينُ من موقعه يميناً وشمالاً، وعليه درّاعة ديباجٍ سابغة، قد غطّت الرّجل الذي يدير النّقنق حتى لا يراه أحد من النّاس[2121]. ولما ضعفت سلطة الخليفة وصار يشقّ عصا الطّاعة عليه أمراء الأقاليم كان إذا هزمهم لم يُعدّوا خارجين، بل محاربين في دار الإسلام، فأصبحت هذه العقوبات لا تستعمل مع الأسرى المحاربين.

ففي عام 307 هـ - 919 م هُزم يوسف بن أبي السّاج، وكان قد خرج على الخليفة وأسّس لنفسه مملكة في شمال غربي إيران؛ فلما أدخل بغداد، وألبس برنساً طويلاً بشفاشج وجلاجل وحمل على الفالج، ساءَ النَّاس ذلك، لأنه لم تكن له فعلةٌ ذميمة في كلّ من أسره أو ظفر به[2122]. ولما خرج ياقوتُ لمحاربة عماد الدّولة بن بُوَيْه أخذ معه برانس لبود، وعليها أذناب الثّعالب، وقيوداً وأغلالاً، وذلك ليجعلها على ابن بُوَيْه وأصحابه، ويشهرهم بها في البلاد؛ لكنّ ياقوتاً هُزم، ووُجد ذلك معه، فأشار أصحابُ ابن بُوَيْه عليه أن يفعل بياقوت وأصحابه مثلَ ذلك فامتنع[2123]. وأمّا القسوة وإلحاق الأذى من جانب القاضي الذي يحقّق في مسألة، فقد منعتها الشّريعة الإسلامية؛ وذلك بأن اعتبرت الإقرار الذي يُكرَه عليه الإنسان بالأذى والتّعذيب أو بمجرّد صياح القاضي به، إقراراً باطلاً غير قانوني. أما صاحب الحرس فكان له أن يسأل من يحقق أمره ويؤذيه «ويضربه بالسّوط والقلوس والمقارع والدّرّة على ظهر وقفاه ورأسه وأسفل من رجليه وكعابه وعضله»[2124]. وكانت المقرعة تعتبر أقل إيذاءً من السّوط[2125].

وثَمَّ ضروبٌ أخرى من التّعذيب كان لا يأتيها إلا الذين يتولَّون مسائل الإدارة والخَراج، ليُكرهوا النّاس على إخراج المال. وكان التّعذيب الذي اختصّوا به أن يعلّقوا من يُبْتَلى بهم من يده أو رجله، ويتركوه معلقاً حتى تنحلّ قوَّتُه[2126]. وأقسى عقوبة عند القاضي المسلم هي الرّجم للشّخص المُحْصَن، إذا زنى؛ وهي عقوبةٌ كأنها لم تُفرض، لأن الشّريعة تُحتّم في الإثبات شروطاً يكاد توفرها يكون مستحيلاً.

وكذلك جعلت الشّريعة عقوبةَ من أخذ وقطع الطّريق وحارب أن تُقْطَع يده ورجلُه[2127]. ولما كان الاعتقاد أن الرّوح تعود للاتصال بالبدن بعد الموت فإن إشهار بدن المعاقب كان يُعدّ ضرباً من تشديد العقوبة، فكان يُصْلب في كثير من الأحيان مع مدّ الذّراعين، وكان يُحْرَس باللّيل وتوقد أمامه النّيران[2128].

ولم يحدث قط في ذلك العصر أن صُلب أحدٌ، وهو حيٌّ إلى أن مات؛ ويُروى في بعض الكتب أن الحلّاج، الذي قتل عام 309 هـ - 921 م صُلِبَ حيًّا إلى أن مات[2129]. بينما الصّحيح أنه عُلِّق وأشهر في أول دعوته، ثم اعتقل؛ لكن ذلك وقع قبل قتله بثمانِ سنين، حين ضُربِ بالسّياط حتى مات.

وقد ذكر ابن المُعتزّ[2130] من الفظائع المنكرة التي فعلها السّودان في القتل ببغداد «الصّلب قبل الموت». وكانت أشد عقوبة هي إحراق الجثة، وهذه الدّرجة العليا في إتلاف المعاقَب إنما ظهرتْ لأنه لا تدفع بعد ذلك للمحروق دِية[2131].

وفي سنة 312 هـ - 924 م قُبض على أعجميّ وجد في دار الخلافة؛ وظُنَّ به أنه كان يريد أن يفتك بالمُقتدِر، «فضُرب وعُنّف»، فلم يُقِرّ بخبره، وعوقب حتى تلف، ثم صُلب، ولُفَّ عليه حبل من قنّب ومشاقة، ولُطِّخ بالنّفط، وضُرب بالنّار»[2132].

وفي سنة 392 هـ - 1001 م سُمل أحد العُمّال المكروهين، فمات؛ فبعد أن دُفن نبشه أهلُ البلد وأحرقوه لسوء معاملته لهم وَلِما قَدّم من القبيح إليهم[2133]. ولا أعلم أن أحداً من المسلمين في ذلك العصر أحرق وهو حيٌّ قط (وثمّة حكاية واحدة فقط تثير بعض الشّكّ في أن يكون الخليفة المُعتضِد قد فعل هذا الأمر)[2134].

ولا نسمع عن السّلخ إلا عند الفاطميين، بأفريقيا؛ ففي سنة 341 هـ - 952 م أُسر أحد الثّوار، بعد أن كان قد أفسد المغرب وقطع في بسكرة وحدها ثلاثمئة ألف نخلةٍ؛ فسُلخ من جلده، وهو حيٌّ، وحُشي بالتّبن وصُلب[2135]. وأُسر أحد الثّوار، فجرح نفسه وهو في سجنه، فمرض حتى مات؛ وكان قد أتعب جوهراً فاتح مصر، فسُلخ بعد موته وحُشي جلدهُ تبناً وصُلب بين مصر والقاهرة[2136].

ويُروى عن أبي بكر النّابلسي الزّاهد أنه قال ما يسيء للفاطميين؛ فأحضره المُعِزّ لدين الله، فشهره وضربه بالسّياط. ثم أمر بسلخه، فتولّى ذلك رجلٌ يهوديّ، فداخلت اليهودي رحمةٌ له؛ فطعنه بالسّكين في فؤاده ليموت عاجلاً[2137].

وكذلك يحكي المقريزي أنه في عهد الملك النّاصر كان يُعَذَّب البعض بأن توضع الجعارين على رأسه، وتغطّى بقماش أحمر، فلا تمضي ساعة، حتى تخرق رأسه وتصل إلى دماغه فيموت[2138]. ويُروى عن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله أنه لما عنَّ له إظهارُ الزّهد غرَّق بعض حظاياه وأمهات أولاده، وذلك بأن وُضِعْن في صناديق وسُمِّرت عليهن وثُقِّلتْ بالحجارة وأُلقيت في النّيل[2139].

غير أنّ مؤرّخي النّصارى بنوعٍ خاص اخترعوا كثيراً من الحكايات القاسية ونسبوها للحاكم لتقوية إيمان النّصارى، فاتهموه مثلاً بأنه عذّب أورستيس Orestes بطريرك بيت المقدس تعذيباً شديداً وقتله، والكنيسة تحتفل باستشهاد أورستيس في شهر مايو؛ ولكن يحيى بن سعيد المؤرّخ النّصرانيّ الذي كان معاصراً لهذا البطريرك يؤكّد ثلاث مرّات أنه مات في القسطنطينية[2140].

ولم تكن المنازعات التي تقوم عند تنصيب الخليفة تنتهي من غير ارتكاب بعض الفظائع، وربّما كان الباعث الأكبر على الفظائع، دون القتل، تهيُّب النّاس بدافع الدّين من إراقة دم الخليفة[2141]. ولكن هذه الفظائع قليلة متفرّقة، هذا أن خيال العامّة أضاف كثيراً إلى الأخبار القديمة.

وفي عام 255 هـ - 869 م خُلع الخليفة المُعتزّ؛ ويقول المسعودي الذي ولد بعد هذا التّاريخ بقليل إن أصحاب السَّير والتّواريخ تباينوا في مقتله، فمنهم من ذكر أن المُعتزّ مات في خلافة المهتدي بالله حتْفَ أنفه؛ ومنهم من ذكر أنّه مات عند قطع الغذاء عنه؛ ومنهم من رأى أنه حُقن بالماء الحارّ المغلي. والأشهر بين من عُني بأخبار العبّاسيين أنه أكره على دخول حمّام مُحْمَى ومْنع الخروج منه؛ ثم تنازع هؤلاء، فمنهم من قال أنه تُرك في الحمّام، حتى فاضت نفسه، ومنهم من قال إنه أُخرج، بعد أن كاد يتلف، وسُقي ماء مقروراً بالثّلج، فنثر كبده وأمعاءه، فخمد من فوره[2142]. أما أبو الفداء، وهو مؤرّخ متأخر، فيقول إنهم أدخلوه سرداباً جصّصوه عليه، فمات[2143].

وقد اختلف أيضاً في قتل المهتدي الذي ولي الخلافة بعد المُعتزّ: فقيل إنه قُتل خنقاً؛ وقيل كُبِس عليه بالبساط والوسائد حتى مات. ومن المؤرّخين من رأى أنه جُعل بين لوحين عظيمين، وشُدَّ بالحبال إلى أن مات؛ وقيل إنه عُصرت مذاكيره إلى أن مات؛ والأشهر عند المسعودي أنه قُتل بالخناجر [2144]. وكذلك يحكي ابن الأثير، وهو مؤرّخ متأخر، أن ابن المُعتزّ، وهو الخليفة الذي قتل عام 296 هـ - 909 م، عُصرت خصيتاه حتى مات[2145]، أما المصادر القديمة فلا تعرف شيئاً عن قتله.

في القرن الرّابع الهجري ظهرت عادةُ سَمل عيون الخُلفاء للحيلولة دون توّليهم منصب الخلافة، وذلك احتذاءً لعادة الرُّوم البيزنطيين من قبل. وكان أول من ذاق هذا العذاب بين خُلفاء الإسلام الخليفة القاهر، حينما أرسل إليه القضاة والشّهود، ليُقرّ على نفسه بالخلع، فأبى أن يُحلّ النّاس من بيعته، وذلك في عام 322 هـ - 934 م[2146]. واستُدعِي أحمد بن أبي الحسن الصّابي، فكحّله بمسمار مُحمّى دفعتين[2147].

وكان المتّقي ثاني من سُمل عام 333 هـ - 944 م، وذلك بأمر توزون رئيس الحرس التُّركي؛ فلما صاح المتّقي صاح معه النّساء والخدم، فأراد توزون أن يخفي الصّراخ، فأمر بضرب الدّبادب[2148]. ثم صار هذا الصّنيع محبوباً جداً عند البُوَيْهيين حوالي عام 400 هـ، وهو يُذكر في تاريخهم. غير أنّ الخليفة قبض في عام 357 هـ - 967 م على ثائرٍ خطيرٍ من بني العبّاس، فاكتفى بأن جذع انفه. وكذلك فعل السُّلطان عضد الدّولة ابن بُوَيْه عام 366 هـ - 976 م بوزير أبيه[2149]؛ وهذا تعلمه المسلمون أيضاً من الرُّوم البيزنطيين.

وأما القتل شنقاً فلم يكن متبعاً، ولا أعلم إلا مثالاً واحداً يشبه ذلك[2150].

وأما القتل بالسُّم فلم يكن له الدّور الذي تنتظره لهذه الطّريقة التي استعملت آلاف السّنين؛ ولم يصلنا من ذلك إلا أمثلةٌ قليلة؛ والذي يَعرف ما للخيالِ من حظٍّ في مثل ذلك في الشّرق اليوم، يجب عليه أن يُسقط نِصفَها. أما المؤرّخون المتَأخرون فذكروا أنه سمّ في بيض مشويّ أحدث له إسهالاً أماته،

معتبرين ذلك حقيقة واقعية[2151]؛ هذا على حين أن صاحب كتاب العيون والحدائق، وهو يعتمد على أقدم المصادر، يقرّر أنه مات من ذربٍ لحقه[2152]. بل يذكر في حكاية من أقدم حكايات السّم، وقعت في عهد الخليفة الهادي (169-170 هـ - 785-786 م): «وقيل غير ذلك»[2153]. وقد ذكر المسعودي، وهو من مؤرّخي ذلك العهد، ما قيل في وفاة المعتضد: «وقيل مات بِسُمٍّ إسماعيل بن بُلبُل؛ ومنهم من ذكر أن جسمه تحلّل في مسيره في طلب وصيف الخادم... ومنهم من رأى أن بعض جواريه سَمَّته في منديل أعطته إياه يتنشّف به، وقيل غير ذلك ممّا عنه أعرضنا»[2154].

غير أنّ طريقة السُّم كان أكثر استعمالها في تاريخ البيوت الحاكمة ببُخارى، إذا قورنوا بغيرهم، كما بيَّن ذلك ميرخُند، وهو من المؤلفين المتأخرين. ولو قارنا ما حكاه بما عندنا من الأخبار القديمة مقارنة دقيقة لتبيّن لنا أن حوادث القتل بالسُّم أقلّ بكثير ممّا يُقال.

وكان من بين الحكام قُساة القلوب في ذلك العصر المعتضد والقاهر، ويُروى من تعذيب الأول منهما أنه كان يأخذ الرّجل، فيأمر بتكتيفه وتقييده، ثم يأمر بأن تحشى أذناه وخيشومُه وفمه بالقطن، وتوضع المنافخ في دُبُره؛ فإذا صار كالزِّقّ المنفوخ وورم سائر أعضائه وبرزت عيناه، سُدّ دبره، وضُرب في عِرقين فوق الحاجبين؛ فعند ذلك يخرج منهما الرّيح والدّم[2155].

أما فظائع القاهر فكانت أكثر مناسبة لطبيعته السّيئة؛ فيُروى عنه أنه أمر بطرح إسحاق بن إسماعيل وأبي السّرايا نصر بن أحمد في بئرٍ حَيَّيْن مُقَيَّدَيْن؛ فتعلّق أحدُهما بسعف نخلة كانت قريبة من البئر، فأمر القاهر بضرب يديه، ودَفْعه في البئر إلى جانب صاحبه[2156].

ولما ظفر بمؤنس اعتقله هو وعلي بن يلبق وابنه، ثم ذُبح عليٌّ بحضرته، وحُمل رأسُه إلى أبيه، ثم ذُبح يلبق، وحُمل رأسه ورأس ابنه إلى مؤنس؛ فلما رآهما، لعن قاتلهما، فأمر القاهر به، فجُرَّ برجله إلى البالوعة، وذُبح كما تذبح الشّاة، والقاهر يراه. ثم أخرجت الرّؤوس الثّلاثة في ثلاث أطسات إلى الميدان، حتى شاهدها النّاس؛ وطيف برأس عليّ بن يلبق في جانبي بغداد، ثم رُدّ إلى دار السُّلطان، وجعل مع الرّؤوس في خزانة الرّؤوس[2157]. ويذكر ابن الأثير وحده، وهو مؤرّخ متأخّر، أن الجند ندموا على مساعدة القاهر في هذه الفعلة الشّنيعة[2158].

وكان القاهر أيضاً هو الخليفة الوحيد الذي قتل رجلاً - وهو أمير عبّاسي كان طامعاً في المُلك - بأن أمر به أن يُقام في فتح باب ويُسدّ عليه بالجصّ والآجرّ، وهو حيّ[2159].

وكذلك قتل السُّلطانُ عضد الدّولة (توفي عام 372 هـ - 982 م) أحد الوزراء مع صاحبٍ له، لأنهما عملا ضدّه؛ فأمر بطرحهما إلى الفيلة، وأُضريت عليهما فقتلتهما شرَّ قتلة[2160]. وهذا هو المثال الوحيد من نوعه في ذلك العصر.

أما الانتحار فلم يبلغنا منه إلا مثالان في ذلك العصر، إذا صرفنا النّظر عن الحالات التي كان من يحاول الانتحار فيها ينتظر القتل الشّنيع. فيُروى عن أحد وزراء بني سامان أنه شرب السُّم

فمات[2161]. والثّاني هو ابن غسان الطّبيب، غرّق نفسه في كلواذي، بسبب عشقٍ حرّق قلبه على غلام الآمدي الحلاوي، وكان نصرانياً[2162].

ويُروى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عُمّاله حوالي عام 100 هـ - 700 م بألا يُغَلَّ مسجون[2163].

وفي عهد هارون الرّشيد رأى الفقهاءُ أن يجري من الصدقات أو من بيت المال على أهل الدّعارة إذا ارتكبوا الجنايات وحبسوا، فيَجري على كل منهم عشرة دراهم في الشّهر؛ ولا بدّ أن يكسوا في الشّتاء قميصاً وكساءً وفي الصّيف قميصاً وإزاراً ومقنعة، وذلك إغناءً لهم عن الخروج في السّلاسل لطلب الصّدقة[2164].

وقد جُعل في ميزانية المعتضد (279-289 هـ - 892-902 م) ألفٌ وخمسمئة دينار لنفقات السّجون وثمن أقوات المحبوسين ومائهم وسائر مُؤَنهم[2165].

وكثيراً ما نقرأ الأخبار بأن المسجونين كانوا يشتغلون بعمل التِّكَك وهي لا تزال إلى اليوم أجمل ما يُصنع ببغداد؛ يقول ابن المُعتزّ[2166]:

تعلّمت في السّجن نسج التِّكَك

وفي أوائل القرن الرّابع الهجري عيّن الوزير لمن في السّجون أطباء أُفردوا لذلك؛ فكانوا يدخلون إليهم ويحملون معهم الأدوية والأشربة[2167].

أما في مصر في عهد الفاطميين فكانت السّجون تُضمَّن، وكانت أحب شيء إلى من يضمن أمور الحكومة؛ وكانوا يتزايدون في ضمانها لكثرة ما يتحصل منها. وكان يؤخذ من كل من يسجن ستة دراهم بمجرّد دخوله السّجن، ولو لم يُقِم به إلا لحظة[2168].

أما الزّكاة عند المسلمين فقد جعلت لها الشّريعة حداً أدنى، وهو نصف العشر من الثّروة لا من الدّخل، وذلك في كل سنة[2169]. وقد نُقل من أخبار المتديّنين الأتقياء وغير الأتقياء حكاياتٍ كثيرة تدلّ على سموِّ شعورهم في الصّدقات.

ويُروى عن الهروي (توفي عام 378 هـ - 988 م) أنه كانت تُضرب له الدّنانير، وزن الدّينار منها مثقالٌ ونصف أو أكثر؛ فيتصدّق بها، ويقول: «إني لأفرح، إذا ناولتُ فقيراً كاغداً، فيتوهّم أنه فضّة؛ فإذا فتحه ورأى صُفْرَتَهُ فَرِحَ؛ ثم إذا وزنه، فزاد على المثقال، فرح أيضاً»[2170].

ويُروى عن تاجرٍ غنيٍّ وعالم، أنه بعث بالمسند إلى ابن عقدة لينظر فيه، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً[2171].

ويُروى عن أحد التّجار المشهورين بكثرة المال ببغداد انه أرسل لابن سمعون الواعظ خمسمئة خشكنانكة، في كل منها دينار [2172].

ويُروى عن جَحْظَة الشّاعر (توفي عام 324 هـ - 936 م) أنه وقع في ضيقٍ شديد، حتى صار بيته فارغ، فعرف حالَه أحدُ العُمّال المتقاعدين، فزاره، وأحضر له من بيته فرشاً وقماشاً وكل ما يحتاج إليه البيت من آلات ومؤونة، وجلس عنده طول يومه. (وفي اليوم التّالي أرسل إليه كيساً فيه ألفي درهم، ولما أراد الخروج قام جحظة ليخرج معه، فقال له: احفظ بابك! فكل ما في دارك لك)[2173].

وكان لأحد الكتاب أمٌّ صالحة، فعوَّدته منذ ولد أن تجعل تحت رأسه عند نومه في كل ليلة رغيفاً فيه رطل؛ فإذا كان الصّباح تصدقت به؛ فظل ابنها يفعل ذلك طوال حياته[2174].

وكان في بلاد كرمان نخيلُ كثير؛ وكان لأهلها سنّةٌ حسنة فكانوا لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الرّيح، فيأخذه غير أربابه؛ وربّما كثرت الرّياح، فيصير إلى الضّعفاء والمساكين من التّمور في التّقاطهم أكثر ممّا يصير إلى أربابه[2175].

وكان لا بدّ في تهادي العُشاق بالهدايا الصّغيرة من مراعاة دقة الذّوق الشّاقة؛ فمثلاً كان لا يستحبّ إهداء ليمونة للحبيب، لأنها طيّبة في ظاهرها ولكن باطنها حامض، وفي ذلك صفة غير محمودة؛ وفي كثيرٍ من الأحيان تُرْسِلُ المحبوبةُ تفاحةً، عليها أثرُ عضّتها لها.

وكان ذلك من عادات الرُّومان أيضاً[2176].

وكان الشّاعر أحياناً يطرِّز منديلاً غالي الثّمن بأبيات شعرية ويرسلها لحبيبته[2177].

ونظراً لأن النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم كان يتيماً، فقد صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفاً خاصاً، وإن لم يُجْمَعوا في بيوت أُعِدَّتْ لهم؛ ففي أصفهان مثلاً كان أحد الصّالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله، ويدهن رؤوسهم[2178].

أما بناء المستشفيات فكان مسألة دنيويّة بحتة، ولم يكن الصّالحون يحبّون معالجات الأطباء. واسم دور المرضى بيمارستانات، وهو عجمي معرّب، لا أصل له في لغة القرآن.

وأوّل من بنى داراً للمرضى في الإسلام الوليد بن عبد الملك[2179].

ثم جاء البرامكة، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البُعد، فأسّسوا بيمارستاناً أسندوا رياسته لطبيبٍ هندي[2180].

ويُروى عن طاهر بن الحسين أنه كتب إلى ابنه عبد الله: «وانصب لمرضى المسلمين دوراً توقيهم، وقُوَّاماً يرفقون بهم، وأطبَّاء يعالجون أسقامهم»[2181].

وبَنَى أحمد بن طولون Ibn Tolûn عام 259 هـ - 873 م أول مارستانٍ كبيرٍ بمصر، وكان به حمّامان، أحدُهما للرّجال، والثّاني للنّساء، وشَرَط في هذا المارستان ألا يُعالَج فيه جنديٌّ ولا مملوك، وإذا جاء العليل، أن تُنْزَعَ ثيابه ونفقتُه، وتوضع عند أمين المارستان؛ فإذا أكل فرُّوجا ورغيفاً أمر بالانصراف، وأعطي ماله وثيابه. وقد أنفق ابن طولون على هذا المارستان ستين ألف دينار، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ليتفقّد المارستان والمرضى[2182]. وكذا جعل في المسجد خزانة شرابٍ فيها جميع الأدوية والأشربة، وطبيباً يجلس يوم الجمعة للعلاج[2183]. وكان في المارستان قسمٌ للمجانين، على حين أنه كان ببغداد مارستانٌ كبير خاص بالمجانين، وهو دير هِزقل القديم الذي كان يقع على مرحلة إلى الجنوب في طريق واسط[2184]. وكان أهم ما يلزم لمثل هذا المارستان السّلاسل والسّياط، كما كان الحال عندنا منذ بضع عشرات من السّنين[2185].

وفي عهد الخليفة المعتضد (279-289 هـ = 892-902 م) ببغداد كانت نفقات البيمارستان الصّاعدي وأرزاق المتطبِّبين والمئانين والكحّالين، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم، والبوابين والخبازين وغيرهم، وأثمان الطّعام والأدوية والأشربة، أربعمئة وخمسين ديناراً في الشّهر [2186].

ثم زادت المارستانات في بغداد زيادةً كبيرة؛ وفي سنة 304 هـ كانت خمسةً تقلّدها طبيبٌ غيرُ مسلم، وهو سنان بن ثابت[2187]، وبفضل هذا الطّبيب الكبير وإشارته فُتح ببغداد عام 306 هـ - 918 م مارستانان آخران كبيران، أحدهما اتخذه الخليفة نفسه، وكان يقع في باب الشّام، والثّاني بيمارستان السّيدة أم المُقتدِر، اتخذه لها سنان بسوق يحيى على نهر دجلة، ورتب له المتطبّبين. وكانت النّفقة على بيمارستان الخليفة من ماله الخاص، وبلغت مئتي دينار في كل شهر. أما نفقة مارستان السّيدة فكانت ستمئة دينار في كل شهر [2188].

وفي عام 311 هـ - 923 م أسّس الوزير ابن الفُرات أيضاً مارستاناً ببغداد، وأنفق عليه من ماله مئتي دينار في كل شهر [2189].

ولما استولى بجكم على بغداد أكرم سناناً وعظَّمه غاية التّعظيم، فأشار سنان عليه أن يتّخذ في عام 329 هـ 941 م مارستاناً ثالثاً[2190]، فوق ربوةٍ جميلة على الشّاطئ الغربي لدجلة، كانت تحمل قصر هارون الرّشيد من قبل؛ وظل هذا المارستان زماناً طويلاً، حتى جدده عضُد الدّولة عام 368 هـ - 978 م، وافتتحه عام 371 هـ - 981 م، وزوَّده بالأطباء والمعالجين والخُزَّان والبوّابين والوكلاء والنّاطورين[2191].

وكذلك أسّس مُعزّ الدّولة في عام 355 هـ - 966 م مارستاناً آخر عند الجسر الذي على دجلة، ووقف عليه أوقافا وضياعاً يرتفع منها خمسة آلاف دينار [2192].

هذا إلى أنه كان بالمدن الكبرى في الولايات مثل شيراز وأصفهان وواسط مستشفياتها الخاصّة[2193].

ويُروى أنه في عام 319 هـ - 931 م اتصل بالمُقتدِر أن رجلاً من الأطباء غلط في معالجة رجل، فمات؛ فأمر مُحْتَسِبَه بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه سنانُ بن ثابت، وكتب له رقعة بما يُطْلَق له التّصرف فيه من صناعة الطّب؛ وأمر سناناً بامتحان الأطباء. وأحصى الأطباء في جانبي بغداد لامتحانهم، فكانوا ثمانمئة ونيفاً وستين رجلاً، وكان إذا جاء الرّجل إلى سنان ليمتحنه بدأ بإجلاسه، ثم قال له: «قد اشتهيت أن أسمع من الشّيخ شيئاً، أحفظه عنه»[2194].

ولم يصلنا قط في أخبار هذا القرن أن أحد الأطباء كان يُعدّ مسؤولاً عن حياة مريضه، بحيث يُقتل، إن مات بين يديه. وفي عام 324 هـ - 935 م توفّي هارون بن المُقتدِر أخو الخليفة المطيع، فاكتفى بنفي الطّبيب بَخْتَيْشوع بن يحيى، لأنه اتّهم بتعمُّد الخطأ في علاجه[2195].

الفصل الحادي والعشرون
أوضاع المعيشة

Die Lebenshaltung

يُقدّر المبلغ الكافي للقيام بأود الرّجل من عامّة النّاس هو وزوجته في عصر الرّشيد بثلاثمئة درهمٍ في السّنة[2196]. وكانت الثّروة التي تبلغ سبعمئة دينار تعتبر ثروة غير قليلة[2197].

ويُروى عن أحد أبناء العُمّال (الولاة) أنه بدّد ثروته على المغنّيات، ثم مات خادمٌ كان مولى لأبيه وابنُ عمٍّ في يوم واحد، فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار؛ فعمّر داراً بألف دينار، واشترى آلاتٍ وفرشاً وثياباً وجواريَ ثلاثاً بسبعة آلاف دينار، وسلّم لتاجر ألفي دينار يتّجر له فيها، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشّدائد، وابتاع ضيعة تُغِلّ في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[2198].

وقد كشفت لنا حفريات سامرَّاء الأثريّة عن طريقة بناء الدُّور عند أهل العراق في القرن الثّالث الهجري، «فقد كانت الدّور بسامرّاء تُبنى على هذا النّحو: «يصل بينها وبين الشّارع أو الدّرب دهليز مسقوف، يفضي إلى صحنٍ واسع قائم الزّوايا، يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة، ويتصل به

من جانب العرض القاعة الكبرى، وشكلها هكذا [-، وفي أركانها غرفٌ صغيرة؛ وتحيط بالصّحن أيضاً غرفٌ متجاوراتٌ مربّعة للسّكنى وللمرافق المنزلية؛ وفي معظم الدّور أفنية صغرى ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً. ولا تخلو الدّور قط من حمّامات ومجارٍ تحت الأرض، وكثيراً ما يكون فيها آبار... وتشتمل أحياناً على صحون ذات أساطين (طارمات) وعلى سراديب للسّكنى مهيّأة بوسائل التّهوية. والدّور كلها من طابقٍ واحد، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مستوية اتّخذ منها أصحاب الدّور مسطحاتٍ مرتفعة بمهارة لهم في ذلك. وقد يبلغ عدد الغرف في الدّار الواحدة ستين غرفة، وبها شبابيك تقفل بألواحٍ من الزّجاج المتنوع الألوان، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمتراً»[2199].

ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرّابع بالعراق ما يدلّ على استعمال السّراديب للسُّكنى في فصل الصّيف، ولا تشير لذلك أيةُ حكاية من الحكايات الكثيرة التي ترجع إلى ذلك العصر[2200]. ويرجع أصل هذه العادة - عادة اتّقاء الحرِّ الشّديد بالنّزول في السّراديب - إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكي لنا الرّحالة وانْغ ين تي Wang Yen Te في عام 981 م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون في الصّيف مساكن تحت الأرض[2201]. أما في بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زَرَنْج، أكبر مدن سِجِسْتان، ومدينة أرَّجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلهما في الصّيف سراديب تحت الأرض يجري فيها الماء[2202]. وفي القرن الخامس الهجري يذكر الرّحّالة ناصر خُسرو القباذياني أنّ من خصائص مدينة أرَّجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها، وأن الماء يجري تحت الأرض وفي السّراديب، وفي أشهر الصّيف يستروح النّاس فيها[2203].

ويذكر المقريزي بعد ذلك بقرون أنّ من محاسن مِصر أن أهلها لا يحتاجون في حرّ الصّيف الدّخول في جوف الأرض، كما يعانيه أهلُ بغداد[2204].

وكان أهل التّرف في ذلك العصر يستعيضون عن دخول السّراديب بنصب قبّة الخيش. وكانت عادة الأكاسرة أن يُطَيَّن سقفُ بيتٍ في كل يوم صائف، فتكون قيلولة الملك فيه، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالاً، فتوضع حول البيت، ويؤتى بقطع الثّلج الكبار، فتوضع ما بين أضعافها، وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً.

ولكن في عهد المنصور العبّاسي اتخذت طريقة أخرى للتّبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ، ولا يزالون يبلّونه بالماء، فيبرِّد الجوّ[2205]. وكان الخيش يُنصب على قبّة، ثم اتخذت بعدها الشّرائح فاتخذها النّاس[2206].

ويحكي البِشاري المقدسي أنه رأى في دار عضد الدّولة بشيراز بيوت الخيش يُبَلِّلُها الماء على الدّوام بواسطة قنى حولها من فوق[2207]؛ ويظهر أن هذه الطّريقة في التّبريد كانت شائعة جداً في بغداد، حتى يُروى عن أحد القواد في القرن الرّابع أنه لما جاءت فرقةٌ من الجند من بغداد للقيام بغزوةٍ هامةٍ لم يجدهم أهلاً لذلك؛ لأنهم في رأيه، قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النّبيذ والثّلج وبيوت الخيش المبلَّل وسماع القيان[2208].

وكان يُستعمل في هذه البيوت الصّيفية مروحةٌ تشبه شراع السّفينة[2209].

وكانت حرّاقات دجلة التي يستعملها رجال الدّولة في غدوّهم ورواحهم يُعَدّ فيها الثّلج، ويعلّق عليها الخيش المبلّل بالماء، وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس[2210].

وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصّيف على سطوح البيوت[2211].

أما في مدينة آمل فكانت السّطوح مسنّمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء[2212].

بينما في اليمن فكان الغالب على صنعاء البرد، حتى كان إذا اشتدّ بها الصّيف، ودخل الرّجل ليقيل على فراشه، لم يكن له بدٌّ من أن يتدثّر؛ لأن البيوت باردة بسبب القَصّة التي تُسبَغ بها بواطن البيوت، وربّما دخل الرّجل في المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل السِّترين والسّجف فلا يتغير ضياء البيت لما في الجدران والسّقف من الرّخام؛ بل إذا كان في السّقف رخامةٌ صافية نظر عوم الطّائر بظلّه عليها[2213].

وحوالي منتصف القرن الثّالث الهجري أحدث المتوكّل بناءً لم يكن النّاس يعرفونه، وهو المعروف بالحِيْرِيّ؛ يعني أن أصله يونانيٌّ شرقيّ، وصار متَّبعاً في القصور الكبيرة؛ فصار يُبنى لها مُقَدّم أو ثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر، وإلى جانبيه البابان الصّغيران. وكان المتوكّل يجعل دون قصوره ثلاثة أبوابٍ عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه؛ وقد اتبع النّاس المتوكّل ائتماماً بفعله، حتى اشتهر هذا البناء[2214].

وقد جاء في التّقرير المتقدم عن حفائر سامرَّاء أن الباب الأوسط كان يزيد على البابين الجانبين في الارتفاع والاتساع، فهو منقولٌ عن طريقة الهيلينيين في بناء أبواب الشّوارع وأقواس النّصر[2215].

وكان قصرُ التّاج الذي بُني في بغداد بعد ذلك بأربعين سنة صورةً مكبرة للطِّراز الحيري، فكان وجهه مبنياً على خمسة عقود، كلّ واحدٍ منها على عشرة أساطين والأسطوانة على خمسة أذرع[2216].

وكذلك كان وجه قصر ابن طُولون Ibn Tolûn بمصرَ ثلاثة أبواب كأكبر ما تكون الأبواب، وكانت متَّصلة بعضها ببعض، وكانت تفتح كلّها في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصّدقة، وفيما عدا ذلك لم تكن تفتح[2217]. وقد نقل ابن طولون هذه الصّورة في البناء، كما نقل صورة مئذنة مسجده، عن بغداد.

وكانت دار الخلافة وما يتّصل بها كأنها لِكِبرها مدينةٌ قائمةٌ بذاتها؛ ويحكي الإصطخري أن قصور الخلافة وبساتينها تفترش مساحةً كبيرة، وتمتدّ الجدران المحيطة بها فراسخَ كثيرة[2218].

وكانت دور الكبراء تتألف من قصور كثيرة؛ ويُروى عن الوزير أبي الحَسَن بن الفُرات أنه أنفق على الدّار التي كان ينزلها في وزارته الثّانية ثلاثمئة ألف دينار، واشتهى في وزارته هذه أن يجمع

حُرَمَهُ وبنات إخوته وأصاغر ولده في الدّار المعروفة بدار البساتين من الدّار الكبرى، فأمر بإنفاق ما يحتاج إليه في إعدادها، فبلغت النّفقة خمسين ألف دينار[2219]. وكان يلي الأبواب من داخل القصر البَهْوُ[2220]، وهو مُقدّم الدّار وأعلاها بناء، تزيّنه الشُّرفات، ويقول ابن المُعتزّ في وصف قصر الثُّريّا[2221]:

وبنيان قصرٍ قد عَلَتْ شُرُفاته	كصفّ نساء قد تربّعن في الأزُر

وكان قصر الخلافة يشتمل على دورٍ وبساتين ومسطَّحات مظلّلة بالأشجار، وعلى قبابٍ وأروقة، وكانت تزيد في جماله البِرك والأنهارُ الجارية، ويُروى عن الخليفة القادر أنه كان يجلس في البيت المعروف ببيت الرَّصاص، وبين يديه نهر يجري فيه الماء إلى دجلة[2222]. وكانت الأروقة تسمّى بالأربعينيّ أو السّتيني أو التّسعيني بحسب الغلمان أو الحرس الذين يجتمعون فيها[2223]. وكان من بين القباب قبّة الأُترُجّة[2224]، وقبّة الحمار[2225]. وكان الأمراء إذا جاؤوا دار الخلافة دخلوها راكبين، حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذي ينزلون فيه ترجَّلوا ودخلوا، والحُجّاب بين أيديهم[2226].

ويذكر الكُتَّاب المتأخرون أنه كان هناك سراديب تصل القصور بعضها ببعضٍ؛ فيحكي الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني أن قصور الفاطميين كانت مؤلَّفة من بيوتٍ كبرى وصغرى تصل بينها سراديب تحت الأرض[2227]. لكننا لا نجد في الحكايات الكثيرة المفصّلة التي ذُكرت عن القصور ذكراً لهذه السّراديب التي يدخل منها النّاس أو يخرجون بحيث لا تراهم الأعين؛ فأمرها لا يخلو من مبالغة.

وقد رأى البِشاري المقدسي قصر عضد الدّولة بشيراز بعد موت هذا السُّلطان بقليل، وحكى رئيس الفرّاشين للمقدسي أن في القصر ثلاثمئة وستين حُجرة، كان السُّلطان يجلس كل يوم في واحدة إلى الحول[2228].

وكان يقال إن بمنارة الإسكندرية ثلاثمئة وستة وستين بيتاً دائرة بها[2229].

وكان بقصر إلدِنبورغ Eldenburg بإمارة مارك براندِنْبورغ Mark Brandenburg من الحُجرات بقدر عدد أيام السّنة[2230].

وقرب أواخر القرن الثّالث الهجري نرى ضروباً من التّفنُّن في إعداد القصور تنتقل من بلاط إلى آخر؛ وكأنما كان ذلك مؤذناً بابتداء التّكلف والصّناعة في الأدب، فكان في قصر الطُّولونيّين بمصر بركةٌ من الزّئبق، طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون، وكان في أركانها أساطين من الفضّة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصّنعة في حلق من الفضّة؛ وعُمِل لخمارويه فرشٌ من أدم يُحشى بالرّيح، حتى ينتفخ فيُحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة، وتُشدّ زنانير الحرير في حلقٍ الفضّة بالأساطين، ثم ينام الأمير على ذلك الفرش، «وكانت هذه البركة من أعظم ما سُمِع به من

الهمم الملوكية، فكان يُرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب، وإذا تألق نور القمر بنور الزّئبق»[2231].

ويُروى أن الخليفة المُقتدِر لما وفد عليه رسلٌ ملك الرُّوم سنة 305 هـ - 907 م زيَّن قصره ثم أدخلهم إليه، فرأى الرّسل فيه العجب، ثم أخرجوا إلى «الجوسَق المُحدَث»، وكان داراً بين بساتين، في وسطها بركة رصاصٍ، حولها نهر رصاص «أحسن من الفضّة المجلوّة»، وطول البركة ثلاثون ذراعاً، وكان فيها أربع طيارات لطاف مذهبة مزينة بالدّبيقيّ المطرَّز، وأغشيتها دبيقي مذهب[2232].

وقد ظهرت بمدينة رومة في عصر أوغسطوس Augustus عادةُ إنشاء البساتين على الطّريقة المسماة بالمصرية؛ وهي في العصر القديم تشبه على وجه التّقريب ما صار يعرف فيما بعد بالبساتين الإنكليزية. وكان في ذلك ردّ فعلٍ ضد نظام إنشاء البساتين على نحو يجعل البيوت كأنها جزءٌ من الحدائق المحيطة بها[2233].

ولما أسّس أمير الأندلس مدينة الزّهراء، عمل فيها أيضاً بحيرة ملأها بالزّئبق[2234].

وقد أولع خمارويه فوق ما تقدم بالأزهار، وهذا الولوع من صفات التُّرك، فصار خمارويه بذلك كله أكبر مُنْشِئ للبساتين بين أمراء الإسلام؛ ذلك أنه أقبل على بساتين أبيه فزاد فيها، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه، فجعله كله بُستاناً وزرع فيه أنواع الرّياحين وأصناف الشّجر؛ وزرع فيه النّيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوي العجيب؛ وكل أصل عجيب؛ وطعَّموا له شجر المشمش باللوز وكسا أجسام النّخيل نحاساً مُذهباً حسن الصّنعة[2235]، وجعل بين النّحاس وأجسام النّخل مزاريب الرّصاص، وأجرى فيها الماء المدبّر، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النّخل عيون الماء وتنحدر إلى مساقٍ معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجارٍ تسقي سائر البُستان، وبنى فيه برجاً من خشب السّاج[2236]؛ فكانت هذه الفوَّارات والبرك والعيون المائية الصّناعية - على طريقة المصريين القدماء في عمل البساتين - إلى جانب أبراج الخشب، ممّا يزيد البُستان جمالاً.

وكانت فكرة إنشاء بُستانٍ على الطّريقة الإنكليزية بعيدةً، كما كانت بعيدة عن أهل العصر القديم، بحيث أن أحد حكام مصر - وكان من أكبر المولعين بإنشاء البساتين - جعل جميع دهاليز بُستانه مغطاة بالحصر العبَّادانيَّة[2237]. وكذلك كان بالجوسق المُحدَث في قصر المُقتدِر بركة رصاص حولها بُستان بميادين، فيه نخل، قيل إن عدده أربعمئة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حدّ الجمَّارة بجلق من شبه مذهبة[2238].

وكانت لذة الخليفة القاهر من الدّنيا بُستانه الكبير الذي غُرس فيه النّارنج، وحمل إليه ممّا حمل من أرض الهند، وقد اشتبكت أشجاره[2239].

وحوالي ذلك العصر كان بالشّام الصّنوبري وكُشاجم شاعِرَيْن من شعراء الطّبيعة تَغَنَّيا في شعرها بجمال البساتين والأشجار والأزهار.

لكن الأزهار لم تكن كثيرة جداَ: كان هناك الورد، والنّرجس، والشقيق، والباقِلاء، والكافور، والبهار، والأقحوان، والسّوسن، والبنفسج، والياسمين، والخيريّ، والنّوّار؛ ولم يكن الخيري البري قد جُلب من سهول آسيا.

وكانت زراعة الورد متقدّمة جداً، فقد حكى صاحب نشوار المحاضرة (توفي عام 384 هـ - 994 م) أنه رأى ورداً أسود حالك السّواد له رائحة زكية، وأنه رأى بالبصرة وردةً نِصْفُها أحمر قاني الحمرة، ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض، والورقة التي وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم[2240]. وكان النّخل والسّرو هما الشّجرتين اللتين تزرعان في البساتين.

وكان ابتداء هذا الميل الشّديد إلى البساتين والولوع بها، في مصر؛ وفيها استمرّ على أقوى ما يكون طوال ذلك العصر، فيحدّثنا الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني أنه رأى بمصر أناساً يتَّجرون بالأشجار، وأن عندهم أشجاراً في أُصُص يضعونها على سطوح بيوتهم، حتى تصير السّطوح كأنها حدائق، فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حُملت إليه؛ ويقول ناصر خُسرو إنه لم يرَ مثل هذا في مكان آخر ولم يسمع به. ويُروى أنه كان بمصر يهوديّ كثير المال قد وضع على سقف داره ثلاثمئة جرّة من الفضّة، في كل منها شجرة مزروعة[2241].

وكان في دار الشّجرة من قصر المُقتدِر بالله شجرةٌ من الفضّة وزنها خمسمئة ألف درهم؛ وهي تقوم وسط بركةٍ مدورة صافية الماء؛ وللشجرة ثمانية عشر غصناً، لكل غصن شاخات كثيرة، عليه أشكال مختلفة من الطيور، وأكثر قضبان الشّجرة فضّة وبعضها مذهَّب، وهي تتمايل في أوقاتٍ لها؛ وللشجرة ورقٌ مختلف الألوان يتحرك، كما تُحرِّك الرِّيح ورقَ الشّجر؛ وكل من هذه الطّيور يصفر ويهدر؛ وقد أدخل الخليفة رسل الرُّوم إلى هذه الدّار، فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه[2242]. وقد ذكر ابن المُعتزّ الشّاعر الأمير هذه الشّجرة في شعره[2243].

غير أنّه كان بقصر الإمبراطور بالقسطنطينية كثيرٌ من قطع الأثاث حول عرش الإمبراطور، عليها طيور جاثمة تغنّي؛ وقد رآها وسمع تغريدها الأسقف ليوتپراند Liutprand رسول الملك أوتو Otto إمبراطور ألمانيا. بل لقد كان حول عرش إمبراطور الرُّوم كثيرٌ من السّباع المذهبَّة تحفّ بالعرش. وكانت في أثناء استقباله النّاس تفتح أفواهها بين حين وآخر، وتزأر وتضرب الأرض بأذنابها، وفوق ذلك كان العرش الإمبراطوري مصنوعاً بحيث يمكن رفعه بآلةٍ إلى سقف المجلس[2244]. وهذا ضربٌ من الذّوق الفاسد البعيد عن طريقة الشّرقيين.

وكان لمعظم الدّور ببغداد جوسق ورواشن في الطّابق الأسفل يصطدم بها راكب الحمار إن لم يتنبّه لها[2245]. وكان يستتر بها أهل العبث والفساد، حتى اشتهرت بذلك[2246]. وكانت الشّوارع بمدينة شيراز ضيّقة لا تتسع لسير بهيمتيْن معاً، وكان أهلها في بلاء من اصطدام رؤوسهم بالرّواشن[2247].

وكانت أبواب الدّور تصنع من الخشب المُحلّى بالنّقوش، وعلى الباب حلقة تدور بلولب، يُطرق بها الباب[2248]. وبالإجمال كان الخشب يستعمل كثيراً، وكان أحب أصنافه عند السّراة خشب السّاج

الهندي؛ ونظراً لكثرة استعمال الخشب فلا جرم كان داخل الغرف يحدث من الأثر ما تحدثه غرف الفلاحين عندنا. وإذا رأى الإنسان الحجرة المحفوظة في متحف القاهرة أحدثت رؤيتها في نفسه مثل هذا الأثر.

لكنّ الحجرات لم تكن غاصَّة بالأثاث، فكان ذلك يدع مجالاً لإبراز صور النّاس وحركاتهم وملابسهم، وكان هناك فراغ للسّتور والبسط المعلقة على الحيطان لتتنافس بألوانها وما عليها من جميل الصّور. وكانت التّخوت هي الأثاث الوحيد في الغرف، فكانت تُحفظ فيها الثّياب مثلاً[2249]. أما الدّواليب فلم تكن معروفة، ولم يكن ثم أسرَّة. وكانت الخوانات لا تستعمل إلا للطّعام، وكان كبراء القرن الثّالث يحبون الخوانات المصنوعة من خشب الجزع، وكذلك بعض أدوات المائدة[2250]؛ ثم استخدمت خوانات قوائمها منها بلا وصل[2251]، وقد ورد في حكاية أبي القاسم البغدادي وصفُ خوان حسن، قوائمه من خلنج خُراساني بلا وصل. ثم صار حجم هذه الخوانات يزداد باستمرار، حتى يُروى أنه لما طهّر المُقتدِر بعض ولده عام 305 هـ - 927 م أهدى إلى ابن الفُرات ثلاث موائد، استدارة المائدة الكبرى منها خمسون شبراً، فضاق الباب عن دخولها، حتى قُلع، ووُسِّع الموضع لإدخالها[2252].

وكان خشب الخلنج يستعمل أيضاً في قصور الفاطميين لصنع الطّيافير[2253]؛ وكان هذا الخشب يُجهَّز بكثرة في جُرجان على بحر الخزر[2254]. وفي القرن الثّالث الهجري بالمشرق أعجب الجاحظ بآنيةٍ من الخلنج الكيمالي (التُّركي) إلى جانب آنية الصّيني الملمّع، وكانت هذه محبوبة في جميع البلاد[2255]. وكانت أدوات الطّبيخ تسمّى الصّفر[2256].

ويحدثنا الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني في القرن الخامس الهجري أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدرٍ، وأنها كانت تؤجّرها كلّ قدرٍ بدرهم[2257].

أما الحمّامات السّاخنة فنرى في عناية المسلمين بها وتشييدهم الكثير منها ميراثاً من أحسن ما أُخذ عن اليونان والرُّومان. ولم يكن اتّخاذ الحمّامات العامّة من مظاهر الحياة في الشّرق القديم، حتى إنه ليُروى عن بلاش الأشغاني ملك العجم (من عام 484 م-488 م) أنه لما أمر بإنشاء الحمّامات للنّاس في مدن مملكته جلب على نفسه سخط الكهنة[2258]؛ لأنهم رأوا في ذلك انتهاكاً لحرمة الدّين[2259]. ولما جاء قُباذ بعد ذلك واستولى على مدينة آمد، ودخل أحد حمّاماتها العامّة سُرَّ به كثيراً، وأمر أن يُبنى حمّام مثله في كل مدينة من مدن فارس[2260].

ويذكر الطّبري، وهو من مؤرّخي العرب المتقدّمين، أن العجم لم يكن لهم قبل الإسلام حمّامات[2261].

غير أنّ المتشدّدين من المسلمين كانوا دائماً ينظرون إلى اتخاذ الحمّامات العامّة نظرة الارتياب. ويُروى عن أبي بكر السُّلَمي (توفي عام 311 هـ - 923 م) أنه قال: لم يثبت عندي أن رسول الله

محمد صلى الله عليه وسلّم دخل حمًّاما قطّ[2262]. ويُكرَهُ أن يعطي الرُّجل امرأتَه أجرة الحمّام، لأنه يكون معيناً لها على المكروه[2263]. وقد ذكر الخليفة القاهر عام 322 هـ - 934 م عن أحد سلفه أنه بنى «حمّامات روميّة» للحُرَم[2264].

أما زخرفة الحمّامات فلم تكن إسلامية بالكلية، ففي حمّامات سامرّاء كانت الدّرجات تُزَيَّن بالصّور بدلاً من البلاط المختلف الألوان؛ وهذه عادة كانت بالشّام، وترجع إلى العصر الأخير من الحضارة اليونانية في الشّرق[2265]. وقد ذكر المسعودي أن النّاس كانوا يصوّرون العنقاء في الحمّامات، والعنقاء صورة لحيوان خيالي عند الشّرقيين وهي تمثّل بطائرٍ وجهه وجه إنسان، وله منقار نسر، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذواتا مخالب[2266].

ويُؤْثر عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: بئس البيت الحمّام، ولا تُقرأ فيه آية من كتاب الله[2267].

وكان في الجانب الشّرقي من بغداد وحده في القرن الثّالث الهجري خمسة آلاف حمّام[2268]، وكان في جانبيّ بغداد في النّصف الأول من القرن الرّابع عشرة آلاف[2269]، وفي النّصف الثّاني كان بها خمسة آلاف فقطّ[2270]، وهذا العدد لم يزل في تناقص، حتى يذكر في القرن السّادس أنه كان في بغداد ألفا حمَّام[2271]. وكانت الحمّامات تُطلى بالقار وتسطّح به، حتى يخيل للنّاظر أنها مبنيّة من رخام. وكان هذا القار يُجلب من عينٍ بين البصرة والكوفة[2272].

أما بمصر فلم تكن العناية بإنشاء الحمّامات كبيرة مثل ما كانت بالشّام؛ فيذكر لنا المقريزيّ أنه كان بالفسطاط ألف ومئة وسبعون حمًّاما؛ وكانت حمّامات القاهرة في عام 685 هـ - 1286 م ثمانين حمِّام فقط[2273]. وكان يقوم بخدمة الحمّام خمسةُ نفرٍ على الأقل: حمَّامّي، وقيِّم، وزبَّال - لأن الوقود في الحمّامات كان في الغالب من الزّبل اليابس - ووقّاد، وسقَّاء[2274].

أمر أبو جعفر المنصور في عام 153 هـ بلبس القلانس الطّوال، والدّراريع فقال أبو دلامة هذا، لما أمر المنصور بما أمر به[2275]:

وكنا نرجّي من إمام زيادةً	فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرّجال كأنها	دنان يهود جُلّلت بالبرانس

ولما اتصل أهل أوروبا بالشّرقيين أيام الحروب الصّليبية نقلوا إلى بلادهم هذه القلانس الطّوال، ومعها الخُمر، وجعلوها لباس النّساء في الغرب[2276].

ولما جاء المستعين (248-252 هـ = 862-866 م) صغّر القلانس، بعد أن كانت طوالاً كأتباع القُضاة[2277]؛ وأحدث المستعين أيضاً لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن تُعهد من قبل، فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك[2278]. وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب، يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه، مثل الدّنانير[2279] والكتب؛ وكان المهندس يضع فيها ميله[2280]، والصّيْرَفِيّ يجعل فيها رقاعه[2281]، والخياط يجعل فيها الجلم[2282]، والقاضي يضع فيها الكرّاسة التي يقرأ فيها الخُطبة يوم الجمعة[2283]، والكاتب يحفظ فيها الرّقعة لعرضها[2284].

وكان بعض العُمّال يحفظ المستندات في خُفَّه، ويُروى عن وزير المُعتمِد، أنّه أخرج من خُفّه دستوراً فيه جُمَل ما في الخزائن[2285].

وكان بعض النّدماء يضعون مخازن مملوءة أدهاناً في خفاف غلمانهم أو اللّفّات مدرجة في المناديل، فإذا أمضّهم الجوع وشحذهم الشّراب تناولوا ما أعدوه من ذلك[2286].

وفي أوائل القرن الرّابع الهجري وأواخره نسمع أنه كان من عادة الظّرفاء اجتناب لبس الثّياب ذات الألوان، لأنهم كانوا يعدّون ذلك من شأن النّساء والإماء. وكان أقصى ما يجوز للإنسان أن يلبسه من الملوَّن، في خاصّة بيته وفي أيام الاحتجام وفي حلقات الشّراب؛ أما في الشّوارع فلم يكن اتّخاذها يعدّ من شأن الظّرفاء. وكان يحسن بسروات النّاس لبس الثّياب البيض، وروي عن النّبي محمد صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «خلق الله الجنّة بيضاء وخير أثيابكم البيض»[2287].

ويُروى عن عطاء بن رباح في العصر الأموي أنه لقي ابن سرَيْج في أحد شوارع المدينة، وعليه ثياب مُصبّغة، وفي يده جرادة مشدودة رجلها بخيط، يطيّرها، ويجذبها كلما تحلّقت، فقال له عطاء: يافتّان! ألا تكفّ عمّا أنت عليه! كفى الله مؤونتك![2288].

ولا يجيز أهل الظّرف والأدب لبس شيء من الثّياب الدّنسة مع ثياب مغسولة، ولا المغسول مع الجديد، ولا الكتّان مع المروي؛ وهم يرون أن «أحسن الزّيّ ما تقارب واتفق»[2289].

وكان البياض من لبس الرّجال، وكان أيضاً لباس النّساء المهجورات؛ أما غيرهن فيجتنِبْنَه إلا أن يعملن منه سراويلات. ولا يُلبْس الملوَّن إلا إذا كان لونه طبيعياً، لأن الألوان غير الطّبيعية من لبس النّساء النّبطيات والإماء والمتقيّنات.

وكان الأزرق في المشرق لبس الحداد[2290]، أما في الأندلس فكان البياض يُلبس لذلك[2291]؛ وكانت السّراويلات ممّا يكمل به لباس الرّجال، وهي لباس غير عربي[2292].

وقد تميّزت طوائف العُمّال الثّلاثة الكبرى بلباسها، فكان الكتاب يلبسون الدّراريع[2293]، وهي ثياب مشقوقة من المصدر؛ وكان العلماء يلبسون الطّيلسان[2294]، وكان القوّاد يلبسون الأقبية العجميّة القصيرة.

وقد صار القباء لباساً رسمياً لرجال الدّولة حوالي عام 300 هـ - 912 م، حتى كان لا يدخل المقصورة في يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السّود، وحضر بعضهم مرّة بدرّاعة، فرُدّ، حتى مضى ولبس القباء، وكان هذا الرّسم جارياً مأخوذاً به في سائر مقاصير الجوامع، ثم بطل فيما بعد، حتى يحدّثنا الخطيب البغدادي حوالي عام 400 هـ أنّه كان لا يلبس القباء والسّواد سوى الخطيب والمؤذّنين[2295].

وكان التّاجر الغنيّ أو الغنيّ من النّاس يلبس قميصين ورداء فوق السّراويلات، وهذا كان لباس الخليفة القاهر يوم أحضر للبيعة في عام 320 هـ - 932 م[2296].

ويُروى عن أبي بكرٍ الفرغاني الصُّوفي (توفي عام 331 هـ - 943 م) أنّه لم يكن يُرى أحسن منه ممّن يُظهر الغنى في الفقر؛ وكان يلبس قميصين ورداء وسراويل، ونعلاً نظيفاً وعمامة، وفي يده مفتاح، وليس له بيتٌ، ينطرح في المساجد ويطوي الخمس والسّت[2297].

ثم حلّ الخفتان محلّ الملابس العربيّة، فيُروى عن قاضي البقر أنّه ركب إلى الإخشيد في ليلة شتاءٍ باردة، وعليه ملابس منها الخفتان[2298]. وكان الخفتان أيضاً من سائر ملابس أدباء الشّام[2299]. ولمّا ركب الخليفة المُقتدِر عام 320 هـ - 932 م لقتال مؤنس، وهي ركبته الّتي قُتِل فيها، كان عليه الخفتان[2300]. أمّا المِمْطر الّذي يُعمل من القماش المشمّع للوقاية من المطر، بحيث لا يمكن أن ينفذ منه الوابل، فقد جاء من الصّين. وقد سأل البُحتُري (توفي عام 284 هـ - 897 م)، ممدوحَه أن يَهَب له ممطراً يتّقي به المطر[2301]. وقد وصف البِشاري المقدسي قلّة المطر في اليمن بأنّ أهلها لا يرد ذكر المماطر في كلامهم[2302].

أمّا الجوارب فكان يلبسها الرّجال[2303] والنّساء على السّواء[2304]. وكان لبس الخفاف الحُمر معيباً، وإن كان قد لبسها قيصر الرُّوم وعامّة المسلمين؛ وكان وليّ العهد عند الرُّوم البيزنطيّين يلبس خُفًّا أحمر وخُفًّا أسود[2305]، كما كان يلبس ذلك أهل الخيلاء من المتطرّفين المتخنّثين الجُهّال.

وقد جرت العادة دهراً طويلاً بأن يلوي الغلمان والجّواري شعر أصداغهم على صورة حرف (ن) أو على صورة العقرب.

وقد تغنّى أبو نواس بذلك قبل ابن المُعتزّ بمئة عام.

وكان القوط الشّرقيون Los Ostrogodos يصبغون شعورهم باللّون الأخضر؛ فلمّا رآهم أهل أوروبا الجنوبيّة ذعروا منهم. وكان أهل تراقيا يصبغون شعورهم الشّقراء باللّون الأزرق[2306].

وكانت عادة خضاب الشّعر منتشرةً في بلاد الشّرق، سواءً في جزيرة العرب أو في إيران، حتّى اختلف العلماء في حُكم الشّرع فيها. ونرى أبا نُعَيم، صاحب تاريخ أصفهان (توفي عام 430 هـ - 1039 م) حريصاً على أن يذكر في ترجمة رجاله، إن كانوا يخضبون شعورهم أم لا. بل هو يحكي عن أبي إسحاق وكان صاحب تهجُّد وعبادة، لم يُعرف له فراشٌ أربعين سنة، أنّه كان يخضب رأسه

ولحيته[2307]. على أنّه يظهر أنّ عادة الخضاب هذه كانت نادرة بين سَراة النّاس، ولذلك نرى صاحب الفِهْرِسْت في التّرجمة القصيرة الّتي كتبها لأبي الحسن المُنجِّم، وكان أديباً وممّن يجالس الخليفة، يذكر في شيء من التّأكيد أنّه كان يخضب إلى أن مات عام 325 هـ[2308].

وقد كان من الذّوق المتكلّف في العصر الأخير لقياصرة الرُّومان، أنّهم كانوا يدخلون في حلبات السّباق غنماً مصبوغة باللّون الياقوتي، وثيراناً مصبوغة باللّون الأبيض، وسباعاً مصبوغةً لِبَدُها باللّون الذّهبي، ونعاماتٍ مصبّغة باللون الأحمر القاني[2309]. ولم يحدّثنا عن مثل هذا أحد من مؤلّفي القرن الرّابع الهجريّ؛ غير أنّي قد رأيتُ في بغداد بعصرنا الحاضر حميراً نصفها مصبوغ باللّون الأحمر، كما شاهدت حَماماً مصبوغاً بلون ورديّ جميل، وربّما كان هذا من بقايا تلك العادات القديمة.

وفي القرن الرّابع الهجريّ ظهرت من جديد فيما يتعلّق بالمقابر عادةٌ غير إسلاميّة بالكليّة، وهي بناء الكبراء لأنفسهم في حياتهم ترباً ليُدفَنوا فيها بعد مماتهم. وأوّل من فعل ذلك أمّ المُقتدِر، وهي أمّ ولد رومية، بَنَتْ لنفسها تربةً بالرُّصافة[2310]. وكذلك بنى الخليفة الرّاضي (توفي عام 329 هـ - 940 م) تربةً بالرُّصافة أيضاً[2311]. ثمّ بنى مُعزّ الدّولة (توفي عام 356 هـ - 966 م) تربةً في مقابر قريش[2312]. وعمّر الطّائع بعد ذلك تربةً لنفسه بالرُّصافة[2313]. وفي هذه النّاحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عاداتٍ أخرى بعيدةً كلّ البعد عن روح الإسلام، ثم رسخت أصولها؛ فقد نُهي كثيراً عن الصّياح على الجنائز، ولكنّ النّهي لم يُثمر.

ففي سنة 250 هـ - 864 م كانت تُشقّ الجّيوب وتُصبغ الوجوه بالسّواد، وتُقصّ الشّعور بمصر[2314]. وقد مُنع العامل من ذلك وسُجِنَت النّائحات.

ثمَّ ولي الخلافة الفاطميّة الحاكم بأمر الله، فحظر عام 394 هـ على النّساء كشف وجوههنّ وراء الجنائز والبكاء والعويلَ وخروجَ النّائحات بالطّبل والزّمر على الميّت[2315].

ولمّا قُتل الحجّاج ونُكبوا على يد الجنّابي خرج نساءُ بغداد إلى الطّرقات مسوّدات الوجوه، منشرات الشّعور، يصرخْن ويلطمْن[2316].

وفي عام 305 هـ - 917 م مات غريب، خال المُقتدِر، فأمرت أمّ المُقتدِر بهدم القبّة الخضراء التي كان قد بناها لنفسه ببغداد، وبتحطيم طيّاره ومركبه على نهر دجلة[2317].

ولمّا مات زيرك الخادم القاهريّ عام 339 هـ - 941 م اشتدّ عليه حزن الرّاضي، وخرج من داره مستوحشاً وانتقل إلى الشّماسية - وهذه عادةٌ معروفةٌ عند شعوب كثيرة - وصبّ من دنان المطبوخ أربعمئة دن في دجلة حزناً على زيرك[2318].

وقد أوصى أبو الفضل الهَمَذانيّ إذا جاءه الحقُّ وتوفّاه الموت، ألا تُعْقَدَ عليه مناحةٌ ولا يُلطم خد، ولا يُخمش وجه، ولا يُنشر شعر، ولا يُمزّق ثوب، ولا يُشق جيب، ولا يُهال نقع، ولا يُرفع صوت، ولا

يُدعى ويل ولا يُسوَّد باب، ولا يُحرق متاع، ولا يُقلع غرس، ولا يُهدم بناء؛ وأن يُكفن في ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها؛ وحرّج على من يتولّى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء من مُطرَّز أو معلَّم أو إبْرَيْسَم أو منسوج بذهب[2319].

وكان يعمل في تغسيل الكبراء وتكفينهم من التّرف والسّرف ما هو غريبٌ عن الإسلام؛ فيُروى أنّه لمّا مات الأمير سيف الدّولة بن حمدان عام 356 هـ - 967 م غُسِّل تسع مرّات، أولاها بالماء ثم بزيت النّيلوفر ثم بالصّندل، وبعد ذلك بالضّريرة ثم بالعنبر ثم بالكافور ثم بماء الورد، وغُسّل بعد ذلك ثلاث مرّات بالماء المقطر، ونُشّف بعد غسله بدبيقي ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل، وهو قاضي الكوفة، إلى جانب أجرته، ثم دُهن بالزّعفران والكافور، ووُضع على خدّيه ورقبته مئة مثقالٍ من الغالية، وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور وبلغ ثمن كفنه ألف دينار، ثمّ وُضع في تابوته ورُشَّ عليه الكافور[2320].

وفي عام 375 هـ - 985 م مات تميم بن المُعِزّ، فكُفّن في ستين ثوباً[2321]. وقيل إنّ ابن كلّس لما تُوفي عام 380 هـ - 990 م كُفّن وحُفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار[2322].

وكان للنّداء على الموتى صورة لم ينكرها رجال الشّريعة، إذا نادى النّاس قائلين: «هذا الذي كان يذبّ عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، هذا الّذي كان ينفي الكذب عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم، هذا الّذي كان يحفظ حديث رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم»[2323]، وبمثل ما قاله جماعة بين يديّ نعش أحد العلماء: لا ينال الشّفاعة إلّا من أحبّ السُّنّة والجماعة[2324].

وكثيراً ما كان العلماء يُدفنون في دورهم، ثمَّ ينقلون بعد عدّة سنين إلى المقبرة[2325].

وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع ظهرت بين الإماميّة عادةٌ لا تزال باقية إلى اليوم، وهي حمل موتاهم إلى النَّجفِ وكربلاء[2326]. وهذه أيضاً إنما كانت جرياً على عادةٍ قديمة؛ فيحكي لنا القُمِّي (توفي عام 381 هـ - 991 م) أنّ اليهود والنّصارى في عصره كانوا لا يزالون يدفنون موتاهم في فلسطين[2327].

* * *

وكانت صور الدّعوات إلى المجالس تتناسب بالضّرورة مع مقتضيات عادة البُلغاء المعقّدة في ذلك العصر، وفي هذا الباب نرى كثيراً من القطع الأدبيّة الّتي تتجلّى فيها الصّنعة إلى حدٍّ لا يروقنا رغم ما فيه من بلاغةٍ لفظيّة[2328]، فمن ذلك أنّ الصّاحب بن عَبّاد كتب لأحد أصحابه: «نحن يا سيّدي في مجلسٍ غنيّ إلّا عنك، شاكراً إلّا منك؛ قد تفتّحت فيه عيون النّرجس، وتورّدت فيه خدود البنفسج، وفاحت مجامر الأُتْرُجّ، وفتقت فارات النّارنج، ونطقت ألسنة العيدان، وقام خُطباء الأوتار، واهتزّت رياح الأقداح، ونفقت سوق الأنس، وقام منادي الطّرب، وطلعت كواكب النّدماء، وامتدّت سماء النّدّ، فبحياتي لما حضرت! لتحصل بك في جنّة الخلد، وتتصل الواسطة بالعقد»[2329].

وفي أوائل القرن الرّابع الهجريّ كان الوزير أبو الحسن عليّ بن الفرات يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعةً من الكتّاب الذين اختصّ بهم، وكان منهم أربعةٌ نصارى؛ «فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه، ويُقدَّم إلى كلّ واحدٍ منهم طبقٌ فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء، ثمَّ يجعل في الوسط طبقاً كبيراً يشتمل على جميع الأصناف؛ وكلّ طبقٍ فيه سكّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمّثرى؛ ومعه طست زجاج يرمي فيه الثّفل، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطّسوت والأباريق، فغسلوا أيديهم، وأحضِرت المائدة مغشاة بدبيقي فوق مكبّة خيزران، ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها، وحواليها مناديل الغمر... فإذا وُضعت رُفعت المكبَّة والأغشية، وأخذ القوم في الأكل، وأبو الحسن بن الفرات يحدّثهم ويؤانسهم ويباسطهم؛ فلا يزال على ذلك، والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين، ثم ينهضون إلى مجلسٍ في جانب المجلس الّذي كانوا فيه، ويغسلون أيديهم، والفرّاشون قيام يصبّون الماء عليهم، والخدم وقوفٌ على أيديهم المناديل الدّبيقية، ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم»[2330]. وإنّما ذُكر وضع ألوان الطّعام بعضها بعد بعض، لأنّه كان عادةً مستحدثة؛ أمّا العادة الإسلاميّة القديمة فكانت تقضي بأن يوضع الطّعام كلّه مرّة واحدة، ليأخُذ كلٌّ واحدٍ منه ما يشتهي[2331].

وكانت هذه الطّريقة، أي وضع الطّعام كلّه مرَّة واحدة، هي الطّريقة الفرنسيّة في القرن الثّامن عشر التي حلّت محلّها الطّريقة الرّوسية الشّائعة الآن في أوروبا كلها. وكان غسل المدعوين أيديهم معاً على المائدة قبل الطّعام عادةً شائعةً؛ ويكون غسل الأيدي من وعاء واحد؛ ويبدأ ربُّ البيت، لئلّا يحتشم أحد[2332]، أي من التّقدّم للطّعام أوّلا. أمّا الغسل بعد الطّعام فكان أشبه بتنظيفٍ حقيقي، وربُّ البيت يغسل بعد جميع ضيوفه، وذلك بأن يبتدي الدّور عن يساره، ثم يسير حتّى ينتهي إليه، فيكون آخر من يغسل[2333]. أمّا إذا كان الغسل مع الرّؤساء، لا مع النّظراء، كأن يكون الإنسان مع الوزير مثلاً؛ فكان الأليَق أن يغسل الضّيوف أيديهم في ناحيةٍ خاصّة؛ ويقول كُشاجم في أمر غسل اليد: قد اصطلح النّاس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضرتهم، واستجازوا ذلك مع نظرائهم ومن يسقط التّحفّظ بينه وبينهم؛ ولو آثر النّاس الاعتزال لغسل الأيدي مع كلّ طبقة، حتّى لا يرى بعضهم بعضاً... وإنّ المرء ليتأذّى أن يرى ذلك من نفسه فكيف من غيره؟ وربّما يُحسن الرّئيس ويُجمل، فيقول لنديمه: اغسل يدك مكانك ولا تنزعج! فالغبي يغتنم ذلك[2334]. وكانت هذه العادة شائعة؛ ففي العراق مثلاً كان الخاصّة ينتظرون من العامّة أن يقوموا عن مجلسهم، ليغسلوا أيديهم جانباً[2335]. ويُروى أنّ الأفشين كان حظيًّا عند المعتصم، فكان أوّل غضبه عليه أنّه أكل عنده يوماً، ثمَّ دعا بالطّست، فغسل يديه بحيث يراه المعتصم[2336]. وكان أحد كبراء البربر بمصر أيضاً يقدّم الطّعام إلى ضيوفه؛ حتى إذا فرغوا منه، دعاهم إلى غرفة أخرى ليغسلوا أيديهم[2337]. ويظهر أنّ عادة الاعتزال لغسل الأيدي ظهرت في النّصف الثّاني من القرن الثّاني الهجريّ، كما تدلّ عليه الحكاية التّالية: كان ابن دأبٍ اللّيثي (توفي عام 171 هـ)، ينادم الهادي ولا يتغدّى معه ولا بين يديه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا لا أتغدّى في مكانٍ لا أغسل فيه يديَّ، فقال له الهادي: فتغدَّ، فكان النّاس إذا تغدّوا، تنحّوا لغسل أيديهم، وابن دأبٍ يغسل يديه بحضرة الهادي[2338]. وتخليل الأسنان كان لا بدّ أن يُعمل جانباً كما تقدّم القول[2339].

يقول ابن المُعتزّ في نديمٍ لا تُحمد صحبته[2340]:

بسواك كمضرب البردست	أبداً ماشياً، ويمسح ناباً

وهو حين يذكر أنّ الوزير كان يحادث ضيوفه على الطّعام يصف أيضاً عادة زمانه. غير أنّ النّاس قد اختلفوا في موقع الحديث على الطّعام، فاستحسنه قومٌ، وكرهه آخرون؛ وهو من صاحب المنزل والمائدة أحسنُ منه من الأكل والزّائر.

وكان قول الإنسان: «الحمد لله» في وسط الطّعام غير مستحسن؛ لأنّه يدفع الأضياف إلى النّهوض قبل أن يشبعوا.

ويستحسِن الجاحظ (توفي عام 255 هـ - 869 م) من النّديم ألّا يمشّش العظام، ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل، ولا يأخذ لنفسه أكباد الدّجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون - وهي لا تزال اليوم أحبّ ما في الشّاة إلى أهل البلقان - أو صغار الفراريج[2341]. ولكن بعد الجاحظ بقرنٍ يذكر الوشّاء صاحب كتاب الموشّى في باب ذكر زيّ الظّرفاء في الطّعام: التّجلل وأكل الأوساط الرّقاق، والبزْماورد الدّقاق؛ وليس يأكلون العصبة والعضلة، ولا العرق ولا الكلوة، ولا الكرش والقبَّة، ولا الطّحال والرّئة، ولا يأكلون القديد، ولا الثّريد، ولا ما في القِدر من الورق، ولا يتحسَّون المرق، ولا يتبعون مواضع الدّسم، ولا يملؤون أيديهم بالزّهم، ولا يجللون الملح، وهو عندهم من أكبر القبح، ولا يكوكبون في الخل، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرّغفان، ولا يتعدّون مواضعهم، ولا يلطعون أصابعهم، ولا يملؤون باللُّقَم أفواههم، ولا يدسّمون بكبرها شفاههم، ولا يزاوجون بين الاثنين، ولا يأكلون شيئاً من الكواميخ والمالح؛ وأكل ذلك عندهم من الفضائح[2342]. ولم يكن يفرد لأحدٍ من الضّيوف طبقٌ على حدة؛ ويُروى عن أبي رياش (عاش في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري) أنّه دعاه إلى البصرة أبو يوسف اليزيدي إلى مائدته يوماً، فلمّا أخذ في الأكل مدَّ يده إلى بضعة لحم، فانتهشها، ثم ردَّها إلى القصعة؛ فكان بعد ذلك إذا حضر مائدته أمر بأن يهيَّأ له طبقٌ، ليأكل علّيه على حدة. ودعاه الوزير المُهَلَّبي يوماً إلى طعامه، فامتخط في منديل الغمر وبزق فيه[2343].

وقد نال فنّ الطّبيخ عنايةً كبيرةً من جانب المؤلّفين، حتّى نرى أبا الحسن المعروف بالمُنجِّم، وكان ممّن يجالس الخُلفاء؛ وإبراهيمَ بن المهدي، وكان أميراً يحسن الغناء؛ وجحظة، وكان شاعراً مجيداً، نراهم جميعاً يؤلّفون كتباً في الطّبخ في القرن الثّالث الهجريّ[2344]؛ بل يُذكر للمؤرّخ الشّهير ابن مسكويه (عاش حتى عام 430 هـ) - وكان خازن كتب عضد الدّولة - كتابٌ «في تركيب الباچات من الأطعمة»، «أحكمه غاية الإحكام، وأتى فيه من أصول علم الطّبيخ بكلِّ غريبٍ حسن»[2345]. ويقول الهَمْداني في أهل اليمن: «ولهم مع ذلك ألوان الطّعام والحلاوي والشّربة التي تؤثّر على غايات ألوان كتب المطابخ»[2346]. ولكن يظهر أنّ جميع هذه الكتب قد ضاعت مع الأسف؛ وكتب الطّبخ التي وصلت إلينا كلّها حديثةٌ بالعهد، وهي تشتمل على ضروبٍ من الطّبخ قوامه اللحم

والمسك والكافور وماء الورد[2347]، كما كان إلى ذلك يميل الإيطاليّون في عصر النّهضة. أمّا الكتب التي بقيت من العصر الأوّل[2348]، فتدلّ على ذوقٍ أرَقّ من ذلك، وهي تجعل ماء الورد والعنبر والكافور لصنع الحلوى. وكانت الحلوى أحسن ما يُصنع في طعام الأعياد؛ وكانت في مظهرها للرّائين، تُصنع بأكبر مهارة بلغها فنُّ الطّعام، فكانت تُصنع قصورٌ من السُّكّر، وتوضع في وسط المائدة؛ ويُروى عن المتنبّي مثلاً أنّه قال شعراً يشكر فيه رجلاً أهدى إليه هديَّة فيها سمكٌ مصنوعٌ من سكّر ولوز في عسل[2349].

وكان وقتُ المسامرة بمعناها الصّحيح يُفصل عن وقت الطّعام، فصلاً تامًّا، وكان لا يُبتدأ إلّا مع أقداح الشّراب؛ ولم يكن النّبيذ يُشرب على الطّعام، حتّى في أشدّ العصور فساداً. وكانت المقبِّلات تتألّف من أشياءٍ حرّيفة، وربّما كان اسمها (نُقل) مأخوذاً عن الكلمة اليونانية «نوغالماتا» nogalmata أو الكلمة اللاتينية «نوكلي» nuclei واللتين تعنيان النُّقل. وكان أهل التّظرّف لا يكثرون من أكل النّقل، وإنّما يعبثون منه بالشّيء اليسير، ويجتنبون الفجل والحُرْف لنتنهما، والكرّاث والبصل لرائحتهما؛ ولا يقع الثّوم أو البصل في قدر، فيأكلونه؛ ويرغبون عن أكل الزّيتون لنواه، وكذلك عمّا خالطه النّوى من فاكهة الصّيف كالقَسْب والتّمر والمشمش والعنّاب والخوخ، وهو عندهم من أكل العوامّ، لا من أكل الخواصّ، ولا يتّفق عندهم الرمّان والتّين والبطّيخ لصوته إذا انكسر، ولا يأكلون الحنطة المحمَّصة ولا السّمسم المقلوّ، ولا الزّبيب الأسود، وهم يشبّهونه بالبعر، ولا يأكلون البلوط والقريثاء والغبيراءِ والشّاهْبلّوط ونحو ذلك؛ وأكثر ما يتنقلون به مملوح البندق، ومقشّر الفستق، والعود الهندي، والطّين الخُراساني، وتفّاح الشّام، وقصب السُّكّر المغسول بماء الورد[2350]. وكان الشّراب منتشراً رغم نهي القرآن عنه، غير أنّ مسألة الشّراب كانت تختلف باختلاف البلاد، فبينما كان يُعاقَب عليه في الحجاز- حتى يُروى أنه قُبِض على أحد العلويين مع آخرين على شراب، فأمر بضربهم جميعاً، وكان أهل العراق لا يرون بالشّراب بأساً[2351]. وانتشرت دور الخمر هناك، كما كان عليه الحال قبل الإسلام، وكان الخُمَّار والسّاقون والسّاقيات في الغالب نصارى؛ ويقول ابن المُعتزّ:

تلوح صُلبانه بلبَّته | كنوز خيريَّة بلا غصن

وكذلك كان حال الشّراب في مصر؛ فيحكي البِشاري المقدسي أنّ المشايخ فيها لا يتورّعون عن شرب الخمور[2352]، وذهبت كلُّ أوامر رجال الشِّحنة (الشّرطة) سُدىً. وفي آخر عهد الفاطميّين كان يُكتفى بإغلاق محلّات الخمّارين بالقاهرة ومصر ويُمنع بيع الخمر في آخر جمادى من كلّ سنة[2353].

ويُروى عن نساء مَرّاكش، وهي بلادٌ كثيرة الأعناب، أنهنّ كنّ مولعاتٍ بالشّراب[2354]. ويحدثنا أحد الرّحّالين المُحدَثين أنّه في أوّل جني العنب يكون الكثير من أهل مَرّاكش سكارى[2355].

ويُروى عن الأزهريّ اللغويّ المشهور أنّه ذهب إلى ابن دُرَيدٍ العلاّمة البَصْري (توفي عام 321 هـ - 933 م)، وقد جاوز التّسعين فوجده سكران، فلم يعد إليه بعدها أبداً؛ وكان زوَّاره يدخلون عليه، فيستحيون ممّا يرونه من العيدان المعلّقة والشّراب، وهو في تلك السِّنّ العالية[2356].

وفي عام 321 هـ أيضاً أمر الخليفة القاهر بتحريم الغناء والخمر، «وهو لا يكاد يصحو من السُّكْر»[2357].

ويُذكر عن الخليفة الرّاضي الّذي جاء بعد القاهر أنّه كان أعطى الله عهداً ألّا يشرب، ولم يزل من خلافته نحو سنتين محافظاً على عهده، لا يشرب؛ وكان جلساؤه يشربون بين يديه، فلا يشرب معهم إلّا الجُلّاب؛ ولكنّ أصحابه لم يزالوا به ليشرب، فكتب رقعةً بلفظ يمينه، وعرضها على الفقهاء، فوجدوا له رُخصةً، كالعادة؛ فأعطى أستاذه ونديمه الصُّولي ألف دينارٍ ليتصدّق بها عنه، وشرب[2358].

وكان الخليفة المستكفي قد ترك النّبيذ، فلمّا أفضت إليه الخلافةُ عام 333 هـ - 944 م دعا به من وقته، وعاد إلى شربه[2359].

وكان في بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجلٌ يسمّى الشَّرابي، شأنُه العنايةُ بالشّراب والكؤوس وبالفاكهة والرّوائح[2360].

وكان الشّراب عادةً للكثيرين، حتّى كبار ذوي المناصب الشّرعية، فيُروى أنّه كان جماعةٌ من الكبراء يُنادمون الوزيرَ المُهَلَّبي، ويجتمعون عنده في كلِّ أسبوعٍ ليلتين، على اطّراح الحشمة والتّبسُّط في القصف والخلاعة؛ منهم ثلاثة قُضاةٍ هم ابنُ قريعة، وابنُ معروفٍ والتّنوخي، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها؛ فإذا تكامل الأنسُ، وطاب المجلس، وُضع في يد كلٍّ منهم كأسُ من ذهبٍ، وزنه ألف مثقال، فيه شرابٌ قطْرُبُّليٌّ أو عكبري؛ فيغمس لحيته فيه، حتى تتشرّب أكثره، ويرشّ منه بعضهم على بعضٍ؛ ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبّغات ومخانق البرم.

وكان يحضر إلى مجلس الشّراب في منزل كاتب الخليفة قاضٍ من قُضاة بغداد، توفّي عام 423 هـ - 1031م؛ وكان لا يشرب إلّا قارصاً، فأرسل صاحب المنزل غلاماً، وأحضر خماسيَّةً من دكّان إسحاق الواسطي، فيها من الشّراب الذي كان بأيديهم، إلّا أنّ على رأسها كاغداً وختماً مكتوبٌ عليه «قارصٌ من دكّان إسحاق الواسطي»، فشرب القاضي منه، ثمَّ سأل عن الشّراب فقيل له: قارص، فقال: لا بل والله الخالص؛ ثم ثنّى وثلَّث؛ فكان الغلام، كلما أتاه القدح سأله عنه، فإذا قال له: هذا خمر، شَرِبَ حتى تبطّح في المجلس ولُفّ في طيلسانه وحُمل إلى داره[2361].

ويُروى أنّ نقيب الطّالبيين بمصر، (توفي عام 352 هـ - 963 م) - وهو يشغل منصباً دينياً من الطّبقة الأولى - أنّه كان له شِعرٌ في الخمر. فمن ذلك قوله[2362]:

أأترك الشُّرْب والأنوار دائمةٌ والطلّ منها على الأشجار منثور

والورد في العود مطويٌّ ومنشور	والغصن يهتزّ كالنّشوان من طربٍ
كأنّما الرّمل في عينيَّ منثور	لا والتي تركتني يوم فرقتها

غير أنّه يُروى عن المتنبِّي الشّاعر الكبير (توفي عام 354 هـ - 965 م) أنّه هجر الخمر، وعزم على ألّا يشرب إلّا ما يشربه الكرم، يعني الماء. إلا أن هذا لم يكن من المتنبِّي تورعاً، فهو لم يكن له بالدّين اكتراث.

ويُذكر عن الحاكم بأمر الله أنّه لمّا عَنَّ له أن يعيد العمل بأحكام الإسلام الأولى نهى النّاس عن شرب النّبيذ؛ وتشدّد في ذلك، حتى استطبَّ أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس؛ فأشار عليه بشرب النّبيذ، وذكر له ما فيه من المنافع؛ فاستدعى المغنّين وأصحاب الملاهي إلى مجلسه، وشرب على غناهم.

ولكن لمّا مات ابن أنسطاس عاد الحاكم إلى النّهي عن الخمر، ومنع منه أشدّ المنع، حتّى منع بيع الزّبيب والعسل، وكسر الضّروف التي يوضع فيها النّبيذ ومنع من عملها[2363].

أمّا كثرة الشّاربين وقلّتهم فكان يُكره جلوس الاثنين للشّراب؛ وهو يسمّى المنشار؛ لأن المنشار يجلس عليه رجلان؛ وكان الثّلاثة يعدّون أتمّ مجلساً[2364]. وإذا كان القدماء قد استحسنوا الشّراب مع نساءٍ ذوات أدبٍ ولباقة يتراوح عددهنَّ بين ثلاثة وتسعة فإننا نجد أبا نواس يقول[2365]:

وصاحب الدّعوة والضّارب	ثلاثةٌ في مجلس طيبٍ
أتاك منهم شغبٌ شاغب	فإن تجاوزْتَ إلى سادس

وقد ارتضى المتأخرون بعد أبي نواسّ هذا العدد، قال الشّاعر:

متخيّرين ولا يزد	فليَدْع منّا خمسة
وفُوَيْقه سوق الأحد	فدُوَيْن هذا وحشة

وقال الشّاعر فيما لا يُعتدّ بمجالسته[2366]:

وخمسة رهط به أربعة	فستّة رهط به

وكانت أرض قاعة الشّراب يُنْثَر عليها الزّهر، كما كان الحال عند القدماء وعند الرُّوم البيزنطيين، وكانت أكاليل الزّهر تُزَيّن رؤوس الشّاربين.

وقال الصّنوبري في رفاقه على الشّراب[2367]:

وعلى ذا تاج نسرين على ذا تاج وردٍ

وكان المتظرّفون يحيّي بعضهم بعضاً بالورد، وكان لا يُستحسن أن يدفع بعضهم إلى بعضٍ وردةً واحدةً؛ ولا تقول متظرِّفةٌ لأخرى: «هذه وردتُك»، فهذا عندهنّ من أكبر العيوب، ويعدّونه من كلام العوام[2368]. وكان الأدباء يحيّي بعضهم بعضاً بالفاكهة على الشّراب، ويقول عبدان الأصبهاني[2369]:

وأُترُجَّة تغري النّفوس بصوتها	سُقيت، وفي كفّ الحبيبة وردة
شربت فحيّتني بلوني ولونها	مداماً فلمّا قابلتني بوجهها

وكان من مستلزمات الشّراب الغناء والرّقص، وكانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان أربعاً[2370]، كما هو الحال اليوم؛ وكان الجواري يغنّين من وراء ستار، ولكن كان من المبالغة في إكرام الضّيف أن تغني المغنّيات بين يديّ السّتار. ويُروى أن أبا الحسن علي بن الفُرات خلا للشّراب في وزارته الأولى، وحضر جماعةٌ من كتابه وأصحابه، وحضر من المغنيات بين يدي السّتائر ومن ورائها ما لا يُحصى كثرة[2371].

وكان التّأثُّر بالغناء قوياً، فكان منه ما يسّر وما يُبكي، وما يزيل العقل. ويُذكر أنّه لم يكن في الإسلام أحسن صوتاً من مُخارق؛ غنّى يوماً في مُتَنَزّهٍ، وتوسّط دجلة يوماً، وغنّى، فلم يبق أحدٌ إلا بكى؛ وكان غناؤه أحياناً يسرّ من جماله كل قلب[2372].

وغنّى الأمير إبراهيم بن المهدي مرّةً في مجلس المأمون، فأحسن؛ وكان في المجلس كاتبٌ؛ فطرِب، فأخذ بطرف ثوب إبراهيم فقبّله، فنظر إليه المأمون كالمُنكر لما فعل، فقال له أبو زيد: ما تنظر! أقبّله والله! ولو قُتلت[2373].

وفي أواسط القرن الثّالث الهجري نزل عُبيد الله بن طاهر عند المُعتزّ، فأراه أشياءً عجيبةً، منها أنّه أسمعه غناء سارية وزمر رنام الزّامر، ثمّ أراه آلة موسيقى عجيبة؛ وأدخله إلى شباك، وأمر أن

يجمع بين السّبع والفيل، فرأى تواثبهما؛ ثمّ سأله أي الأشياء أطرف فيما رأى، فقال: غناء سارية، وكان عُبيد الله نفسه يحسن الشّعر [2374].

ويُروى أنّه اشتُريَت من بغداد جاريةٌ رائعة الحسن والغناء للأمير تميم بن المُعِزّ لدين الله بمصر (توفي تميم عام 368 هـ - 978 م)، فغنَّتْ له ولجُلسائه فأطربته، ولم يزل غناؤها يزيده طرباً، حتّى أفرط جدًّا فقال لها: تمنّي ما شئتِ، فلك مُناك، فتمنّت أن تغنّي ما غنّت ببغداد، فلم يجد الأمير بُدًّا من الوفاء لها، وأرسلها إلى بغداد، فلمّا قاربتها أفلتت ممّن أُرسِلَت معهم[2375]. وثَمَّة حكايات كثيرة من هذا القبيل.

أمّا أصحاب الأرواح المتّقدة باضطرام، فكان أحدُهم يمزّق ثيابه، ويدقّ الحائط برأسه، ومنهم من كان يتمرّغ في التّراب، ويهيج ويزبد ويعضّ بنانه، ويركل برجله، ويلطم وجهه[2376].

وكانت تُذكر على الشّراب وتُستحسن الحكايات القصيرة من النّوادر الهزليّة والأحاديث التي يتجلّى فيها الذّكاء واللباقة. فيُروى عن طاهر ذي اليمينَين (حوالي عام 200 هـ) أنّه كان، إذا تغدّى مع أصحابه، وخرج عن حدّ الجدِّ تبسطوا في أخبار العامّة وما يحسن من الهزل[2377]. أمّا الحكايات الطّوال الّتي يفنى باقتصاصها زمان المجلس، فكان ينبغي التّنكّب عنها، لأنها بمجالس القُصَّاص أولى منها بمجالس الخواص[2378] يقول ابن المُعتزّ [2379]:

بين أقداحهم حديثٌ قصير	هو سحرٌ وما سواه كلام
وكأنّ السَّقاة بين النّدامى	ألِفاتٌ على سطورٍ قيام

وكان البعض يؤثرون هذه اللذة - لذة محادثة الرّجال - إيثاراً شديداً؛ فيُروى عن فَنن أنها سألت مسلماً: أيّ الأمور عنده ألذّ وأشهى، محادثة الرّجال، أم استماع الغناء، أم الخلوة بالنّساء؟ فقال: محادثة الرّجال[2380]. ويقول المسعودي: إذ كان العيش كلّه في الجليس الممتع[2381].

وقال الإخشيد مرَّة للشّاعر سعيد المعروف بقاضي البقر: حدِّثْني بحديثٍ صغير... صغيرٍ بطول الإصبع[2382]؛ فهو مشتاق للحديث كأنه طفل صغير.

وكان الأُدباء - من له ملكةٌ شعريةٌ ومن ليس له - يرتجلون القِصائد القصيرة في وصف الزّهر وآنية الشّراب الجّميلة والمغنّين والمغنّيات والسّماء. ويُروى أنّه أحضرت في مجلسٍ لأصحاب الشّاعر الكبير أبي الطيّب صورة دميةٍ، تدور حول نفسها، وقد رفعت إحدى ساقيها، وأمسكت بيديها باقة زهر، فكانت كلّما أدارت وجهها نحو أحدهم، شرب على ذلك، ثمّ دفعها لتدور، وكان المتنبِّي كلّما جاء دوره يقول فيها بعضاً من الشّعر [2383].

كما أنّ شرب النّبيذ كان مقلّلاً لانتشار المخدّرات الأخرى؛ فالكلام في تناول الحشيش لم يظهر في مؤلّفات الفقهاء إلّا في القرن الثّالث الهجريّ، وقد حرّمه الشّافعية وأباحه الحنفيّة[2384]؛ ولا نجد له ذكراً في الحكايات المأثورة من القرن الرّابع. ويدلّ تاريخ الحشّيشيّة على أنّ تناول الحشيش كان يعدّ شيئاً جديداً كل الجدّة عند العامّة.

أمّا الشّاي الصّينيّ فلم يكن قد استُعمل للشّراب في ذلك العصر، وإن كان أحد الرّحّالين قد حكى في وصفه للصّين في كتاب دوّنه حوالي عام 237 هـ - 851 م؛ أنّ الشّاي كانت تدفع عليه المُكوس كغيره من الأشياء[2385].

ولا نرى أنّ التّدخين بأيّ نوعٍ من أنواعه كان من أصناف اللّذات، إلّا أنّ الطّين كان يُمضغ (انظر الفصل الخاص بالحاصلات). ويحكي المسعودي في أوائل القرن الرّابع الهجريّ أنّه كان يأتي من الهند ورق التّنبول ليُمضَغ، وأنّه في ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكّة وغيرهم من الحجاز واليمن بدلاً من الطّين[2386].

أمّا الماء المثلّج فكان أكبر لذةٍ للنّاس في فصل الصّيف؛ ويُروى أنه لمّا وُلّي ابن الفُرات الوزارة، وكان اليومُ الّذي خُلع عليه فيه شديدَ الحرّ، سُقيَ في داره أربعون ألف رطلٍ من الثّلج في يومٍ وليلة[2387].

وكان الكُبراء يحملون الثّلج في حرّاقاتهم[2388]؛ كما كان يُحْمَل أيضاً من الشّام إلى مصر ليستعمل في تبريد المشروبات[2389].

وكان يدخل إلى دار ابن عمَّار، الوصيّ على الحاكم بأمر الله، والوسيط بينه وبين النّاس نصف حملٍ ثلجاً في كل يوم، وذلك في أواخر القرن الرّابع الهجري[2390]. أمّا في مكّة[2391] والبَصرة فلم يكن الثّلج ميسوراً. يقول أبو إسحاق الصّابي:

نحن بالبصرة الذّميمة نُسقى	شرّ سقيا من مائها الأترُجّي
أصفر منكر ثقيل غليظ	خاثر مثل حقنة القولنج

وقد بلَغتنا حكاية جماعةٍ من الكُتّاب في القرن الرّابع كانوا قاصدين مصر، فلمّا وصلوا دمشق كانوا يبحثون عن مكانٍ يبيتون فيه، فالتقوا برجلٍ شاب بدت عليه أسباب الراحة، ودُعوا إلى منزله، فعَرَض عليهم الاستحمام، وأرسل معهم اثنينِ من العبيدِ المُرْد، وغلامين غاية في الحُسن؛ بعد ذلك قُدّمت لهم مائدةٌ سخيّة عليها خير ألوان الطّعام فأكلوا، ثمّ دخل إليهم غلامانِ أمردان جميلان، فغمزوا أرجلهم، ثمّ أخذوا إلى مجلسٍ في بُستانٍ حسن، وأحضرت الأنبذة الطّيبة، فشربوا أقداحاً يسيرة، ثمّ ضرب صاحب الدّار بيده على ستارةٍ ممدودة، وإذا جوارٍ خلفها، فأمرهنّ بالغناء فغنّين أحسن غناء، فلما توسَّطوا الشّراب قال صاحب الدّار للجواري:

«ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزّهم الله! أخرُجْن!» وهتك السّتارة، فخرجت عليهم جوارٍ لم يُرَ قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهنّ، ما بين عوّادة وطنبوريّة وزامرة وصنّاجة ورقّاصة ودفّافة، بفاخر الثّياب والحليّ؛ ثمّ أقبل صاحب الدار وقال: هؤلاء مماليكي، وهنّ أحرارٌ لوجه الله تعالى؛ وإن كان لا بدّ من أن يأخذ كلّ واحدٍ منكم بيد واحدة ويتمتّع بها ليلة، فإذا بخدم قد جاؤوا فأدخلوا كلّ واحدٍ وصاحبته إلى بيتٍ مفروشٍ بفاخر الفرش، فلمّا جاء الصّباح جاء الخدم وعرضوا عليهم الحمّام، فدخلوه ودخل معهم المردان؛ وخرجوا، فبُخِّروا بالنّدّ، وأعطوا الماورد والمسك والكافور؛ فأقبل عليهم صاحب الدّار فسألهم: أيّما أحبّ إليكم الرّكوب إلى بعض البساتين للتّفرج، حتّى يجيء وقت الطّعام، أو اللّعب بالشّطرنج والنّرد، أو النّظر في الدّفاتر؟ فاشتغل كلّ منهم بما أحبّ، ثمّ أحضرت لهم مائدة كمائدة الأمس، فأكلوا، ثم تكرّر ما حدث بالأمس[2392].

وكان الفقهاء في البداية لا يجيزون لعب الشّطرنج، ثم تساهلوا في أمره، ويُذكر أنّ من رشيق فتاوى سهل بن سهل مفتي نيسابور (توفي عام 404 هـ - 1103 م) في الشّطرنج: إذا سَلِمَ مالٌ من الخُسران وحاجته، فذلك أنسٌ بين الخلّان[2393].

وكان الصُّولي حوالي عام 300 هـ - 912 م أحسن لاعبٍ للشّطرنج، وقد مهّد له ذلك دخول دار الخلافة[2394].

وكان من الشّطرنج نوعٌ يُلعب في قصر الخليفة المعتضد حوالي آخر القرن الثّالث الهجريّ، وذلك بآلةٍ مستحدثةٍ تسمّى الجوارحيّة؛ وتسمّى أجزاؤها بأسماء حواس الإنسان[2395].

ولم يكن جلوس اللّاعبين صامتين بعضهم إلى جانب بعضٍ من عادات العرب؛ وكان العربيّ القحّ يشعر بما في ذلك من غرابة عن طباعه؛ ويُروى أنّ أهل المدينة كانوا لا يزوّجون لاعب الشّطرنج؛ وقال العرب إنّما وُضِع الشّطرنج للعجم الّذين لا علم لهم؛ لأنّهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحُظ البقر، فجعلوا الشّطرنج مشغلة[2396].

أمّا العرب فكان أعظم شيءٍ عندهم الموسيقى والإيقاع مع الغناء، إلى جانب ما امتازوا به من الأمثال والنّوادر اللّطيفة والعبارات البليغة. ويُروى عن الخليفة المأمون، بعد قدومه من خُراسان وارتقائه عرش الخلافة، أنّه اشتهى الشّطرنج، فاستحضر كبار أهله، فكانوا يتوقّرون بين يديه، حتى ضاق بذلك، وقال: إن الشّطرنج لا يُلعب مع الهيبة؛ قولوا ما تقولون إذا خلوتم[2397].

ونوادر الشّطرنج الّتي وردت في كتاب حكاية أبي القاسم مأخوذةٌ من مجالس الشّطرنج[2398]؛ وكان الغالبُ في لعب الشّطرنج يتطلّع إلى شيءٍ من المكسب، كأن تُعمل بعده أكلةٌ طيّبة[2399].

أمّا النّرد، وهو يُلعب على رقعةٍ بها اثنا عشر أو أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصّيْن، فكأن اللّعبة تدور على الصّدفة والاتفاق.

وشبّه بعض الحكماء رقعة النّرد بالأرض الممهَّدة لساكنها، ومنازل الرّقعة، وهي أربعة وعشرون، بساعات الليل والنّهار، وبيادقها وهي ثلاثون، بعدد أيام الشّهر، وشبّه ما يخرج من الفصّيْن، إذا رُمي بهما، بالقضاء الجاري على العباد؛ ولهذا ظلّ أهل الورع ساخطين عليه، ويسمّيه أبو اللّيث السَّمَرقندي «عمل الشّيطان»، هو وسباق الحمير والصّيد بالكلاب ومهارشة الكباش والدّيوك.

وكان النّرد يُلعب ابتغاء الكسب صراحةً؛ فيُروى أنّ رجلاً لاعب آخراً فغلبه، فأخذ منه عشرين ديناراً. ويُروى عن النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم أنّه سابَقَ بين الخيل، ويروى عنه محمد صلى الله عليه وسلّم في رواياتٍ كثيرة أنّه قال: لا تحضر الملائكة من اللّهو شيئاً إلا ثلاثة: لهو الرّجل مع امرأته، وإجراء الخيل، والنّضال. غير أنّ الفقهاء اشترطوا في هذه الرّياضة التي أباحوها، وهي مسابقة الخيل، ألّا تُلعب طلباً للمال، وكان سباق الخيل كثيراً بمصر، وبلغ من شغف النّاس به وتقديرهم له أنّ السّبَّاق كان يأخذ حصان السّبوق، وذلك عام 190 هـ - 806 م.

وتولّى على مصر يزيد بن عبد الله التُّركي عام 242 هـ - 856 م، وكان مُتشدِّدا، فعطّل الرّهان، وأمر ببيع الخيل التي كانت تُتَّخذ للسّلطان[2400]؛ وكانت هذه الخيل يُنفَق عليها من مال الدّولة على العادة الجارية قبل الإسلام؛ ولكنَّ الخيل جرت من جديد عام 249 هـ - 863 م[2401]. وكانت حلبة السّباق في أيّام خمارويه تقوم مقام الأعياد[2402].

وفي عام 324 هـ شرّع الإخشيد في إجراء حلبة السّباق على رسم أحمد ابن طُولون[2403] Ibn Tolûn، ويذكر المسعودي أنّ لعيسى بن لُهيعة المصري كتاباً يسمّى كتاب «الجلائب والحلائب»، ذكر فيه كلّ حلبةٍ أُجريت في الجّاهلية والإسلام[2404].

وكان النّاس مولعين بسباق الحَمام، رغم إنكار الفقهاء له[2405]، وكان منتشراً في مصر، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجريّ.

ويُروى عن الخليفة المُعِزّ أنّه سابق بحَمامه حمام الوزير؛ فسبق حَمامه حمامَ الخليفة، فعظُم ذلك عل المُعِزّ [2406].

وكذلك كان البعض يحارش بين الكباش والدّيوك والكلاب[2407]؛ وكان عند سَبُكتكَين التُّركي Sebük Tegin، قائد جيوش السلطان مُعزّ الدّولة، كبشٌ قويُّ النّطاح، وقد ذكره ابن الحَجَّاج في شعره، وتمنَّى لو تُرك لينطح زوجاً كريه الصّورة لمغنِّية كان هو متعلّقا بها[2408]. وكان بعض النّاس يلعبون بالسّمَّان[2409]، بل نرى النّاس اليوم مولَعين بالمهارشة بين الطّير في تُركستان ولعاً شديداً، حتى إنّ رجلاً ممّن يملك هذه الطّيور صار رجلاً ذا شأنٍ بتلك البلاد؛ وقد استطاع أن يظفر بحياةٍ رغدةٍ بالمهارشة بين طيوره[2410].

وكان القمار أكثر ما يُلعب بفصّي النّرد[2411]؛ وقد شغف النّاس بذلك رغم تحريم القرآن للقمار. بل يُحكم من أخبار عصر النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم أنّ أبا لهبٍ قامر العاصي بن هشام، فقَمَرَهُ، حتّى أخرجه من ماله، ثمّ عرض عليه العاصي أن يقامره، فأيّهما قُمر كان عبداً لصاحبه[2412].

ورويِ عن ابن جامع المغنّي في عصر الرّشيد أنّه قال: «لولا أنّ القمار وحبّ الكلاب شغَلاني لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبز»[2413]. ويُروى عن الشّريف الرَّضي في أواخر القرن الرّابع الهجريّ أنّه عاقب أحد العلويّين وأفرط في معاقبته لأنه كان يقامر بما يتحصّل له من حرفةٍ يزاولها، ويترك أطفاله محتاجين[2414].

وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جُملة المهام الّتي يقوم بها المحتسب[2415]. وكان بمصر شيوخٌ يُسَمَّوْن المطمِّعين، لهم جراية من دور القمار، ليجلبوا النّاس إليها، وكانوا يطمّعونهم في اللعب. وقد حكى إبن سعيد: أن الإخشيد في وقتٍ من الأوقات أمر بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم، فأخِذوا؛ وأدخِل عليه جماعةٌ منهم وعرضوا عليه، وفيهم شيخٌ له هيبة، فقال: هذا الشّيخ مقامر؟ فقالوا: هذا يقال له المطمِّع، فقال الإخشيد: وإيش المطمِّع؟ قالوا: هو سبب عمارة دار القمار؛ وذلك أنّ الواحد إذا قمر ما معه، قال له: العب قميصك، حتّى تغلب به كل شيء، حتّى يبلغ إلى نعليه؛ وربّما اقترض له؛ ولهذا الشّيخ جرايةٌ يأخذها على ذلك كلّ يوم من مُتَقَبِّل دار القمار؛ فضحك الإخشيد، وقال: يا شيخ! تُبْ إلى الله وحده من هذا؛ فتاب وأمر له الإخشيد بثوبٍ وألف درهم، وقال يُجرى عليه في كل شهر عشرة دنانير؛ فانصرف الشّيخ داعياً، فقال الإخشيد: ردُّوه! وقال: خذوا ما أعطيناه، وابطحوه! فضربه مئتي عصا، ثم قال: خلُّوه، أين هذا من تطميعك[2416]؟!

أمّا الرّياضة الّتي كان أكثر ما يشتغل بها الكبراء والوزارات فكانت بالصّوالجة، كما هو الحال عندنا اليوم؛ وأصلها عجمي[2417]. وكان الخُلفاء يلعبون بالصّوالجة في ميادين خاصّة في قصورهم[2418]. ومن إجادة الضّرب بالصّوالجة أن يحترس اللّاعب من إيذاء مَن جرى معه في الميدان[2419]، وأن يحسن الكفّ للدّابة في شدّة جريانه، متوقيًّا من الصّرعة والصّدمة في تلك الحال، وأن يتجنّب طرد النّظارة والجالسين على حيطان الميدان، لأنّ عَرْض الميدان إنّما جُعل ستين ذراعاً لئلّا يُحال ولا يُصال مَن جلس على حائطه[2420].

أما الدَّيلَم فكانوا شعباً جبليًّا، فآثروا الرّياضة البدنيّة البسيطة؛ فيُروى أنّ مُعزّ الدّولة لمّا جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصّراع، فكان يُعمل بحضرته حلقةٌ في ميدان، فتقام شجرةٌ وتُجعل عليها ثياب الدّيباج والمروي ونحوهما، وتوضع تحتها أكياسٌ فيها دراهم، ويقف على سور الميدان أصحاب الطّبول والزّمور، وعلى الباب أصحاب الدّبادب، ثمّ يؤذن للعامّة في دخول الميدان، فمن غلب أخذ الثّياب والشّجرة والدّراهم؛ وكم من عينٍ ذهبت بلطمة، وكم من رِجْلٍ اندقّت! وشغف شباب مُعزّ الدّولة بالسّباحة، فتعاطاها أهل بغداد، حتّى أحدثوا فيها الطّرائف؛ فكان الشّابّ يسْبح قائماً، وعلى يديه كانون، فوقه حطبٌ يُستعمَل تحت قدرٍ إلى أن ينضج؛ ثمّ يأكل من القدر إلى أن يصل دار السُّلطان[2421].

غير أنّه بالرّغم من كلّ هذه الرّياضات بقي الصّيد محتفظاً بكلّ ما له من شأن، بل ظهرت في تمجيده قصائد خاصّة[2422]، إلّا أنّ معظمها يدور حول مدح كلاب الصّيد ووصفها؛ وكان أشهر الوحوش الضّارية الأسد؛ ولم تكن السّباع في ذلك العصر نادرةً بالشّام، ولا على شواطئ نهري دجلة والفرات، بل كانت أحياناً تدنو قريباً جدًّا من بغداد، حتّى إنه في عام 331 هـ - 943 م خرج الخليفة الملتقي إلى الشّماسيّة بجوار بغداد لصيد السّباع[2423]. ويُروى عن خمارويه، صاحب

مصر، أنّه كان لا يسمع بأسدٍ إلا بحث في طلبه[2424]. وكانت قصص السّباع وصيدها تحتلّ مكاناً كبيراً من أحاديث التّسلية[2425]. وكانت إذا اختلفت آثار رجلٍ في طريق فأوّل ما يتبادر إلى الذّهن أن يقال: أكله الأسد[2426].

وكان بقصر الخليفة بسامرّاء، مكانٌ يُحفظ به الحيوان، وهو يسمّى «حير الوحش»[2427]. ويُروى عن المُعتزّ حوالي منتصف القرن الثّالث الهجريّ أنّه أطلع ضيفاً عنده، على عراك بين أسدٍ وفيل[2428].

ولكنّ حبّ الاطّلاع على غرائب الحيوان زاد، حتّى صار اهتماماً كبيراً به، فيُروى عن خمارويه بن أحمد بن طُولون Ibn Tolûn أنّه بنى في داره الكبيرة موضعاً للسّباع، وعمل فيه بيوتاً[2429].

وكان في قصر الخليفة ببغداد حوالي عام 300 هـ - 912 م دارٌ بها قطعان من أصناف الوحش[2430]، وصار يُرسَل إليها كلّ غريبٍ من الحيوان من جميع البلاد.

وكان جعفر بن الفضل بن الفُرات الوزير بمصر (توفي عام 391 هـ.) يهوى النّظر إلى الأفاعي وما يجري مجراها من الحشرات، وكان في داره قاعةٌ لطيفة مرخمّة فيها سلل الحيَّات، ولها قيِّمٌ فرَّاش حاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون؛ وكان كل حاوٍ في مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه، وكان الوزير يثيبهم؛ وذات يوم انسلّت إلى دار ابن المدبِّر الكاتب - وكان يسكن إلى جوار الوزير - الحيَّة البتراء وذاتُ القرنين الكُبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة؛ فكتب إليه أن يأمر حاشيته وصبيته بصون ما يوجد منها، إلى أن يُنْفِذَ الحواة لأخذها؛ فلما وقف ابنُ المدبِّر على ما في الخطاب قلبه وكتب في ذيله: والذي يُعتمَدُ عليه في ذلك أن الطّلاق يلزمني ثلاثاً، إن بِتُّ أنا أو أحد من أولادي في الدّار، والسّلام[2431].

وكان اللّعب بالخيَّال معروفاً؛ فكان لأحد طبّاخي المأمون ابنٌ يُسمّى عُبادة، قال له دِعْبِل يوماً: والله لأهجونّك، قال: والله! لئن فعلت لأخرجنّ أمّك في الخيَّال[2432]. وكذلك كان النّاس بمصر يخرجون في بعض الأعياد، ويطوفون الشّوارع بالخيَّال[2433].

وكان ثمَّة مقلِّدون بالمعنى الصّحيح أيضاً، وكان الواحد يُسمَّى الحاكية؛ وكان التّقليد والمحاكاة يعدّان فنَّيْن جديرين بالعناية؛ فكان ببغداد رجلٌ عرف بابن المغازلي، يقف على الطّريق ويقصّ على النّاس أنواع الأخبار والنّوادر المضحكة؛ وكان في نهاية الحذق، يقلِّد كل طوائف النّاس؛ فلا يدع حكاية أعرابيّ أو نجديّ أو نَبَطيّ أو زطّي أو زنجي أو سِندي أو تُركيّ أوخادم إلا حكاها؛ وقد سمع المعتضد بنوادره، فأعجب بها، وأمر بإحضاره بين يديه[2434].

وفي القرن الرّابع الهجريّ كان أبو الورد من عجائب الدّنيا في المطايَبة والمحاكاة، وكان يخدم الوزير المُهَلَّبي، ويحكي شمائل النّاس وألسنتهم، فيؤدِّيها كما هي، فيعجب النّاظر والسّامع[2435].

وفي القرن الخامس الهجريّ نرى محمّد الأزْدي يؤلف كتاباً سمّاه «حكاية أبي القاسم البغدادي»، جعل فيه مثل هذه المحاكاة والتّمثيل موضوعاً للأدب، وجعل ذلك وسيلةً لوصف أخلاق عامّة بغداد وكلامهم القبيح، وكلّ ذلك في شخص أبي القاسم هذا[2436].

ويذكر الرّحالة البا□اري أدولف فون □ريدِه Adolf von Wrede أنّه شاهد بحضْرمَوت حاكياً هزليًّا يقلّد أعمال التُّرك والبحريّين بل والأعراب[2437]. ويحدثنا زاخاو في العصر الحديث عن رجلٍ كهذا[2438].

وقد نرى أحياناً ذكر ما يسمّى بالسّماجات، وهي تذكر في مصر في بعض الأعياد[2439]، وفي بغداد في يوم النّيروز، حيث كان أصحاب السّماجات يلعبون بين يدي الخليفة، وكلّ منهم متنكّر بصورة مُنكرة[2440].

الفصل الثّاني والعشرون
أحوال المُـدن

Städtewesen

ليس في علمنا حول القرن الرّابع غير تصنيف واحد للمدن، وهو يقوم على أساسٍ سياسيّ، ويفرّق بين المدن على هذا النّحو:

(1) الأمصار.

(2) القصبات؛ وهي عواصم الأقاليم.

(3) المدن أو المدائن.

(4) النّواحي؛ مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر.

(5) القرى[2441].

والعلامة الّتي تُعرف بها المدينة هي أن يكون بها مِنْبَرٌ، وقد شدّد الحنفيّة بنوعٍ خاص في أنّه لا تُقام الجمعةُ إلّا في الأمصار الجامعة الّتي تقام فيها الحدود. ولمّا كان رأي أصحاب أبي حنيفة هو المتمثّل عند الأمير ببُخارى فلذلك كان ببلاد ما وراء النّهر قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلّا الجامع[2442]، «وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا بها المنبر!». وقد كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحو خمسين منبراً[2443].

وكان من أثر تلك القيمة الّتي للمنبر أنّ البعض قضى، حتى في المدن الكبرى، بالتزام مسجدٍ جامعٍ واحد، إن أمكن[2444]. وكان ببغداد حوالي عام 300 هـ نحو سبعةٍ وعشرين ألف مسجد[2445].

لكنّ صلاة الجمعة كانت لا تقام إلّا في المسجد الجامع في كلّ من جانبيْ بغداد، وفي مسجد دار الخلافة، منذ المعتضد حوالي عام 280 هـ، وكان هذان المسجدان بطبيعة الحال يضيقان بمن يسعى إليهما من جموع المصلّين، حتّى كانت الصّفوف تمتدّ من أبواب المسجد المفتوحة، في الشّوارع حتى تنتهي إلى دجلة. وكان المتباطئون في السّعي إلى الجمعة يدركون المُصلّين، وقد ضاق الوقت والمكان، فيصعدون من سُمَيريَّاتهم ويفرشون بعض ما عليها، وإذا قامت الصّلاة نقل المكبّرون التّكبير للنّاس عند الرّكوع والسّجود والنّهوض والقعود[2446].

وكان بالفسطاط أيضاً مسجدان للجمعة: المسجد الّذي بناه عمرو بن العاص والمسجد الذي بناه أحمد بن طُولون[2447] Ibn Tolûn.

أمّا البصرة فكان فيها في القرن الثّالث الهجريّ سبعة آلاف مسجد، وكان بها في القرن الرّابع ثلاثة جوامع[2448]. وهذا يدعو إلى الدّهشة، ذلك لأنّ المعنى الإسلاميّ القديم لجماعة المؤمنين في مدينة قد تضاءل في هذا القرن؛ وتتلخّص أهميّة هذا العصر في أنّ الصّبغة الإسلاميّة الأولى رقّت وتضاءلت في جميع مظاهر الحياة، كما أنّها تتلخّص في ظهور الرّسوم الشّرقيّة القديمة من جديد، وبقائها بالإجمال على الصّورة التي اتخذتها في ذلك العهد.

ففي القرن الرّابع بدأ أولو الأمر في جعل عدد المساجد ذات المنابر متمشيًّا مع حاجات النّاس ومطالبهم؛ فيذكر البِشاري المقدسي أنّه كان بالفسطاط إلى جانب مسجد عمرو بن العاص ستّة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة، وأنّ الزُّحام كان يشتدّ في جامع عمرو، حتّى تمتدّ الصّفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراعٍ من الجامع، وحتّى تكون القياسير والمساجد الصّغيرة والدّكاكين حوله من كل جانب مملوءة بالمصلّين[2449]. وقد أحصى الرّحّالة ناصر خُسرو في عام 440 هـ غير هذه المساجد السّبعة أربعةً أخرى في القاهرة[2450].

أما في بغداد فكان ازدياد عدد المساجد أبطأ سيراً؛ وكان بالموضع المعروف بـ «براثا» مسجدٌ يجتمع فيه قومٌ من الإماميّة هُدم حتى سُوّي بالأرض، فأمر بجكم بإعادة بنائه وإحكامه وتوسيعه، وكتب في صدره اسم الخليفة الرّاضي بالله، ثم جُمِّع فيه، وصار أحد مساجد البصرة. وفي سنة 383 هـ جُمِّع في مسجدٍ بناه أحد الهاشميين بالحربيّة؛ وذلك بعد إباءٍ من الخليفة المطيع وإذنٍ من الخليفة القادر بعد استفتاء الفقهاء[2451].

وفي القرن السّادس الهجريّ وجد ابن جُبير أنّ المساجد التي يُجَمَّعُ فيها ببغداد أحد عشر مسجداً، هذا مع أنّها فقدت كثيراً ممّا كانت عليه[2452].

ولم يكن في الدّواوين سجلّات إحصائيّةٌ للنّاس سوى الّتي كان يُحصى فيها من يلزمهم دفع الجِزية؛ ويظهر أنّه في عام 306 هـ أُحصي المغنّون والمغنّيات[2453]، كما يُذكر أيضاً إحصاء الفقراء[2454].

وقد عُني جغرافيُّو القرنين الثالث والرّابع بذكر كثيرٍ من الأرقام مثل أعداد الأبواب في المدن وأعداد المساجد والحمّامات ونحوها، ولكنّهم لم يهتموا قط بذكر عدد السّكان.

وأخيراً ظهرت طريقةٌ ساذجةٌ في الإحصاء؛ فقد ذكر ابن حَوْقَل مرَّة واحدةً أن بمدينة بَلَرم Palermo، قصبة صِقَلية، ما يزيد على مئةٍ وخمسين حانوتاً للقصّابين؛ وأراد أن يتّخذ من ذلك دليلاً على كثرة عدد أهلها[2455].

وكذلك أراد بعض من روى للخطيب البغداديّ أن يقدّر عدد سكّان بغداد في القرن الثّالث مستدلًّا بما ذُكر له من عدد الحمّامات مع ما كان فيه من مبالغة؛ فقد ذُكر له أنّه كان ببغداد ستّون ألف حمّام، فقدَّر أن بإزاء كلّ حمّام خمسة مساجد فيكون ببغداد ثلاثمئة ألف مسجد، وأقلّ ما يكون في المسجد خمسة أنفس فيكون أهلها ألف ألفٍ وخمسمئة ألف إنسان[2456].

أمّا في القرن الخامس فقد تغيّر ذلك، فنجد الرّحّالة ناصر خُسرو القباديانی يقدّر أنّ من أهل أرَّجان ما يزيد على عشرين ألفاً من الذّكور، ومن أهل جدّة ما يقارب خمسة آلاف، على حين أنّه يقدّر أهل مكّة بألفين، ويقول إنّ الباقين فرّوا من المجاعات، وهو يقدّر أيضاً أهل كلّ من مدينتي بيت المقدس وطرابلس الشّام بعشرين ألفاً من الذّكور ويظهر أن العشرين عنده رقم أثير[2457].

وأوضح من ذلك كله ما قيل في قُرطُبة حوالي عام 350 هـ، من أنّ عدد الدّور الّتي بها للرّعيّة دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مئة ألف دارٍ وثلاثة عشر ألف دار، وأنّ مساجدها ثلاثة آلاف[2458].

وكان في الدّولة الإسلامية أربعة أنواعٍ من المدن: مدن على الطّراز اليوناني، في صورته الشّرقيّة، والمعروف في حوض البحر الأبيض المتوسّط؛ والمدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء، ومن هذا الطّراز مكّة والفسطاط؛ والمدن الّتي كانت تُشَيّد على الطّراز البابلي؛ والمدن الّتي كانت على الطّراز المعروف في شرق الدّولة الإسلامية.

وتختصّ المدن العربيّة بتقارب المباني وارتفاع الدّور.

وكان بالفسطاط دورٌ من طبقاتٍ كثيرة تبلغ الثّمان، وأسفل الدّور غير مسكون، وربّما سكن الدّار الواحدة المئتان من النّاس[2459]، بل يقول الرّحّالة ناصر خُسرو: «وتُرى مصر من بعيد كأنّها جبل، وبها بيوتٌ من أربع عشرة طبقة، وبيوتٌ من سبع طبقات... وبها أسواقٌ وشوارع توقد فيها القناديل؛ لأنّ ضوء الشّمس لا يصل إل أرضها[2460].

أمّا المدن الإيرانيّة فكانت تتألّف من قلعة (قُهُنْدُز)، ومن المدينة الرّسميّة (ولها في العادة أربعة أبواب)، ومن قسم تجاريٍّ يشتمل على الأسواق؛ وكان كلّ قسم من هذه الأقسام محصَّنا بسوره الخاص؛ وكان بينَ المدينة الرّسمية والأحياء الخارجة عنها شغبٌ دائم.

وقد ظهر منذ منتصف القرن الثالث الهجريّ طرازٌ آخرٌ خامس؛ وذلك أنّ الملوك صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدناً خاصّة يتخذونها مقرًّا لهم، مثل مدينة سامُرَّاء والجعفريّة على نهر دجلة إلى جانب بغداد، ورقّادة والمهديّة والمنصوريّة والمحمّديّة والقاهرة؛ فكانت أعظم ما أُسِّس من المدن نجاحاً في القرن الرّابع، بل في تاريخ الإسلام.

أما في الأندلس فقد بنى عبد الرّحمن بن محمّد غرب قُرطُبة مدينة سمّاها الزّهراء؛ وأمر مناديه بالنّداء: ألا من أراد أن يبني داراً أو يتّخذ مسكناً بجوار السُّلطان فله أربعمئة درهم، فتسابق النّاس إلى العمارة[2461].

وكذلك ابتنى السُّلطان عضد الدّولة (توفي عام 372 هـ) مدينة فناخسرو (پناه خُسرو) الّتي اختطَّها على مسافة نصف فرسخ من مدينة شيراز، وشقَّ إليها نهراً كبيراً، أجراه من مرحلةٍ، وعلى جنبيه بُستاناً سعته فرسخ، ونقل إليها الصّوّافين وصنّاع الخزّ؛ واتّخذ بها القوُّاد دوراً حسنة وعقاراتٍ جليلة، وجعل لها عيداً في كلّ سنةٍ يجتمع فيه القوم للفسوق واللهو؛ ولكن بعد أن مات عضد الدّولة خفّت وبطل سوقها[2462].

وكانت هذه المدن الجديدة تمتاز بالاتّساع، حتّى نرى اليعقوبي في كلامه عن سامُرَّاء لا يملّ من وصف اتّساعها، فيقول: إنّ المتوكّل جعل عرض الشّارع الأعظم فيها مئتي ذراع، وقدّر أن يَحفِر في جنبي الشّارع نهرين يجري فيهما الماء من النّهر الكبير [2463].

وكانت القاهرة في أوّل وضعها مدينة حدائق؛ فيذكر الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني (ص 45) أنّ كلّ الدّور منفصل بعضها عن بعض، حتى إن أشجار إحداها لا تبلغ حائط الأخرى[2464].

وقد نالت مياه الشّرب في الدّولة الإسلامية عنايةً كبيرة، ولكنّ مجاريها - رغم هذه العناية - لم تبلغ من الكِبَر ما بلغته مجاري الماء عند القدماء؛ وذلك لأنّ المسلمين كانوا يشفقون من الإسراف في العناية بالأبدان إشفاق أهل العصور الوسطى في الغرب، ولذلك كانوا يتعجّبون من أشياءٍ أنشأها القدماء؛ فنجد في كتاب الموالي للكندي (توفي عام 350 هـ) أنّ الإجابة على سؤال من يسأل عن أعجب شيءٍ في الدّنيا، هي منارة الإسكندريّة ومجاري مياه قرطاجنة[2465]؛ وقد أطرى ياقوت (ج 4 ص 58) عقود هذه المجاري وأعمدتها الّتي تشبه المنائر.

وكانت طريقة إمداد النّاس بالماء في قصبة القطر المصري طريقةً لا أثر فيها للرّقيّ قط؛ فكان أهل مصر يشربون ماء النّيل، يحمله الحمّالون في الرّوايا ويصعدون الدّور، كلّ طبقةٍ بنصف دانق[2466]. ويحكي ناصر خُسرو القبادياني (ص 44) في عام 440 هـ أنّه كان بمصر والقاهرة اثنان وخمسون ألف جملٍ لحمل قِرَب ماء الشّرب في هاتين المدينتين.

وفي سنة 382 هـ نودي بالسّقّائين في مصر أن يغطّوا الرّوايا الّتي تحملها الجمال والبغال مملوءةً بالماء، لئلّا يصيبَ الماء الذي يتساقط منها ثياب النّاس[2467].

وكان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة؛ وكان السّقاؤون يأخذونه إمّا من النّهر مباشرةً ويحملونه إلى دور أهل اليسار، أو من مواضع تقوم مقام الخزّانات وتغذيها نهيرات صغيرة، بل كان هناك قناتان يجري فيهما الماء إلى المدينة، وكلتاهما مُغطاةٌ ومحكمة العقد. وكانت هاتان القناتان أقلّ إحكاماً من القنوات والمجاري الحجريّة الّتي كانت معروفة عند الرُّومان، فكانت إحداهما مثلاً معقودة وفي أسفلها محكمة بالصّاروج، والآجر من أعلاها[2468].

ولمّا كانت عين الماء بمكّة مُرّة، سرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المكرّمة بالماء باباً من أكبر أبواب البرّ. وكانت القناة المعقودة تحت الأرض والّتي أمرت بإنشائها السّيدة زبيدة كثيراً ما تتعطل؛ حتى بلغ في يوم ثمن القربة ثمانين درهماً. فبعثت أم المتوكّل آمرة بإصلاح القناة[2469]. وكان الوزير علي بن عيسى في ذلك الوقت بمكّة مغضوباً عليه من السُّلطان ببغداد، فابتاع كثيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء، وأقام لها العلوفة الرّاتبة، وحفر بئراً عظيمة في الحنّاطين، فخرجت عذبة شروباً، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار ووسّعها، حتى كثر واتّسع الماء بمكّة[2470].

وكانت عناية أهل البرّ بماء الشّرب في سَمَرقند أعظم ممّا تقدّم، فيحكي لنا ابن حَوْقَل:

«وقلّ ما رأيتُ خاناً أو طرف سكّة أو محلّة أو مجمّع ناس إلى حائطٍ بسَمَرقند يخلو من ماء جمد مسبّل، وذكر لي من يُرْجع إلى خبره أنّ بسَمَرقند زيادة على ألفي مكان، يُسقى فيه ماء الجمد مسبَّلا، عليه الوقوف، من بين سقاية مبنية وجبات نحاس منصوبة وقلاقِ خزف في الحيطان مبنية»[2471]. ولهذه المدينة مياهٌ جاريةٌ تدخل في نهر كان أصله خندقاً قديماً، وقد بُنيت له في بعض المواضع مسنّاةٌ عاليةٌ عن الأرض يجري عليها الماء، ووجه هذا النّهر رصاصٌ كله؛ وهو نهرٌ قديمٌ جاهليٌّ يشقّ سَمَرقند، وله غلات موقوفة لمرمّته ومصالحه، وعليه حفَظَة من المجوس ولا تؤخذ منهم الجِزية لبيت المال لهذا السّبب[2472].

أمّا مجاري الماء المبنيّة تحت الأرض فكانت توجد في مدن إيران الشّماليّة بشكلٍ خاص مثل قُمّ ونيسابور، وكانت نيسابور أكبر مدن المشرق في ذلك العصر[2473]. ويحكي الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني أنّه كان بنيسابور الكثير من مجاري الماء المغطاة، بعضها يظهر في خارج المدينة ويروي البساتين، والبعض الآخر يمدّ الدّور بالماء، وكانت هذه المجاري على أعماقٍ متفاوتة، حتّى يضطرّ الإنسان أن ينزل إليها مئة درجة، ولذلك قال أصحاب النّوادر: ما كان أبهى مدينة نيسابور لو أنّ مجاري الماء فيها أصبحت ظاهرةً، ودخل أهلها تحت الأرض[2474]. وكان على هذه المجاري والأودية قُوّام وحَفَظَة[2475]، وكانت مدينة الدَّينوَر مدينة جبليّة تتفجّر عيوناً، ولم يُرَ أنظف من مائها، وقد جعل أهلها على أفواه العيون مزمّلات وأنطونيات يخرج منها الماء[2476].

أمّا مسألة تصريف الفضلات البشريّة، وهي من المسائل العسيرة، فيظهر أنّها كانت تُحَلّ في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها، عن طريق المضاربة؛ وكان بالبصرة تجّار لهذه المهمّة. وكان ذلك موضوعاً لأصحاب النّوادر[2477].

وكان اكتراء الحمير منذ القرن الثالث الهجريّ وسيلةً قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن؛ وكان أكبر محلٍ يقف فيه الحمّارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ، وهو مدخل القسم التّجاري[2478]. وكان بالفسطاط موضعٌ لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم، وكان كِراء الحمار قيراطين[2479].

أمّا في المدن التي تقوم على الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضاً. وقد أُحصيت السُّمَيْريّات المعبرانيّات بدجلة في أيام الخليفة الموفّق (من سنة 256 هـ - 279 هـ) فكانت ثمانين ألفاً، يُقَدَّر كسبُ ملّاحيها في كل يوم بتسعين ألف درهم[2480].

أمّا إدارة المدينة فكان الحظّ الأوفر منها في يد عُمّال الدّولة؛ وكان من هؤلاء العُمّال في كلّ بلد من خُراسان مثلاً أربعة وهم: القاضي، وصاحب البريد، والبندار، وصاحب المعونة[2481].

أما بغداد فكان جزؤها الشّرقيّ تحت إدارة الخليفة مباشرةً؛ والجّزء الغربيّ كلّه كان يدخل ضمن عمالة بادوريا، ولذلك كان لا يتقلّد هذا الإقليم إلّا أجلّ العُمّال، وذلك لكثرة معاملاته واختلافها وكونها مع الكبراء[2482].

وحوالي عام 325 هـ كان أبو الحسين بن سعد الكاتب يشتغل بتدبير أصبهان، ووُكّلت إليه فوق ذلك جبايةُ الخَراج، فكان صاحب البلد[2483].

وكان إلى جانب التّنظيم الرّسميّ تنظيمٌ خاص؛ فمثلاً لمّا أُسّست بغداد قُسّمت الأرباض إلى أرباع، وقُلّد كلّ ربع لرجلٍ من الحاشية ليديره، وكان في كلّ ربض - زيادة على ذلك - رئيسٌ وقائد خصوصاً بفارس[2484].

وكان الّذي يُعنى بالأمن في مقرّ الأمير أو الوالي صاحب الشّرطة؛ أمّا في المدن الأخرى فكان يتولّى ذلك صاحبُ المعونة، باعتباره الممثّل الأكبر للمجتمع الّذي يعدّ أنّ له الكلمة العليا، والّذي يشرف على الأفراد.

وكان المحتسب حوالي عام 300 هـ موظّفا معيَّنا، له منصبٌ ثابت[2485]. وأوّل من بيّن الواجبات المتعدّدة التي على المحتسب أن يقوم بها الماوردي[2486] وابن الطُّوَيْر[2487]؛ وفي كثير من الأحيان يُعهد إليه تولّي مهامّ مثل الإشراف على سوق الرّقيق ودار الضّرب والطّرز، وقد صدر منشور إلى الولاة من بغداد حوالي عام 366 هـ جاء فيه، فيما يختص بأسواق الرّقيق، أن يأمر الوالي من يُسند إليهم أمرُها بالتّحفّظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره، وأن يبعدوا عنه أهل الرّيبة ويُقِرُّوا أهل العفّة، وبألّا يمضوا بيعاً على شبهة. وأمر المشرفُ على دور الطّرز بأن يُراعى أن يكون النّسج جيًّدا صحيحاً متيناً، وأن يُنقش اسم الخليفة على ما يُعمل من الثّياب والفرش والأعلام ونحوها[2488].

وكان المحتسبون يُختَارون في الغالب من بين القَضاة؛ ففي سنة 319 هـ خُلِعَ على محمّد بن ياقوت وقُلِّد مع الشّرطة الحِسْبة؛ فعَظُم ذلك على مؤنس، وسأل المُقتدِر صرفَ محمّد بن ياقوت عن الحِسْبة، وقال: هذا عمل لا يجوز أن يتولّاه غير القُضاة والعدول[2489].

وكان أصحاب الشّرطة يحملون سكّينا طويلاً، يحملونها مُعَلَّقة[2490] في أوساطهم؛ وكانوا يقومون بالطّوف أو العَسَس طول اللّيل إلى صلاة الفجر.

ولم يكن في القرن الثّاني الهجريّ بالمشرق نظامٌ لضبط أسماء الأغراب قبل دخولهم من أبواب المدن[2491]. وقد تكلّم أحد الرّحّالين المسلمين في القرن الثّالث الهجريّ عن نظام جواز المرور المعروف بالصّين كلامَ من يعدّ ذلك شيئاً جديداً لا عهد له به[2492]، وقد أحدث السُّلطان عضد الدّولة في القرن الرّابع الهجريّ لأوّل مرّة نظام مراقبة الأبواب في شيراز عاصمة بلاده، حتّى قال البِشاري المقدسي في حقّها: «ومنع الخارج منها إلّا بجواز»[2493].

الفَصل الثّالث وَالعشرونَ
الأعياد

Die Feste

تدلّ الأعياد عند المسلمين على مدى رأفة المظهر الإسلاميّ الّذي يحيط بالحياة العامّة؛ فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النّصرانيّة، طول العام، ومعظم هذه الأعياد النّصرانيّة تتجلّى فيها عاداتٌ أقدم من ذلك، وكثير من المواضع الّتي كان يحجّ إليها المسيحيّون في مصر والعراق كانت مواضع مقدّسة للوثنييّن من قبل، ولم تكن أعياد القدّيسين الّتي كانت تعمل في الأديرة النّاشئة هناك إلّا تحديثاً لأعياد الآلهة القدماء.

ولم يرضَ الّذين دخلوا في الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يُحرَموا من الاحتفال بهذه الأيّام الّتي كانت تزهو بها حياة آبائهم الوثنييّن من قبل؛ ولكنّ المسلمين، خلافاً للكنيسة النّصرانيّة، أنفوا في الغالب

من وضع الأساطير. وقد تركوا النّصارى يتصرّفون في أمورهم الدّينيّة من غير تدخُّل في ذلك، واشتركوا في الجانب الاجتماعيّ المسَلّي من تلك الأعياد كما فعل آباؤهم من قبل؛ فمثلاً كانت أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانيَّة من كلِّ وجه، وكانت أعياد القدّيسين في مختلف الأديرة أكثر الأعياد احتفالاً لدى النّاس؛ غير أنّ هذه الأديرة كانت لا تخلو، حتّى في غير الأعياد، من الزّوار[2494].

وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة، وقاعات شرابها الباردة؛ مجتمع أهل البطالات ومقصد طلّاب اللّذات من البغداديين، وكثيراً ما يقترن ذكر الأديرة بذكر الشّراب في كلام الشّعراء.

قال ابن المُعتزّ:

بدير المطيرة نقري المدا م لدى القس لما أتيناه زورا

وكان شراب القربان مشهوراً بشكلٍ خاص.

ولم يكن الحال في مصر يختلف كثيراً عمّا تقدّم؛ فقد أحصى إبراهيم ابن القاسم الكاتب حوالي أواخر القرن الرّابع معاهد اللّهو بالقاهرة، كمصايد الغزلان بجانب الأهرام، ومواخير الجيزة وجسرها، وبُستان القس، وملعب دير مرحَنَّا؛ وأحسنُها كلها دير القصير، وكان على جبل المُقطّم، وكان له منظرٌ جميل، وهو يقول فيه[2495]:

وكم بتُّ في دير القصيرِ مُواصلاً نهاري بليلي لا أُفيقُ من السُّكْر

وقد أمر أبو الجيش خمارويه الطُّولوني أن تُبنى له في أعلى دير القصير طبقةً لها أربع طاقاتٍ على الجّهات الأربع[2496].

وكان يوم أحد الشّعانين يوم عيدٍ كبيرٍ للعامّة؛ ولا بدّ أنّه كان عيداً قديماً من أعياد الأشجار، وخصوصاً أشجار الزّيتون[2497]؛ وكان في مصر يسمّى عيد الزّيتونة فقط[2498]. وكانت الوصائف في يوم أحد الشّعانين يظهرن في قصر الخلافة ببغداد، متزيِّنات في ثيابٍ جميلةٍ غالية، وبأيديهنّ قلوب النّخل وأغصان الزّيتون[2499].

وفي القرن الرّابع الهجريّ كان رسم النّصارى ببيت المقدس في هذا العيد أن يحملوا شجرةً من شجر الزّيتون من الكنيسة الّتي بالعازرية إلى كنيسة القيامة، ويركب والي البلد في جميع موكبه معهم ويذبّ عنهم[2500].

وكان الرّسم بمصر وسائر البلاد أيضاً أن تَزَيَّن الكنائس في هذا العيد بأغصان الزّيتون وقلوب النّخل ويُفرّق منها على النّاس على سبيل التّبرُّك؛ فمنع الحاكم بأمر الله ذلك في بيت المقدس وفي سائر أعمال مملكته، وأمر ألّا تُحمل ورقةٌ من ورق الزّيتون ولا من سعف النّخل في كنيسةٍ من الكنائس، وألّا يُرى من ذلك شيءٌ في يد مسلم ولا نصراني[2501].

وكان الخميس المقدّس يسمّى في مصر خميس العَدَس، لأنّ عامّة النّصارى كانوا يأكلون العدس في هذا اليوم؛ وكان العدس يعدّ طعام الحداد، وكان نصارى مصر يأكلونه في كلِّ يوم جمعة[2502]. وفي يوم خميس العدس كانت تضرب خراريت تفرّق على أهل الدّولة[2503]. وكان أهل الإسكندريّة في يوم خميس العدس يخرجون إلى المنارة بمآكلهم[2504]. وفي الشّام كان هذا اليوم يسمّى الخميس الأزرق أو خميس البيض، وكان يباع فيه بأسواق القاهرة بيضٌ مصبوغٌ عدّة ألوان، «فيقامر به العبيد والصّبيان والغوغاء»[2505].

وفي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنّصارى يقصدون دير سمالو، إلى شرقي بغداد، بباب الشّماسية؛ ولا يبقى أحدٌ من أهل الطّرب واللّهو إلّا حضره، وهناك يدور الشّراب؛ وفي ذلك قال أحد الشّعراء[2506]:

والدير ترقص حولنا حيطانه	حتى حسبت لنا البساط سفينة

وكان عيد دير الثّعالب في آخر سبت من أيلول؛ وهذا الدّير يقع في الجّانب الغربيّ من بغداد، عند الموضع المعروف بباب الحديد؛ وكان لا يتخلّف عن عيده أحدٌ من النّصارى والمسلمين، لأنه في أعمر موضع ببغداد، لما فيه من البساتين والنّخل والرّياض، ولتوسُّطه في البلد[2507].

وكان في اليوم الثّالث من تشرين الأوّل عيد القدّيسة أشموني؛ وكان يُعمل بدير أشموني، وكان من الأعياد العظيمة ببغداد، فلا يبقى أحدٌ من أهل الطّرب واللّهو إلّا خرج إليه، كل منهم على حسب قدرته؛ فمنهم من يأتي في الزّبازب، ومنهم من يركب الطّيّارات أو السُّمَيريّات؛ ويُضرب لذوي البسطة منهم الخيام والفساطيط، فيظل كل إنسان منهم ومُكِبًّا على لهوه؛ فهو أعجب منظرٍ وأنزهه، وأطيب مشهدٍ وأحسنه[2508]. وكان الغريب الّذي يهبط بغداد ويسأل عن أعجب وأبهى ما يستحق أن يُرى فيها يُسَرُّ ويَتسلّى بأن ينتظر شهراً لرؤية عيد أشموني.

وكان عيد بربارة يُعمل في أوّل الشّتاء (الرابع من كانون الأول)؛ وكان المسلمون يعرفونه، فيقول البِشاري المقدسي إنّه من أعياد النّصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدّرون بها الفصول، «ومن أمثال النّاس: إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البنّاء زمارة»[2509] ، والمقدسيّ يفتخر بأنّه رأى عيد بربارة[2510].

وفي ليلة عيد الميلاد (25 ديسمبر) وعيد الشمس كان يُحتفل بها بإيقاد النّيران، وقد تكلم ابن بابويه القُمِّي (توفي عام 381 هـ - 991 م)[2511] عن العلّة الّتي من أجلها يوقد النّصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز، أنّه لمّا ألجأ المخاضُ مريمَ، عليها السّلام، إلى جذع النّخلة اشتدّ عليها البردُ، فعمد يوسف النّجار إلى حطب، ثم أشعل فيها النّار، وكسر لها سبع جوزاتٍ وجدهنّ في خُرجه، فأطعمها.

ولكنّ المسلمين كانوا يحتفلون أيضاً بليلة الوقود الّتي تُعرف بالسَّدَق[2512] والّتي تكون بحسب قانون مسعود لعشرة تمضي من بهمن ماه[2513]، وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفداء في ليلة عيد الميلاد[2514].

ويحكي ابن الجوزي في عام 429 هـ - 1038 م عن قومٍ من أهل عكبرا أنّهم اجتمعوا في ليلة عيد الميلاد لإشعال النّار على عادتهم[2515].

وجرت العادة في القرن الرّابع الهجريّ بالتّبخير ليلة الوقود لدفع المضرّة، وصار في رسوم الملوك في ليلته إيقاد النّيران وتأجيجها، وإرسال الوحوش فيها، وتطيير الطّيور في لهبها، والشّرب، والتّلهّي حولها؛ ويقول البيروني بعد حكايته لذلك «انتقم الله من كل مُتَلَذّذ بإيلام غيره من الحاسّين غير المضرّين»[2516].

وكانت أشهر ليلة وقود في القرن الرّابع في عام 323 هـ935 م؛ ففي هذا العام أمر القائد مرداويج، أمير بلاد الجبل في غرب إيران، قبل ليلة الوقود بمدّة طويلة، أن تُجمع الأحطاب، وأن تُنقل في الوادي المعروف بزرين روذ، قرب أصفهان؛ وأمر بجمع النّفط والنّفّاطين؛ ولم يبق جبلٌ مشرف ولا تلّ ظاهر إلا وُضعت عليه الأحطابُ والشّوك، وصيدت له الغربان والحُدا، وعُلق بمناقرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطاً؛ وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشّمع وأساطين عظام، لم يُرَ مثلها، ليكون الوقود في ساعةٍ واحدة على الجبال ورؤوس اليفاعات وفي الصّحراء وعلى الطّيور التي تُطلق؛ ثم عُمل له سماطٌ عظيم في الصّحراء التي يبرز إليها من داره، وجُمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة، وزُيِّن بما لم تجر العادة بمثله؛ فلمّا فُرغ من الأمر، خرج من منزله ثم طاف على كل ذلك، فاستحقره واستصغر شأنه؛ قال: وذلك لأجل سعة الصّحراء، ولأن البصر إذا امتدّ في فضاء واسع، واغتاظ ودخل إلى خيمته، واضطجع، والتفَّ بكسائه، لئلا يكلمه أحد[2517].

وفي أيام الدّولة الفاطمية بمصر كان يُفَرّق على رجال الدّولة جامات الحلاوة القاهرية، وماء الورد، والسّمك البُوري؛ وكانت توقد الحوانيت والشّوارع بالفوانيس، ويُعطى للفقراء فوانيس، يحملونها في أيديهم، ولهم على ذلك دراهم[2518].

وكان يُحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالاً كبيراً؛ وهو يسمّى عيد الغطاس، لأن كثيراً من النّصارى كان يغطس فيه في النّيل؛ وفي هذا اليوم نفسه لا تزال الكنيسة الرُّوميّة في عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس. وكان من الرّسوم القديمة بمصر أن يركب مُتَوَلّي الشّرطة السّفلانية ليلةَ الغطاس في موكبٍ كبير، وتوقد بين يديه الشّموع الموكبيّة والمشاعل؛ فيطوف الشّوارع وينادي في النّاس ألّا يختلط

المسلمون بالنّصارى في تلك الليلة؛ وذلك أن النّصارى كانوا في سَحَر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النّيل ويغطسون فيه؛ وكان رسم الملكية خاصَّة أن يخرجوا إلى شاطئ النّيل في جَمْعٍ وفير، بالقراءة الملحَّنة والصّلبان المشهورة؛ «وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب بها في هذا العيد من الطّيبة والفرح ما لا يكون لهم في غيره من أيام السّنة وأعيادها»[2519].

ويقول المسعودي في ليلة الغطاس: «ولليلة الغطاس بمصر شأنٌ عظيم عند أهلها؛ لا ينام النّاس فيها، ولقد حضرتُ سنة ثلاثين وثلاثمئة ليلة الغطاس في مصر، والإخشيد محمّد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة، في الجزيرة الرّاكبية للنّيل، وقد أمر، فأسرج من جانب الجّزيرة وجانب الفسطاط ألفُ مشعل، غير ما أسرَج أهل مصر من المشاعل والشّمع؛ وقد حضر النّيل في تلك الليلة مئات الألوف من النّاس من المسلمين والنّصارى، منهم في الزّوارق، ومنهم في الدّور الدّانية للنّيل، ومنهم على الشّطوط، لا يتناكرون الحضور، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب، والملابس، وآلات الذّهب والفضّة، والجّواهر، والملاهي، والعزف والقصف؛ وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً؛ ولا تُغْلَق بها الدُّروب؛ ويغطس أكثرهم في النّيل، ويزعمون أنّه أمانٌ من المرض ونشرة من الدّاء»[2520].

وكانت العادة أن يضاء سوق الشمّاعين بإضاءة كبيرة، وكانت حوانيته لا تزال مفتَّحة إلى نصف الليل، يقصده كثيرٌ من النّاس؛ وكان يجلس فيه في اللّيل بغايا لهنّ سيما يُعرفن بها، وفي أرجلهنّ سراويل من أديمٍ أحمر [2521].

وفي عام 415 هـ - 1025 م نزل أمير المؤمنين لنظر الغطاس ومعه الحُرَم؛ وضرب بدرُ الدّولة، مُتَوَلّي الشّرطتين، خيمةً للخليفة وحرمه؛ وأمر الخليفة بأن توقد النّار والمشاعل في الليل، وكان وقوداً كثيراً[2522].

وكان عيد الأحد من الصّوم المسيحيّ عيداً من أعياد اللّهو عند المسلمين، وكان يُعمل في دير الخوّات بعكبرا المشهورة بنبيذها، ويبلغ اللّهو أقصاه في ليلة الماشوش، «وهي ليلةٌ تختلط النّساء فيها بالرّجال، فلا يردّ أحد يده عن شيء، ولا يردّ أحدٌ أحداً عن شيء؛ وهو معادن الشّراب، ومنازل القصف، ومواطن اللّهو»[2523].

وقد تكلّم ابن خلدون، مع أنّه من المتأخّرين، عن شيءٍ يسمّى الكُرَّج، وهو تماثيل خيل مسرجةٍ من الخشب معلّقة بأطراف أقبية، يلبسها النّسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل[2524].

وكان في يوم الأحد الرّابع من الصّوم عيد دير دُرْمالِس (دير مار أميليس)، وكان يجتمع إليه نصارى بغداد، ولا يبقى أحدٌ ممّن يحبُّ اللّهو والخلاعة إلّا تبعهم، وكان النّاس يقيمون فيه الأيّام[2525].

وكان من الأعياد الكبرى عند النّصارى بمصر عيدٌ سرعان ما اتّخذه المسلمون، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة؛ وكانت عادة العامّة والسّوقة أن يطوفوا قبل الخروج للسّجن أسواق البلد

بالطبول والبوقات، ليجمعوا من التّجار ما ينفقونه في خروجهم؛ ولكن حدث في عام 415 هـ - 1025 م أن اشتدّ الغلاء، فامتنع التّجار من الدّفع؛ فأمر الخليفةُ الظّاهر التّجَّار بأن يدفعوا ما جرت به العادة، وأن يُطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم في السّنة الماضية؛ فخرجوا إلى السّجن بالجيزة، ومعهم التّماثيل والمضاحك والخيَّال، وخرج الخليفة إلى الجيزة، وأقام يومين، حتى رأى الجماعة[2526].

وفي سنة 415 هـ كان ثالث الفتح، فاجتمع عند كنيسة المقس خلقٌ كثيرٌ من النّصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشّرب واللّهو، وشوهِد من سُكر النّساء وتهتكهنّ وحملهنّ في قفاف الحمّالين سُكارى[2527].

وممّا كان يعمل بمصر عيد الشّهيد في الثّامن من مايو؛ وكان النّصارى يلقون في النّيل في هذا العيد تابوتاً من خشب، فيه إصبعٌ من أصابع أسلافهم الموتى.

وكان اجتماع النّاس لهذا العيد بناحية شُبرا، وكان يرحل إليه عالم عظيم للفجور واللّهو والفسق، وفيه يصرفون أموالاً لا تحصى؛ ولا يبقى مُغَنٍّ ولا مغنِّية إلّا خرج لهذا العيد؛ وكان يباع فيه من الخمر خاصَّة بما يزيد على مئة ألف درهم فضّة، وأبطله السُّلطان في القرن الثّامن[2528].

وكانت أعياد رأس السّنة ثلاثة:

1- عيد رأس السّنة العجمية والشّامية، وهو أول الرّبيع.

2- عيد رأس السّنة القِبْطيّة بمصر، وهو في آخر أغسطس.

3- عيد رأس السّنة الهجرية، وهو مُتَنَقِّل في أثناء السّنة الميلادية.

وكان إلى جانب هذه الأعياد آثار رأس السّنة العجمية القديمة، وهو في وقت الانقلاب الصّيفي.

وكانت العادة عامّة في الاحتفال بعيد النّيروز - وهو مبدأ السّنة الشّمسية - بتبادل الهدايا؛ فكان الخليفة في بغداد يفرِّق على النّاس أشياءً منها صورٌ مصنوعةٌ من عنبر، منها وردٌ أحمر مثلاً[2529]. وكان رسم ملوك السّامانيّين ببُخارى أن يخلعوا فيه على قوّادهم الخلع الرّبيعيّة والصّيفيّة[2530]. وكان خُلفاء الفاطميّين يهدون للنّاس فيه الكسوات والطّعام[2531]. وفي هذا اليوم كان أصحاب السّماجات يظهرون بين يديّ الخليفة، فينثر عليهم الدّراهم؛ حتّى يُروى أنّه دخل إسحاق على المتوكّل في يوم نوروز، وأصحاب السّماجات بين يديه، وقد قربوا منه، حتّى جذبوا رداءه؛ فغضب إسحاق وقال: وكلّ واحدٍ منهم متنكرٌ بصورة مُنكرة، فما يُؤمن أن يكون فيهم عدّو، فيثب بك![2532].

وكانت العادة في رأس السّنة العجمية والقِبْطيّة أن يرشَ النّاس بعضهم بعضاً بالماء؛ وقد مُنع ذلك في المشرق عام 282 هـ - 895 م[2533].

غير أنّ البيروني يتكلّم عن الرّش ووجوده عام 400 هـ[2534]. ويحكي لنا الرّحالة الصّيني وانْغ ين تي Wang Yen Te الذي طاف بالمشرق بين عامي 981 و983 م عن أهل مدينة طرفان (كانتشانغ) أنّهم يعملون أنابيب من الفضّة والنّحاس، ويملؤونها بالماء، ويرشّ بعضهم بعضاً؛ وقد يمزجون أحياناً فيرشّون الماء بأيديهم، وهم يزعمون أنّهم بذلك يضعفون حرارة المزاج، ويدفعون الأمراض[2535].

وكان العامّة بمصر في النّيروز ينتخبون رجلاً يسمّونه أمير النّيروز، فيطلي وجهه بالدّقيق أو الجير، ويركب في الشّوارع على حمارٍ وعليه ثوبٌ أحمر أو أصفر، فيتسلّط على النّاس في طلب رسم رتّبه، وفي يده دفترٌ مثل دفترِ المحتسب، فمن لم يدفع الرّسم يُرشّ بالماء ممزوجاً بالأقذار؛ وكانّ النّاس يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع، الفقراء في الشّوارع والأغنياء في دورِهم، ورجال الشّحنة (الشّرطة) لا يعترضون على ذلك؛ وكان التّلاميذ في مكتبهم يهجمون على معلّمهم، وكثيراً ما يرمونه في البئر، حتّى يفتدي نفسه بالمال؛ وفي عام 335 هـ - 945 م منع السُّلطان من رشّ الماء؛ وفي عام 363 هـ - 974 م أبطل الخليفة هذا العيد، ولكنّه عمل في العام الثّاني على أكبر صورة، وقد استمرّ يؤدّب النّاس ثلاثة أيّام، فلم ينفع التّأديب[2536]؛ وظلّ جارياً في كلّ عامٍ حتّى أبطله السُّلطان برقوق في أواخر القرن الثّالث الهجريّ[2537].

ونستطيع أن نتبيّن في العادة الجارية بمصر أنّها تشبه عيد الكرنـال شبهاً واضحاً، لأنّ أيّام الكبس الّتي تنتهي بها السّنة القديمة عند الجميع يكون الأمر فيها لأمير من الغوغاء، وهي تسير مع النّيروز، وتتمشّى مع القمر متنقّلة في التّقويم[2538]. وقد بقي من آثار الاحتفال برأس السّنة العجمية رشّ الماء حتى عام 400 هـ[2539]؛ ولا يزال الرشّ بالماء يُعمل إلى اليوم عند النّصارى في عيد الصّعود، ويسمّى «خميس الرّشاش» إلى اليوم[2540]، وقد رأيتُ الرّشاش بنفسي في بغداد.

وثَمَّة عيدٌ يسمّى عيد الكوسج، وهو يشبه عيد الكرنـال، ويومه يكون مع الأيّام الخمسة الّتي تكبس بها السّنة العجمية، وكان الاحتفال به في وقتٍ من الأوقات يكون في آخر فبراير، ولكنّه وقع في أوّل نوـمبر بسبب الكبس في السّنة العجمية. وكان الكوسج يركب على بغلٍ، ويطوف الشّوارع بالمدن العجمية والعراقيّة، ويطالب النّاس؛ فمن تأخّر في دفع ما عليه، رشّوا عليه ما يفسد ثيابه؛ ويزعم البعض أن الله في هذا اليوم يقدّر حظوظ النّاس من سعادةٍ أو شقاء، كما كان النّاس يعتقدون ذلك في أوّل السّنة قديماً؛ وكانت هذه الأيّام أيّام اللّهو والطّرب وإظهار السّرور عند العجم[2541].

كما أنّه بعد عيد النّيروز بمئةٍ وأربعة وتسعين يوماً كان عيد المهرجان؛ وكان يُعدّ أوّل أيام الشّتاء، وظلّ إلى جانب النّيروز أكبر الأعياد؛ وكان النّاس يتهادون فيه كما يتهادون في النّيروز؛ وكان القوّاد ورجال دار الخلافة تُخلع عليهم فيه ملابس الشّتاء[2542]؛ والعامّة فيه يغيِّرون الفرش والآلات وكثيراً من الملابس[2543]؛ وكان هذا العيد يمتاز خاصَّة بأنّ الرّعيّة يهدون فيه إلى السُّلطان. وقد

جاء المهرجان مرَّة، وأبو إسحاق الصّابي في الحبس بأمر عضد الدّولة، فكتب إليه قصيدة، وبعثها إليه مع درهم خسرواني وجزء من كتاب، فكان ممّا قاله[2544]:

وتقييده بالشّكل دائماً مثل قيودي	وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسي

أمّا رأس السّنة الهجريّة فإنّه لمّا كان متنقِّلا دائماً، ليس له موعدٌ ثابت، لم يصر عيداً من الأعياد الشّعبيّة، بل ظلّ عيداً في قصر الخلافة، وكان النّاس يتهادون فيه أيضاً[2545].

وكان من العادات بقصور العبّاسييّن نثرُ الزّهور، وهي عادةٌ أصلها يرجع إلى الأعياد الطّبيعيّة؛ ويُروى عن الخليفة المتوكّل - وكان محباً للأُبّهة - أنّه أمر أن تُضرب لذلك خمسةُ آلاف درهم، وتُلَوّن بالحُمرة والصُّفرة والسّواد وغيرها، لتُنْثَر على أصحاب الرُّتب بقصر الخلافة[2546]. وكان يُصنع للخليفة بمصر قصرٌ من الورد بقريةٍ من قرى قليوب، وكان بها جنانٌ وورود كثيرة[2547].

أمّا العيدان الدّينيّان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر؛ وكانا إلى جانب النّيروز العجمي أكبرَ الأعياد عند أهل بغداد[2548]. وكان أهل البصرة يسمِّنون الأضاحي سنة وأكثر، ثم تُباع لعيد النّحر، الواحدة منها بعشرة دنانير [2549].

ويُروى أنّه في آخر يوم من رمضان سنة 308 هـ حمل صاحب الشّرطة السُّفلى السّماط وقصور السُّكّر والتّماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى، والقصور وتماثيل السُّكّر وطاف بها في شوارع القاهرة. وكانت تعمل أسمطةٌ أخرى في القصر يحضرها الخليفة بنفسه في يوم عيد الفطر وعيد النّحر؛ ففي عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمئة ذراع في سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند، ليهجم الناس عليه وينهبونه ويحملونه[2550].

وكان هذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللّذان كانا يُحتَفَل بهما بالأُبّهة الإسلاميّة احتفالاً رسميًّا، وكانا لذلك يبلغان منتهى الرّوعة والأبّهة في البلاد التي يكون الشّعور الإسلاميّ فيها على أقواه، مثل طرطوس[2551]، حيث كان يأتي غُزاة المسلمين من كل أنحاء الدّولة الإسلامية، حتّى كان عيداها يعدّان من محاسن الإسلام. ولمّا ضاعت من المسلمين طرطوس بقيت صِقلية مشهورة بحُسن عيديْها[2552]، وكان يُذبح في عيد النّحر حيوانات كثيرة.

وكان شهر رمضان هو الشّهر الذي يتجلّى فيه منتهى الكرم عند المسلمين؛ ويُروى عن الوزير ابن عَبّاد أن داره كانت لا تخلو في كلّ ليلةٍ من ليالي رمضان من ألف نفسٍ تُفْطِر فيها، وأنّ صدقاته وقرباته في هذا الشّهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السّنة[2553].

وكان ازدياد التّعظيم للنّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم بين أهل الصّلاح والورع سبباً في أن صار يُحتَفَل بمولده حوالي عام 300 هـ؛ وكان ذلك بدعةً في نظر المتمسّكين بالعادات الإسلاميّة الأولى.

ويُروى عن الكرجي (توفي عام 343 هـ - 954 م)، الذي كان من الزّهّاد المتعبّدين، أنّه كان لا يفطر إلّا في العيدين وفي يوم مولد النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم[2554].

وفي القرن السّادس الهجريّ أبطل الأفضل ابن أميرالجيوش أمر الموالد الأربعة: النّبويّ والعلويّ والفاطميّ ومولد الإمام الحاضر[2555]. غير أنّ أوّل من احتفل بمولد النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم احتفالاً عظيماً هو - كما يقال - الأمير أبو سعيد مظفّر الدّين الأربلي (توفي عام 630 هـ 1233 م)؛ وفي ذلك العيد كانت العادة جاريةً بقراءة السّيرة النّبوية مع إيثار الكلام في قصّة المعراج؛ فكان ذلك عوناً كبيراً على تكوين السّيرة النّبويّة[2556].

وكان أهمّ الأعياد العائليّة عيد الختان، ولم يكن قد صار بعدُ عيداً «خاصًّا»، لأنّه كان لا يزال محتفظاً بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشّباب عند القدماء.

وكان الرّجل يكره أن يختن ابنه منفرداً؛ ولذلك يُروى عن الخليفة المُقتدِر أنه في سنة 332 هـ ختن خمسةً من أولاده، وختن قبل ذلك جماعةً من الأيتام، ويقال إنّه بلغت النّفقة فيه ستمئة ألف دينار [2557].

وحكى أبو جعفر الجزّار عن عام 340 هـ - 951 م أنّه في هذه السّنة «أمر إسماعيل بن القائم (الفاطميّ) أن يُكتب له أولاد القوّاد، ووجوه رجاله من كتامة، والعبيد والجّند وضعفاء النّاس من أهل القيروان وغيرها، ليُختنوا ويُحسن إليهم بالكسى والصّلات؛ فبلغوا أكثر من عشرة آلاف، فابتدأ في ختانهم، وعمل ولائم، وأعطى الصّبيان على قدر مراتبهم من مئة دينار لكلّ واحد إلى مئة درهم وأقلّ من ذلك؛ فكان يُختن في كل يوم من خمسمئة إلى ألف وثلاثمئة، فأقام على هذا سبعة عشر يوماً. قال أبو جعفر الجزّار: فسمعت من يقول من أهل الخدمة إنّه أحصى ما أنفق في هذا الختان، فكان مئتي ألف دينار، وحدث في البلد عند ذلك من الإنفاق واللّهو ما لم يُرَ مثله[2558].

وكان أكبر عيدٍ بقصر الخلافة في القرن الثّالث الهجريّ عيد ختان عبد الله المُعتزّ بن المتوكّل؛ ويقال إن المتوكّل أنفق في ذلك ستّة وثمانين ألف ألف درهم[2559]، وهو مقدارٌ يشبه ما يقال في القصص الخياليّة؛ ولكنّ مصرّف الأقدار شاء أن يُقتل هذا الولد، الذي بلغ من محبّة أبيه له وسروره به هذا المبلغ، بعد حكمٍ قصير، وأن يقضي ابنُه آخرَ أيّام حياته في فقر وآلام.

وكانت حفلات الزّواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل، إلى جانب حفلات الختان؛ فيقال إنّ نفقات زفاف هارون الرّشيد بلغت خمسين ألف ألف درهم، وإنّ نفقات زفاف المأمون بلغت سبعين ألف ألف درهم[2560].

وفي سنة 310 هـ - 922 م قبض المُقتدِر على القهرمانة، لأنّها زوّجت ابنة أختها، وأكثرت من النِّثار والدّعوات[2561].

وكان العامّة يحاولون في هذه المناسبات أن يظهروا من الغنى أكثر ممّا عندهم، وكان يمكن لهم أن يستأجروا الزّينة والآلات والفرش[2562].

وأخيراً كان من الأعياد يوم الاحتجام، وفيه يهدي أصحاب المحتجم له الهدايا، ويُعمل له أجودُ الطّعام[2563]، وكان الّذي يقوم بهذه العمليّة المزيّن، وكان يعطى على ذلك حوالي نصف درهم[2564].

الفصل الرّابع والعشرون
الحاصلات

Die Warenerzeugung

كان سكّان الدّولة الإسلامية كلهم تقريباً يقتاتون بالخبز، على نقيض الهنود وسكّان أقطار آسيا الشّرقية ممّن غذاؤهم الأرز؛ وكانوا يتميّزون عن هؤلاء الأخرين خصوصاً بأنهم جميعاً يشربون اللبن؛ وهذان كانا الغذائين الأساسيين في أوروپا؛ إلا أن الخبز في الشّرق كان يُعمل أرغفة رقيقة مستديرة، وهو الشّكل الذي كان يُعمل عليه في أوروپا في بعض القرى.

وكان أهم حادث في الاقتصاد المحلّي الأوروپي في العصور الوسطى استبدال القمح بدل الذُّرة والشّعير؛ أما في الشّرق فكان القمح قد استوطن واستقرّ منذ زمان طويل، وكان يزرع في كافة البلاد، التي يكون الماء فيها موفوراً؛ أما الذّرة من جهة أخرى فإنها بقيت مقصورة على الأجزاء الجافّة في الجنوب، مثل جنوبي جزيرة العرب وبلاد النّوبة وكرمان، وذلك لأن الذّرة تكتفي بالماء القليل كالسّمسم والهُرْطُمان[2565]، «وكانت تؤكل كما يؤكل الأرز»[2566].

وكانت العراق إقليماً أكثر ما يزرع فيه الحنطة، وكان ارتفاع أسعار القمح يُذكر دائماً دليلاً من دلائل غلاء المعيشة.

وفي المرتبة الثالثة بعد الشّعير كان يأتي الأرُز؛ وقد لفت ذلك نظر الصّينيين؛ فيحدثنا الرّحالة (لينغ - واي - تاي - تا) Ling-wai-tai-ta عن بغداد قائلاً إن النّاس جميعاً فيها يأكلون الخبز واللحم والسُّولو (su-lo) ولكنهم قلّ أن يأكلوا السّمك والبقول والأرُز. وكتب صيني آخر عن مصر حوالي عام 1300 م: أن النّاس فيها يعيشون على اللحم والخبز، ولا يأكلون أرزاً قط[2567]. وكذلك كانت الحنطة في المكان الأول ببلاد خوزستان؛ ولكنهم كانوا يصنعون من دقيق الأرُز خبزاً، وكان الأرز قوتاً للشّعب[2568]. ولم يكن خبز الأرز غالباً إلا في طعام أهل مازندران بإقليم طبرستان[2569].

وبفلسطين ومصر كان يزرع نبات يشبه البطاطا، يسمّى القُلقاس[2570]، نرى أدلّة على زراعته قديماً في جزر اليونان وآسيا الصّغرى ومصر؛ وهو بشكل جذر مدوّر كبير، وكان النّبات الأساسي الذي يتغذّى به سكّان پولينيزيا قبل مجيء الأوروپيين؛ وهو «شيء على قدر الفجل المدوّر، عليه قشر وفيه حدّة؛ يُقلى بالزّيت»[2571]، وهو يقشر ويطبخ ويرمى الماء الذي يطبخ فيه، وبعد ذلك يقلى بالزّيت[2572]؛ وهو على نوعين: رؤوس وأصابع، والأصابع أطيبه وأغلى من الرّؤوس[2573]؛ «وهو من مأكولات فصل الشّتاء، وألذّ ما يؤكل باللحم الضّأن»[2574].

وكان العنب أكثر المزروع من الفواكه؛ وذكر الماوردي[2575] أن كلمة الكرم كانت تطلق في العراق قديماً على الحقل المزروع بالمُجمل، حتى في العراق كان له المقام الأول بين الفواكه؛ وهو كثير الأصناف: «ولو أن رجلاً خرج من بيته مسافراً في حداثة سنّه، واستقرى البلدان صقعاً فصقعاً يتتبّع الكروم مصراً فمصراً، حتى يهرم، لتعرُّف أجناسه وإحاطة العلم بأنواعه، بل إقليما واحداً من الأقاليم وناحية من أقطار الأرض، لأعوزه وغلبه»[2576].

وأكبر أشجار العنب كانت توجد في جنوبي جزيرة العرب؛ ويُروى أن بعض عُمّال الرّشيد حُمل إليه، وهو يؤدّي فريضة الحج مرّة، عنقودان من العنب في محملين على بعير؛ وربّما كان يحمل من جبال أرمينية وأذربيجان أخونة عظيمة جداً يكون دور بعضها عشرين شبراً من خشب الكرمة[2577]. وكانت الأسماء الكثيرة التي تسمّى بها أصناف العنب أسماء شعبية، مثل عين البقرة، والسُّكّر، وأصبع القزم، والقوارير ونحوها؛ ولكنه كان ينسب في الغالب إلى البقعة التي يجلب منها كالصّقلبي والجُرَشي والمُلَشي.

وقد انتشر العنب - الذي قال سترابو (XV, 3) إن المقدونيين كانوا أول من نقله إلى العراق[2578] وفارس - في جميع المملكة؛ ثم جاء الفتح العربي، فجلب إلى المشرق أنواعاً أخرى؛ فمثلاً نقل العنب الطّائفي الذي ينسب إلى مدينة الطّائف إلى العراق، كما نُقل إلى قرب هَراة ببلاد أفغانستان، وصار يُزرع فيها[2579]. وذُكر عن أهل مدينة زُعَر، قرب البحر الميت، أنهم يلقّحون كرومهم كما يلقّح النّخيل بالطّلع، وكما يلقّح أهل المغرب تينهم[2580].

وأضيف في القرن الثّالث الهجري إلى الفواكه التي كانت موجودة في الدّولة الإسلامية فاكهتان: وهما الأُترُج والنّارنج، وكلاهما كان يقدّم إلى النّاس في الاحتفال الرّسمي بسامرّاء حوالي منتصف القرن الثّالث الهجري، وذلك إلى جانب ما عزَّ من الفواكه الغالية. وقد نوّه حاكي هذا الخبر في القرن الرّابع بأن هاتين الفاكهتين وخاصّة النّارنج كانتا قليلتين في ذلك الوقت[2581]، وذكرهما ابن

المُعتزّ في ختام القرن الثالث الهجري / التّاسع الميلادي. ولكن يظهر أنهما بقيتا مقصورتين على طائفة قليلة من النّاس.

ويقول المسعودي حوالي عام 323 هـ - 935 م: «وكذلك شجر النّارنج والأُترُج هو المدوَّر جُلب من أرض الهند بعد عام 300 هـ / 912 م، فزُرع بعُمان، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشّام، حتى كثر في دور النّاس بطرسوس وغيرها من الثّغر الشّامي وأنطاكية وساحل الشّام وفلسطين ومصر، وما كان يعهد ولا يعرف، فعدمت منه الرّوائح الطّيبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند»[2582].

وكان للخليفة القاهر (320-322 / 932-934) الذي كانت أشجار النّارنج عزيزة على قلبه أكثر من سواها في بعض الصّحون بقصره بُستان، نحو من جريب، قد غُرس فيه النّارنج؛ وحُمل إليه من البصرة وعُمان ممّا حمل من أرض الهند.

وفي عصر البِشاري المقدسي كان الأُترُج والنّارنج يُزرعان بفلسطين. وفي القرن الرّابع الهجري وصف ابن حَوْقَل الأُترُجة لقرائه فهو يقول: «وهي (المنصورة بالسِّند (في أقصى جنوب المملكة)، ليس لهم عنب ولا تفاح ولا جوز ولا كمثرى، ولهم قصب سُكّر، وبأرضهم ثمرةٌ على قدر التّفاح تسمّى اللّيمونة، حامضة شديدة الحموضة»[2583].

وكذلك يقول المقدسي عند الكلام على السِّند: «وخصائصهم ليمونة، وهي ثمرة مثل المشمش حامضة جداً»[2584].

وظل الأُترُجّ طول القرن الرّابع الهجري / العاشر الميلادي من الفواكه المستوردة[2585]، حتى حُمل فيما بعد إلى من الهند إلى البصرة وعمان، ثم جُلب إلى العراق[2586].

«وكان من جُملة أصناف الليمون بمصر في العصور المتأخرة ليمون، يقال له التُّفّاحي، يؤكل بغير سُكّر لقلّة حموضته»[2587].

وكذلك كان فيها ما يسمّى بالليمون الشّتوي والليمون السّائل[2588].

ولم يكن النّاس يستعملون هذا الثّمر في تحضير شراب الليمون، بل كانت عادة الكُبراء ببغداد في القرن الرّابع شرب الماء المثلج، أمّا في البصرة[2589]:

نحن بالبصرة الذّميمة نُسقى	شرّ سُقيا من مائها الأُترُجيّ
أصفر مُنكر ثقيل غليظ	خاثر مثل حقنة القولنج

وأكثر ما كان يباع من الثمار في الأسواق البطيخ؛ ولذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمّى دار البطيخ[2590]. وكان شمال فارس بنوع خاص مشهوراً بالبطيخ، وكان يُقَدّد ويُحْمَل إلى العراق، ولم يُعْلَم أن هذا ممكن في غير تلك البلاد[2591]. ويؤيد الرّحالة ماركو بولو Marco Polo ذلك بقوله: «وبطيخ مدينة شبرقان (بين مَرو وبَلْخ) يُقطع حلقات رقيقة كالقرع، وبعد أن تُجَفف في الشّمس تُرسل كميات كبيرة لتباع في البلاد المجاورة»[2592]. وكان بطيخ مَرو يُرسل إلى بغداد في قواليب الرّصاص معبأة بالثّلج، وكانت تُقَوَّم الواحدة منه إذا سلمت ووصلت بسبعمئة درهم[2593].

وفي ذلك الزّمان كان للرُّمّان من الشّأن في المطابخ ما للبندورة pomodoro (الطّماطم) الأميركية في مطابخ أوروبا الجنوبية في أيامنا هذه؛ وقد ذُكر لنا أن سفناً كثيرة كان تسير في الفُرات قاصدة بغداد محمّلة بقراقير الرُّمّان إلى جانب أطواف الزّيت والخشب.

وكان أجود التُّفّاح في ذلك العصر تُفّاح الشّام. وكان يُجلب إلى مصر[2594]. وكان يُحمل إلى بلاط الخُلفاء في كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة. وهو لا يعيش في المشرق، «لأنه لا يقوى على احتمال هواء الصّحراء الحارّ اليابس»[2595].

وكانت تجارة التّمر سبباً في تصدير مقادير كبيرة منه؛ وكان العراق[2596] وكرمان وشمال أفريقيا أكبر مراكز إنتاج التّمر. ووكان التّمر العراقي أجود الأنواع، وقد ذُكرت منه أنواع كثيرة في المناطق المنتجة للتّمر بشمال أفريقيا، حتى كان في بعض السّنين الجيّدة يُباع وقر الجمل بدرهمين[2597]. وكانت كرمان ربّما بيع في بعض بلادها مئة مَنّ بدرهم. وكانت تزوّد فارس بأسرها بالتّمور، ويقصدها في كل سنة مئة ألف جمل، يدخلونها على غفلة؛ ويكثر الزّنا والفساد في هذه القوافل[2598]. وكذلك كانت القوافل التي تسير من بلاد الزُّنج مجتازة الصّحراء تحمل التّمر في الغالب، وكانوا يعودون بسبي العبيد والذّهب؛ وكان أكبر مركز لتجارة التّمر هذه مدينة سجلماسة في جنوب مَرُّاكش[2599].

أما شجر الزّيتون فهو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط؛ وكانت الشّام وشمال أفريقيا تمدّان الدّولة الإسلامية كلها بالزّيت. وكان أجوده ما يأتي من الشّام[2600]، حيث كانت مدينة نابلس خاصّة كثيرة الزّيتون[2601]. وكان الزّيت يُحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب. ولما بلغ الرُّوم إلى هذه المدينة عام 351 هـ - 962 م عمدوا إلى هذه الجباب فصبّوا فيها الماء حتى فاض الزّيت على وجه الأرض[2602]. وكانت تونس من قبل تغذّي روما بزيت الزّيتون، وكان بمدينة صفاقس في القرن الرّابع من زيت الزّيتون الكثير، حتى ربّما كان يباع ستون وسبعون قفيزاً بدينار[2603]. ولا تزال شجرة الزّيتون تلقى من العناية في هذا الإقليم ما لا تلقاه في أيّ بلد من بلدان البحر الأبيض المتوسط[2604].

وكانوا في مصر يستخرجون زيت المصابيح من بذور الشّمندر واللفت، ويُسمّونه الزّيت الحار[2605]. أما في العراق وأفغانستان فكان عندهم زيت السّمسم[2606]. وقد غرست في فارس أشجار الزّيتون من جديد.

ونظرا لغلاء ثمن السُّكَر فقد كان قصبه يُزرع في جميع البلاد التي يمكن زراعته بها؛ حتى لقد زرع في الجليل وصور [2607]. ولم يتكلّم أحد من الجغرافيين في القرن الرّابع عن زراعته في مصر، وإن كان يدلّ على زراعته بها أوراقُ البردي التي يرجع تاريخها إلى القرن الثّاني الهجري؛ ولكن يظهر أنه أصبح ذا شأن في القرن الخامس الهجري – وربّما كان ذلك لانفصال مصر عن المشرق سياسياً؛ ويقول الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني حوالي عام 440 هـ - 1048 م: «وتنتج مصر عسلاً كثيراً وسكراً». وكان أكبر مركز لصناعة السُّكّر إقليم خوزستان، وخصوصاً مقاطعة جُنديسابور. وكانت أنحاء البصرة أشهر موضع بصناعة السُّكّر في العراق.

وكذلك اهتم المسلمون في الأندلس بالسُّكّر، وجعلوه من الحاصلات المستوطنة في بلادهم[2608].

وكان لأهل اليمن تفنُّنٌ في صنع معقود الفاكهة؛ وهو يعمل بطريقة خاصّة، وذلك أنه يُحَرّ في الشّمس ويوضع في قصب اليراع، ثم يوضع القصب أياما في مكان بارد، حتى يعود إلى جموده، ثم تُختم أفواهُ القصب بالقَصّة ثم تقطع بالسّكاكين على طيفورية أو رغيف[2609].

وكان يخرج من بحيرة وان Van سمك صغير يعرف بالطّريخ يقوم مقام سمك البقلة المجفّف عندنا؛ فكان يملّح ويحمل إلى الجزيرة والموصل وحلب وبَلْخ وسائر الثّغور[2610]، أما في المغرب فكان يقوم مقامه السّمك المسمّى بالتُّنّ (وباليونانية تونوس τόνος)، ويصاد في شواطىء إسپانيا وشاطىء أفريقيا المقابل لها (خصوصا سَبتة)؛ وكان يصاد برماح؛ وكان العامّة يزعمون أنه يهاجر في كل سنة من أفريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط ليحجّ إلى صخرة معروفة فيه[2611].

وكان من الأطعمة المحبوبة الطّين الذي يؤكل في آخر الطّعام، وهو أخضر كالسّلق وأشرق منه[2612]. وكذلك ورد ذكر الطّين الأبيض العادي في كلام الشّعراء[2613]. وكان الأخضر يوجد بكثرة من بلاد قوهستان[2614]؛ وكان الرّطل منه ربّما يباع في مصر وبلاد المغرب بدينار[2615]. وكذلك كان الطّين يصدّر من طُليطلة فيحمل إلى بلاد التُّرك[2616]. غير أنّ كثيراً من الفقهاء حرّموا أكل هذا الطّين (كنز العُمّال، 207a).

«وكان يرتفع من مفازة سِجِسْتان فيما بينها وبين مَكران غلّة عظيمة من الحلتيت»[2617]؛ ولا يزال هذا الطّعام كريه الرّائحة من أكبر صادرات البَنجاب في أيامنا، ومنها يحمل إلى كويتا، ثم إلى أفغانستان[2618]؛ وكان في العصور الوسطى يُحمل من هناك إلى الصّين[2619].

وكان تجّار البحر المسلمون يحملون الكافور من جزيرتي بورنيو وسومطرة إلى الغرب وإلى الصّين[2620]، وكان الكافور من أحسن البهارات المرغوبة وأكثرها كلفة؛ أما البخور الذي كان أكبر صادرات اليمن في العصور الأولى فقد بطل استعماله في الدّولة الإسلامية، وأصبح من العادات القديمة؛ وهو لا يزال يُذكر في بعض الأحيان[2621]، ولكن حلّ محلّه الكافور، وكان أحسن أنواعه ما يُجلب من جنوبي جزيرة العرب[2622].

وممّا يجد ذكره أنّ جماليّة الملابس في مملكة الإسلام، تعود إلى أن كل إقليم كان يستعمل من اللباس ما هو أقرب إليه وما جرى عليه منذ البداية، فكان البدوي يلبس ملابس تتّخذ من صوف الضّأن الأبيض وشعر الماعز الأسود، وكان أهل بَرقة يلبسون محمّرة، حتى كانوا في القرن الرّابع بالفسطاط يُعرفون من بين جميع أهل المغرب بحُمرة ثيابهم؛ وإنما كانوا يتخذون الملابس الحمراء، لأن مدينتهم في صحراء حمراء التّربة[2623].

ولكن التّجارة كان لها بالإجمال أثر في توحيد لون الملابس؛ وسرعان ما انتشرت في جميع أنحاء مملكة الإسلام المادّتان الأساسيتان في الصّباغة وهما: النّيل للتّلوين باللون الأزرق، والقرمس للتّلوين باللون الأحمر (ومن كلمة قِرْمِز التُّركيّة أخذت الكلمة الأوروبية crimson أو karmoisin)؛ وكان يباع في مدينة كابُل كل سنة من النّيل بما يبلغ ألفي ألف دينار، ولذلك فإن شجر النّيل كان بسبب قيمته يُزرع في كل قطعة تصلح لزراعته، كما كان ذلك شأن السُّكّر؛ فكان يزرع في مصر بالصّعيد - وكان أهم ما يزرع في الواحات[2624] - وببلدتي زُعَر وبيسان بفلسطين[2625]، وفي كرمان، وبالقرب من البحر الميت، حيث كان للنّيل تجارة كبيرة، وكان يقرب من نيل كابُل في الجودة[2626]. وكان شجر النّيل بمصر يحصد في كل مئة يوم؛ وفي السّنة الأولى يسقى في كل عشرة أيام دفعتين، وفي السّنة الثّانية ثلاث دفعات، وفي الثّالثة أربع دفعات[2627]؛ فنلاحظ أن زراعة النّيل كان منشؤها البلاد التي تتبع نظام الرّي على قاعدة العشرة الأيام.

أما القِرمِز فكان أكبر مصدر له بلاد أرمينية وخصوصاً إقليم أرارات[2628]، ومنها كان يُحمل إلى الهند وسائر المواضع[2629].

وكان يستعمل للتّلوين الأصفر الزَّعفرانُ النّقي والعصفر والزّعفران العربي المسمّى الوَرْس، وهو نبات يشبه السّمسم، ويكون في اليمن[2630]؛ وكانت أباعر اليمن التي تحمل الزّعفران إلى الشّمال تصفرّ ألوانها بتأثير لون أحمالها الغالية. وكان يندر أن يكون للوَرْس شأنٌ مقابل الزَّعفران، إلّا أن الطّليان سمّوا خشب البرازيل بلفظ Verzino عن كلمة وَرْس العربية. وكان للزَّعفران نصيب عظيم من التّقدير؛ ويُروى أن الخليفة المتوكّل لما أرسل رسولَه إلى ملك الرُّوم في أمر الفداء عام 246 هـ - 860 م بعث في جُملة هداياه القيمة مقداراً كبيراً من الزّعفران[2631]. وكان الزّعفران لعظم قيمته يُزرع في كثير من البلاد كالشّام وجنوبي جزيرة العرب؛ ولكن ميديا القديمة كانت أكبر موطن له[2632]. أما في المغرب فكانت تحمل منه مقادير كبيرة من طُليطُلة[2633] إلى الغرب.

أما البورق، من بين المواد غير العضوية، فلم يكن يوجد إلا في بحيرة «وان» إلى شمال إقليم فارس، وكان يصدّر للخبَّازين في بلاد العراق وما بين النّهرين، وكان يسمّى «بورق الخبز» وكان يستعمل في تلميع الخبز[2634]، وكان يوجد إلى جانبه بورق الصّاغة، وكان يحمل من بحيرة أُرمية إلى مصر، فيُرْبَح فيه الرّبح العظيم[2635].

وكان الشَّبّ أهم ما يستخرج حول بحيرة شاد بالسّودان، حتى ينتهوا إلى مصر، وينصرفون في جهة المغرب، حتى يصلوا بلاد المغرب الأقصى[2636].

وكان الملح الذي يستخرج من مناجم الصّحراء يشتغل بحمله آلاف من الجمال والحمالين، كما كان الملح الذي يُستخلص من المحيط الأطلسي يُحمل إلى أعماق السّودان.

وأمّا ملح النّوشادر، وهو من أهم الملاح الكيماوية في ذلك العهد، فيوجد في نقطتين متقابلتين على أطراف الدّولة الإسلامية، وهما صقلية، وبلاد ما وراء النّهر[2637]؛ وكانت الثّانية أهم من الأولى بكثير، ولذلك سُمّي ملح النّوشادر في أوروبا - منذ العصور القديمة - بالملح التّتري Tatarisches Salz. ويقول الجغرافيون إنه كان بجبال البُتّم معدن النّوشادر، وهو جبل فيه مثل الغار بني عليه بيت قد استوثِق من أبوابه وكواه، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنّهار الدّخان، وبالليل النّار؛ فإذا تلبّد هذا البخار أخذ، وهو النّوشادر، وداخل هذا البيت يكون شديد الحرّ لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق؛ إلا أن يلبس لُبوداً يرطّبها بالماء؛ وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان، وإذا لم يكن على هذا البخار بناء يمنعه من التّفرق لم يضرّ من قاربه، فإذا كان عليه بيت يجتمع فيه أحرق من يدخله من شدّة الحرّ[2638]. وقد وصف المسعودي حوالي عام 322 هـ - 944 م جبال النّوشادر التي بالصّين وصفاً جديراً بالذّكر فقال: «وللصّين أنهار كبار، وهناك جبال النّوشادر، فإذا كان في الصّيف رأيتَ في الليل نيراناً ترتفع من تلك الجبال من نحو مئة فرسخ، وبالنهار يظهر منها الدّخان لغلبة شعاع الشّمس وضوئها وضوء النّهار؛ ومن هنالك يُحمل النّوشادر، فإذا كان في الصّيف، فمن أراد من بلاد خُراسان أن يسلك إلى بلاد الصّين صار إلى هنالك، وهنالك وادٍ بين تلك الجبال طوله أربعون ميلاً أو خمسون، فيأتي إلى أناس هنالك على فم الوادي فيرغّبهم في الأجرة النّفيسة، فيحملون ما معه وبأيديهم العصي، خوفا أن يبلّج ويقف فيموت من كرب الوادي، وهو يحضر أمامهم حتى يخوضوا إلى ذلك الرّأس من الوادي، وهنالك غابات ومستنقعات، فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء لما نالهم من شدّة الكرب وحرّ النّوشادر؛ ولا يسلك ذلك الطّريق شيء من البهائم، لأن النّوشادر يلهب ناراً في الصّيف، فلا يسلك ذلك الوادي داعٍ ولا مجيب؛ فإذا كان الشّتاء وكثرت الثّلوج والأنداء وقع على ذلك الموضع فأطفأ حرّ النّوشادر ولَهيبه، فيسلك النّاس حينئذ ذلك الوادي؛ والبهائم لا صبر لها على ما ذكرنا من حرّه، وكذلك من ورد من بلاد الصّين فُعل به من الضّرب ما فعل بالآخر»[2639].

وفي عام 982 م زار الرّحالة الصّيني وَانْغ - ين - تي Wang-Yen-te جبال النّوشادر، وهو يقول: يستخرج النّوشادر من جبال تقع شمال بيتنْغ؛ ومنها تتصاعد أعمدة النّار من غير انقطاع، في أثناء الليل تُرى لُهُبٌ كالتي تتصاعد من المشاعل حتى يستطيع الإنسان أن يرى الطّيور والفئران ملونة كلها باللون الأحمر؛ ويلبس المشتغلون بجمع النّوشادر أحذية، نعلها من الخشب، لأن الجلد يحترق[2640]؛ ويقول الصّينيون إن المكان الذي يؤخذ منه النّوشادر يقع في شرق جبال تيان شان على مسافة مئتي «لي» شمال «كوت».

وورد في أحد المراجع الصّينية، يرجع إلى عام 1772 م: «يُجلب النّوشادر من جبل النّوشادر في شمال مدينة كوشا، وهو جبل كثير الشّقوق والأغوار؛ وهذه الشّقوق تمتلئ بالنّار في الرّبيع والصّيف والخريف، حتى يظهر الجبل بالليل كأنه مُضاء بآلاف المصابيح؛ وفي ذلك الوقت لا يستطيع أحد أن يقترب منه، وفي الشّتاء فقط يشتغل أهل ذلك المكان بجمع النّوشادر، وذلك عندما تسقط الثّلوج والأنداء فتطفىء حرّ النّوشادر ولهيبه»[2641].

وكذلك يحدّثنا الحجويري الأفغاني في القرن الحادي عشر الميلادي في كتابه «كشف المحجوب»، أنه رأى على حدود بلاد الإسلام، في بلد من بلاد التُّرك، جبلاً ملتهباً يخرج منه بخار النّوشادر، وأنه كان في ذلك اللهيب فأرٌ أراد أن يهرب من الحرّ فمات[2642].

وكان لهذا النّوشادر قيمةٌ كبيرة بالصّين ذاتها، حتى كان أهل جبال النّوشادر يدفعون منه الخَراج الذي عليهم للإمبراطور[2643]. وقد ذهبت بعثة لارتياد هذا الجبل منذ ثلاثين عاماً، وفي هذا الشّأن تقول صحيفة تُركستان الرّسمية: «إن جبل بيشان ليس بركاناً، كما قرّرت بعثة روسيّة أُرسلت بقصد البحث عن ذلك؛ فإن الدّخان الذي يتصاعد منه ناشيء من احتراق معادن من الفحم؛ وسفوح جبل بيشان مغطّاة بشقوق يخرج منها الدّخان وغاز الكبريت بصوت مروّع». وقد ورد في بحث فريدريشن Friedriechen، الذي يزيد على ما تقدّم بقوله: «وهذا يتّفق مع ما حكاه ريغل[2644] Regel عن عالم بالنّبات، يسمّى فيتيسو Фетисов أُرسل للقيام بأبحاث نباتية في تلك المنطقة، فهو يقول إن جبل بيشان جبل مخروطي الشّكل، وليس له فوهة في أعلاه، بل له فتحات جانبية»؛ فكأن فريدريشن يعدّ الجبل كتلة من الفحم تحترق[2645].

أما المعدنان النّفيسان فقد كانت أجزاء الدّولة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً منهما على نحو جميل، فكان المشرق يهييء الفضّة والمغرب يأتي بالذّهب؛ أما معادن التِّبر في ذلك العهد فكانت تقع في الصّحراء الحارّة التي تقع إلى أعالي النّيل في الصّعيد بين أسوان وعيذاب.

وكانت أكبر مدينة لمنجمّي الذّهب هي العلاقي التي تقع على مسيرة خمسة عشر يوماً من أسوان[2646]، فكانوا يتجوَّلون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر، ويعلِّمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً[2647]، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرّمل التي علموا عليها فغسلوها بالماء واستخرجوا التِّبر، ثم يؤلِّفونه بالزّئبق ويسكبونه[2648].

ولم يقصد طلُّاب الثّروة إلى ذلك الموضع إلا منذ منتصف القرن الثّالث الهجري، وذلك بعد أن أُرسلت عام 241 هـ - 855 م حملة قوية صغيرة العدد قويّة الجُند لتأديب البجة الذين كانت لا تهدأ ثورتهم على الدّولة، حتى ردّتهم إلى الصّواب؛ ومن ذلك التّاريخ اندمج البجة في القبائل العربية[2649].

وفي سنة 332 هـ - 944 م كان سيد قبيلة ربيعة ملك بلاد الذّهب[2650]، ويُروى أن الخليفة المستنصر صاحب مصر بذل لأبي العلاء المَعَرِّي (توفي عام 449 هـ - 1057 م) ما ببيت المال بالمَعَرّة فلم يقبل منه شيئاً وقال:

فعدَّ عن معدن أسوان	كأنما غاية لي من غنى

وكان المصدر الثاني للذهب في السّودان؛ والسّودان بلاد التِّبر، وإنه أكبر غلة عند السّودان، وإنهم عليها يعوّلون صغيرهم وكبيرهم[2651]. وكانت كل القوافل التي تسير في الصّحراء الكبرى آتية من الجنوب تحمل الذّهب والعبيد؛ وكان الحمّالون يحملون الملح ويعودون بالذّهب، وكانوا يحملونه على رؤوسهم، حتى أصبحت صلعاء لا أثر فيها للشّعر[2652].

وقد كشف في عام 390 هـ - 1000 م عن منجم للذهب في بلاد سِجِسْتان (أفغانستان)، ولكنا لم نسمع عن هذا المعدن شيئاً بعد ذلك.

وكان أكبر منجم للفضّة في الدّولة الإسلامية يقع في أقصى المملكة، في بلاد هندكوش، مدينة بنجهير (التّلال الخمسة)؛ وحكي أن هذه المدينة كانت تشتمل على عشرة آلاف رجل يعملون بالمناجم، «ويغلب على أهلها العبث والفساد»[2653]. «بنجهير: والدّراهم بها واسعة كثيرة لا يكاد أحدهم يشتري شيئاً، ولو جزرة بقل، بأقل من درهم صحيح؛ والفضّة في أعلى جبل مشرف على البلدة، والسّوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر؛ وإنما يتبعون عروقاً، يجدونها تدلّهم على الجوهر؛ وهم إذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى ان يصيروا إلى الفضّة؛ فيتفق أن للرّجل منهم في الحفر ثلاثمئة ألف درهم زائداً أو ناقصاً، فربّما صادف ما يستغني به هو وعقبه، وربّما حصل له مقدار نفقته، وربّما أكدى وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك؛ وربّما يتبع الرّجل عِرقاً ويتبع آخر شُعبة أخرى منه بعينه، فيأخذان جميعاً في الحفر؛ والعادة عندهم أن من سبق فاعترض على صاحبه، فقد استحقّ ذلك العِرق وما يفضي إليه؛ فهم يعملون عند هذه المسابقة عملاً لا تعمله الشّياطين، فإذا سبق أحد الرّجلين ذهبت نفقة الآخر دهراً، وإن استويا اشتركا؛ وهم يحفرون ما حييت السُّرج واتقدت المصابيح، فإذا صاروا في الحفر إلى موضع لا يحيى السّراج فيه لم يتقدّموا، ومن تقدّم مات في أسرع وقت، والرّجل منهم يصبح غنياً ويمسي فقيراً أو يصبح فقيراً ويمسي غنياً»[2654].

أما معادن الفضّة التي كانت بأصفهان فكانت في القرن الثّالث الهجري قد هُجرت منذ زمان طويل[2655]. وكذلك تَعَطَّل العمل في معادن الفضّة التي كانت بمنطقة باذغيس من بلاد أفغانستان وذلك بسبب فناء الحطب[2656].

وكان بقرب أصفهان معدنٌ للنّحاس الأصفر عليه للسّلطان خَراج قدره عشرة آلاف درهم[2657]، وكان يُجلب من بُخارى النّحاس الأصفر الذي يستعمل في طلاء أعلى المنابر[2658]. وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد ولصناعته[2659].

وكان بالقرب من بيروت[2660] وبكرمان[2661] وكابُل[2662] مناجم حديد أيضاً. وكان بفرغانة مناجم حديد، وقد برع أهلها في صناعته، وكان الحديد يوجد في الغرب بصقلية. وكان لا يزال يحمل من أفريقيا، وهي الموطن الأول لصناعة الحديد، وكان يؤخذ إلى الهند، فتصنع منه أغلى آلات الحديد[2663]. أما في آسيا الغربية فكان الحديد على الدّوام نادراً؛ ويُروى أنه في عام 355 هـ - 964 م استهدى القرامطة من سيف الدّولة حديداً في طبريّة، فأمر بقلع أبواب الرّقة، وكانت من حديد، حتى أخذ سَنجات الباعة والبقالين، ثم حمُل هذا الحديد في الفُرات إلى هيت، ومن هيت إلى القرامطة في البرّية[2664].

أما الزّئبق فكان أكبر وأعظم معدن له في الدّولة الإسلامية بالأندلس، على مقربة من قَرطبة. وهذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل، فَقَوْمٌ للنّزول فيه وقطع الحجر، وقومٌ لنقل الحطب لحرق المعدن، وقومٌ لعمل أواني سبك الزّئبق وتصعيده، وقوم لشأن الأفران والحرق، قال المؤلف: «وقد رأيت هذا المعدن فأخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفلها أكثر من مئتي قامة وخمسين قامة»[2665].

وكان يوجد الفحم الحجري بفرغانة وبُخارى، وقد وصفه الجغرافيون الرّحّالون بأنه «حجارة سود تحترق كالفحم»[2666]؛ ولكنهم اعتبروه من غرائب الطّبيعة.

وكان بمدينة بَدَخشان بخُراسان حجر الفتيلة، وقد سمي بهذا الاسم لأنه كان يستعمل في ذلك العهد، كما في أيامنا، فتيلة للمصابيح، وكان ينسج منه غطاء الموائد، فإذا اتّسخ طرحوه في التّنور، فيعود نظيفاً.

أما الأحجار النّفيسة فكان تقدير نفاستها في ذلك العصر يختلف عنه في أيامنا، وقد بيّن أحد كتاب القرن الرّابع نفائس الجواهر فهي عنده: فيروزج نيسابور، وياقوت سرنديب، ولؤلؤ عمان. وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وبجاذي بَلْخ. وكذلك أحصى البيروني حوالي عام 400 هـ - 1009 م الجواهر، وهي عنده: الياقوت والزُّمُرُّد واللؤلؤ.

وإذن فلم يكن للألماس في ذلك العصر هذا المركز العظيم الذي يفوق به في أيامنا جميع الأحجار الكريمة، بل كان النّاس يقدمون عليه الأحجار الملونة ذات البريق اليسير، ولم يكن يستعمل إلا في القطع أو في السّم بخُراسان والعراق؛ وكان الملوك والكبراء يستعملون الفصوص الكبار منه في قتل أنفسهم، فإذا وقعوا في قبضة عدوّ، وأيقنوا أنه يعذّبهم ويهينهم قبل القتل، ابتلع أحدهم الفصّ، فمات[2667]. وكان الفيروزج الأزرق لا يوجد إلا في نواحي نيسابور[2668]. وفي عام 1821 زار فرايزر Fraser التّل الذي يقع على مسافة ستين كيلو متراً إلى شمال غربي هذه المدينة، وكان الفيروزج يستخرج بطريقة بدائيّة، وذلك باستعمال الفؤوس، في حفر صغيرة، ولكن يستطيع النّاظر أن يلاحظ أن العمل في هذا الشّأن كان واسع النّطاق في الزّمن الماضي[2669].

ولكن بعد القرن الرّابع بقرنين تغير ذوق النّاس، وصار الملوك لا يكادون يرغبون في لبس الفيروزج، لأن العامّة أكثروا من التّختّم به[2670].

وكذلك نزلت في القرن الرّابع الهجري قيمة العقيق الذي سيضحي غالياً جداً في القرن السّادس الهجري – الثّاني عشر الميلادي، وذلك انه هان عند الملوك، لاقتدار العامّة عليه، وصاروا لا يتخذون منه إلا ما كان حجراً كبيراً، قد عُملت منه آلةٌ مليحة كالمدهن أو القدح أو ما جرى هذا المجرى[2671]؛ وكان أحسنه ما يُستخرج بجنوبي جزيرة العرب قرب صنعاء، «فربّما خرج له شبه صخرة وأقل، وربّما لم يخرج شيء»[2672] وكذلك كان العقيق الجيد يستخرج من جبال أفغانستان، وكان هذا العقيق يحفر عليه في مناجم كمناجم الذّهب والفضّة[2673].

وكان الجبل الوحيد الذي به معدن الزّمُرُّد في الدّولة الإسلامية يوجد بمصر في برّيّة منقطعة عن العمارة على مسيرة سبعة أيام من صعيد مصر؛ وهم يحفرون عليه في الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد[2674]. وقد ذكر سترابو هذا الجبل من قبل، وكان صاحب المعدن في عام 332 هـ - 943 م أبا مروان بشر بن إسحاق، وهو من ربيعة، وكان أيضاً صاحب معادن الذّهب[2675].

وكان الجزع الملوَّن المخطط محبوباً بنوع خاص في صنع بعض الآلات؛ وكان يجلب من اليمن، ويعمل ألواحاً وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن ونحو ذلك[2676]. وكان لتنوّع لونه وجمال وَشْيه ولمعانه تصنع منه أدوات المائدة للسّادة والكبراء. أمّا المرجان الثّمين فكان يُصاد في ذلك العصر كما يصاد اليوم من شمال غرب أفريقيا (مرسى الخرز)، من سبتة وما إليها[2677]: وكان يعمل في مرسى الخرز في أكثر الأوقات خمسون قارباً وأكثر من ذلك، وفي كل قارب نحو عشرين رجلاً[2678]. وكان يخرج الصّيادون، ومعهم صلبان من خشب، قد لُفّ عليها من الكتّان المحلول، ثم يرميان بالصّليب، ويدير النّواتي القاربَ فتلفّ خيوطها الكتّان على ما قاربها من نبات المرجان؛ ثم تُجذب الصّلبان فيخرج معها ما يساوي العشرة دراهم إلى العشرة آلاف درهم[2679]. وكان أكثر ما يُحمل إلى بلاد غانة وبلاد السّودان[2680]. وكان نساءُ الهند يحببنه بنوع خاص[2681]. وفي عصر ماركو پولو، كان يصدَّر إلى أوروپا من كشمير[2682]. وفي عصرنا هذا يصدّر المرجان الإيطالي إلى روسيا؛ ولكن نظراً للضّرائب الثّقيلة على حدود روسيا في الغرب فإنه يحمل إلى مسافة كبيرة ماراً بالهند وتُركستان الشّرقية، حتى يصل إلى روسيا[2683].

وكان اللؤلؤ الذي يستخرج من الخليج العربي في شرق جزيرة العرب يعدّ أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصّين[2684]. وكان الصّيادون يغوصون عليه في الخليج العربي من أول أبريل إلى آخر سبتمبر[2685]. وكان استخراج اللؤلؤ يعمل على قاعدة النّظام الرّأسمالي، فكان أحد المقاولين يؤجّر الغواصين شهرين، ويدفع لهم أجرهم بانتظام، وكان يحصل من وراء غوصهم في بعض الأحيان على ربح جسيم لا يصيبهم منه شيء[2686]. وفي عصر بنيامين التّطيلي (حوالي عام 1170 م) كان هذا العمل يقوم به أحد اليهود[2687]؛ أما في أيامنا فإن الرّبح يعود على القبيلة أو القبائل التي تملك القوارب المستعملة في مساعدة الغوّاصين. والقسمة بين القوارب على السّوية؛ أما ربح ذلك فهو يؤول إلى تجار الهند الذين يشترون أصنافه بأبخس الأثمان[2688]. وكانت مهمّة الغوص شاقة جداً؛ وقد وصف الأعشى الشّاعر الجاهلي هذا الغوّاص وصفاً بيَّن فيه ضعف حاله والخطر الذي يركبه، وأنه ينزل في البحر الذي ربّما قد مات فيه أبوه من قبل، وهو مع ذلك لا يجد من المبتاعين رفقاً[2689].

وفي أوائل القرن الرّابع الهجري يحدثنا المسعودي أن الغوّاصين لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحم إلا السّمك؛ ويأكلون التّمر ونحوه من الأقوات، وتُشَق أصول آذانهم ليخرج منها النَّفَس بدلا من المنخرين، لأنهم يجعلون على المنخرين شيئاً من ظهور السّلاحف البحريّة التي تتخذ منها الأمشاط أو من القرن، يضمّها كالمشقاص، لا من الخشب، ويجعل في آذانهم القطن، وفيه شيء من الدّهن فيعصر من ذلك الدّهن اليسير في قعر الماء، فيضيء لهم بذلك ضياء نيراً، وتُطلى أقدامهم وسيقانهم

بالسّواد خوفا من أن تبلعهم دواب البحر، لأنها تنفر من السّواد، وهم في قعر البحر يصيحون كالكلاب، حتى يسمع بعضهم صياح بعض[2690].

وفي القرن الرّابع قل شأن الغوص على اللؤلؤ بجزيرة سرنديب حتى كاد الإنسان لا يرى أصدافه هناك، وحتى حسب البعض أن اللؤلؤ ترك جزيرة سرنديب وذهب إلى أفريقيا[2691]: ولهذا السّبب لم يتكلّم الرّحالون والجغرافيون في ذلك العهد عن الغوص على المرجان هنالك؛ ولكن الأصداف عادت إلى الظّهور فيما بعد، حتى حدثنا كتاب القرن السّادس الهجري عن اللؤلؤ والغوص عليه أحاديث مفصّلة، وذلك أنه كان يخرج من المدينة أكثر من مئتي سفينة معاً تحمل كل منها خمسة تجار إلى ستة، كل منهم في مكان خاص به، ومعه غُوَّاصه ومساعدوه؛ ويقود هذا الأسطول قائد في مركب يسير به أمام الجميع، فيقف في مكان ما ويغوص، فإذا وجد شيئاً ألقى مراسي سفينته، وألقى الآخرون مراسي سفنهم حوله؛ ثم يسدّ الغواصون أنوفهم بالشّمع المذاب في زيت السّمسم، ويأخذ كل منهم سكيناً ومخلاة، ويقعد على حجر مربوط في حبل يمسكه المساعد به وينزله إلى قرار البحر؛ ويستمرّ هذا الغوص ساعتين من النّهار. ثم يُقاس هذا اللؤلؤ ويباع في يوم يحدّد له بإشراف الحكومة، ويُفرز اللؤلؤ بثلاثة غرابيل متفاوتة اتساع الخروق بعضها فوق بعض[2692]. ويقول بنيامين (ص 89) إن الغواص يستطيع أن يبقى تحت الماء من دقيقة إلى دقيقة ونصف.

وحكى كاتب صيني من أهل ذلك العصر فقال: «يُستعمل في استخراج اللؤلؤ ثلاثون أو أربعون قارباً، على كل منها نحو من اثني عشر بحاراً؛ ثم يأتي الغواصون وقد شدت الحبال على أجسامهم، وسُدّت أنوفهم وآذانهم بالشّمع الأصفر، ويُنْزَلون البحر على عمق مئتين أو ثلاثمئة قدم أو أزيد من ذلك؛ وتكون الحبال مُثَبَّتة إلى القارب، فإذا أشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبوه إلى السّطح، ويكون قد سُخِّن له غطاء ليّن في الماء المغلي، فيُلقى عليه بمجرّد خروجه من الماء، لئلا تصيبه النّوبات، فيموت. والغوّاصون عرضة لأن تهجم عليهم الأسماك الكبيرة ووحوش البحر، فتمزّق أجسامهم أو تكسر أعضاءهم؛ وفي كثير من الأحيان يحرك الغواص حبله، فيجذبه الرّجل الذي على ظهر المركب فلا يستطيع، وعند ذلك يأتي البحارة جميعاً ويجذبونه بكل قوتهم، فيخرجونه وقد عضّ ساقه وحش من وحوش البحر. وتعتبر اللؤلؤة بالإجمال ذات قيمة إذا كانت مستديرة تمام الاستدارة، دليل ذلك أن تظل متدحرجة نهاراً كاملاً على سطح مستو توضع عليه. ومن عادة التّجار الأجانب الذين يقصدون الصّين أن يخبئوا اللؤلؤ في بطائن ملابسهم أو مقابض مظلّاتهم هرباً من دفع المُكوس»[2693].

ويحكي لنا الرّحالة الصّيني چانغ تي Chang-te الذي سافر في 1259 م من الصّين نحو الغرب، وهو رحّال قد جمع معلومات جيّدة عن استخراج اللؤلؤ ما يأتي: «يدخل الغوّاصون على اللؤلؤ في أكياس من الجلد بحيث لا تكون طليقة إلا أيديهم، وتُربط الحبال حول أوساطهم، ثم ينزلونهم، وهم على هذه الحال إلى قعر البحر، فيجمعون اللؤلؤ وما يحيط به من رمل ويضعونه في المخلاة؛ وكثيراً ما يهجم عليهم وحوش البحر تحت الماء، فيقذفون عليها الخلّ ليخيفونها؛ فإذا ملأوا مخاليهم بأصداف اللؤلؤ أشاروا لمن على ظهر المراكب بتحريك الحبال؛ فعند ذلك يجذبونهم إلى السّطح، وكثيراً ما يحدث أن يهلك هؤلاء الغوّاصة، وهم في أعماق البحر»[2694].

وكان تجار العرب يشترون العاج من بلاد الزّنج (أفريقيا الشّرقية)، ويحملونه إلى الصّين[2695]. وكان يُدفع لأجله أكثر من العاج الذي يُجلب من بلاد أنّام Annam أو من تونكينغ Tongking، وكان يؤخذ من أنياب صغيرة محمرّة اللون[2696]؛ ويؤكد المسعودي أنه لولا تصدير العاج إلى عُمان والهند والصّين لكان كثيراً في بلاد الإسلام[2697].

وكان يجلب من بلاد الزّنج أيضاً الذّبل Tortoise-shell، وهو دَرَق السّلاحف، ومنه كانت تُصنع أحسن الأمشاط؛ فأما العادية منها فكانت تصنع من القرون.

والزنج فوق ذلك هم أصحاب جلود النّمور الحمر، وهي أكبر ما يكون من جلود النّمور، ومن أحسنها يُتَّخَذ غطاءُ السّروج[2698].

وكان الزّنوج بوجه الإجمال هم الذين يمدّون غرب آسيا كله بالجلود؛ ويظهر أن أهل مصر والشّام تعلموا من الزّنوج ما نبغوا فيه من حسن صناعة الأديم[2699]. وقد كان البِشاري المقدسي في عدن بجنوبي جزيرة العرب، وكان قد تعلم تجليد الكتب على طريقة أهل الشّام؛ وهو يفتخر بأنه ربّما كان يُعطى على تجليد المصحف دينارين[2700].

ومن الطّريف أن نلاحظ أن الطّريقة التي تُجلد بها كتبنا اليوم، والتي حلت محل الأدراج المطوية القديمة، إنما كان منشؤها في القارة السّوداء. وفي القرن الثّالث الهجري كان عند أهل الإسلام أشياء مثل ذلك، أخذت عن السّود، «وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا؛ منها الغالية، وهي أطيب الطّيب وأفخره وأكرمه؛ ومنها النّعش، وهو أستر للنّساء؛ ومنها المصحف، وهو أوقى لما فيه، وأحصن له وأبهى»[2701].

أما غابات الخشب فكانت قد خفَّت في غرب الدّولة الإسلامية منذ القدم، ولم يكن بالمشرق غابات إلا في الأجزاء المتطرّفة؛ وقد ذكرنا فيما تقدم عند الكلام عن الفضّة أن يعمل في معدنها بجهة باذغيش (الأفغان) قد تعطل لفناء الحطب، «أراضي بُخارى كلها قريبة إلى الماء، ولذلك لا تنبت الأشجار العالية فيها»[2702]. أما حشيش هذه البلاد فهو عجيب في طوله بحيث تغيب فيه الدّوابّ[2703]. وقد عوَّض ذلك على أهل هذه البلاد تجارةٌ عظيمة في الخشب؛ وكان خشب بوشنج، وخصوصاً خشب السّرو، لا يوجد مثله في بلد من البلدان بخُراسان[2704].

أما خشب بناء السّفن فكان يجلب من مدينة البندقية ومن صعيد مصر[2705]. وكان خشب السّاج الهندي يعدّ أحسن ما يستعمل في بناء البيوت ببغداد وبالمشرق كله؛ وكانت تصنع منه المقاطع الخشبيّة الزّخرفيّة لبيوت السّادة والكبراء، وكان خشب الصّنوبر يقوم هذا المقام في أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط. وكان حصن التّينات على مقربة من الإسكندرية مجمع خشب الصّنوبر الشّامي الذي كان ينقل إلى موانئ الشّام وإلى مصر وصقلية والثّغور[2706].

وكانت غابة الصّنوبر بطرطوشة Tortosa أشهر غاباته بالأندلس، وكان خشبها «أحمر صافي البشرة، رسمه لا يتغيّر سريعاً، ولا يفعل فيه السّوس؛ وكان خشب المسجد الجامع بقُرطُبة من عيدان

الصّنوبر الطّرطوشي»[2707].

وكانت غابات إقليم مازندان، التي لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم، تؤتي خشب الخلنج، وكانت العادة أن يُصنع منه أثاث المنازل في القرن الرّابع الهجري[2708]. وكان سكان الجبال بطبرستان يصنعون آنية وأطباقاً من خشب شديد الصّلابة عندهم[2709]؛ وكانت تصدَّر من مدينة قُمّ الكراسي الجيدة؛ وكان أهل السّيْرجان قصّبة كرمان في الجنوب، يقلّدون هذه الكراسي فلا يأتون بحُسنها[2710]. وكان أهل الرّيّ يصنعون الأطباق المدهَّنة[2711].

أما بلاد الإسلام التي كانت أمور الرّي فيها ذات مشكلات عسيرة تحتاج إلى الحلّ فقد كانت مصر واليمن والعراق وشمال شرقي فارس وأفغانستان وما وراء النّهر؛ وكان التّشريع الخاص بتنظيم الرّيّ متشعَّبا يشتمل مجموعة قوانين دقيقة معقدة، ولكنها جميعاً تتفق في قاعدة شرعية واحدة، هي أن الماء لا يجوز أن يشترى أو يباع؛ وعلى هذا فلم يكن يجوز للدّولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الرّي وحدها سبيلاً للكسب أو التّجارة[2712].

وإن الجزء الأكبر من التّشريع الأوروبي الخاص بالماء مقتبس من التّشريع الشّرقي. ولقد كانت طرق الرّي ووسائله متنوعة بتنوع البلاد، ولكننا للأسف لا نعرف إلا القليل من المعلومات الصّحيحة فيما يتعلّق بذلك، فلا نستطيع أن نبين علاقاتها بعضها ببعض؛ وكما لا نستطيع أن نقرّر ما إذا كانت كلها متفرّعة من أصل واحد أخذت منه.

أما في العراق فكان من واجبات الدّولة أن تسهر على صيانة السّدود والمسَنّيات والبثوق[2713]. وكان ثمّ لهذا الغرض طائفةٌ قائمة بذاتها من العُمّال يسمّون المهندسين. وكانت المحافظة على السّدود أمراً شاقاً، لأنها كانت تُبنى من قصب وتراب، فربّما أفسد في ساعة تعبَ سنة أو نحوها»[2714].

وكان السُّلطان مُعزّ الدّولة بن بُوَيْه حاكماً قديراً، فاعتنى بأمر السّدود عناية كبيرة؛ حتى إنه لما انبثق أحد السّدود خرج للعمل فيه بنفسه، وضرب لعسكره المثل بنفسه، وذلك بأن حمل التّراب في طرف ثوبه، فحذا حذوه الجميع، وانسدَّ البثق[2715].

وكانت القوانين المتعلّقة بتنظيم الماء في شرق فارس متشعّبة كل التّشعُّب؛ فكان في مرو ديوانٌ يسمّى «ديوان الماء»[2716]، وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل؛ وكان منصبه أرقى من منصب صاحب المعونة (الشّرطة) في تلك المدينة[2717].

وكان الماء يُقاس من ثقب طوله شعيرة وعرضه شعيرة، وكان شرب اليوم والليلة ينقسم إلى ستين جزءاً[2718].

وكان مقياس ارتفاع النّهر يقع على مسافة فرسخ من المدينة؛ وكان عبارة عن لوح مُقام على النّهر مشقوق شقاً طولياً تتحرك عليه شعيرة، فربّما علا الماء حتى بلغ ارتفاعه ستين شعيرة، فتكون السّنة

سنة خصبة، ويستبشر النّاس بذلك، ويُزاد مقدار ما يُفرق عليهم؛ وإذا بلغ الارتفاع ست شعيرات فقط كانت سنة قحط. والمتولّي للسّدّ يلاحظ ارتفاع الماء، ويُنْفِذ سُعَاتَه بذلك إلى ديوان النّهر، فينفذ صاحبهُ الرّسل إلى جميع من يتولون شعب الأنهار، فيقسمون الماء حسب ارتفاعه؛ «وكان على السّدّ الذي أُقيم جنوب مرو أربعمئة غوّاص، يراعونه في ليلهم ونهارهم، وربّما احتاجوا دخول الماء في البرد الشّديد، فيطلون أنفسهم بالشّمع. وعلى كل رجل منهم قَطْعُ الخشب وجَمْعُ الشّوك بشيء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة»[2719].

وكانت الأقاليم الواقعة شرقي فارس البعيدة عن مجاري المياه الكبرى تُروى بطريقة مبتكرة متقنة الصّنع: لم يكن في هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار؛ فلم يكن بد من جمع هذا الماء والماء المستخرج من الأرض إلى آخر نقطة، ثم يستعمل النّظام المعروف اليوم بنظام كاريس Karis؛ وذلك بأن تُعمل في جوف الأرض قنواتٌ معقودة عليها قناطر، وقد بلغ طول إحدى هذه القنوات اليوم خمسين كيلومتراً في حدّها الأقصى؛ وكان بمدينة قمّ قنطرةٌ من هذا النّوع. وكانت نيسابور خاصّة مشهورة بقنواتها التي تجري تحت الأرض؛ حتى ينزل الإنسان إليها على مراقٍ ربّما يبلغ عددها السّبعين؛ وهي تسقي ضياع البلد، وتمدّ أهلها بماء للشّرب نظيف بارد في الصّيف[2720].

وكان هذا التّنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة؛ فكان لا بدّ للقائمين به أن يعالجوا الطّبقات الأرضية التي يجري عليها الماء في المواضع التي يجدون فيها أرضاً لا يخترقها الماء، كما كان لا بدّ لهم من أن يجعلوا لهذه الطّبقات ميلاً يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده[2721]. وكان يستعمل من الآلات المائية الدّولاب والدّالية والغرَّافة والزّرنوق والنّاعورة والمنجنون[2722]؛ وكان الزّرنوق عبارة عن آلة بسيطة مركّبة على بئر؛ وفي المدينة مثلاً كانت تجرّها النّواضح[2723]، أما الدّالية فكانت آلة ترفع الماء وتديرها البقر؛ والنّاعورة كانت تركّب على الأنهار ويديرها الماء[2724]. وأما الدّولاب فهو الاسم العجمي للآلة المسمّاة عند اليونان منجنون، ويظهر أن النّاعورة لم تكن مستعملة في غرب العراق[2725].

وكانت جميع السّدود التي تقام على الأنهار تنقصها الصّلابة، لأنها كانت تصنع من الخشب، حتى سدّ بُخارى المشهور. أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من منطقة التّحضير الإيراني، أي خوزستان وفارس، فقد كانت تمتاز ببناء السّدود الحجرية. وكان يقع إلى جنوب تُسْتَر الشّاذوران المشهور الذي يبلغ طوله بحسب تقدير العرب ألف ذراع، وبحسب تقدير الأوروبيين ستمئة خطوة، والذي جاء في الرّوايات أن سابور الأول ملك العجم أمر أسيره الإمبراطور الرُّوماني اليريانوس Valerianus ببنائه[2726]. وكانت مهمّة هذا الشّاذوران أن يفصل من نهر دجيل نهرَ مَشْرُقان.

وفي القرن الرّابع الهجري بنى عضد الدّولة سِكراً عظيماً يعدّ من عجائب بلاد العجم، وذلك على نهر الكرّ. وكان السِّكْر عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرّصاص، بناه في عرض النّهر، فتبحَّر الماء خلفه وارتفع، فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب، وتحت كل دولاب رحى؛ وأجرى عضد الدّولة الماء في قنوات، فسقى ثلاثمئة قرية[2727]. وكان لهذا الشّاذوران أبواب تفتح إذا كثر الماء.

ويُسمع للماء المنحدر صوت يمنع من النّوم، وزيادته تكون في الشّتاء لأنه من الأمطار لا من الثّلوج»[2728].

أما في اليمن حيث لا بدّ من جمع الماء الجاري للاستعمال فكانوا يبنون المصانع وهي عبارة عن غُدُر مرصوفة من جوانبها بالصّفا[2729].

أما في المناطق الجبلية مثل صنعاء، فكانوا يبنون سدوداً لها فتحات في أسفلها، يجري منها الماء ويوزّع في قنوات صغيرة. وكانت هذه الطّريقة ممّا اختصّت به اليمن، حتى إن ابن رُستِه أراد أن يزيد في البيان لقارئه فوصفها وصفاً كافياً[2730].

وأما بلاد ما وراء النّهر فكان بها أفضل مادة لعمل القنوات، وهي نوع من الطّين، إذا نُدِّي بالماء صار ليناً، كالطّين الذي تصنع منه أواني الفخار، وإذا جفف في الشّمس عاد صلباً كالحجر، وهو الطّين الأصفر الذي كان يستعمله مهرة الأكرة الصّينيين. وقد أفصح الكتاب عن عجبهم من جودة القنوات التي استطاع الأكرة أن يعملوها بمجرّد استعمال فؤوسهم ومن غير استعانة بآلة يقيسون بها استواء الأرض «ولإخصائييهم المسمَّين بالأستاذين دربة عجيبة تمكنهم من التّفطن للتّميز بين أقل درجات الميل ممّا لا يفطن له النّاظر العادي قط»[2731].

وممّا هو جدير بالملاحظة في إنشاء هذه القنوات أن الأرض هنا ليست سهليّة كأرض مصر والعراق، بل هي أرض جبلية، وهذا يجعل العمل شاقاً جداً. وتقع هذه القنوات على ارتفاعات متفاوتة كبيرة، ويقطع بعضها بعضاً في كثير من الأحيان، وفي هذه الحالة يسير الأعلى منها فوق الأسفل في قنوات خشبية محمولة؛ ولم يكن نظام محاور جريان الماء معروفاً[2732].

وكان للماء في هذه البلاد تشريع قديم، لم يتعرّض له المسلمون، بل تركوه جارياً؛ وأراد الرّوس أن يغيّروه، فكان الغرم عليهم. وكان الموضع القديم لهذا النّظام هو وادي فرغانة، وهو يقع على خط عرض إلى جنوب خطوط العرض التي تقع عليها إيطاليا الجنوبية؛ ولكنه في وسط القارة، فكانت حرارته تقارب حرارة الأقاليم الاستوائية.

وعرض هذا الوادي يقرب من مئة كيلومتر، في أعرض أجزائه؛ وهو بين جبال يتراوح ارتفاعها بين أربعة آلاف وسبعة آلاف متر، وتنحدر من ثلوجها في الصّيف جداول تروي البلاد؛ والمراعي هناك تسمَّد، وتكون الحقول مغطاة بالماء والوحل، بل تنثر عليها مواد كيماوية معدنية. وكان عُمّال ديوان الماء ينتخبهم الأكرة أنفسهم، وكان لهم نصيب من الرّيع؛ وكانت القاعدة الأساسية في الرّي هي تحويل ماء النّهيرات بإنشاء سدود، حتى لا تصل مياه النّهيرات إلى النّهر الأكبر في الوادي، بل تفيض على ما حولها؛ ويُعْمد في بناء هذه السّدود - كما هو الحال في سدود أفغانستان - ألا تكون قوية راسخة، حتى يكتسحها الماء، إن زاد، فتنجو البلاد من الغرق؛ ويراعى في هذه القنوات أن يكون انحدارها يسيراً في أعاليها، ثم يُجعل انحدارُها كبيراً عند اقترابها من الوادي، لكي تُستعمل قون جريان مائها في إدارة الطّواحين[2733]؛ وفي القرن الرّابع الهجري كان ببلاد ما وراء النّهر كرومٌ وضياع قد أزيل عنها الخَراج وجُعل على أهلها مكانه إصلاح سكور الأنهار.

والجزء المنزوع في أفغانستان لا يتعدى دلتا نهر هندوند (هلمند) Hilmand، وهذا النّهر - كنهر الأردن - وهو كجميع أنهار فارس - ما عدا واحداً - لا ينتهي إلى بحر يصبّ فيه، بل يتلاشى في مستنقعات واسعة. وهذا النّهر، كغيره من الأنهار التي تسير في أراض رملية في الصّحراء، قد غيَّر مجراه مرّات كثيرة، فنشأت عن ذلك مشكلات خاصّة يواجهها القائمون بأمور الرّي، وقد ذكر الميجر سايكس Major Sykes أنه وجد هذا النّهر في أوائل أبريل يبلغ عرضه عرض نهر الثّايمز Thames عند لندن[2734]. ويتفرع من نهر هندوند نهيرات كثيرة؛ وقد بُني في آخره سِكْرٌ، ليمنع الماء من أن يجري إلى بحيرة، فإذا ذابت الثّلوج وجاء الفيضان اخترق السِّكْر، ووقع فضلُ ماء هذا النّهر إلى البحيرة[2735]؛ فلم يكن هذا السّدّ متيناً، ولعله كان قد بني، كما بني اليوم السّد الكبير في بنْدي سيْستان Bend-i-Seistan؛ فقد قام ببنائه نحوٌ من ألف عامل، وجيء بأعمدةٍ من شجر اللبخ، فَرُصَّت بعضها إلى جانب بعض، ونُسجت فيما بينها غصون نبات متشابك، ثم غُطِّي ذلك بالحصر الخشنة، وطليت الفتحات بالجصّ[2736].

وكان على نهر النّيل في جزئه الأدنى سدَّان في القرن الرّابع أحدهما بعين شمس، وكان سداً مَبْنِيًّا بالحلفاء والتّراب، وكان يُقام قبل زيادة النّيل، فإذا أقبل الماء ردَّه السّد، وعلا الماء، فسقى ما وراء السّدّ من الضّياع، «فإذا كان يوم عيد الصّليب، وقتَ انتهاء حلاوة العنب، خرج السُّلطان إلى عين شمس، فأمر بفتح هذه التّرعة، وقد سد النّاس أفواه أنهارهم؛ حتى لا يخرج الماء منها، فينحدر الماء بعد فتح السّد إلى بقية أرض الدّلتا». أما السّد الآخر فكان أعظمَ بناء، وهو يقع بسردوس، أسفل عين شمس، ويبين بفتحه النّقصان في النّيل.

وكان مقياس ارتفاع ماء النّيل منذ أقدم العصور عموداً طويلاً، عليه علامات الأذرع والأصابع، وهو يقوم وسط بركة يجري فيها الماء، وكان أهم مقاييس مصر المقياس الذي في جزيرة الرّوضة بمصر القديمة، وكان عليه عامل يرفع للسّلطان في كل يوم مقدار الزّيادة، فإذا بلغت الزّيادة اثني عشر ذراعاً نادى المنادي: «زاد الله اليوم في النّيل المبارك كذا وكذا، وكانت زيادته عام أول في هذا اليوم كذا وكذا، وعلى الله التّمام»[2737]. ولما أمر المتوكّل عام 247 هـ - 861 م بابتناء المقياس الهاشمي كانت علامةُ وفاء النّيل ستة عشر ذراعاً أن يُسْبَلَ السُّتر الخليفي الأسود على شبابيك المقياس، فإذا شاهده النّاس استبشروا بسنة خصب وإقبال[2738].

وفي أيام زيادة النّيل تتبحّر مصر، حتى لا يمكن الذّهاب من ضيعة إلى أخرى في بعض المواضع إلا في الزّواريق[2739]. وكان النّاس يجهزون حاجاتهم الضّرورية مدّة الشّهور الأربعة التي تكون البلاد فيها مغمورة بالماء، وكانوا يخبزون من الخبز ما يكفيهم مدّة الفيضان ويجففونه حتى لا يتعفّن[2740].

وكان يُستعمل في قسمة الماء بجميع البلاد الجهاز المائي الذي يسمّى بالعجمية الطّرجهارة، وكان بمدينة بيار (بشمال إيران) طرجهارة نحاسية، وكذلك بأرَّجان بفارس[2741]، وبشمال أفريقيا، وكان «شِرْب مدينة توزر (بإحدى واحات الصّحراء الكبرى الإفريقية) من ثلاثة أنهار تنقسم بعد اجتماع مياه تلك الرّمال بموضع يسمّى وادي الجمال... ثم ينقسم كل نهر منها إلى ستة جداول، وتتشعَّب من تلك الجداول سواق لا تحصى كثرة، تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمةٍ عدلٍ، لا يزيد

بعضها عن بعض شيئاً، كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع متر، يلزم من سقي منها أربعة أقداس مثقالٌ في العام، وبحساب ذلك في الأكثر والأقل، وهو أن يعمد الذي تكون له دولةُ السّقي إلى قدس، في أسفله ثقبة بمقدار ما يسدّها وَتَر قوس النّدَّاف، فيملؤه بالماء، ويعلّقه، ويسقي حائطه أو بُستانه من تلك الجداول، حتى ينفد ماء القدس، ثم يملؤه ثانياً، وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو مئة واثنان وتسعون قدساً»[2742].

ولم تكن محاربة طغيان الرّمال إلا في أفغانستان؛ وكان لأهل هذه البلاد علم خاص بكيفية مقاومة فيضان الرّمال، فقد كانت أرض تلك البلاد سبخة ورمالاً، ورياحهم تشتد وتدوم، وكانوا إذا أحبوا نقل الرّمال من مكان إلى مكان جعلوا مثل الحائط مثل الحائط من خشب وشوك وغيرهما، حتى يعلو على ذلك الرّمل، وفتحوا في أسفله باب، فيدخله الرّيح، ويطير الرّمل على أعلاه مثل الزّوبعة. وفي سنة 359 هـ - 970 م تواترت الرُّياح عليهم بما لم يعهدوا مثله، وأكبَّت الرُّياح على الجامع فملأته بالرّمل؛ وتزايد البلاء على البلد، حتى ابتدر حَدَثٌ، وطلب عشرين ألف درهم لدفعه؛ حتى حوَّل مجرى الرّيح[2743].

وقد كانت الزّراعة في الدّولة الإسلامية متنوعة الصّور، حتى كاد كل وادٍ أو قرية يكون منفرداً بشيء ابتدعه، ففي إقليم أردبيل (بين تبريز وبحر الخزر) – مثلاً - كانوا يحرثون الأرض على ثمانٍ من البقر، لكل اثنتين منها سائق؛ ولم يكن ذلك لصلابة في الأرض، بل لأنها كانت متجمّدة. أما بمدينة أبرقوة بفارس فكان أهلها لا على البقر، مع كثرتها في بلادهم[2744].

وكان يُعتنى بتسميد الأرض عناية كبيرة في جميع البلاد، وكانوا يستعملون في ذلك ما يخرج من ورث البقر والغنم وما يخرج من فضلات الإنسان أيضاً؛ وكان الأول يباع في العراق بالسّابل. وكان للفضلات البشرية قيمةٌ في البصرة، كما تقدّم القول[2745]. وكان النّاس في ناحية سيراف، أي في مدينتي كُران وأراهمستان، يزرعون النّخل في حفر عميقة، حتى لا يظهر من النّخلة على وجه الأرض إلا أعلاها. وكان ماء الشّتاء يتجمع في هذه الحفر، ويروي النّخل. وكذلك كان إذا سئل أحد: أين ينبت النّخل في الآبار؟ أجاب: بأراهستان[2746].

ولم تكن تُعرف بالدّولة الإسلامية كلّها الأشباحُ التي يُطرد بها الطُّير عن المزارع، وهي ليست معروفة اليوم أيضاً. فكان بالعراق أبناء القرامطة هم الذين يطردون الطّير من الحقول، وكانوا يُعطون على ذلك أجراً، فيدفعونه لجماعتهم[2747]. أما في تُركستان في أيامنا «فإن أهل البلاد يعملون على حماية مزارعهم وبساتينهم من الطّيور بأن يقيموا ربوة من الطّين، ارتفاعها نحو مترين في وسط كل حقل، وعلى هذه الرّبوة صبيان عُراة أو أنصاف عراة. عملُهم طول النّهار وفي الشّمس المحرقة طردُ الطّيور، بان يصيحوا عليها أو يقذفونها بأكرمن الطّين، أو بأن يضربوا طبلاً أو وعاء معدنياً قديماً، وفي الصّيف عندما ينتشر هؤلاء الصّبيان اثنان أو ثلاثة في كل حقل أو حديقة، وكل منهم يحاول أن يتفوّق على الآخر، عند ذلك تسود المزارع من الصّباح إلى المساء ضوضاءُ مزعجة، يكاد الإنسان منها يُجَن»[2748].

أما فيما يتعلق بمَرَّاكش، فيستطيع القارئ أن يراجع وصف الرّسام الألماني فرانْتس بوخسر Franz Buchser في كتابه «صور مغربيّة» Marokkanische Bilder لذلك[2749].

وكانت العراق في القرن الرّابع الهجري لا تزال بلاداً تُرَبِّي البقر؛ وكان الأنباط المقيمون هناك يُعرَفون بأنهم «فرسان البقر» Cow-knights ولم يتغلّب الجاموس في هذه البلاد إلا لما زادت البطائح والمستنقعات. وقد جلب العربُ الجاموسَ من الهند؛ وهي موطنه الأصلي، ثم نُقل في عهد بني أميَّة من السِّند إلى بطائح العراق؛ بل يذكر أن الحكومة وضعت أربعة آلاف من الجواميس على حدود الشّام من الشّمال، لأن النّاس شكوا من كثرة هجوم السّباع عليهم، وكان الجاموس يعدّ أكبر عدو للأسود. غير أنّ المسعودي يحدّثنا في أوائل القرن الرّابع الهجري أن طريقة استخدام الجاموس للعمل بأنطاكية هي طريقة أهل الهند[2750]. ثم إن عرب الشّام نقلوا هذا الحيوان الذي يحبّ المستنقعات إلى ايطاليا والأندلس.

وكان النّاس في القرن الثّاني الهجري في العراق يأكلون لحم البقر، ثم تركوا ذلك[2751]، وكانوا يربّون البقر لأجل لبنها[2752]، أما لحمها فكان يعدّ ضارًّا[2753]، بل كان الأطباء يعدّونه سامًّا؛ وكان أبو بكر محمّد بن زكريّا الرّازي الطّبيب لا يوصي إلا بلبن البقر ولحم الضّأن[2754]. وقد حكى ابن رُستِه حوالي عام 300 هـ / 912 م مظهراً دهشته من أن أهل اليمن يفضّلون لحم البقر على لحم الضّأن السّمين[2755]، وأهل اليمن إلى اليوم يعدّون أن من التّحقير تقديم لحم البقر، حتى للخدم[2756]. ولم يذكر استيراد الحيوانات للذّبح إلا بمصر، فكانت تجتلب السّائمة من برقة[2757].

وكانت جزيرة العرب خير منبت للجِمال ذات السّنام الواحد، ويدلّ ما ذكره علماء اللغة في معاجمهم عن الجمل على مقدار مبالغة العرب وشدّة مهارتهم في الاستفادة من أصغر غريزة أو حركة لهذا الحيوان أو في تغييرها أو اقتلاعها، وذلك لمصلحة الإنسان. وقد كان الجمل موضوعاً نمت عليه دقة العقل العربي نمواً كبيراً.

وكانت بَلْخ مشهورة بالْجِمال ذات السّنامين، وهي المسمّاة بالجمال البخت، وهي أفضل من كل ما عداها[2758]. وكان يجلب من السِّند الفالج الذي يولّد البخاتي، وله سنامان، وهو أعظم من البخت، لا يستعمل، ولا يملكه إلا الملوك[2759]. والبخاتي والجمّازات السّريعة الجري تُوَلّد من المزاوجة بين هذه الفوالج البَلْخية وبين النّوق العربية؛ ولكن هذه البخاتي والجمازات لا تتزاوج بل تظل عقيمة[2760].

وكانت الخيل تُرَبَّى في بلاد كثيرة، وكان لكل من العرب والعجم في أمر الخيل تقاليد خاصّة وضرب خاص في حفظ أنساب الخيل. وكانت الخيل الأصيلة الكريمة تجلب إلى بغداد من جزيرة العرب، أما الخيل العادية فكانت تأتي من الموصل[2761]. وتجارة الخيل، التي لها شأن عظيم في أيامنا بين الهند وجزيرة العرب، أول من ذكرها - فيما أعلم - الرّحالة ماركو بولو Marco Polo، وكانت بحق أهم علاقة تجارية بين البلدين، وهو يذكر أن الحصان كان يشترى بمئة مارك فضّة. وكان يُجلب إلى الهند من الخيل في كل عام خمسة آلاف، لا يبقى منها بعد الحول إلا ثلاثمئة أحياء، وهو يعلل ذلك بأن هواء بلاد الهند لا يلائم الخيل، ولذلك فإنها لا تربّى هناك، وتصعب المحافظة

عليها من الهلاك، وهم يطعمونها الأرز مع اللحم المطبوخ، وإذا وقع حصان جميل على فرس كبير ببلاد الهند لم يلد إلا فلواً قبيح الصّورة معوجّ الأرجل لا يصلح للرّكوب[2762].

وفي بعض جهات شمال أفريقيا، كسجلماسة، كان النّاس لا يزالون يحتفظون بعادة قديمة جداً، وهي أنهم يسمّنون الكلاب ويأكلونها[2763].

وكانت مصر من القدم مشهورة بتربية الفراخ تربية صناعية، وخصوصاً بطريقة التّرقيد الصّناعي التي برعوا فيها، ويظهر أن هذه الطّريقة لم تنتقل إلى غير مصر من البلاد، حتى نرى عبد اللطيف البغدادي يصفها عام 1200 م، بأنها من الأشياء التي اختصّت بها مصر [2764].

وكان الحَمام يحفظ في أبراج تبنى له وقايةً من الأفاعي وغيرها من الحيوانات الضّارة[2765] وكان لا يؤكل، وذلك لأن زبله كان له قيمة كبيرة في التّسميد. أما فيما يتعلّق بتربية الأسماك فليس عندي إلا ملاحظة واحدة، وهي أنه كان ببحيرة طبريّة أنواع من السّمك، منه البنّي الذي حُمل إليها من واسط[2766].

الفصل الخَامِس وَالعشرون
الصّناعة

Die Industrie

بالنّسبة لسكّان الشّرق الأوسط، كان اللباس أهم الاحتياجات الثّلاثة الأساسية التي يحتاج إليها جسم الإنسان، وهي: الغذاء واللّباس والمسكن؛ وكانت صناعة الملابس من أرقى الصّنائع، وكانت زينة البيوت في داخلها عبارة عن ستور ملوَّنة تعلَّق على حيطانها. وكان أهم معالم التّرف عندهم أن يكون الإنسان حسن الملبس؛ وحُسن المسكن بأن تكون حيطانه معلقاً عليها سُتور مؤنقة، وأرضه مفروشة بالبُسُط. ويحكي عن الطّوسي الزّاهد (توفي عام 344 هـ - 955 م) أنه لم يكن له فِراش[2767]. ولهذا كانت صناعة البسط والسّجاجيد منتشرة في جميع البلاد.

وكانت النّماذج الصّناعية لكل بلد أشبه بجزء من اللباس القومي الذي تختص به. وكان الجائل في أنحاء الدّولة الإسلامية يستطيع أن يعرف في أي بلد هو، وذلك بالنّظر إلى ما على حيطان الغرف من أنواع السّتور، وكانت السّجاجيد في ذلك العصر ثلاثة أقسام: أولها السّتور المعلقة على الحيطان، وثانيها البسط والأنخاخ التي تفرش بها أرض الغرف والصّحون والممرات، وثالثها الأنماط، وهي تُفرش على الأرض للنّظر دون الوطء[2768]. ويضاف إلى ذلك أنواع أخرى صغيرة، منها سجاجيد الصّلاة والأغطية والمخادّ والنّمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد[2769].

وبالرغم من أن القطن كان يزرع بمصر العليا منذ زمان طويل[2770]، فإنه لم يذكر بين حاصلات مصر في القرن الرّابع الهجري، ويظهر أنه لم يكن له شأن في هذه البلاد التي تنبت اليوم أحسن أنواع القطن[2771].

وكان الكتّان هو القماش الذي اختصّت به مصر؛ وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته وكان يصدر إلى النّواحي، حتى ربّما بلغ فارس[2772]. وكانت الأجساد المحنَّطة تلفّ دائما بقماش الكتّان.

وكانت صناعة النّسيج من الرّقيّ، بحيث أمكن صنع بعض الأقمشة الصُّوفية أيضاً[2773]؛ فكانت تُصنع بمدينة طحا، إحدى قرى الصّعيد، ثياب الصّوف الرّفيعة[2774]. وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتّان هما الفيوم، وبحيرة تنّيس بنواحيها وهي: مدينة تنِّيس ودمياط وشطا ودبيق؛ وكانت هذه المدينة الأخيرة في أول الأمر أكبر المدن التي تصنع النّسيج، لأنه كان ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمّى بالدّبيقي. أما في القرن الرّابع فقد أصبحت تنِّيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النّسيج.

وكان القماش الذي يُصنع بمصر هو قماش الكتّان الأبيض الذي لا تلوين فيه، حتى كان يقال في العصر الأموي إن الأقمشة المصرية كالغشاء على البيض، أما اليمنية فهي كأزهار الرّبيع[2775]. كل زنة درهم بدرهم فضّة[2776].

وكان القماش المسمّى بالدّبيقي الثّقيل جيد النّسيج، إذا انشق كان له صوت عالٍ، شبّه بعض المُجّان به الضُّراط العالي[2777]، وكان هذا القماش يستعمل في رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشمَّعة[2778]. وربّما بلغ ثمن الثّوب من هذا الدّبيقي مئة دينار، فإذا كان به ذهب بلغ المئتين[2779].

وكان الثّوب الفخم الذي نبغ في صناعته أهل تنيس يسمّى البدنة، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذّهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمته ألف دينار [2780].

وكان يصنع بالفيوم السّتور الثّمينة، يبلغ طول السّتر ثلاثين ذراعاً أو أكثر أو أقل، وقيمة الزّوج منها ثلاثمئة دينار [2781].

ولم يكن يستحسن للظرفاء من الرّجال في القرن الرّابع الهجري لبس الثياب الفاقعة الألوان، وكان أول ما يحسن لهم اتخاذه من اللباس الكتّان النّاعم النّقي اللون، مثل الدّبيقي[2782].

وحتى عام 360 هـ - 971 م كانت تنيس تصدر للعراق وحدَها من الأقمشة ما تبلغ قيمته من عشرين ألف إلى ثلاثين[2783]، ولكن لما انتقلت مصر إلى أيدي الفاطميين منعوا الإصدار [2784]، ولذلك شاعت بمصر العمائم الدّبيقية الطّويلة التي يبلغ طول الواحدة منها مئة ذراع، وظلّت منذ عام 365 إلى 385 هـ (976-995 م)[2785].

وكان يوجد إلى جانب هذه الثّياب الجيدة ثيابٌ رقيقة «مهلهلة النّسج، كأنها المُنخل[2786] وهي المسماة بالقصب»، وكان هذا القصب يلوّن، وكان الملوّن منه يُنسج بتنيس، ولم يُنسج في أي مكان آخر قصبٌ ملوّن مثله، وكان يُعمل منه عمائم للرّجال، ورقايات وملابس للنّساء، أما الأبيض فكان يُنسج بدمياط[2787].

وفي القرن الخامس الهجري ظهر نوعٌ جديد من القماش وهو المسمّى أبا قلمون، وهو قماش يظهر للرّائي في ألوان متقلّبة، وكان يصنع في مدينة تنّيس وحدها[2788].

وكانت صناعة النّسيج في الدّلتا المصرية صناعة منزلية، فكان النّساء يغزلْن الكتّان، والرّجال ينسجونه، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم، ولم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا إلا للسّماسرة الذين تعينهم الحكومة، وكانت أجرة النّسّاج في أوائل القرن الثّالث الهجري نصف درهم كل يوم، «وكان ذلك لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله»: ويشبه هذا ما قاله أهل تنيس شاكين للبطريرك ديونيسيوس التَّلمحْري[2789] Dionysius von Tellamachre لمّا مر ببلدهم في ذلك العصر وكان ثمن قطعة القماش يرتفع ارتفاعاً باهظاً بسبب المُكوس والضّرائب المتنوعة[2790].

وكان للمشرق أيضاً مراكزه الخاصّة لنسيج الكتّان، وذلك بفارس، وكانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتّان مدينة كازرون، حتى كانت تسمّى «دمياط الأعاجم»[2791]. وكانت أنواع الأقمشة بفارس هي الأنواع المصرية من الدّبيقي والشّرب والقصب، ممّا يدلّ على صلة بين الصّناعتين بمصر وفارس. ويقول البِشاري المقدسي (ص 442) إنه تصنع بمدينة سينيز (إحدى المدن السّاحلية بفارس) ثياب تشاكل القصب، وإنه ربّما حمل إليهم الكتّان من مصر؛ أما في عصر المقدسي فهو يقول إن أكثر ما يعمل بسينيز من الذي يزرع عندهم، وفي كلام المقدسي هذا دليلٌ على أن صناعة نسج الكتّان نقلت إلى فارس من مصر، وكان الكتّان ينقل بطريق البحر، وكان في أول الأمر يصنع بالمدن السّاحلية مثل سينيز وجنابة وتوز، ولم تنتقل صناعته إلى داخل بلاد فارس إلا فيما بعد، عندما استقلت بلاد فارس بكتّانها عن مصر، ويسمّى أحسن الكتّان العجمي بالتّوّزي، نسبة إلى توَّز، وإن أكثره يُعمل بكازرون[2792].

وهاك ما ذكره ابن البَلْخي في وصفه لمملكة فارس حوالي عام 500 هـ - 1106 م عن كيفية صناعة الثّياب التّوزية بمدينة كازرون: يُبَلّ الكتّان في البرك، ثم يُفصل بعضه عن بعض، ويغزل؛ ثم تُغسل خيوطه في ماء نهر الرُّهبان، وماء هذا النّهر، وإن كان قليلا شحيحاً، فإن له خاصية تبييض خيوط

الكتّان، مع أنها لا تبيض في غيره من الماء؛ وهذا النّهر ملك لخزانة السُّلطان، ودخله يرد إلى بيت الأمير؛ ولذلك لا يُصرح بالغسل فيه إلا للنّساجين المكلفين بذلك، ويتولّى الإشراف عليه ناظره، وثَمَّ سماسرة يعيّنون الثّمن المعادل للأقمشة، ويختمون اللفائف المخزونة، قبل تسليمها للتّجار الأجانب؛ وكان هؤلاء يثقون بالسّماسرة، ويشترون اللفائف من غير أن يفكّوا حبالها، بل يأخذونها كما هي؛ وكانت إذا وصلت اللفائفُ إلى أي بلد اشتراها التّجار من غير أن يفتحوها، واكتفوا بمجرّد السّؤال عن شهادة السّمسار بكازرون؛ فكثيراً ما كان يحدث أن ينتقل الحمل من لفائف كازرون، حتى تتداولَه عَشْر أيْدٍ، من غير أن يُفك وثاقه، ولكن في هذه الأيام الأخيرة ظهر الغش، وصار النّاس خوَنة، وانعدمت الثّقة كلها؛ وكثيراً ما وُجدت البضائع المختومة بختم السُّلطان من نوع رديء، ولذلك انصرف التّجار عن بضائع كازرون[2793].

وإذا صرفنا النّظر عمّا تقدّم وجدنا أن مركز القطن في المشرق من مملكة الإسلام كمركز الكتّان في مغربها[2794]، بل كان القصب الذي يصنع بمدينة كازرون يعمل من القطن في كثير من الأحيان، وقد حُمل القطن من الهند إلى الشّمال مباشرة قبل أن ينقل غرباً أو شرقاً بزمن طويل، ولم يكن القطن معروفاً في الصّين في القرن الثّالث عشر الميلادي، وقد ذكر الرّحالة الصّيني تشانتشنُغ Chanchung حوالي عام 1221 م في وصفه لوادي إيلي وهو يقول: «وهناك نوع من القماش يسمّى لولوما، يقول النّاس إنه يصنع من صوف نبات، وهذا الصّوف يشبه زهر الكاتكن الذي نراه في مراعينا، وهو نقي ناعم لين، ومنه يصنعون الخيوط والحبال والقماش والأغطية»[2795].

وفي القرن الرّابع الهجري كان يصدر من مدينة كابُل ثياب من قطن مشهورة بحسنها، يعمل منها ما يسمّى السّبنيَّات التي كانت تحمل إلى الصّين وخُراسان[2796].

ولم يكن القطن يزرع بالعراق، وإنما نقل إليها من شمال فارس وممّا بين النّهرين[2797]، ولا تزال بلاد ما وراء النّهر تنتج من القطن ما تبلغ قيمته أربعمئة مليون مارك - وقد نشره فيما بين النّهرين أمراء الحمدانيين، على الرّغم ممّا عرف عنهم من الجور على الزّراع وعدم الأكتراث بالأشجار[2798]. وكذلك انتشر القطن في القرن الرّابع بشمال أفريقيا[2799]، والأندلس[2800].

أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع في شرق فارس، وهي مرو ونيسابور وبِمّ (بشرقي كرمان)؛ وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة، وكان من طرائف ما يعمل فيها الطّيالسة المقوَّرة التي تنسج برفارف، يبلغ الطّيلسان منها والشّرب الرّفيع ثلاثين ديناراً، وكانت تُحمل إلى أقطار الأرض، وتباع بمصر[2801]. وكان يُصنع في مرو القطن الذي يبلغ الغاية في اللين[2802]، وهو لا يمكن أن يُلبس لثقله وغلظه، ولذلك يسمّيه المُتنبّي لباس القرود[2803]. ويقول أبو القاسم لقوم يستقبحهم: «على أبدانكم ثيابُ بفت، من غزل البيت»[2804]. ولكنه كانت تتخذ منه العمائم[2805]. وكان يُحمل من الإقليم الذي يزرع فيه القطن بتُركستان الثِّياب القطنية[2806] إلى العراق، على حين أن الكتّان كان من أندر الأشياء ببلاد ما وراء النّهر؛ ويُروى عن إسماعيل السّاماني أنه أهدى لكل قائد في جيشه ثوباً من الكتّان كهدية قيّمة[2807].

أما صناعة الحرير فقد كانت، على عكس صناعة القطن، منتشرة من بيزنطة في الغرب إلى المشرق. وكان استيراد الدّيباج والبزيون والثّياب والأكسية الرُّومية لا يزال مستمرًّا في القرن الرّابع، وكان ذلك أهم ما يمرّ بمدينة أطرابزُنده[2808]؛ وكانت ديابيج الرُّوم مشهورة معروفة بجودتها في القرن الرّابع[2809]. وكانت أكبر مصانع نسج الحرير في ذلك العصر توجد بإقليم خوزستان، حيث نقل السّاسانيون هذه الصّناعة من بلاد الرُّوم؛ وكانت أنواع الحرير من ديباج وخَزّ وستور تُصنع هناك. أما صناعة الإبْرَيْسَم فكانت متركّزة في الشّمال على طريق الصّين القديم، فكانت تُصنع بمدينة مرو بإقليم طبرستان (الأراضي الجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر) ثياب الإبْرَيْسَم التي كانت تصدّر إلى جميع الآفاق[2810]، وكان أهل أرمينية يصنعون من هذا الإبْرَيْسَم التِّكك الأرمينية المشهورة، التي كانت تباع الواحدة منها بدينار إلى عشرة دنانير[2811]؛ والثّياب الحرير الثّقيلة التي كانت تصدرها طبرستان تدلّ على صلة قريبة بين صناعة الحرير بطبرستان وصناعته بالصّين، لأنها ثقيلة؛ أما الصّنّاع العجم فكانوا يؤثرون الأقمشة الرّفيعة الدّقيقة.

أما الفُرُش الصُّوفية فكان النّاس يميزون فيها بنوع خاص بين العجمية والأرمينية والبُخارية؛ وكانت البسط العجمية الحقيقية (المسماة بالبسط السّنيَّة) تعمل بفارس، وكان أحسنها ما يصنع على طريقة أهل سوسنجرد[2812]؛ وكان النّاس يقدمون البسط الأرمينية من آسيا الصّغرى على ما عداها من البسط[2813]، وعن هذه البسط أخذت صناعة البسط الأزميرية المشهورة عندنا، وقد وُصف أحد الخُلفاء، حتى في العصر الأموي، وهو الوليد بن يزيد، بأنه كان جالساً في بيت منجّد بالأرمنيِّ أرضه وحيطانه[2814]. وكانت الخيزران، أم الهادي والرّشيد، تجلس في دارها على بساط أرمنيّ، وعندها أمهات أولاد الخُلفاء وغيرهن من بنات هاشم على نمارق أرمينية[2815]. ولما مات الحسين ابن أحمد المعروف بابن الجصاص، وكان صاحب مالٍ وجوهر وأثاث، وكان أوسع أهل بغداد ثروة، حوالي عام 300 هـ - 912 م، كان من أهم ما ذُكر في جُملة ما احتوت عليه داره الفرش الأرمينية[2816]. وذكرت الفرش الأرمينية أيضاً من بين ما كان في خزائن أم المُقتدِر[2817]؛ ويُروى أن بعض عُمّال الخليفة أهدى إليه سبعة بُسط أرمينية في جُملة ما أهداه إليه[2818].

وكان يفضَّل من البسط العجمية ما هو أشبه بالأرميني في صناعته[2819]؛ وكانت توصف البسط العجمية التي تعمل بأصفهان والتي كان حسنها مشهوراً في الآفاق بأنها، إن استعملت مع الأرميني الفاخر من الفرش حَسُنت معه. وإن بُسطت وحدها اجتُزِىء بها[2820]. وقد قال ماركو بولو Marco Polo (ج 1 ص 3) إن الفرش الأرمينية أجمل الفرَش وأحسنها صناعة، وربّما كان سبب ذلك التّقدير للبسط الأرمينية جودة الصّوف الأرميني الذي يعدّه الثّعالبي أجود الصّوف بعد صوف مصر [2821].

وكان أحسنه الصّوف الأرميني الأحمر، ويقول المسعودي حوالي عام 332 هـ - 943 م إن الحمر استعماله في حالة الزّينة والطّرب وأوقات السّرور واستعمال النّساء والصّبيان، وإن حِسَّ البصر مشاكلٌ للون الحُمرة؛ إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر في إدراكها، ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه ابنساطَه في إدراك الحُمرة[2822].

وكان أهم ما ذكر ضمن خزائن الفرش والأمتعة بالقاهرة، في بعض العصور، الحمراءُ المُذهبة[2823]؛ وقيل في الفرش القرمزية التي كانت تعمل بمدينة أسيوط بصعيد مصر أنها تشبه الأرميني[2824]: أما الفرش المسماة بالطّنافس فهي تدلّ من اسمها على أثر الفن الرُّومي (وكلمة tapetes اللاتينية تقابل كلمة طنافس العربية)؛ ولا بدّ أنها كانت في أول الأمر تصنع بالعراق في مدينة الحيرة، وهي مدينة نصرانية قريبة من حدود الرُّوم؛ وذلك لأن الطّنافس التي كانت تُصنع فيما بعد في مدينة النُّعمانية كانت تسمّى الطّنافس الحيرية[2825]؛ وكانت الصّور التي ترسم عليها هي هي دائماً: الفيلة والخيل والجمال والسّباع والطّيور [2826].

وكانت الحصر تصنع في جميع أنحاء الدّولة الإسلامية من الحلفاء؛ وكان أشهرها ما يصنع بعَبادان، وهي مدينة في جزيرة على نهر شطّ العرب[2827]. وكانت حصرها تُقلّد في مصر وفارس[2828]. وكانت البلاد المشهورة تنقش على ما يصنع فيها عبارة: عمل مدينة كذا أو كذا، ليكون ذلك دليلا على أصلها. وهذا لم يمنع الغش بالطّبع؛ فمثلاً كانت بعض المدن التي لا شهرة لها تعمل ستوراً تشبه السّتور التي كانت تصنع بمدينة بِصِنيّ وتكتب عليها اسم بِصِنيّ، لتدلّسها في السّتور الجيدة، كما كانت بعض الثّياب تُعمل في خوزستان ويكتب عليها اسم بغداد على سبيل التّدليس[2829].

وقد ازدهرت بإقليم سابور من اعمال فارس صناعةٌ خاصّة تشبه الصّناعة التي اختصّت بها الرّيـ□ـيرا Riviera الفرنسية، وهي صناعة الرّوائح العطرية، وكانت الزّيوت العطرية في ذلك العصر تتخذ من البنفسج والنّيلوفر والنّرجس والكارده والسّوسن والزّنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنّارنج[2830].

وقد حاول البعض أن يقوم بهذه الصّناعة الغالية في العراق، فاستحدثت الكوفةُ دهانَ الخيري، وكانت في الخيري والبنفسج تفوق سابور [2831].

وكانت بمدينة جُور (تقع جنوب فارس) صناعة تشبه الصّناعة المتقدمة، ولكنها تنفصل عنها تمام الانفصال، فكان يحضَّر ماء الورد بمدينة جُور، وذلك من زهور غير الزّهور الأولى، مثل الورد والطّلع والقيصوم والزّعفران والخِلاف، وكان ينقل ماء الورد من جُور إلى سائر البلدان، فيُحمل إلى المغرب والأندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصّين[2832]. وهاتان الصّناعتان الهامتَّان لم يحدثنا الأقدمون بشيء عن أصلهما، لا بدّ أنهما نشأتا في العصر الإسلامي.

وصرنا لا نسمع شيئاً عن الطّاحون التي تُدار باليد وتحدث جعجعة، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى، بل كان على الأنهار أرحاء في سفن[2833]، وكان على النّهيرات الصّغيرة أرحاء مائية تدور [2834]، وكان على نهر الشّيطان وحده - وهو بجيرفت في كرمان - خمسون رحى[2835].

وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشكلات استخدام حركة الماء، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد، وكان الماء يزورهم كل يوم وليلة مرتين، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً؛ فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته

خارجاً وداخلاً[2836]، ولم يكن النّاس يستعملون الدّواب في إدارة الطّواحين إلا في الجهات التي ليس بها أنهار [2837].

وكان أهل مدينة «إيجلي» بمَرَّاكش يتهيّبون من تسخير الماء تورُّعاً «ولم يتّخذوا قط عليه رحى، فإذا سُئلوا عن المانع لهم من ذلك قالوا: كيف يسخَّر مثل هذا الماء العذب في إدارة الأرحاء»[2838].

وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة، لا على الفُرات، وذلك في تكريت والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد، وكان بعض الأرحاء المشهورة بالموصل وبمدينة بلد أيضاً، وكانت طواحين مدينة بلد هذه لها فصل تدور فيه، وهو المدّة التي تحمل فيها الحنطة في السّفن إلى العراق.

وقد وصلنا وصفُ مطاحن الموصل، فكانت تسمّى الواحدة منها عربة، وهي مصنوعة من الخشب والحديد، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حجران، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم[2839]. وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها رحى البطريق، فقد كانت مئة حجر تغلّ في كل سنة مئة ألف ألف درهم[2840]. ولم يحدثنا أحد من المؤلفين عن أرحاء نشر الخشب.

يُروى عن قاتل عُمر بن الخطّاب، وكان عجمياً من نهاوند، أنه قال: لو شئتُ أن أصنع رحى تطحن بالرّيح لفعلت[2841]. وفي القرن الرّابع الهجري / العاشر الميلادي كانت الرّياح تشتدّ بأفغانستان، ويدوم هبوبها دواماً غير مألوف، (وكانت تسمّى «باد صد وبيست روز»، لأنها تهبّ مئة وعشرين يوماً)؛ فنصب أهل هذه البلاد عليها أرحاء يسيّرونها بها[2842]، ولا تزال هذه الطّواحين إلى اليوم. «يبدأ هبوب الرّياح الشّمالية حوالي منتصف يونيو، ويستمرّ شهرين؛ وتنصب الطّواحين لأجلها خاصّة؛ وللرّحى ثمانية أجنحة، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسّهم؛ والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً، طرفه الأسفل يحرّك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر»[2843]. فهذه الرّحى طاحونة هوائية على الحقيقة.

وقد حكى الغزولي (توفي عام 815 هـ - 1412 م) في أمر هذه الطّواحين ما يبين أن من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تُغلق وتُفتح فيها، كما نفعل نحن اليوم بالعجلات المائية، وهو يقول:

«حدثني من دخل سِجِسْتان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشّمال، قد جُعلت منصوبةً تلقاءَها، وأن هذه الرّيح تجري عندهم على الدّوام صيفاً وشتاء، وهي في الصّيف أكثر وأدوم؛ وربّما سكنت في اليوم والليلة مرّة أو مرّات، فيسكن كل رحى دولاب بذلك الإقليم، ثم يتحرك، فيتحرك، في الأرحاء منافس تُغلق وتُفتح، لثقل شدّة دورانها وتكثر، وذلك أنها إذا كانت قوية أُحرق الدّقيق فخرج أسود، وربّما حمي الرّحاء فانفلق، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه»[2844].

وكذلك احدث القرنان الثّالث والرّابع انقلاباً عظيماً في صناعة الورق، فحرَّرا مادة الكتابة من احتكار بلد من البلاد له واستئثارها به، وصيَّراه رخيصاً جداً.

وكان النّاس - طول استعمالهم للبردي - يعتمدون على مصر[2845]. وكواغد سَمَرقند عطّلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها[2846]. ولم يتكلّم اليعقوبي في أواخر القرن الثّالث الهجري إلا عن مدينتين اثنتين فقط تُصنع بها القراطيس في مصر السُّفلى[2847]. وكان بصقلية بقاع، قد غلب عليها البردي، ولكن لا يُعمل منه الورق إلا للسّلطان، على قدر كفايته[2848]، وأكثره يُفتل حبالا للمراكب[2849]، كما كان الحال في العصر الهُرمُزي من قبل[2850]. «يمكننا أن نقول مع كثير من التّرجيح إن صناعة تجهيز ورق البردي بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، فنجد أن الورق البردي المؤرّخ ينتهي في عام 323 هـ - 935 م انتهاءً تاماً، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام 300 هـ - 912 م»[2851].

وكان أجود الورق في ذلك العصر بمملكة الإسلام هو الكاغد الذي نُقلت صناعتُه من الصّين، وناله على أيدي المسلمين التّغيير الهام الذي يعدّ حادثاً في تاريخ العالم، فإن المسلمين نقّوه ممّا كان يستعمل في صناعته من ورق التّوت ومن الغاب الهندي. وكان في القرن الثّالث يُصنع ببلاد ما وراء النّهر فقط[2852]. أما في القرن الرّابع فكانت توجد مصانع الورق بدمشق وطبرية بفلسطين[2853] وبطرابلس الشّام[2854]. ولكن سَمَرقند ظلّت أكبر مركز لصناعته دائماً؛ وقد داعب الخوارزمي أحد أصحابه، لأنه لم يكتب إليه، فتساءل هل سَمَرقند بعدت عليه، والكاغد عزّ عليه[2855]؛ وكان صاحب خزانة كُتب السُّلطان بهاء الدّولة بشيراز يجمع إليها كل ظريف عجيب من الكاغد السَّمَرقندي والصّيني[2856].

وكانت مدينة حَرَّان آخر مأوى لعبادة الكواكب؛ وقد نشأ عن هذا المركز الدّيني الخاص أن كان يُصنع بهذه المدينة آلات القياس مثل الأسْطَرْلابات وغيرها من الآلات الرّياضية الدّقيقة[2857]، وكانت صحّة موازين أهل حرّان مضرب الأمثال[2858].

وكان يصنع بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر السَّبح[2859] لكثرة من كان يزور الحرم الشّريف؛ ولا تزال هذه الصّناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم.

الفصل السّـَّادس والعشرونَ
التّجــــارة

Handel

كان الشّرق الأوسط على امتداد العصور التي نعرفها من تاريخه، بعيداً جدًّا عن مبدأ تقسيم العمل، وهو المبدأ الذي تقضي به الطّبيعة، والذي يجعل إنتاجَ الثّروة مهمّة الرّجل والمحافظةَ عليها مهمّة المرأة.

ولم يلفت نظرَ هيرودوت اشتغالُ النّساء بالتّجارة إلا بمصر. ويصف البِشاري المقدسي في كلامه عن مدينة بيار بشمال إيران أن «السوقَ في الدّور، والباعةَ نسوان»[2860].

كما لاحظ الرّحالة ماركو پولو أن نساء التّتر «يعالجن كل أمور التّجارة»[2861].

ونلاحظ أن الشّعوب الحربية المتعاقبة كانت دائماً تنظر إلى التّجارة نظرة الازدراء والاحتقار.

ويُروى عن عُمر بن الخطّاب، وكان أدقّ من يمثل الرّوح الأولى للإسلام، أنه قال: ألهاني الصُّفق بالأسواق! يعني الخروج للتّجارة[2862].

وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتّاجر بعينِ التّقدير، لأنهم كانوا جيلاً من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع، حتى لا نرى لطبقة التّجار شأناً في تاريخهم.

غير أنّ القرن الثّالث قد استحدث في هذا المجال انقلاباً كبيراً، فلما جاء القرن الرّابع أصبح التّاجر الغنيّ هو ممثل الحضارة الإسلامية التي صارت من النّاحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك؛ ففي أواخر القرن الثّالث لم يتورّع قائد بغربي إيران في منصب من المناصب الجليلة في الدّولة عن أن يبتاع خاناً بمدينة هَمَذان، ويجعله باسمه، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة في أعماله؛ وقدَّر أن ينال من وراء ذلك نحواً من ألف ألف ومئتي ألف درهم؛ ولكن ذلك شق على زعيم بغربي إيران، وتصوّر أنه آيل لخروج ارتفاع البلد عن يده؛ فعيّن قوماً من الدّيلم

على أن يقصدوا الرّسول الذي أرسله ذاك لعقد ضمان الخان على من يرغب فيه، ويوقعوا به؛ فقصدوه وكبسوا داره، وأخذوا ما كان معه من المال[2863].

وفي ذلك العصر اضمحلّ بعض النّشاط التّجاري إلى الأسواق ودور الصّرافين، التي كان فيها الكثير من الأساليب المغرية والمظاهر المشوّقة. ولما كان كلّ تاجر رجلاً رحّالا فإن المعرفة بأثمان البضائع وأسعار أنواع النّقود التي يفوق عددها القدرة على الحصر كانت تمتزج بالخبرة الواسعة بالدّنيا والمعرفة بأطباع البشر.

وكانت التّجارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري مظهراً من مظاهر بهاء الإسلام، وصارت هي السّيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب جميع البحار والبلاد، وتبوّأت تجارة المسلمين المرتبة الأولى في التّجارة العالمية؛ وكانت الإسكندرية وبغداد من تقرّران الأسعار للعالم في ذلك العصر، بخصوص البضائع الكمالية على الأقل.

وكان التّجار اليهود[2864] الذين يأتون من مقاطعة پرو□انس Provence بفرنسا يسمّون عند المسلمين في القرن الثّالث الهجري باسم مجرّد، وهو «تجّار البحر»[2865]. وقد وصفهم المسلمون بأنهم يسافرون بين الشّرق والغرب ويجلبون من «فرنجة» الخدم والغلمان والجواري والدّيباج والخَزّ الفائق والفراء والسّمور والسّيوف؛ ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفَرما، ويحملون تجارتهم على الظّهر إلى القُلزُم، ثم يركبون البحر الشّرقي من القُلزُم إلى جدّة والجار، ثم يمضون إلى السِّند والهند والصّين، فيحملون من الصّين المسك والعود والكافور والدّارصيني وغير ذلك؛ ويرجعون إلى القُلزُم، ثم يتحوّلون إلى الفرما، ويركبون البحر الغربي؛ فربّما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها للرّوم، وربّما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة، فباعوها هناك؛ وإن شاءوا حملوا تجاراتهم في البحر الغربي، فخرجوا بأنطاكية، وساروا برًّا إلى الفُرات فركبوا في دجلة إلى الأُبلّة إلى عُمان والهند والصّين والخليج العربي، وكانوا يتكلّمون الإفرنجية والفارسية والرُّومية والإسپانية والسّلا□ية[2866]. وبعد ذلك لا نرى في القرن الرّابع ذكراً لهؤلاء التّجار الذين خلفوا التّجار الشّاميين الذين كانوا، حتى العصور الوسطى، يستوطنون حوض نهر الرّون؛ وذلك لأن ظهور شأن التّجارة الإسلامية ونماءها أخرج التّجار الأجانب من البحار.

وكان الأمر الثّاني الكبير الذي بلغه العرب في القرن الرّابع الهجري هو فتح الطّريق التّجاري إلى بلاد الرّوس في الشّمال؛ ولدينا وصف لمسلك تجار الرّوس من بلادهم إلى بلاد الإسلام في القرن الثّالث الهجري / التّاسع الميلادي: «فأمّا مسلك تجار الرّوس، فإنهم يحملون جلود الخَزّ وجلود الثّعالب السّود والسّيوف من أقصى صَقْلَبة إلى البحر الرُّومي، فيعشّرهم صاحب الرُّوم؛ وإن ساروا في تنيس، نهر الصَّقالبة، مرُّوا بخليج مدينة الخزر، فيعشّرهم صاحبها؛ ثم يصيرون إلى بحر جُرجان، فيخرجون في أي سواحله أحبُّوا؛ وربّما حملوا تجاراتهم من جُرجان على الإبل إلى بغداد؛ ويترجم عنهم الخدم الصَّقالبة ويدَّعون أنهم نصارى، فيؤدّون الجِزية»[2867].

وفي سنة 309 هـ - 921 م حدث اتصال سياسي بين الخليفة وبين ملك أهل الـ□ولغا[2868]؛ وفي العام التّالي أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده[2869]. ووفي ذلك العصر تولّى شؤون الجزء الشّمالي

من مملكة الإسلام لأول مرّة حكامٌ أكفياء، وهم آل سامان؛ وكان لذلك أكبر شأن في تاريخ الإسلام فإنهم حفظوا تخوم البلاد وساروا بها إلى النّماء والمجد، وضمنوا للتّجار الأجانب ربحاً هادئاً؛ ومعظم النّقود العربية التي اكتشفت في شمال أوروپا ترجع إلى القرن الرّابع الهجري، وأكثر من ثلثيها من نقود السّامانيين[2870]. وكانت بلاد الرّوس منذ ذلك العصر إلى ما بعد الحروب الصّليبية هي الطّريق بين شمال أوروپا وبين الشّرق[2871].

وكما أن الإسلام وجد طريقه إلى الشّمال فكذلك نال في المشرق بلاداً أخرى واسعة (انظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب)؛ ففي عام 331 هـ - 943 م أرسل ملك الصّين كان تشان Kan-Chan يطلب ودّ السّاماني في بُخارى، فضمن ذلك أمام التّجار المسلمين الطّريق إلى الصّين[2872] وفي حوالي عام 400 هـ - 1010 م أُضيفت إلى مملكة الإسلام أجزاءٌ كبيرة من بلاد الهند ذات شأن تجاري عظيم. هذا وقد كان في بلاد الصَّقالبة الشّمالية من جهة أخرى قلاقل شديدة في القرن الرّابع، وذلك بسبب زحف النّورمانديين الذين ركبوا نهر ال□ولغا Volga وساروا فيه عام 270 هـ - 883 م، وفي عام 297 هـ - 910 م، وعام 300 هـ - 912؛ ويقال إنهم في المرة الأخيرة كانوا خمسمئة سفينة، على كل منها ثلاثمئة رجل، فوصلوا بحر الخَزَر (قزوين) Kaspisches Meer، ونهبوا كل شيء؛ وفي عام 358 هـ - 969 م خربوا عاصمة الخزر[2873]؛ وربّما كان هذا هو السّبب في انقطاع الزّيارات الودية بين بلادهم وبلاد الإسلام، في ذلك العصر؛ ولكن تجّار العجم ظلّوا يذهبون إلي الخزر، كما كان الحال من قبل[2874]، وأصبح الخزر هم الوسطاء في اجتلاب البضائع من الشّمال، وكان الشّيء الوحيد الذي تصدّره بلاد الخزر ممّا تنتجه هو غراء السّمك، أما ما كانوا يصدّرونه من العسل والشّمع والوبر وجلود القُندُس، فكان يحمل إليهم من ناحية الشّمال[2875]. وكان تجار اليهود يستأثرون بأهم ما كانت تصدره أوروپا، وهو الغلمان والجواري، وفي عام 356 هـ - 965 م كان يختلف إلى مدينة پراغ Prague - وكانت أكبر سوق للرّقيق في أوروپا - مسلمون ويهود وتُرك من بلاد التُّرك يحملون البضائع وقطع الذّهب البيزنطية، ويعودون بالرّقيق والصّفيح والفراء وجلود القُندس[2876].

وقد نشأ عن هذا التّقدّم التّجاري ازدهارُ الجاليات الإسلامية في كثير من الأطراف التي تغلّب عليها غير المسلمين؛ وذلك مثل بلاد الخزر والسّرير واللان وغانة وكوغة Kuga (أفريقيا) وصَيْمور Saimur (الهند)[2877]. وكان بالصّين أيضاً جاليةٌ إسلامية[2878]؛ بل كان في كوريا أيضاً جاليةٌ من التّجار المسلمين[2879].

أما في بيزنطة فكان لا يُسمح لتجار المشرق أن يقيموا أكثر من ثلاثة أشهر[2880]، وكانت أكبر جالية للمسلمين في الإمبراطورية الرُّومانية تقيم بمدينة أطرابزُند[2881] Trebizond.

وقد حكى لنا كوسْماس Cosmas، الرّحالة الهندي، في منتصف القرن السّادس الميلادي خبر مناظرات، جرت في مجلس ملك سرنديب (سيلان) Ceylon بين تاجر رومي وآخر فارسي، وأراد كل منهما أن يثبت أن ملك بلاده أقوى؛ وغلب التّاجر الرُّومي صاحبَه آخر الأمر، وذلك بأن أخرج قطعة ذهبية جميلة من العملة البيزنطية التي يُتعامل بها في جميع البلاد، على حين أن الفارسي لم يستطع أن يخرج إلا عملة من الفضّة. ومن الصّحيح في هذه الحكاية أنه كان بين البيزنطيين وبين

الدّولة السّاسانية معاهدةٌ خاصّة بالعملة، تقضي بأن يضرب السّاسانيون نقوداً من الفضّة فقط، ويتخذوا العملة الرُّومِيّة الذّهبية عملة لهم[2882]؛ ولهذا شاعت في بلاد الإسلام التي كانت تحت حكم الرُّوم من قبل العملةُ الذّهبية، على حين أن بلاد العجم كانت عملتها الجارية الدّراهم الفضّية. وقد ذكر يحيى بن آدم (توفي عام 203 هـ - 818 م) أن العملة في العراق هي الدّرهم، وفي الشّام الدّينار، وفي مصر الدّينار أيضاً[2883]، ونلاحظ أنه في هذا العصر الذي ندوّن تاريخه كانت العملة الذّهبية تنفذ وتنتشر شرقاً، وهذه أوضح علامة من علامات وحدة التّجارة الإسلامية.

ففي أول القرن الثّالث الهجري كانت عطايا الخليفة تحسب بالدّراهم، وفي أوائل القرن الرّابع الهجري دخلت العملة الذّهبية بغداد، وصار حساب الحكومة بالدّنانير؛ وقد تمّت الخطوة الحاسمة بين عامي 260 هـ - 874 م و 303-915 م؛ ففي السّنة الأولى ذُكر ارتفاع العراق بالدّراهم الفضّة[2884]، أما في الثّانية فقد ذُكر بالذّهب[2885]. وقد زال مع زوال الحساب بالدّراهم الفضية حسابُ الأشياء بنوعها؛ وهذه نقطة طريفة، ففي عام 260 هـ - 874 م كان يُذكر في ارتفاع العراق مقدارُ الحاصلات وما يقابلها بالدّراهم، أما في عام 303 هـ - 915 م فقد بطل ذلك؛ ويتبين من قانون نشره رؤساء اليهود بالعراق في عام 878 م أن كثيراً من الثّروة صار يعدّ ثروة منقولة، ويقضي هذا القانون بأن تُؤخذ للوفاء بتسديد ديوان المدين المتوفى الثّروة المنقولة التي يتركها لا الثّروة العقارية الكبيرة غير المنقولة وحدها[2886]. وكانت الممتلكات الفردية مع هذا تحصى بالدّراهم والدّنانير؛ فمثلاً ذُكر في ترجمة ابن يحيى ثعلب النّحوي اللغوي (توفي عام 291 هـ - 904 م) أنه خلّف أحداً وعشرين ألف درهم وألفي دينار، ودكاكين بباب الشّام، قيمتها ثلاثة آلاف دينار [2887]. ولكن العطايا التي كانت توهب للشّعراء مثلاً كانت دراهم على الطّريقة القديمة[2888]؛ ولا شك أن هذا كان أقرب إلى إظهار الهبة في صورة غير تجارية.

غير أنّه قد وصلنا شيء من شعور النّاس بتقدير نوعي النّقود القديم والجديد؛ فأما البلاد الشّرقية لمملكة الإسلام فقد ظلّت تتعامل بالدّراهم الفضية، حتى في أثناء القرن الرّابع الهجري؛ فيقول الإصطخري إن «نقود أهل بُخارى الدّرهم، ولا يتعاملون بالدّينار، وهو كالعرض»، وربّما كانت الدّراهم نقداً جارياً في بعض المدن الكبرى[2889]، أما في فارس فكان البيع والشّراء بجميع فارس بالدّراهم[2890].

وقد عُني صغار الملوك النّاشئين، الذين ضربوا العملة لأنفسهم تحت رئاسة الخليفة أو مستقلين عنه، أن يُخْرِجوا للتّعامل أكبر عدد ممكن من أصناف العملة، وكان في قوائم أسعار العملة التي بين أيدي كبار الجَهابذة في ذلك العصر شيءٌ من الطّرافة، كما نستطيع أن نستنتج ذلك من أصناف العملة التي ذكرها البِشاري المقدسي[2891]، وكان الدّينار في القرن الرّابع الهجري يساوي نحو الأربعة عشر درهماً[2892]. وكان من أثر انفصال القسم الشّرقي من مملكة الإسلام عن قسمها الغربي، وهو الذي كان وحده يتمتع بخزائن الذّهب، أن ارتفعت أسعار العملة الذّهبية في المشرق ارتفاعاً هائلا في أواخر القرن الرّابع. والمقريزي قد بالغ حين قال إن النّاس في مصر لم يرد ذكر الدّرهم على ألسنتهم لأول مرّة إلا أيام الفقر في عهد صلاح الدّين، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدّنانير [2893].

وفي أواسط القرن الرّابع ضرب ركن الدّولة بن بُوَيْه ديناراً نصفه أو أكثره من النّحاس، وكان هذا الدّينار يُقبل في عام 420 هـ - 1029 م بثلث قيمة الدّرهم المعتاد[2894].

وفي عام 427 هـ - 1036 م حاولت حكومة بغداد أن تقوّي العملة البغدادية، فأمر الخليفة بترك التّعامل بالدّنانير المصرية المغربية، وأمر الشّهود ألا يشهدوا في كتاب ابتياع ولا إجارة ولا مُداينة تذكر فيها الدّنانير المغربية[2895]. ومن جهة أخرى خفّ وزن الدّراهم الفضّية حتى صار الخمسة وعشرون والأربعون، بل المئة وخمسون أحياناً بدينار[2896].

وفي عام 390 هـ - 1000 م شَغَب حرسُ الدّيلم، وقصدوا دار الوزير ثائرين لفساد العملة الذّهبية[2897]؛ وكان للعملة الزّائفة ثمنها المحدَّد جهاراً، وإن كان زهيداً، كما هو الحال اليوم؛ وكانت الدّراهم المزيَّفة تسمّى المزبَّقة[2898]، وكانت بمكّة مثلاً أربعة وعشرون بدرهم من الدّراهم النّقية، وكانت تبطل يوم السّادس من ذي الحجة إلى آخر موسم الحج[2899].

وكان البعض يزيِّف الدّراهم النّقية، كما يفعل المزيّفون في عصرنا؛ ولكن لما كانت العملة توزن، فلم يكونوا يَبْرُدونها، بل يصنعون عملة يتوفّر لها الوزن الصّحيح، مستعيضين عمّا ينتقصونه من الذّهب باستعمال الزّئبق أو الأنتيمون[2900].

وكانت الفلوس تتدرّج على أساس القاعدة السّداسية؛ فكان الدّرهم يساوي ستة دوانق، وكان الدّانق اثني عشر قيراطا، والقيراط أربعة وعشرين طسوجاً، والطّسوج ثمانية وأربعين حبّة؛ وكانت العملة الفضية المكسّرة تستعمل في المعاملات اليسيرة رغم أن ذلك كان يلقى الاعتراض دائماً[2901].

وكانت المعاملات الضّخمة تستدعي وسائل للدّفع، مأمونة من الضّياع، خفيفة الحمل، بعيدة عن متناول اللصوص[2902]. ومعظم هذه الوسائل يحمل أسماء عجمية، فيذكر عن أحد العلماء أنه سافر إلى الأندلس، ومعه سفتجة وخمسة آلاف درهم نقداً[2903]. ويحكي الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني، أنه لما خرج من أسوان بمصر أخذ خطاباً من صديق له، كتبه إلى وكيله في عيذاب بأن يعطي ناصراً كل ما يريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصّديق[2904]. وكذلك أرسل صاحب مصر إلى نائبه ببغداد سفائج ليسلمها للوزير[2905].

وكان من وسائل المعاملات الصّك، وهو في الأصل سند الدّيْن؛ وكان الرّجل إذا اشترى عقاراً كتب صكًّا بشرائها[2906]. ويحدثنا ابن حَوْقَل أنه رأى بأودغشت صكاً باثنين وأربعين ألف دينار كتب بدين على محمّد بن أبي سعدون من أهل سجلماسة لرجل من أهلها؛ وقد شهد عليه العدول[2907]، وهذا يدل على أن الورق في ذلك العصر كان قد بلغ إلى مسافة كبيرة في وسط الصّحراء الكبرى. وكان الصّك بالعراق أشبه بالشّيك الرّسمي عندنا؛ ويُذكر لنا حتى في القرن الثّالث الهجري أن أحد العُمّال كان يكتب الصّكوك لجهبذه[2908]؛ ويذكر عام 300 هـ / 900 م عن شاعر (توفي عام 320 هـ - 936 م) أن بعض الرّؤساء صكّ له صكًّا، فدافعه الجهبذ، حتى ضجر.

ويُروى عن هذا الشاعر نفسه - وكان إلى جانب الشعر مغنِّياَ - أن الحسن بن مُخلد وهب له خمسمئة دينار، أعطاه رقعة بها على صيرفي؛ فتوجه إليه، فأفهمه الصّيرفي أن الرّسم أن ينقصه في كل دينار درهماً، أي عشرة بالمئة، وخيّره بين ذلك وبين أن يركب معه، ويقيم عنده يومه وليلته، ليشرب، ويسمع توقيعه، فلما أصبح الصّباح أعطاه الخمسمئة دينار[2909].

ويُروى عن جهبذ آخر أكثر حباً للفنِّ أنه جاء إليه شاعر ليقبض مالاً؛ فلم ينقصه شيئاً، بل أعطاه خمسين ديناراً من عنده[2910].

وإذن فقد كانت المهام التي يقوم بها الجهبذ كثيرة، فلا عجب أن نعلم أنه كان بسوق الصّرافين بمدينة أصفهان مئتا صرّاف[2911]، وكانوا جميعاً يجلسون في سوق واحد يُسمّى سوق الصّرّافين؛ ولم يكن عن الصّرّاف غنى في سوق البصرة حوالي عام 400 هـ - 1000 م؛ فقد كان العمل بهذا السّوق أن كل من معه مال يعطيه للصّراف، ويأخذ منه رقاعا، ثم يشتري ما يلزمه، ويحوّل ثمنه على الصّراف، ولا يعطون شيئاً غير رقاع الصّرّاف، طالما كانوا بالمدينة[2912]. ويظهر أن هذا هو أرقى ما وصل إليه التُّعامل المالي في الدّولة الإسلامية[2913]؛ وممّا له دلالته أن يظهر ذلك في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها والتي تقع على الحدود بين فارس والعراق، وذلك لأن أهل البصرة واليمن وأهل فارس كانوا أحسن تجار الدّولة الإسلامية، وكان لهم جاليات في جميع البلاد التي تجلب منها التّجارة، وهم أشبه بأهل شد□ابِن Schwaben بألمانيا والسّويسريين في الوقت الحاضر.

ويقول ابن الفقيه الهَمْداني في كتاب البلدان حوالي عام 290 هـ - 902 م: «وقالوا: أبعدُ النّاس نجعةً في الكسب بَصْريّ وحِمْيري؛ ومن دخل فرغانة القصوى والسّوس الأقصى فلا بدّ أن يرى فيها بَصْرياً أو حِمْيرياً»[2914] ، وكان أهل البصرة يُنْسَبون إلى قلّة الحنين إلى وطنهم؛ حتى يُروى أنه وُجد مكتوباً على حجر هذا البيت:

ما من غريب وإن أبدى تجلّده

إلّا سيذكرُ عند العلّة الوطنا

وقد كُتب تحته: «إلا أهل البَصْرة»؛ فكان أهل البصرة يحملونها في رؤوسهم[2915].

وكان العجم منذ الدّهر الطّويل قد استوطنوا جدّة وهي فرضة مكّة[2916]؛ وكان يسكن بمدينة سجلماسة (بجنوب مَرَّاكش) كثيرٌ من أهل العراق وتجار البصرة والكوفة وبغداد[2917]؛ وكذلك كانت الموانى ذات الحركة التّجارية القوية بالشّام، وهي طرابلس وصيدا وبيروت، يسكنها قوم من العجم، نَقَلَهم إليها الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سُفيان[2918].

وكانت مصرُ بلداً تجارياً[2919]، إلا أن المصري الحق، سواء أكان مسلماً أو قبطياً، لا يمتاز، حتى في أيامنا، بالاستعداد الخاص للتّجارة؛ وكان يعرف المصري في القرن الرّابع بأنه لا يُرى مستوطناً

غير مصر إلا في النُّدرة[2920]. وفي عصرنا هذا نرى اليونان والشّاميين والعجم وحتى الهنود هم الذي يقتطفون زبدة التّجارة المصرية؛ ومنذ القرن الثّاني الهجري كان بقصبة مصر جالية كبيرة قوية التّأثير من أهل فارس؛ ومنهم أخذ القاضي مرّة ثلاثين رجلاً، جعلهم ضمن الشّهود، وكان هذا المركز مرموقاً لا يُقبل فيه إلا من هم أهل للشّهادة[2921]. وكان أكبر رجال الغنى والثّروة بمصر في ذلك العصر هو أبو بكر محمّد بن علي المادرائي، ولكنه لم يكن تاجراً، وكان ارتفاع ضياعه يبلغ أربعمئة ألف دينار، وأصله من أسرة عراقية[2922].

وكان أكبر منافس لأهل العراق وفارس هم اليهود؛ وكانت مدينة اليهودية على مقربة من أصفهان[2923] هي القسم التّجاري لهذه المدينة العجمية الكبيرة[2924]، وقد صرح بعض المؤرّخين أن معظم التّجار بمدينة تُسْتَر (شوشتر) كانوا يهوداً، وكانت تستر أكبر مركز لصناعة البُسُط العجمية؛ وكان الذي يقبض على ما يُستخرج من اللؤلؤ في شواطئ جزيرة العرب رجلا من اليهود[2925]؛ وكانت بلاد كشمير مغلقة أبوابها في وجه جميع التّجار الأجانب، ولم يكن يدخلها إلا قليل منهم، وخصوصاً من اليهود[2926]. وكانت الحرفة التي اختص بها اليهود في المشرق أيضاً الاتجار بالعملة؛ ويذكر أنه لما فرضت الحكومة على بطريرك الإسكندرية جِزية باهظة أواخر القرن الثّالث الهجري حصل على المال اللازم بأن باع إلى اليهود أملاك الكنيسة وجزءاً من الكنيسة المعلّقة[2927]. وكان اليهود بين الصّيارفة بقصبة مصر، حتى إنه في عام 362 هـ - 973 م عزّر المحتسب طائفة منهم، فشغبوا؛ فأمر جوهر ألا يظهر يهودي إلا بغيار[2928]، وفي القرن الخامس الهجري حُكي للرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني أن بمصر رجلاً يهودياً غنياً، يسمَّى أبا سعيد، له مال كثير، وأنه كان على سقف سرايه ثلاثمئة جرَّة من الفضّة[2929]. أما في العراق فإننا نسمع ذكر رجلين من جهابذة اليهود، وهما يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران؛ ومنهما اقترض الوزير عشرة آلاف دينار[2930]. ويظهر أن هذين الرّجلين كان لهما شبه مصرف أو شركة؛ لأنه لما خُلع الوزير علي بن الفُرات عام 306 هـ - 918 م وطولب بالمال أقرّ بأن له عندهما سبعمئة ألف دينار[2931]. وكان يوسف جهبذ الأهواز، أي أنه كان يقدّم للدّولة مالاً معجَّلاً ينتظر سداده من خَراج الأهواز؛ وكان، إذا أُحضر لتعجيل المال، يعتذر عادة بكثرة الأموال التي يلزمه تعجيلها، وأنه لا يتمكّن من الدّفع[2932]. وكان هذان الجهبذان ومعهما زكريا بن يوحنّا يسمَّون جهابذة الحضرة، ويُخاطبون في المراسلات: إلى أبي فلان، فلان بن فلان أبقاه الله! وهذه هي أقلّ درجة في المخاطبات، فكان يُخاطب بها مثلاً صغار عُمّال البريد[2933]. ثم إن اليهود الذين كان لهم الشّأن الأول في صناعة البُسُط بمدينة تستر، لم يكونوا صناعاً، بل كانوا صيارفة[2934]. ويُروى عن الإسكافي في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري أنه لما تولّى بغداد من قبل بهاء الدّولة قبض على اليهود، وأخذ منهم ألوف دنانير[2935]. وإذن فلا عجب أن نجد في لغة العرب لفظة مبلِّط (وهي اصطلاح مالي يهودي) تستعمل بمعنى المُفْلس[2936].

وكان الرُّوم والهنود إلى جانب أهل العراق والعجم واليهود هم أنشط تجّار الدّولة الإسلامية؛ وقد نفذ الرُّوم إلى أقصى البلاد، حتى كانت لهم جالية من التّجار في مدينة جيرفت التّجارية بأواسط كرمان[2937]؛ أما التّجار الأرمينيون فلم يكن لهم شأن يذكر في أي مكان؛ بل نرى من هذا الشّعب طائفة تتبوأ مناصب حربية عليا في الدّولة البيزنطية[2938]، وكان منهم جند وقواد للفاطميين[2939]،

منهم أبو النّجم أمير الجيوش الذي حكم بلاد الفاطميين في القرن الخامس الهجري[2940]، ولم تتغير هذه الحال إلى منذ العصر التُّركي.

وكانت التّجارة مركزها الأسواق، شأنها شأن الصّناعة؛ وكانت كل طائفة من التّجار يجلسون معاً في قسم واحد، وكانوا يمكثون إلى ما بعد الظّهر، ثم يأكلون في أحد المطابخ، أو يستحضرون شيئاً إلى دكاكينهم، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء[2941]. وكان للهرّاسين في العراق موضع فوق الدّكاكين، فيها الحصر والموائد والمري والخدام والطّشوت والأباريق والأشنان؛ فإذا انحدر الرّجل دفع دانقاً[2942]. وقد وصف الهَمَذاني في إحدى مقاماته أكلة أكلها هو وأبو زيد في أحد المطابخ[2943]. وكانت الأكلة بعشرين (ربّما كانت عشرين دانقاً أو عشرين درهماً)؛ وكان الطّبّاخون في ذلك العصر أيضاً يعنون بمظهر طبيخهم وتأثيره، ويقال: أخوّة هذا الزّمان مثل مرقة الطّبّاخ في السّوق، طيّبة الرّائحة لا طعم لها[2944].

وكانت الدّكاكين في مصر وآسيا الغربية تمتدّ على طول الشّارع من الجانبين، على كل جانب صفٌّ منها، ولذلك لما أنشئت بغداد لم يُجعل لسوقها مكان مخصّص له؛ ولهذا أيضاً تذكر «سويقة عبد الوهاب» التي كانت ببغداد، كما ذكر الشّيء الغريب الذي يلفت النّظر[2945]. أما أسواق المدن فقد كانت - في مبدأ أمرها وعندما تسمت بهذا الاسم - أسواقاً أسبوعية، تقام في أيام معينة من الأسبوع، فمثلاً كان السّوق بشرقي بغداد يوم الثّلاثاء، وكان سوق القيروان يعقد في يومي الإثنين والخميس[2946]، وكان سوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة، وكان بين العسكر هذه وبين خان طوق ست مدن تسمّى كل منها بيوم من أيام الأسبوع المتتالية، وهو الذي يعقد فيه سوقها[2947]، وربّما كان قوام الكثير من مثل هذه المدن عبارة عن دكاكين ثابتة لا تمتلئ وتعمر إلا في يوم السّوق، مثل سوق الأربعاء في الجزائر الذي كان أول من وصفه الأمير هِرمان فون پُكلَر[2948] Hermann von Pückler أو مثل سوق بوعان الكبير باليمن الذي يمكن أن يمثله الإنسان لنفسه بأن يتصوّر صفّين أو ثلاثة من الدّكاكين لتي تشبه الأكواخ، يجتمع فيها العرب يوم السّوق، فتراهم يتساومون[2949]، وهم جالسون.

أما في المشرق فقد استلزمت العادة جمع الدّكاكين صفوفاً في مكان واحد، كالدّار التي بناها عضد الدّولة بن بُوَيْه بمدينة كازرون؛ وكانت مركز نسج الكتّان، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم[2950]، وكانت غاية في الحسن، نظيفة، قد بُلِّطت وظُلِّلت وزُوِّقت وبُربقت، وجُعل عليها دروب تغلق في كل ليلة[2951]. أما في غرب الدّولة الإسلامية فلم يكن هناك فنادق إلا للتّجار الغرباء؛ وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها، وينامون في أعلاها، ويغلقون بأقفال رومية، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق (من الكلمة اليونانية پاندوكيون πανδοχεῖον)، وكانت توجد خانات أو مخازن كبرى، كدار البطيخ بالبصرة، حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[2952].

وكان رأس المال والتّرف مرتبطين في بلاد الإسلام أيضاً ارتباطاً وثيقاً، وكان كبار التّجار وأصحاب الصّناعات هم المشتغلون بتجارة التّرف والنّعيم؛ وينصح البِشاري المقدسي فيقول: «إذا

أردت أن تعرف خفة ماء بلد، فاذهبْ إلى البزّارين والعطارين، فتصفحْ وجوهَهم؛ فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ما ترى من نضارتهم، وإن رأيتها كوجوه الموتى، ورأيتهم مطامني الرّؤوس، فَعجِّل الخروج منها»[2953]. وإذن فالمقدسي يعدّ أن أقرب التّجار إلى التّرف والنّعيم في القرن الرّابع هم البزّازون والعطارون، وكانوا بمدينة جامع رام هُرمُز يسكنون سوقاً جميلة غاية في الحسن بناها عضد الدّولة[2954]؛ ومن أمثال القرن الثّالث الهجري / التّاسع الميلادي أن أحسن التّجارة تجارة البَزّ، وأحسن صنعة صنعة المرجان[2955]؛ وكان ابن مجاهد (توفي عام 324 هـ - 935 م) يقول: «من قرأ لأبي عمرو، وتمذهب للشّافعي، واتّجر في البَزّ، وروى شعر ابن المُعتزّ، فقد كَمُل ظُرفُه»[2956]؛ وكذلك بين أبو نصر الفارابي (توفي عام 339 هـ - 950 م) الصّناعات من أشرفها إلى أخسّها: تجارة البَزّ، وصناعة النّسيج (وكانت حتى ذلك العصر معتبرة من الصّناعات الخسيسة)، وصناعة العطّارين، ثم صناعة الكنّاسين[2957]. وكان أغنى تجار مصر وأجلّهم حوالي عام 300 هـ - 912 م ابن سليمان البزّاز؛ فلما مات أخذ الإخشيد من ماله نحو مئة ألف دينار [2958]. وكانت أسواق العطارين والصّيادلة وأصحاب الدّهون والخزّازين والجوهريين بعضها إلى جانب بعض ببغداد[2959].

وكانت طريقة التّأجير شائعة شيوعاً كبيراً؛ فكان النّاس لا يستأجرون في المدن المساكن فقط، بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً؛ ويُروى أنه كان بمصر امرأة تملك 500 قدر من النّحاس، وكانت تؤجّرها، كل قدر بدرهم في الشّهر[2960]؛ وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزّفاف، ومعها أصناف الزّينة[2961]، وكانت البسط وأنواع الفرش تستأجر في مثل هذه[2962] المناسبات.

وكان البيع والشّراء يتمّان «بالمقايضة»[2963]، وذلك بحسب الشّرع؛ على أن من الفقهاء المُحدَثين من يرى أن البيع لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مصحوباً بقول صريح علني من الجانبين[2964]، هذا ما شاهدته بنفسي في صحراء الشّام: ففي أثناء المساومة بين الطّرفين يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر، فإذا قال البائع: «بِعْتُ»، وقال الشّاري «اشتريْتُ»، ترك كلٌّ يد صاحبه وتمّ البيع والشّراء؛ ولم ينس ابن المُعتزّ (توفي عام 296 هـ - 909 م) في كلامه عن المصادرَين أن يذكر كيف كانوا يحلّفون بيمين البيعة[2965].

غير أنّه في دولة شاسعة كالدّولة الإسلامية التي كانت تضمّ كل درجات الحضارة لا بدّ أنه كانت توجد جميع أنواع التّجارة بعضها إلى جانب البعض في وقت واحد؛ ولكن الجغرافيين في ذلك العصر خاصّة لم يهتموا بهذا للأسف، وكان الفقهاء من جهة أخرى يُعنون بمعالجة الأصول النّظرية الجافة، حتى لا نجد بين أيدينا إلا قليلاً من المعلومات المؤكّدة؛ فمثلاً كان وراء سجلماسة من أرض النّيجر وبأقصى خُراسان ممّا يلي التُّرك قومٌ يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة[2966]. وقد لفت نظر «الرّابي پتاخيا» من ريغنزبورغ Petachjä von Regensburg، عندما مرّ بالعراق أن المسلمين أهل لأن يوثق بهم كل الثّقة؛ فكان إذا جاء إلى هناك تاجرٌ وضع أمتعته في بيت رجل من النّاس، ورجع؛ فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع، فإذا دفع فيها ثمنها المقرّر كان بها، وإلا حملوها إلى جميع السّماسرة؛ فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بثمن أقل، وكل هذا مع غاية الأمانة والذِّمَّة[2967].

وقد حرّمت الشّريعة الإسلامية منذ البداية التّعامل بالرِّبا أشدَّ التّحريم، كما حرمت المضاربة في مواد الطّعام؛ وقد أنفق الفقهاءُ جزءاً كبيراً من جهودهم لسدّ أصغر الأبواب التي قد يلجأ إليها النّاس فراراً من هذا التّحريم. ولكن اليهود والنّصارى كانوا ينتهزون أيّ ثغرة إن ظهرت، ففي أول القرن الرّابع الهجري اقترض الوزير من يوسف ابن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين اليهوديين عشرة آلاف دينار بربح ثلاثين ديناراً في كل مئة[2968]. وقد ألِّف حوالي عام 800 م كتابُ تشريع للنّصارى أُجيز فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين في المئة[2969]. وكان من صور المراباة المُرْبِحة أن يقدّم النّاس للمصادَرين، وهم يعانون التّعذيب وضروب العسف، مالاً، وهم في هذا الموقف الحرج، وكانوا ينالون في بعض الأحيان من وراء ذلك عشرة في الواحد (1000%)[2970].

وعلى هذا فقد كانت الأُمّة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري قد بعدت كثيراً عن شريعة الإسلام؛ بل يُذكر لنا أنه كان في سنة 200 هـ / 800 م تاجران متواخيان في شراء غلات العراق؛ فأشرفا على ربح عشرة آلاف ألف درهم، ثم اتّضع السّعر، فخسرا ستة آلاف ألف درهم[2971]. وفيما عدا هذا كانت الظّروف الزّراعية الخاصّة تستلزم بعض صفقات المضاربة على الحصاد والدَّرس وجني الثّمر؛ وكان الفقهاء يترخصون في ذلك متجاهلين، بشرط أن كون ذلك على ضمان المشتري[2972]. ويحكي لنا «□انسْلِب» Wansleb أن النّاس كانوا بمصر حوالي عام 1664 م يسخرون من القوانين التي تحرم الرّبا، وذلك بأن يضطروا المقترض إلى أخذ بضائع رديئة النّوع بالسّعر الباهظ؛ وهذا هو الحال عندنا أيضاً[2973].

الفصل السّابع وَالعشرونَ
المِلاحَة النّهرية

Flußschiffahrt

يتبدّي الفارق ما بين وسائل المواصلات في الدّولة الإسلامية وفي أوروبا خلال العصور الوسطى في قلّة الطّرق المائية في مملكة الإسلام؛ فلم يجد البِشاري المقدسي (ص 19) في جميع هذه المملكة

الشاسعة إلا اثني عشر نهراً كبيراً فائضاً تجري فيها السّفن وهي: دجلة والفرات والنّيل وجيحون والشّاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران والرّسّ ونهر الملك ونهر الأهواز [2974].

ولا نستطيع أن نعتبر ثلاثة الأنهار التي بآسيا الصّغرى: سيحان وجيحان وبردان، ولا النّهرين اللذيْن بالقوقاز: نهر الملك والرّسّ ولا النّهر الذي على حدود الهند[2975]، أنهاراً من أنهار البلاد الإسلامية على التّدقيق، بحيث أنه فيما عدا النّيل، لا نلفي بلاداً فيها الملاحة النّهرية إلا أرضَ ما بين النّهرين، وما اتصل بها من خوزستان، ثم أقصى الشّمال الشّرقي لبلاد الإسلام. وفي هذه الأقاليم نجد أن الملاحة في شمال بلاد ما بين النّهرين تواجه صعوبات شديدة، وذلك على الأقل في النّهرين الكبيرين؛ وقد حدّثنا رجال من أحسن مرتادي هذه البلاد «أن نهر الشّاش عند مدينة فرغانة لا يستطيع أن يُقلّ قارباً للصّيد في بعض الأحيان»[2976].

هذا إلى أن كلًّا من جيحون والشّاش يختلف مجراهما في مكان عنه في آخر اختلافاً كبيراً مستمرًّا، كما أن عمق الماء فيهما مختلف؛ ولذلك أوقف سير البواخر النّهرية الرّوسية على أولهما، وهي مستمرّة على الثّاني بمشقة كبيرة، «ولا تستطيع سفينة مهما كانت خفيفة أن تجتاز شلالاته عند مدينة كالف Kilif (في أواسط مجرى نهر جيحون) وقت الفيضان»[2977].

ونظراً لزيادة هذا النّهر زيادة من غير انتظام ونظراً لكثرة الرّمال على جانبيه لم يمكن أن يُتخذ عليه بلد ذو ضفّتين كبغداد وواسط غير كالف Kilif هذه؛ وكانت السّفن تُحمل على الأنهار الكبيرة وما يتشعّب منها.

وليس هناك بالإجمال بحيرات كبيرة تصلح للملاحة الطّويلة ممّا يستحق الذّكر، وإن كانت بحيرة أرمية، وهي أكبر البحيرات في مملكة الإسلام، تبلغ مساحتها عشرة أمثال مساحة بحيرة كونستانتس Lake Constance (بالألمانيّة: بودِن زِيْه) Bodensee، وإن كانت البحيرة الميتة أيضاً تبلغ مساحتها ضعف مساحة هذه البحيرة.

وعلى هذا فقد كانت الشّام وجزيرة العرب وفارس كلها في وسط الدّولة الإسلامية عبارة عن أراضٍ واسعة جداً ليس فيها ملاحة تذكر؛ وهذا شأنها اليوم كما كانت في العصور الوسطى.

أما في العراق فكانت أحوال الأنهار ملائمة للملاحة على نحو لا نظير له؛ وذلك لأن مستوى نهر الفُرات أعلى قليلا من مستوى نهر دجلة، وهذا يجعل سير السّفن في الأنهار المتفرعة من الفُرات إلى الشّرق سهلاً يسيراً، ولا يصعب عليها أن تعود إلى الغرب، وقد استُفيد من هذا في القرن الرّابع استفادة كبرى، وكان يجري على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب الشّديدة الاختلاف؛ وقد ذكر أبو القاسم البغدادي (نشرة متس، ص 107) بعض أنواع هذه القوارب، وزاد عليها في القرن الرّابع الطّيَّارات والحديدياتُ التي كانت ترسو على أبواب كبار العُمّال مثلاً[2978]؛ وكان صياح الملاّحين إلى جانب صوت آلات رفع الماء ممّا تمتاز به بلاد العراق. ويُروى في العشرينيات عن محمّد بن رائق أنه لما ولي الشّام لم يذهب إليها، واستخلف ابنه الحسن وقال: «ركوبي في الطّيَّار في

دجلة، وصياح الملاحين، أحبُّ إليّ من مُلك الشام كله». وكانت هذه عاطفة تعلق بالوطن، وقد دفع حياته ثمناً لها[2979].

وكان نهر الفُرات صالحاً للملاحة من الموضع الذي فيه مدينة سميساط، فكانت تُنقل عليه التّجارة بين الشّام وبغداد؛ أما المسافرون فكانوا لا يرضون عن السّفر في الأنهار، ويُروى عن علي بن عيسى أنه لما سافر من دمشق إلى بغداد انحدر إلى جسر منبج، ثم سار إلى الفُرات، فسار فيه إلى بغداد، وخرج النّاس لتلقّيه؛ فمنهم من لقيه بالرّحبة ومنهم من استقبله بهيت ثم بالأنبار. وكان المسافر من هنا يركب جواداً[2980]، وهذا يدلّ على أن مركز الأنبار بالنّسبة للسّفر السّريع كمركز الفلّوجة اليوم، وهذه تقع قريبة من تلك؛ وكان عند الأنبار جسر من سفن، كما هو الحال عند الفلوجة في عصرنا[2981]؛ والمسافة بينهما وبين بغداد اثنا عشر فرسخاً[2982]. غير أنّ مجرى الفُرات الأعلى كان غيره اليوم، وكان على هذه الجزائر عدة مدن هي الحديثة وعانة وألوسة، لا الحديثة وحدها كما هو الحال اليوم[2983].

وكانت البضائع التي تُنقل بكميات كبيرة على نهر الفُرات هي خشب البناء. من جبال أرمينية وزيت الزّيتون من الشّام؛ وكان الخشب والزّيت ينحدران في النّهر على أخشاب تحملهما. وكان الرّمان يُحمل على الفُرات أيضاً في مراكب كبيرة تسمّى القراقير، ويبلغ عرض الواحدة منها من ستة عشر ذراعاً إلى عشرين[2984]؛ وقد شبّهها هيرودوتوس Ηρόδοτος منذ العصر القديم، وكذلك ليیوس Livius بمراكب البحر الأبيض المتوسط، وذلك لكبرها.

وكانت أكبر شبكة من النّهيرات توجد شرقي البصرة حيث تفترش مياه الأنهار؛ وقد أحصيت في بعض العصور، فزادت على مئة وعشرين ألف نهر، تجري فيها الزّوارق؛ وقد سمع ابن حَوْقَل ذلك، فأنكره، حتى رأى تلك البقاع، فشاهد في مقدار رمية سهم عدة من الأنهار صغاراً تجري في جميعها السُّمَيْريّات.

وكانت بتلك البلاد نخيل متصل نيًّفا وخمسين فرسخاً، لا يكون الإنسان بمكان، إلا وهو في نهر ونخيل أو بحيث يراهما، حتى البحر؛ وكانت هناك المجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والقصور والبساتين على جوانب الأنهار؛ فإذا جاء مدّ البحر تراجع الماء في كل نهر، حتى يدخل بساتينهم وجنانهم؛ وإذا جزر الماء عنها خلت منه البساتين والنّخيل، وبقيت أكثر الأنهار فارغة[2985].

وكانت حركة الملاحة كبيرة على نهر الدّجلة أيضاً؛ فكانت تنحدر بضائع أرمينية إلى بغداد بالموصل، وكانت هذه معتدلة الجو حسنة الثّمار والبقول[2986]. بل كان الحجّاج أيضاً يأتون من الشّمال على الأنهار، ففي عام 348 هـ - 959 م غرق منهم ألف نسمة، وكانوا آتين من الموصل في بضعة عشر زورقاً كباراً[2987].

وكانت بغداد نفسها شبيهة بمدينة البندقية (ڤينيسيا)، بإيطاليا فيقول البِشاري المقدسي: «والنّاس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السّفن، وثلث طيب بغداد في ذلك الشّط»[2988]. وكانت السّفن التي تحمل البضائع تستطيع أن تقف عند أسواق كثيرة، وكان يجد الإنسان بين لحظة وأخرى قنطرة

عالية تصعد عليها الشوارع الضّيّقة؛ وقد أحصى في أوائل القرن الرّابع عدد السّفن التي تنقل النّاس والتّجارة في بغداد، فكانت ثلاثين ألفاً، وقدِّر كسب ملّاحيها في كل يوم بتسعين ألف درهم. ولم تكن هذه السّفن المكشوفة لا باسمها، ولا بصورتها تشبه قوارب اليوم التي تسمّى القِفاف (جمع قُفّة)، بل كانت تلك السّفن تسمّى السُّمَيْريّات (أي مراكب أهل سُمَيْرة)[2989]. ويظهر أن مقدار كسب أصحاب تلك السّفن صحيح؛ فإن صاحب القُفّة لا يقلّ دخله يومياً عن الرّيال المجيدي (أربعة دراهم أو خمسة)[2990]؛ وكانت دار الخلافة تنفق لأرزاق الملّاحين خمسمئة دينار في كل شهر[2991].

وكذلك كان ببغداد كثير من القوارب الخاصّة؛ فقد كان لكل من ذوي اليسار من أهل بغداد دابةٌ في إصطبله، وطيارٌ في النّهر.

وفي عام 200 هـ / 800 م أمر الخليفة الأمين بعمل ست حرّاقات في دجلة، أحدها على خلقة الأسد، والباقيات على خلقة الفيل والعقاب والحيّة والفَرَس والدّلفين[2992]. وكان للخليفة المستكفي عام 333 هـ - 944 م طيّار يسمّى الغزال[2993]. ولما مات الخليفة الرّاضي عام 329 هـ - 941 م حُمل بعد غسله في طيَّار أنزل فيه إلى تربته[2994].

وبعد أن هزم السُّلطانُ مُعزُّ الدّولة الدّيلم الذين ثاروا عليه في عام 345 هـ - 956 م سار وسط المدينة، وكان هو في زبزب، ووراءه الثّوار في زبازب مكشوفة، ليراهم النّاس؛ وفي ذلك اليوم اجتمع النّاس على الشّطوط، فدعوا للسُّلطان ودعوا على الثّوار[2995].

وفي عام 364 هـ - 974 م خرج عضدُ الدّولة للقاء الخليفة، وكان ذلك على نهر دجلة، «فامتلأت دجلة بالسُّمَيريّات والزّبازب، ولو أراد إنسان أن يعبر دجلة على السُّمَيريّات من واحدة إلى أخرى لأمكنه ذلك لكثرتها»[2996].

وفي سنة 377 هـ - 987 م ركب الأميرُ شرفُ الدّولة إلى دار الخليفة الطّائع في الطّيار، وضُربت القباب على شاطئ دجلة وزُيِّنت الدّور التي عليها من الجانبين بأحسن زينة[2997].

وكان للجسور المعمولة من السّفن في الجانب الشّرقي من بغداد زَنْبَرِيَّتان متحركتان يمكن رفعهما لتمكين السّفن من المرور[2998]؛ وكان في طرفي الجسر بواسط موضعان تدخل فيهما السّفن[2999]. وكانت تستعمل لإخراج السّفينة من الماء على نهر دجلة طريقةٌ خاصّة، وذلك أن الملّاحين كانوا، وهم على ظهرها، يجذبون حبلاً يجري على بكرة مُثَبَّتة على نقطة من الشّاطئ؛ ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائرَ منتظمة على ظهر السّفينة؛ وكان الملّاحون في أثناء ذلك يُغَنّون؛ وهذه هي الطّريقة التي نراها على صور الأشوريين والتي كانوا يستخدمونها في جرّ الأحمال الثّقيلة[3000].

وكان بين بغداد وسامرّا ـ عند الموضع الذي تقع فيه قرية تسمّى علث ـ نقطةٌ صعبة ضيّقة المجاز كبيرة الحجارة شديدة الجريان تجتازها السّفن بمشقّة؛ وكان هذا الموضع يسمّى الأبواب، وكانت السّفينة إذا وافت إلى العلث أرست بها، فلا يتهيّأ لها الجواز إلا بهادٍ من أهلها يكترونه، فيمسك السّكان ويتخلّل بالسّفينة تلك المواضع، ولا يترك السّكان حتى يتخلّص منها[3001]. ولكن كان في

جنوب العراق العقبة الكبرى التي ظلت الملاحة تواجهها على نهر دجلة طوال عهد العرب؛ وذلك أن دجلة فيما بين واسط البصرة كان يتشعب ثلاث شعب، تنصبّ كلها في مستنقعات وآجام، تسمّى البطائح؛ وكانت السّفن إذا وصلت إليها ألقتْ ما تحمله إلى زواريق تجتاز هذه المنطقة، فتجري في شبه أزقة من قصب، وبين هذه الأزقة مواضع متخذة من قصب أشباه الدّكاكين عليها أكواخ، وفيها قوم يحرسون الزّواريق في هذه المنطقة الغربية التي يتخلل آجامها بين حين وآخر رقعةٌ من الماء الذي لا شجر فيه. وكان في كل كوخ خمسة مسالح، وهي شبيهة ببيت النَّحل، وليس لها شبابيك، وفيها كان الحرّاس يكتنّون من البَق[3002].

ورغم يقظة الحكومة في المحافظة على الأمن، فإنّ العراق، في أسفل بغداد، لم يتمتع بالأمن قط في أثناء القرن الرّابع الهجري؛ وكان معظم النّهّابين بها من الأكراد، وقد بلغ من شرّ النّهّابة أنهم قتلوا بجكم القائد التُّركي، عام 328 هـ - 940 م، على عظيم سطوته، وذلك أن قوماً من الأكراد لقوه، وهو يتصيّد، فقتلوه بواسط[3003]. وقد وصف الخوارزمي[3004] وقوع شيء مرّات كثيرة بقوله: «وليس بأول غارة الكردي على الحاجي»؛ كأن غارةَ الكردي شيءٌ معروف مألوف. وقد اختص بالذّكر بين اللصوص في أواخر القرن الرّابع الهجري ابنُ مردان، أحد رؤساء الأكراد؛ كان ينهب السّفن، رغم أنها كانت تسير قوافل تسمّى الواحدة منها بالكار[3005]. وكان من رؤساء اللصوص المشهورين في القرن الرّابع الهجري ابن حمدون؛ وكان يقوم بالسّرقة والنّهب في المنطقة الواقعة بين واسط وبغداد. وكان ابن حمدون هذا رجلاً غريب الأحوال من طراز رينالدو رينالديني Rinaldo Rinaldini؛ وكانت فيه شهامة الفرسان وعطفٌ على الفقراء، وكان لا يتعرّض لأصحاب البضائع القليلة[3006]؛ وصار بعض أحوال حياته مضرب المثل[3007].

وكان بالبطائح أميرٌ للصّوص يسمّى عمران ابن شاهين، استفحل أمره، حتى تضاعف طَمَعُهُ في السُّلطان، وصاروا يطالبون من يمرّ بهم من قواد السُّلطان وعماله بحق المرصد والخفارة؛ فلما غلب على تلك النّواحي أرسل مُعزّ الدّولة وزيرَه العظيم، المُهلّبي، فكانت الوقعة عليه، فلم يجد مُعزّ الدّولة إلا مصالحة هذا اللّصّ الثّائر، فأجابه إلى كل ما طلب، وقلّده البطائح عام 339 هـ - 950 م[3008].

وقد خرج اللصوص مرّة على جماعة من الكبراء، وهم في طريقهم على النّهر، لاستقبال بعض الملوك؛ فطلع عليهم اللّصوص، ورموهم بالحرّاقات، وجعلوا يقولون: ادخلوا يا أزواج القحاب! وكان في الجماعة الرَّضي والمرتضى وكاتب الخليفة، وكان صاحب نوادر؛ فأوحت إليه هذه المناسبة نادرةً مذكورة، وذلك أنه لما سمع صياح اللصوص عليهم: يا أزواج القحاب! قال: ما خرج هؤلاء علينا إلا بِعَيْن؛ قالوا: ومن أين علمت؟ قال: وإلّا فمن أين علموا أنّا أزواج قحاب!؟[3009].

غير أنّه قد لحق الملاحة النّهرية ضررٌ أكبر ممّا تقدّم على أيدي اللّصوص الرّسميين، ولا سيما بني حمدان بحلب، وهم الأمراء الذين امتازوا بالفروسية والشّهامة، واشتهروا إلى جانب ذلك بالجور واتباع سياسة جنونية في الخَراج؛ ومن أثر هذه السّياسة أن مدينة بالِس كانت على شطّ الفُرات وأول مدن الشّام من العراق؛ وكانت مدينة عامرة بتجارتها، فلما كان عهد سيف الدّولة، وهو أشهر بني حمدان، ثقل عليها الخَراج، حتى تركها تجارُها بعد عهد هذا الأمير. ومن مشهور أخبارها أنه كان

بها تجار معتقلون عن السّفر، فأرهبهم، وقبض أموالهم، وأخرجهم عن أحمال بَزّ وأطواف زيت وغير ذلك من متاجر الشّام في دفعتين بينهما أشهر قلائل، حتى بلغ ما أخذه منهم ألف ألف دينار[3010]. وكذلك كانت تؤخذ بالعراق ضرائب على البضائع في داخل البلاد، فكان بين بغداد والبصرة حوالي عام 300 هـ /912 م موضعان تأخذ الحكومة عندهما المُكوس على البضائع[3011]. وكان نهر دجلة يُغلق بالليل، وذلك بأن تُشدّ سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر ثم تؤخذ قلوس على عرض دجلة وتشدّ رأسها إلى السّفن، لئلا تجوز المراكب بالليل[3012].

أما بمصر فقد كانت الملاحة النّهرية على النّيل كثيرة جداً في القرن الرّابع الهجري، حتى تعجّب البِشاري المقدسي، وهو بمصر، من كثرة المراكب السّائرة والرّاسية هناك؛ وسأله يوماً رجل هناك: «من أين أنت؟ فقال: من بيت المقدس، قال: بلدٌ كبير؛ أُعلمك يا سيدي، أعزّك الله! أن على هذا السّاحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبتْ إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يُقال: كان ها هنا مدينة»[3013].

وكان الجزء الذي يصلح للملاحة دون أيّ عائق على نهر النّيل ينتهي عند انتهاء حدود مصر[3014]. وكانت أسوان مجمعاً لتجارة السّودان، ولم يكن الذين يحملون التّجارة إلى بلاد النّوبة مصريين، يذهبون إلى هناك؛ فالاتّجار في الخارج لم يكن من صفات المصريين إلا في النّدرة، بل كان تجّار النّوبة هم الذين يأتون في النّيل حتى الجنادل، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السّودان، ويتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال، حتى يصلوا إلى أسوان، بعد اثنتي عشرة مرحلة إلى جانب النّيل[3015]. وكان الإقليم الواقع جنوب الشّلال الثّاني موصداً أمام جميع الأجانب؛ وهو يرجع إلى العصر المصري القديم.

الفصْل الثّامن وَالعشرونَ
المواصلات البَرّيّة

Landverkehr

في عصر سيادة العرب، لم يُبذل جهدٌ ملموس للعمل على تطوير نظام الطّرق البرّيّة في بلاد الشّرق، وذلك لأن العرب أمّة ركوب، لا تميل إلى تمهيد طرق الجيوش، ولا إلى اتخاذ المركبات؛ بل كان من عدم ألفتهم بالمركبات أنهم لما اقتبسوا الشّطرنج عن الهنود لم تعجبهم صورة العربة (راثا)، فاستبدلوها بصورة الرّخ rook.

وكان التّتر أول من اتخذ المركبات بشمال فارس[3016]. غير أنّ فرق المشاة الرُّومانية كانت قد مهّدت بعض الطّرق في جزء صغير من بلاد العرب، ولكن لم يَبْق من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة صِراط Strada، ومعناها الطّريق عند أهل الدّين، وكلمة أيْتار iter التي تستعمل نادراً بمعنى الطّريق، هذا إلى جانب علامات الطّرق المسماة بالأميال. أما الأيتار المُلَيكي (الطّريق السُّلطاني) فقد أخذ العرب طريقة إنشائه عن العجم؛ كما أخذوا عنهم هذه التّسمية[3017].

ولعل طرق ذلك العهد، شأنها شأن طرق اليوم، لم تكن إلا شبكة من المسالك المطروقة لا يربطها نظام. ولا نسمع عن عناية العرب بتعهد الطّرق قليلا؛ وأن السُّلطان كان يرسل في كل سنة عشرة آلاف دينار إلى عامل مُعْتَمد، ليجدّد عمارته[3018]؛ وكذلك مُهِّد التّيه، «وهو أرض بالقرب من أيلة، لا يكاد الرّاكب يصعدها لصعوبتها»، وذلك في زمان خُمارويه بن أحمد ابن طُولون[3019]. وكانت لخمارويه عناية بالطّرق إجمالاً بالقرن الثّالث الهجري. وفي أواخر القرن الرّابع الهجري أنشأ سَبُكتگين Sebük Tegin في جنوبي أفغانستان الطّرق التي سلكها، فيما بعد، ابنُه العظيم السُّلطان محمود، عندما غزا الهند[3020].

وكذلك أنشأ جنگيز خان كثيراً من الطرق العسكريّة الواسعة في البلاد الجبلية بآسيا الوسطى، فشابه في ذلك ناپوليون، كما شابهه في أشياء أخرى. وكان أحد هذه الطّرق يخترق مضايق جبال تيان شان جنوبي بحيرة صيرم Sairam، وقد أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تتّسع كل منها لعربتين تسيران متحاذيتين[3021].

ولكن العناية كانت في غالب الأحيان تقتصر على حراسة الطّرق وتأمينها وإنشاء أماكن يستريح فيها المسافرون، أو على تيسير الماء فيها لهم على الأقل؛ فمثلاً كان على الطّريق القصير الذي يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخيْن أو ثلاثة قبابٌ وخزاناتٌ يتجمع فيها ماء المطر[3022]؛ ورأى الرّحّالة ناصر خُسرو القباديانى على مقربة من بحيرة «وان» Van بأرمينية طريقاً على امتداده عُمُدٌ مقامة على الأرض ليسير المسافرون أيام المطر والضّباب بهديها.

وكانت هذه الأماكن التي تُبنى في الطّرق الصّحراوية رباطاتٍ للزّهاد، وكانت كثيرة بنوع خاص في بلاد ما وراء النّهر لما عُرف عن أهلها من الورع والزُّهد؛ وكان بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط، «في كثير منها، إذا نزل النّازل أُقيم علفُ دابته وطعامُ نفسه، إن احتاج إلى ذلك»[3023].

وكان شرق الدّولة الإسلامية أكرم من غربها إجمالاً؛ فكان من آل المَرزُبان رجلٌ مشهور بالكرم، أقام رباطاتٍ، ووقف على مصالحها بَقَراً سائمة، وجعل عليها قوّامين، يحلبونها، ويأخذون ألبانها، ويقصدون بها المجتازين عليهم؛ وما من رباط إلا وفيه المئة بقرة وما فوق ذلك لهذا الوجه[3024]. وكان أهل القرى بفارس يختارون من بين أنفسهم رجلاً، مهمته توزيع الضّيوف على أهل القرية، وكانوا يسمّونه الجزير[3025] jazir. وكذلك كانت توضع حباب الماء في الشّوارع والطّرق بخوزستان على مراحل في الطّرق، وربّما حُمل إليها الماء من بعيد[3026].

وفي البلاد التي كانت نصرانيةً من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين؛ وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلباً للرّاحة، فكان بدير يوحنّا، على مقربة من تكريت على نهر دجلة، وبدير باعربا، إلى الشّمال من ذلك، أماكن خاصّة لتضييف المسافرين[3027].

أما فنادق المدن فلم نسمع عنها إلا ببلاد فارس؛ فكان في نيسابور مثلاً شَبستان Shebistan (أي دار اللّيل) ومثله بشيراز. أما مصر فلم تعرف بها الخوانق، والرُّبط لم تعهد بالدّيار المصرية قبل الدّولة الأيوبية[3028] إبّان أواخر الحملات الصّليبية؛ وكان في بلاد المغرب في صحاريها ونواحيها الموحشة رابطاتٌ كثيرة يأوي إليها النّاس، والصّدقات تأتيها من جميع البلاد[3029].

وكان على نهر دجلة في أيام السّاسانيين قناطر ثابتة؛ فيحدثنا ابن حَوْقَل في القرن الرّابع الهجري أنه رأى آثار قنطرة من الآجرّ قرب تكريت[3030]. ولا تزال بقايا قنطرة جميلة من هذا الطّراز باقية بالجزيرة إلى اليوم[3031]. فلما جاء القرن الرّابع الهجري كانت هذه القناطر كلها قد أصبحت أطلالاً، واستُبدلت بها جسور من السّفن، بعض أجزائها متحرّك، كما هو الحال في بغداد وواسط. بل لم يكن معروفاً في شمال فارس؛ ففي عام القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ذهب

يمين الدّولة محمود، فعقد على نهر جيحون Oxus جسراً من السّفن وضبطه بالسّلاسل وعبر عليه؛ ويقول ابن الأثير إن ذلك لم يكن يعرف هناك قبل ذلك التّاريخ[3032].

وذكر الرّحالة الصّيني تشان تشونغ Tschan-Tchung أنه وجد جسراً مثل هذا على نهر الشّاش Jaxartes، بعد ذلك التّاريخ (عام 1221 م)[3033]. وكان على قناة عيسى عند خروجها من الفُرات قنطرة تسمّى قنطرة دِممَّا لها خمسة أبواب، واحد كبير وأربعة صغار، وفي أواخر القرن الثّالث الهجري جُعل عرض الباب الأكبر اثنين وعشرين ذراعاً، وعرض الأبواب الصّغيرة ثمانية أذرع، وذلك بعد الاستيثاق من أن أكبر السّفن تستطيع أن تمر منها[3034]. وكان بخوزستان شرقي مدينة سوسة القديمة قنطرة ديزفول، طولها ثلاثمئة وعشرون خطوة، وعرضها خمس عشرة، وكانت تقوم على اثنتين وسبعين اسطوانة، ويسمّيها ابن سرابيون قنطرة الرُّوم[3035]. وكان بالأهواز قنطرة هندوان وهي من الآجرّ، وعليها مسجد يشرف على النّهر[3036]. وكان بالقسم الأعلى من نهر قارون قنطرة إيذَج المبنية بالصّخر على وادٍ؛ وكانت تقوم على دعائم، ارتفاع كل منها مئة وخمسون ذراعاً، تشدّها قضبان من الحديد، وقد أنفق على إصلاحها في آخر القرن الرّابع مئة وخمسون ألف دينار [3037].

أما أعجب قنطرة في البلاد الإسلامية كلها فقد كانت مبنية على الطّريقة الأوروبية، وهي قنطرة سِنْجة التي بناها الإمبراطور ِسپازيان Vespasian على نهر سنجة (بالتُّركيّة: گوك صو، النّهر الأزرق) أحد أفرع الفُرات على مقربة من سميساط، وكانت تعد من عجائب الدّنيا، وكانت «كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوّخ، إذا زاد عليها الماء اهتزت»، وكانت عقداً واحداً، كل حجر من أحجاره عشرة أذرع في خمسة[3038].

أما أعظم الجسور الخشبية فربّما كانت القنطرة التي على نهر طاب بين خوزستان وفارس، فقد كانت «معلقة بين السّماء والماء، وبينها وبين الماء عشرة أذرع»[3039]. وقد بذكر أحد علماء القرن الرّابع الهجري، قنطرة خُتَن في بلاد ما وراء النّهر، وكانت معقودة من رأس جبل إلى جبل، وهو يقول إن أهل الصّين عقدوها في الدّهر القديم[3040].

وكانت توجد معابر على الأنهار كالتي كانت عند الخابور فيما بين النّهرين، حيث يشدّ الملّاح، وهو على ظهر المركب، حبلاً مثبتاً على الشّاطئ الآخر، حتى يصل إليه؛ لكنّني لا أعرف إلى أي تاريخ ترجع هذه الطّريقة، وهي مستعملة إلى اليوم في حوض نهر التّاريم[3041].

أما البريد فهو اختراع قديم جداً؛ ولكن الفضل في تقدمه يرجع إلى ما قام به دارا الأول من ربط أجزاء إمبراطورية العجم في الشّرق الأدنى[3042]. ونجد أن أكثر مصطلحات البريد التي كانت مستعملة أيام الخُلفاء عجميّة الأصل، ومنها الفُرانِق[3043]، والفَيْج[3044]، والشّاكري[3045]، بمعنى راكب البريد؛ والأسكُدار، وهو السّجل الذي يُدوَّن فيه عدد حقائب البريد والخطابات، ويُثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها. ويظهر أن البريد اخترع في وقت معيَّن، إذ نلاحظ أن دواب البريد عند الرُّوم والمسلمين والصّينيين جميعاً كانت علامتها تحذيف أذنابها. غير

أن الرُّوم كانوا يستعملون الخيل في حمل البريد[3046]، وكذلك كان الحال عند ملوك العرب في الجاهلية[3047]؛ وكان ملوك الصّينيين وملوك الإسلام يستعملون البغال في بُرُدهم[3048].

وكان الخُلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربي الفُرات، أما في شرقيه فبالفراسخ[3049]، ولم يكن عند العرب ما يسمّون به علامات المسافات إلا كلمة «ميل» المأخوذة من الرُّومية؛ فقد استعملت هذه الكلمة في بلاد لم تدخل في حكم الرُّومان قط[3050]. ويظهر أن العجم لم يستعلموا ذلك في بُرُدهم[3051]. أما في شطري الدّولة الإسلامية فكانت توجد محطّات للبريد تسمّى السّكك؛ وهي مزوّدة بالبغال والراكبين على مسافات معينة، كل ستة أميال أو فرسخين[3052]. وربّما كان راكب البريد يركب الطّريق كله؛ ويدلّ على ذلك أن رجلاً كان في عام 326 هـ / 937 م يحمل الخريطة من مكّة إلى بغداد[3053]، أي أنه كان يقطع المسافة كلها. وكان بين المغرب والمشرق شبه تبادل دولي في البريد، فكان البريد التُّرك يصل إلى حدّ الصّين[3054]، وكان بريد آسيا الصّغرى يواصل الرّحلة إلى القسطنطينية[3055]، وكان لهذا البريد سكة كل ثلاثة أميال. وكانت أهم طرق البريد هي:

1 - من بغداد إلى الموصل، ومدينة بلد[3056] بحذاء دجلة، ثم يخترق ما بين النّهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين والرّقة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرّملة وغِفار والقاهرة والإسكندرية ومن ثم إلى قيرين[3057].

2 - من بغداد إلى الشّام مع الضّفة الغربية للفرات[3058]، مارًّا بالأنبار، وكان يعبر إلى الضّفة الغربية للفرات عند هِيْت، وكانت حركة المرور في هذا الطّريق عظيمة؛ ففي عام 306 هـ - 918 م كان ارتفاع خَراج المرور عند هِيْت ثمانين ومئتين وخمسين ديناراً[3059].

أما الطّريق بين دمشق وبين مدينة الدّير عن طريق تدمُر، وهو طريقٌ كان له شأن عظيم في الزّمن القديم، ولا يزال مطروقاً إلى اليوم على قلّة، وكانت تقوم على طوله أماكن للحراسة، فلا نجد لأصحاب كتب المسالك كلاماً عنه؛ ولم يشر إليه البِشاري المقدسي، مع أنه وصف مسالك صحراء الشّام وصفاً دقيقاً مسهباً. ولم يكن يوجد في ذلك الزّمان بريدُ الجمال بين بغداد ودمشق، وهو البريد الذي يجري بانتظام في أيامنا. وكان الطّريق الذي يسلكه هذا البريد وهو طريق هِيْت - دمشق يعدّ أقصر طريق بين بغداد والشّام، وكان بعض المسافرين يجتازونه على ظهور الدّوابّ؛ وكان عامل هِيْت عند ذلك يبعث مع المسافرين خفارة من البدو[3060].

3 - أما الطّريق الرّئيسي إلى المشرق فكان يسير خلف بغداد ويعبر قنطرة النّهروان، ثم يسير وراء حلوان، في جبال وصعود وهبوط، فيما كان يعرف قديماً بميديا؛ ثم يرتقي عقبة مشهورة، فيها قوم يبيعون التّمر والجبن، ويواصل الصّعود وراء أسعد آباد، حتى بلغ هَمَذان[3061]؛ وهذا الطّريق مبيّن على الخرائط القديمة، وهو بلا شكّ الطّريق الذي كانت تسلكه ملوك فارس عند انتقالها من مشتاها في العراق إلى مصطافها في إكباتانا المرتفعة، ثم يستمرّ الطّريق إلى الرّيّ (على مقربة من طهران الحالية) ونيسابور ومرو فبُخارى وسَمَرقند؛ وكان الطّريق يسير بعد سَمَرقند إلى الصّين[3062]. أما اجتياز هذا الإقليم الواقع بين التّرك والصّين فكان يتوقف على ما يكون فيه من الأمن؛ لأنه كان دائماً

معدن الخوف، ففي طوال عصر صدر الإسلام - بل في أثناء القرن الرّابع من الهجرة - كان النّاس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الطّرق التي تخترق هذا الإقليم- وهو الطّريق الذي يجتاز فرغانة وحوض التّاريم، وكان أهل الصّين يؤثرونه في القرن الثّامن الميلادي[3063]، وسار معه فيما بعد الرّحالة الكبير ماركو Marco Polo بولو- فلا نجد له ذكراً عند المؤلفين. على أن المسافرين بأوزكند في فرغانة العليا لم يكونوا يجتازون ممرّات علايا، بل كانوا يسيرون في ممر أطباس بين قرى متصلة متقاربة، سالكين طريقاً صعباً، إذا وقعت الثّلوج لم يُسْلك مسيرة يوم»، ومن ثم يواصلون السّير إلى برشان الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة يسك[3064]؛ وهنا يتصل هذا الطّريق بالطّريق الواصل من سَمَرقند إلى الصّين، وهو الذي كان يسير إلي برشان على قنطرة كبيرة فوق نهر الشّاش بطشقند وطراز (أولى عطا) وبركي (مِرْكا)[3065]؛ وبقية هذا الطّريق يعينها لنا الجردوزي في كتابه زين الأخبار (الذي ألّفه حوالي عام 1050 م)، فيقول إن النّاس كانوا يسيرون من بنشول إلى كوشا في حوض نهر التّاريم، ثم ينحرفون شرقاً حتى يصلوا إلى تشينان تشكت على حدود الصّين[3066].

وقد سلك هذا الطّريق حوالي عام 630 م الرّحالة الصّيني سوين تسانغ Hsüen-Tsang، وذلك بأن سار من كوشا مارا ببلوكيا (ولعلها التي ذكرت في كتاب الجردوزي باسم بتشول، وربّما كانت مدينة أكسو الحالية) إلى بحيرة يسك[3067]. بل نلفي في عصرنا هذا أن الطّريق الرّئيسي الذي يصل أواسط حوض التّاريم بطشقند يمر بأكسو وممر بِدِل وقرقول وبشجك وأولى عطا[3068].

وللأسف فإننا لا نعرف الطّريق الذي سلكه سلّام في القرن الثّالث الهجري، ولا الطّريق الذي سلكه أبو دُلَف في القرن الرّابع إلى الصّين[3069]. غير أنّ المسعودي يقول إنه لقي كثيرين ممّن رحلوا إلى الصّين، وعرف منهم أن الطّريق من خُراسان إلى بلاد الصّين يمر ببلاد الصّغد، وأنه يمر بالجبال التي يؤخذ منها النّوشادر. ويؤخذ من هذا أن طريق الصّين كان في القرن الرّابع هو الطّريق الذي وصفه سوين تسانغ والجردوزي، لأن في الرّوايات الصّينية ما يدلّ على أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل تيان شان شمالي كوشا[3070]. ولم يوصف هذا الطّريق إلا بعد ذلك بمئتي عام؛ وكان الإدريسي أول جغرافي عربي وصف الطّريق الذي يسير من فرغانة إلى حوض التّاريم مارًّا بهضبة البامير Pamirs، وذلك حوالي عام 550 هـ - 1155 م[3071]؛ وربّما كان لهذا علاقة بما حدث في ختام القرن الرّابع الهجري من فتح أمراء البُغْرا Buğra لغربي بلاد ما وراء النّهر ونقلهم قصبتهم إلى كاشْغِر في تركستان الشّرقية، ممّا أدى إلى عودة الطّريق إلى ناحية ممرّات البامير.

وينحرف طريق البريد عند مرو مارًّا بوسط إقليم خُراسان، ولا يقصد رأساً إلى بلح بل يدور دورة عظيمة قدرها ثلاثمئة كيلومتر حول نهر مَرو، حتى يصل إلى مَرو الرّوذ؛ وهذا يطابق تماماً ما كان عليه الحال في الوقت الذي عملت فيه خارطة بُويْتينغر Peutinger؛ وعلى فرسخ من هذا الموضع تبدأ سلسلة الجبال التي يجتازها الطّريق ماراً بمنخنق فيها، حتى يصل إلى طالقان؛ وبعد بَلْخ يعبر نهر جيحون على مقربة من تِرْمِذ، ثم يفضي إلى فرغانة عند الرّاشت[3072].

أما الطّريق الذي يقطع إيران عرضاً من شيراز إلى نيسابور ماراً بيَزد فقد لاحظه ابن خُرداذبِه، وأشار إليه في كتابه (ص 50)؛ ولكننا لا نجد له ذكراً عند ابن رُستِه ولا عند قُدامة؛ وربّما كان

سبب ذلك القلاقل التي كانت تسود شرقي فارس، والتي زادت شرّ اللصوص في الصّحراء الواقعة بين يَزْد وطبس.

وكان عضد الدّولة، (توفي عام 372 هـ - 982 م)، أول من أقرّ الأمن في هذه الرّبوع؛ ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللّصوص واستبدال غيرها بها بين الحين والحين، لتستطيع القوافل المسافرة في حراسة الحكومة اجتياز هذا الإقليم آمنة. وحوالي منتصف القرن الرّابع الهجري ابتنى عضد الدّولة مخفراً، معه حوض للماء العذب، وقد وصفه البِشاري المقدسي بقوله: «ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم، من الحجارة والجَصّ، على عمل حصون الشّام»[3073]. ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمّن الطّريق؛ فالمقدسي نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يَزد فقطع هذه المسافة في سبعين يوماً، مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخاً بتقدير ابن خُرداذبِه، وذلك لأن قافلته ضلّت سبيلها، ولأن الطّريق كان - على قوله - مخوفاً من قوم «يقال لهم القفص، قوم لا خلاق لهم: وجوه وحشة، وقلوب قاسية، ولا يقنعون بالمال، حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار، كما تُقْتل الحيّات؛ تراهم يمسكون رأس الرّجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة، حتى يتصدّع»[3074].

أما طريق الحجّ من بغداد فكان يعبر الفُرات عند الكوفة، ويفضي إلى الصّحراء عند العُذَيْب[3075]. وعلى الرّغم من بعد مكّة الشّاسع فقد كان النّاس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدّولة الإسلامية؛ ولم تكن فريضة الحجّ وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمانُ الطّريق أيضاً في حماية قوافل الحجّ الكثيرة التي كانت تنهال إلى هناك من شتّى النّواحي. فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحجّ سنة 331 هـ - 943 م إلى الشّام ومصر، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السُّلطان[3076]. وعلى عكس ذلك كان البعض يفرّون من الشّام من البيزنطيين، ففي عام 335 هـ - 946 م التحق كثير من أهل الشّام بقافلة الحجّ وقطعوا الطّريق الشّاسع مارّين بمكّة، وكان فيهم قاضي طرسوس، ومعه مئة وعشرون ألف دينار.

وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثّالث الهجري يتجه نحو القيروان؛ وفي ذلك الحين كانت دولة بني الأغلب الأقوياء قد أقرّت الأمن ومنحت الطّرق جانباً من عنايتها، فكان على طول السّاحل محارس ومخافر، وكان السّفر مأموناً[3077].

وكان يخرج من مصر السّفلى طريقان عظيمان إلى المغرب: أحدهما يسير بحذاء السّاحل، كما كان الحال في الزّمن القديم؛ والآخر يسير جنوباً. وكان البريد يتخذ الطّريق الثّاني أول الأمر (وكان يسمّى طريق السِّكّة) [3078]، ثم عُدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس، ومنها كان يقصد إلى القيروان رأساً، وبعدها يسير بحذاء السّاحل؛ وكانت الأميال معلّمة، وطول المسافة من القيروان إلى السّوس الأدنى على المحيط الأطلسي ألفان ومئة وخمسون ميلاً[3079]. وكان هذا هو الطّريق الرّئيسي الذي يصل الأندلس بالمشرق[3080]. وكان هناك طريق آخر جنوبي يمرّ بواحات الدّاخل والكَفرة[3081]، ويتجه إلى السّودان الغربي متجهاً صوب غانة وأودغشت؛ فعُل عنه في القرن الرّابع إلى طريق سجلماسة، وذلك لتواتر الرّياح، وترادف عدوان اللّصوص على القوافل[3082].

وكان البريد مخصَّصا لأعمال الحكومة، وكان يجري لبني العبّاس[3083]؛ ولم يكن يحمل النّاس إلا في حالة الضّرورة القصوى[3084]؛ وكانت تُحْمل فيه إلى جانب الرّسائل أشياءُ تُبعث للسّلطان، ممّا يحتاج إلى سرعة الإيصال؛ فمن ذلك أن البريد كان يُحمل إلى المأمون ثماراً غضّة من كابُل أثناء ولايته على خُراسان[3085]، وأيضاً كان «يُرسل لأمير المؤمنين مع البريد رُطَبٌ وألطاف، كأنما جُنيت من ساعتها»[3086].

وحينما فتح جوهر مَرَّاكش للخليفة الفاطمي وبلغ المحيط الأطلسي، أرسل إليه من هناك سمكاً في زجاجة، ليقيم له الدّليل على وصول مُلكه إلى البحر المحيط[3087].

وكانت تنظّم أثناء الحروب بُرُدٌ حربية لشؤن الحكومة؛ فمن ذلك انه لمّا استطال صاحب القيروان على أرض مصر، أنهض المُقتدِر مؤنساً الخادم، عام 302 هـ - 914 م. وتقدم علي بن عيسى بترتيب الجمّازات من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم[3088]. وكذلك كان مُعزّ الدّولة هو الذي أحدث أمر السُّعاة وأعطاهم الجرايات الكثيرة، لأنه أراد أن يبلغ أخباره لأخيه ركن الدّولة[3089]؛ وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة، وأقبل فقراء النّاس على تسليم أبنائهم للسّلطان مُعزّ الدّولة لتدريبهم على ذلك. وقد امتاز من هؤلاء السُّعاة اثنان، كان كل منهما يقطع ما يزيد على الأربعين فرسخاً (حوالي 180 كيلومتراً) من مشرق الشّمس إلى مغربها، وكانا أثيرين عند عامّة النّاس، وقد أورد المؤرّخون ذكرهما، وكان أحدهما ساعي السُّنّة والثّاني ساعي الإماميّة[3090].

وكان يقام حصن عند كل فرسخ من الطّريق. والرّاجح أن الحكام في ذلك العصر عدلوا عن استعمال الخيل في البريد إلى اتخاذ الجمّازات[3091]؛ فمثلاً نرى ابن العميد البُوَيْهي لمّا أراد اللحاق بأميره في فارس عام 394 هـ - 975 م بغاية السّرعة، اتخذ الجمَّازات.

وكان يوجد إلى جانب ذلك في بعض النّواحي بُرُدٌ خاصّة، وذلك في المسافات القصيرة؛ وهي عبارة عن جماعات منظمة من السُّعاة. وقد اشتهر منذ القرن الخامس الميلادي جماعة من حملة الخطابات بالسّرعة، وهم المسمَّون سومّاخوي Symmachoi في مصر السّفلى؛ وكانوا لا يزالون موجودين في القرن الثّامن الميلادي بدليل ما نجده في إحدى ورقات رينر البرديّة Rainer papyrus. ويحدّثنا انسْلِب Wansleb أحد المؤلّفين المُحدَثين فيقول: «من أراد أن يكون ساعياً في الإسكندرية فلا بدّ أن يحمل شعلة في سلّة على هيئة موقد مثبّت في عمود، طوله قامة رجل، وله حلقات من حديد، وأن يقطع المسافة التي بين الإسكندرية ورشيد وطولها سبعة وعشرون ميلاً، ويعود في يومه، قبل مغيب الشّمس»[3092].

أما استعمال النّار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة، عند المسلمين في البلاد التي كانت تابعة للدّولة البيزنطية من قبل؛ لأن هذه الدّولة كانت تستعملها. أما في غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعملها؛ ويقال إنها استخدمت استخداماً حسناً في القرن الثّالث الهجري على السّاحل الإفريقي الشّمالي؛ فقد كانت الرّسائل تصل من الإسكندرية إلى سَبْتة Ceuta في ليلة واحدة، ومن طرابلس

إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات إلى أربع، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة 440 هـ - 1048 م، حينما ثار الغرب على الفاطميين، ولم يعد بإمكانهم حماية الحصون من البدو [3093].

غير أنّ المسلمين خطوا خطوات واسعة في تنظيم نقل البريد بواسطة الحَمام الزّاجل الذي كان معروفاً أيام الرُّومان[3094]؛ ويظهر أن مؤسّس فرقة القرامطة في القرن الثّالث الهجري كان أوّل من نظّمه واستعمله على صورة واسعة النّطاق، فجعل لنفسه من أول أمره طيوراً تحمل إليه في مقرّه بالعراق أخباراً من جميع البلاد، ليستعين بذلك على الشّعبذة والإخبار بالغيب[3095].

وفي أوائل القرن الرّابع الهجري نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحَمام بالعراق؛ فمن ذلك أنه لما تقلّد وزيرٌ جديد الوزارة عام 304 هـ - 916 م، وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه في يومه[3096].

وحكى عريب بن سعد القرطبي في حوادث عام 311 هـ - 923 م أنّ القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا النّاس بعزل بعض الوزراء قبل أن يجيء الخبر إلى البصرة بأربعة أيام، في جناح طائر [3097]. وفي عام 313 هـ / 927 م لمّا قرب القِرْمِطي من الأنبار طلب أبو علي بن مُقْلة الأطيار وأنفذها إلى الأنبار، وكُتِبَ له عليها أخبار القِرْمِطي وقتاً بعد وقت[3098].

ولما اشتدّ خطر القرامطة في هذه السّنة نفسها (311 هـ - 923 م) عند عقرقوف رتّب الوزير وسلم إليهم مئة طائر إلى مئة رجل، ليكتبوا له على أجنحتها كتباً بخبر العدو في كل ساعة[3099].

وفي سنة 321 هـ - 933 م، استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير ابن مُقلة أخبار سلامة الكوفة من القِرْمِطي، لأنّ أطيار جاره - وكان من أهل الكوفة - حملت إليه أنباء أصدق ممّا حملته أطيار صاحب المعونة المعيّن في الكوفة من قبل الوزير [3100].

ومن غريب أخبار سنة 328 هـ - 940 م أن طائراً وقع لغلمان بجكم، فوجدوا على ذنبه كتاباً من بجكم، بخط كاتبه إلى أخيه، يعرفه فيه أخبار بجكم وأسراره[3101].

كانت الرّسائل تصل في ذلك العصر من الرّقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة[3102]. وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع كان عند محمّد بن عمر أبي الحسين الشّريف طيور كوفية، وبالكوفة طيور بغدادية، وكان يكتب على الطّير إلى الكوفة فيأتيه الخبر في ساعة أو نحوها[3103]؛ وكان هذا الشّريف جالساً عند الوزير مرّة، فوصل إلى الوزير خبرُ وصول رسول القرامطة إلى الكوفة، فأرسل الشّريف إلى الكوفة بالخبر، وجاءه الرّد بوصول الكتاب وامتثال الإشارة، وهو جالس مع الوزير، وكان هذا يحبسه متهاوناً في الأمر [3104].

وكانت الحكومات إجمالاً لا تتعرّض للأفراد المسافرين؛ ومن الثّابت أنه لم يكن بالمشرق في القرن الثّاني الهجري على أبواب المدن من يسجّل أسماء من يدخل أبوابها[3105]. وقد تكلّم أحد الرّحالين

العرب في النّصف الأول من القرن الثالث الهجري عن جوازات المرور عند الصّينيين، كأنها عنده شيء غريب[3106].

أما في مصر فقد كان فيها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك النّاحية التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدون إذن أولي الأمر؛ ويقال إن عامل مصر أصدر أمره عام 100 هـ - 720 م بأن يُقبض على من وجد مسافراً أو متنقلاً من مكان إلى مكان من غير سجلّ، وإذا وُجد صاعداً أو نازلاً من مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيه؛ ولدينا طائفة من هذه السّجلات أو الجوازات وُجدت ضمن ما عُثر عليه من أوراق البردي[3107]. وفي أيام الطُّولونيين كان لا بدّ من جواز للخروج من مصر؛ ولا بدّ أن يدرج في هذا الجواز كل من يرافقون المسافر، ولو كانوا عبيده[3108]. أما في المشرق في نهاية القرن الرّابع الهجري فكان الأمر على خلاف ذلك، حتى نرى البِشاري المقدسي يستنكر ما حدث في أيام عضد الدّولة من أنه كان لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من كان يحمل جوازاً[3109].

الفصل التّاسع وَالعشرُونَ
المـلاحة البحـريّة

Seeschiffahrt

توزّعت الملاحة البحريّة في مملكة الإسلام في بحرين منفصلين تماماً هما: البحر الأبيض المتوسّط، والمحيط الهندي؛ وذلك لأن برزخ السّويس كان يحول دون اتصال هذين البحرين؛ فكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلى الهند أو شرق آسيا يضطرّ إلى حمل بضائعه على الظّهْر عند الفَرما، ثم يتابع مسيره في الصّحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القُلزُم (وهي تسمية يونانية: كْلُوسْما Κλύσμα) وهناك يستطيع حملها في المراكب من جديد.

وكان نوع السّفن التي تستعمل في كلّ بحر يختلف عنه في الآخر؛ فكانت مراكب البحر الأبيض ذوات مسامير، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فكانت تُخاط بحبال اللّيف[3110]؛ وكانت هذه هي الطّريقة القديمة في صناعة السّفن عند جميع الأمم. ويذكر ابن جُبير في القرن السّادس الهجري طريقة إنشاء السّفن على هذا النّحو، فيقول إن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتّة، «إنما هي مخيطة بأمراس من القِنْبار، وهو قشر جوز النّارجيل، يدرسونه حتى يتخيّط، ويفتلون منه أمراساً، يخيطون بها المراكب، ويخلّلونها بدُسْر من عيدان النّخيل، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصّفة سقوها بالسّمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش، وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم في البحر»[3111].

أما في القرن السّابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فيصف الرّحالة ماركو بولو Marco Polo المراكب التي كانت تستعمل في هُرمُز بأنها كانت من أسوأ صنف ومعرِّضةً من يركبها للمهالك؛ وذلك راجع إلى أنه لا يُستطاع استعمال المسامير في بنائها، وإنما كانت تُثقب الألواح قرب أطرافها بأقصى ما يمكن من العناية بمثقاب من الحديد؛ ثم توضع في الثّقوب مسامير من خشب تصل بعضها بعض، فإذا تمّ ذلك حُزمت أو على الأصح خيطت بعضها ببعض بنوع من الليف يُصنع من قشر

جوز النّارجيل، ولا يُطلى المركب بعد ذلك بالقار؛ بل بزيت يتخذ من دهن الحوت[3112]. وهذا الخلاف في طريقة بناء المراكب راجع إلى تقاليد الصّناعة للسّفن عند كل فريق، إلا أن المؤلفين علّلوه بأسباب مرجعها إلى المنفعة، كما هي العادة؛ فذهب ماركو بولو إلى أن «الخشب الذي كانت تُصنع منه هذه السّفن من صنف شديد الصّلابة عُرضة للتّصدع والتّكسر كالفخّار، فإذا حاول الصّناع أن يدفعوا فيه مسماراً انشدخ، وكثيراً ما يتصدّع». أما ابن جُبير فيرى أن مقصدهم من دهان الجلْبَة هو أن «يلين عودها ويَرْطُب لكثرة الشّعاب المعترضة في هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري». ويُعلّل عدم استعمال المسامير في بناء هذه السّفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر[3113]. وقال آخرون إن السّبب هو خوف الملّاحين من جبال المغناطيس[3114] «وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها، فلهذا لا تستعمل المسامير في هذا البحر خوفاً من جذب جبال المغناطيس لها».

وكانت مراكب البحر الأبيض أكبر من مراكب المحيط، فقد روى مفتش الضّرائب تشاو ـ جو ـ كوا Chau-Ju-Kua في أوائل القرن الثّالث عشر الميلادي، مع كثير من الإعجاب، كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرّجال، وعلى ظهرها حوانيت لبيع الخمر والطّعام وفيها مغازل[3115]. ولم تكن السّفن ذات الدّفتين موجودة في غير البحر الأبيض[3116]. أما التي تجري في المحيط فلم يكن فيها أكثر من طبقة واحدة، وكانت في معظم الأحيان ذات سارية واحدة[3117]. هذا وكانت قيعان السّفن التي تسير في البحر الأحمر «عِراضاً دون تعميق في تركيبها، لتحمل بذلك كثيراً من الوسق ولا تدرّس على كبير ترس»[3118]. وكانت مراكب البصرة بيضاء «مشحّمة بالشّحم والنّورة»[3119]. أما المراكب الصّينية فكانت أكبر مراكب المشرق، ولهذا لم تكن تستطيع اجتياز ما يجتازه غيرها من مضايق الخليج العربي[3120]. وكان مقدار ما يؤخذ منها من المُكوس في مواني ملبار يبلغ خمسة أضعاف إلى خمسين ضعفاً ما يؤخذ من غيرها[3121] وكانت ضخامتها الزّائدة تثير تعجّب أهل كانتون (خانقو) في القرن الثّامن الميلادي، «إذ يبلغ علوُّها عن سطح الماء مبلغاً يضطر النّاس إلى استعمال سلالم ارتفاعها عشرات من الأقدام ليصعدوا إلى سطحها، ولم يكن ربابنتها من أهل الصّين»[3122].

وكان أغلى أصناف الخشب الذي تصنع منه المراكب هو شجر اللبخ الذي لا ينبت إلا بأنصنا Antinoe، ويباع اللوح بخمسين ديناراً أو نحوها، وإذا شُدّ لوحٌ بلوح وطُرحا في الماء ستة أيام صارا لوحاً واحداً»[3123].

وكانت البندقية في القرن الرّابع تمد العرب بالخشب لبناء السّفن ممّا جعل الإمبراطور البيزنطي يحتجّ لدى الدّوجه، فأمر الدّوجه بإيقاف بيع الخشب للعرب، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذي لا يصلح لإنشاء السّفن، ولهذا شرط أن يكون من اللبخ والسّنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم، وأذن أيضاً بأن تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب[3124]. وقد شحّ خشبُ السّفن في مصر على أثر ذلك، «حتى قُلعت صَوارٍ كبار كانت مسقفة على دار الضّرب بمصر وفي البيمارستان الذي في سوق الحمام، ونُشِروا جميعها وأعدّوا أسطولاً آخر»[3125].

وكانت دقات السّفن التي تجري في البحار تحرّك بحبلين، كسفين النّزهة عندنا[3126]. ولا يذكر كتاب القرن الرّابع شيئاً عن البوصلة، وقد وصفها القَبجاقي Kapchaki لأول مرّة سنة 1282 م[3127]، ثم ذكرها المقريزي (توفي عام 845 هـ - 1442 م) [3128]. وكان على ظهر السّفينة عدد من المراسي، يقال لكل منها أنجور anjur باسمها اليوناني[3129]. وكان يستعمل لسبر الأغوار سِبَكٌ[3130]. وكانت القوارب الصّغيرة تستعمل لتسيير المراكب، بالمجاديف، إذا احتاج الأمر [3131].

وقد دُهش ابن حَوْقَل، مع كثرة طوافه في البلدان، من مهارة الملّاحين الذين رآهم في تنيس بمصر السّفلى، إذ كانت بحيرة تنيس «وتلتقي السّفينتان، تحكّ إحداهما الأخرى، هذه مُصعدة، وهذه نازلة بريح واحدة، مملاة شرعها بالرّيح، ومتساوية في سرعة السّير»[3132]. وكان بين ملّاحي السّفينة ملّاح غوّاص[3133]. وكان الغوّاصون في مراكب الصّين في القرن الحادي عشر زنوجاً يستطيعون الغوص، وعيونهم مفتوحة[3134]. وحكى رجل من العرب في القرن الثّامن الهجري (الرّابع عشر الميلادي) أنه كان في مراكب البحر الهندي عادة أربعة من الغوّاصين، فإذا نفذ الماء في المركب، وعلا فيه، عمدوا إلى أجسامهم، فطلوها بزيت السّمسم، وإلى أنوفهم فسدوها بالشّمع؛ ثم أخذوا يسبحون حول المركب في مسيره، ويسدّون ثقوبه بالشّمع؛ وهم يستطيعون أن يسدّوا عشرين إلى ثلاثين ثقباً في اليوم[3135].

ويذكر أحد المراجع الصّينية في القرن التّاسع أنه يوجد على مراكب العجم التي تمخر عباب البحر كثيرٌ من الحَمام، يستطيع أن يطير بضعة آلاف «لي» li؛ وإذا أطلق طار عائداً على بلده رسولاً يحمل أحسن الأخبار [3136].

وكذلك كانت توضع في المراكب التي تجري في المحيط آنية ملأى بالأرز والدّهن، في كل يوم، طعاماً للملائكة التي تحرس المركب[3137].

ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادي؛ فقد كان بحراً عربياً، وكان لا بدّ لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يطلب مودَّة العرب، كما فعلت نابولي Napoli وغاييتا Gaeta وأمالفي Amalfi. ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت في ذلك العصر على حال يُرثى لها من الضّعف؛ ففي سنة 935 م استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه، وأن تنهبهما، وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا في عامي 1004-1011 م.

غير أنّ أسطول الفاطميين في شمالي أفريقيا كان في ذلك الحين أقلّ كفاية من أسطول الشّام بصورة جليّة، ففي عام 301 هـ - 913 م استطاعت خمس وعشرون من مراكب الشّام أن تهزم ثمانين من مراكب الفاطميين هزيمة ساحقة. وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض عرضاً في ستة وثلاثين يوماً من مبدئه في المحيط الأطلسي إلى آخره حيث أنطاكية[3138]؛ وميناء أنطاكية هذه هي سلوقية التي كانت في أثناء القرن الثّالث الهجري (التاسع الميلادي) أهم ميناء تجاري في الشّام[3139]. وقد حصّنها الخليفة المعتصم[3140]، ولكن كان يؤذيها أكبر الأذى وجودُ شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص، تسمّى السّفالة، وكانت تتحطم عليها معظم السّفن[3141]. وفي أواخر

القرن الثّالث الهجري يُذكر أن ميناء طرابلس الشّام «عجيب يحتمل ألف مركب»[3142]. وكانت مدينة صُور هي الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبيزنطة؛ وكانت حصينة جليلة».

ولكن زحف البيزنطيين في القرن الرّابع الهجري على بلاد الإسلام غيّر هذه الأحوال كلها في الشّام. وكان النّصف الشّرقي من ساحل أفريقيا الشّمالي أقل ملاءمة للملاحة من النّصف الغربي؛ ولهذا لا تذكر كتب تلك الأيام أي ميناء طبيعي بين الإسكندرية وخليج تونس غير طرابلس، وحتى طرابلس هذه لم يكن عمق الماء عندها كافياً لحمل مراكب ذلك العصر، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوّعين؛ فيقيّد المرسى ويرسى منه في أسرع وقت بغير كلفة لأحد»[3143].

وكانت تونس تلي طرابلس في الأهمية، وكانت ميناء للقيروان على مقربة من موقع قرطاجة التي كانت سيّدة البحر قديماً.

ويقصّ الإدريسي خبر جماعة يسمّيهم المغرّبين، ركبوا بحر الظّلمات من لشبونة Lisboa، في القرن الرّابع على الأغلب، «ليعرفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤه؛ وكانوا ثمانية رجال كلهم أولاد عم فأنشأوا مركباً حمَّالا وأدخلوا فيه من الماء والزّاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الرّيح الشّرقية، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الرّوائح كثير القروش قليل الضّوء[3144]، فأيقنوا بالتّلف؛ فردّوا قلوعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم؛ ثم ساروا مع الجنوب اثني عشر يوما حتى وصلوا إلى جزيرة، فيها عمارة وحرث، فاعتقلوا ثلاثة أيام، ثم جاءهم في اليوم الرّابع ترجمان للملك يتكلّم اللّسان العربي، وُأحضروا بين يدي الملك، فسألهم عن حالهم، فأخبروه بخبرهم، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم، إلى أن بدأ جري الرّياح الغربية، فوُضِعوا في قارب وعُصبت أعينهم وجُري بهم في البحر برهة قدَّروها بثلاثة أيام، حتى انتهوا إلى برٍّ، فأخرجوا، وكُتّفوا إلى خلف، وتُركوا بالسّاحل، حتى طلع النّهار؛ وجاء قوم برابر، فحلّوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين»[3145].

وكان البحر الأحمر مخوفاً لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة؛ ولهذا كانت الملاحة فيه بالنّهار فقط[3146]. وكان نظام هبوب الرّياح فيه يجعل الملاحة من الشّمال إلى الجنوب فقط في فصل من السّنة، ومن الجنوب إلى الشّمال في الفصل الآخر؛ ولهذا احتفظ نهر النّيل الذي يسير موازياً لهذا البحر بأهميته الكبيرة باعتباره طريقاً من طرق الملاحة النّهرية. وكانت عيذاب هي نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النّهر؛ وكان ميناؤها عميقاً غزير الماء مأموناً من الشّعاب النّابتة[3147]، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر، ثم تُحمل على الإبل في الصّحراء مسيرة عشرين يوماً إلى أسوان أو قوص، ومن هناك تنقل إلى القاهرة في النّيل[3148].

وقد بلغت عيذاب في نهاية القرن الخامس الهجري درجة عظيمة من الازدهار، وأصبحت إحدى الموانى التي تختلف إليها المراكب من جميع البلاد، ولا يعرف السّبب الذي كان يجعل تجارة شمال أفريقيا إلى المشرق تمرّ بها؛ وكان حُجاج مصر يسيرون عن طريق عيذاب بين سنتي 450-660 هـ (1058-1258 م)، ولم تأخذ عدن شأن عيذاب إلا منذ عام 823 هـ - 1420 م[3149]، وكان

يؤخذ من كل حاج ثمانية دنانير[3150]. وقد تحدث ابن جُبير عنها في عام 579 – 1183 م، فقال إنها «من أحفل مراسي الدّنيا، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً على مراكب الحجّاج الصّادرة والواردة»؛ ثم قال بعد ذلك إن أكثر ما شاهده في عيذاب من سلع الهند أحمال الفُلفُل[3151].

وقال المسعودي في عام 332 هـ - 943 م: «وقد ركبتُ عدة من البحار، كبحر الصّين والرُّوم والقُلزُم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أجد أهول من بحر الزّنج»؛ وكان قد ركب البحر سنة 304 هـ - 916 م من زنجبار (قنبلو) إلى عمان، وفي ذلك البحر غرقا، فيما بعد، بمركبهما وجميع من كان معهما[3152]. وكان ملوك زنجبار في تلك الأيام مسلمين[3153]، وكان أقصى ما تصل إليه مركب المسلمين في أسافل بحر الزّنج إقليم سُفالة (موزمبيق) Mozambique، وكان مأربهم بقصدها معدنُ الذّهب في ماشونالاند[3154] Mashonaland، وكان الحديد أكبر ما يؤخذ منها إلى الهند للصّناعة، وكانت تصنع منه في الهند آلات عظيمة القيمة[3155]. ويذكر لنا بعض المؤلفين المُحدَثين بعض التّواريخ المضبوطة فيما يتعلّق بذلك فيقولون إن مَقْديشو أنشئت عام 908 م (وهي موغادوشو Mogadoxo في الصّومال الإيطالي)، وإن مدينة براوة (كِلْوة في أفريقيا الشّرقية الألمانية) أنشئت حوالي عام 975 م[3156]، وذلك نقلا عن تقرير ريزبي Rizby المسمّى: «تقرير حول ممالك زنجبار» Report on the Zanzibār Dominions (ص 47)، وهو يعتمد على ما لايزال يروى هناك عن أيامنا هذه من حكايات في أخبار تلك البلاد. أما المراجع القديمة فليس بين أيدينا منها شيء في هذا الموضوع، وربّما نرى شيئاً من ذلك فيما كتبه مؤرّخو جنوبي جزيرة العرب.

ويعدّ البحريون الإسلاميون عدناً مبدأ «بحر العرب»، ويقولون إن هذا البحر يحيط ببلاد العرب حتى يصل إلى الخليج العربي، وينتهي على مقربة من المكان الذي تبتدئ عنده بلوخستان؛ أما ما بعد ذلك فكانوا يعدّونه من المحيط الهندي. وكانت الملاحة ميسورة في هذين البحرين في موسمين، فإذا هدأ أحدهم هاج الآخر، وانقلب، «وأشدّ ما يكون صعوبة في آخر زمان الخريف، وأشدّ ما يكون البحر الهندي عند الاستواء الرّبيعي... وبحر العرب قد يُركب في كل أوقات السّنة، فأما بحر الهند فلا يركبه النّاس إلا في الشّتاء»[3157]. ولهذا كان البحر الأول مجالاً كبيراً لمتلصّصة البحر، وكان للسّاحل العربي ذكر بسبب هؤلاء القراصنة. وحوالي عام 300 هـ - 912 م قام أهل البصرة بحملة على القراصنة في بلاد البحرين، ولكنهم أخفقوا[3158]؛ أما في القرن الرّابع فلم يكن النّاس يجرأون على ركوب البحر الأحمر من غير «مُقاتلَة ونفّاطين»[3159]؛ وكانت جزيرة سُقَطْرى بنوع خاص عُشاً خطراً للقراصنة، وكانت المراكب، إذا مرّت بها، لا تزال في هلع، حتى تتجاوزها، وكانت نقطة ارتكاز تأوي إليها بوارج قراصنة الهند، ليقطعوا الطّريق على المسلمين[3160]، ولم تكن هذه القرصنة تعتبر عملاً شائناً أو أمراً غريباً؛ ولم يضع العرب للقراصنة تسمية خاصّة، والإصطخري مثلاً يسمّيهم باسم ملطّف فيقول: «مُتَلَصّصَة البحر» (ص 33)؛ وفيما عدا ذلك كان يطلق عليهم الاسم الهندي[3161] barques.

وكانت عَدَن وسيراف وعُمان أكبر مرافيء الدّولة الإسلامية على المحيط الهندي، ويلي ذلك في الأهمية البصرة ودَيْبُل (على مصبّ نهر السِّند) وهُرمُز وكانت فرضة كرمان.

وكانت عدن المركز التّجاري الكبير بين أفريقيا وبلاد العرب، ونقطة ارتكاز التّجارة بين الهند والصّين ومصر، فيسمّيها البِشاري المقدسي مثلاً «دهليز الصّين»[3162]، ويحدثنا أنه سمع أن من النّاس من دخلها بألف درهم، فرجع بألف دينار؛ ومنهم من دخلها بمئة، فرجع بخمسمئة، ومنهم من دخلها بكندر، فرجع بمثل ما دخل به كافوراً[3163].

وكانت سيراف هي الفُرضة التي تمرّ بها صادرات فارس ووارداتها[3164]، وكانت على الخليج العربي، تقصدها المراكب من جميع البلاد؛ وكانت فُرضة لبضائع الصّين خاصّة، بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصّين تُحمل على المراكب بسيراف[3165]. وبلغت المُكوس التي كانت تؤخذ من المراكب بها حوالي آخر القرن الثّالث الهجري 300 هـ / 912 م نحواً من مئتين وثلاثة وخمسين ألف دينار في كل عام[3166].

وكان أهل سيراف أغنى تجّار فارس كلها، وخير دليل على ذلك ما كان لهم من مساكن عالية ذات طبقات عديدة مبنية من خشب السّاج الغالي الثّمن؛ ويحكي الإصطخري عن أحد أصحابه أنه أنفق في بناء داره ثلاثين ألف دينار، وكانت ملابس تجّارها، مع هذا الغنى، بسيطة إلى درجة تدعو إلى العجب؛ ويقول الإصطخري (ص 139) إن الإنسان ليجد فيهم من يملك الأربعة آلاف دينار، وتراه مع هذا لا يتميّز في لباسه عن أجيره. وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها في البصرة أيضاً؛ ويقول ابن حَوْقَل إنه لقي رجلاً منهم يملك ثلاثة آلاف ألف دينار، ويقول إنه لم يسمع أحداً من التّجار ملك هذا المقدار [3167]. وكان كثير من أهل سيراف يقضون حياتهم كلها في البحر، فمن ذلك أن رجلاً منهم ألِف البحر، حتى ذُكر أنه لم يخرج من السّفينة إلى البرّ نحواً من أربعين سنة[3168].

وكان أشهر أصحاب السّفن في ذلك العهد، وهو محمّد بن بابشاد، من أهل سيراف؛ ويُذكر أن ملك الهند أمر أن ترسم له صورة، لأنه كان أكبر أهل صنعته، وكانت عادة ملوك الهند أن يقتنوا صوراً لأشهر الرّجال في كل حرفة[3169].

وكان من أثر هذا المركز العظيم الذي تمتعت به مدينة سيراف، أن لغة العجم أصبحت أكثر لسانٍ يتكلّم به تجّار المسلمين الذين يقصدون الهند وشرق آسيا، ولا تزال اللغة العربية إلى اليوم تشتمل على كثير من الاصطلاحات البحريّة العجمية مثل: «ناخُداه»، وهو صاحب السّفينة[3170]، و«ديدبان»، وهو الحارس، و«رُبَّان» (ربّما كان أصلها ره بان)، وهو قائد السّفينة، أما الرّجل الذي كانت مهمته تبليغ أوامر الرّبّان إلى الملاّحين بصوته فكثيراً ما كان يسمّى المنادي، وهو لفظ شائع عند النّاطقين بالعربية[3171]. وكان كل رُبَّان يحلف يميناً بألّا يتهاون بسفينته، فيلقيها في الهلاك، ما دامت سليمة لم يحلّ بها القضاء المحتوم[3172].

وتقع البصرة على نهر شطّ العرب، وبينها وبين البحر مرحلتان[3173]، وكان هناك تجاه مصبّ النّهر جزيرة صغيرة تشبه جزيرة هيليغولاند Heligoland، فيها مدينة صغيرة ذات حصن صغير، وهي مدينة عبّادان، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلْفاء[3174]. وكان النّاس يقصدونها للإقامة بها متعبّدين ومكفّرين عن ذنوبهم[3175]؛ وكانت رسوم المراكب تجبى عندها[3176]، وكانت بها حامية لمكافحة القراصنة؛ وكان على نحو أميال منها تجاه البحر موضع يعرف بالخشبات، فيه

عمد من الخشب منصوبة في الماء، قد بني عليها مرقب يسكنه ناظرو؛ ويوقد المرقب بالليل لتهتدي به السّفن[3177]. وقد سخر أحد شعراء البَصرة من رجل شديد النّحول، فقال فيه[3178]:

لمحبّه شيء سوى الخشبات	وجه كعبَّادان ليس وراءه

وذكر المسعودي في القرن الرّابع الهجري أنه كان ثَمَّ ثلاث خشبات كالكراسي[3179]. ويقول الرّحّالة ناصر خُسرو القبادياني في القرن الخامس الهجري إن الخشبات اثنتان، وهو يفصّل في وصفها فيقول إنها أعمدة من خشب السّاج منصوبة بحيث تؤلف على الأرض قاعدة مربعة واسعة، ثم تضيق في أعلاها؛ وهي تعلو سطح البحر بخمسين متراً، وفي أعلاها حجرة مربعة للنّاظور[3180]. ويدلّ هذا على رقّة الماء عند مدخل نهر شطّ العرب وضيقه؛ ويروي البِشاري المقدسي أنه سمع شيخاً يقول إن هذا موضع يسافر فيه أربعون مركباً، فيرجع واحد[3181].

وتاريخ المراكز التّجارية الإسلامية في الشّرق الأقصى مملوء بالحوادث[3182]؛ فيُروى من أخبار القرن الثّامن الميلادي أن أسماء ربابنة السّفن الأجانب كانت تقيَّد في ديوان التّجارة البحريّة في مدينة خانقو، وأن هذا الدّيوان كان يطالب بحق تفتيش المراكب قبل السّماح لها بإنزال ما تحمله إلى البر، وكان يأخذ رسوم تصدير وتحميل. وكان تصدير الأشياء النّادرة أو ذات القيمة محظوراً، وكان كل من يحاول التّهريب يعاقب بالحبس[3183]. وربّما تكون قد أنشئت في ذلك العصر مراكز تجارية إسلامية في نواح أخرى من الصّين. وفي عام 758 م كانت جالية الأجانب الوافدين من الغرب إلى كانتون «خانقو» كبيرة العدد، حتى استطاعت أن تنتهب المدينة وتُحرق مخازنها وتهرب بما انتهبت[3184]. وفي أوائل القرن التّاسع الميلادي كان على رأس الجالية الإسلامية في كانتون رئيس مسلم يعيِّنه إمبراطور الصّين، وكان هذا الرّئيس يقضي بين أفراد الجالية بأحكام الشّريعة، وإذا كنت الجمعة أو العيد خطب في المسلمين، ودعا في خطبته لسلطان المسلمين[3185].

وفي ذلك العصر كان البحريّون، إذا وصلوا المدينة، قبض الصّينيون متاعهم وصيّروه في البيوت، وضمنوا الدّرك إلى ستة أشهر، إلى أن يدخل آخر البحريين؛ ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويُسَلّم الباقي إلى التّجار. وكان السُّلطان إذا احتاج إلى شيء أخذه بأغلى الثّمن وعجّله، ولم يظلم فيه؛ وكان ممّا تأخذه الحكومة الكافور، المنُّ بخمسين فكّوجا؛ وكان هذا الكافور، إذا لم يأخذه السُّلطان، بيع بنصف الثّمن[3186]. وكان يُستورد أيضاً العاج وقضبان النّحاس والذّبل، وهو دَرَق السّلاحف، وقرن الكركدن الذي كان أهل الصّين يتّخذون منه المناطق، وفي طول ذلك العصر كانت مراكب المسلمين تذهب إلى بحار الصّين، كما كانت مراكب الصّين تختلف إلى عُمان والأُبُلّة والبصرة[3187].

وتؤيّد التّواريخ الصّينية ما حكاه بحريُّو العرب من القضاء على المراكز والجاليات الإسلامية في الصّين[3188] ولا سيما مدينة خانقو (وهي كانتون الحديثة) [3189]؛ حيث قُضي على أسرة تانْغ

Tang، وباضمحلال أمر هذه الأسرة فسد كل شيء في جنوب الصّين[3190]، واختفت معالم التّجارة البحريّة من هناك. ونستطيع أن نستدلّ من كتاب «عجائب الهند» - وأهم ما فيه وصف أحوال القرن الرّابع الهجري هناك - على أن أقصى ما كانت تبلغه مراكب المسلمين مدينة كَلَهْ أو كِدا في ملقا، وكان هذا البلد في موضع سنغافورة اليوم. ويقول أبو دُلَف إن كَلَهْ هي أول بلاد الهند، وآخر منتهى مسير المراكب، لا يتهيأ لها أن تتجاوزها، وإلا غرقت[3191]. وكذلك يقول المسعودي حوالي عام 332 هـ - 944 م إن بلاد كَلَهْ هي النّصف من طريق الهند أو نحو ذلك، وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام من السّيرافيين والعُمانيين في هذا الوقت قادمة من الصّين؛ وفي كَلَهْ أيضاً كان التّاجر السَّمَرقندي ينزل من المراكب الآتية من عمان، ويركب البحر في مراكب الصّين[3192].

غير أنّ حكومة الصّين بذلت في نهاية القرن العاشر جهداً كبيراً لاجتذاب التّجارة الأجنبية الآتية من البحر إلى الصّين رأساً؛ فأرسلت بعثة لتدعو التّجار الأجانب الذين يعملون في البحر الجنوبي ويركبون البحار في البلاد الأخرى، للحضور للصّين، ووعدتهم بتهيئة الظّروف الحسنة لاستبدال بضائعهم. وفي عام 971 م أعيد تنظيم ديوان البحر في مدينة كانتون؛ ثم احتكرت الحكومة التّجارة الخارجية عام 980 م، وأصدرت الأمر بعقاب كل من وُجد متاجراً مع الأجانب بالنّفي من البلاد وبكيّ وجهه بالنّار. وفي ذلك العصر وما جاء بعده تذكر الرّوايات كثيراً من تجار المسلمين، زاروا بلاط إمبراطور الصّين واستُقبلوا هناك استقبالاً حافلاً بالمودّة. وفي عام 976 م جلب رجل من العرب أول عبد أسود إلى قصر إمبراطور الصّين؛ فلما جاء القرن الحادي عشر الميلادي كان أغنياء النّاس في كانتون يقتنون الكثير من هؤلاء العبيد[3193]، واستقرّ كثير من التّجار في تسوان تشو Teuan Chou إلى جانب استقرارهم في كانتون. وفي عام 999 م أنشئت دواوين للتّجارة البحريّة في ثغري هانغتشو Hangchou ومينغتشو Mingchou، زيادة على ما كان في غيرهما من الموانئ، وذلك إجابة لطلب التّجار الأجانب وتوفيراً لأسباب راحتهم[3194].

وفي عام 1178 م يقول أحد كتّاب الصّين: إن مملكة العرب لا يفوقها بلد آخر من البلدان الأجنبية الغنية في كثرة ما يُدَّخر بها من البضائع المتنوعة الغالية؛ ويليها في ذلك جاوة، وپالِمبانغ Palembang (وهي سومطرة)، ثم تأتي بعد ذلك بلاد أخرى كثيرة[3195]. ويحدثنا هذا المؤلف أيضاً عمّا كان من تجدد نشاط الملاحة إلى الصّين، قائلا: إن الذين يأتون من بلاد العرب (تا شي Ta-shi) يتخذون أول الأمر سفناً صغيرة تسير بهم إلى الجنوب حتى ساحل كويلون Quilon (ملبار)، ومن ثم ينقلون إلى سفن كبيرة تحملهم إلى پالِمبانغ (سومطرة)[3196] ؛ وكان الطّريق البحري إلى الصّين خاضعاً لما يقتضيه هبوب الرّياح الموسمية التي تستطيع السّفن أن تسير معها من غير حاجة إلى استعمال البوصلة. وقد وصف هذا الطّريق في كتاب سلسلة التّواريخ (طبعة لانغليه Langlés)، وأورد هذا الوصف رينو Reinaud في كتابه المسمّى Relation des voyages (وقائع رحلات) طبعة پاريس 1845، ص 16 وما يليها، وابن خُرداذبه (ص 61 وما بعدها)؛ ونجده أيضاً في كتاب عجائب الهند، ومن ذلك كله نعلم أن النّاس كانوا يسيرون بحذاء ساحل الهند أو يتجهون من مسقط إلى ميناء كولام Kulam (كويلون Quilon الحالية) رأساً، وذلك في نحو شهر، ثم يواصلون سيرهم، جاعلين جزيرة سرنديب إلى يمينهم، ويقصدون جزائر نيكوبار Nicobar (على مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً من جزيرة سرنديب)[3197]، ومن ثم إلى مدينة كدا في ملقا، وهي على مسيرة نحو شهر منِ كويلون؛ ومن هناك يقصدون جاوة وجزيرة

ماهيت في جزائر سندا؛ ثم يسيرون خمسة عشر يوماً، حتى يصلوا كمبوديا، ومنها إلى كوشين شين وإلى الصّين.

وكان المسافر يسير مع ساحل الصّين وحده شهرين؛ وكان لا بدّ له بعد ذلك من انتظار الرّياح الطّيبة، لأن تلك النّواحي تسودها رياح واحدة في كل ستة أشهر. أما في العودة فكان النّاس يسيرون أربعين يوماً من تسوان تشو Tsuanchou إلى أتييه Atyeh (على الطّرف الشّمالي الغربي من جزيرة سومطرة)، وكانوا يتاجرون هناك، ثم يعودون إلى البحر في العام التّالي، ويعودون إلى بلادهم في ثلاثين يوماً بمعاونة الرّياح العادية[3198].

ولمّا كانت هذه السّفن غير حاوية لأيّة آلة يُستعان بها في الملاحة كانت الرّحلة محفوفة بالمخاطر، فكان النّاس يتعجبون أشد التّعجّب إذا عمل الرّبان هذه الرّحلة سبع مرّات[3199]؛ وكان المسافر إذا وصل إلى الصّين عُدّ ذلك عجيباً؛ أما رجوعه إلى بلاده فكان يعدّ كالمستحيل[3200]، ولهذا فلا عجب أن نسمع أن الرّجل الذي في أعلى السّارية كان، إذا رأى أول علامات أرض الوطن، نادى قائلا: رحم الله كل من قال: الله أكبر! فعند ذلك يجيبه جميع من في المركب قائلين: الله أكبر! ويهنّيء بعضهم بعضاً، ويبكون، لما يكون قد هجم عليهم من السّرور[3201]

1. مسكويه Misk. ج 5 ص 554؛ ابن الجوزي ورقة 58 أ؛ ابن الأثير، ج 8 ص 241؛ كتاب العيون، برلين، الجزء الرّابع، ص 154 ب؛ أبو الفداء ص 223. ↑
2. المسعودي، ج 1 ص 306، ج 2 ص 73 وما يليها. ↑
3. المسعودي ج 4 ص 38، نقلاً عن الفزاري. ↑
4. مسكويه ج 6 ص 323. ↑
5. كتاب العيون ج 4 ص 68 أ، برلين. ↑
6. البكري، ص 151. ↑
7. أبو الفداء عام 350 هـ؛ المَقَّري ج 1 ص 212. ↑
8. أحسن التّقاسيم للمقدسي، 1877 ص 64. ↑
9. ابن حَوْقَل، ص 10 ف. ↑
10. لا يقول بغير هذا القول إلا بعض الفرق الشّاذّة كالقرامطة. ↑
11. الفِهْرِسْت، ص 189. ↑

12. ابن الجوزي، ورقة 118 أ. ↑

13. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 9 ص 157؛ ابن تَغْري بَرْدي، ص 107. ↑

14. ابن تَغْري بَرْدي، ص 114. ↑

15. المسعودي، ج 1 ص 362. ↑

16. ابن هذا كلام مِتس في عصره قبل 97 عاماً. ↑

17. Snouck-Hurgronje, Mekka, I, S. 59. ↑

18. Joannes Cameniata, Corpus Script. Historiae Byzant, Bonn, 491, 589 وكان هذا المؤلف إذ ذاك من بين الأسرى. ↑

19. مسكويه ج 5 ص 249. ↑

20. يحيى بن سعيد، ص 98. ↑

21. المسعودي ج 2 ص 43 وما يليها. ↑

22. Finlay, History of Greece

ج 2 ص 323 وما يليها. ↑

23. يحيى بن سعيد، ص 123؛ مسكويه ج 6 ص 254، 272. ↑

24. يحيى بن سعيد، ص 131؛ ميخائيل السّرياني Michael Syrus ص 551. ↑

25. يحيى بن سعيد ص 140؛ ابن الجوزي ورقة 104؛ الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 455؛ ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 436. ↑

26. Jean Ebersolt, Le grand palais de Constantinople.؛ يحيى بن سعيد ص 145؛ 1910، ص 22. ↑

27. المسعودي، ص 111، 39. ↑

28. يحيى بن سعيد ص 114؛ وكتاب المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 198. ↑

29. وقد ذكر المُهلبي الذي كتب في عام 370 هـ، أن ملك Rankan، الواقعة على نهر النّيجر، وأغلب رعيته كانوا مسلمين؛ (ياقوت ج 4 ص 329). لكن البكري وابن سعيد (الذي جاء فيما بعد) يقولان إنهم وثنيون. ↑

30. مسكويه ج 5 ص 249. ↑

31. مسكويه ج 6 ص 240؛ وكتاب العيون ورقة 67 أ. ↑

32. ص 64. ↑

33. الجوزي، ورقة 18 ب. ↑

34. ابن حَوْقَل ص 341 وما يليها. ↑

35. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 125. ↑

36. ابن الجوزي ص 67؛ كتاب العيون ورقة 190 أ. ↑

37. كتاب العيون، ج 4 ورقة 205 ب. ↑

38. ابن الجوزي ورقة 72 أ. ↑

39. يحيى، ص 141؛ الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 462. ↑

40. كتاب العيون، ج 4 ورقة 229 أ. ↑

41. أحسن التّقاسيم للمقدسي (ترجمة إنكليزية قام بها آزو Azoo) ص 120. ↑

42. كتاب الوزراء للصّابي، ص 116. وانظر: Le Strange, Baghdad, p. 77. ↑

43. كتاب العيون، ج 4 ورقة 58 ب. ↑

44. كتاب الوزراء للصّابي Wuz. ص 116. ↑

45. عريب بن سعد، ص 28. ↑

46. انظر الملاحظة المهمّة التي أوردها بُرتون عن الخصيان. ألف ليلة وليلة، ج 1 ص 70. ↑

47. كتاب الأوراق للصّولي، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم 4836 ورقة 9. ↑

48. كتاب التّنبيه والإشراف للمسعودي ص 377؛ مسكويه ج 5 ص 379؛ عريب بن سعد ص 76؛ كتاب العيون ج 4 ورقة 129 أ. ↑

49. تاريخ الإسلام للذّهبي؛ أمدروز Amedroz كتاب الوزراء للصّابي، ص 11. ↑

50. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 181. ↑

51. التّنبيه والإشراف للمسعودي ص 388؛ وكتاب العيون ج 4 ورقة 141 ب. ↑

52. كتاب العيون ج 4 ورقة 123 ب. ↑

53. التّنبيه والإشراف للمسعودي، ص 388؛ مسكويه، ج 5 ص 424؛ Arib، ص 185. ↑

54. مسكويه، ج 4 ص 419. ↑

55. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 333. ↑

56. كتاب العيون، ج 4 ورقة 120 أ. ↑

57. التّنبيه والإشراف للمسعودي ص 388؛ كتاب العيون، ج 4 ورقة 183 ب. ↑

58. الأوراق للصّولي ص 27. ↑

59. الأوراق للصّولي ص 27. ↑

60. ابن الجوزي، ورقة 54 أ. ↑

61. ابن الجوزي، ورقة 54 أ. ↑

62. ابن الجوزي، ورقة 54 أ، نقلاً عن الصّولي. ↑

63. كان يعاني من مشكلات في معدته. ↑

64. كتاب العيون، ج 4 ورقة 182 أ. ↑

65. كتاب العيون، ج 4 ورقة 22 أ. ↑

66. التّنبيه والإشراف للمسعودي ص 397؛ كتاب العيون ورقة 220 أ. ↑

67. ابن الجوزي، ورقة 66 ب. ↑

68. كتاب العيون، ج 4 ورقة 221 ب. ↑

69. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 304. ↑

70. كتاب العيون ورقة 119 أ. ↑

71. يحيى بن سعيد ص 101. ↑

72. التّنبيه والإشراف للمسعودي ص 398؛ كتاب العيون، ج 4 ورقة 22 أ. ↑

73. كتاب العيون، ج 4 ورقة 239 أ. ↑

74. كتاب العيون، ورقة 232 أ. ↑

75. المصدر السّابق، ج 4 ورقة 238 أ. ↑

76. المصدر السّابق، ج 4 ورقة 238 ب. ↑

77. كتاب العيون ، ج 4 ورقة 240. ↑

78. ابن الجوزي، ورقة 106 أ. ↑

79. ابن الجوزي، ورقة 132 ب. ↑

80. ابن الجوزي، ورقة 132 أ؛ السّبكي، ج 3 ص 2. ↑

81. يحيى بن سعيد ص 155. ↑

82. ابن تَغْري بَرْدي، ص 63. ↑

83. يحيى بن سعيد ص 185. ↑

84. يحيى، ص 188. ↑

85. يحيى، ص 217. ↑

86. يحيى، ص 218. ↑

87. يحيى ص 124. كان لقب الأستاذ في المشرق لقباً للوزراء، وكان ابن الأمير يلقب بذلك (مسكويه ج 6 ص 220)؛ ابن تَغْري بَرْدي صٍ 34. واليوم يطلق لقب الأستاذ في القاهرة

على الحوذي. أما في الهند فيطلق اللقب على المُعلم.

قلت: أخطأ مِتس، ففي القاهرة يلقّب الحوذي بالأُسطة، وهي عبارة تُركية Usta وليست (أستاذ). ↑

88. مسكويه ج 5 ص 474. ↑

89. الأوراق للصّولي ص 83. ↑

90. كان لقب السُّلطان لا يطلق في ذلك الوقت إلا على الخليفة، وكان يقال دار السُّلطان أي قصر الخليفة ببغداد؛ أما ما يقوله ابن خلدون (ج 3 ص 420) بأن مُعزّ الدّولة اتخذ لنفسه لقب «سلطان» فهو غير صحيح. ويقول ابن تَغْري بَرْدي المؤلف المصري المتأخر (ج 2 ص 252) إنّ «فرعون» هو لقب ملوك مصر قديماً و«سلطان» هو لقبهم حديثاً. وكذلك يرى الزُّهري al-Zuhri (من علماء القرن التّاسع الهجري) أن الحكام الوحيدين الذين يسمون السُّلطان بحق هم حكام مصر. وهذا يتفق مع ما جرى عليه الأوروپيون في العصور الوسطى من إطلاق كلمة سلطان Soldan على حاكم مصر. يبدو أن الأمراء اللاحقين ببغداد لم يكونوا يُخصُّون بالدّعاء بعد الخليفة في الصّلاة، حتى نال عضد الدّولة هذا الشّرف عام 368 ه - 979 م، وهو ما لم يحصل عليه ملك قبله ولا بعده (مسكويه ج 6 ص 499). ↑

91. مسكويه ج 6 ص 60؛ كتاب العيون ج 4 ورقة 182 ب. ↑

92. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 334؛ ابن خلكان، وفقاً لرواية ثابت بن سنان. انظر د□وجاك Dvorak، أبو فراس، ص 114 وما يليها. ↑

93. «البريدي»: لقد حمل هذه النّسبة nisba ثلاثة إخوة هم أبو عبد الله أحمد وأبو يوسف يعقوب وأبو الحسين، وقد لعبوا دوراً مهماً خلال فترة انحطاط الخلافة العباسية في عهد المُقتدِر وخلفائه. زعيم هذه الأسرة هو أبو عبد الله الذي لم يقنع بالمناصب البسيطة التي منحه وإخوته إياها وزير الخليفة علي بن عيسى، فحصل من خليفته ابن مُقلة على حكومة إقليم الأهواز، كما حصل لإخوته على مناصب مهمّة أخرى مقابل مبلغ من المال بقيمة 20,000 درهم (عام 316 / 928). لقد تمكنوا من استغلال الفرص بشكل جيد، إذ بعد اشتراكهم في خلع الوزير بعد عامين، طلب منهم الخليفة المُقتدِر مبلغ 400,000 درهم مقابل منحهم حريتهم فدفعوه إليه دون أدنى صعوبة. وبعد مقتل المُقتدِر (عام 320 / 932) أخذ أبو عبد الله يفعل ما يحلو له فلجأ إلى أسلوب الابتزاز وأعمال العنف ليحصّل لنفسه ثروة لا بأس بها، وبقي إخوته في مناصبهم لكنهم حذو حذوه. استمر الوضع على حاله أثناء حكم الخليفة الرّاضي (322-329 هـ / 934-940 م) لأن صديقهم القديم ابن مُقلة كان قد احتل منصب الوزير آنذاك وصار له نفوذ عظيم في البلاد. لم يقدّموا العائدات التي كانوا يجنونها من أقاليمهم إلى خزينة الخليفة، بل احتفظوا بها لأنفسهم عن طريق الوثائق الكاذبة والرّشوة. لكن لم يكن لهذا الحال أن يستمرّ للأبد، فعندما اتخذ ابن رائق لقب أمير الأمراء وصارت بيده أمور الخلافة (324 = 936)،

تقدّم الخليفة بجيشه ضد أبي عبد الله بعد أن فشلت كل حيل هذا الأخير الماكر لاكتساب الحظوة لدى ابن رائق. لكن أبا عبد الله كان يعرف كيف يتصرف، فقد لجأ إلى عماد الدّولة البُوَيْهي في فارس Fars وأقنعه بسهولة بغزو الأهواز والعراق. ولما ثار خصم لابن رائق بشخص بجكم التُّركي Turk Bedikem صار ينحاز إلى هذا تارة وإلى الآخر تارة حسب الظّروف، وبعد انتصار بجكم Bedikem (عام 326/938) عيَّنه وزيراً للخليفة. لكنه عُزل بعد فترة وجيزة إثر وفاة بجكم Bedikem أثناء خلافة المتقي (329/941) فتولّى إمارة بغداد لمدّة قصيرة، وبعد أسابيع قليلة أرغمته القوات المتمرّدة على الرّجوع إلى واسط. وفي العام التّالي (330/942) أرسل أخاه أبا الحسين على رأس قوات إلى بغداد ممّا اضطر الخليفة وابن رائق إلى الاستنجاد بالحمدانيين في الموصل. عاث أبو الحسين فساداً وظلماً هناك، ولم يجد الحمدانيون صعوبة تُذكر في إخراجه من بغداد وحتى من واسط. تمكن الإخوة الثّلاثة من توطيد دعائمهم في البصرة مع أنهم اضطروا إلى خوض حرب باهظة الثّمن مع حاكم عُمان الذي قدم إلى البصرة بأسطوله بعد استيلائه على الأُبُلّة عام 330 هـ/942 م. ولحسن حظهم شبَّت النّار في الأسطول فاحترق واضطر العدو إلى الانسحاب إلى عُمان. قضت هذه الحروب على ثروة أبي عبد الله، وعلى الرّغم من أنه لم يتردد في قتل أخيه أبي يوسف والاستيلاء على كل أملاكه، فلم يستفد من ذلك كثيراً إذ توفي في السّنة ذاتها 332 هـ/944 م. أما الأخ الثّالث أبو الحسين، فسرعان ما دخل في صراع مع أتباعه أنفسهم بعد أن اتخذوا أبا القاسم ابن أبي عبد الله زعيماً لهم، فما كان منه إلا أن فرَّ هارباً إلى أمير القرامطة في البحرين. وبمساعدته تمكّن من فرض الحصار على ابن أخيه في البصرة ثم عقد صلحاً معه. لكنه سرعان ما عاود التّآمر من جديد وذهب إلى بغداد في محاولة منه للحصول على حكم البصرة، لكنه لم يفلح في ذلك وتمَّ إعدامه بعد محاكمته عام 333 هـ/945. في العام التّالي قام ابن أخيه أبو القاسم بعقد صلح مع معز الدّولة البُوَيْهي، لكن ذلك لم يدُم سوى لفترة وجيزة إذ أرسل الأخير جيشاً ضده عام 335، وفي عام 336 تقدَّم بنفسه إلى البصرة وألجأه للهرب إلى قرامطة البحرين. ومنذ ذلك الحين كفّ عن أداء أي دور سياسي مع أن معزّ الدّولة عفا عنه تماماً، ثم توفي عام 349 هـ = 960 م. انظر الموسوعة الإسلامية. ↑

94. مسكويه ج 6 ص 158؛ كتاب العيون ورقة 192 أ. ↑

95. كتاب العيون، ج 4 ورقة 247. من أجل كلمة نُدماء Nudama انظر بُرتون، ألف ليلة وليلة، ج 1 ص 46. تُطلق كلمة «نديم» على من هو مُقرَّب إلى الخليفة، وهو شرف كبير وخطير ايضاً. آخر خليفة كان له مجلس ندماء هو الرّاضي بالله 329 هـ/940 م. انظر السّيوطي، تاريخ الخلفاء، ترجمة إنكليزية. ↑

96. انظر □امبيري Vámbéry، «بُخارى»، الفصلين الرّابع والخامس. ↑

97. أحسن التّقاسيم للمقدسي، انظر خُدابَخش Khuda Bukhsh، دراسات هندية وإسلامية، ص 159-162. ↑

98. مسكويه، ج 6 ص 377. ↑

99. كتاب العيون، ج 4 ورقة 190 ب. ↑

100. المسعودي، ج 4 ص 23 وما يليها. ↑

101. المسعودي، ج 9 ص 24. ↑

102. الأوراق للصّولي (پاريس) ص 81. ↑

103. المسعودي، ج 9 ص 27؛ مسكويه ج 5 ص 489. ↑

104. مسكويه ج 5 ص 480. ↑

105. المسعودي، ج 9 ص 27. ↑

106. الأوراق للصّولي، ص 81. ↑

107. مسكويه، ج 5 ص 482. ↑

108. مسكويه، ج 5 ص 435. ↑

109. مسكويه، ج 5 ص 435. ↑

110. مسكويه، ج 5 ص 464. ↑

111. مسكويه، ج 5 ص 444. ↑

112. مسكويه، ج 6 ص 357. ↑

113. ابن تَغْري بَرْدي، ص 821. ↑

114. ابن الجوزي، ورقة 159 ب. ↑

115. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 353. ↑

116. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 366. ↑

117. مسكويه، ج 6 ص 298. ↑

118. مسكويه، ج 6 ص 444. ↑

119. كتاب العيون، ج 4 ورقة 146 أ. ↑

120. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 493. ↑

121. أمِدروز Amedroz، «إسلام»، ج 3 ص 335؛ مسكويه ج 6 ص 280. ↑

122. أمِدروز Amedroz، «إسلام»، ج 3 ص 336؛ مسكويه، ج 6 ص 293. ↑

123. مسكويه، ج 6 ص 354. ↑

124. مسكويه، ج 6 ص 194. ↑

125. مسكويه، ج 5 ص 210. ↑

126. مسكويه، ج 6 ص 217. ↑

127. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 405. ↑

128. مسكويه، ج 6 ص 293؛ ابن الأثير، ج 8 ص 398؛ ويقول ابن الجوزي إن المال المنفق على القصر قد بلغ ألف مليون دينار. ↑

129. مسكويه، ج 6 ص 219. انظر Guy Le Strange, Lands of Eastern Caliphate، ص 80. ↑

130. ابن تَغْري بَرْدي، ص 19. ↑

131. مسكويه، ج 6 ص 386. ↑

132. مسكويه، ج 6 ص 389. ↑

133. مسكويه، ج 5 ص 419. ↑

134. مسكويه، ج 6 ص 469. ↑

135. كتاب الوزراء للصّابي، ص 388؛ كتاب إرشاد الأريب لياقوت، ج 2 ص 120. ↑

136. إرشاد الأريب، ج 5 ص 349. ↑

137. ابن خلكان، رقم 720، نقلا عن عيون السّير للهَمَذاني. ↑

138. مسكويه ج 6 ص 481. ↑

139. مسكويه، ج 6 ص 514. على أنه قد نُسب إلى عضد الدّولة أشياء كثيرة ظلماً وعدواناً؛ فيحكي ابن تَغْري بَرْدي (ص 159 وما يليها) أنه خطب الأميرة الحمدانية جميلة لكن طلبه رُفض، فاغتاظ من ذلك وغضب واستولى على أموالها وتركها تعاني فقراً مدقعاً. وفي رواية أخرى يقال إنه أجبرها على السّكن في حي البغاء، فما كان منها إلا أن أغرقت نفسها في نهر دجلة. والحقيقة هي أن جميلة فرَّت مع أخيها، العدو اللدود لعضد الدّولة؛ فلما مات أخوها اعتقلها عضد الدّولة مع جاريتها وضمَّهما إلى حريمه. (مسكويه، ج 6 ص 507). ↑

140. المصدر ذاته، ص 119 ب- 120 أ. ↑

141. مسكويه، ج 6 ص 509؛ من أجل Fars انظر Guy Le Strange، ص 248. ↑

142. مسكويه، ج 6 ص 502. ↑

143. ملحق الكندي، نشرة غست Guest، ص 574. ↑

144. مسكويه، ج 6 ص 509. ↑

145. أحسن التّقاسيم للمقدسي، ص 449. ↑

146. مسكويه، ج 6 ص 464. ↑

147. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، طبعة سلمون Salmon، ص 56 وما يليها. ↑

148. ابن الجوزي، ص 120. ↑

149. القفطي، ص 226. ↑

150. ابن الجوزي، ورقة 120 أ؛ ابن الأثير ج 8 ص 518. ↑

151. يتيمة الدّهر، ج 2 ص 2؛ ابن الجوزي، ورقة 120 أ. ↑

152. إرشاد الأريب، ج 8 ص 286، وكتاب الأذكياء لابن الجوزي ص 38. ↑

153. مسكويه، ج 6 ص 511؛ ابن الأثير، ج 8 ص 518. ↑

154. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 9 ص 16. ↑

155. ابن الجوزي، ورقة 120 ب. ↑

156. مسكويه، ج 6 ص 511. ↑

157. ابن الجوزي، ص 161 ب. ↑

158. ابن الجوزي، ورقة 156 ب. ↑

159. انظر لاين پول، Moh. Dynasties، ص 139 وما يليها. ↑

160. ابن الجوزي، ورقة 182، 184 ب. ↑

161. انظر لاين پول، Moh. Dynasties، ص 69. ↑

162. كتاب العيون، ج 4 ورقة 147 أ-ب. ↑

163. مسكويه، ج 5 ص 508. ↑

164. كتاب العيون ورقة 163 ب. ↑

165. الأوراق للصّولي ص 55. ↑

166. كتاب العيون ورقة 166 ب. ↑

167. حول بجكم Bedjkem انظر الموسوعة الإسلامية؛ انظر أيضاً Weil «تاريخ الخلفاء» Gesch. d. Chalifen، ج 2 ص 664 وما يليها. ↑

168. مسكويه، ج 6 ص 26 وما يليها. ↑

169. كتاب العيون، ج 4 ورقة 164. ↑

170. كتاب العيون ورقة 179 أ. ↑

171. تمَّ تعيين بجكم كأمير للأمراء بدلاً من ابن رائق في شهر سبتمبر من عام 326 ه - 938 م. كان أول من وجَّه انتباهه إليهم هم الحمدانيون الذين لا يدفعون الجِزية، فانطلق إلى الموصل لمواجهة حسَّان الحمداني هناك. وبينما كان متغيباً ظهر ابن رائق فجأة في بغداد، ممّا اضطر بجكم إلى عقد صلح مع حسَّان عام 327 ه - 938 م والعودة سريعاً إلى العاصمة. سرعان ما عُقدت تسوية مع ابن رائق واستلم بناءً عليها حكومة حرَّان والرُّها Edessa وقنّسرين

والمنطقة الواقعة في الفَرات الأعلى والحصون الحدودية. وفي عام 329 ه - 941 م، باغت بعض الأكراد بجكم في إحدى حملاته وذبحوه. انظر الموسوعة الإسلامية، مادة بجكم. ↑

172. أصبح حاكماً على دمشق عام 318 وحاكماً على مصر عام 321. لكنه لم يحتلّ المنصب حتى عام 323 هـ، وفي عام 327 نال لقب الإخشيد، وفي عام 330 أضيفت الشّام إلى أراضي مملكته، كما أضيفت مكّة والمدينة في العام التّالي. ↑

173. كتاب المُغرب في حُلى المغرب لابن سعيد، ص 20. ↑

174. كتاب العيون، ورقة 227 ب. ↑

175. كتاب المُغرب، ص 39. ↑

176. كتاب العيون، ج 4 ورقة 208 ب. ↑

177. المصدر السّابق، ج 4 ص 212. ↑

178. كتاب المُغرب، ص 35. ↑

179. كتاب المُغرب، ص 15، 37. ↑

180. المصدر السّابق، ص 34. ↑

181. المصدر السّابق، ص 37. ↑

182. كتاب المُغرب، ص 35. ↑

183. كتاب العيون، ورقة 209 ب. ↑

184. لا بدّ أن يسبق هذه العقوبة محاولات للارتداد عن الإسلام، وقد حدث في أوائل عهد الفاطميين أنه رفع إلى القاضي أن نصرانياً أسلم، ثم ارتدّ، وقد جاوز الثّمانين، فاستتيب فأبى، فأنهى أمره إلى الخليفة، فسلمه لرئيس الشّرطة، فأرسل إلى القاضي طالباً منه إحضار أربعة من الشّهود ليستتيبوه، فإن تاب ضمن إعطاءه مئة دينار، وإن أصرّ على ارتداده يُقتل؛ فعرض عليه الإسلام فأبى، فقتل، ثم أغرقت جثته في النّيل (ملحق كتاب الكندي طبعة Guest، ص 593). وقد حدث في بلدة سروج بالعراق في القرن الثّالث الهجري (التاسع الميلادي) أن رجلاً من المتشددين في الإسلام عذب نصارى مرتدّين بشتى أنواع التّعذيب ليعيدهم إلى الإسلام، فأمر به القاضي فضُرب وسُجن (ميخائيل السّرياني Michael Syrus ص 535).
يقول أبو العلاء (توفي عام 449 ه - 1057 م) في اللزوميات، طبعة بومباي، ص 250):

وليس ذلك من حبٍّ قد أسلم الرّجل النّصران مرتغباً لإسلام
للنّاظرين بأسوار وعلام — أو شاء تزويج مثل الظّبي معلمة

ومن كبار رجال الدّين المسيحيين من دخلوا الإسلام، فصبّ عليهم مؤرّخو الكنيسة لعنتهم؛ ففي أواخر القرن الثّاني الهجري (الثامن الميلادي) اتهم رئيس الأساقفة النّسطوريين بمدينة مرو باللواط اتهاماً علنياً، فاعتنق الإسلام؛ وكان يشهّر بالمسيحيين لدى البلاط (أبو الفرج بن العبري Barhebraeus, Chron. Eccles. iii,171 ff). وفي حوالي عام 360 ه - 970 م اعتنق أسقف أذربيجان الإسلام بعد أن قبض عليه يزني بامرأة مسلمة (المصدر ذاته، ص 247). وفي سنة 407 ه - 1016 م هُدّد رئيس أساقفة مدينة تكريت بالعزل بسبب ارتكابه للزّنا، فدخل الإسلام وتسمّى بأبي مسلم واتخذ عدّة زوجات. ويروي المؤرّخون المسيحيون مسرورين أنه لم ينل من التّشريف عند الخلفاء ما كان يناله وهو رئيس لأبناء طائفته، وأنه صار متسولاً في أواخر حياته. (Elias Nisibenus, 226; Barhebr. Chron. Eccles, iii, 287 ff). وحتى في الأندلس خُلع في القرن الثّالث الهجري (التاسع الميلادي) أحد الأساقفة الكبار، وهو صموئيل أسقف مدينة إلبيرة Elvira لسوء سيرته، فاعتنق الإسلام (Graf Baudissin, Eulogius und Alvar, 1872, p. 162). وقد تمثّل أبو العيناء بمثل فريد في القرن الثّالث الهجري، وذلك أنه استأذن يوماً على الوزير فطلب منه الحاجب الانتظار لأن الوزير يصلّي، وكان حديث عهد بالإسلام، فقال: لكل أمر جديد سحره الخاص. ↑

185. أية محاولة من شخص مسلم لإرغام مسيحي يدفع الجِزية على اعتناق الإسلام بالقوة يُعاقب بالقتل. وهذا القانون موجود في الإمبراطورية التُّركية في يومنا الحاضر. ↑

186. في الرّسائل هناك وثيقة إلى القاضي تؤكد على هذه النّقطة بشكل خاص، باريس، ص 126. ↑

187. كتاب الوزراء للصّابي ص 248. ↑

188. رسائل الصّابي، مخطوط لايدن، ورقة 211 أ. ↑

189. انظر الحاشية في نهاية هذا الفصل. ↑

190. نولدكِه Nöldeke، الطّبري Übersetzung (ترجمة)، ص 68، حاشية. ↑

191. Michael Syrus, ed. Chabot, S. 519. ميخائيل السّرياني نشرة شابو؛ وكان أهل الذّمة في الموصل يدفع كل واحد منهم ديناراً؛ وكان نصف ما يحصل من اليهود يذهب لرئيسهم

والنّصف الآخر للحكومة (R. Petachjä, S. 275) ↑

192. ديونيسوس التَّلمحْري وأبو الفرج بن العبري Dionysus of Tellmachre, 148, Barhebraeus, 1372.. ↑

193. من تذكرة ابن حمدون (أمدروز عام 1908، ص 487 وما يليها). ↑

194. كانت شارة الكاثوليكوس هي الصّولجان والقلنسوة العالية، الجاحظ، ج 2 ص 76؛ البيهقي، ص 566. ↑

195. ميخائيل السّرياني Michael Syrus 519., ↑

196. أبو الفرج بن العبري Barhebraeus, I, 275. ↑

197. ابن العبري Barhebraeus، ج 1 ص 384، وميخائيل السّرياني Michael Syrus 532. ↑

198. H. Graetz, Geschichte der Juden v, 276ff.

وفيما يتعلّق بالمراجع العربية التي تكلمت عن رئيس الهود انظر: Goldziher: Revue des Etudes Juives VIII,121 FF. ؛ هناك اعتقاد سائد بأن رئيس اليهود طويل الذّراعين بحيث تلامس أصابع يديه ركبتيه. انظر مفاتيح العلوم Van Volten ص 35. ↑

199. بنيامين، ص 61. وعند بتاخيا أمره نافذ في دمشق وعكا أيضاً. ↑

200. بنيامين، ص 98. ↑

201. Rainer, Mitteil. Samml. , V, 130. ↑

202. بتاخيا، ص 289. ↑

203. عن اليهود في القرون الوسطى انظر ديبنغ Depping، Die juden im Muttelalter، طبعة شتوتغارت، 1834. ↑

204. ويُذكر أن عددهم مئتان في مخطوط واحد فقط. ↑

205. تافل وتوماس Tafel und Thomas, Urkunden zur alteren Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig فيينا، 1856، ج 2 ص 359. ↑

206. يتاخيا، ص 279. ↑

207. ص 19، يتاخيا ص 280. ويقال إن بها اليوم أكثر من أربعين ألف يهودي، لهم إحدى وعشرون بيعة؛ انظر كتاب Obermeyer, Modernes Judentum، ص 23، □يينا 1907. وفي الطّبعة الأخيرة لكتاب بنيامين أربعون ألفاً، وهذا لا يتفق مع ما يقوله يتاخيا، ولا مع ما كان يتحصل من الجِزية. ↑

208. ابن القفطي، ص 194. ↑

209. هذه الأرقام تقريبية لأن بنيامين لم يزر المشرق، ويقال إنه كان في مدينة خيبر، وهي مدينة صغيرة بجزيرة العرب، خمسون ألفا من اليهود. ↑

210. يتاخيا، ص 323. ↑

211. يتاخيا، ص 414. ↑

212. يتاخيا، ص 394. ↑

213. يتاخيا، ص 439. يقول أحد كتّاب القرن الرّابع عشر الميلادي إن مدينة أبرقوة Abarquh بفارس لا تسمح لليهود بالبقاء فيها أكثر من أربعين يوماً، فإذا مكثوا فيها أكثر من ذلك فهم يعرِّضون حياتهم للخطر. انظر Hamdallah Mustawfi, G. Le Strange, 1903 ص 65 ↑

214. أحسن التّقاسيم للمقدسي، يتاخيا ص 184. ↑

215. وهو يتفق مع المقدسي حيث يقول (ص 202): «ويهود قليل». ويقال إن اليهود كانوا في العصور القديمة يؤلفون أكثر من ثمن السّكان

Caro, Wirtschaftsegeschichte, I, 27. ↑

216. ابن خُرداذبِه، ص 14. ↑

217. ابن خُرداذبِه ص 125؛ ويقول قُدامة ص 251 إن جِزية أهل الذّمة بلغت مئتي ألف درهم عام 204 هـ. ↑

218. يتاخيا، ص 156. ↑

219. أحسن التّقاسيم للمقدسي، ص 126. ↑

220. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 522. ↑

221. قُدامة، ص 209. ↑

222. ميخائيل السّرياني Michael Syrus, 497. ↑

223. السّبكي، ج 2 ص 193. ↑

224. رسائل الصّابي، مخطوط لايدن، ورقة 211 أ. ↑

225. كتاب الفصل لابن حَزْم، ج 2 ص 115. ↑

226. كتاب الخَراج لأبي يوسف، ص 69. ↑

227. أحسن التّقاسيم للمقدسي، ص 183. ↑

228. في عام 210 ه - 825 مثلاً، قام الطّبيب جبريل وزميله ميخائيل باختيار الجاثليق النّسطوري (ابن العبري Barhebraeus, Chron, Eccles. , III, 187) ويقول أبو نواس في قصيدته:

سألتُ أخي أبا عيسى	وجبريل، له عقل
فقلت: الرّاح تعجبني	فقال: كثيرها قتل
فقلت له: فقدّر لي	فقال، وقوله فصل
رأيت طبائع الإنسا	ن أربعة، هي الأصل
فأربعة لأربعة	لكل طبيعة رطل

ويقول شاعر نيسابوري:

لمّا رأيت الجسم ذا اعتلال	ودبّت الآلام في أوصال
دعوت شيخاً من بني الجوالي	بطريق عم جاثليق خال
فسلّ سيفاً ليس للقتال	ومرهفاً ليس من الصّوالي

(انظر يتيمة الدّهر، ج 4 ص 306). ↑

229. كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 69؛ أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 183؛ وقد جاء في حكاية أبي القاسم، نشرة مِتس Mez، ص 42: «كأنها نعل كنباتي تصرّ من دكّان ابن عذره اليهودي». وفي كتاب أبي نعيم (مخطوطة لايدن ورقة 11 أ) ورد أن اليهود اشتغلوا بصناعات وضيعة كالحجامة والدّباغة والقصارة، كما عملوا كقصابين. ↑

230. ص 35. ↑

231. ص 40. ↑

232. ص 32، 43، 44، 49. ↑

233. يحيى بن آدم، ص 55؛ Sachau, Muhammedanisches Recht, 787. وفي بلاد الغال بفرنسا مثلاً كانت دية الفرنجي الحرّ دية الرّوماني مرتين. ↑

234. انظر قُدامة، باريس رقم 5907. ↑

235. لم يكن يسمح للنّصارى من حيث المبدأ أن يحملوا في مواكبهم رايات أو صلباناً أو مشاعل، (كتاب الخَراج)؛ ولكن هذا لم يكن ينفّذ عملياً. ↑

236. Dionys. von Tellmachre, 176. انظر Guy Le Strange، «بغداد في عهد الخلافة العباسية»، ص 212 وما يليها. ↑

237. انظر Guy Le Strange، «بغداد في عهد الخلافة العباسية»، ص 207 وما يليها. ↑

238. وحوالي عام 300 هـ 912 م كان الرّجل يبتاع لابنه قلاية a cell في الدّير إذا أحب الرّهبنة ومال إليها (إرشاد الأريب لياقوت، ج 2 ص 24). ↑

239. كتاب الدّيارات Book of the Cloister للشُّابشتي، ورقة 115 ب). ومن أراد معرفة حياة الرُّهبان في القرن الثّالث الهجري فلينظر Budge: Book of Governors, CXLCII ff ↑

240. تاريخ أبي صالح، طبعة إيتس Evetts ص 54 ب. ولما كانت قوانين الرّهبنة بمصر تحتم الفقر في طالبيها فإن أديرة مصر كانت تنشأ على نظام يخالف نظام أديرة الشّام تماماً. ↑

241. ميخائيل السّرياني Michael Syrus, 556 ff. ↑

242. أبو الفرج بن العبري Barhebraeus Chron. Eccles. , I, 432 ff ↑

243. انظر شلومبرغر Schlumberger: Epopee Byzantine ص 68. وهكذا فعلت الكنيسة الإنكليزية مع الكاثوليك حتى القرن التّاسع عشر، وكما فعلت بعدها الكنيستان الإسپانية والصّقلية مع البروتستانت. ↑

244. ميخائيل السّرياني Michael Syrus ص 517. ↑

245. يحيى بن سعيد، نسخة باريس، ورقة 83 ب. ↑

246. Sachau, Mitteil Des Sem für Orientalische Sprachen, X, 2. حول الوضع القانوني للمسيحيين في الإمبراطورية السّاسانية ↑

247. الكندي، نشرة غست Guest، ص 131. ↑

248. يحيى بن سعيد، نسخة باريس، ورقة 81 أ. ↑

249. تالكويست Tallquist، ص 321؛ وملحق كتاب الكندي، ص 554. ↑

250. ابن القفطي، ص 194 طبعة ليپرت Lippert. ↑

251. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 8 ص 174. ↑

252. Sachau, Syrische Rechtsbücher, II, 57. ↑

253. المصدر السّابق، 67، 169. ↑

254. الكندي، طبعة غست Guest، ص 351. ↑

255. الماوردي، نشرة Enger، ص 109. ↑

256. وهكذا جاء في نسخة عهد لقاضٍ في كتاب ابن قُدامة، كتبت بعد عام 316 ه - 928 م. ↑

257. Sachau Syrische Rechtsbücher II, S. VI ↑

258. المصدر السّابق، ص 681. ↑

259. Graf Baudissin Eulogius und Alvar, p. 13 ↑

260. Petachjä, 275 ↑

261. Sachau muhammedanisches Recht, S. 739؛

الكندي، ص 351. ووفقاً لما جاء في نسخة ابن قُدامة كان القاضي يقبل شهادة النّصارى واليهود بعضهم على بعض. وكان على المحاكم النّصرانية في البلدان الإسلامية قبول شهادة المسلم على النّصراني. لكنهم كانوا يصرون على مخافتهم لله وعدلهم، وهي الصّفات التي يتطلبها القاضي لدى مثول الشّهود أمامه. Syrische Rechtsbücher، ج 2 ص 107. ↑

262. يذكر بنيامين (ص 77) ومرسيليوس أنه كان يُعفى منها من تقل سنه عن خمس عشرة سنة. وفي الدّولة الفارسية كان لا يدفعها إلا من بلغ العشرين انظر. Nöldeke؛ الطّبري، ص 247. ↑

263. ابن خرداذبه، ص III. ↑

264. ابن حَوْقَل ص 127. ولما أخذ باسيليوس مدينة حلب عام 358 ه - 959 م تقرّر أن يدفع كل رجل بالغ ديناراً بالإضافة إلى الضّرائب الأخرى، يحيى بن سعيد ورقة 98 ب. ↑

265. Benjamin, 77وقارن ما حكاه الرّحالة الصّيني عن الجِزية عند الفرس لدى نولدِكِه: Nöldeke, Tabari Übersetzung, 246. ↑

266. Petachjä, 288, 275. ↑

267. انظر كتاب تافل وتوماس Tafel und Thomas, Urkunden.. ، ج 2 ص 359. ↑

268. Rainer, Mitteil. aus den Samlungen.

ج 2/3 ص 176. ↑

269. ميخائيل السّرياني Michael Syrus, S. 516، وقد صار يفرض على الخنازير بالشّام فيما بعد ضرائب خاصة بالنّسبة للنّصارى، فيحدثنا بايلو البندقي وهو يصور أنه حتى ذلك الحين يجب على كل من أراد أن يذبح خنزيراً أو يشتري أن يدفع للسّلطان أربعة دنانير وقد ألغى البنادقة ذلك؛ انظر: Tafel und Thomas: Urkunden.. , II, 60 ↑

270. كما كان الحال في الإمبراطورية الفارسية (. Nöldeke, Tabari S. 242)، وانظر ديونيسيوس، ص 61، ويحيى بن آدم، ص 56. ↑

271. انظر: Leovilgildus, De habitu clericorum (Esp. sagr. XI): Vectigal, quod omni lunari Mense pro Christi nomine solvere cogimur. Eulogius Memoriale I, 247: quod lunariter solvimus cum eravi moerore tributum. ↑

272. رسائل الصّابي، ص 112 طبعة بعبدا سنة 1898. ↑

273. في أواخر العهد الأموي في مصر وُضعت في معصم كل راهب حلقة من حديد، وجُعل على كل نصراني وسَمْ بصورة أسد على يده، انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 492. ↑

274. Josua Stylites, ed. Wright, S. 42. وكذلك في مدينة ستراسبورغ في القرن الرّابع عشر الميلادي كان فقراء البلد يحملون علامة ظاهرة Brucker, Strassburger Zunft und polizeiverordnungen, p. 61. وفي القرن التّاسع كانت النّساء المثبتات في ديوان الزّواني بالصّين يحملن طوقاً من النّحاس مطبوعاً بخاتم الملك ويعلقنه في أعناقهن. انظر (Renaud, Relation des voyages p 69.) ↑

275. انظر نشرة شابو Dionys. v. Tellmachre, ed. Chabot, p. 148. ↑

276. الأغاني، ج 3 ص 26. ↑

277. البيان والتّبين للجاحظ، ج 1 ص 41. ↑

278. المسعودي، ج 9 ص 14. ↑

279. أبو يوسف، ص 70. ↑

280. يحيى بن سعيد، ص 83. ↑

281. M. Wansleb: Beschreibung von Ägypten, p 57. ↑

282. كتاب الخَراج، ص 69. ↑

283. تاريخ الطّبري ج 3 ص 713. ↑

284. كتاب الخَراج ص 75. ↑

285. الكندي، ص 424، وكان لباس الرّأس عند اليهود يسمى بمصر بُرطُلَّة burtullah، وكانت هذه في المشرق جزءاً من لباس الجاثليق. ↑

286. انظر المستطرف، ج 2 ص 222؛ مفيد العلوم، ص 200 أ. ↑

287. البيان للجاحظ، ج 1 ص 141. ↑

288. الكندي، ص 390. ↑

289. تاريخ الطّبري، ج 3 ص 1389 وما بعدها؛ خطط المقريزي، ج 2 ص 494. وكان للصّابئة أيضا لباس ذو لون خاص (يتيمة الدّهر، ج 2 ص 45). وقد حدث لأول مرّة في الغرب عام 1215 م في مؤتمر لاتيران Lateran أن طلب إيجاد علامة خاصة لليهود، ولعل هذا أتى من معرفة الغربيين بأنظمة الشّرق. ↑

290. تاريخ الطّبري، ج 3 ص 1419، ويحكي بنيامين (ص 24) أن اليهود كانوا يُمنعون في القرن الثّاني عشر الميلادي من ركوب الخيل بالقسطنطينية. ↑

291. وبسبب ذلك هُدّم دير خليل يسوع «Elias Nisibenus . «Khalil Yasu'، ص 188. يقول الطّبري إن ذلك قد حدث عام 272. ↑

292. Enger's edition،

ص 428. ↑

293. Caro،

ج 1 ص 296. ↑

294. أدب الكاتب لابن قتيبة، ص 26. ↑

295. يتيمة الدّهر، ج 3 ص 97. ↑

296. ابن القفطي، ص 398. ↑

297. كتاب الحيوان، ج 1 ص 55. ↑

298. كتاب «الهند»، ج 2 ص 161. ↑

299. فيما يتعلّق بالشّام انظر أحسن التّقاسيم للمقدسي، ص 183؛ وفيما يتعلّق بمصر انظر يحيى بن سعيد، نسخة باريس، ورقة 122 أ. ↑

300. عيون الأخبار لابن قتيبة، ص 99. ↑

301. المصدر السّابق، ص 62. ↑

302. كتاب الوزراء للصّابي، ص 95. ↑

303. مخطوطة باريس رقم 4439. ↑

304. الكندي، ص 203. ↑

305. تاريخ الطّبري، ج 3 ص 1438. ↑

306. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد، ص 30. ↑

307. ابن تَغْري بَرْدي، ج 2 ص 171. وكان النّصارى في مصر مثلاً يُستخدمون كثيراً في جبي الضّرائب، كما تدل على ذلك أوراق البردي. وفي عام 349 ه - 960 م كان أحدهم يطبع البراءات بختمه الذي عليه الصّليب. انظر (Karabacek, Mitteilungen II/III S. 168). ↑

308. كتاب الوزراء للصّابي، ص 240. ↑

309. كتاب الدّيارات للشّابشتي Schabušti، برلين، ورقة 51 أ. ↑

310. مسكويه، ج 5 ص 352. ↑

311. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد، ص 164 ↑

312. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد، ص 112. ↑

313. الأوراق للصّولي، باريس، ص 96. ↑

314. مسكويه، ج 5 ص 465. ↑

315. مسكويه، ج 6 ص 310. ↑

316. ديوان ابن الحجاج، ج 10 ص 18. ↑

317. مسكويه، ج 6 ص 511. ↑

318. Eutychius, Corpus Script, Christ, Orient, p. 58. ↑

319. ابن تَغْري بَرْدي، ج 2 ص 233. ↑

320. ملحق كتاب الكندي، ص 595، 597. ↑

321. يحيى بن سعيد، ص 83؛ المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج 1 ص 494. ↑

322. يحيى، ورقة 81 أ. ↑

323. يحيى، ورقة 84 ب. ↑

324. يحيى، ورقة 82 ب. ↑

325. أبو الفرج بن العبري Barhebraeus, Chron. Eccl. III, 259. ↑

326. كتاب الوزراء للصّابي، ص 443؛ ابن الجوزي، ورقة 147 ب؛ ابن العبري Barhebraeus, Chron. Eccl. ص 262، وما يليها. ↑

327. ابن الجوزي، نسخة برلين، ورقة 159 أ. ↑

328. ولعل أفضل ما يشهد بهذا أن المقدسي، وقد كان بمصر في أواخر القرن الرّابع، يقول عن أهل مصر: يتحدث المسيحيون بالقِبْطية (ص 203)؛ بينما يقول أسقف أشمون بمصر في كتابه الذي ألفه حوالي عام 400 ه - 1010 م إنه قد قام بترجمة الوثائق القِبْطية واليونانية إلى اللغة العربية، إذ أن معظم النّاس لا يفهمون هاتين اللغتين بشكل وافٍ. Historia Patriarcharum، طبعة بيروت، 1904، ص 6. وإن الشّعر القِبْطي الشّعبي الذي عرفناه من القرن العاشر الميلادي هو شعر ديني خالص. ↑

329. أبو صالح، ص 286 نقلاً عن كتاب فضائل مصر للكندي، والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 24 وما يليها. ↑

330. يحيى بن سعيد، ورقة 92 أ. ↑

331. يحيى، ورقة 92 ب. ↑

332. تاريخ اليهود Gesch. der Juden، ج 5، الطّبعة الرّابعة، ص 266. ↑

333. راجع دي خُوِّيْه De Goeje, Z. D. M. G. ، ص 52، 77. نقلاً عن ابن الجوزي. ↑

334. Guyard, Grand Maître des Assassins, p. 14. (قبل الإسماعيليين بفترة طويلة كانت المناظرات العامة تعقد بين النّصارى والمسلمين. انظر خُدابَخش «دراسات: هندية وإسلامية» ص 58). ↑

335. الكامل في التّاريخ لابن الأثير، ج 9 ص 82. ↑

336. المصدر السّابق، ص 81. ↑

337. يحيى بن سعيد، ورقة 113 أ؛ المقريزي (المواعظ والاعتبار ج 1 ص 195). لم يكن الحكم لينفذ حقاً، بل كان الرّجل المحكوم عليه يساق في شوارع المدينة وفي عنقه رأس رجل قتيل. ولا نجد مثالاً آخر لهذه العقوبة في القرن الرّابع. ↑

338. De Sacy: Exposé de la religion des Druses, p. أوسع تاريخ للحاكم هو ما رواه CCLXXVIII ومايليها. لكنه لم يرجع إلى تاريخ يحيى بن سعيد المعاصر للحاكم، وهو مؤرّخ ثقة معتدل. ومن خلال كتابه خاصة نستطيع معرفة الحوادث بحسب ترتيبها التّاريخي لأول مرة، أما ما كتبه المؤرّخ المعاصر الآخر، الأسقف سيـ□يروس Bishop Severus فهو أشبه بقصص الأولياء. ↑

339. Becker انظر المحاسبي Al-Muhasibi (توفي عام 420 ه - 1029 م) التي ذكرها بيكَر في كتابه Beitrage zur Geschichte Ägyptens، ج 1 ص 61. ↑

340. يحيى، ص 122. ↑

341. يحيى، ص 131 أ. ↑

342. يحيى، ص 133 ب. لا بدّ أن الأنظمة المتعلّقة باللباس كانت تتجدّد من حين لآخر؛ في عهد النّاصر محمّد بن قلاوون Qalaunid al-Nasir في القرن الثّامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كان المسيحيون يؤمرون بلبس الثّياب الزّرقاء، واليهود بلبس الثّياب الصّفراء، بينما يضع السّامريّون Samaritans عصائب حمراء حول رؤوسهم. ولا يزال هؤلاء حتى عصرنا الحالي، في فلسطين، يضعون على رؤوسهم قبعات ذوات أشرطة حمراء. ↑

343. حُسن المحاضرة للسّيوطي، ج 2 ص 129. ↑

344. مُروج الذّهب للمسعودي ج 5 ص 320. ↑

345. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 323. ↑

346. راجع غولدتسيهر Goldziher, ZDMG, 41, S. 31 ff. وكانوا إباضيّة نكاريّة؛ أما في المشرق فكانوا على مذهب الصّفرية المتطرّفين. وحوالي عام 400 هـ / 1000 م كانت فرق الخوارج كلها قد بادت. وفي أيامنا هذه لم يبق منهم جماعةٌ مهمّة إلا عرب عُمان ومن تأثر بهم في شمال أفريقيا. ↑

347. راجع كتاب:

Julius Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam, Berlin 1901, S. 91. ↑

348. رسائل أبي بكر الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص 49. ↑

349. تاريخ بغداد، مكتبة باريس الأهلية ص 14 ب، ويقول المقدسي (ص 126): إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناسة فإنها سنّيّة. ↑

350. رسائل الجاحظ ص 9. ↑

351. أحسن التّقاسيم للمقدسي 126. ↑

352. ناصر خسرو ص 87. ↑

353. المصدر ذاته. ↑

354. وفيات الأعيان لابن خلّكان طبعة ستِنفِلد 1835ج 1 ص 37، انظر أيضا طبقات السّبكي ج 2 ص 84. ↑

355. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 179. ↑

356. ص 42. ↑

357. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 96. ↑

358. المصدر ذاته، ص 415. ↑

359. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 395، وقد تمثل أحد الشّعراء بذكر نساء قمّ الشّعبيات. (يتيمة الدّهر ج 4 ص 135)، ومنذ القرن الثالث الهجري كان للإماميّة إلى جانب ذلك غلبة في مدينة الرّقة إحدى المدن الصّغرى بقوهستان (البشاري المقدسي ص 323)؛ وقد كان عند رجل جبة وهبها له أحد كبار الإماميّة فاشتراها أهل قمّ بثلاثين ألف درهم. ↑

360. ياقوت، ج 4 ص 176. ↑

361. طبقات السّبكي ج 2 ص 194. ↑

362. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 399. ↑

363. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 388. ↑

364. رسائل الهَمَذاني ص 424-425، وابن حَوْقَل ص 268. أحمد بن يحيى، نشرة أرنولد ص 5. ↑

365. خطط المقريزي ج 2 ص 352. ↑

366. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 166 ب. ↑

367. Wellhausen, Oppositionsparteien, S. 99. ↑

368. ابن تَغْري بَرْدي، ج 2 ص 338. ↑

369. فليس من الضّروري أن نردّ الآراء المتعلّقة بظهور المسيح إلى اليهود بجنوب جزيرة العرب، وهم الذين يعدّون آباء هذه المقالة أنظر مقالة فريدلِندَر Friedläner, ZA, 23, S. 24 ↑

370. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 178 أ. ↑

371. يتيمة الدّهر ج 2 ص 206. ↑

372. كتاب العلل للقمّي مخطوط برلين ورقة 135 أ. ↑

373. دخل المأمون بغداد من خُراسان عام 204 هـ، فكان لباسه هو وأصحابه وأعلامهم الخضرة (كتاب بغداد لطيفور طبعة كيلر Keller ص 2)، وكان ينصب على أعلى النّوبهار ببلخ الرّماح عليها شقاق الحرير الخضر، (مُروج الذّهب ج 4 ص 43)، وربّما كان هذا اللون شعار خُراسان. ↑

374. ابن الجوزي مخطوط برلين ورقة 35 أ. ↑

375. انظر مثلاً ناصر خسرو ص 48، وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 408. ↑

376. كتاب الوزراء للصّابي ص 170. ↑

377. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج 6 ص 94، 400 وغولدتسيهر Goldziher: Kultur der Gegenwart. ↑

378. انظر مُروج الذّهب ج 8 ص 374. ↑

379. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 126، وكان من أثر هذا النّزاع، في أمر علي ومعاوية أن معاوية صار له شأن ديني؛ ويحكي المسعودي (مُروج الذّهب ج 5 ص 14) أن قبر معاوية بالباب

الصّغير بدمشق، وهو يُزار إلى هذا الوقت «وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة، وعليه بيت مبني يفتح كل يوم اثنين وخميس». ↑

380. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 399؛ والمُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 60 ب. ↑

381. أبو الفداء تحت عام 236. ↑

382. W. Sarasin, Das Bild Alis bei den Historikern der Sunnah. ↑

383. الدّيوان: باريس ورقة 90 وما يليها. ↑

384. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 29 ب. ↑

385. أبو الفداء عام 351 هـ. ↑

386. الأغاني ج 19 ص 141. ↑

387. الكندي ص 198. ↑

388. المصدر ذاته، ص 204. ↑

389. يظهر أن هذه العبارة أصبحت العلامة التي يعرف بها السّنّي، ومن النّوادر أن نفطويه (توفي عام 323 هـ) حكى عن بعض الإماميّة أنه قيل له: معاوية خالك؟ فقال لا أدري، أمي نصرانية، والأمر إليها (إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 313). Lane-Poole, 99, 599 tr. ↑

390. كتاب اتّعاظ الحُنفا بأخبار الخُلفا للمقريزي ص 87. ↑

391. المواعظ والاعتبار للمقريزي 339. ↑

392. ابن تَغْري بَرْدي طبعة كاليفورنيا ص 91، وابن الأثير ج 9 ص 126. ويقول ابن الأثير إنه أخرج عن المدينة فقط، ولم يقتل. ↑

393. يحيى بن سعيد ورقة 116 أ؛ وفي هذه السّنة نفسها وصلت قافلة الحج فأراد العامة حملهم على سبّ السّلف، فأبوا، فحلّ بهم مكروه شديد (خطط المقريزي ج 1 ص 342). ↑

394. المواعظ والاعتبار المقريزي ج 2 ص 431، وملحق استيفاء أخبار الولاة والقُضاة للكندي ص 600. ↑

395. يحيى بن سعيد ورقة 199 أ. ↑

396. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 202. ↑

397. البكري ص 75. ↑

398. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 126. ↑

399. كتاب الوزراء للصّابي ص 37. ↑

400. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 146. ↑

401. تحت كلمة كرخ بغداد. tr ,95.. ↑

402. تاريخ الطّبري ج 3 ص 2164. Guy Le strange, Baghdad, pp. 95, 154 tr. ↑

403. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 29 ب. وكان ببغداد طائفة من المكدِّين يدّعون أنهم شيعة ويحملون السّبح والألواح من الطّين، ويزعمون أنها من قبر الحسين بن عليّ (yat. III) فيتحفون بها الإماميّة. ولا تزال اطباق الطّين تباع إلى اليوم، يشتريها الإماميّة ليضعوها امامهم عند الصّلاة لكي تقع عليها جباههم كلما سجدوا. ↑

404. تجد هذا مفصلاً عند مسكويه ج 5 ص 413، ومختصراً عند ابن الأثير ج 8 ص 204، وعند ابن تَغْري بَرْدي طبعة لايدن ج 2 ص 253 – 254. ↑

405. مسكويه ج 6 ص 495. ↑

406. وقد أضيف لهذا الكتاب فيما بعد صبغة اعتقادية كلامية، تاريخ ابي الفداء تحت عام 323 هـ. ↑

407. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 67 أ، وابن الأثير ج 9 ص 278؛ ومسكويه ج 6 ص 37، هو يذكر الفراغ من المسجد والتّجميع فيه من غير زيادة في البيان. ↑

408. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 13. ↑

409. مسكويه ج 6 ص 123. ↑

410. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 397. ↑

411. المُنتظم لابن الجوزي ورقة 93 ب؛ وكتاب الوزراء للصّابي ص 483؛ وابن الأثير ج 8 ص 403-407؛ وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 364. ولا نجد قط ذكراً لروايات ألفت لتمجيد الشّهداء كالتي نراها اليوم عادة. رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص 37. ↑

412. الآثار الباقية للبيروني طبعة أوروبا ص 326. ↑

413. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 95 ب، وابن الأثير ج 8 ص 407، وقد أخطأ ابن تَغْري بَرْدي (2 ص 427) بجعله ذلك عام 360 هـ. ↑

414. عجائب المخلوقات للقزويني، I ص 68. ↑

415. كتاب العلل للقمّي ص 99 ب. ↑

416. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 490. ↑

417. كتاب الوزراء للصّابي ص 371. ↑

418. المُنتظَم لابن الجوزي برلين ورقة 143 أ – 144 ب. ↑

419. فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام 382 هـ (المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 134 أ) وعميد الجيوش عامي 392 ه - 406 هـ كتاب الوزراء للصّابي ص 482-483، والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 147 ب، والكامل لابن الأثير ج 9 ص 184. ↑

420. المُنتظَم لابن الجوزي، ورقة 178 أ. ↑

421. انظر أيضاً ابن حَوْقَل ص 163. ↑

422. مُروج الذّهب ج 4 ص 289، ج 5 ص 68. ↑

423. ابن حَوْقَل ص 163. ↑

424. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 380. ↑

425. المصدر ذاته، ج 9 ص 13. ↑

426. تاريخ الطّبري ج 3 ص 1407. ↑

427. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 46، 333. ↑

428. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 427. ↑

429. نشرة شراينر Schreiner. ZDMG. 53, S. 81. ↑

430. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 68. ↑

431. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 203؛ وابن تَغْري بَرْدي ص 123. ↑

432. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 333. ↑

433. كتاب الخَراج لقُدامة بن جعفر (توفي عام 337 ه - 948 م)، مخطوط رقم 5907 بمكتبة باريس ورقة 10 أ. وكلمة أصل التي وردت في كتاب الوزراء للصّابي (ص 11) لها هذا المعنى. ↑

434. انظر في هذا Amedroz, JRAS, 1913, S. 829 ff. ، وأيضاً مسكويه ج 6 ص 338، وكان يُعَيَّن على الزّمام عادة رجلٌ من أصحاب المال. وكذلك كانت الدّواوين الصّغيرة التي تتولّى إدارة ضياع نساء الخلفاء تنقسم إلى الفرعين المتقدّمين، وكان يتقلّد كلَّ واحد منهما رئيس. انظر مسكويه ص 390. ↑

435. جاء في كتاب الوزراء للصّابي (ص 189) أنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد وأبي القاسم عبيد الله بن سليمان وأبي العبّاس بن الفُرات وبدر كما حصل في عهد هذا الخليفة. ↑

436. ويسمّى أيضاً ديوان الدّار الكبير كتاب الوزراء للصّابي، ص 262. مسكويه 5، 324. ↑

437. كتاب الوزراء للصّابي ص 77. ↑

438. كتاب الخَراج لقُدامة ص 2 – ب. ↑

439. قُدامة: المصدر ذاته، ص 8 أ-9 ب. ↑

440. المصدر ذاته، ص fol. 8.. ↑

441. مسكويه ج 5 ص 257. ↑

442. كتاب الوزراء للصّابي ص 303-306. ↑

443. كانت لفظة الانشاء في المشرق من الألفاظ المستعملة في ديوان الرّسائل (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبعة □ان □لوتن ص 78، وكتاب الوزراء للصّابي ص 151-216). ↑

444. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 242. ↑

445. كتاب الخَراج لقُدامة طبعة دى خويّه ج 4 ص 184-185، وقد كتبه قُدامة حوالي عام 315 ه - 927 م. ↑

446. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 180. ↑

447. J. Burckhardt: Die Zeit Constantins des Grossen, 3Auf. S. 70. ↑

448. في القرن الثّالث الهجري قطع لسان ابن بسام الشّاعر بأن وُلّي البريد (مُروج الذّهب ج 8 ص 271 وإرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 322 وما يليها)؛ وكذلك كوفيء أحد الشّعراء المجيدين بأن خيِّر في أعمال البريد ببلاد خُراسان (يتيمة الدّهر ج 4 ص 62)؛ وكان صاحب بريد نيسابور يملك من الكتب ما لا يملكه أحد في هذه المدينة مع كثرة علمائها. ويعدّ ابن خلدون المغربي أن صاحب البريد من بين أرباب صناعة السّيف (المقدمة ج 1 ص 195). ↑

449. كتاب الخَراج لقُدامة بن جعفر مخطوط پاريس ورقة 15 .ff.. ↑

450. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 39. ↑

451. كتاب الخَراج لقُدامة ص 20 أ. ↑

452. كتاب العبر لابن خلدون ج 1 ص 206. ↑

453. قُدامة ص 20 ب. ↑

454. المصدر ذاته، ص 21 ب. ↑

455. كتاب الوزراء للصّابي ص 178. ↑

456. قُدامة ص fol. 20b. ↑

457. مسكويه ج 5 ص 257. ↑

458. كتاب الوزراء للصّابي ص 156. ↑

459. المصدر ذاته، ص 314. ↑

460. كتاب الوزراء ص 20. ↑

461. المصدر ذاته، ص 81. انظر مادة: الغيبة في: "Islamic Culture". ↑

462. المصدر ذاته، ص 314، ومسكويه ج 5 ص 257. ↑

463. كتاب الوزراء ص 77. ↑

464. المصدر ذاته، ص 11 والصّفحات التّالية. ↑

465. نفس المصدر ص 156؛ Wuz. , 50.. ↑

466. المُغرب لابن سعيد ص 15. ↑

467. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 165. ↑

468. المصدر ذاته، ص 252. ↑

469. ميخائيل السّرياني Michael Syrus, S. 538. ↑

470. المصدر ذاته، ص 541، وكلام ميخائيل غير واضح لأن منصب صاحب المعونة كان يضم عادة إلى صاحب الجند والحرب، ونجد عند قُدامة (مخطوط باريس ورقة 145 ب) نسخة عهد بولاية المعونة والحرب. ↑

471. ابن حَوْقَل ص 307، وكذلك كانت العراق كخُراسان مقسمة إلى أربعة وعشرين طسُّوجا. وكل طسّوج اثنا عشر رستاقاً. (كتاب الوزراء للصّابي ص 258). ↑

472. الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي ج 2 ص 10. ↑

473. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 16. ↑

474. المُغرب لابن سعيد ص 39، والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 99. ↑

475. الاتّعاظ للمقريزي ص 78. ↑

476. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 238. ↑

477. الإصطخري ص 146، وذكر بعض المؤلفين أن الكتّاب خمسة: كاتب رسائل، وكاتب خَراج، وكاتب قضاء وكاتب جند؛ وكاتب شرطة. انظر البيهقي نشرة شد□الي Schwally ص 448، وتجد التّفصيل في جمهرة الإسلام للشّيرازي بمكتبة لايدن ورقة 99 أ وما يليها. ↑

478. ..Aus Persien, 1882, S184 ↑

479. مسكويه ج 6 ص 326. ↑

480. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 234، وأحسن التّقاسيم للمقدسي ص 440. ↑

481. طبقات السّبكي ج 2 ص 166. ↑

482. كتاب الخَراج ص 66. ↑

483. كتاب الوزراء للصّابي ص 263. ↑

484. مسكويه ج 5 ص 344. ↑

485. كتاب الوزراء للصّابي ص 182-184. ↑

486. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 14. وهو لم يكن محبوباً في قصر الخلافة؛ وقد ظلّ ثلاثين سنة يكاتب الوزراء في حاجاته نظماً ونثراً، فلا يجيبونه (انظر كتاب الوزراء للصّابي ص 115). ↑

487. المصدر ذاته، ص 56، 61. ↑

488. كشف المحجوب ص 366. ↑

489. مسكويه ج 5 ص 244. ↑

490. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 128. ↑

491. المُغرب لابن سعيد ص 39. ↑

492. كتاب الوزراء للصّابي ص 306 - 307، 308. ↑

493. انظر بيكَر: Becker, Beiträge zur Geschichte Ägyptens, 1,34 نقلا عن المُسبَّحي المتوفى عام 420 هـ. ↑

494. تاريخ سعيد بن البطريق (توفي عام 318 ه - 930 م) ص 54 ب. ↑

495. كتاب الوزراء للصّابي ص 153 والصّفحات التّالية. ↑

496. ابن تَغْري بِرّدي، ص 34، وكان عيسى بن نسطورس وزير العزيز بالله في مصر يخاطب بسيّدنا الأجلّ (يحيى بن سعيد ورقة 112 أ)؛ Wuz. , 153ff.. ↑

497. يتيمة الدّهر ج 4 ص 145. ↑

498. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 407. ↑

499. يحيى بن سعيد ص 222. ↑

500. كتاب الوزراء للصّابي ص 148 والصّفحات التّالية. ↑

501. تاريخ بغداد JRAS. , 1912. S. 67. ↑

502. كتاب الوزراء للصّابي ص 148. ↑

503. المصدر ذاته، ص 22. ↑

504. كتاب الفخري في الآداب السُّلطانيّة لابن الطّقطقي، نشرة آل□ارت Ahlwardt ص 180. ↑

505. كتاب الوزراء للصّابي ص 280، 350؛ ومسكويه ج 5 ص 268. ↑

506. كتاب الوزراء ص 23. أما في مصر في عهد الفاطميين، فكان يعطي إخوة الوزير أيضاً من مئتي دينار إلى ثلاثمئة في الشّهر - المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 401. ↑

507. كتاب الوزراء للصّابي ص 50؛ ومسكويه ج 5 ص 214. ↑

508. كتاب الوزراء ص 325. ↑

509. انظر ما قال-ه الأصفهان-ي شع-راً، في كتاب الفخ-ري في الآداب السُّلطانيّة نشرة آل□ارت Ahlwardt، ص 334. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 66 أ. ومسكويه ج 6 ص 446؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج 4 ص 356. ↑

510. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد 164. ↑

511. كتاب الوزراء للصّابي ص 31. ↑

512. كتاب الوزراء ص 235. ↑

513. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 342. ↑

514. كتاب الوزراء ص 208. ↑

515. كتاب الوزراء ص 59، ومسكويه ج 5 ص 253. ↑

516. مسكويه ج 5 ص 410؛ وفي كتاب الوزراء p. 23 أن مساحتها 173 و 346 ذراعاً. ↑

517. مسكويه ج 5 ص 391. ↑

518. كتاب الوزراء للصّابي ص 121. ↑

519. المصدر ذاته، ص 112. ↑

520. المصدر ذاته، ص 241، 352. ↑

521. ابن الأثير ج 8 ص 7؛ وكتاب العيون IV, Berlin, fol. 586. ورقة 59 ب. ↑

522. كتاب الوزراء ص 268. ↑

523. كتاب الوزراء للصّابي ص 342. ↑

524. الفخري لابن الطّقطقي ص 392، والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 156. ↑

525. كتاب الوزراء ص 267، وفيما يتعلّق بمصر انظر ابن الأثير ج 9 ص 82. ↑

526. كتاب الوزراء للصّابي ص 322. ↑

527. Flügel: Die Klassen der hanefitischen Rechtsgelehrten, S. 296. ↑

528. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 66 أ. ↑

529. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 127. ↑

530. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 356. ↑

531. Amedroz, JRAS, 1908 S. 418.

؛ ويتيمة الدَّهر ج 3 ص 359. ↑

532. Amedroz, JRAS, S. 431. ↑

533. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 51. ↑

534. المصدر ذاته، ج 4 ص 713؛ وكتاب الوزراء للصّابي ص 239. ↑

535. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد 58. ↑

536. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 75 أ. ↑

537. مسكويه ج 6 ص 125؛ والتّنبيه والإشراف للمسعودي ص 399. ↑

538. كتاب الوزراء للصّابي ص 3. ↑

539. الاتّعاظ للمقريزي ص 70. ↑

540. ترجمة ُستِنفِلد لمختصر صبح الأعشى ج 9: 185 .AGGW,1879 S.. ↑

541. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 439. ↑

542. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 165. ↑

543. أغفل ابن الطّقطقي صاحب كتاب الفخري في الآداب السُّلطانيّة ذكر ابن مُخلّد الذي تقلّد الوزارة بين سليمان ابن وهب وإسماعيل بن بُلبُل (مُروج الذّهب ج 8 ص 39، وفهرس تاريخ الطّبري)، أما ما يقوله صاحب الفخري من أن ابن بُلبُل «وجُمع له السّيف والقلم»، فربّما كان ذلك خاصاً بابن مُخلّد الذي سقط اسمه، وذلك لأننا لم نسمع شيئاً عن أعمال ابن بُلبُل الحربية، هذا إلى أن الطّبري يصرّح (ج 3 ص 2110): «استكتب إسماعيل بن بُلبُل واقتصر به على الكتابة دون غيرها». ↑

544. فيما يتعلّق بالسّامانيين انظر مثلاً كتاب ميرخُند عن تاريخ السّامانيين Mirchond, Hist. Samanid, ed. Wilken, S. 72, 84. وفيما يتعلّق بالصَّيْمري والمُهلّبي وزيري معز الدّولة، انظر مسكويه ج 6 ص 211؛ 434 وما يليها، 421؛ وفيما يختص بوزراء عضد الدّولة انظر المصدر ذاته، ج 6 451، 482؛ وفيما يتعلّق بهاء الدّولة انظر الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 138. ↑

545. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 39. ↑

546. مسكويه ج 6 ص 190 وما يليها؛ وابن الأثير ج 8 ص 375. ↑

547. مسكويه ج 6 ص 362، 396؛ وابن الأثير ج 8 ص 462، وكان النّاس يهزءون من ابن بقية ويقولون: من الغضارة إلى.. . المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 104 ب. ↑

548. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 497. ↑

549. مسكويه ج 6 ص 481، ويحيى بن سعيد طبعة پاريس ص 105 أ، وابن الأثير ج 8 ص 507. ↑

550. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 507، وهو ما جاء أيضاً في نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادي ص 143؛ وعند ابن تَغْري بَرْدي (ص 20) السّائحات. ↑

551. مسكويه ج 6 ص 513-514؛ ويحيى بن سعيد نسخة پاريس ورقة 107 أ؛ وابن الأثير ج 8 ص 514. ↑

552. مسكويه ج 6 ص 515، وابن الأثير ج 9 ص 66. ↑

553. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 66. ↑

554. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 71 وما يليها. ↑

555. يحيى بن سعيد ورقة 112 أ، وكان عيسى بن نسطورس يُخاطَب بسيدنا الأجلّ. ↑

556. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 168 أ-ب. ↑

557. مات الحاكم سنة 411 ه / 1020 م يحيى بن سعيد ورقة 128 أ. ↑

558. كتاب الوزراء للصّابي ص 201. ↑

559. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 173 أ. ↑

560. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 37. ↑

561. كتاب الوزراء للصّابي ص 142، 201، 240، 195. ↑

562. كتاب الوزراء ص 176. ↑

563. المصدر ذاته، ص 63. ↑

564. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 23 ب. ↑

565. كتاب الوزراء ص 119، ويُروى مثل هذا عن المأمون (الطبري ج 3 ص 1075). ↑

566. كتاب الوزراء للصّابي ص 98. ↑

567. المصدر ذاته، ص 113؛ والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 28. ↑

568. الوزراء ص 307. ↑

569. المصدر ذاته، ص 283. ↑

570. كتاب الوزراء ص 119. ↑

571. المصدر ذاته، ص 134، 139. ↑

572. المصدر ذاته، ص 134. ↑

573. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 76 ب. ↑

574. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 126. ↑

575. كتاب الوزراء للصّابي ص 312. ↑

576. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 225. ↑

577. كتاب الوزراء للصّابي ص 325. ↑

578. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 130؛ كتاب الوزراء 325 , .Wuz. ↑

579. الوزراء ص 95، ولكن يقال إنه كان له مشيرون من النّصارى. ↑

580. كتاب الوزراء ص 266. ↑

581. كتاب الوزراء ص 260، 288، 351. ↑

582. مسكويه ج 5 ص 197-198. ↑

583. المصدر ذاته، ص 280. Kit. Al-Wuzara, ed. Amedroz ↑

584. المصدر ذاته، ص 276. p. 39 tr ↑

585. ذكر ابن الطّقطقي في كتابه الفخري في الآداب السُّلطانيّة نشرة آل□ارت Ahlwardat (ص 314) ما قاله الشّعراء المعاصرون هجاءً للخاقاني. ↑

586. كتاب الفخري ص 313، وكتاب الوزراء للصّابي ص 263. ويذكر ابن الطقطقي في كتابه الفخري أن التّولية كانت للكوفة، وهي النّاحية التي كنت تسمى ماه الكوفة. ↑

587. يجد القارئ ترجمة مختصرة له في المقدمة الإنكليزية لكتاب الوزراء ص 18. ↑

588. كتاب العيون IV ورقة 95 أ. ↑

589. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 8 ص 102. ↑

590. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 19 أ؛ 26 أ ب. ↑

591. كان بين جحظة الشّاعر وبين ابن مُقلة صداقة قبل الوزارة، فلما استوزر استأذن عليه جحظةُ فلم يُؤذن له، فقال:

اذكر مُنادمتي والخبزُ خشكارُ	قل للوزير أدامَ اللهُ دولتَه
ولاحمارٌ ولا في الشّط طيَّار	إذ ليس بالباب برذونٌ لنوبتكم

(المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 64 ب). ↑

592. كتاب العيون ورقة 77 أ. ↑

593. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 64 أ-ب. ↑

594. مسكويه ج 5 ص 447. ↑

595. كتاب العيون ج 4 ورقة 157 أ. ↑

596. المصدر ذاته، ورقة 159 ب. ↑

597. المصدر ذاته، ورقة 160 ب، 161 ب، وقد وصف الطّبيب ثابت بن سنان حال الذّراع بعد قطعها، انظر مسكويه ج 5 ص 581. ↑

598. كان في خزانة كتب عضد الدّولة بشيراز مصحف بخط أبي علي بن مُقلة في ثلاثين جزءاً مجلّدا - إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 446. ↑

599. كتاب العيون ج 4 ورقة 162. ↑

600. المصدر ذاته، ورقة 162 أ. ↑

601. يتيمة الدّهر ج 2 ص 8. ↑

602. كتاب مرآة المروءات للثّعالبي ص 129 ب. ↑

603. ثمرات الأوراق للحموي، ج 1 ص 82. ↑

604. مسكويه ج 5 ص 121. ↑

605. المصدر ذاته، ج 5 ص 575. ↑

606. إرشاد الأريب لياقوت ج 3 ص 180. ↑

607. مسكويه ج 6 ص 214. ↑

608. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 278. ↑

609. مسكويه ج 6 ص 190. (eng. tr. vol. IV, 393, vol. V. 304, 330.) ↑

610. المصدر ذاته، ص 168. (التّرجمة الإنكليزية). ↑

611. مسكويه ج 6 ص 244. ↑

612. المصدر ذاته VI، ص 248. ↑

613. المصدر ذاته، ص 258. ↑

614. مسكويه ج 6 ص 241. ↑

615. المصدر ذاته، ص 242. ↑

616. مسكويه ج 6 ص 166. ↑

617. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 91 ب. ↑

618. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 253-254. ↑

619. كان ابن عباد أول من لقب بالصّاحب من الوزراء، ثم سمّي بهذا الأسم عميد الجيوش حوالي عام 400 هـ / 1010 م (ديوان الشّريف الرَّضي ج 1 ص 321)، وبعد ذلك لقّب به «كل من

ولي الوزارة حتى خرافيش زماننا، حملة اللحم وأخذة المكوس» (ابن تَغْري بَرْدي ص 56). ↑

620. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 273. ↑

621. ابن تَغْري بَرْدي ص 57. ↑

622. ياقوت، ج 3 ص 32. ↑

623. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 274 – 315. ↑

624. إرشاد الأريب لياقوت ج 3 ص 42 وما يليها. ↑

625. إرشاد الأريب ج 2 ص 304، ج 6 ص 276. طلب الشّاعر المغربي منه خمسمئة دينار فقال له: أنقصنا واجعلها دراهم. ↑

626. يتيمة الدّهر ج 3 ص 33، وإرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 320. ↑

627. مسكويه ج 6 ص 345 - 347، 351 - 358. ↑

628. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 273 حيث ينقل المقريزي عن كتاب أخبار المؤمنين المعتضد بالله لأبي الحسين عبد الله بن أبي طاهر. ↑

629. وفي أقصى المشرق أي في الأفغان وما وراء النّهر كان الخَراج يدفع على دفعتين (انظر ابن حَوْقَل ص 308، 341). ↑

630. الآثار الباقية للبيروني ص 216. ↑

631. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 275، والآثار الباقية للبيروني ص 31-33، وتاريخ الطّبري ج 3 ص 2143، ورسائل الصّابي ص 213. ↑

632. مسكويه ج 5 ص 193، وكتاب الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي ج 1 ص 51، وابن حَوْقَل ص 128، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ص 54. وكذلك كان ولاة النّواحي في الدّولة البيزنطية يسقطون النّفقات من جملة دخل ولاياتهم. وكانت العادة في أيام الأمويين أن الخلفاء «إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه النّاس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيه دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وأنه فضل عن أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذّرية، بعد أن أخذ كل ذي حق حقّه». انظر كتاب أخبار مجموعة ص 22 – 23. وانظر أيضاً ما حكي عن ابن أبي الفياض في كتاب المستشرق سيمونيت «تاريخ المُستعربين في إسپانيا»

Simonet, Historia de los mozárabes de España, Madrid, 1897-1903, S. 158. ↑

633. كتاب الوزراء للصّابي ص 11 والصّفحات التّالية. ↑

634. مفاتيح العلوم ص 54. ↑

635. Kremer, Einnahmebudget des Abbasiden, S. 309 ff, 323

وكتاب الخَراج لقُدامة ط. دى خويّه ص 239، وكتاب الوزراء للصّابي ص 189. ↑

636. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 340، ويؤيد ياقوت (معجم البلدان ج 1 ص 249) هذا الكلام حيث يقول إنه لم يكن بخُراسان ولا بما وراء النّهر بلدة لا خَراج عليها إلا اسبيجاب، لأنها كانت ثغراً عظيماً، فكانت تعفي من الخَراج ليصرف أهلها خَراجها في ثمن السّلاح والمعونة على المقام بتلك الأرض. ↑

637. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 6 أ، 9 أ، 15 ب. ↑

638. كتاب الخَراج ص 32، وكان ثمّ إلى جانب القطيعة ما يسمى الطّعمة، وهي الأرض التي تدفع إلى رجل ليعمرها ويؤدّي عشرها؛ وتكون له مدّة حياته، ولكن حول ذلك القليل من الإيضاح - انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 460. ↑

639. انظر بيكَر: Becker, ZA, 1905,S 301 ff. ↑

640. وأرضُ العشر ستة أضرب:

كتاب الخَراج لقُدامة مخطوط پاريس ورقة 90-91 أ:

1 - الأرضون التي أسلم علها أهلها، وهي في أيديهم مثل اليمن والمدينة والطّائف.

2 - ما يستحييه المسلمون من الأرض والموات التي لا ملك لأحد فيها.

3 - ما يقطعه الأئمة بعضَ المسلمين.

4 - ما يحصل ملكاً للمسلمين ممّا يقسمه الامام من أرض العنوة بين من أوجف عليها من المسلمين.

5 - ما صار في يد المسلمين من الصّفايا التي أصفاها عُمر بن الخطّاب من أرض السّواد، وهي ما كان لكسرى وآله وخاصته.

6 - ما جلا عنه العدو من أرضيهم فحصل في يد من قطنه وأقام به من المسلمين مثل الثغور.
وكان إلى جانب ديوان الخَراج ديوان آخر قائم بذاته يسمى ديوان الضّياع. ↑

641. الفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 103. ↑

642. كتاب الوزراء للصّابي ص 220. ↑

643. كتاب الوزراء ص 340 - 342، وكتاب العيون ورقة 81 أ. ↑

644. انظر الكلام عن الجِزية في الفصل الخاص باليهود والنّصارى. ↑

645. قُدامة طبعة دى خويّه ص 241. ↑

646. مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 62. ↑

647. الإصطخري ص 158. ↑

648. Mathias Gelzer, Studien zur Byzantinischen Verwaltung Ägyptens, S. 72. ff. ↑

649. كتاب الخَراج لقُدامة مخطوط باريس1907 fol. ورقة 91 أ. وانظر أيضاً Schmidt, Die Occupatio im islamischen Recht, Der Islam I, 300 ff. ↑

650. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 252. ↑

651. كتاب الوزراء للصّابي ص 248. ↑

652. يذهب الشّافعية إلى جعل ما يفضل عن السّهام المفروضة إلى بيت المال لا إلى ذوي الأرحام الأباعد، إن لم يوجد للمتوفى عصبة تحرز باقي ميراثه (انظر زاخاو Sachau, Muhammedanisches Recht, S. 211, 247 وفي عام 283 ه - 896 م أمر الخليفة المعتضد بردّ الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام (تاريخ الطّبري ج 3 ص 2151)؛ ويقول أبو الفداء (تحت عام 283 هـ) ما يؤيد ذلك نقلا عن القاضي شهاب الدّين في تاريخه (توفي القاضي عام 642 ه - 1244 م)؛ ثم حذا المكتفي حذو المعتضد وجدد هذا الأمر في عام 300 ه - 912 م. وفي عام 311 ه - 923 م) أصدر هذا الخليفة المُقتدِر أمره بأن يردّ ما يفضل عن السّهام المفترضة إلى ذوي الرّحم الذين لا فرض لهم في القرآن، إذا لم يكن للمتوفى من يحوز ميراثه من ذوي السّهام، وفي عام 355 ه - 966 م أمر معزّ الدّولة برفع المواريث الحشرية - انظر المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 98 ب، 100 أ. ↑

653. حسب مرسوم صدر عام 311 هـ. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 117. ↑

654. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 131. ↑

655. الأوراق للصّولي مخطوط باريس رقم 4836 ورقة 147-148. ↑

656. Wüstenfeld, Die Stattalter von Ägypten, IV, S. 35. ↑

657. G. Caro, Soziale und Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, S. 316. ↑

658. الكامل في التّاريخ لابن الأثير ج 9 ص 158. ↑

659. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 131. ↑

660. مسكويه ج 5 ص 398. ↑

661. المُغرب لابن سعيد ص 16-17. ↑

662. نفس المصر ص 36. ↑

663. المصدر ذاته، ص 17. ↑

664. مسكويه (التّرجمة الإنكليزية) ج 6 ص 213. ↑

665. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 70. ↑

666. كتاب الوزراء للصّابي ص 74. ↑

667. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 193 ب. ↑

668. إرشاد الأريب ج 5 ص 350. ↑

669. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 68 أ. ↑

670. مسكويه ج 6 ص 39. (Eng. tr vol). V. pp. 11-12 tr) ↑

671. مسكويه ج 6 ص 248. ↑

672. ترجمة ستِنفِلد لمختصر صبح الأعشى 162، 463. يجب على غير المسلمين من التّجار من حيث الحكم النّظري أن يدفعوا عن بضائعهم عند الحدود من الضّرائب ما يدفعه المسلمون في تلك البلاد، وهو العشر عادة، ويعطى التّاجر بذلك براءة تعفيه من المرور دون أن يدفع

شيئاَ مدّة عام؛ انظر شرح السّرخي المتوفى عام 495 ه - 1102 م) علي الشَيباني مخطوط لايدن، كما ذكر دى خويّه: De Goeje, International Handelsverkeer in de Middeleeuwen, Verslagen en mededeelingen der K. Akad. V (Wetenschchapen. 1909, S. 265

على أن العلماء ليسوا متفقين في أمر المكوس، فبعضهم يقضي بدفع نصف العشر إلا الخمر فيؤخذ عنه العُشر (يحيى بن آدم ص 51)، وذهب البعض الآخر إلى وجوب دفع العشر عموماً كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 78)؛ والمفتي به عند الشّافعية أن للإمام أن يزيد عن العشر أو ينقص عنه إلى نصفه للحاجة إلى زيادة الاستيراد وأن يرفع المكس رأساً إذا رأى في ذلك مصلحة؛ وعلى أي حال فإن الضّريبة كانت شخصية. وإذا عاد التّاجر الذي دفعها في أثناء السّنة ومعه بضائع لا يُلزم بدفع الشّيء إلا إذا كان قد وقع التّراضي معه على ذلك (مختصر صبح الأعشى للقلقشندي ص 164، في القرن الخامس الهجري ومن أن مراكب الرّوم والإسپان والمغاربة كانت تلزم بأن تدفع العشر للسّلطان في طرابلس، ناصر خسرو)؛ لأن كلمة عشر يمكن أن تؤخذ بمعنى الضّريبة وبمنى أخذ الضّريبة. على أن المعاهدات التّجارية التي أبرمت مع الپيزين سنة 1154 ه - 1173 م) تنص على أن تكون الضّريبة هي العُشر انظر Schaube, Handelsgescheschichte der roman. Völker, S. 149 ff
↑

673. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 213. ↑

674. المقدسي ص 104. ترجمة آزو ص 158-159. ↑

675. المصدر ذاته، ص 485. ↑

676. كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 117. ↑

677. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 340. ↑

678. المصدر ذاته، ص 124. ↑

679. المصدر ذاته، ص 105. ↑

680. يقض الفقهاء بإغفاء الزّاد من الضّرائب- ترجمة ُستِنفِلد لمختصر صبح الأعشى ص 162.
↑

681. ابن جُبير الأندلسي ص 351. ↑

682. كان الوزير، وهو رئيس بيت المال العام، شيء من الاشراف على بيت المال الخاصة أيضاً، لأنه كان يوقع في آخر رقاع الصّرف بعد توقيع كبار رؤساء الحاشية (كتاب الوزراء للصّابي

ص 140). ↑

683. وفي عصرنا هذا كثيراً ما رأينا السُّلطان عبد الحميد يمدّ بيت المال من ثروته.

قلت: هذا كلام آدم مِتس قبل عام 1917. ↑

684. كتاب الوزراء ص 284. ↑

685. كتاب الوزراء ص 188. ↑

686. مسكويه ج 5 ص 351، وابن الأثير ج 8 ص 176. ↑

687. كتاب الوزراء ص 22، ولذلك تجد الوزير يطلب من المُقتدِر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات عيد النّحر، فيمنعه الخليفة ويلزمه القيام به من جهته؛ كتاب الوزراء للصّابي ص 28. ↑

688. كتاب الوزراء للصّابي، ص 10 والصّفحات التّالية. ↑

689. كتاب الوزراء ص 189، وكان بيت مال الخاصة الذي بناه المعتضد قلعة قد صُبّ في أثقالها الرّصاص؛ وكانت الأكياس التي يوضع فيها المال تختم بخانم خازن بيت المال (Wuz 139)، وكان بعض الملوك في القرن الرّابع يجعلون المال في الصّناديق إلا الإخشيد صاحب مصر فإنه لبعد نظره كان يأمر بوضعها في أعدال الجواشن التي لا يتنبه إليها أحد (المُغرب لابن سعيد ص43). ↑

690. انظر مسكويه، وكتاب الوزراء ص 290 وما بعدها؛ (ويحكي الصّابي في كتاب الوزراء ص 139 غير هذا). انظر إلياس النّصيبي Elias Nisibenus (الذي ولد عام 364 ﻫ - 974 م) ص 200 نقلاً عن محمد بن يحيى. ↑

691. هذا المبلغ يعرف من مقارنة النّصوص ومن أن مال البيعة والفتح بلغ بضعة عشر ألف ألف دينار (مسكويه)، على حين أن مال البيعة وحده بلغ في الدّفعة الواحدة ثلاثة آلاف ألف دينار (كتاب الوزراء للصّابي ص 290). ↑

692. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 196 ب. ↑

693. كان الخليفة يرث مال الخدم ومال من لا ولد له من موالي أسرة الخلافة. ولما كان هؤلاء في الغالب سادة ذوي مناصب تدرّ الرّزق الكثير فإن مالاً كثيراً كان يجري إلى خزانة الخليفة، وفي عام 311 ﻫ - 923 م توفي القائد المسن يأنس الموفّقي، وكان ذا غلمان وسلاح، فكان ينزل عند سور داره من خيار الفرسان والغلمان والخدم ألف مقاتل، وقد خلف، فيما خلف، ضياعا تغل ثلاثين ألف دينار (صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 115)؛ وفي عام

302 ه - 914 م ماتت بدعة التي لم يكن بين جواري المأمون امرأة «أضرب منها، ولا أحسن صنعة، ولا أحسن وجهاً، ولا أخفّ روحاً، ولا أحسن خطاباً، ولا أسرع جواباً»، وقد خلّفت مالاً كثيراً وجوهراً وضياعاً وعقارات؛ فأمر المُقتدِر بقبض ذلك كله (عريب بن سعد ص 54). ↑

694. انظر مسكويه ج 5 ص 301، 381-384. tr. IV. vol. Eng. Tr. pp. 203-204. ↑

695. الإصطخري ص 146. ↑

696. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 451، 448. ↑

697. انظر كريمر: Kremer, Einnahmebudget, S. 308. ↑

698. الإصطخري ص 156 وما بعدها، وابن حَوْقَل ص 216 وما بعدها. ↑

699. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 421. ↑

700. الإصطخري ص 158. ↑

701. الإصطخري ص 157. ↑

702. المصدر ذاته، ص 157، وكتاب الوزراء للصّابي ص 340. ↑

703. البشاري المقدسي ص 452. ↑

704. الإصطخري ص 158. ↑

705. كتاب العيون IV ورقة 81، وهذه ما يسميها ابن حَوْقَل (ص 142) ضرائب الخمر. ↑

706. يحيى بن سعيد ورقة 123 أ، 133 ب. انظر البلخي 83-85. ↑

707. انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي مثلاً ج 1 ص 103. ↑

708. Hofmeier, Islam, IV, S. 100 ff. ↑

709. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 103. قال أبو الحسن بن المدبر إنه كان يتقلّد الدّيوانين بالعراق يريد المشرق وديوان المغرب؛ فلا يبيت ليلة من الليالي وعليه عمل أو بقية منه، ثم تقلّد عمل مصر فكان ربّما بات وقد بقي عليه شيء من العمل فيتمه إذا أصبح (ابن حَوْقَل ص 88)، وكذلك يخبرنا بن سعيد أن عيسى بن نسطورس الذي تقلد الوزارة بمصر قرب أواخر

القرن الرّابع الهجري أحدث رسوماً ومكوساً جديدة، ويحيى بن سعيد مواطن معاصر لعيسى، وهو نصراني مثله (يحيى بن سعيد ص 180). ↑

710. ↑ Kremer, Einnahmebudget, S. 309

711. ترجمة مختصرة صبح الأعشى ص 158. ↑

712. أحسن التّقاسيم للبشاري المقدسي ص 213. ↑

713. انظر مادة مكس في الصّحاح للجوهري. ↑

714. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 123 ب، وابن الأثير ج 9 ص 16، 23 نقلا عن التّاجي للصّابي المعاصر لذلك العهد. ↑

715. كتاب الوزراء ص 368. ↑

716. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 188 أ. ↑

717. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 167. ↑

718. المصدر ذاته، ص 189. ↑

719. ص 128. ↑

720. المصدر ذاته، وكلمة جماعة هنا هي اصطلاح ديواني معناه الحساب الجامع (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 54). ↑

721. ابن رُستِه ص 116، والمقدسي ص 182، ويحكي الإصطخري (ص 184) أن بيت مال أهل برذعة ببلاد القوقاز كان بالمسجد الجامع، ويلاحظ أنه على رسم الشّام، ويصفه بأنه مرصّص السّطح، وعليه باب حديد، وهو على تسعة أساطين. ↑

722. قارن Wilken, Griech. Ostraka, S. 149. ↑

723. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 82. ↑

724. ↑ Wüstenfeld, Die Statthalter von Ägypten, IV, S. 36

725. ابن حَوْقَل ص 143 وما يليها. ↑

726. مسكويه ج 6 ص 485. ↑

727. ابن حَوْقَل ص 140 sqq. ↑

728. Dozy , II, S. 57 ↑

729. مسكويه ج 6 ص 496، وقد كان مسكويه مكلفاً بإحصاء ما في هذه القلعة. ↑

730. يحيى بن سعيد ص 61ff، وانظر مثلاً إلياس النّصيبي Elias Nisibenus S. 215, نقلا عن ثابت بن سنان. ↑

731. ابن حَوْقَل، ص 341. ↑

732. ابن البلخي JRAS, 1912, S. 889. ↑

733. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 120 ب، ويقال إن عضد الدّولة كانٍ يريد أن يبلغ بدخله إلى ثلاثمئة وستين مليوناً ليكون دخله كل يوم مليون درهم، وهذا يدلّ على أن الدّينار في ذلك العهد كان يساوي عشرة دراهم. ↑

734. تاريخ أبي صالح نشرة إي□يتس Evettes ص 23 أ. ↑

735. كتاب الوزراء ص 10 ولا يتفق مع هذا ما جاء في ص 188 من هذا الكتاب من أن ارتفاع العراق للمعتضد بلغ الارتفاع في عهد عُمر بن الخطاب، والأرقام هنا غير صحيحة. ↑

736. Kremer, Einnahmebudget, S. 312. ↑

737. ابن حَوْقَل ص 169، 178. ↑

738. مسكويه ج 6 ص 440. ↑

739. الأغاني ج 4 ص 79. ↑

740. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 421. ↑

741. ابن حَوْقَل ص 143. ↑

742. كتاب الدّيارات للشّابشتي نسخة برلين ورقة 119 أ. ↑

743. كتاب الوزراء ص 178. ↑

744. وفي مثل هذه الأحوال كان أصحاب الأراضي المجاورة يتفقون ويشترون الضّياع بأقل من ثمنها بكثير (ابن حمدون في JRAS, 1908, S. 434 ↑

745. مسكويه ج 5 ص 342، 345، 364، وابن الأثير ج 8 ص 165. ↑

746. مسكويه ج 5 ص 505. ↑

747. الأوراق للصّولي ص 103. ↑

748. كتاب الوزراء ص 101 et sqq.. ↑

749. Kremer, Einnahmebudget

وكذلك ضمنت فارس بعد استردادها من بني الصَّفّار، ولكن الضّامن أخّر المال، فحُلّ ضمانه وعُقد على آخر (كتاب الوزراء ص 340). ↑

750. مسكويه (IV, 265 tr.)؛ عريب بن سعد ص 177، والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 436 ب؛ وقد جاء في شعر الشّريف الرَّضي ما يدلّ على أن القضيب والبردة شعار الخلفاء، وأن البُردة هي بُردة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم. انظر الدّيوان ص 313-543. وقد اتخذ الإخشيد صاحب مصر الخفتان الفضّي لباساً له، كما فعل الخلفاء، وأمر ألا يلبسه أحد سواه (المُغرب لابن سعيد ص 30). ↑

751. مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 169، 377. وقد أراد سلاطين المماليك أن يقلّدوا الخلفاء في لباسهم القديم تقليداً كاملاً، وكان لباسهم يتألف من:

عمامة حرير سوداء لها عذبة مدلّاة بين الكتفين.

جبّة حرير سوداء واسعة الكمين، لانقش عليها.

سيف عربي كان يحمل على طريقة البدو له حمائل يعلّق بها على الكتف الأيمن، وهو مدلّى على الجانب الأيسر؛ ويقال إنه سيف عُمر بن الخطّاب. (انظر Quatremère .Mameloucs, I, 133 ↑

752. كانت هذه الخرقة تحوي مئتي درهم، وكان ما فيها يفرّق على من في قصر الرُّصافة من الحرم المحتاجات (كتاب الوزراء للصّابي ص 19)؛ ويخبرنا ابن تَغْري بَرْدي أن زكاة ابن طُولون كانت ألف دينار في كل يوم؛ وكثير من الأرقام التي يذكرها ابن تَغْري بَرْدي عن الطّولونيين مجرّد أرقام خيالية. ↑

753. مسكويه ج 5 ص 294، وكان ولي العهد العبّاسي في أواخر القرن الرّابع، وكذلك أمراء الأطراف، يسير بين يديهم علمان: لواء أبيض وراية سوداء؛ انظر تاريخ ابن تَغْري بَرِدي ج 2 ص 34، وصلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 177، وابن الجوزي في المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 43 ب، 112 ب. ⇡

754. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 460-461، وكتاب الدّيارات للشّابشتي، ورقة 129 أ. ⇡

755. لبس سيف الدّولة أمير حلب تاجاً مرصعاً بالجوهر لما استقبل رسول ملك الرّوم في سنة 353ه - 964 م (يحيى بن سعيد ورقة 84 أ). وكان طوق الذّهب من علامة المحاربين عند المصريين القدماء (ZDNG, 41, S. 211)؛ وصار حوالي عام 300 ه - 912 م يخلع عند المسلمين على القواد المنتصرين (عريب ص 35)؛ وقد سَوَّر القائد الذي هزم القرامطة بسوارين من الذّهب (عريب ص 3). ويظهر أن أول أمير خلع عليه الطّوق والسّواران هو الإخشيد أمير مصر، وقد أنفذ الرّاضي هذه الخلع مع وزيره في عام 324 ه - 935 م؛ وقد زينت لذلك الأسواق والشّوارع بأنواع الفرش والسّتور والبسط وابواب الجامع، وركب الإخشيد إلى الجامع لعتيق، وعليه خلع الرّاضي، ومعه الوزير(المُغرب لابن سعيد ص 17-18)؛ أما خمارويه، سلف الإخشيد، فلم يرسل له الخليفة إلا السّيف من غير طوق (كتاب الولاة للكندي ص 240)؛ وقد ظل الطّوق والسّوار والوشاح يتحلي به القواد في عصر الفاطميين وذلك كله رغم ما قضى به فقهاء الإسلام من تحريم لباس الذّهب والتّحلّي به. ⇡

756. كتاب الدّيارات ورقة 68 ب. ⇡

757. كتاب العيون IV ورقة 236 ب. ⇡

758. كتاب العيون IV ورقة 225 ب. ⇡

759. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 280 نقلا عن المُسبَّحي (توفي عام 420 ه - 1029 م)؛ وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 285 ff، وترجمة ستنِفِلد لمختصر صبح الأعشى للقلقشندي ص 173. ومن بقايا العادات البربرية التي استبقاها الفاطميون انهم كانوا من تخويفهم يسيرون بالجيوش ومعهم توابيت آبائهم (ابن تَغْري بَرْدي ص 10). ⇡

760. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 114 أ، 175 ب، 197 ب وابن الأثير ج 9 ص 215. ⇡

761. وإذا كان الخليفة المستكفي قد لقّب نفسه في عام 334 ه - 945 م بلقبِ إمام الحق فإنما كان ذلك ردّ على مزاعم جميع أئمة الفاطميين وأئمة الإماميّة (انظر المُنتظَم ورقة 73 ب، وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 308). ⇡

762. وكان ملوك السّامانيين يُسمَّون بعد موتهم بأسماء غير التي يسمّون بها في حياتهم (أحسن التّقاسيم للمقدسي 337). ⇡

763. قلت: هذا كلام آدم مِتس، ولكن القصيدة موجودة في كتاب الأوراق للصّولي ص 15-21. ↑

764. كتاب الوزراء لهلال الصّابي (توفي عام 447 ه - 1055 م) ص 148 ff. ↑

765. إن أقدم هذه الألقاب - التي لا تزال تستعمل إلى اليوم مثلاً لقبا للوزير بفارس - هو لقب وليّ الدّولة الذي لقب به الوزير أبو القاسم (توفي سنة 291 ه - 903 م)؛ وفي عهد الحاكم بأمر الله في مصر لقب أحد العمال بأمين الدّولة؛ انظر الآثار الباقية للبيروني ص 132 والصّفحات التّالية، ويحيى بن سعيد ورقة 113 أ- ب. زاخاو (Eng. Tr 129). ↑

766. في عام 372 ه - 982 م. زاخاو. tr 131. ↑

767. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 92، وكتاب الأوائل لعلي دده نقلاً عن تاريخ الخلفاء للسّيوطي. ↑

1. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 184 ب. Gibbon, Bury’s ed. , vol II, p. 282 tr. ↑

2. المُنتظَم ورقة 192 ب - 193 أ، وطبقات السّبكي ج 2 ص 305؛ وكان الماوردي من خواص جلال الدّولة، فلما افتى بالمنع انقطع عنه؛ فطلبه جلال الدّولة يوماً، فمضى إليه فقال له الأمير: أنا اتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتني لما بيني وبينك؛ وما حملك على ذلك إلا الدّين، فقرّبك ذلك مني، وزاد محلّك عندي. ↑

3. كتاب الوزراء ص 420، ويذهب الصّولي (الأوراق نسخة باريس Paris, Arab. ورقة 3) إلى أن الألقاب مكروهة منهيّ عنها في كتاب الله وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلّم، قال الله عز وجلّ {وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ} ↑

4. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 184 ب. ↑

5. طيفور نشرة كيلر Keller. ↑

6. انظر مثلاً صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 176، وكتاب الوزراء ص 229. ↑

7. المُغرب لابن سعيد ص 40. ↑

8. ابن أبي أصيبعة ج 1 ص 216. ↑

9. ميخائيل السّرياني Michael Syrus, S. 517. ↑

10. الهَمَذاني مخطوط پاريس ورقة 201 أ. ↑

11. كتاب الوزراء للصّابي ص 358. ↑

12. أوديسيوس (XXI, 224). ↑

13. الأوراق للصّولي ص 54. ↑

14. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة سلمون ص 56، ويحكي مسكويه (ج 5 ص 124) ذلك باقتضاب فيقول: فلما دخلا (الرّسولان) قبَّلا الأرض. ↑

15. الفرج بعد الشّدّة ج 1 ص 54. ↑

16. المُغرب لابن سعيد ص 40. ↑

17. المُنتظم لابن الجوزي ورقة 116 أ. ↑

18. ملحق أخبار الولاة والقُضاة للكندي ص 598. ↑

19. المصدر ذاته، ص 604 نقلا عن المُسبَّحي. ↑

20. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 150 ب. ↑

21. يحيى بن سعيد ورقة 122 ب- 123 أ، 132 ب- 133 أ. ↑

22. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 36. ↑

23. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 196، ويحكي مثل هذا عن الحجاج وعبد الملك بن مروان؛ انظر محاضرات الأدباء طبعة بولاق ج 1 ص 117. ↑

24. المُغرب لابن سعيد ص 47. ↑

25. محاضرات الأدباء ج 1 ص 117 يذكر هذه القصّة عن أحد كبراء البلاط السّاماني. ↑

26. مُروج الذّهب ج 6 ص 125. ↑

27. ولم يكن الواحد منهم يسمي نفسه عبدا، كما فعل تكّين صاحب مصر، حتى عام 300 ه - 912 كتاب العيون والحدائق IV ورقة 125 ب. ↑

28. انظر مثلاً رسائل الصّابي مخطوط رقم 766 بمكتبة لايدن ورقة 76 ب. ↑

29. انظر مثلاً المصدر ذاته، ص 124 ب: «وأنهينا ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين، وخرج إلينا أمره»، وص 202 أ: «ولم يزل أكرمكم الله مولانا أمير المؤمنين يتطلّع أخباركم.. .. ويرى فيكم ما يراه في كافة المسلمين من حماية حريمكم وصيانة جميعكم.. . ويجارينا أعزّه الله ذلك من نيّته.. . ويهيب بنا إلى الذّبّ عن دياركم.. . ». ↑

30. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 41. ↑

31. الأوراق للصّولي طبعة باريس ص 54. ↑

32. كتاب العيون IV, 222 ff. ↑

33. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 339. ↑

34. يحيى بن سعيد ورقة 86 ب، ومسكويه ج 6 ص 123 - 124. ↑

35. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 477. ↑

36. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 177 أ. ↑

37. وفي مصدر آخر لا ينطبق ما فيه على حقيقة الواقع تماماً أن عدد هؤلاء الغلمان السّود غير الخدم أربعة آلاف (تاريخ بغداد طبعة سلمون Salmon ص 51). ↑

38. مسكويه ج 5 ص 541، وتاريخ بغداد طبعة سلمون ص 49، 51. ↑

39. مسكويه ج 5 ص 379. ↑

40. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 295. ↑

41. المصدر ذاته، II ص 65. ↑

42. رسائل الخوارزمي ص 137. ↑

43. مُروج الذّهب للمسعودي ج 7 ص 276. ↑

44. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 109، كتاب الوزراء للصّابي ص 105. ↑

45. كتاب العيون Berlin, fol. 132a. ↑

46. تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 481. ↑

47. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 49. ↑

48. المصدر ذاته، ص 47. ↑

49. عريب ص 181، وكتاب العيون ورقة 131 ب، وقد توفيت والدة القاهر نفساء (كتاب العيون ورقة 66 ب). ↑

50. تاريخ بغداد ص 49، نقلاً عن القاضي التّنوخي (توفي عام 447 ه - 1055 م)؛ وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 482. ↑

51. تاريخ بغداد ص 51. ↑

52. كتاب الدّيارات للشَابشتي ورقة 68 ب. ↑

53. كتاب الدّيارات للشُّابشتي نسخة برلين، ورقة 21 أ. ↑

54. مُروج الذّهب ج 8 ص 102، ويحكي لنا الشُّابشتيِ (برلين ورقة 80 أ) أن المأمون أراد يوماً أن يتسلّى مع ندمائه، فأمر بإحضار اللحوم وآلة الطّبيخ وطلب من النّدماء أن يطبخ كل واحد منهم قدراً، وطبخ هو أيضاً قدراً. ↑

55. الفِهْرِسْت لابن النَّديم ص 61. ↑

56. الاوراق للصّولي ص 11، 26، 143 وطبعة پاريس Paris, 4836, II ff. ↑

57. فمثلاً كان لكل نديم من ندماء الواثق (227-233 هـ = 841-847 م) نوبة لا يحضر إلا فيها. ↑

58. الأوراق للصّولي Paris, 4836 ص 71. ↑

59. محاضرات الأدباء ج 1 ص 121. ↑

60. كتاب الوزراء للصّابي ص 16، 18، 351. ↑

61. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 317-318. ↑

62. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 183. ↑

63. مسكويه ج 5 ص 541. ↑

64. مسكويه ج 5 ص 125. ↑

65. في عام 208 ه - 893 م، وعام 330 هـ 941 م كانت نفقات الحضرة في أيام المعتضد سبعة آلاف دينار في كل يوم (كتاب الوزراء ص 10). ↑

66. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 78 ب. ↑

67. يحيى بن سعيد ورقة 86 أ ومسكويه ج 5 ص 124. ولما مات الرّاضي أرسل بجكم القائد إلى دار الخلافة وأخذ فرشاً وآلات كان يستحسنها (ابن الأثير ج 8 ص 276)، ولمّا خلع الوزير في عام 299 ه - 911 م /318 هـ 930 م نهبت داره وأخربت (كتاب الوزراء ص 29 والمُنتظَم ورقة 40 أ). ↑

68. المُنتظم لابن الجوزي ورقة 130 ب وابن الأثير ج 9 ص 56. ↑

69. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 185 أ-ب. ↑

70. عيون الأخبار لابن قتيبة، 270. ↑

71. صبح الاعش للقلقشندي ص 43. ↑

72. وهذه أيضاً صفة كرام الخيل. ↑

73. ومن صفات رأس الجالوت (رئيس اليهود) أن يكونٍ طويل الباع تبلغ أناملُه ركبته؛ ومن صفات المهدي عند السّنوسيين بأفريقيا أن تبلغ أناملُه الأرض، (انظر M. Hartmann, AF, R, I, S. 266). ↑

74. أنباء نجباء الأبناء، مخطوط برلين ورقة 16 ب، وهذا الكتاب لابن ظُفَر المَكّي المتوفى عام 565 ه - 1170 م. ↑

75. ابن الفقيه الهَمَذاني، Bibl. Geog. ص 1. ↑

76. هو إبراهيم بن المهدي، وأمه أم ولد سوداء، وكان شديد السّواد برّاق اللون طويلاً بديناً، حتى كان يُنبز بذلك (مطالع البدور للغزولي ج 1 ص 13). ↑

77. رسائل الجاحظ طبعة □ان □لوتن ص 7. ↑

78. الماوردي، طبعة إنغر Enger ص 165. ↑

79. ابن الجوزي ورقة 115 أ. ↑

80. ابن سعيد نشرة تالكويست ed. Tallquist ص 49. ↑

81. Becker, Beiträge, I, S. 33

نقلاً عن المُسبَّحي. ↑

82. رسائل الصّابي طبعة بعبدا ص 153. ↑

83. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 47. ↑

84. فيما يتعلق بالعلويين انظر كتاب الفرج بعد الشدّة للتّنوخي ج 2 ص 43، وإرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 256 وفيما يتعلّق بالهاشميين. ↑

85. ص 49. ↑

86. وذلك في عام 778 ه - 1376 م. وجعلت لهم 10 شارات. ↑

87. كتاب الوزراء للصّابي ص 20. ↑

88. الطّبري ج 3 ص 969، وكتاب العيون ص 351. ↑

89. كتاب الفصول للجاحظ بالمتحف البريطاني ص 207 أ. ↑

90. كتاب الوزراء ص 20. ↑

91. المصدر ذاته، ص 20. ↑

92. يتيمة الدّهر ج 4 ص 37، 112. ↑

93. كتاب الوزراء للصّابي ص 421 وما يليها، ويتيمة الدّهر ج 4 ص 112-113، وابن الأثير ج 9 ص 117-118. ↑

94. يتيمة الدَّهر ج 4 ص 94، وابن الأثير ج 9 ص 71. ↑

95. مسكويه ج 6 ص 315. ↑

96. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 90 ب. ↑

97. ملحق الكندي نشرة غست Guest ص 575. ↑

98. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 105 ب، 141 ب. ↑

99. كتاب الوزراء ص 421. ↑

100. مُروج الذّهب ج 9 ص 69. ↑

101. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 129 ب، وابن الأثير ج 9 ص 54، على أن إمارة الحج بمصر ظلت في أيدي الهاشميين، انظر ملحق الكندي 475. ↑

102. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 159. ↑

103. كتاب الوزراء للصّابي ص 322. ↑

104. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 74 أ. ↑

105. رسائل أبي العلاء طبعة مرغوليوث ص 35. ↑

106. كتاب الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي. ↑

107. يحيى بن سعيد ورقة 87 أ. ↑

108. محاضرات الأدباء ج 2 ص 295. ↑

109. المُغرب لابن سعيد نشرة تالكويست Tallquist ص 48. ↑

110. كتاب الوزراء للصّابي ص 331. ↑

111. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 75. ↑

112. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 110. ↑

113. كتاب الوزراء ص 331. ↑

114. المصدر ذاته، ص 464، والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 147. ↑

115. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 323. ↑

116. المُغرب لابن سعيد ص 47. ↑

117. المصدر ذاته، ص 18. ↑

118. المصدر ذاته، ص 42. ↑

119. المصدر ذاته، ص 25. ↑

120. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 60 أ. ↑

121. ديوان الرَّضي ص 210. ↑

122. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 170، والمُنتظم لابن الجوزي ورقة 158 ب. ↑

123. الكندي ص 415، وفي سنة 388 ه - 998 م مات الخطّابي من ولد زيد بن الخطّاب أخي عُمر بن الخطّاب، وكان من العلماء. (انظر إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 81). ↑

124. الكندي ص 416. ↑

125. Hartmann, MSOS, 1909, II, S. 81 M. ↑

126. يتيمة الدّهر ج 4 ص 293. ↑

127. ومن الاشراف الذين أوجدهم الدّين سلائل الانصار الذين ناصروا النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، وكان لهم نقيب ببغداد وكانت تفرّق عليهم المبرّات. انظر المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 112 أ، وكتاب الفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 2. ↑

128. ابن حَوْقَل ص 207. ↑

129. كتاب مرآة المروءات للثّعالبي ورقة 129 ب. ↑

130. كتاب العيون IV,6 b.. ↑

131. المسعودي ج 1 ص 377. ↑

132. تجد في كتاب العيون IV (ورقة 71 أ) شعراً في ذلك. ↑

133. يتيمة الدّهر ج 4 ص 7 وما بعدها وص 11-12. ↑

134. عند شاعر تركستاني في يتيمة الدّهر ج 4 ص 81. ↑

135. الأعلاق النّفسية طبعة لايدن 1819 ص 205-207. ابن رُستِه، 207 f. ↑

136. انظر مثلاً Sachau, Syr. Rechtsb. 2. S. 161. وكذلك نجد المفكر الإثيوپي زرعة يعقوب (حوالي سنة 1600 م) في نقده للاسلام والنّصرانية يعيب الإسلام، لأنه بإقراره تجارة الرّقيق ألغى المساواة والأخوة بين بني الانسان، وهم جميعاً يسمّون الله أبا لهم (انظر Philososphi Abessini, ed. Littmann, II, S. 11 من التّرجمة). ↑

137. Syr. Rechtsb, 2 ,165.

علي أنه يوجد بين فقهاء المسلمين حديث يروى عن النّبي وهو: شرّ النّاس من باع النّاس (القمّي، كتاب العلل مخطوط برلين ورقة 206 ب). ↑

138. كتاب البدء والتّاريخ ج 4 ص 38 و 46 من طبعة كليمان هوار. ↑

139. Sachau, Syr. Rechtsb. 2. S. 161 f ↑

140. .Corp Scrip Or. Chr في مجموعة (حوالي عام 400 هـ) .Elias Nisibenus, S. 179 ↑

141. Ohsson الولد الأول على الأقل، واختلف الفقهاء فيما بعده، انظر رأي الحنفية عند دوسون VI, S. 11-12. ، ورأي الشّافعية عند Sachau, Muham. Recht, S. 174 ↑

142. الكندي ص 338. ↑

143. .Cod Just, C 1, tit 9, 10. Sachau, Recktsbucher, 2 109, 147 ↑

144. ,S. 173 Sachau, Muham. Recht ↑

145. الأغاني ج 3 ص 55 ↑

146. .Füstenfeld, Stattallter von Ägypten IV, S47

أي حوالي 180 ماركاً. ↑

147. عجائب الهند ص 52، وكان يدفع مثل هذا المبلغ في بيزنطة في ذلك العهد للعبد العادي، أي 240 ماركاً. انظر .Vogt, Basile, S. 383 ↑

148. ابن الوردي ص 46. ↑

149. مطالع البدور للغزولي ج 1 ص 196. ↑

150. الإدريسي، طبعة دوزي، ص 13. ↑

151. رسائل الجاحظ طبعة □ان □لوتن ص 78. ↑

152. Fr. Hirth, Die Länder انظر ما حكاه رحالة صيني في القرن الثّالث عشر الميلادي عند des Islam nach Chinesischen Quellen, S. 55 ↑

153. الأغاني ج 5 ص 6. ↑

154. انظر ميخائيل السّرياني نشرة شابو Michael Syrus ed. Chabot, S. 514 وهو يخطئ باسم إبراهيم المهدي فيجعله إبراهيم الموصلي. ↑

155. الأغاني ج 20 ص 43. ↑

156. أبو القاسم نشرة متس ص 78 وما بعدها. ↑

157. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 88 أ. ↑

158. الأوراق للصُّولي ص 142. ↑

159. الإصطخري ص 45. ↑

160. يتيمة الدَّهر ج 4 ص 151. ↑

161. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 242. وانظر كتاب روبرت حول التّشريع الاجتماعي في القرآن: Robert, Social Laws of the Quran, pp. 55-56.. ↑

162. Krauss, Talmudische Archäologie,

وكتاب البدء والتّاريخ ج 4 ص 39، على أن بيع الشّراكسة المسلمين بناتهم - وهو العمل الذي لا يزال جارياً إلى اليوم - يخالف الشّريعة الإسلامية وهو محظور بحكم الشّرع. ↑

163. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 27 ب-28 أ، والأزهري يروي بقلمه ما جرى معه.

انظر إرشاد الأريب ج 6 ص 299. ↑

164. يتيمة الدَّهر ج 4 ص 116. ↑

165. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 395. ↑

166. ابن حَوْقَل ص 368. ↑

167. إن تحريم الدّوجه في مدينة البندقية عام 960 م نقل العبيد على المراكب كان خاصاً بالعبيد المسيحيين وحدهم (انظر Schaube, Handelsgeschichte der rom. Völker, S. 23. وكانت المعاهدة التي عقدت بين البندقية وبين الامبراطور أوتو Otto الأكبر عام 967 م تحظر على المسيحيين الذين في أرض الامبراطور وحدهم أن يبيعوا أو يشتروا العبيد

(المصدر ذاته، ص 6). وكانت تجارة الرّقيق في مدينة جنوه، بعد ذلك بزمن طويل تجارة ظاهرة (المصدر ذاته، ص 104). ↑

168. ذكر الأسقف أغوبار، أسقف مدينة ليون Agobard de Lyon في القرن التّاسع الميلادي في كتابه Insolentia Judaeorum أمثلة على أن بعض اليهود كانوا يسرقون أبناء النّصارى الفرنسيين أو يحصلون عليهم شراء من النّصارى أنفسهم ويبيعونهم للمسلمين في إسپانيا (Opera, ed. Baluzius. Bd. 1 S. 65 f.) وقد اقتبست هذا من كتاب: Graf von Baudissin, Eulogius und Alvar, Leipzig, 1872. S. 77.. ↑

169. غيؤرغ كارو: Caro, Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, S. 191. ↑

170. المصدر ذاته، ص 192. ↑

171. Schaube, Handelsgeschichte der rom. Völker, S. 93 ↑

172. Caro,1 191,f ↑

173. جغرافية اليعقوبي ص 259. مسكويه VI, 391. ↑

174. الولاة للكندي ص 110. ↑

175. مخطوط رقم 4979 بمكتبة برلين fol. 135 b, ff.. ↑

176. الزّنجي دائم الرّقص، وكما أن الألماني يشعر برغبة شديدة في الغناء لا يستطيع التّغلب عليها متى قطع شوطاً من عمله اليومي، فكذلك الزّنجي يرقص متى استطاع». (K. Weule, Negerleben in. Ostafrika, S. 84). ↑

177. قال أحد الشّعراء القرن الرّابع في غلام تركي ذي عينين منغوليتين:

ضيّقة عن مراود الكُحلِ

(يتيمة الدّهر ج 4 ص 82). ↑

178. بُستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين، القاهرة 1304 هـ ص 222. ↑

179. النّكت العصرية لعمارة اليمني طبعة ديرنبورغ ص 9. ↑

180. الكندي ص 317. ↑

181. .Sachau. MSOS. X, 2 S. 93 ↑

182. سورة النّور آية 32. ↑

183. مُروج الذّهب ج 6 ص 344. ↑

184. ميخائيل السّرياني .Michael Syrus, S. 543 ↑

185. ميخائيل السّرياني 537. Michael Syrus, S ↑

186. المُغرب لابن سعيد ص 15. ↑

187. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 142 ب. ↑

188. معاهد التّنصيص لعبد الرّحيم العبّاسي مخطوط برلين رقم 7224 ورقة 15 ب. ↑

189. ثمار القلوب للثّعالبي، ZDMG,VI S. 54. وهنا نرى أنه كان يسمى رشاشاً. ↑

190. ديوانه ص 181 وما بعدها. ↑

191. رسائل طبعة مرغوليوث ص 41. ↑

192. الكندي ص 123. ↑

193. .Chr. Meyer, Kulturgeschichtliche Studien, S. 91 ↑

194. الدّيوان ص 546. ↑

195. .Odyss, XVII, 322 ↑

196. رسائل الصّابي طبعة بعبدا ص 160. ↑

197. كتاب الفرج بعد الشّدّة ج 1 ص 54. ↑

198. كتاب العيون نسخة برلين، ورقة 17، Berlin, IV. Fol. 7 a. ↑

199. المخلاة للعاملي ص 228. ↑

200. انظر Goldziher, Muhamm. Studien, II,233 ويُروى أن الجويني قال يوماً للغزالي: يا فقيه، كأنه استقلّ هذه اللفظة على نفسه. (طبقات السّبكي 3 ص 259). ↑

201. كتاب البدء والتّاريخ ج 1 ص 5. ↑

202. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 440. ↑

203. طبقات السّبكي ج 3 ص 91. ↑

204. مرغوليوث، رسائل أبي العلاء، XVI. ↑

205. كتاب بغداد لطيفور طبعة كيلر ed. Keller, fol, 62 a. ؛ وقد ترنّم ياقوت بذكرى مكتبات مرو مع تأخر الزّمن به. وكان قد مضى بمرور ثلاث سنين؛ فتغنى بأيامه فيها شعراً جميلاً. وكان بها على عهده اثنا عشرة خزانة، بإحداها نحو من اثني عشر ألف مجلد؛ يقول ياقوت «وكانت (الخزائن) سهلة التّناول لايفارق منزلي منها مئتا مجلّد وأكثر بغير رهن، تكون قيمتها مئتي دينار (وقيمة كل كتاب بحدود دينار واحد)؛ فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبُّها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد» (معجم البلدان ج 4 ص 509). ↑

206. المقريزي (المواعظ والاعتبار ج 1 ص 408) نقلا عن المُسبَّحي المؤرّخ الثّقة (توفي عام 420ه - 1029 م) الذي كان معاصراً للعزيز بالله.. . على أن الأرقام تختلف بين مخطوط وآخر، (المقريزي، المواعظ والاعتبار ج 1 ص 409). ↑

207. المقريزي (المواعظ والاعتبار) ج 1 ص 409. ↑

208. Gottlieb, Über Mittelalterliche Bibliotheken, S. 22, 23, 87. ↑

209. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 449. ↑

210. تاريخ أبي الفداء تحت سنة 255 هـ. ↑

211. الفِهْرِسْت ص 116؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 57، غُرَر الفوائد للمرتضى طبعة طهران 1272 هـ. ↑

212. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 79. ↑

213. إرشاد الأريب ج 5 ص 46. ↑

214. تاريخ أصفهان لأبي نعيم مخطوط ليدن ورقة 51 ب. ↑

215. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 121 نقلا عن الصّولي؛ وكان للصّولي هذا مكتبة كبيرة؛ انظر المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 796 ب. ↑

216. مسكويه ج 6 ص 314، وابن الأثير ج 8 ص 431. ↑

217. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 315. ↑

218. كتاب الصِّلة في تاريخ علماء الأندلس لابن بشكوال طبعة مجريط 1882 ج 1 ص 304-305. ↑

219. انظر وُستنفِلد Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 335. ↑

220. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 90 نقلاً عن ابن مسكويه. ↑

221. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 59 أ. ↑

222. نفح الطّيب للمَقَّري طبعة دوزي ج 1 ص 236. ↑

223. وقد أطلع المكتفي الصّولي على هذه الأشعار؛ انظر كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 396 ب. ↑

224. طبقات السّبكي ج 2 ص 230. ↑

225. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 420. ↑

226. Wüstenfled, AGGW, 37 ↑

227. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 413 وكتاب الفِهْرِسْت ص 139. ↑

228. ابن خلّكان، ج 2 ص 80؛ المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 135 أ. وقد أحرقت هذه الدّار عام 450ه - 1058 م (ابن الأثير ج 9 ص 247). وعلى أن الكتب التي كانت من قبل في حوزة رجال مشهورين لها شأن هام لأنها تحفظ نوعاً من السَّنَد الصّحيح لما تحويه وإقرارا به؛ ولذلك يعنى القارىء بكتابة اسمه على غطاء الكتاب. ويحدثنا ياقوت (إرشاد الأريب ج 6 ص 359) عن خازن هذه الدّار، كيف كانت الكتب تهلك بأكل البراغيث لها وعيثها فيها. ↑

229. ذكر ذلك معاصره ومواطنه يحيى بن سعيد ورقة 108 أ. ↑

230. المقريزي ج 2 ص 458. ↑

231. يحيى بن سعيد ورقة 116 أ. ↑

232. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 205 وفي سنة 314 ه - 926 م برد الهواء برداً شديداً وسقط ببغداد ثلج كثير، وجمدت دجلة بأسرها بالموصل حتى عبر النّاس عليها وجلس المحدّث المعروف بأبي زكرة في وسط دجلة على الجمد، وأملى الحديث (المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 31 أ). ↑

233. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 صTr .Guy Le Strange, Baghdad, p, 33. ↑

234. إرشاد الأريب ج 1 ص 308. ↑

235. .Wüstenfled, AGGW, 37, Nr. 287

، وطبقات السّبكي ج 3 ص 25، وابن الأثير ج 9 ص 183 يذكر أربعمئة طالب. ↑

236. التّهذيب للنّووي طبعة ستِنفِلد ص 307 وطبقات السّبكي ج 2 ص 170. ↑

237. السّبكي ج 2 ص 252. ↑

238. .Hartmann, Chinesisch-Turkestan, S. 45 ↑

239. السّبكي ج 3 ص 170؛ والنووي كذلك. ↑

240. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 436. ↑

241. .Wüstenfled, AGGW, 37, Nr. 365

وانظر طبقات السّبكي ج 2 ص 257. ↑

242. إرشاد الأريب ج 2 ص 10؛ على أن المؤلف يقول إن كلمة قارورة تدل على ما يشبه الصّندوق. ↑

243. المزهر للسّيوطي ج 1 ص 30، Goldziher, SWA, 69. S. 2. ↑

244. المزهر للسّيوطي. وأحمد بن يحيى، طبعة أرنولد Arnold ص 47. ↑

245. السّبكي ج 3 ص 259. ↑

246. المزهر للسّيوطي. وأحمد بن يحيى، طبعة أرنولد Arnold ص 47. ↑

247. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 312. ↑

248. المُعتزِلة لابن المرتضى. وأحمد بن يحيى، طبعة أرنولد Arnold ص 63، ويظهر أنه في عصر حاجي خليفة كان المحدثون قد تركوا الاملاء نهائياً. انظر: Marçais, Le Taqrib de en-Nawawi, JA 1901. 18, S. 87.. ↑

249. الفِهْرِسْت ص 76. ↑

250. طبقات السّبكي ج 3 ص 111، 137؛ ويقول المقريزي (المواعظ والاعتبار ج 2 ص 363) إن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية التي بنيت للبيهقي (توفي عام 454 ه - 1062 م). ويقول الذّهبي إن أول المدارس المدرسة النّظامية (السّبكي ج 3 ص 137)، ولا توجد كلمة مدرسة عند الجوهري ولكنها وردت في رسائل الهَمَذاني (ص 247)، والسّبكي، ج 3، ص 52. ↑

251. ويريد الأستاذ ريبيرا Ribera في مقالة Origen del Coiegio Nidami de Bagdad وهو بحث شائق ضمن Homenaje a Don Fr. Codera, Zaragoza, 1904. p. 3, ff. أن يثبت أن المدارس في أصلها من مؤسّسات الكرامية؛ ولكن لا برهان له على ذلك. ↑

252. طبقات السّبكي ج 3 ص 33. ↑

253. Nawawi, Le Taqrib, trad. Marçais, JA. 1901, 18, S. 88

والطّبعة العربية،النوع السّابع والعشرون؛وهذه كانت هي العادة الجارية في القرن الرّابع كما يدلّ على ذلك ما روي من أن الخطيب البغدادي كان يأمر المستملي أن يرفع صوته بذلك. ↑

254. إرشاد الأريب ج 6 ص 282. ↑

255. المصدر ذاته، ج 5 ص 272. ↑

256. انظر Goldzher DMG, 1907, S. 861، وقد حكى السَّمَرقندي (بُستان العارفين ص 10) عن عبد الرّحمن بن أبي ليلى أنه قال: أدركت مئة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فما كان منهم محدث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث ولا مفتٍ إلا ود أن أخاه كفاه الفتوى. ↑

257. انظر ماذكره مارسيه في حاشية ترجمته لكتاب التّقريب للنّووي:JA, 1901, S. 17, Anm. 2. ↑

258. الطّبقات للسّبكي ج 2 ص 161. ↑

259. التّقريب للنّووي ترجمة مارسيه Marçais Ja, 1901, 18, S. 85. f (النوع السّابع والعشرون من الطّبعة العربية)، ويذكر مارسيه عن الغزالي أن سُفيان الثّوري كان يجلس

الفقراء في الصّف الأول. ↑

260. إرشاد الأريب ج 2 ص 312. انظر ترجمته في وفيّات الأعيان، ج 2 ص 239. ↑

261. طبقات السّبكي ج 2 ص 312. انظر ما يذكره ابن عساكر حول الإملاء، وفيّات الأعيان، ج 2 ص 253. ↑

262. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 163 أ. ↑

263. طبقات السّبكي ج 2 ص 257. ↑

264. المصدر ذاته، ص 192. ↑

265. التّقريب للنّووي ترجمة مارسيه. انظر Marçais, JA, 1901, 17, 193 والنّسخة العربية: النوع الرّابع والعشرون. ↑

266. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 130 ب. ↑

267. السّبكي ج 3 ص 8. ↑

268. تاريخ بغداد JRAS, 912, S. 50. ↑

269. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 137 ب. ↑

270. Wüstenfled, Schafiiten, AGGW, 37, Nr. 8. ↑

271. التّقريب للنّووي ترجمة مارسيه JA, 1901, 18, S. 50.. وقد كان المحدِّثون المتأخرون قساةً في حكمهم على العمي من المحدّثين؛ فقد أراد البعض أن يسحبوا منهم كل ثقة في أمر الحديث، وهذا يدلّ على ما أصبح للكتابة من الشّأن وعلى نقصان قيمة الذّاكرة وما كان لها من التّقدير فيما مضى. وقد قال الخطيب البغدادي إن الأعمى في منزلة البصير الأمّي - المصدر ذاته، ص 63، (والنّوع السّادس والعشرون). ↑

272. AGGW, 37, Nr. 28. ↑

273. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 255. ↑

274. كتاب الوزراء للصّابي ص 201-202. ↑

275. يتيمة الدّهر ج 4 ص 122. ↑

276. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 337. ↑

277. يُذكر هذا كثيراً ولا سيما في تراجم المالكية. ↑

278. Marçais, JA, 1901, 17, S.انظر مقدمة بُستان العارفين للسَّمَرقندي، والتّقريب للنّووي 143.. ↑

279. طبقات السّبكي ج 2 ص 297. ↑

280. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 87 أ. ↑

281. السّبكي ج 2 ص 169. ↑

282. المصدر ذاته، ج 3 ص 14. ↑

283. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 141. ↑

284. البيان والتّبيين للجاحظ ج 1 ص 100. ↑

285. عيون الأخبار لابن قتيبة ص 93. ↑

286. إرشاد الأريب ج 6 ص 473 ↑

287. ص 86. ↑

288. ثمار القلوب للثّعالبي ZDMG, VI؛ وكان يوم الثّلاثاء ويوم الجمعة يوم عطلة مدرسية (انظر ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 1، وحكاية أبي القاسم الأزدي ص LVII)، وفيما يختص بالعصور المتأخرة (انظر كتاب ألف باء ج 1 ص 208، والمدخل ج 2 ص 168)؛ وكان الصّبيان يكتبون على ألواحهم بالطّباشير (المقدسي ص 440)، وكان المعلّم يؤدّبهم بأن يضربهم بالسَّير (يتيمة الدّهر ج 2 ص 63). ↑

289. البيان للجاحظ ج 1 ص 151. ↑

290. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 122. ↑

291. المصدر ذاته، ج 2 ص 144. ↑

292. كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ورقة 125 ب. ↑

293. البيهقي الطبعة الأوروبية ص 620. ↑

294. الفِهْرِسْت ص 51. ↑

295. Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 92.. ↑

296. تاريخ أبي الفداء تحت عام 339 ه. ↑

297. السّبكي ج 2 ص 168. ↑

298. المصدر ذاته، ج 3 ص 66. ↑

299. السّبكي ج 2 ص 222. ↑

300. المصدر ذاته، ج 2 ص 102. ↑

301. المصدر ذاته، ج 3 ص 297. ↑

302. تاريخ أبي الفداء تحت عام 345 هـ. ↑

303. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 9. ↑

304. Wüstenfled, AGGW, 37, Nr. 316.

، توفي عام 356 ه - 966 م وكان إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السُّلطان وعلو القدر عند السُّلطان، وكان يقال له الشّيخ الجليل ببُخارى. وكان فوق الوزراء لعظمته، (طبقات السّبكي ج 2 ص 86). ↑

305. طبقات السّبكي ج 3 ص 47، 117. ↑

306. إرشاد الأريب ج 2 ص 149. ↑

307. المصدر ذاته، ج 6 ص 209. ↑

308. ابن خلكان طبعة وُستِنفِلد ج 1 ص 65. ياقوت، إرشاد الأريب ج 2 ص 269. ↑

309. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 37. ↑

310. ابن حَزْم ج 2 ص 111. ↑

311. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 38؛ والمُعتزِلة لأحمد بن يحيى ص 63. ↑

312. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 439. ↑

313. قوت القلوب للمكّي ج 1 ص 141. ↑

314. Goldziher, Zahiriten, S. 182. ↑

315. Amedroz, Notes on Some Sufi Lives, JRAS, 1912, S. 554.

وانظر كتاب الطَّوَاسين، نشرة لوي ماسينيون Louis Massignon، ص 73. ↑

316. كتاب الطَّوَاسين ص 30. ↑

317. المصدر ذاته، ص 195. ↑

318. انظر الفصل الخاص بالدّين. ↑

319. بُستان العارفين للسَّمَرقندي طبعة القاهرة 1304 ص 3. ↑

320. Goldziher, Muh. Studien. , II, 190 ff.

، وقد ذكر النّووي أن من العلماء من أجاز صحّة رواية الحديث كتابة، وذلك منذ القرن الثّاني الهجري، ونجد أمثلة كثيرة لمثل هذه الرّواية في المجموعات الفقهية الشّرعية. J. A. (1901) p. 226. ↑

321. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 1 ص 164. ↑

322. الزّرقاني ج 1 ص 230؛ Goldziher, Muh. Studien. , II, 180. ↑

323. طبقات السّبكي ج 2 ص 14. ↑

324. المصدر ذاته، ج 3 ص 114. ↑

325. تاريخ بغداد طبعة فريتس كرنكو: JRAS, 1912, S. 71. ↑

326. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 36، السّبكي ج 2 ص 230. ↑

327. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 726 ب. ↑

328. II, Goldziher, Muh. Studien. , 200. ↑

329. سكردان السُّلطان على هامش المخلاة ص 185. ↑

330. طبقات السّبكي ج 3 ص 66. ↑

331. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 247، وتسمى عند ابن بشكوال (ج 1 ص 133) كريمة المروزية. ↑

332. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 408؛ وقد كتب تلاميذ مسلم خاصة كتباً في الصّحيح، ومنهم أبو حامد (توفي عام 325 هـ) وأبو سعيد (توفي عام 353 هـ) - طبقات السّبكي ج 2 ص 97 ومابعدها. ↑

333. Goldziher, Muh. Studien.

, II, S. 241. ، وقد ذكر النّووي في شرحه على مسلم (ج 1 ص 17) تلاميذ الدَّارقُطني. ↑

334. ترجمة مارسيه للتّقريب للنّووي، انظر Goldziher, Muh. Studien. , II, S. 241 وانظر مارسيه Marçais, JA, 1901, 18, S. 155. ↑

335. ترجمة مارسيه للنّووي JA,1900, 16, 321. ↑

336. ويقال إن الشّافعي (توفي عام 204 هـ) أول من أثار هذه المسألة (انظر ما ذكره مارسيه في المصدر المتقدم حكاية عند ابن عبد البرّ (توفي عام 463 هـ) انظر Marçais, Taqrib, J. A. 1900, 16, p. 321 ↑

337. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 248. ↑

338. السّبكي ج 2 ص 83. ↑

339. إرشاد الأريب ج 1 ص 249. ↑

340. مارسيه في ترجمته للتّقريب للنّووي: Marçais, JA, 1901, 18. S. 135. ↑

341. Goldziher, Muh. , Studien. , II, 207. ↑

342. كتاب الوزراء للصّابي ص 202. ↑

343. التّقريب للنّووي JA,1901, 18, S. 123. ↑

344. Goldziher, Muh. Studien, II, S.وانظر ، .JA, 1900, 17, S. 146 المصدر ذاته، 142. ↑

345. التّقريب .JA, 1900, 16, S. 330 ؛ وكذلك فعل ابن حيّان (توفي عام 354 هـ)، انظر المصدر ذاته، ص 487 حاشية رقم 1. ↑

346. التّقريب للنّووي في .JA, 1901, 17, S. 528 ↑

347. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 41. ↑

348. توفي ابن مجاهد سنة 334 ه - 945 م، وكان وافر اللحية عظيم الهامة؛ وقد رآه بعض النّاس في المنام يقرأ (المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 56 أ). ↑

349. الأوراق للصّولي ص 52، والفِهْرِسْت ص 31، وإرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 300 وما يليها؛ .Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 274 ↑

350. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 152 ب، وطبقات السّبكي ج 3 ص 26. ↑

351. .Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 278

؛ والفِهْرِسْت ص 31؛ وبُستان العارفين للسَّمَرقندي ص 73 ↑

352. تفسير الطّبري ج 1 ص 30. ↑

353. بُستان العارفين ص 74-75. ↑

354. المزهر للسّيوطي ج 2 ص 207 انظر أيضاً: .Goldziher, SWA, Bd, 72, S. 630 ↑

355. التّفسير للطّبري ج 1 ص 26. ↑

356. ص 26-30. ↑

357. تفسير الطّبري ج 1 ص 27. ↑

358. مثلاً ج 1 ص 58 عند الكلام عن القدر. ↑

359. .W. Spitta, Zur Gesch. Abu’l Hassan al Asch’ari’s, Leipzig, S. 128 ↑

360. انظر غولدتسيهر Goldziher, ZDMG, 41, S. 59. نقلاً عن تاريخ البربر لابن خلدون ج 1 ص 299. ↑

361. المُعتزِلة لابن المرتضى ص 65؛ والمفسّرين للسّيوطي ص 30. ↑

362. الفِهْرِسْت لابن النَّديم ص 33؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 496. ↑

363. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 1 ص 233. ↑

364. السّيوطي De Interp. Corani ص 19؛ ويقول السّبكي (الطبقات ج 3 ص 230) إن هذا التّفسير سبعمئة مجلّد. ↑

365. السّيوطي De Interp. Corani ص 22؛ ويرى ابن قتيبة خصم المُعتزِلة في تفسيرهم للقرآن ردوه إلى مذاهبهم (تأويل مختلف الحديث ص 80 وما بعدها). ↑

366. Goldziher, Zahiriten, S. 132. ↑

367. سورة البقرة آية 67. ↑

368. سورة النّساء آية 51-60. ↑

369. ابن قتيبة، مختلف الحديث، ص 84 ومابعدها. ↑

370. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 148؛ ولم يذكر صاحب الفِهْرِسْت هذا الكتاب. ↑

371. الفِهْرِسْت ص 138 وإرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 141-142. ↑

372. Goldziher, Zahiriten, S. 134. ↑

373. طبقات المفسّرين للسّيوطي ص 5؛ وقد ألف أبو رجاء الأسواني من قبل (توفي في سنة 335 ه - 946 م) قصيدة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء بلغت ثلاثين ألف بيت (طبقات السّبكي ج 2 ص 108، وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 319). ↑

374. البدء والتّاريخ للمُطهَّر المقدسي ج 4 ص 113. ↑

375. المصدر ذاته، ج 3 ص 22. ↑

376. البدء والتّاريخ للمُطهَّر المقدسي ج 4 ص 44. ↑

377. المصدر ذاته، ج 3 ص 56. ↑

378. المصدر ذاته، ج 3 ص 189. ↑

379. سورة سبأ آية 12. ↑

380. سورة النّمل آية 20. ↑

381. سورة النّمل آية 18. ↑

382. البدء والتّاريخ ج 4 ص 112 والصّفحات التّالية. ↑

383. المصدر ذاته، ج 4 ص 163. ↑

384. البدء والتّاريخ ج 3 ص 14. ↑

385. المصدر ذاته، ج 3 ص 112. ↑

386. المصدر ذاته، ج 4 ص 175. ↑

387. Goldziher, Zur Charakteristik es-Sujuti's, SWA, Bd, 69, S. 8, ff

وقد اختلف العلماء هل لكل قرن مجدد واحد أم له مجدد في كل علم من علوم الدّين؟ كان الذّهبي يذهب إلى هذا الرّأي الأخير، ويقول في القرن الرّابع كان على رأس المئة الثالثة ابن سريج في الفقه والأشعري في أصول الدّين والنّسائي في الحديث. (انظر طبقات السّبكي ج 2 ص 89). ↑

388. الفصل لابن حَزْم ج 2 ص 111. ↑

389. البدء والتّاريخ للمُطهَّر المقدسي ج 1 ص 13. ↑

390. المُعتزِلة لابن المرتضى ص 63، وكتاب الفصل في المِلل نشرة أرنولد. ↑

391. Spitta, El-Asch'ari, S. 87 ↑

392. طبقات المفسّرين للسّيوطي ص 74. ↑

393. المُعتزّ بن المرتضى ص 26. ↑

394. المصدر ذاته، نشرة أرنولد ص 53-54. ↑

395. المصدر ذاته، ص 61-62. ↑

396. المصدر ذاته، ص 5-6. ↑

397. يتيمة الدَّهر للثّعالبي ج 4 ص 120. ↑

398. الفصل لابن حَزْم ج 4 ص 197. ↑

399. الفصل في الملل لابن حَزْم ج 2 ص 112. وكان هؤلاء القليلون الذين لم يزالوا يعالجون البحث في مسألة الاختيار والقدرة الانسانية يسمون «القدرية»؛ وليس من السّهل بيان معنى هذه الكلمة؛ فالقدرية عند ابن قتيبة هم الذين أضافوا القدر إلى أنفسهم (تأويل مختلف الحديث ص 98)، يعني أنهم أصحاب الاختيار، وهم الذين يخالفون الجبرية؛ ولكن هذا التّفسير متناقض؛ «أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله» (كتاب المُعتزِلة لابن المرتضى ص 12). أما في القرن الثّالث فكانوا يقولون على وجه التّدقيق إن الله تَعالى يخلق الخير وإن الشّيطان يخلق الشّر (ابن قتيبة مختلف الحديث طبعة القاهرة 1326 هـ ص 5) والأشعري في الإبانة كما ذِكر ذلك لهلم شبيتا Spitta, S. 131 وبسبب هذه الاثنيْنيّة، سمّي المُعتزِلة «مجوس الأمّة الإسلامية» (ابن قتيبة ص 96)؛ ويُروى عن أحدهم أنه قال لرجل من أَهَل الذّمّة: ألا تُسلم يا فلان؟ فقال: حتى يريد الله فقال له: قد أراد الله. ولكن إبليسٍ لا يدعك؛ فقال له الذِّمّي: فأنا مع أقواهما (ابن قتيبة ص 99). وبسبب هذه الاثنيْنيّة أيضاً، سمّي القانون بالاختيار قدرية في حين أن أصحاب الاختيار يقولون إن اطلاق اسم القدرية على من يقول بالقدر خيره وشرّه من الله أولى (الشّهرستاني) على هامش ابن حَزْم ج 1 ص 54، وابن قتيبة ص 97. وفي القرن الرّابع، يقول المقدسي: إن المُعتزِلة غلبوا على القدرية (ص 37)، ويقول الأشعري (Spitta S. 131) ما يدلّ على أن القدرِيَة هم المُعتزِلة، ويقول المقدسي – إلى جانب ما تقدّم من غلبة المُعتزِلة على القدرية إنه لايميّز إحداهماَ من الأخرى إلا كل نحرير (ص 38). وقد حاول القاضيَ عبد الجبّار بالرِّيّ، حوالي أول القرن الخامس، وكان القاضي أكبر شيوخ المُعتزِلة في عصره، أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرية لا ينبغي أن يطلق على المُعتزِلة، بلَ على القائلين بالقدر خيره وشره من الله) انظر مقالة شرايْنر: Schreiner, ZDMG 52, S. 209. ↑

400. انظر هوروفيتس:

S. Horovitz: Über den Einfluss der griechischen Philosophie auf die Entwicklung des Kalam, Breslau 1909. ↑

401. راجع بيكَر: Becker, ZA, Bd 26, 176 ff. ↑

402. البُخاري كتاب التّوحيد نقلا عن غولدتسيهر Goldziher, Zahiriten, 145, Anm. 1. ↑

403. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 41. ↑

404. وقد كان القفّال أبو بكر الشّاشي، المتوفى عام 336 هـ (أو 335)، أحد أئمة الشّافعية أول من صنف في الجدل (ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 321 طبعة لايدن). ↑

405. بُستان العارفين للسَّمَرقندي ص 15. ↑

406. رسائل الخوارزمي ص 63. ↑

407. الحيوان للجاحظ ج 4 ص 109. ↑

408. كتاب معاني النّفس Goldziher, AGGW, N, F, 10, S. 13. ff. ↑

409. انظر Goldziher, ZDMG, Bd. 62, S. 2 ff. (المُعتزِلة لابن المرتضى ص 51). ↑

410. إرشاد الأريب ج 1 ص 141-148. ↑

411. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 71-72. طبعة مصر 1326 هـ. ↑

412. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 60. ↑

413. Spitta, el-Asch'ari, 46 وكان أسلاف الأشعرية الأقربون بين المتكلّمين هم: الكلابية الذين اندمجوا في الأشاعرة في القرن الرّابع، وكانوا ينكرون الجبر (المقدسي ص 37 والتّرجمة الإنكليزية ص 55. ↑

414. انظر لهلم شبيتا Spitta, 133. ↑

415. المصدر ذاته، ص 111. ↑

416. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 71 ب. ↑

417. Schreiner, Or. Kongr. Stockholm, I, S. 82.

نقلاً عن ابن خلدون. ↑

418. المُعتزِلة لابن المرتضى ص 66 نشرة أرنولد Arnold. ↑

419. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 72. ↑

420. هناك مثالان مميَّزان يذكرهما غولدتسيهر Goldziher, ZDMG, 62, S. 8. ↑

421. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 358. ↑

422. وكان الخطيب البغدادي يتعصّب على الحنابلة (المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 118 ب). ↑

423. Goldziher, S. 9 ↑

424. انظر لهِلم شپيتا: Spitta, el-Asch'ari, S. 111 ↑

425. طبقات السّبكي ج 3 ص 117. ↑

426. المصدر ذاته، ج 3 ص 54. ↑

427. الفصل لابن حَزْم ج 4 ص 204. ↑

428. Goldziher, ZDMG, 41, S. 30 ff. ↑

429. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 156. ↑

430. سورة الحشر، الآية 10. ↑

431. سورة الحجر، الآية 47. ↑

432. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 195 ب- 196 أ. ↑

433. الفِهْرِسْت ص 177، مُروج الذّهب ج 1 ص 156. ↑

434. مُروج الذّهب ج 1 ص 200-201. الفِهْرِسْت لابن النَّديم ص 24، 92. ↑

435. المُغرب لابن سعيد ص 96. ↑

436. طبقات السّبكي ج 3 ص 239. ↑

437. كتاب الهند للبيروني طبعة زاخاو ص 117. ↑

438. معجم البلدان لياقوت ج 3 ص 343 من الطّبعة الأوروبية، انظر غولدتسيهر Goldziher, SWA, 73, S. 552.. ↑

439. Snouck Hurgronje, RHR, 37, S. 176. ↑

440. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 179، 395، 439، 481. ↑

441. الفِهْرِسْت لابن النَّديم ص 225 وما بعدها، والمقدسي ص 37. وانظر لامنس Lammens, Islam, ch. v. tr. ↑

442. طبقات السّبكي ج 2 ص 337. ↑

443. المقدسي ص 37. ↑

444. المُنتظَم لابن الجوزي تحت عام 310 هـ نقلاً عن ثابت بن سنان، وابن الأثير ج 8 ص 98 نقلا عن مسكويه؛ Wüstenfeld, AGGW, 37, NR. 80. ↑

445. حوالي عام 500 هـ – 1107كما يقول الغزالي (انظر كتاب اختلاف الفقهاء للطّبري، طبعة كيرن Kern، مصر 1902 م ص 14). ↑

446. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 347. ↑

447. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 179. ↑

448. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 144. ↑

449. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 37، 395. وحول سُفيان الثّوري انظر ابن خلّكان ص 1576 من التّرجمة الإنكليزية. ↑

450. ابن تَغْري بَرْدي طبعة كاليفورنيا ص 120. ↑

451. كتاب اختلاف الفقهاء للطّبري ص 14، نقلا عن كتاب عُمدة العارفين. ↑

452. Goldziher, Zahiriten, S. 110.. ↑

453. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 439. ↑

454. مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 8. ↑

455. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 41. ↑

456. Wüastenfeld, AGGW، 80

ويذكر ابن تَغْري بَرْدي (طبعة كاليفورنيا ص 126 تحت سنة 410 ه - 1019 م)، وفاة عالم، كان يتفقّه على مذهب الطبري ومما صنفه القاضي المصري الخصيبي (توفي عام 347 ه - 958 م)، كتاب في الرّد على الطبري (ملحق القُضاة للكندي ص 577). ↑

457. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 1 ص 228. ↑

458. رسائل الخوارزمي ص 63، ولم يقل المقدسي شيئاً في هذه المسألة. ↑

459. طبقات السّبكي ج 1 ص 174. ↑

460. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 204 من التّرجمة الإنكليزية. ↑

461. طبقات السّبكي ج 2 ص 244. ↑

462. يقول السّيوطي في طبقات المفسّرين (ص 36 من الطّبعة الأوروبية) إن الإمام أبا بكر الشّاشي الفقيه الشّافعي، (توفي عام 335 ه - 948 م) هو الذي نشر فقه الشّافعي، فيما وراء النّهر. ↑

463. ملحق القُضاة للكندي ص 519؛ وطبقات السّبكي ج 2 ص 174، وحسب المحاضرة للسّيوطي ج 1 ص 186. ↑

464. المُغرب لابن سعيد ص 24. ↑

465. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 202-203. ↑

466. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 1 ص 212. ↑

467. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 341. ↑

468. مقدمة غولدتسيهر لكتاب محمد بن تومرت ص 23. ↑

469. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 236. ↑

470. كتاب الوزراء للصّابي ص 335. ↑

471. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 230. ↑

472. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 7. ↑

473. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 203. ↑

474. المقدسي 127. ↑

475. انظر لهاوزن:

Julius Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam, Berlin 1901, S. 78. ↑

476. القُضاة للكندي نشرة غست Guest ص 328، 356، 427. ↑

477. الكندي ص 367، والمثال الآخر في ص 427. ↑

478. تاريخ اليعقوبي، ج 2 ص 468. وكان الذي ولي قضاء مصر في مستهلّ عام 155 ه - 772 م، أول قاض ولي مصر من قبل الخليفة المنصور (القُضاة للكندي ص 368). وكان أول قاضٍ قضى بالمدينة من من قبل الخليفة المهدي (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 484). وأما فيما يتعلّق بقُضاة الإسلام الأولين الذين يُروى أن الخليفة هو الذي كان يعيّنهم، فالظّاهر أن حكاياتهم موضوعة، كما هو الحال في الخطابات التي ينسب لعُمر أنه كان يوجهها إلى القُضاة والولاة. ↑

479. طبقات السّبكي ج 2 ص 113 وما بعدها. ↑

480. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 141 ب، وابن الأثير ج 9 – ص 129. ↑

481. Gottheil, The Qadi, SA der REES, 1908, S. 7, Note 3

(وقد بطل ذلك من عهد قريب). ↑

482. الكندي ص 388، وقد ذكرت المحاولتان الوحيدتان اللتان أريد فيها الجمع بين القُضاة والأمرة لرجل واحد، وهما تتعلّقان بالقاضي الأندلسي أسد (توفي عام 213 هـ)، وبالقاضي شريك بن عبد الله في عهد المهدي (158-169 هـ)؛ كتاب العيون ص 372. ↑

483. Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 91.

(طبقات السّبكي ج 2 ص 302). ↑

484. ملحق الكندي ص 528. ↑

485. طبقات السّبكي ج 2 ص 306. ↑

486. المصدر ذاته، ج 3 ص 26؛ وانظر أيضاً Wüstenfeld, AGGW, 37, 287 ↑

487. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 7 ب. ولقد ورد الخبر ببريد الحَمام الزّاجل. ↑

488. بُستان العارفين ص 38. ↑

489. ابن خلّكان ج 2 ص 35 الحاشية 5. مشكاة المصابيح، التّرجمة الإنكليزية ص 221. ↑

490. الكندي ص 302. ↑

491. القُضاة للكندي ص 315. ↑

492. بُستان العارفين للسَّمَرقندي ص 30؛ وتجد أمثلة أخرى في كتاب كشف المحجوب، ترجمة نيكولسون ص 93. ↑

493. ابن خلكان ترجمة رقم 834، والقُضاة للكندي. ↑

494. ابن خلكان ترجمة رقم 290. ↑

495. تجد أمثلة أخرى ذكرها أمدروز في مقالة من منصب القضاء في الأحكام السُّلطانية، وذلك في مجلة: JRAS, 1910, S. 775. ↑

496. قوت القلوب ج 1 ص 157. ↑

497. AGGW, 37, Nr. 81.

وهكذا وقع لا بن سُريج (توفي عام 305 ه - 919 م). وكان ابن سريج قاضياً على شيراز من قبل (انظر طبقات السّبكي ج 2 ص 92)، ويقول السّبكي (ج 2 ص 213) إن الوزير كان يقصد من ختم دار بن خيران أن يقال إنه كان في زمانه من يوكل به ليقلّد القضاء فلا يفعل؛ ويحكي السّبكي (ج 2 ص 214) عن ابن زولاق المؤرّخ المصري، المتوفى عام 387 ه - 998 م أن النّاس كانوا يأتون بأولادهم الصّغار ليشاهدوا باب ابن خيران، وهو مسمور. ↑

498. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 118 أ. ↑

499. ابن تَغْري بَرْدي طبعة كاليفورنيا ص 103. ↑

500. كتاب أدب القاضي مخطوط لايدن رقم 550 ورقة 25 أ. ↑

501. الكندي ص 317. ↑

502. الكندي ص 354. ↑

503. المصدر ذاته، ص 317. ↑

504. المصدر ذاته، 331. ↑

505. المصدر ذاته، ص 352. ↑

506. الكندي ص 363. ↑

507. المصدر ذاته، ص 378. ↑

508. المصدر ذاته، ص 421، وفي ص 435 أن رزقه كان مئة وثلاثة وستين ديناراً وفي ص 507 أن المتوكّل أجرى على خلفه مثل رزقه 168 ديناراً. ↑

509. المصدر ذاته، ص 435؛ وفي نصوص أخرى أن رزقه غير ذلك ويحكي السّبكي (ج 2 ص 302) نقلا عن ابن زولاق المتوفى عام 386 ه - 998 م) أن رزق القاضي ابن حربويه الذي عزل عن القضاء سنة 321 ه - 933 م كان مئة وعشرين ديناراً في الشّهر، وهو مبلغ ينطبق على أقدم الرّسوم. ↑

510. مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 189-190. ↑

511. الكندي ص 597. ↑

512. ناصر خسرو ص 161. ↑

513. الكندي ص 613؛ أما ما ذكره في ص 499 من أن دخله كان خمسين ألف دينار في السّنة، فيجب أن يؤخذ على أنه ما يحصل عليه بغير حق. ونجد في بيان المقريزي (المواعظ والاعتبار ج 1 ص 398) لنفقات الفاطميين أن رزق القاضي كان مئة دينار في الشّهر. ↑

514. Huart, Calligr. S. 77. ↑

515. تاريخ بغداد J. R. A. S, 1912, S. 54 ↑

516. ملحق القُضاة الكندي ص 573، وابن الجوزي في المُنتظَم ورقة 105 ب، ولذلك حكاية أخرى عند السّبكي في طبقاته ج 3 ص 84. ↑

517. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 302. ↑

518. المُنتظم ورقة 75 أ. ↑

519. مسكويه ج 6 ص 257. ↑

520. ابن خلكان ترجمة رقم 306 من طبعة ڤُستِنفِلد. ↑

521. طبقات السّبكي ج 3 ص 84. ↑

522. ابن بشكوال ج 1 ص 60. سلسلة المكتبة التّاريخية العربيّة Bibl. His. Arab. ↑

523. پيترمان: «رحلات في المشرق» Petermann, Reisen im Orient, S. 98. ↑

524. انظر Revue du monde Musulman, XIII S. 517. وانظر أيضاً بُرتون أفريقيا الشّرقية Burton, East Africa,1, 88. ↑

525. مسكويه ج 6 ص 249. ↑

526. تذكرة ابن حمدان لدى أمدروز (Amedroz, JRAS, 1910, S. 783) وكان المولع بالغلمان من رذائل القُضاة المعروفة (يتيمة الدّهرج 2 ص 218) (محاضرات الأدباء ج 1 ص 125، والمستطرف ج 2 ص 199)؛ وكان قاضي قُضاة المأمون لوَّاطا مشهوراً؛ وقد هجا البُحتُري (الدّيوان ج 2 ص 175) ابن أبي الشّوارب قاضي القُضاة بمثل هذه الرّذيلة. ↑

527. مسكويه ج 6 ص 249، 257، وابن الأثير ج 8 ص 400، 407. ↑

528. الكندي ص 346. ↑

529. المصدر ذاته، ص 355. ↑

530. ملحق الكندي ص 395. ↑

531. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 157 ب. ↑

532. كتاب أدب القاضي بمكتبة لايدن رقم 554 ورقة 9 أ. ↑

533. المحاسن والمساوئ للبيهقي طبعة شڤالي ص 533. ↑

534. الأغاني ج 10 ص 123. ↑

535. الكندي ص 351. ↑

536. الكندي ص 428. ↑

537. المصدر ذاته، ص 443. ↑

538. ابن تَغْري بَرْدي طبعة لايدن ج 2 ص 86. ↑

539. طبقات السّبكي ج 2 ص 194. ↑

540. المصدر ذاته، ج 2 ص 113. ↑

541. المصدر ذاته، ج 3 ص 59. ↑

542. Kremer, ZDMG 30 S. 49. ↑

543. Kremer, ZDMG 31, S. 478. ↑

544. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 403. ↑

545. الكندي ص 356. ↑

546. المصدر ذاته، ص 357. ↑

547. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 538. ↑

548. الكندي ص 392. ↑

549. أدب القاضي مخطوط لايدن رقم 550 ورقة 22 أ. ↑

550. De Sacy, Religion des Druses, CCCCXXVIII. ↑

551. الكندي ص 378. ↑

552. المصدر ذاته، ص 469. وكان قاضي قُرطُبة في عهد الخليفة الحكم حسن الهيئة نظيف الملبس، وكان يخرج إلى المسجد ويقعد للحكم في إزار ولمة مفرقة، (أخبار مجموعة ص 127، البيان المُغرب لابن عذاري المَرّاكشي ج 2 ص 81 طبعة لايدن. وترجمة فانيان Fagnan ص 128. ↑

553. الأغاني ج 10 ص 123 وإرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 373، ج 6 ص 209، ورسائل الهَمَذاني ص 168 وملحق الكندي ص 586. ↑

554. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 192. ↑

555. الدّيارات للشّابشتي نسخة برلين ورقة 81 أ. ↑

556. Note I, JRAS, 1911, p. 659 تاريخ الإسلام للذّهبي في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية والظاهر أن قُضاة مصر في النّصف الأول من القرن الرّابع كانوا يلبسون طيلسانا أزرق (كتاب الدّيارات ورقة 131 أ)؛ وكذلك كان أحد القُضاة ببغداد حوالي عام 400 هـ يلبس طيلساناً أزرق (إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 261) وكذلك كان العدول يلبسون قلانس سوداء طويلة ويسخر أحد شعراء القرن لرابع من القلانس فيشبه قلنسوة القاضي بأنها غراب نوح بلا جناح. (انظر محاضرات الأدباء ج 1 ص 129). ↑

557. ملحق الكندي ص 589، 596، 597. ↑

558. المصدر ذاته، ص 574، والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 105 ب. ↑

559. الكندي ص 395-396. ↑

560. المصدر ذاته، ص 437. ↑

561. مخطوط باريس عربي رقم 5907 ورقة 12 ب. ↑

562. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 15. ↑

563. يحيى بن سعيد مخطوط باريس ورقة 124 أ-ب، وملحق الكندي ص 612. ↑

564. الأحكام السُّلطانيّة للماوردي ص 128. ↑

565. ملحق الكندي ص 545. ↑

566. المصدر ذاته، ص 552، 569، 590. ↑

567. Amedroz, JRAS, 190. 779 ff.

نقلا عن نشوار المحاضرة للتّنوخي المطبوع في پاريس ورقة 128. انظر أيضاً رسائل الصّابي ص 122 حول عام 327 ه - 939 م وقد تكلم المسعودي في عام 339 ه - 951 م (مروج ج 8 ص 378)، وهو بمصر عن الشّهود بغداد، وقد سمّي الشّهود في خُراسان والمغرب في النّصف الثّاني من القرن الرّابع بالعُدول (يتيمة الدّهر ج 3 ص 233، ومسكويه في مواضع كثيرة، وقاموس دوزي، ومقدمة ابن خلدون ترجمة دى سلان ص 456) وقد بقيت هذه التّسمية بمَرَّاكش إلى اليوم (انظر مجلة العالم الإسلامي Revue du monde

musulaman, XIII, p. 517 ff. أما الشهود الذين لا يقومون بالشهادة ويرشحون لها فيسمّون الموسومين بالعدالة (الكندي ص 422 ورسائل الصّابي ص 122). ↑

568. الكندي ص 549، وأمدروز Amedroz, JRAS, 1910. S. 783 نقلاً عن ابن حجر ورقة 128 أ. ↑

569. Amedroz, JRAS, 1910. S. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 63 أ، 134 أ، 779 ff نقلاً عن رفع الإصر، وعن تاريخ الذّهبي. ↑

570. رفع الإصر، ورقة 28 أ، الكندي ص 596. ↑

571. محاسن التّجارة 36. ↑

572. خطط المقريزي ج 1 ص 333. ↑

573. يقال إن أول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف قاضي الرّشيد الذي كان يرشح القُضاة للتّعيين بالبلاد (خطط المقريزي ج 2 ص 333)؛ وكان يحيى بن أكثم قاضي المأمون يمتحن القُضاة الذين يراد توليتهم (طيفور في كتاب بغداد نشر كيلر Keller, fol. 100r. ؛ فكان يسألهم في مسائل مشكلة من الشّريعة (عيون الأخبار ص 86)؛ وكان يعين قاض من كل مذهب من المذاهب الأربعة وذلك بعد عصر الحروب الصّليبية - انظر كتاب زبدة كشف الممالك للظّاهري طبعة پول را□يس Ravaisse ص 92. وفي سنة 664 هـ / 1266 ضمّ الملك الظّاهر بيبرس القُضاة الثّلاثة إلى الشّافعية، بعد أن كان القُضاة للشّافعية مصراً وشاماً (طبقات السّبكي ج 2 ص 174). ↑

574. رسائل الصّابي ص 115 وما بعدها؛ وفي أوائل القرن الرّابع الهجري حكم القاضي بفسخ زواج بكر كرهت زوجها، لأن أباها لم يكن قد أستأذنها عند العقد، فأراد الزّوج جمع كلمة الفقهاء على صحة النّكاح، وخشي القاضي من اجتماع كلمة الفقهاء على فساد حكمه، فأشار عليه صاحب له أن يسجل حكمه بفسخ النّكاح ويشهد بذلك. فأفسد على الزّوج وعلى الفقهاء تدبيرهم (ملحق الكندي ص 566). ↑

575. انظر ما حكاه Amedroz, 1910, S. 780. نقلاً عن تذكرة ابن حمدون؛ وانظر أيضاً المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 174 ب. ↑

576. انظر غوتهايل:

Gottheill, A Distingulshed Family of Fatimide Cadis in the Tenth Century, JAOS 1906, S. 217 ff. ↑

577. كتاب الوزراء للصّابي ص 157. ↑

578. إرشاد الأريب ج 2 ص 314. ↑

579. مُروج الذّهب للمسعودي ج 9 ص 77. ↑

580. صبح الأعشى ج 3 ص 184. ↑

581. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 105 ب. ↑

582. المواعظ والاعتبار لمقريزي ج 2 ص 207، Amedroz, JRAS, 1911, S. 635 ff. ↑

583. فيما يتعلّق بتُركستان انظر Scnouck, Turkestan, 210. أما في مصر في عهد محمد علي فانظر Lane, Manners and Customs, chapter IV. في أول الفصل التّاسع وفيما يتعلّق بمكّة انظر Snouck Hurgronje, Mekka, I, 182. ↑

584. Amedroz, JRAS, 1911, S. 664. ↑

585. كان ينظر في المظالم بمصر قاضي الإخشيد الذي ولي القضاء سنة 324 ه - 936 م، انظر الطبقات السّبكي ج 2 ص 113. وفي سنة 331 هـ أفرد للنّظر في المظالم قاض مستقل (الكندي نشرة غست Guest ص 572). وفيما يتعلّق ببغداد في سنة 493 هـ 1004 م انظر المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 149 ب. وفي الأهواز تقلّد القاضي التّنوخي عام 317 ه - 929 م القضاء والمظالم (إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 332). وعندما لاينظر القاضي في المظالم كانت ترسل إليه قصص المتظلمين بعد التّوقيع فيها (انظر كتاب الوزراء ص 151). ↑

586. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 50، وإرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 332. ↑

587. عريب ص 71. ↑

588. يحيى بن سعيد ص 205. مسكويه ج 4 ص 75. ↑

589. كتاب الوزراء للصّابي ص 107. ↑

590. Amedroz, JRAS, 1910. S. 793

نقلاً عن رفع الإصر مخطوط باريس رقم 2149 ورقة 60 أ-ب، انظر أيضاً JRAS, 1911, S. 663 وملحق الكندي ص 499، ص 613. ↑

591. ملحق الكندي ص 512. ↑

592. المصدر ذاته، ص 584. ↑

593. المصدر ذاته، ص 591. ↑

594. المصدر ذاته، ص 604. ↑

595. كتاب الوزراء ص 52، 107 وكان على صاحب ديوان المظالم أن يعمل بجميع القصص جامعاً يُعَرض على الخليفة في كل أسبوع (انظر كتاب الخَراج لقُدامة مخطوط پاريس 907 ص 236). ↑

596. ملحق الكندي ص 541. ↑

597. ومن هذه التّوقيعات طاهر التي ذكرها طيفور في كتاب بغداد ص 50 ب. وتوقيعات المأمون عند البيهقي ص 534 وما بعدها، وتوقيعات الصّاحب بن عباد عند الثّعالبي في خاص الخاص طبعة القاهرة 1909 م ص 73. ↑

598. المُغرب لابن سعيد ص 39. ↑

599. ملحق الكندي ص 577، والمقريزي. ↑

600. المقريزي المصدر ذاته، نقلا عن الماوردي، ويذكر هنا أن الإخشيد وابنه كانا يجلسان لمظالم يوم السّبت، واللمحة التّاريخية التي ذكرها المقريزي مأخوذة من الأحكام السُّلطانية ص 131. ↑

601. مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 2. ↑

602. المحاسن والمساوئ للبيبهقي ص 577. ↑

603. Amedroz, JRAS, 1911. S. 657. ↑

604. كتاب الوزراء للصّابي ص 22. ↑

605. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 71؛ وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 203؛ وقد اختلف في المرأة: هل تقضي؟ وشذّ الطّبري المتوفى عام 312 هـ فجوّز قضاءها في جميع الأحكام (الماوردي ص 107)، ثم اشترط فيما بعد في القاضي أن يكون ذكراً، أو في النّظر في المظالم فلم يشترط ذلك. ↑

606. المزهر للسّيوطي ج 2 ص 199. ↑

607. المُنتظم لابن الجوزي ورقة 85 أ. ↑

608. القفطي ص 283 من الطّبعة الأوروبية. ↑

609. Mittwoch, MSOS, 1910 S. 148 f ↑

610. انظر غولدتسيهر:

Goldziher, Beitr. zur Gesch. d. Sprachgelehrsamkeit bei den Arabern, SWA. Phil. Hist. KI 37, S. 518. ↑

611. Goldziher, Zur Gauhari Literatur, SWA, 92, S. 587. ↑

612. طبقات المفسّرين للسّيوطي ص 24-25. ↑

613. Goldziher, SWA, 67, S. 250

نقلا عن المُزهر للسّيوطي (ج 1 ص 164). وفي الكتاب الثّاني (الفصل الثّلاثين) من كتاب الخصائص تناول ابن جنّي الكلام في الاشتقاق الأكبر. انظر O. Rescher, Studien über Ibn Ginni, ZA, 1909, S. 20. ↑

614. مُروج الذّهب ج 8 ص 131. ↑

615. بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضّبي، طبعة مجريط 1884 ص 56. ↑

616. المسعودي ج 7 ص 347-348. ↑

617. الأغاني ج 18 ص 173. ↑

618. المصدر ذاته، ج 20 ص 35؛ وكتاب الشّعراء والشّعراء لابن قتيبة، طبعة بروكلمان ص 549. ↑

619. البيهقي ص 475-476. ↑

620. إرشاد الأريب لياقوت. ↑

621. طراز المجالس ص 67 وما بعدها. ↑

622. إرشاد الأريب ج 6 ص 56. ↑

623. يتيمة الدّهر ج 3 ص 238، وقد سمّى الباخرزي الثّعالبي نفسه بأنه جاحظ نيسابور؛ انظر مقدمة كتاب الاعجاز والايجاز للثّعالبي. ↑

624. لطائف المعارف ص 105، وإرشاد الأريب ج 1 ص 686. ↑

625. يتيمة الدّهر ج 3 ص 3. ↑

626. المصدر ذاته، ج 5 ص 282. ↑

627. المصدر ذاته، ص 380. ↑

628. المستطرف ج 2 ص 278-279. أما مقدار تأثر الجاحظ فيما كتبه من السّخرية بالمعلمين بكتب اليونان الهزلية التي كانت شخصية المعلم من أكبر صورها فهو موضوع للبحث، انظر Reich, Mimus, 1, 443. ↑

629. زهر الآداب للحصري على هامش العقد الفريد ج 1 ص 56 وما بعدها. ↑

630. ذكر التّنوخي في الفرج بعد الشّدّة (ج 2 ص 106) كتاب الجاحظ يسمى كتاب اللصوص. ↑

631. مُروج الذّهب مثلاً ج 4 ص 25. ↑

632. كتاب البيان ج 1 ص 113. ↑

633. Goldziher, Abhandlungen zur arabischen philologie, I, S. 65 f. ↑

634. البيان ج 2 ص 114. ↑

635. الكندي ص 445-446، طيفور، ويجد القارئ كتاباً من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر، وهو نثر مرسل، والصّداقة للتّوحيدي ص 54-55. ↑

636. إرشاد الأريب ج 2 ص 37. ↑

637. الطّبري ج 3 ص 2166 وما بعدها. ↑

638. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 463. ولكن الرّسالة التي يشير إليها المؤلف هنا فيها سجع، وكاتبها ابن ثوابة نفسه، والعيب هنا أن المؤلف يعتمد على أمر جزئي يبني عليه قاعدة؛ وقد

فعل هذا كثيراً في أثناء كتابه. ومما يدل على الاضطراب في استنتجاته أن ابن ثوابة كان منشئاً في ديوان المُقتدِر، ويقول المؤلف إن المُقتدِر كان يكتب إلى عماله سجعاً. ↑

639. كتاب الوزراء للصّابي ص 337 وما بعدها. ↑

640. إرشاد الأريب ج 6 ص 280، وكتاب الوزراء ص 277. ↑

641. انظر مثلاً كتاب صاحب الاخبار إلى بغداد من بلدة الدّينور - صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 39-40. ↑

642. المصدر ذاته، ج 2 ص 298. ↑

643. إرشاد الأريب ج 2 ص 304. ↑

644. مع أمثلة شواذ قليلة جداً، فقد كان وزير مشهور من وزراء المرابطين الأولين يتجنّب السّجع، انظر المعجب في أخبار المغرب للمَرَّاكشي طبعة مصر ص 104. ↑

645. رسائل الخوارزمي ص 35. ↑

646. الفِهْرِسْت ص 134. ↑

647. يتيمة الدّهر ج 3 ص 119، ج 4 ص 31. وكتاب إرشاد الأريب ج 5 ص 331. ↑

648. إرشاد الأريب ج 1 ص 324. ↑

649. يتيمة الدّهر ج 2 ص 277. ↑

650. رسائل الصّابي ص 56-58. ↑

651. كتاب الدّيارات للشُّابشتي ورقة 46 أ وما بعدها. ↑

652. يتيمة الدّهر ج 4 ص 123 والصّفحات التّالية. ↑

653. رسائل الخوارزمي ص 81. ↑

654. رسائل الخوارزمي ص 119. ↑

655. رسائل الخوارزمي ص 76. ↑

656. رسائل الخوارزمي ص 88. ↑

657. المصدر ذاته، ص 106. انظر أيضاً ص 68. ↑

658. رسائل الخوارزمي ص 30. ↑

659. المصدر ذاته، ص 35. ↑

660. رسائل الهَمَذاني طبعة بيروت ص 76. ↑

661. يتيمة الدّهر ج 4 ص 167-168. ابن خلكان (ج 1 ص 68 = 69 من طبعة ⎕ستِنفِلد). ↑

662. يتيمة الدّهر ج 4 ص 167. ↑

663. رسائل الهَمَذاني ص 74. ↑

664. مقامات الهَمَذاني طبعة بيروت 1889 ص 72. ↑

665. رسائل الهَمَذاني ص 174-175. ↑

666. المصدر ذاته، ص 370. ↑

667. رسائل الهَمَذاني ص 393 وما بعدها. ↑

668. يتيمة الدّهر ج 3 ص 174-175. ↑

669. كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة ⎕ان ⎕لوتن ص 47 وما بعدها. ↑

670. المحاسن والمساوئ ص 622-627. ↑

671. يتيمة الدّهر ج 3 ص 175 وما بعدها. ↑

672. المصدر ذاته، ص 175. ↑

673. يفتخر الهَمَذاني (رسائل ص 389-390، 516) بأنه أملى أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى؛ وينبغي ألا نعتبر الأربعمئة رقماً دقيقاً، فإن الهَمَذاني يؤكد في رسائله (74) أنه يقدر على أربعمئة صنف من التّرسُّل. ↑

674. يتيمة الدّهر ج 3 ص 176. على أن المقامات لم يذكر تاريخ تأليفها، فيقول الحصري إن المقامة الحمدانية (ص 150 وما بعدها من طبعة بيروت) أمليت سنة 385 ه - 995 م. ↑

675. رسائل الهَمَذاني ص 389-390. ↑

676. طبع ديوانه بمصر عام 1321 هـ، ومخطوط پاريس (2147) أدق وأوفى. ↑

677. يتيمة الدّهر ج 3 ص 223؛ والدّيوان مخطوط پاريس ورقة 54 أ-ب. ↑

678. زهر الآداب المطبوع بمصر على هامش العقد الفريد. ↑

679. رسائل أبي العلاء، مرغوليوث ص 46-47، ص 52. ↑

680. رسائل الهَمَذاني ص 8. ↑

681. رسائل أبي العلاء ص 36، 44، 45، 88. ↑

682. رسائل أبي العلاء ص 3 وما بعدها. ↑

683. المصدر ذاته، ص 55. ↑

684. رسالة في الصّداقة والصّديق طبع القسطنطينية 1301 ه - ص 5-6. ↑

685. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 387-388. ↑

686. جاء في أخبار العرب أن أحسن النّاس جواباً وأحضرهم قريش ثم العرب، وأن الموالي تأتي أجوبتها بعد فكرة ورويّة. أمالي المرتضى ج 1 ص 197. ↑

687. هل كانت قصص السِّندباد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة؟ كانت تلك القصص موجودة قائمة بذاتها، على تفاوت في طولها؛ وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند المسعودي ج 4 ص 90، والفِهْرِسْت ص 305). وقد ذكر عام 391 ه - 1000 م) (مخطوط مدينة غوتا ص 11 أ) أن هذا الكتاب، كتاب السِّندباد من كتب الحكايات المحبوبة، التي يميل إليها النّاس ميلاً خاصاً. ويقال إن مؤلفه طبيب هندي يسمّى سندباد، وهو يحتوي على كتاب الوزراء للصّابي السّبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك (مُروج الذّهب ج 1 ص 162). ↑

688. الفِهْرِسْت لابن النَّديم ص 304. ↑

689. رسائل أبي العلاء المَعَرِّي ص طبعة مرغوليوث ص 102. ↑

690. الفِهْرِسْت ص 304. ↑

691. القفطي ص 331-332. ↑

692. الأوراق للصّولي ص 9. ↑

693. الفِهْرِسْت ص 308. ↑

694. كتاب تاريخ سني ملوك الأرض طبعة غوتالد Gottwald ص 41-42. ↑

695. الموشّى للوشّاء. ↑

696. ألّف المرزباني (توفي عام 378 هـ) كتاباً كبيراً في أخبار الشّعراء المحدثين وجعل أوّلهم بشّار بن بُرد وآخرهم ابن المُعتزّ (الفِهْرِسْت ص 132). ويقول ابن خلّاد: والآخرون يقودهم بشّار (يتيمة الدّهرج 3 ص 235)؛ وهو يسمى قائد المحدثين (حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس، ص 10-11، والحصري على هامش العقد الفريد ج 2 ص 21). ↑

697. الأغاني ج 3 ص 20. ↑

698. المصدر ذاته، ص 22 و 65. يُروى عن رجل أنه قال: مررت ببشّار، وهو منبطحٌ في دهليز كأنه جاموس (المصدر ذاته، ص 56). ↑

699. المصدر ذاته، ص 22. وكذلك كان البُحتُري من أبغض النّاس إنشاداً، فكان يتشدق ويتزاور في مشيه مرّة جانباً ومرة القهقرى، ويهزّ رأسه مرّة ومنكبه أخرى، ويشير بكمه ويقول: أحسنتُ والله؛ ثم يقبل على المستمعين فيقول: ما لكم لا تقولون: أحسنتَ (إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 404). وكان في بعض البلاد في أثناء القرن الرّابع الهجري شعراء يُظهرون شذوذ الشّعراء كما كان الحال في العصور المتقدمة؛ ويُروى عن أحدهم أنه دخل على بعض الولاة، وقد طيّن وجهه بطين أحمر، ولبس لباداً أحمر وعمامةً حمراء، وأمسك عكازاً أحمر، ولبس في رجليه خُفّين أحمرين (كتاب الدّيارات ورقة 86 ب). ↑

700. الأغاني ج 3 ص 26. ↑

701. وقد قُتل بشّار، وهو يناهز السّتين أو نيفٍ على السّبعين؛ وقد نكبه الدّهر بفقد جميع أصدقائه قبل ذلك. وقد قال في أشعاره إنه لم يبق إلا النّاس الذين لايعرفون ما هو الكلام؛ وقد ذم المهدي، فسُعي به إليه وقيل له إنه زنديق؛ فأمر بضربه ضرب التّلف حتى مات؛ فألقيت جثته بالبطيحة، فحمله الماء إلى دجلة البصرة؛ فأخذ ودفن، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سواد سندية عجماء ما تفصح؛ رُؤيت تسير خلف جنازته وتصيح: وا سيداه وا سيداه (الأغاني ج 3 ص 71-72). ↑

702. كتاب الأغاني ج 3 ص 52. ↑

703. العُمدة لابن رشيق ص 150. ↑

704. الأغاني ج 20 ص 56. ↑

705. الدّميري ج 2 ص 321. لابن العلاف قصيدةٌ طويلةٌ رثى بها هراً، وقيل: إنه رثى بها صديقه ابن المُعتزّ، ولم يصرح بذكره خوفاً من المُقتدِر، فورّى بالقط. وقيل بل هويت جارية الوزير غلاماً لابن العلاف؛ ففطن بهما علي بن عيسى، فقتلهما جميعاً، فرثى ابن العلاف غلامه (تاريخ أبي الفداء ج 2 361-362 تحت عام 318)، وقد كتب الصّاحب بن عباد مرثيةً لقطٍّ عارض فيها ابن العلاف (يتيمة الدّهر ج 3 ص 23). ↑

706. أخذت كلمة «طيّب» تظهر في صفة ذلك، وهي من الكلمات المحبوبة عند الجاحظ؛ انظر Van Vloten, Livre des Avares, S. III., ↑

707. الأغاني ج 3 ص 25. ↑

708. الأغاني ج 3 ص 24. ↑

709. المصدر ذاته، ص 28. ↑

710. وتتصل كلمة «بديع» من حيث الاشتقاق بمعنى ما هو فريد في بابه أو غريب أو مستحدث. ↑

711. العُمدة لابن رشيق القيرواني ج 2 ص 185. ↑

712. العُمدة ج 2 ص 188؛ وتجد صورة أخرى لهذه الابيات في الأغاني ج 3 ص 67. وقد كان عمر بن أبي ربيعة هو صاحب طريقة قالوا وقلت في شعر الغزل. ↑

713. العُمدة لابن رشيق القيرواني ج 2 ص 188. ↑

714. حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس. ↑

715. العُمدة لابن رشيق القيرواني ج 2 ص 188، 194. ↑

716. الأغاني ج 3 ص 63. ↑

717. حلبة الكميت ص 191. ↑

718. نشأ أبو نواس في البصرة، وكثيراً ما كان يتبع بشّارا ويصيب على قوالب معانيه، كما يقول حمزة الأصفهاني (ديوان أبي نواس ص 10). ويُروى عن الجاحظ (توفي عام 255 ه - 869 م) أنه قال: لا أعرف بعد بشّار مولّدا أشعر من أبي نواس (ديوان أبي نواس ص 9). ↑

719. ديوان أبي نواس، مخطوط □يينا رقم 734 ورقة 167 ب. ↑

720. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 15. وكذلك يقول أبو تمَّام:

وحنت الرٌّيح حنين النّوب	فقام فيها الرٌّعد كالخطيب

(الدّيوان طبعة بيروت 1889 م، ص 370) ↑

721. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 16. ↑

722. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 34. ↑

723. ذاته، ج 2 ص 110. ↑

724. المصدر ذاته، ص 122. ↑

725. ديوان أبي نواس ص 8. ↑

726. الدّيوان ج 2 ص 122. ↑

727. العُمدة لابن رشيق القيرواني ج 2 ص 184. ↑

728. يتيمة الدّهر ج 2 ص 20. ↑

729. يتيمة الدّهر ج 2 ص 20. ↑

730. الدّيوان ج 2 ص 36. ↑

731. ديوان أبي نواس ص 349؛ وقد افتتح أبو نواس إحدى خمرياته بما هو أكثر تواضعاً:

ومضى الشٌّتاء وقد أتى آذارُ	طاب الزّمان وأورق الأشجارُ

(ص 290). أما كلامه بعد ذلك عن الجنان الخضراء وغناء الأطيار فلا يتمشّى مع بقية القصيدة، ولعله من وضع المتأخرين؛ ومن هذا القبيل ما نسبه المسعودي (مُروج الذهب ج 8 ص 407-409) لأبي نواس من قتال بين الأزهار في قصيدة له؛ فهو لا يوجد في الدّيوان، وأصله يرجع إلى المتأخرين. ↑

732. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 37. ↑

733. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 110. ↑

734. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 113. ↑

735. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 34، 51 110، 111. ↑

736. هكذا في الفِهْرِسْت ص 168، وعند ابن تَغْري بَرْدي (ج 2 ص 312 تحت عام 334): أحمد بن محمد بن الحسْن الضّبي الحلبي؛ وعند ياقوت (ج 2 ص 311): محمد بن مرار، وعند الكتبي (ج 1 ص 61): أحمد بن محمد. ↑

737. مطالع البدور للغزولي ج 2 ص 176. ↑

738. يذكر ابن حَوْقَل (ص 121) مكاناً يعرف بحصن التّينات فيه لخشب الصّنوبر الذي كان ينقل إلى مصر والشّام والثّغور. ويقول الشّريف الإدريسي إنه كان لبيروت غيضة أشجار صنوبر اثنا عشر ميلاً في مثلها. ↑

739. مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 207. ↑

740. معجم البلدان لياقوت ج 3 ص 444. ↑

741. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 312. ↑

742. معجم البلدان لياقوت ج 2 ص 665. ↑

743. ديوان كُشاجم طبعة بيروت 1213 هـ، ص 116. ↑

744. المصدر ذاته، ص 74 وما بعدها. ↑

745. المصدر ذاته، ص 71 وما بعدها. ↑

746. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 23. ↑

747. ديوان كَشاجم ص 74. ↑

748. ريحانة الألبّا للخفاجي ص 256. ↑

749. فوات الوفيات للكتبي ج 1 ص 61؛ وكتاب من غاب عنه المطرب الثّعالبي طبعة بيروت 1309 هـ ص 25. ↑

750. فوات الوفيات للكتبي ج 1 ص 61 طبعة القاهرة 1299 هـ. ↑

751. رحلة ناصر خسرو (سفرنامه) ص 39 من ترجمة شيفر Schefer بعد ذلك يذكرنا ناصر خسرو بجزيرة النّرجس التي في طرابلس الشّام. ↑

752. فوات الوفيات ج 1 ص 61؛ وينسب المسعودي (ج 8 ص 407) لأبي نواس قصيدةً يصف فيها قتالاً بين الزّهور حيث نجد الزّهور، الحمراء مثل الورد والجلنار وتفاح لبنان تحارب الأزهار الصفراء مثل النّرجس والبهار والأترج. وهذه النّسبة لا يمكن أن تكون صحيحة لأسباب يقتضيها النّقد الدّاخلي. ولا نجد هذه القصيدة في نسخة الدّيوان التي طبعت ببيروت، ولا يمكن أن تكون هذه القصيدة من قول الصّنوبري لذكر باطُرُنجَى فيها، ولأن الورد فيها يُفضَّل على النَّرجس. ↑

753. الحصري على هامش العقد الفريد ج 1 ص 183. ↑

754. نثر النّظم للثّعالبي طبعة دمشق 1300 هـ، ص 137. ↑

755. كان كُشاجم شاعراً كاتباً، وإلى جانب ذلك كان منجِّما وصاحب مطبخٍ لسيف الدّولة، (انظر ديوانه ويتيمة الدّهر ج 4 ص 157). ↑

756. ديوان كُشاجم ص 74. ↑

757. ديوان كُشاجم ص 6. ↑

758. المصدر ذاته، ص 21، 22. ↑

759. المصدر ذاته، ص 48 وما بعدها. ↑

760. كتاب الدّيارات ورقة 115 أ. ↑

761. ديوان كُشاجم ص 140. ↑

762. يتيمة الدّهر ج 2 ص 24. ↑

763. يتيمة الدَّهر ج 1 ص 440-451. ومن رسائل الصّابي رسالة بعث بها إلى الخالديين برّأ فيها نفسه ممّا ظنّاه به من مساعدة السّري على عداوتهما. وقال فيها أيضاً إن السَّريّ سأله استماع شعر مدحه به، فلم يجنبه إلى ذلك إلا بعد أن شرط عليه ألّا يعرض في ذلك ذكر الخالديين بسوء ولا غمز. ↑

764. يتيمة الدّهر ج 2 ص 157-158. ↑

765. المصدر ذاته، ج 1 ص 514. ↑

766. المصدر ذاته، ص 519. ↑

767. يتيمة الدّهر ج 2 ص 12. ↑

768. المصدر ذاته، ج 2 ص 20. ↑

769. إرشاد الأريب لياقوت ج 4 ص 338. ↑

770. يتيمة الدّهر ج 2 ص 109 وإرشاد الأريب ج 5 ص 235. ↑

771. يتيمة الدَّهر ج 4 ص 113. ↑

772. يتيمة الدَّهر ج 3 ص 95. ↑

773. المُغرب لابن سعيد ص 42. ↑

774. المصدر ذاته، ص 78. ↑

775. يتيمة الدّهر ج 2 ص 178-179. ↑

776. المصدر ذاته، ج 2 ص 5. ↑

777. كما فعل القصّار الشّاعر المعروف بصريع الدّلاء (توفي عام 410 هـ) - انظر تتمة يتيمة الدَّهر للثّعالبي مخطوط □يينا رقم 668 ورقة 28 ب. ↑

778. يتيمة الدّهر ج 4 ص 94-112. ↑

779. المصدر ذاته، ص 316. ↑

780. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 121. ↑

781. يتيمة الدّهر ج 2 ص 285-286. ↑

782. المصدر ذاته، ج 2 ص 287، ويروى عن الخليفة المعتمد أنه قال:

ويضرب بالطّبل كردم كدم	ويمضي الأمير أبو أحمد

(انظر كتاب الدّيارات ورقة 42 ب). ↑

783. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 286، وكتاب الإعجاز للثّعالبي ص 236، وكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للمؤلف نفسه ص 342. ↑

784. يتيمة ج 3 ص 237. ↑

785. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 116-117، وقد جمع ابن لنكك أشعار الخبرازي، وكانت أشعاره قصائد قصيرة في الغزل، فكان يخبز وينشد أشعاره والنّاس يزدحمون عليه ليسمعوها؛ وكان معظمها في الغلمان، وكان أحداث البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته (يتيمة الدّهر ج 2 ص 132) ويقول المسعودي عام333 ه - 944 م. (مُروج الذّهب ج 8 ص 374) «وأكثر الغناء للحدث في وقتنا من شعره». وكان الخُبز أرُزّي محبوباً حتى موته. ↑

786. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 188. ↑

787. هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد؛ توفي في طرق النّيلِ بالعراق، وهو عائد منها في 27 جمادى الآخرة، ودفن إلى جانب قبرِ جعفر الصّادق محبةً منه للإماميّة؛ وقد أصرّ أن يكتب على قبره {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} (سورة الكهف آية 18). انظر الهَمَذاني مخطوط پاريس ورقة 340 ب. وكان يسكن سوق يحيى، وقد تغنّى بها. ↑

788. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 242. ↑

789. المصدر ذاته، ص 228. ↑

790. المصدر ذاته، ص 260. والبيتان للشّاعر أبي عبادة الوليد بن عبيد البُحتُري التّنوخي الطّائي. ↑

791. ديوان ابن الحجاج ج 10 ص 240، وكتاب الوزراء ص 430 ويتيمة الدَّهر ج 2 ص 219. ↑

792. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 211. ↑

793. ولو أراد الانسان أن يفحص عن أصل هؤلاء المُجَّان الذين يجاهرون بالفَحش لوجد أكثرهم يقال عنه مثل ما قيل عن ابن الرّاوندي (توفي عام 298 ه - 911 م): وكان أبوه يهودياً فأسلم (ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 184 من طبعة لايدن). ↑

794. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 214. ↑

795. مجلة المشرق السّنة العاشرة ص 1085. ↑

796. كتاب الوزراء ص 430، وديوان ابن الحجاج ج 10 ص 237. ↑

797. يتيمة الدّهر ج 2 ص 215، 226. ↑

798. المصدر ذاته، ص 213. ↑

799. ومن المؤسف أنها لم تشرح إلا شرحاً جزئياً وذلك في نسخة الدّيوان المحفوظة بالمتحف البريطاني. ↑

1. ديوان بغداد ص 80. ↑

2. وكذلك كان الشّاعران الشّاميان أبو تمّام (توفي عام 230 ه - 845 م) والبُحتُري (توفي عام 284 ه - 897 م) محافظين، وقد نهجا طريق أسلافهما من شعراء دمشق وهو الفرزدق وجرير والأخطل. وقال البُحتُري: إن أبا نواس أشعر من مسلم بن الوليد؛ انظر Goldziher, Abhandlungen zur arabischen Philologie, S. 164. Anm. 4 على أنه كان بالشّام شاعرٌ مشهور هو أبو حامد أحمد بن الانطاكي المعروف بابن الرَّقَعْمَق المتوفى عام 396 هـ. وقد تصرف بالشّعر الجزل (يتيمة الدّهر ج 1 ص 238-261)؛ انظر للاستزادة من أخباره معاهد التّنصيص مخطوط برلين رقم 7224 ورقة 156 أ. ↑

3. ديوان المتنبِّي طبعة القاهرة 1315 ه - 1898 م ص 97-98. ↑

4. يتيمة الدَّهر ج 1 ص 98. ↑

5. المصدر ذاته، ج 1 ص 85-86. ↑

6. ديوان ابن الحَجَّاج مخطوط بغداد ورقة 270. ↑

7. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 505 وما بعدها؛ وطراز المجالس للخفاجي طبعة مصر 1894 م، ج 2 ص 65 وما بعدها ويتيمة الدَّهر ج 1 ص 85؛ وقد ترك أبو العلاء الشّاعر الشّامي مدينة بغداد في عام 400 هـ، وذلك لأن الرَّضي طعن في المتنبِّي ومدحه أبو العلاء، فأخرجه الرَّضي من الحجرة (انظر مقدمة مرغوليوث لرسائل أبي العلاء ص 28، وقد ألف أبو العلاء شرحاً كبيراً لأشعار المتنبِّي سمّاه كتاب «الأيك والغصون» انظر: Kremer, SWA, 117, S. 89. ↑

8. ديوان الرَّضي طبعة بيروت 1307 هـ، ص 2. ↑

9. المصدر ذاته، ص 3. ↑

10. المصدر ذاته، ص 2، 3. ↑

11. ديوان الشّريف الرَّضي ص 3 وص 929. ↑

12. ديوان الرَّضي ص 505، 506، وكان الشّريف لا ينشد شعره إلا الخلفاء (الديوان ص 954). ومما يجب أن يلاحظ من أسباب كآبته أنه ولد لأبيه وهو في الخامسة والسّتين من العمر. ↑

13. ديوان الرَّضي ص 504. ↑

14. الدّيوان ص 862-864. ↑

15. ويروى مثل هذا عن أبي فراس الأمير الشّامي الشّاعر، وقد لوحظ أنه أخذ ذلك من أبي نواس. ↑

16. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 308. ↑

17. ديوان الشّريف الرَّضي ص 564. ↑

18. ديوان الشّريف الرَّضي ص 541. ↑

19. المصدر المتقدم ذاته ص 394. ↑

20. مُروج الذّهب ج 1 ص 275-276. ↑

21. المسالك والممالك لابن خُرَّداذبِه ص 3؛ ويقول مِتس إن كلمة خُرداذبِه تطلق على نوع من الآنية، وتشير إلى كتاب مطالع البدور (ج 1 ص 189)؛ وكذلك يريد أن يقرأ المقريزي: خُرداذبي بلور بدلاً من خُردادي بلور (المواعظ والاعتبار ج 1 ص 414). ↑

22. مُروج الذّهب ج 2 ص 70-71. ↑

23. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 4-5. ↑

24. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 3-4. ↑

25. كتاب البلدان ص 232. ↑

26. وهو يقول (ص 8) إنه لم يظهر كتابه حتى بلغ الأربعين. ↑

27. أحسن التّقاسيم ص 9. ↑

28. أحسن التّقاسيم ص 37-43، وص 270. ↑

29. المصدر ذاته، ص 9 وما بعدها. ↑

30. المصدر ذاته، ص 10. ↑

31. المصدر ذاته، ص 11. ↑

32. المصدر ذاته، ص 179. ↑

33. ابن حَوْقَل ص 30، 104. ↑

34. البكري ص 160؛ وأول من ذهب إلى ذلك ابن خُرداذبِه (ص 172-173)؛ وانظر المسعودي ج 2 ص 71. ↑

35. جغرافية أبي الفداء طبعة رينو Reinaud ص 1-2. ↑

36. سلسلة التّواريخ، عجائب الهند، طبعة رينو Reinaud، طبعة باريس 1811 م. ↑

37. حفظ لنا الإدريسي ما حكاه سلّام قائد هذه البعثة، ونشر ذلك دى خويِّه De Goeje بعنوان: سدّ يأجوج ومأجوج. ↑

38. انظر معجم ياقوت طبعة فرين Frähn ببطرسبورغ، 1823 م. ↑

39. Marquart, Sachau, Festschrift, S. 272, Anm. ↑

40. ابن حَوْقَل ص 225. ↑

41. الإدريسي، ص 184، وانظر فصل الملاحة البحريّة. ↑

42. الفِهْرِسْت ص 349. ↑

43. وكان كتابه المسمّى بالعزيزي، باسم الخليفة الذي أهداه إليه، أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السّودان. ↑

44. وهو أكبر مرجع اعتمد عليه البكري؛ انظر كتاب المغرب للبكري 16. ↑

45. كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد تأليف الشّيخ شهاب أحمد بن ماجد السّعدي مخطوط رقم 2292 بالمكتبة الأهلية بپاريس ورقة 3 ب- 4 أ. ↑

46. يعني سنة 400 هـ. ↑

47. كتاب الهند ص 12-13. ↑

48. وربّما كان المذهب الأفلاطوني الجديد وحده غير قادر على إحداث هذه الحركة الشّاملة في العقول؛ وينبغي ألا ننسى أيضاً أن هذا المذهب نفسه كان من قبل وليد الحكمة الشّرقية القديمة. وقد عالج الأستاذ غولدتسيهر Goldziher في كتابه المسمّى محاضرات عن الإسلام

ص 160 وما بعدها بيان التأثيرات الهندية، ولا سيّما Vorlesungen über den Islam البوذية، التي لا شك في أنها قد أثّرت في المسلمين، وإن كان تأثيرها ثانوي المرتبة. ولنضف إلى ذلك أنه - فيما عدا الحلّاج - يُذكر بين حين وآخر عن بعض الصُّوفية أنهم جاؤوا إلى بلادهم بحكمةٍ من الهند (انظر مثلاً رسالة القُشَيري ص 102، وكشف المحجوب للحجويري ص 143، 242 وما بعدها). ↑

49. انظر مرغوليوث:

Margoliouth, Verhandlungen des Religionsgeschtichen. etc. , Oxford. Bd I, S. 292 ↑

50. كتاب الطَّوَاسين للحلّاج طبعة باريس 1913 ص 161 حاشية رقم 2. ↑

51. الجزء الخاص بالزّندقة من رسالة الغفران لأبي العلاء في JRAS, 1902. S. 835 ↑

52. المصدر ذاته، ص 836؛ ويقول ابن الأثير (ج 8 ص 457) بعد ذلك بكثير إنه لم يجد هذين البيتين في ديوان ابن هانئ، ولكنهما في الدّيوان طبعة بيروت 1326 هـ ص 40. ↑

53. الولاة للكندي ص 162، ونقل ذلك المقريزي في المواعظ والاعتبار ج 1 ص 173؛ وقد ذكر غولدتسيهر Goldziher, ZA. 1909 S. 343. حديثين يتضمنان أن عام 200 هـ هو مبدأ ظهور التّصوُّف. ↑

54. الكندي ص 440. ↑

55. رسالة القُشَيري (ألفت عام 347 ه - 1045 م) ص 7-8 من طبعة سنة 1346 هـ بمصر. ↑

56. Hilgenfeld: Ketzergeschichte, S. 283. ↑

57. JRAS 1906. S. 309 ff. ↑

58. منهم التّستري المتوفى عام 273 هـ أو 283 هـ (القُشَيري ص 14)؛ وكذلك النّخشي المتوفى عام 245 هـ، والعطار المصري، ونقل ما سمعه للكثيرين (قشيري ص 17). وقد سمع من ذي النّون أيضاً وصحبه أبو عبد الله ابن الجلاء، وهو من أكابر مشايخ الشّام (قشيري ص 20)؛ وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى عام 304 هـ، وكان شيخ الجبال والرّي في وقته؛ وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة 277 هـ، فقد صحبا ذا النّون أيضاً (قشيري ص 22-23). ↑

59. القُشَيري ص 21. ↑

60. لا تقول الآثار البغدادية شيئاً عن مصر؛ أما الخلدي المتوفى عام 384 هـ، وهو أقدم من أرّخ للصّوفية، فإنه ينسب في أخباره، إلى معروف الكرخي المتوفى عام 207 هـ822 م، وهو الشّيخ البغدادي. ويردّ بقية نسبه إلى الزّاهد القديم الحسن البَصْري؛ انظر كتاب الفِهْرِسْت ص 183. ↑

61. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوط باريس ورقة 5 ب؛ وانظر أيضاً شراينر Schreiner, ZAMG. 52 S. 515. ↑

62. تذكرة الأولياء طبعة لايدن 1905 ج 1 ص 274، نقلاً عن نيكولسون Nicholson JRAS 1906. 322. وروضة النّاظرين للوتري ص 8. ↑

63. كشف المحجوب ترجمة نيكولسون ص 110. ↑

64. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 47؛ وزبدة الفكر ص 73 أ، وقيل إنه تكلم يوماً في علوم الإرادات بجامع الرُّصافة، فسقط من المنبر، وأقام مريضاً؛ ثم توفي بعد أيام. ↑

65. كشف المحجوب ص 184. ↑

66. زبدة الفكرة ص 47 أ-ب. ↑

67. كشف المحجوب ص 143-242 وما يليها؛ على أنه في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي شنّع البعض على «الصوفية الجاهلين» الذين يقولون بالفناء الكلي؛ ومما تنبغي ملاحظته أن الحجويري ينتقد هذا القول (كشف المحجوب ص 243). ↑

68. المصدر ذاته، ص 183. ↑

69. القُشَيري ص 28. ↑

70. انظر ما يلي؛ على أنه يُروى أيضاً عن مالك بن أنس سُئل عن لباس الصّوف للرّجال، فقال: ومن غليظ القطن ما هو في مثل ثمنه وأبعد عن الشّهرة؛ انظر المدخل لابن الحاج ج 2 ص 18؛ ومن هذا ما حكاه غولدتسيهر: Goldziher, WZKM. 13, S. 40. ↑

71. المكّي ج 1 ص 149-150، وانظر فيما يتعلّق بحذيفة: Goldziher, Vorlesungen über den Islam S. 193. وكان للفراسة ومعرفة ما في نفوس النّاس ووقوع الحوادث في القلب شأنٌ كبير عند الصُّوفية في القرن الرّابع (انظر باب الفراسة في الرّسالة القُشَيرية). ↑

72. روضة النّاظرين ص 13. ↑

73. القُشَيري ص 26. ↑

74. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 439. ↑

75. كشف المحجوب ص 174. ↑

76. الفِهْرِسْت ص 183؛ وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 292، وروضة النّاظرين ص 12، 13، 15. ↑

77. مجلة المشرق عام 1908 م، ص 883 وما بعدها. ↑

78. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 188. ↑

79. الكِراميّة بكسر الكاف وتخفيف الرّاء؛ انظر كشّاف اصطلاحات الفنون للتّهانوي طبعة كلكوتا 1862 م، ص 1266. ↑

80. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 323، 365، 179، 202، 238، 182؛ والفصل لابن حَزْم ج 4 ص 204؛ ويقول أبو الفداء (تحت سنة 255 هـ ج 2 ص 228 من الطّبعة الأوروبية) إنّ محمد بن كرام هو صاحب المقالة في التّشبيه؛ وهو سجستاني، وتوفي بالشّام. ↑

81. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 41؛ والكلاباذي ص 94 أ. وانظر Goldziher, WZKM. 13, S. 43 حاشية رقم 2. ↑

82. يقول المقريزي (المخطط ج 2 ص 414) إن الخوانق حدثت في حدود الأربعمئة من سني الهجرة ↑

83. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 415، والقُشَيري ص 14. ↑

84. المُنتظَم لابن الجوزي مخطوط برلين ورقة 119 أ. ↑

85. أحسن التّقاسيم للمقدسي، الإحالة ذاتها. ↑

86. كشف المحجوب ص 53. ↑

87. طبقات السّبكي ج 3 ص 257. أما في القرن الخامس الهجري، فكان يندر أن يلبس الصُّوفية الصّوف، وكانت عادتهم لبس المرقعة ـ كشف المحجوب ص 45 وما بعدها؛ على أن المرقعة صارت لباس المتجولين الذين لا ينتمون إلى طريقة معينة، (انظر القُشَيري ص 16، 162؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 92-294). ↑

88. يتيمة الدّهر للثّعالبي ج 3 ص 237. ↑

89. البيان والتّبيين للجاحظ ج 1 ص 41. ↑

90. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 415. ↑

91. كشف المحجوب ص 416. ↑

92. إرشاد الأريب ج 2 ص 185. ↑

93. كشف المحجوب ص 420. ↑

94. قرّة العيون ومُفرح القلب المحزون للسَّمَرقندي على هامش الرّوض الفائق. ↑

95. رسائل الخوارزمي ص 90. ↑

96. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 415؛ والقُشَيري ص 12، 21، 30. ↑

97. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 415، القُشَيري ص 30. ↑

98. طبقات السّبكي ج 2 ص 99-102 والقُشَيري أيضاً ص 26. ↑

99. ثمار القلوب، للثّعالبي. ↑

100. القُشَيري ص 22. ↑

101. المصدر ذاته، ص 23. ↑

102. المصدر ذاته، ص 24. ↑

103. كشف المحجوب ص 416، 420. ↑

104. ابن حَزْم ج 4 ص 188. ↑

105. المصدر ذاته، ج 4 ص 226. انظر شراينر Schreiner, ZDMG. 52, 476. ↑

106. كشف المحجوب ص 383. ↑

107. القُشَيري ص 26. ↑

108. المصدر ذاته، ص 168. ↑

109. المصدر ذاته، ص 181. ↑

110. روضة النّاظرين ص 10. ↑

111. المصدر ذاته، ص 21. ↑

112. المصدر ذاته، ص 198. ↑

113. Amedroz, Notes on Some Sufi Lives, JRAS, 1912, S. 558. ↑

114. كشف المحجوب ص 363. ↑

115. المصدر ذاته، ص 362. ↑

116. كشف المحجوب ص 247. ↑

117. المصدر ذاته، ص 364. ↑

118. المكّي ج 1 ص 162. ↑

119. المصدر ذاته. ↑

120. مقدمة الرّسالة القُشَيرية ص 2-3. ↑

121. عجائب المخلوقات للقزويني طبعة ُستِنفِلد ص 216. ↑

122. روضة النّاظرين للوتري ص 8. ↑

123. القُشَيري ص 11. ↑

124. القُشَيري ص 21؛ والقزويني ص 218. ↑

125. زبدة الفكرة ص 146 أ. ↑

126. القزويني ص 216. ↑

127. روضة النّاظرين ص 12؛ وتحكى حكايات أخرى كلها من المصادر المتأخرة وتدل على الزّهد التّام. انظر Amedroz JRAS, 559 ff. ↑

128. القُشَيري ص 11. ↑

129. القَشَيري ص 27؛ ومعنى هذا أن المُعتزِلة نفوا عن الله العقل بالمعنى الإنساني، والصُّوفية نفوا عنه المعرفة العلمية الاستدلالية. انظرَ ما قاله المستشرق لوي ماسينيون في حاشيته على كتاب الطَّوَاسين. ↑

130. كان الزّوزني متفنِّنا في العلوم، قائلاً بالاعتزال والزُّهد (يتيمة الدّهر ص 324)؛ وكذلك كان أبو حيّان التّوحيدي أكبر كتّاب النّثر في القرن الرّابع الهجري متفنِّنا في الكلام على مذهب المُعتزِلة (إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 380). ↑

131. القُشَيري ص 20؛ ولكن توحيد الصُّوفية على هذا المعنى يناقض ما ذهب إليه المُعتزِلة من قولهم باختيار الإنسان في أفعاله وخلقه لها. ↑

132. ونجد هنا لأول مرّة التّمثيل بالميت بين يدي الغاسل، ولم يكن هذا التّشبيه قد أصبح في القرن الرّابع شيئاً عادياً مألوفاً. وإذا كان السّكلاباذي (توفي عام 380 ه - 990 م) قد ذكره (انظر مقالة الاستاذ غولدتسيهر Goldziher, Materialien zur. Entwicklungsgeschichte des Sufismus, WZKM. 1899. S. 24. فإن المكّي (توفي عام 386 ه - 996 م) لم يذكره؛ وذلك خلافاً للقشيري (ص 76) وقد بيَّن غولدتسيهر في مقاله المتقدِّم شأن القول بالتّوكل عند الزُّهّاد. ↑

133. أما كلمة الفتوح وهو الاصطلاح الذي صار فيما بعد هو وحده المستعمل بين الصُّوفية، فقد كانت في هذا في العصر نادرة الاستعمال، وإن كانت تذكر بين حينٍ وآخر (انظر Goldziher, WZKM. 1899,S. 48 ff.). ↑

134. المصدر ذاته، ص 7. ↑

135. قوت القلوب ج 3 ص 11 من طبعة 1351 ه - 1932 م. ↑

136. قوت القلوب للمكّي ج 2 ص 9. ↑

137. القُشَيري ص 89-90 (باب الرّضا). ↑

138. كشف المحجوب ص 180-379 وما بعدها. ↑

139. كشف المحجوب ص 176 وما بعدها. ↑

140. قوت القلوب للمكّي ج 2 ص 7. ↑

141. انظر المعاني الأولى لهذه الكلمة في كتاب غولدتسيهر Goldziher المسمّى Muhammedanische Studien, II 286 f. وانظر معنى الكلمة أيضاً في رسالة القُشَيري ص 160. انظر رسائل الصّابي (مخطوط لايدن رقم 766 ورقة 215 ب، 219 أ،

220 أ، 226 ب). وفي رسالة القَشَيري ص 174 يوصف الجندي بأنه أحد اولياء السُّلطان: «وقد تقاتل اثنان أحدهما من أولياء السُّلطان والآخر من الرّعية»؛ وانظر أيضاً رسائل الخوارزمي ص 26، 27. ↑

142. انظر مرغوليوث:

Margoliouth, Verhandl. 3 Kong. f. Religionsgeschichte, Oxford, Bd. I, S. 292. ↑

143. انظر أوائل هذا الفصل. ↑

144. ربّما كانت هذه الكلمة تعريباً للكلمة الفارسية التي تدل على الآباء والتي تدل على القائد الرّوحي منذ عهد الغنوصيين إلى عهد فرقة اليزيديين. ويُروى عن أبي ثوبة (توفي عام 241 هـ) والذي ولد بحلب وعاش في طرسوس أنه كان من الأبدال (طبقات الحفاظ للذهبي طبعة ستِنفِلد ج 2 ص 18). وفي سنة 242 هـ مات الطّوسي أحد الأبدال (المصدر ذاته، ص 32، 33). وفي عام 265 مات إبراهيم بن هانئ النّيسابوري، وكان من الأبدال (تاريخ أبي الفداء تحت عام 265 هـ ج 2 ص 256). وكذلك النّساج الصُّوفي المتوفى عام 322 هـ كان من الأبدال (ابن الأثير ج 2 ص 222). وفي سنة 327 هـ توفي ابن أبي حاتم التّميمي، وكان زاهداً يُعد من الأبدال (طبقات السّبكي ج 2 ص 237). وقيل في حق أحد علماء الأندلس في القرن الرّابع الهجري: «وإن كان أحد في عصره من الأبدال فيوشك أن يكون هو منهم» ابن بشكوال ج 1 ص 92). ↑

145. مادة بدل في ملحق قاموس إدوارد لاين E. W. Lane. ↑

146. كشف المحجوب ص 214، 228. ↑

147. المصدر ذاته، ص 229 من التّرجمة. ↑

148. رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص 49. ↑

149. كشف المحجوب ص 213، 215. ↑

150. روضة النّاظرين ص 5. ↑

151. لب الألباب (الآداب) في رد جوابات ذوي الألباب مخطوط برلين رقم Ahlw 8317. ورقة 95 أ. ↑

152. وكذلك تستعمل كلمة كرامات استعمالاً غير ديني أيضاً؛ فمن ذلك ما جاء في رسائل الصّابي (مخطوط لايدن ورقة 228 أ): «ذلك ما أهّلني له ورفعني إليه مولانا من تقليد ديوان الرّسائل

بحضرته وملازمة مجلسه، وتوفيته إياي ضروب الكرامات بالخِلَع التّامة والحُملان الرّائع.. . الخ». ↑

153. عجائب المخلوقات طبعة ُستِنفِلد ص 215 وما بعدها. ↑

154. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 218. ↑

155. قارن إرشاد الأريب لياقوت ج 4 ص 202. ↑

156. القُشَيري ص 160. ↑

157. كشف المحجوب ترجمة نيكولسون ص 100. ↑

158. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 68 ب من مخطوط برلين. ↑

159. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 35 ب؛ ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 233. ↑

160. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 335. ↑

161. المصدر ذاته، ج 2 ص 37. ↑

162. الفصَل ج 4 ص 180. ↑

163. القُشَيري ص 172. ↑

164. انظر مثلاً ميخائيل السّرياني Michael Syrus, S. 560 ff. ↑

165. القُشَيري ص 174. ↑

166. المصدر ذاته، ص 26. ↑

167. المصدر ذاته، ص 163. ↑

168. المصدر ذاته، ص 163. ↑

169. المصدر ذاته، ص 172. ↑

170. القُشَيري ص 158-160، ومن الفوارق الأخرى بين النّبي والوليّ أن النّبي يكون معصوماً على خلاف الولي (انظر كشف المحجوب ص 25 والقُشَيري ص 160). ↑

171. القَشَيري ص 159. ↑

172. المصدر ذاته، ص 160. ↑

173. صحيح البُخاري باب الجنائز. ↑

174. كتاب الطَّوَاسين ص 9-14. وكذلك القول بالوجود السّابق أصله من مذاهب الغنوصيين. ↑

175. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 139 ب. ↑

176. طبقات السّبكي ج 3 ص 303-304. ↑

177. Krumbacher. Geschichte der Byzantinischen Literatur, 2. S. 985. ↑

178. انظر آخر ما كتب عن الحلّاج عند Schreiner, ZAMG. 52 S. 468 ff. ؛ وصلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد؛ كتاب الطَّوَاسين للحلاج (طبعة پاريس 1913)، ومقالة «أنا الحق» في مجلة Der Islam, III, 248 ff. ↑

179. الآثار الباقية ص 211. ↑

180. كتاب الفِهْرِسْت ص 190. ↑

181. كشف الحجوب ترجمة نيكولسون ص 303. ↑

182. ويقول البيروني في الآثار الباقية (ص 212) إن الحلّاج صنف كتاباً في دعواه، وكتاب جم الأصغر وكتاب جم الأكبر. ويذكر السّبكي في الطّبقات (ج 3 ص 61) أنه كان بين كتب عبد الرّحمن السّلمي المتوفى عام 412 ه - 1021 م) كتاب للحلّاج يسمّى «الصّيهور في نقض الدّهور»، وكان هذا الكتاب «مجلة صغيرة مربعة، فيها أشعاره». ↑

183. كتاب الطَّوَاسين ص 131. ↑

184. المصدر ذاته، ص 130. ↑

185. Hilgenfeld, S. 199. ↑

186. كتاب الطَّوَاسين ص 56. ↑

187. Hilgenfeld, S. 278. ↑

188. صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ص 90 نقلاً عن مسكويه. ↑

189. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 23 ب. ↑

190. ص 148-149. ↑

191. كتاب الطَّوَاسين ص 134. ↑

192. المصدر ذاته، ص 134، ومن العجيب أننا لا نجد هذه الصّورة في كتاب الطَّوَاسين، لا بدّ أن يكون مذهب الحلّاج قد نشأ أطواراً في أوقات متباينة. ↑

193. كتاب الطَّوَاسين ص 16-17. ↑

194. كشف المحجوب ص 260. ↑

195. المصدر ذاته، ص 150 وما بعدها. ↑

196. رسالة الغفران في مجلة الآسيوية الملكية JRAS, 1902. S. 833. ↑

197. الفِصَل ج 4 ص 185. ↑

198. ص 297. وقد ذكر شراينر Schreiner المراجع في ذلك (ص 472). ولم يذكر ابن حَوْقَل ص 211 شيئاً؛ ويقول ياقوت في كتابه المسمى إرشاد (ج 1 ص 296) إنه قرأ عن أمير المؤمنين الرّاضي إلى أبي الحسين نصر بن أحمد السّاماني بقتل العزاقري، وقد ذكر ياقوت قطعة من هذا الخطاب. ↑

199. التّنبيه ص 396-397. ↑

200. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 296-307. ويقول الحجويري (كشف المحجوب ص 416) إن الحلولية جعلوا حكايات الغلمان وصمة ألحقوها بأولياء الله وبالمتصوّفين. ↑

201. كتاب العيون ورقة 185 ب. ↑

202. يظهر لي أن أصحَّ ما قيل في بيان الأصل الذي اشتق منه هذا الاسم هو ما رجحه فولرز Vollers من اتصال كلمة قِرْمِط بكلمة غراماتا Grammata اليونانية γράμματα، ومعناها: حرف؛ وذلك لأن هذا الافتراض يجد ما يؤيده في لغة المُكدّين بالعراق في القرن الرّابع الهجري. وقد جاءت كلمة قِرْمِط في قصيدة أبي دُلَف بمعنى الرّجل الذي يكتب التّعاويذ. كما تعني: الكتابة بحروف دقيقة. ↑

203. الاتّعاظ للمقريزي نشرة بونتس Bunz ص 111. ↑

204. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 132-133؛ وعريب بن سعد ص 134. ↑

205. ابن الجوزي ورقة 170 ب-171 أ. ↑

206. القلانسي نقلاً عن الصّابي. ↑

207. الاتّعاظ للمقريزي ص 133. ↑

208. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 133. ↑

209. ناصر خسرو ص 229 من التّرجمة؛ وحكي هذا أيضاً لأبي العلاء (انظر مجلة JRAS, 1902, S. 828). ↑

210. المصدر ذاته. ↑

211. الفصل ج 4 ص 187، قارن ما ذكره دى خويّه في حاشية ص 11 من كتاب صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد القرطبي. ↑

212. الآثار الباقية ص 213. ↑

213. الاتّعاظ للمقريزي ص 141. ↑

214. الفِهْرِسْت ص 189. ↑

215. الاتّعاظ للمقريزي ص 139-141، وكان حاكمِ المشرق من قبل المهدي يقيم في الرّيّ، وكان يخضع له الدّعاة حتى دعاة العراق مثل بني حمَّاد في الموصل (الفِهْرِسْت ص 189). ↑

216. ابن حَوْقَل ص 221. ↑

217. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 96. ↑

218. الفِهْرِسْت ص 189. ↑

219. De Sacy: Exposé de la Religion des Druses, LXXIV ff. ↑

220. الفِهْرِسْت ص 187. ↑

221. الفِهْرِسْت ص 187، 189. ↑

222. الفصل ج 2 ص 116؛ ولكن يجب ألا نأخذ هذه التّسمية على ظاهرها، فقد كانت كلمة المجوسيّة تستعمل في ذلك العهد بمعنى الزّندقة، فيحكي القُشَيري (ص 32) عن أحد الصُّوفية أنه وصف رأياً لم يعجبه بقوله إنه «مجوسيّة مَحضة». ↑

223. الفِهْرِسْت ص 189. ↑

224. الفِهْرِسْت ص 138 وإرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 142. ↑

225. كتاب الفِهْرِسْت ص 187. ↑

226. وكان أكبر نجاحٍ للفرقة عامٍ 260 ه - 875 م مقارناً لموت الحسن بن علي الذي كان جمهور الإماميّة يعدّونه إماماً، ويجلونه لذلك، والذي مات عن غير عقب، فأحدث ذلك افتراقاً وفتناً بين الإماميّة (ابن حَزْم ج 4 ص 93). ↑

227. الاتّعاظ للمقريزي ص 101-102. ↑

228. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 29 ب. ↑

229. ناصر خسرو ص 160. ↑

230. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 216. ↑

231. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 130-131. ↑

232. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 158 ب وفي مواضع كثيرة مثل ص 169 أ. ↑

233. المصدر ذاته، ص 158 ب. ↑

234. المصدر ذاته، ص 132 ب. ↑

235. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 74. ↑

236. كشف المحجوب ص 335. ↑

237. ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم مخطوط لايدن رقم 568 ورقة 98 أ. ↑

238. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 247. ↑

239. المُنتظم لابن الجوزي ورقة 82 أ وطبقات السّبكي ج 2 ص 166. ↑

240. المُنتظَم ورقة 80 أ-ب. ↑

241. المصدر ذاته، ص 88 أ. ↑

242. المصدر ذاته، ص 160 ب. ↑

243. طبقات السّبكي ج 2 ص 81. ↑

244. المصدر ذاته، ج 3 ص 4. ↑

245. طبقات السّبكي ج 3 ص 308. ↑

246. المصدر ذاته، ج 3 ص 222. ↑

247. المصدر ذاته، ج 3 ص 251. ↑

248. تاريخ بن سعيد ص 122 أ- 129 أ ويُروى عن الإمبراطور نقفور Nikephoros Phokas (963 - 969 م) القائد العظيم أنه كان في الليل يلبس ثوباً من الشّعر وحزام التّوبة. ↑

249. يتيمة الدّهر ج 4 ص 310. ↑

250. يتيمة الدّهر ج 4 ص 320-321. ↑

251. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 89 أ. ↑

252. تاريخ ميرخُند Mirkhond, Hist. Sam. S. 50. ↑

253. مسكويه ج 6 ص 295؛ والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 100 أ. ↑

254. التّنبيه والإشراف للمسعودي ص 375. ↑

255. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 136 ب. ↑

256. المصدر ذاته، ص 139 ب. ↑

257. المصدر ذاته، ص 153 ب؛ وتاريخ ابن الأثير ج 9 ص 74. ↑

258. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 181 أ. ↑

259. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 5. ↑

260. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 24. ↑

261. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 158 أ. ↑

262. مسكويه ج 5 ص 247. ↑

263. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 159 أ. ↑

264. المصدر ذاته، ص 162 ب. ↑

265. مسكويه ج 6 ص 240. ↑

266. ذكر أخبار أصفهان لأبي نعيم مخطوط لايدن ورقة 71 ب. ↑

267. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 127. ↑

268. مصارع العُشّاق ص 109. ↑

269. كتاب الوزراء للصّابي ص 420؛ والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 146 أ. ↑

270. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 136. ↑

271. ناصر خسرو، ترجمة شيفر ص 66. ↑

272. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 122-123. ↑

273. كشف المحجوب ص 91. ↑

274. المصدر ذاته، ص 140. ↑

275. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 382. ↑

276. طبقات السّبكي ج 3 ص 140. ↑

277. كشف المحجوب ص 329. ↑

278. تاريخ أبي الفداء عام 356 هـ (ج 2 ص 236 من الطّبعة الأوروبية). ↑

279. إرشاد الأريب ج 2 ص 357. ↑

280. المصدر ذاته، ج 2 ص 408. ↑

281. طبقات السّبكي ج 3 ص 58. ↑

282. ابن حَوْقَل ص 122-123. ↑

283. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 353. ↑

284. انظر القصيدة السّاسانية لأبي دُلَف في يتيمة الدّهر ج 3 ص 179-180. ↑

285. القُضاة والولاة للكندي طبعة غست Guest ص 418-419. ↑

286. الإصطخري ص 190، 314. ↑

287. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 273. ↑

288. مسكويه ج 6 ص 283-291؛ الإصطخري ص 314، 220؛ Amedroz, Der Islam. III. 331 ff وأحسن التّقاسيم للمقدسي 273. ↑

289. محاضرات الأدباء ج 1 ص 83. ↑

290. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 94. ↑

291. الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي ج 2 ص 20-21. ↑

292. وكان جهل كثير من الولاة باللغة العربية سبباً في تخليهم عن هذا الواجب الدّيني؛ ويُروى أن حاكم مصر عام 238 هـ، آخر من وليها من العرب، كان آخر أمير صلّى بالنّاس في المسجد الجامع (الولاة للكندي ص 302). ↑

293. مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 2. ↑

294. تاريخ ابن تَغْري بَرْدي (طبعة لايدن) ج 2 ص 97. ↑

295. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 349. ↑

296. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 106 ب؛ وختام الخطبة يشبه الختام في خطب ابن نُباتة كما سيأتي بعد قليل. ↑

297. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 277، 281. ↑

298. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 1 ص 138 طبعة مصر 1327 هـ. ↑

299. طبقات السّبكي ج 2843. ↑

300. البيان والتّبيين للجاحظ ج 1 ص 117، ويقول الجاحظ (ج 1 ص 42) إن البلاغة والإيجاز أن تجيب فلا تبطئ، وأن تقول فلا تخطئ. ↑

301. على أني سمعت خطبة بطريرك الأرثوذوكس في أحد الشّعانين عام 1902، فلم تَزِد عن عشر دقائق. ↑

302. ديوان ابن حمديس طبعة روما سنة 1897 ص 8-9. ↑

303. ديوان خطب ابن نُباتة طبعة بيروت 1311 هـ ص 6. ↑

304. تجد خطبتين من الهند ومصر مترجمتين في قاموس هيوز: Hughes, Dictionary of Islam تحت كلمة خطبة؛ وانظر كتاب لاين Edward Lane, Manners, p. 73. وتجد خطبة من خطب بلاط الموحدين في كتاب المَرَّاكشي في تاريخ الموحّدين (ص 295 وما بعدها من ترجمة فانيان Fagnan، طبعة الجزائر سنة 1893 م). ↑

305. ديوان خطب ابن نُباتة ص 321-322. ↑

306. المصدر ذاته، ص 287 وما بعدها. ↑

307. ديوان خطب ابن نُباتة ص 321-322. ↑

308. ابن نُباتة ص 69-72. ↑

309. تحفة العروس مثلاً ص 162. ↑

310. مقدمة كتاب ديوان الخطب لابن نُباتة ص 19. ↑

311. وقد حفظ لنا أبو العلاء المَعَرِّي بقية من طريقة القدماء في تأليف الخطب. يشتمل هذا الكتاب على خطب السّنة: فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد النّكاح؛ وهي مؤلفة على حروف المعجم، فيها خطب عمادها الهمزة، وخطب بنيت على الباء وعلى الدّال وعلى الرّاء وعلى اللام والميم والنّون، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سهلاً (إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 182). ↑

312. Norden, Die Antike Kunstprosa, II, S. 844. ↑

313. يقول ابن تَغْري بَرْدي (ج 2 ص 349) إن ابن نُباتة عمل الخطب الجهادية لمّا وصل الرّوم إلى طرسوس وكرّوا إلى ديار بكر، ووصلوا ميافارقين، وقتلوا وخرّبوا، وذلك عام348 هـ. ↑

314. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 129-416. ↑

315. المصدر ذاته، ص 327. ↑

316. النّجوم الزّاهرة لابن تغري بردي طبعة كاليفورنيا ص 107. ↑

317. غولدتسيهر: «دراسات إسلاميّة» Muham. Studien. II, 161 ff. ؛ ومن أمثلة التّندّر بطريقة هؤلاء القُصّاص ما جاء في كتاب الأغاني (ج 3 ص 30) من أن بشّار بن بُرد الشّاعر مرّ بقاصٍّ بالمدينة، فسمعه يقول في قصصه: من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها، وعلوّه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها. (قال): فالتفت بشّار إلى قائده فقال: بَئِسَت والله الدّار هذه في كانون الثّاني. ↑

318. المواعظ والاعتبار ج 2 ص 253. ↑

319. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 253. ↑

320. المصدر ذاته؛ وفي عام 70 هـ ولي قضاء عبد الرّحمن بن حجيرة، وكان له إلى جانب القضاء القصص وبيت المال، وكان رزقه من كل هذه المناصب الثّلاثة مئتي دينار(الكندي ص 317). ↑

321. الكندي ص 427. ↑

322. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 254. ↑

323. كتاب بغداد لطيفور نشرة كيلر Keller ص 100. ويقول الجاحظ (البيان ج 1 ص 41) إن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصّوت. ↑

324. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 236. ↑

325. المدخل لابن الحاج ج 2 ص 21 وما بعدها. ↑

326. قوت القلوب لأبي طالب المكي ج 1 ص 149؛ ويُروى عن أحد القصّاص انه كان يقصّ على النّاس بطرسوس، فأردكته روعة ممّا كان يصف من جلال الله وعظمته وبأسه وسطوته، فخرّ مغشياً عليه ومات عام 335 ه - 946 م (طبقات السّبكي ج 2 ص 103). ↑

327. Goldziher, Muh. Studien, II, S. 168. ↑

328. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 152 ب. ↑

329. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 182. وأقدم نص وجدته ورد فيه لفظ المذكر هو قصيدة حصار بغداد في عهد الأمين (198 ه - 813 م) للشّاعر الأعمى المعروف بعليّ بن أبي طالب- مُروج الذّهب للمسعودي ج 6 ص 448. ↑

330. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 182. ↑

331. كشف المحجوب ص 235. ↑

332. المدخل لابن الحاج، ج 2 ص 23؛ ولم أستطِع أن أجد هذه الكلمة في قوت القلوب. ↑

333. قوت القلوب (للمكّي المتوفى عام 386 ه - 996 م) ج 1 ص 152. ↑

334. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 182-327. ↑

335. بُستان العارفين ص 15 وما بعدها. ↑

336. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 89 ب. ↑

337. البُخاري: باب الذّكر. ↑

338. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 109. ↑

339. سنن الدّارمي طبعة كانپور بالهند 1293 هـ ص 38، كما نقل ذلك غولدتسيهر في مجلة تاريخ الأديان (RHR) عام 1890 ص 299. ↑

340. يضع صاحب العقد الفريد- وهو يمثل آراء القرن الثّالث الهجري - أمثال هذه العادات الدّينية الصّغيرة في باب الدّعاء، ج 1 ص 322)، فيما يعقد السَّمَرقندي باباً خاصاً للذّكر. ↑

341. تنبيه الغافلين للسَّمَرقندي ص 251، 255. ↑

342. ملحق الكندي ص 519، نقلا عن ابن زولاق (توفي عام 386 ه - 996 م). ↑

343. المصدر ذاته، ج 3 ص 228. ↑

344. الرّسالة ص 101 باب الذّكر. ↑

345. ديوان أبي نواس ص 108. ↑

346. طبقات السّبكي ج 3 ص 91. ↑

347. حاضر المصريّين لمحمد عمر طبعة القاهرة عام 1220 ص 103. ↑

348. يجد القارئ بعض هذه الحكايات في الجزء الأول من العقد الفريد طبعة مصر 1302 هـ ص 356. ↑

349. كشف الأسرار مخطوط □يينا رقم 154 ورقة 17 ب. ↑

350. بُستان العارفين للسَّمَرقندي ص 22. ↑

351. حكى ابن سمعون نفسه أن جده إسماعيل سمّاه سِمعون بكسر السّين، انظر تاريخ بغداد مخطوط پاريس ورقة 85 أ وما بعدها. ↑

352. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 319. ↑

353. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 112 ب. ↑

354. المصدر ذاته، ص 141 أ. ↑

355. تاريخ بغداد ص 85-86 أ. ↑

356. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 81 أ. ↑

357. تاريخ بغداد ج 1 ورقة 111 أ-112 ب من مخطوط پاريس. ↑

358. تاريخ ابن تَغْري بَرْدي ص 93. ↑

359. الزّرقاوي ج 1 ص 63. ↑

360. زبدة الفكرة، مخطوط پاريس ورقة 19 ب- 20 أ. وهذا معنى ما قاله غولدتسيهر في مجلة المستشرقين الألمان. انظر ZDMG, 55, 507, Anm. 1. ↑

361. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 254. ↑

362. رحلة ابن جُبير ص 221؛ وعجائب المخلوقات للقزويني ص 214؛ وكتاب الأذكياء لابن الجوزي ص 95. ↑

363. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 204. ↑

364. وكان المسجد الجامع في مصر على عهد الطُّولونيين يُغلق بعد صلاة العشاء، لأن بيت المال كان فيه (ابن رُستِه ص 116). وفي عام 294 هـ أمر والي مصر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصّلوات؛ فكان يفتح أوقات الصّلوات فقط؛ فضجّ النّاس من ذلك، حتى فُتح لهم (الكندي ص 266 من كتاب الولاة). ↑

365. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 319. ↑

366. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 483. ↑

367. على أن حركة أهل السُّنّة في القرن الثّالث بما كان لها من ردّ فعلٍ قويّ اعتبرت ذلك امتهاناً لحرمة المسجد؛ فأمر المعتضد عام 279 هـ ألا يجلس في الجامع قاضٍ، وحلّف باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل ونحو ذلك- النّجوم الزّاهرة ج 2 ص 87 طبعة لايدن. ↑

368. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 205. ↑

369. ابن حَوْقَل ص 341. ↑

370. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 205. ↑

371. الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي ج 2 ص 110. ↑

372. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 440. ↑

373. مقامات الهَمَذاني ص 157. ↑

374. كتاب الأغاني ج 17 ص 14. ↑

375. يتيمة الدّهر ج 2 ص 130، وانظر فصل الأخلاق والعادات؛ والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 48 أ. ↑

376. حكى الحريري أنه أنشأ المقامات بعد أن شهد في مسجد البصرة أبا زيد السّروجي، وكان شيخاً شحاذا بليغاً ومكدياً فصيحاً حسن صياغة الكلام؛ وكان أبو زيد يتنقل بين المساجد،

ويغير في كل مسجد زيّه وشكله، ويظهر ما عنده من فنون الحيلة وبلاغة الكلام. انظر إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 168. ↑

377. كشف الأسرار للجوبري مخطوط □يينا ورقة 25 أ-ب. ↑

378. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 473. ↑

379. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 182. ↑

380. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 135. ↑

381. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 274؛ وانظر حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 295. ↑

382. المواعظ والاعتبار ج 2 ص 295. ↑

383. المصدر ذاته، ج 2 ص 295. ↑

384. ناصر خسرو ص 56. ↑

385. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 205. ↑

386. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 205، 430. ↑

387. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 67 ب. ↑

388. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 327. ↑

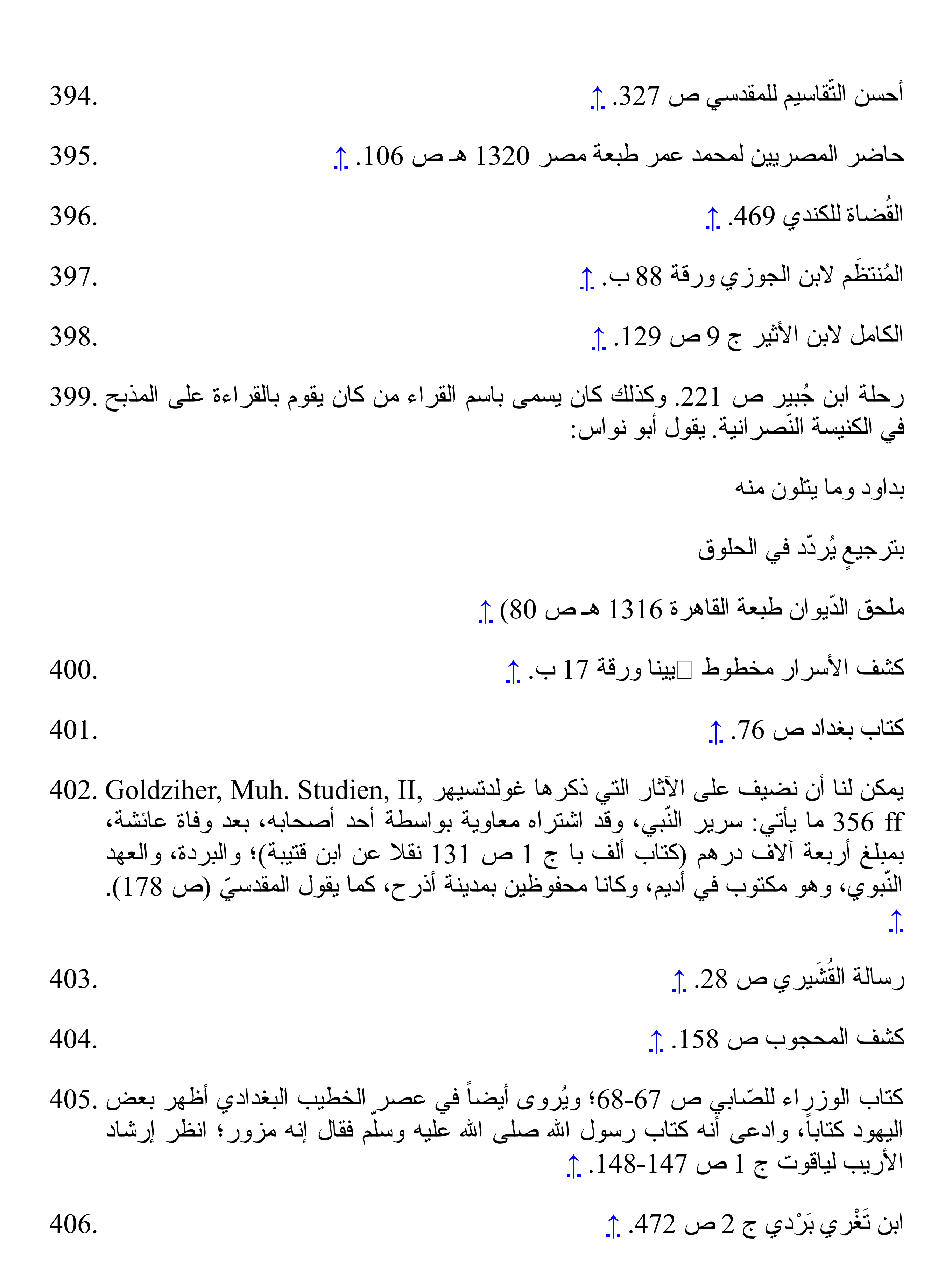
389. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 137؛ وممّا يدلّ على أنها شيء مستحدث ما وُجِّه لها من النّقد. وابن طُولون لم يعمل الميضأة في المسجد. ↑

390. المصدر ذاته، ج 2 ص 135. ↑

391. ناصر خسرو ص 28، 41 من التّرجمة. ↑

392. ذكر أخبار أصبهان مخطوط لايدن ورقة 11 ب. ↑

393. الأعلاق النّفيسة لابن رُستِه ص 111. ↑



394. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 327. ↑

395. حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة مصر 1320 هـ ص 106. ↑

396. القُضاة للكندي 469. ↑

397. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 88 ب. ↑

398. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 129. ↑

399. رحلة ابن جُبير ص 221. وكذلك كان يسمى باسم القراء من كان يقوم بالقراءة على المذبح في الكنيسة النّصرانية. يقول أبو نواس:

بداود وما يتلون منه

بترجيعٍ يُردّد في الحلوق

ملحق الدّيوان طبعة القاهرة 1316 هـ ص 80) ↑

400. كشف الأسرار مخطوط □يينا ورقة 17 ب. ↑

401. كتاب بغداد ص 76. ↑

402. يمكن لنا أن نضيف على الآثار التي ذكرها غولدتسيهر Goldziher, Muh. Studien, II, 356 ff ما يأتي: سرير النّبي، وقد اشتراه معاوية بواسطة أحد أصحابه، بعد وفاة عائشة، بمبلغ أربعة آلاف درهم (كتاب ألف با ج 1 ص 131 نقلا عن ابن قتيبة)؛ والبردة، والعهد النّبوي، وهو مكتوب في أديم، وكانا محفوظين بمدينة أذرح، كما يقول المقدسيّ (ص 178). ↑

403. رسالة القُشَيري ص 28. ↑

404. كشف المحجوب ص 158. ↑

405. كتاب الوزراء للصّابي ص 67-68؛ ويُروى أيضاً في عصر الخطيب البغدادي أظهر بعض اليهود كتاباً، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال إنه مزور؛ انظر إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 147-148. ↑

406. ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 472. ↑

407. رحلة ابن جُبير ص 270. ↑

408. القُضاة للكندي ص 469. ↑

409. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 255. ↑

410. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 115 ب. ↑

411. وصف إفريقية والأندلس للإدريسي، طبعة دوزي ودى خويِّه ص 210. ↑

412. Goldziher, Muh. Stud. , II, S. 362. ↑

413. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 84. ↑

414. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 162-163. ↑

415. المصدر ذاته؛ JRAS, 1902, S. 296. ↑

416. رسائل أبي العلاء طبعة مرغوليوث ص 34. ↑

417. JRAS. 1902. 298 ↑

418. المصدر ذاته، ص 302؛ وفي هذا الوقت الذي حدث فيه ذلك، وكانت فيه ثروة أبي العلاء قليلة، مرّ الرّحالة ناصر خسرو بمدينة المعرة، ولم يلبث فيها إلا يوماً واحداً، ولم ير أبا العلاء، ولكنه يقول: «هو رئيس البلدة، وله ثروة كبيرة، وعبيد وخدم؛ وأهل البلدة كلهم خدم له؛ وهو قد تزهد، فلبس بسيطاً، ولزم بيته، وقوته نصف من خبز الشّعير، وبابه مفتوح دائماً للزّائرين، ونوابه وأصحابه يديرون أمر البلدة، ولا يرجعون لرأيه إلا في الكلّيّات، وهو لا يردّ طالباً لنعمته، ويصوم الدّهر، ويقوم الليل كله، ولا يشغل نفسه بأمور الدّنيا». ويقول أبو العلاء نفسه:

واتهامي بالمال كلَّف أن	يطلب ما يقتضي التّمويل

(فون كريمر ص 101، وطبعة بومباي ص 202). ↑

419. JRAS. 1902. 304 ↑

420. المصدر ذاته. ↑

421. Kremer, ZDMAG, 30. S. 40. ↑

422. ZDMG, 30, S. 45. ↑

423. JRAS, 1902. S. 308. ↑

424. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 424. ↑

425. JRAS, 1900 ff. ↑

426. طبقات السّبكي ج 3 ص 53. ↑

427. تاريخ أبي الفداء تحت عام 293 هـ (ج 2 ص 294-298). ↑

428. كتاب الوزراء للصّابي ص 270. ↑

429. انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG 29, S. 640. ↑

430. يتيمة الدّهر ج 2 ص 171؛ وتوفي السّلامي عام 394 هـ. ↑

431. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 242، 243، 263. ورد في الإسلام أن الميت يرى، وهو في قبره، المكان الذي سيكون له بعد القيامة، في الجنة أو في النّار. ↑

432. مُروج الذّهب ج 8 ص 204. ↑

433. كتاب العيون مخطوط برلين ورقة 208 أ-209 أ. ↑

434. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 81. ↑

435. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 221. ↑

436. ابن حَوْقَل ص 127. ↑

437. وأصل ذلك ديني، وقد نشأ هذا «الجنس الثّالث» قديماً إرضاءً للآلهة؛ وأنكر محمّد صلى الله عليه وسلّم هذه القيمة الدّينية التي ادّعيت له، كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية. انظر مقالة زاخاو: Sachau, MSOS, 2, S. 83 f. ↑

438. الأحكام السُّلطانية للماوردي ص 431 من طبعة إنغر Enger. ↑

439. تاريخ الطبري ج 3 ص 950. ↑

440. المصدر ذاته، ص 965. ↑

441. علي أنه من الغريب في هذا الباب أن اليهود كانت شريعتهم تحرّم عليهم خصاء الخيل والثّيران، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثّيران المخصية من النّصارى. انظر: Krauss, Talmudische Archäologie, II, S. 116. ↑

442. ابن فضل الله العمري، كما حكى ذلك مارك□ارت: Marquart, Die Beninsammlung, S. CCCVI ↑

443. Fürst Pückler, Aus Mehemed Alis Reich, III, S. 159. ↑

444. Von Maltzan, meine Wallfahrt nach Mekka, 1865. I, 48. ↑

445. مُروج الذّهب ج 8 ص 148. ↑

446. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 242. ↑

447. ويذكر ابن حَوْقَل أيضاً (ص 75) أن جميع ما يُسبى إلى خُراسان من الصّقالبة فهو يبقى على حاله من غير خصاء. وكان يجلب من الأندلس الخصيان أيضاً. ويقول الجاحظ (الحيوان ج 1 ص 51) إن الخصيّ يعرض له عند قطع ذلك العضو تغيّر الصّوت. ↑

448. لم يكن الخصيان في الكنيسة الأورثوذوكسية يقومون بمهمّة الغناء فقط، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة، خلافاً لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية. وفي أوائل القرن الرّابع الهجري والعاشر الميلادي تولّى بطريركان خصيّان منصبّ بطريرك على القسطنطينية ذاتها، أحدهما بعد الآخر (انظر تاريخ يحيى بن سعيد مخطوط پاريس رقم 291 ورقة 82 أ) وكذلك حوالي عام 370 ه - 980 م (انظر Barhebraeus, Chron. Ecclesiast. , I, 414.)، وعام 410 ه - 1019 م (يحيى بن سعيد ورقة 131 أ). ↑

449. وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء؛ وكان يهود □ردان بنوع خاص مشهورين بذلك. انظر تاريخ البربر في إسپانيا لدوزي: Dozy, Gesch. der Mauren in Spanien, II. 38. ↑

450. ذكر ابن الأثير خادماً يسمّى صندلاً، وقال إن له زوجة - ج 8 ص 191. ويقال إن مسائل غرامية بين جواري خمارويه وبين الخصيان كانت سبباً في قتل هذا الأمير؛ وكان لعضد الدّولة خادم يسمى شكراً تزوج جارية حبشية، لكن قلبها علق بغيره، فأخبرت خصومه بمكانه الخ - ابن الأثير ج 9 ص 39. ↑

451. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 242-243. ↑

452. Vogt, Basile, I, 383. ↑

453. على أن الجوهري لا يذكر لهذه الكلمة معنى الخصيّ - ولكن يقول إنهم يسمَّوْن الخدم رجال ونساء. أما إلياس النّصيبيني (ولد عام 364 هـ 974 م) فهو يترجم دائماً بكلمة شاريشا "Sarisha". ↑

454. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 31. ↑

455. مُروج الذّهب ج 8 ص 180. ↑

456. الطّبري ج 3 ص 2164. ↑

457. مُروج الذّهب ج 8 ص 162، 164. ↑

458. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 610. ↑

459. كتاب الحيوان للجاحظ ج 1 ص 62. ↑

460. رسائل الهَمَذاني ص 19. ↑

461. كتاب العيون والحدائق ورقة 100 أ من الجزء الرّابع. ↑

462. الولاة للكندي ص 276. ↑

463. تاريخ يحيى بن سعيد ورقة 130 أ-ب. ↑

464. المصدر ذاته، ورقة 107 أ، وابن الأثير ج 9 ص 39. ↑

465. الأوائل للسّيوطي. ↑

466. البيهقي ص 609، والحيوان للجاحظ ج 1 ص 62،49. ↑

467. البيهقي ص 610-611، والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 96. ↑

468. الحيوان ج 1 ص 53، والمؤلف يقرأ النّص هكذا: صنعة الدّبور. ↑

469. يقول المسعودي ص 149 إن آباطهم ليست نتنة. ↑

470. انظر بقية عوائدهم عند الجاحظ والبيهقي. ↑

471. الحيوان للجاحظ ج 1 ص 62، 72. ↑

472. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 3-4. ↑

473. مُروج الذّهب ج 8 ص 299. ↑

474. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 70 ب من مخطوط برلين. ↑

475. مُروج الذّهب ج 8 ص 300. ↑

476. ديوان أبي نواس ص 234،240؛ وحينما يتكلم هذا الشّاعر (ص 370) عن الجارية بضمير المذكر أحياناً (هو) فهو يشير إلى هذه المادّة. ↑

477. كتاب الخَراج لقُدامة مخطوط رقم 5907 بمكتبة پاريس ورقة 29 ب. ↑

478. طبقات السّبكي ج 3 ص 18. ↑

479. حكى الجاحظ (توفي عام 255 هـ 868 م) في كتاب المعلمين سبب حدوث هذه الفاحشة في الخُراسانيين، وهو خروج الأجناد في البعوث مع الغلمان؛ وذلك حين سنَّ أبو مسلم ألا يخرج النّساء مع الجند. انظر حمرة الأصفهاني في ديوان أبي نواس مخطوط برلين رقم 7532 ورقة 193 ب-194 أ- وانظر Mittwoch, MSOS, 1910, S. 138. ↑

480. المضاف والمنسوب للثّعالبي (ZDMG, VIII, S. 56). ↑

481. كتاب الدّيارات ورقة 83 أ. ↑

482. يتيمة الدّهر ج 2 ص 163 وما بعدها. ↑

483. Dvorak, S. 165 ff. ↑

484. يتيمة ج 2 ص 133، ومُروج الذّهب ج 8 ص 374. ↑

485. مسكويه ج 6 ص 469، وابن الأثير ج 8 ص 495. ↑

486. مسكويه ج 6 ص 81. ↑

487. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 127 أ، وإرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 340. ↑

488. يتيمة الدّهر ج 1 ص 483. ↑

489. تاريخ يحيى بن سعيد ص127 أ-ب من مخطوط باريس. ↑

490. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 308-309. ↑

491. كتاب المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 189 ب-190 ب؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 19-23.

بكل لفظ مليح هذا كتاب الفصيح
كما وهبتك روحي وهبتُه لكَ طوعاً

↑

492. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 23-26. ↑

493. Wüstenfeled AGGW, 37. Nr. 88. ↑

494. محاضرات الأدباء ج 1 ص 129. ↑

495. سلسلة التّواريخ طبعة رينو Reinaud ص 70، عن أبي زيد السّيرافي؛ قارن المسعودي (مُروج الذّهب) ج 1 ص 295. ↑

496. كتاب الهند للبيروني ص 279، وأحسن التّقاسيم للمقدسي ص 441. ↑

497. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 89. ↑

498. انظر الكلام عن عضد الدّولة في فصل الأمراء من الجزء الأول لهذا الكتاب. ↑

499. أخبار الحكماء للقفطي ص 298. ↑

500. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 407، 441. ↑

501. ابن حَوْقَل ص 70. ↑

502. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 229-230. ↑

503. الأحكام السُّلطانية طبعة إنغر Enger ص 418. ↑

504. تاريخ يحيى بن سعيد ورقة 124 أ؛ والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 289؛ وملحق أخبار القُضاة والولاة للكندي ص 606. ويقول ستِنِفلد Wüstenfeld Statthalter Ägyptens, II, S. 58.) عن حدث في مصر عام 253 هـ 867 م؛ وقد حكى الكندي ذلك على صورة أخرى (الولاة للكندي ص 210)؛ وقد توفي الكندي عام 350 هـ 361 م. ↑

505. Stendhal, Promenades, II. S. 358. ↑

506. العقد الفريد لابن عبد ربه ج 1 ص 285 من الطبعة المصرية. ↑

507. الأغاني ج 19 ص 136. ↑

508. حكاية أبي القاسم نشرة مِتس ص 73. ↑

509. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 39. ↑

510. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 200. ↑

511. المصدر ذاته، ص 427، 436. ↑

512. صبح الأعشى للقلقشندي ص 64 من الجزء الأول طبعة القاهرة عام 1340 هـ – 1922 م. ↑

513. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 126 أ، 146 أ. وقد اشتهرت بين النّساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزي بمكّة وقد قرأ عليها الخطيبُ البغدادي صحيح البُخاري في خمسة أيام (إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 247). ↑

514. مقامات الهَمَذاني ص 103 من طبعة بيروت. ↑

515. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 352. ↑

516. Kermer. ZDMG, 38, S. 509. ↑

517. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 121 أ. ↑

518. كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم 3138 بالمتحف البريطاني بلندن ورقة 61 أ. ↑

519. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 449؛ وجمهرة الإسلام للشّيرزي مخطوط لايدن رقم 277 ورقة 200 ب. ↑

520. رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص 173. ↑

521. ديوان الشريف الرَّضي ج 1 ص 245. ↑

522. رسائل الخوارزمي ص 61. ↑

523. Landberg, Proverbes Arabes, XVI. ↑

524. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 87. ↑

525. عريب بن سعد القرطبي ص 161. ↑

526. يتيمة الدّهر ج 3 ص 102 وما يليها. ↑

527. المصدر ذاته، ج 3 ص 129-130. ↑

528. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 338. ↑

529. يتيمة الدّهر ج 2 ص 63-65. ↑

530. المصدر ذاته، ج 2 ص 130؛ وإرشاد الأريب ج 6 ص 317-318. ↑

531. الهَمَذاني مخطوط باريس ورقة 59 أ وطبعة القاهرة ص 65. ↑

532. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 204. ↑

533. المُغرب لابن سعيد ص 34. ↑

534. المصدر ذاته، ص 29. ↑

535. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 415-416؛ والكندي ص 224. ↑

536. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 112. ↑

537. سيرة ابن هشام ص 444 من طبعة غوتنغن سنة 1858. ↑

538. مسكويه ج 6 ص 190. ↑

539. Becker, Beiträge zur Gesch. Ägyptens, I, 34

عن المُسبِّحي (توفي عام 420 هـ). ↑

540. .Vierkandt, Naturvölker, S. 264 ↑

541. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 159 أ. ↑

542. تاريخ الطّبري ج 3 ص 2206. ↑

543. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 2-5. ↑

544. ابن الأثير ج 9 ص 144، وابن تغري بردى طبعة پوپر W. Popper ص 98-100. ↑

545. يحيى بن سعيد ورقة 117 ب. ↑

546. المصدر ذاته، ورقة 107 ب. ↑

547. المصدر ذاته، ورقة 94 أ؛ وابن الأثير ج 8 ص 49، ومُروج الذّهب ج 8 ص 169. ↑

548. عريب ص 77، 57 ومُروج الذّهب ج 8 ص 169، 198. ↑

549. زبدة الفكرة مخطوط پاريس ورقة 179 ب. ↑

550. كما فُعِل بالقِرْمِطي الخارج (مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 169)؛ وبوصيف الخادم (مُروج الذّهب، ج 8 ص 198)، والحسين بن حمدان (عريب ص 57) ويوسف بن أبي السّاج. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 77. ↑

551. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 77. ↑

552. زبدة الفكرة ص 182 أ، وابن الأثير ج 8 ص 205-206. ↑

553. مسكويه ج 6 ص 501. ↑

554. مسكويه ج 6 ص 17. ↑

555. عريب ص 57. ↑

556. المصدر ذاته، ص 77. ↑

557. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 205-206. ↑

558. مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 154. ↑

559. كتاب الوزراء للصّابي ص 102. ↑

560. كتاب الوزراء ص 381، وعريب بن سعد ص 184. ↑

561. كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 108. ↑

562. وقع هذا لابن بقيّة الوزير لما قُتل وصلب عام 367 هـ؛ كما تدلّ على ذلك قصيدة الأنباري في نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادي نقلاً عن كتاب عيون السّير في محاسن البدو والحضر للهَمَذاني. ↑

563. الإصطخري ص 149، 210. ↑

564. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 129. ↑

565. هذا هو المتّبع اليوم، وهكذا كان قديماً. انظر مثلاً ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدّين لما قَدِم عليه: نغنم ما أصبنا منكم، وتَدُوا قتلانا، ويكون قتلاكم في النّار. وكان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدّين حقيقة (انظر فتوح البلدان للبلاذري طبعة لايدن 1866 ص 94، 98). وكذلك كان إلغاء الدّية عند اليونان مرتبطاً بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم. ↑

566. مسكويه ج 5 ص 208. ↑

567. كتاب الوزراء للصّابي ص 471. ↑

568. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 494 وما بعدها. ↑

569. كتاب العيون ج 4 ورقة 253 ب-254 أ. ↑

570. يحيى بن سعيد ورقة 100 أ، والمقريزي ج 2 ص 413. ↑

571. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 111 أ. ↑

572. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 426. ↑

573. يحيى بن سعيد ورقة 123 ب. ↑

574. Schlumberger, Épopée Byzantine, II, 208. ↑

575. هذا التّهيّب كان سبباً في فظائع ليس لها ضرورة كما نرى. ويحكي الرّحالة ماركو بولو (Marco polo II, 5) أن الخان الأكبر لفّ نيان في بساط، وما زال يُحمل ويُرمى حتى

مات؛ وإنما فعل ذلك، «لأن نيان كان من دمه، فلم يُرِدْ أن يريقه على الأرض أو في أشعة الشّمس». ↑

576. مُروج الذّهب ج 8 ص 3-4. ↑

577. تاريخ أبي الفداء تحت عام 255 هـ، ج 2 ص 224. ↑

578. المسعودي ج 8 ص 11. ↑

579. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 13. ↑

580. يحيى بن سعيد ورقة 86 أ؛ مسكويه ج 5 ص 455-456، وابن الأثير ج 8 ص 211. ↑

581. كتاب العيون ورقة 143 أ. ↑

582. المسعودي ج 8 ص 351 والنّصيبيني 212 .Elias Nisib. نقلاً عن ثابت بن سنان. ↑

583. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 431، 497؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 349. ↑

584. طبقات السّبكي ج 3 ص 295. ↑

585. زبدة الفكرة ص 193 ب. ↑

586. كتاب العيون ورقة 108 أ. ↑

587. مُروج الذّهب للمسعودي ج 6 ص 266. ↑

588. المصدر ذاته، ج 8 ص 211. ↑

589. المصدر ذاته، ج 8 ص 116، 160. ↑

590. مسكويه ج 5 ص 446-447. ↑

591. المصدر ذاته، ج 5 ص 423 نقلا عن ثابت بن سنان. ↑

592. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 194. ↑

593. مسكويه ج 5 421؛ والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 45 أ؛ وزبدة الفكرة ص 225 ب، وابن الأثير ج 8 ص 193. ↑

594. مسكويه ج 6 ص 481، 517؛ وكان عضد الدّولة أول من استعمل الفيلة في القتال (مسكويه ج 6 ص 464). ↑

595. يتيمة ج 4 ص 2-7. ↑

596. حكاية أبي القاسم نشرة مِتس ص 83. ↑

597. كتاب العيون والحدائق ج 3 طبعة دى خويّه سنة 1869 ص 63. ↑

598. كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 88. ↑

599. كتاب الوزراء للصّابي ص 21. ↑

600. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 571 من الطّبعة الأوروبية. وهذان البيتان ليسا في ديوان ابن المُعتزّ. ↑

601. أخبار الحكماء للقفطي ص 193. ↑

602. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 89. ↑

603. كشف المحجوب للحجويري، 315. ↑

604. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 128 أ، وطبقات السّبكي ج 2 ص 165. ↑

605. طبقات السّبكي ج 2 ص 222. ↑

606. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 142 ب. ↑

607. المصدر ذاته، ص 56 ب. ↑

608. كتاب الوزراء للصّابي ص 64. ↑

609. ابن حَوْقَل ص 224. ↑

610. Gleichen-Russwurm. Elegantiae, S. 277. ↑

611. كتاب الدّيارات ورقة 117 أ. ↑

612. ذكر أخبار أصفهان ورقة 161 أ. ↑

613. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 405. ↑

614. الفِهْرِسْت ص 254. ↑

615. كتاب بغداد لطيفور ص 50. ↑

616. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 405؛ وقد سخر أحد الشّعراء بمارستان ابن طُولون بقوله:

وما فيه من عِلجٍ عِتلٍّ مقلِّ	فيا ليتَ مارستانَه نيطَ بإستِهِ

الكندي ص 217).

↑

617. المواعظ والاعتبار ج 2 ص 267. ↑

618. جغرافية اليعقوبي ص 321، والعقد الفريد ج 3 ص 240. ↑

619. كتاب الأغاني ج 18 ص 30. ↑

620. كتاب الوزراء ص 21. ↑

621. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 14 أ؛ وهذا مصدر جيد لأنه يعتمد على تاريخ ثابت بن سنان نفسه، وأقدم مارستان ببغداد هو الصّاعدي عند باب المحوّل (المُنتظَم ورقة 66 أ). ↑

622. أخبار الحكماء للقفطي ص 194-195، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ج 1 ص 220 وما بعدها، والمُنتظَم ورقة 16 أ، وتاريخ ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 203. ↑

623. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 23 ب. ↑

624. أخبار الحكماء للقفطي ص 192-193. ↑

625. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 68 أ، وابن الأثير ج 9 ص 12، وابن خلكان ج 2 ص 485. ↑

626. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 98 ب. ↑

627. المقدسي ص 430، والمُنتظم ورقة 69 أ، ويُروى عن بجكم أنه بنى في واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضّعفاء والمساكين (المُنتظَم ورقة 68 أ، ب، والقفطي ص 193)، ولم يصبح بمدينة واسط مستشفى حقيقي إلا في عام 413 هـ (المُنتظَم ورقة 170 ب). ↑

628. أخبار الحكماء للقفطي ص 191. ↑

629. تاريخ ابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 277 من طبعة لايدن. ↑

630. مصارع العشاق ص 159. ↑

631. المصدر ذاته، ص 5. ↑

632. الفرج بعد الشّدة للتّنوخي ج 2 ص 17. ↑

633. انظر فريدريش زارّه وإرنست هِرتسفِلد: التّقرير المؤقت الأول حول تنقيبات سامرّاء.

Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samar ra, Berlin, 1912. S. 14. ↑

634. كان السّرداب في ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض، فيُروى مثلاً أن الخليفة المُقتدِر أمر بحفر سردابٍ لمؤنس، وأن مؤنساً وقع ومات (كتاب العيون ورقة 114 ب)؛ وكان عند رجل في داره سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد (عريب ص 10) بل يُروى أنه في عهد المنصور سُيِّر جماعةٌ من أبناء علي إلى الكوفة؛ وحُبسوا في سرداب تحت الأرض، لا يفرقون بين ضياء النّهار وسواد الليل (مُروج الذّهب ج 2 ص 200). ↑

635. JRAS, 1898, P. 819. ↑

636. ابن حَوْقَل ص 300. ↑

637. سفرنامه ص 136 من طبعة برلين. ↑

638. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 28. ↑

639. تاريخ الطّبري ج 3 ص 418؛ وكتاب إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 99 في أبيات الشّاعر في عهد عبد الله بن طاهر. ↑

640. لطائف المعارف للثّعالبي ص 14 من طبعة لايدن. ↑

641. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 449. ↑

642. .De Goeje, Carmathes, p 218

نقلاً عن ابن مسكويه. ↑

643. مطالع البدور للغزولي ج 1 ص 65، ويدلّ على استعمالها في القرن الرّابع ما ذكر عن السّري. ↑

644. جمهور الإسلام للشّيزري ورقة 199 أ من مخطوط لايدن؛ والمحاسن والمساوئ للبيهقي ص 447. ↑

645. يدلّ على هذا ما حكاه معظم المؤرّخين من ظهور حيوان يسمى الزّبزب في عام 394 هـ، ويقول ابن الجوزي (المُنتظَم ورقة 18 أ-ب) إنه في تموز من عام 308 هـ «برد الجو حتى نزل النّاس من السّطوح وتدثّروا باللّحف». ↑

646. الإصطخري ص 211. ↑

647. الهَمْداني ج 1 ص 196. ↑

648. جغرافية اليعقوبي ص 266، ومُروج الذّهب للمسعودي ج 7 ص 192، 193. ↑

649. انظر ص 34 من التّقرير المقدم؛ وانظر أول الفصل؛ وقد سميت الضّاحية الشّرقية من ضواحي بغداد، وهي التي يخرج منها طريق الجيوش نحو فارس، بالأبواب الثّلاثة لمثل هذا النّوع من البناء. ↑

650. معجم البلدان لياقوت ج 1 ص 809. ↑

651. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 315. ↑

652. الإصطخري ص 83؛ وقد حكى رجل طاف دار الخلافة حوالي آخر القرن الرّابع، فقال إنها مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 49). ↑

653. كتاب الوزراء للصّابي ص 179. ↑

654. انظر هذه الكلمة عند الجوهري، وحكاية أبي القاسم نشرة مِتس ص 36. ↑

655. الدّيوان ج 1 ص 15. ↑

656. كتاب الوزراء ص 420. ↑

657. وكان الغلمان يسمون بذلك بحسب طول شهر راتبهم الذي كان أحياناً أربعين أو ستين او تسعين. ↑

658. ابن مسكويه ج 5 ص 324؛ والأصفهاني ج 1 ص 204؛ وديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 138 سطر 6، وهو قوله. والقبة العليا والأترجة. ↑

659. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 160 ب؛ وهي التي يقصدها ابن المُعتزّ بقوله: والقبّة العليا؛ ويقال إنها سميت بذلك لأن الخليفة كان يستطيع أن يصعد إلى أعلاها راكباً على حمار، ولكن هذا لم يرد إلا عند ياقوت (معجم البلدان ج 1 ص 806)، ويظهر أنها حكاية موضوعة، وهي تشبه ما حكي عن منارة الإسكندرية (ابن خُرداذبِه ص 114). ↑

660. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 160 أ. ↑

661. رحلة ناصر خسرو ص 129، 158، وذكر ذلك المقريزي (المواعظ والاعتبار ج 1 ص 447). ↑

662. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 449. ↑

663. ابن خُرداذبِه ص 114. ↑

664. Fontane, Fünf Schlösser, S. 96. ↑

665. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 317. ↑

666. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 53. ↑

667. Gleichen-Russwurm, Elegantinae, S. 387. ↑

668. النّجوم الزّاهرة لابن تَغْري بَرْدي طبعة لايدن 2 ص 281 (عام 325 هـ). ↑

669. هذا ضرب من الذّوق الشّرقي القديم، وكان ملوك الفرس من قبل يجلسون إلى النّاس تحت أشجارٍ قد كسيت أجسامها بالفضة. ↑

670. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 316. ↑

671. المصدر ذاته، ج 1 ص 487. ↑

672. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 53-54. ↑

673. مُروج الذهب للمسعودي ج 8 ص 336-338. ↑

674. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 237. ↑

675. رحلة ناصر خسرو ص 80، 88 من النّص الفارسي. ↑

676. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 52 وما بعدها. ↑

677. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 138. ↑

678. J. Ebersolt, Le grand palais de Constantinople, paris, 1910. p. 68. ↑

679. حكاية أبي القاسم ص 33. ↑

680. يتيمة الدّهر للثّعالبي ج 2 ص 253؛ وجمهرة الإسلام، مخطوط لايدن رقم 287 ورقة 77 أ. ↑

681. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 429. ↑

682. مقامات الهَمَذاني طبعة بيروت ص 105. ↑

683. كتاب الوزراء للصّابي ص 172؛ ويتيمة الدّهر ج 3 ص 237؛ والفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 20. ↑

684. كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة ان لوتن ص 57؛ ومُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 259. ↑

685. مقامات الهَمَذاني ص 113؛ وحكاية أبي القاسم ص 419؛ والمواعظ والاعتبار للمقريزيّ ج 1 ص 419. ↑

686. كتاب الوزراء للصّابي ص 65. ↑

687. المواعظ والاعتبار للمقريزيّ ج 1 ص 420. ↑

688. جغرافية اليعقوبيّ ص 277. ↑

689. كتاب البخلاء طبعة ان لوتن ص 57، وانظر شعراً في العقد 296. ↑

690. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 392. ↑

691. رحلة ناصر خسرو ص 75 من النّص الفارسي. ↑

692. Josua Stylites, ed. Wright, S. 19. ↑

693. ترجمة الطّبري لنولدكه ص 134 حاشية رقم 5. ↑

694. Land, Anecdota, III, 210، وانظر يوشع العمودي Josua Stylites, S. 75 ↑

695. تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 199. ↑

696. طبقات السّبكي ج 2 ص 131. ↑

697. مطالع البدور للغزولي ج 2 ص 17. ↑

698. مسكويه ج 5 ص 449؛ وكان يسمى المكان الذي تخلع فيه الملابس باسم مأخوذ من السّريانية وهو كلمة مشلح (المُغرب لابن سعيد ص 43)، وكان أهل الشّام يسمون ًآجرّ الحمّام بالقرميد، وهو اسم مأخوذ من الرّومية Keramidi – انظر المُعرَّب للجواليقي؛ طبعة زاخاو ص 116. ↑

699. انظر فريدريش زارّه وإرنست هِرتسفِلد: التّقرير المؤقت الأول حول تنقيبات سامرّاء

Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra, Berlin, 1912. S. 24. ↑

700. مُروج الذّهب للمسعودي ج 3 ص 29. ↑

701. مطالع البدور ج 2 ص 17. ↑

702. جغرافية اليعقوبي ص 254. ↑

703. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 16 وما بعدها. ↑

704. المصدر ذاته، ص 76؛ وجاء في ص 74 أنه كان ببغداد ستون ألف حمّام، وهذا فيه مبالغة وتخيل؛ أما السّبعة والعشرون ألفاً فيجب أن تؤخذ على أنها عدد المساجد لا الحمّامات. ↑

705. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 80. ورحلة ابن جُبير ص 230. ↑

706. رحلة ابن جُبير ص 230. ↑

707. المواعظ والاعتبار ج 2 ص 80. ↑

708. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 74. ↑

709. لبّ اللِّباب في رد جوابات ذوي الألباب؛ مخطوط رقم 8317 بمكتبة برلين ورقة 124 أ، وكتاب أوليات على دده، مخطوط برلين رقم 9372 ورقة 58 أ، وكانت هذه القلانس تدعم بعيدان من داخلها (الأغاني ج 9 ص 121)، ولما فتح عباد بن زياد الهند ووصل قندهار رأى قلانس أهلها طوالاً، فعمل عليها(الفتوح للبلاذري ص 434). وكانت القلانس والمناطق في نظر العرب الجاهليّين من لباس الفرسJacob, Aarab Beduinenleben, S. 237.وكان الرّشيد لا يحب هذا التّجديد، فيحكي الجاحظ أن شاعراً دخل على الرّشيد لينشده شعراً، وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج، فقال له: إياك أن تنشدني، إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان ومالقان (البيان والتّبيين ج 1 ص 42). ويحكي المسعودي (مُروج الذّهب، ج 8 ص 302) أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبَّها بملوك الأعاجم، فلبسها النّاس اقتداء بفعله وسميت المعتصميّات. وكان زي أهل مصر حوالي عام 230 لبس القلانس الطّوال، وكانوا يبالغون في ذلك، فأمرهم محمد بن الليث القاضي بتركها، لأنها من لباس القُضاة وزيهم، فلم ينتهوا، حتى ضربهم (القُضاة للكندي ص 460). ↑

710. وكان من العادات النّادرة بفرنسا في القرن الثّاني عشر الميلادي لبس منطقتين وأصلها عادة شرقية، انظر Jac. Falcke, Gesch. des Geschmackes Mittelatter S. 66 ↑

711. مُروج الذّهب 8 ص 402. ↑

712. المصدر ذاته. ↑

713. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 254؛ والمكتبة العربية الإسپانية ج 3 ص 49. وحكى التّوحيدي (رسالة في الصّداقة ص 11) عن الباقر رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: أيدخل أحدكم يده في كم صاحبه. فيأخذ حاجته من الدّراهم والدّنانير؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذن بإخوان. ↑

714. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 49. ↑

715. المصدر ذاته، ج 1 ص 399. ↑

716. مُروج الذّهب ج 6 ص 345. ↑

717. المواعظ والاعتبار ج 1 ص 390. ↑

718. الفرج بعد الشّدّة ج 1 ص 69؛ وكانت الأكمام في عصر الإسلام الأول طويلة حتى كان يقص منها ما زاد على الأصابع (بُستان العارفين ص 90). ↑

719. الفخري في الآداب السُّلطانيّة لابن الطقطقي ص 298. ↑

720. أدب النّديم ص 15 أ. ↑

721. بُستان العارفين ص 90. ↑

722. التّذكرة الحمدونية ص 148 أ. ↑

723. الموشّى للوشّاء ص 124؛ ومرآة المروءات للثّعالبي ص 129 ب. ↑

724. الموشّى للوشّاء ص 126؛ وديوان كُشاجم ص 169؛ وكتاب العيون ورقة 110 أ-ب. ↑

725. الطّراز الموشّى ص 202. ↑

726. مسكويه ج 5 ص 528 مثلاً، وكتاب الوزراء للصّابي ص 176، وجمع السّراويل سراويلات (الموشّى ص 126). ↑

727. مسكويه ج 6 ص 308. ↑

728. وكان اتخاذ الطّيالس شائعاً بمدينة شيراز حتى يقول أحسن التّقاسيم للمقدسي (ص 249): «ولاترى بها لصاحب طيلسان مقداراً، ولقد رأيت أهل الطّيالس سكارى». وهو لم يرضَ أن يقابل الوزير بطيلسان. ↑

729. تاريخ بغداد مخطوط پاريس ورقة 15 أ. ↑

730. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 182. ↑

731. النّجوم الزّاهرة ج 2 ص 303 طبعة لايدن. ↑

732. المُغرب لابن سعيد ص 33. ↑

733. الصّنوبري في جمهرة الإسلام للشّيزري مخطوط لايدن ورقة 113 ب. ↑

734. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 177. ↑

735. ديوان البُحتُري ج 1 ص 185. ↑

736. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 96. ↑

737. يتيمة الدّهر ج 3 ص 43، وكانت الإبْرَيْسَم أو الخَزّ. ↑

738. الأغاني ج 6 ص 85. ↑

739. الموشّى ص 125، وابن خُرَّداذبِه ص 109. ↑

740. Thomascheck, Die Thraker. وانظر Gebhart, Italie Mystique. ↑

741. تاريخ أصفهان مخطوط لايدن ج 1 ورقة 98 أ، 108 أ، 122 أ، ورقة 25 ب. ↑

742. الفِهْرِسْت ص 144. ↑

743. Gleichen-Russwurm, Elegantiae, S. 461. ↑

744. النّجوم الزّاهرة ج 2 ص 203، طبعة لايدن. ↑

745. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 69 أ. ↑

746. المصدر ذاته، ص 102. ↑

747. ديوان الشّريف الرَّضي ص 666. ↑

748. الولاة للكندي ص 203 وما بعدها. ↑

749. يحيى بن سعيد ورقة 115 ب. ↑

750. كتاب الوزراء للصّابي ص 49. ↑

751. كتاب العيون والحدائق ورقة 91 ب. ↑

752. المصدر ذاته، ورقة 181 أ-ب. ↑

753. رسائل الهَمَذاني ص 536 وما بعدها. ↑

754. ابن شدّاد مخطوط بيروت ورقة 51؛ وقد تفضل الدّكتور سارازين W. Sarasin بإطلاعي على هذا النّص. ↑

755. وفيّات الأعيان لابن خلكان (طبعة ٌستِنفِلد) ج 3 ص 23. ↑

756. النّجوم الزّاهرة طبعة كاليفورنيا ص 46 نقلا عن الذّهبي. ↑

757. طبقات السّبكي ج 3 ص 15. ↑

758. ابن بشكوال ص 134، ويظهر أن هذه العادة كانت منتشرة في الأندلس. ↑

759. طبقات السّبكي ج 2 ص 257 (ترجِمة إمام الحرمين)؛ وكذلك قاضي القُضاة عبد الله بن معروف المتوفى عام 381 هـ (المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 133 ب)؛ والإسفراييني المتوفى عام 406 هـ ببغداد، ولم ينقل إلى المقبرة إلّا سنة 410 هـ (وفيّات الأعيان طبعة ستِنفِلد ج 1 ص 35)؛ والقاضي عبد الجبّار المُعتزلي قاضي قُضاة الرّي (توفي عام 410 هـ طبقات السّبكي ج 3 ص 220)؛ والقدوري المتوفى عام 420 هـ (وفيّات الأعيان ج 1 ص 38). ↑

760. انظر الفصل الخاص بالإماميّة. ↑

761. كتاب العلل، مخطوط برلين رقم 8328 ورقة 115 ب؛ ولما مات علي ابن الإخشيد عام 255 هـ حُمل في تابوت إلى البيت المقدسي ودفن مع أخيه ووالده بباب الأسباط (الكندي ص 296). ↑

762. يتيمة الدّهر ج 3 ص 80 وما بعدها. ↑

763. المصدر ذاته، ج 3 ص 81. ↑

764. كتاب الوزراء للصّابي ص 240. ↑

765. المستطرف ج 1 ص 149، وغير ذلك من الحكايات القديمة. ↑

766. أدب النّديم لكُشاجم، ص 48 ب. ↑

767. كتاب العلل ص 112 ب؛ وأدب النّديم ص 48 ب؛ وقد ذكر القمّي، وهو من أهل خُراسان عادةً أخرى، وهي أنه إذا فرغ من الطّعام يبدأ الغسل عن يمين الباب حرًّا كان الجالس أو عبداً. ↑

768. أدب النّديم ص 48 أ-ب، 49 أ-ب. ↑

769. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 447؛ ومُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 104. ↑

770. مطالع البدور للغزولي ج 2 ص 67. ↑

771. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 82. ↑

772. إرشاد الأريب لياقوت ج 6 ص 105. ↑

773. أدب النّديم ص 48 ب. ↑

774. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 6. ↑

775. ثمار القلوب للثّعالبي في مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG, VIII, S. 518. وهو كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، وكان القصّابين يذبحون يوم الجمعة، فيأكل النّاس اللحم يوم الجمعة، ثم تؤكل الرّؤوس يوم السّبت (كتاب البخلاء للجاحظ طبعة ان لوتن ص 121)، ولذلك كان النّاس بالأندلس، حتّى بعد العصر الإسلامي بزمانٍ طويل، يأكلون رؤوس الغنم يوم السّبت، انظر Mendoza, Lazarillo de Tormes, Reclam, S. 31. ↑

776. كتاب الموشّى ص 129-130. ↑

777. يتيمة الدَّهر ج 2 ص 120. ↑

778. الفِهْرِسْت ص 145. ↑

779. أخبار الحكماء للقفطي ص 331 وما بعدها. ↑

780. وصف جزيرة العرب للهَمْداني ص 198. ↑

781. حكاية أبي القاسم ص 39-40 من مقدمة مِتس. ↑

782. مُروج الذّهب ج 8 ص 392 وما بعدها. ↑

783. ديوان المتنبِّي ص 18. ↑

784. الموشّى ص 130-132؛ وحكاية أبي القاسم ص 48. ↑

785. تاريخ الطّبري ج 3 ص 552. ↑

786. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 200. ↑

787. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 491. ↑

788. زناد الواري، مخطوط لايدن رقم 1053 ورقة 163. ↑

789. Rohlfs, Mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 75. ↑

790. المُنتظم لابن الجوزي ورقة 49 ب، والنّجوم الزّاهرة ج 2 ص 246 طبعة لايدن. ↑

791. مسكويه ج 4 ص 424، والنّجوم الزّاهرة ج 2 ص 254. ↑

792. الأوراق للصّولي مخطوط باريس ورقة 61-62. ↑

793. مُروج الذّهب ج 8 ص 390. ↑

794. الفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 11. ↑

795. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 260 وما بعدها. ↑

796. المُغرب لابن سعيد ص 49. ↑

797. يحيى بن سعيد ورقة 118 أ. ↑

798. أدب النّديم لكُشاجم ورقة 32 أ. ↑

799. ديوان أبي نواس ص 356، 358. ↑

800. محاضرات الأدباء ج 1 ص 428، 249. ↑

801. جمهرة الإسلام. ↑

802. الموشّى للوشّاء ص 131، ويتيمة الدّهر ج 2 ص 40. ↑

803. يتيمة الدَّهر ج 3 ص 129. ↑

804. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 118: الجنك والعود والقانون المزمار، ويذكر التّنوخي (هامش المُستطرف ج 2 ص 144) ومُروج الذّهب ج 8 ص 100 وما بعدها. ↑

805. كتاب الوزراء للصّابي ص 193، وكان ذلك حوالي عام 300 هـ. ↑

806. محاضرات الأدباء ج 1 ص 443-444. ↑

807. كتاب بغداد لطيفور ص 192. ↑

808. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 44 أ-ب. ↑

809. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 144 أ-ب. ↑

810. حكاية أبي القاسم ص 78 وما بعدها، يقول سْتَندال Stendhal: إن الفناء الحقيقي في جمال الموسيقى، وهو مضحك نادر في فرنسا أو يعدّ في العادة ضرباً من الادّعاء، يشاهده الانسان كلما خطا في إيطاليا؛ فلما كنت معسكِراً بمدينة بريشا Brescia قدِّمت لرجل يعدّ أكثر أهلِ ذلك المكان تأثراً بالموسيقى؛ وهو رقيق جداً وعظيم الأدب، ولكنه كان إذا حضر حفلةً موسيقية وأخذ منه الطّرب إلى درجة معينة، خلع نعله من غير أن يشعر، فإذا وصل الموسيقيون إلى قطعة بالغة الجمال لم يغفل قط عن رمي نعليه وراءه على السّامعين. ورأيت في پولونيا أشحّ النّاس يرمي بماله إلى الأرض إذا بلغت منه الموسيقى مبلغها. Stendhal, Vie de Rossini, p. 18. ↑

811. كتاب بغداد لطيفور ص 108. ↑

812. أدب النّديم لكُشاجم ص 43 أ؛ ومُروج الذّهب للمسعودي ج 6 ص 132-133. ↑

813. ديوان ابن المُعتزّ ج 2 ص 63. ↑

814. أدب النّديم لكُشاجم ص 40 أ-ب. ↑

815. مُروج الذّهب ج 6 ص 131-132. ↑

816. المُغرب لابن سعيد ص 33. ↑

817. ديوان المتنبِّي ص 160 وما بعدها. ↑

818. المخلاة للعاملي ص 186. ↑

1. سلسلة التّواريخ طبعة رينو ص 41، ولم يكن قد استعمل في الصّين قبل ذلك بزمنٍ طويل، وأول ما فرضت عليه الرّسوم كان عام 793 م (Pfizmaier, SWA, 67. 422). ↑

2. مُروج الذّهب ج 2 ص 84. ↑

3. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 61. ↑

4. المحاسن والمساوئ للبيهقي ج 2 ص 447. ↑

5. مطالع البدور للغزولي ج 2 ص 71. ↑

6. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 36. ↑

7. كتاب الفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 15. ↑

8. ثمرات الأوراق لابن حجّة الحموي، على هامش المُستطرف طبعة مصر 1308 هـ ج 2 ص 163-166. ↑

9. طبقات السّبكي ج 3 ص 172؛ محاضرات الأدباء ج 1 ص 447. ↑

10. مُروج الذّهب ج 1 أ ص 311؛ وكان الشّطرنج يلعب على ورقةٍ مربعة حمراء من أدم (مُروج الذّهب ج 8 ص 316)؛ وكتاب بغداد لطيفور ص 293؛ ويذكر المسعودي في مُروج الذّهب (ج 8 ص 313 وما بعدها) إلى جانب الآلة المربعة المشهورة عندنا آلة مستطيلة وآلة مدورة منسوبة إلى الرّوم، وأخرى تسمى النّجومية أو الفلكية وأبياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك. ↑

11. مُروج الذّهب ج 8 ص 314، والفِهْرِسْت ص 131. ↑

12. محاضرات الأدباء ج 1 ص 448. ↑

13. المصدر ذاته، ص 449. ↑

14. حكاية أبي القاسم ص 93 وما بعدها. ↑

15. كتاب الدّيارات ورقة 35 ب. ↑

16. الولاة للكندي ص 402، 403. ↑

17. المصدر ذاته، ص 402. ↑

18. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 318. ↑

19. المُغرب لابن سعيد ص 18. ↑

20. مُروج الذّهب ج 4 ص 25. ↑

21. Goldziher, AFR. VII,P. 422. ↑

22. مطالع البدور للغزولي 2 ص 260. ↑

23. كتاب بغداد لطيفور ص 38 أ، والتّذكرة الحمدونية مخطوط باريس رقم 3324 ورقة 25 أ، ومُروج الذّهب ج 8 ص 230. ↑

24. ديوان ابن الحجّاج مخطوط بغداد ورقة 141. ↑

25. مُروج الذّهب ج 8 ص 379. ↑

26. Schwarz, Turkestan, S. 290. ↑

27. انظر مثلاً كتاب بغداد لطيفور ص 38 أ. ↑

28. الأغاني ج 3 ص 100. ↑

29. المصدر ذاته، ج 6 ص 70. ↑

30. ديوان الشّريف الرَّضي ص 3 من المقدمة. ↑

31. الأحكام السُّلطانية للماوردي طبعة إنغر Enger ص 404. ↑

32. المُغرب لابن سعيد ص 30. ↑

33. يجد القارئ وصفاً جيداً لهذه اللعبة كتبه أحد مؤرّخي الرّوم، وذلك في كتاب كاترمير: Quatremère, Hist. des Mameloucs. 1. p. 11 f. ↑

34. كتاب الوزراء للصّابي ص 138. ↑

35. النّجوم الزّاهرة ج 2 ص 38 من طبعة لايدن، وفي عام 315 هـ – 927 م سقط أسفار ابن شبرويه والي جُرجان من على دابّته، وهو يلعب الكرة فمات (زبدة الفكرة ص 203 ب). ↑

36. عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص 166-167. نقلاً عن كتاب العيون والحدائق. ↑

37. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 573 ب- 74 أ. ↑

38. تسمّى قصائد الصّيد بالقصائد الطّردية؛ ولم تستعمل كلمة طرد في معنى الصّيد إلا عند المتأخرين، ويقول إدوارد وليَم لاين Lane إن أول من استعملها الزّمخشري، وأصلها شامي، وكان أهل عرب الشّام يستعملون كلمة طارد بدلاً من كلمة صاد. انظر كتاب: Barhebraeus, Buch der Strahlen, S. 30. ترجمة موبرغ Moberg. ↑

39. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 71 أ؛ وفيما يتعلّق بالشّام راجع قصائد المتنبّي في الصّيد. ↑

40. المواعظ والاعتبار ص 316. ↑

41. الفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 70 وما بعدها. ↑

42. رسائل أبي العلاء طبعة مرغوليوث ص 26. ↑

43. الأغاني ج 10 ص 130. ↑

44. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 44 ب. ↑

45. النّجوم الزّاهرة ج 2 ص 60. ↑

46. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 53. ↑

47. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 409 - 410؛ والمواعظ والاعتبار ص 319. ↑

48. كتاب الدّيارات ورقة 81 أ. ↑

49. المواعظ والاعتبار ج 1 ص 207، نقلاً عن المُسبَّحي المتوفى عام 420 هـ 1029 م. ↑

50. مُروج الذّهب ج 8 ص 161 وما بعدها، وقد أضيفت هذه القصّة في المستطرف (ج 2 ص 203) إلى شخصية أكثر جاذبية، هي شخصية الرّشيد. وتكلم عن الحاكية الجاحظ في البيان والتّبيين (ج 1 ص 31) والثّعالبي في ثمار القلوب ZDMG V. ↑

51. يتيمة الدّهر ج 2 ص 42، وكتاب ثمار القلوب ZDMG V. ↑

52. حكاية أبي القاسم نشرة مِتس Mez. ↑

53. Maltzan, II, S. 119. ↑

54. E. Sachau, Am Euphrat und Tigris, S. 655 f. ↑

55. المواعظ والاعتبار ج 1 ص 208 نقلاً عن المُسبَّحي. ↑

56. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 15 أ-ب. وانظر الفصل الخاص بالأعياد. ↑

57. المقدسي ص 35، 47، ورويت تقسيمات للبلاد لوحظ فيها العوائد النّفسية كقول الجاحظ: إن الأمصار عشرة: الصّناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والخير ببغداد، والغدر بالرّي، والحسد بهَراة، والجفاء بنيسابور، والبخل بمرو، والطّرمذة بسَمَرقند، والمروءة ببلخ، والتّجارة بمصر، (انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ورقة 15 أ). ↑

58. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 282. ↑

59. الإصطخري ص 58. ↑

60. كان الشّافعية بنوع خاص متشددين في ذلك؛ انظر حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 155. ↑

61. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 76 حيث ذكر عدد الحمّامات بدلاً من عدد المساجد، ويذكر اليعقوبي (كتاب الجغرافية ص 250، 254) أنه كان بالجانب الشّرقي من بغداد ثلاثون ألفاً. ↑

62. تاريخ بغداد مخطوط باريس ورقة 15 أ. ↑

63. الإصطخري ص 49. ↑

64. جغرافية اليعقوبي ص 361، وأحسن التّقاسيم للمقدسي ص 117. ↑

65. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 198-199. ↑

66. رحلة ناصر خسرو، طبعة شيفر ص 145. ↑

67. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 61 وما بعدها. ↑

68. رحلة ابن جُبير ص 230-231. ↑

69. حكاية أبي القاسم ص 87. ↑

70. التّحفة البهيّة طبعة القسطنطينية عام 1306 هـ ص 37. ↑

71. ابن حَوْقَل ص 83. ↑

72. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 74. ↑

73. المصدر ذاته، ص 65، 67. ↑

74. البيان المُغرب في أخبار المغرب لابن عذاري المَرَّاكشي طبعة لايدن عام 1849 م ج 2 ص 247. ↑

75. الإصطخري ص 49، وابن حَوْقَل ص 96، وأحسن التّقاسيم للمقدسي ص 198. ↑

76. رحلة ناصر خسرو ص 70-71 من النّص الفارسي. ↑

77. ابن حَوْقَل ص 77. ↑

78. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 430-431. ومعجم ياقوت؛ وانظر Schwaz, Iran, S. 50. ↑

79. جغرافية اليعقوبي ص 266. ↑

80. وقد أصاب القاهرة فيما بعد ما أصاب غيرها من المدن، حتى نجد ابن سعيد في القرن السّابع يشكو ضيق دروبها وكثرة التّراب والأزبال فيها، وارتفاع مبانيها، حتى ضيقت مسلك الهواء والضّوء (المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 366). ↑

81. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 161. ↑

82. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 207. ↑

83. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 108 نقلاً عن المُسبَّحي. ↑

84. جغرافية اليعقوبي ص 250. ↑

85. الطّبري ج 3 ص 1440. ↑

86. كتاب الوزراء للصّابي ص 286. ↑

87. الإصطخري ص 290، وابن حَوْقَل ص 339. ↑

88. الإصطخري ص 316، وابن حَوْقَل ص 366. ↑

89. جغرافية اليعقوبي ص 274-275. ↑

90. رحلة ناصر خسرو ص 278. ↑

91. الإصطخري ص 255، وابن حَوْقَل ص 312، ومعجم البلدان لياقوت ج 4 ص 857. ↑

92. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 394. ↑

93. معجم البلدان لياقوت ج 1 ص 648، وعيون الأخبار طبعة بروكلمان ص 265. ↑

94. البيان والتّبيين للجاحظ ج 1 ص 31. ↑

95. ابن سعيد ص 33، ويقول ناصر خسرو عام 440 هـ إنه كان بمصر خمسون ألف حمار للكراء (ص 53 من الرّحلة). ↑

96. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 73. ↑

97. ابن حَوْقَل ص 309. ↑

98. كتاب الوزراء للصّابي ص 76. ↑

99. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 129-130. ↑

100. جغرافية اليعقوبي ص 240 وما بعدها. ↑

101. كتاب الوزراء ص 158. ↑

102. الأحكام السُّلطانية ص 404 وما بعدها من طبعة إنغر Enger. ↑

103. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 463. ↑

104. رسائل الصّابي طبعة بعبدا ص 113. ↑

105. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 147؛ وابن الأثير ج 8 ص 165. ↑

106. مقامات الهَمَذاني طبعة بيروت 1889 م ص 170. ↑

107. الأغاني ج 19 ص 147. ↑

108. سلسلة التّواريخ طبعة رينو ص 42. وقد كان بمصر منذ أول العصر الإسلامي نظام جوازات دقيق فيما يختص بالانتقال الدّاخلي C. H. Becker, Papyri Schott- Reinh. , 1, 40. حتى أنّه لم يكن يحقّ لأحد السّفر من مصر في العهد الطّولوني بغير «جواز» (المُغرب في حُلى المغرب لابن سعيد طبعة فولرز Vollers ببرلين ورقة 52 عام 1894). ↑

109. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 429. ↑

110. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 8 أ. ↑

111. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 291. ↑

112. تاريخ الشّيخ أبي صالح الأرمني ص 49 أ. ↑

113. وفي القرن الرّابع الميلادي كانت عادة الأطفال في هذا اليوم ببيت المقدس أن يدوروا حول جبل الزّيتون، وبأيديهم سعف النّخل وأغصان الزّيتون (انظر: Silviae Peregrinatio S. 91). ولا يزال الموارنة إلى اليوم يذهبون في يوم أحد الشّعانين إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزّيتون، ويباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمناً أوفر، فيجعل مقتنيها ابنه أو صبيًّا يحبّه فوقها، ويطوفون بها في الكنيسة بين أصوات الفرح، ثم يهجم القوم عليها ويأخذ كل منهم غصناً يحفظه للبركة. أمّا الأقباط فكانت عادتهم أن يقطعوا قلوب النّخل وسعفه وأغصان الزّيتون يوم سبت العازر، ويضفرونها زيتونة كبيرة بالصّلبان، ويكلّلونها بالشّموع، ويرفعونها إلى محلّ إقامة البطريرك؛ ثم توضع يوم الأحد أمام الهيكل، ويبتدئ البابا في القدّاس، وتحمل الشّجرة إلى كل ركن من أركان الكنيسة الأربعة ويقرأ أمامها في كل ركن من أحد الأناجيل الأربعة؛ ثم يأخذ النّاس منها على سبيل البركة، وكان البعض يدورون بالزّيتونة في الأديرة والطّواحين والأفران (مجلة المشرق ج 8) عام 1905 م (ص 342). ↑

114. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 264. ↑

115. الأغاني ج 19 ص 138. ↑

116. يحيى بن سعيد مخطوط باريس ورقة 118 ب. ↑

117. المصدر ذاته، وكان من العادات الخاصة بالنّصارى في هذا العيد لبس الثّياب البيض (ديوان الشّريف الرَّضي ص 917). ↑

118. الرّازي ترجمة موريتس شتاينشنايدر Moritz Steinschneider في Virchows Archiv, 36, S. 574. ↑

119. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 450. ↑

120. المصدر ذاته، ج 1 ص 157. ↑

121. المصدر ذاته، ج 1 ص 266. والمدخل ج 1 ص 305. ↑

122. كتاب الدّيارات للشُّابشتي ورقة 4 أـب. ↑

123. المصدر ذاته، ص 8 أ، وكتاب الآثار الباقية للبيروني ص 310. ↑

124. كتاب الدّيارات ورقة 18 أ،ب، والبيروني في الآثار ص 291. ↑

125. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 182. ↑

126. المصدر ذاته، ص 45. ↑

127. كتاب العلل مخطوط برلين رقم 8327 ورقة 32 أ. ↑

128. مسكويه ج 5 ص 479 وما بعدها. ↑

129. الآثار الباقية للبيروني ص 227. ↑

130. ابن الأثير ج 8 ص 222، وأبو الفداء تحت عام 323 هـ (ج 2 ص 388). ↑

131. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 192 أ. ↑

132. الآثار للبيروني ص 226. ↑

133. ابن مسكويه ج 5 ص 479 وما بعدها، وابن الأثير ج 8 ص 222 وما بعدها، وأبو الفداء تحت عام 323 هـ، وهو يقول إنه كان في ذلك السّماط ألف فرس وألف رأس بقر. ↑

134. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 265. ↑

135. يحيى بن سعيد، مخطوط پاريس ورقة 119 ب. ↑

136. مُروج الذّهب للمسعودي ج 2 ص 364-365. ↑

137. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 96. ↑

138. المصدر ذاته، نقلاً عن المُسبَّحي. ↑

139. كتاب الدّيارات ورقة 37 ب. ↑

140. مجلة المشرق ج 9 (عام 1906 م) ص 201. ↑

141. كتاب الدّيارات ورقة 21. ↑

142. المقريزي ج 1 ص 207 نقلاً عن المُسبَّحي. ↑

143. المصدر ذاته، ج 2 ص 96. ↑

144. المصدر ذاته، ج 1 ص 68-69. ↑

145. كتاب الدّيارات ورقة 22 ب. ↑

146. الآثار الباقية للبيروني ص 217. ↑

147. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 268. ↑

148. كتاب الدّيارات ورقة 14 أ-ب. ↑

149. تاريخ الطّبري ج 3 ص 2144. ↑

150. الآثار الباقية ص 215، 218. ↑

151. JA, 1847. I, P, 58. ↑

152. الولاة للكندي ص 294؛ والمقريزي في المواعظ والاعتبار ج 1 ص 267، «والنّيروز بمصر في أغسطس حيث يوقد النّاس النّار ويرشّون الماء»، انظر زيج قُرطُبة لسنة 961 م طبعة دوزي ص 58. ↑

153. المواعظ والاعتبار ج 1 ص 269، 493. ↑

154. وكذلك في أوروبا في الأيام التي بين ليلة الميلاد وليلة الغطاس، ففي بعض أجزاء ألمانيا يضرب الصّغار آباءهم وأقاربهم في عيد الميلاد، وكذلك في بلغاريا يضرب الخدم ساداتهم في رأس السّنة. ↑

155. الآثار الباقية للبيروني ص 266. ↑

156. مجلة المشرق مجلّد 3 ص 668. ↑

157. مُروج الذهب ج 3 ص 413، والآثار الباقية ص 225، والقزويني على هامش الدّميري ج 1 ص 127، والثّعالبي في مجلة ZDMG, VI, S. 389. ↑

158. يتيمة الدّهر ج 4 ص 65، والآثار للبيروني ص 223، وديوان كُشاجم في كثير من المواضع. ↑

159. مُروج الذّهب ج 3 ص 404، وسكردان السُّلطان على هامش المخلاة ص 163. ↑

160. يتيمة الدّهر ج 2 ص 58. ↑

161. فيما يتعلّق بشمال فارس انظر ابن الأثير ج 9 ص 41، وفيما يختص بمصر راجع المقريزي ج 1 ص 490، 493. ↑

162. كتاب الدّيارات ورقة 68 ب. ↑

163. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 488. ↑

164. تاريخ الطّبري ج 3 ص 117. ↑

165. الأغاني ج 3 ص 62. ↑

166. المقريزي ج 1 ص 387، وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 473 وما بعدها، ورحلة ناصر خسرو ص 158 من ترجمة شيفر، وما حكي عن المُسبِّحي في كتاب بيكَر Becker, Beiträge zur Geschichte Ägyptens, I, S. 70 ff. ↑

167. تاريخ بغداد، مخطوط باريس ورقة 14 ب، وابن تَغْري بَرْدي ج 2 ص 67. ↑

168. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 183. ↑

169. يتيمة الدّهر ج 3 ص 36. ↑

170. AGGW, 37 Nr. 126. ↑

171. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 432. ↑

172. الزّرقاوي ج 1 ص 164؛ وكان يفد إلى هذا العيد الذي يقيمه الأمير طوائف النّاس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين، بل ومن فارس؛ منهم العلماء والمتصوّفون والوعّاظ، والقراء والشّعراء، وهناك يقضون في أربلا من المحرم إلى أوائل ربيع الأول. وكان الأمير يقيم في الشّارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب، ذات طبقات كثيرة، بعضها فوق بعض،

تبلغ الأربع والخمس، ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيّال حتى أعلاها؛ ولم يكن للنّاس شغل إلا التّمشّي أمام تلك المناضد والتّمتع بما يُقَدم لهم؛ وكان الأمير في ليلة المولد نفسها ركب في الشّارع وبين يديه الشّموع العظيمة، كل منها مربوط في بغل؛ وكان العيد ينتهي بموكب ووليمة (ابن خلكان طبعة ستِنفِلد ج 1 ص 6). ↑

173. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 10 ب. ↑

174. كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ورقة 252 ب- 253 أ. ↑

175. كتاب الدّيارات ورقة 66 أ وما بعدها. ↑

176. المصدر ذاته، ص 66 ب. ↑

177. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ورقة 193 أ من مخطوط پاريس. ↑

178. كتاب الأغاني ج 5 ص 119؛ وكان أوّل ما يؤكل في حفلات الزّواج بحسب عادة أهل بغداد طعام الهريسة (ديوان ابن الحجاج ج 10 ص 79)، وكان النّثار أيضاً من العادات الّتي تعمل في الزّواج (يتيمة الدّهر ج 2 ص 20). ↑

179. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 141. ↑

180. المصدر ذاته، ج 1 ص 370؛ وكان بعض الكبراء يتّخذ لنفسه مزيناً خاصاً به (مسكويه ج 6 ص 247). ↑

181. مجلة المشرق عام 1908 م ص 614. ↑

182. يحيى بن آدم ص 86. ↑

183. Strabo XV, وكذلك يذكر سترابو 144، 137 ص Hirth نشرة هيرث .Chau-Ju-Kua 1 زراعة الأرز في العراق؛ ولكن لا بدّ أنها كانت قليلة، فلا نجد لها أثراً في التّلمود، ولا نجد له ذكراً بالكليّة في كتاب كراوس Krauss, Talmudische Archäologie؛ وكانت الحنطة التي تزرع في الشّام قبل الحنطة العراقية تسمى القمح، وهي تذكر في العهد القديم إلى جانب الحنطة العراقية، وهي التي نُقلت لمصر بهذا الاسم انظر: Kremer, SWA,) 1889). وفي العصر العربي كانت الحنطة لغة كوفية والقمح لغة شامية، وفي جزيرة العرب يسمّى البُرّ. البيان والتّبيين للجاحظ ج 1 ص 9). ↑

184. ابن حَوْقَل ص 173. ↑

185. ابن حَوْقَل، ص 272. ↑

186. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 203، وقد رآه عبد اللطيف في دمشق حيث كان قليلاً (رحلة عبد اللطيف البغدادي ترجمة دى ساسي ص 23). ↑

187. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 203. ↑

188. رحلة عبد اللطيف ص 23. ↑

189. المدخل لابن الحاج ج 3 ص 143. ↑

190. هزّ القحوف ص 160. ↑

191. طبعة إنغر Enger ص 304. ↑

192. ابن الفقيه الهَمَذاني ص 125. ↑

193. المصدر ذاته. ↑

194. رسائل الخوارزمي ص 49. ↑

195. الإصطخري ص 266. ↑

196. ابن حَوْقَل ص 124. ↑

197. كتاب الدّيارات للشُّابشتي نسخة برلين ورقة 65 أ. ↑

198. المسعودي ج 2 ص 438، والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 28. ↑

199. ص 228. ↑

200. ص 482. ↑

201. يتيمة الدّهر ج 3 ص 82. ↑

202. القزويني على هامش الدّميري ج 2 ص 30 وما بعدها، ولا نجد في إحصاء الفاكهة بالأندلس، وهو الذي جاء في زيج قُرطبة لسنة 961 م ذكراً للنّارنج ولا للأُترُجّ. ↑

203. خطط المقريزي ج 2 ص 237. ↑

204. ثمرات الأوراق ج 2 ص 224. ↑

205. يتيمة الدّهر، الصّابي ج 2 ص 47. ↑

206. المضاف والمنسوب للثّعالبي في مجلة ZDMG, VIII, 524 ويُروى أن ابن الرّومي مدح الوزير بقصيدة فسماها عامّة بغداد دار البطيخ تشبيها لها بالموضع الذي تباع فيه الفواكه على اختلافها (الفخري طبعة آل□ارت ص 299)؛ ويتيمة الدّهر (ج 2 ص 122) حيث يقول ابن لنكك: «كدار بطيخ تحوي كل فاكهة». ↑

207. الإصطخري ص 262. ↑

208. I, 24. ↑

209. لطائف المعارف للثّعالبي ص 129، ومعظم إقليم مرو في عصرنا صحراوي، ولكن بُخارى، وهي شبيهة بمرو في موقعها، مشهورة ببطيخها. ويذكر أن متولّي أمور الزّراعة في واشنطن استوردوا من البطيخ البُخاري إلى الولايات المتحدة أنواعاً وزرعوها وزاوجوا بينها وبين غيرها، فكانت أحسن بطيخ في الولايات المتحدة؛ انظر:

W. Busse, Bewässerungswirtschaft in Turan, S. 241. ↑

210. حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 229. ↑

211. W. Busse, Bewässerungswirtschaft in Turan, S. 319. ↑

212. وعلى أننا نجد اليوم أن حدود الإقليم الذي يزرع فيه شجر النّخل تنتهي بمدينة عانة على الفُرات وتكريت على دجلة، فقد كانت سنجار في ذلك العصر مدينة من مدن التّمر. (ابن حَوْقَل ص 149، وأحسن التّقاسيم للمقدسي ص 142). ↑

213. المقدسي ص 228، وفي وادي دراعة يكون التّمر رخيصاً جداً، حتى ربّما بيع في بعض السّنين الجيدة حمل الجمل بنصف دينار. انظر:

Rohlfs, Mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 44, 442. ↑

214. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 469. ↑

215. الإدريسي ص 4، 6، 21. ↑

216. الزّمخشري في تفسير قوله تعالى: {لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ} سورة النّور آية 35. ↑

217. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 174. ↑

218. مسكويه ج 6 ص 255. ↑

219. ابن حَوْقَل ص 47. ↑

220. Fischer, Mittelmeerbilder, Bd I. S. 432. ↑

221. رحلة ناصر خسرو ص 153؛ وكان شجر الزّيتون يزرع في نواحي الاسكندرية (أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 197). ويقول القلقشندي Wüstenfeld, S. 34، إن الزّيتون قليل بمصر، وكان يؤكل مملحاً. ↑

222. Krauss, Talmudische Archäologie, S. 226.

وانظر كتاب ماركو پولو Marco Polo I, 27 وقد جاء في التّلمود أنه كان في العراق بعض شجر الزّيتون Krauss, S. 215. ↑

223. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 162، 180، وكان لأهل مدينة البندقية أيام الحروب الصّليبية مزرعة قصب في مدينة صور Tafel und Thomas, Urkunden zur älteren Handels, II, S. 368. ↑

224. فيما يتعلّق بالقرن الرّابع انظر زيج قُرطُبة طبعة دوزي ص 25، 41، 91، وانظر Cron Moro Rasis في Mém. Acad, Madrid, VIII, 37, 38, 56. ↑

225. الهَمَذاني طبعة مولر ص 198. ↑

226. ابن حَوْقَل ص 248، وياقوت ج 2 ص 467، وجغرافية أبي الفداء طبعة رينو ص 52، وبحيرة وأن بحيرة ملحة Le Strange, Mustawfi, p. 51. ↑

227. أبو الفداء، ج 2 ص 215. ↑

228. ابن حَوْقَل ص 213، لا «الذي يشبه طعمه طعم الشّمندر» Le Strange, The Lands of the eastern Caliplate, 258 ↑

229. يتيمة الدّهر ج 4 ص 107.ذاك الذي يحسب في شكله

قطاع كافور عليها عبير ↑

230. الإصطخري ص 274. ↑

231. لطائف المعارف ص 214. ↑

232. الإدريسي ص 188. ↑
233. الإصطخري ص 244. ↑
234. Revue du Monde Musulman, V, 5, P. 137. ↑
235. Chau-Ju-Kua, trans, Hirth, 224. ↑
236. المصدر ذاته، ص 193، وانظر سلسلة التّواريخ طبعة رينو ص 36. ↑
237. الإصطخري ص 25، والهَمْداني ص 200. ↑
238. جغرافية اليعقوبي ص 366. ↑
239. كتاب البدء والتّاريخ للمُطهَّر المقدسي ج 4 ص 72؛ وجغرافية البكري، طبعة دى سلان De Slane ص 5. ↑
240. الإدريسي ص 14؛ وكان النّيل المصري يعدّ أقلّ جودة من الهندي (رحلة عبد اللطيف ص 36). ↑
241. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 180. ↑
242. ابن حَوْقَل ص 124؛ وأحسن التّقاسيم للمقدسي ص 174، والإدريسي، ص 5. ↑
243. المقريزي في المواعظ والاعتبار ج 1 ص 272 وقد تكلّم ماركو بولو (3/25) عن صناعة النّيل بالهند. ↑
244. الإصطخري ص 188. ↑
245. المصدر ذاته، ص 190. ↑
246. الجوهري تحت كلمة ورس؛ وفقه اللغة للثّعالبي طبعة القاهرة ص 113؛ والهَمْداني ص 100؛ وعجائب المخلوقات للقزويني ج 2 ص 76. ↑
247. تاريخ الطّبري ج 3 ص 1449. ↑
248. Karabacek, Die Persische Nadelmalerei, S. 52 ff. ↑
249. المَقَّري ج 1 ص 48؛ وانظر Moro Rasis, p. 50 ↑

250. Berthelot, La chimie au moyen age, II, عن رسالة في الكيمياء العربية في كتاب P. 63, 145, note 4. ↑

251. ابن حَوْقَل ص 248. ↑

252. الإدريسي، ص 39. ↑

253. يقول ناصر خسرو (Tr. p. 10 v. Richthofen, China, I, S. 560) إن بقمة جبل دماوند بئراً يخرج منها النّوشادر والكبريت؛ ويصعد على الجبل رجال يحملون جلود البقر، فيملؤونها بالنّوشادر، ثم يدحرجونها من قمة الجبل. ↑

254. الإصطخري ص 237، وابن حَوْقَل ص 38 d. ↑

255. مُروج الذّهب ج 1 ص 346-347. (Eng. Tr. pp. 359-60 Tr). ↑

256. JA, 1847, I,P. 63. ↑

257. v. Richthofen, China, I, S. 560. ↑

258. كشف المحجوب ص 407 من ترجمة نيكولسون. ↑

259. انظر مقال فريدريشن Friedrichen, Zeitsch. Gesell, Erdkunde, Berlin, 1899, S. 246. نقلاً عن كتاب كلاپروت Klaproth, Tableaux historiques de l'Asie, p. 110. ↑

260. Gartenflora, 28th year, Jahrg. 1879, p. 40. ↑

261. المصدر ذاته، ص 247. ↑

262. تجد هذا مفصلاً أوسع تفصيل في جغرافية اليعقوبي ص 334 وما بعدها. ↑

263. كانوا يعملون على المواضع بالرّماد أو الطّباشير، انظر پتاخيا Petachjä في JA, VIII, P. 384. ويظهر أن هذه الطّريقة في البحث عن الذّهب كانت مألوفة في جميع بلاد الشّرق الأدني، فيحدثنا تشانغ تي Chang-Te الرّحالة الصّيني الذي رحل إلى الغرب عام 1259 م أن الذّهب يوجد بأرض مصر، وبالليل ترى أشياء مضيئة في بعض المواضع، فيعلّم النّاس عليها بالرّيش والفحم، فإذا حضروها بالنّهار عثروا على قطع كبيرة من الذّهب Bretschneider, Mediaeval Researches, I, p. 142. ↑

264. الإدريسي طبعة دوزي ص 26. ↑

265. الإصطخري ص 288. ⇡

266. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 196-197. ⇡

267. الإدريسي طبعة دوزي ص 8. ⇡

268. J. Marquart, Die Beninsammlung, S. CII

نقلا عن أحد المراجع البرتغالية؛ ويجد القارئ عند مارك□ارت في قائمة محتويات الكتاب تحت كلمة Gold كل ما له قيمة من المعلومات عن استخراج الذّهب وتجارته في الجنوب. ⇡

269. ابن حَوْقَل ص 327. ⇡

270. معجم البلدان ج 1 ص 743 وما بعدها. ⇡

271. ابن رُستِه ص 156. ⇡

272. الإصطخري ص 268. ⇡

273. ابن رُستِه ص 156. ⇡

274. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 324. ⇡

275. ابن حَوْقَل ص 214، وابن الفقيه الهَمَذاني ص 254. ⇡

276. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 184، والإدريسي، طبعة براندل ص 22، وقد كتب أولريخ ياسپر زيتسن Seetzen في عام 1805 م ما هو أوفى من ذلك فيما يتعلّق باستخراج الحديد في لبنان U. J. Seetzen, Reisen 1, 189. ⇡

277. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 470. ⇡

278. ابن حَوْقَل ص 328. ⇡

279. الإدريسي، نشرة دوزي، ص 26. ⇡

280. مسكويه ج 6 ص 263-264، والمُنتظَم لابن الجوزي ورقة 94 ب. ⇡

281. الإدريسي طبعة دوزي ص 212-213؛ ومحاسن التّجارة للدّمشقي طبعة القاهرة 1318 هـ ص 29. ويقول الدّمشقي إن أحسن الزّئبق ما جلب من المعدن الذي بقرب طُليطلة. ⇡

282. ابن حَوْقَل ص 362، 397. ↑

283. محاسن التّجارة للدّمشقي ص 16؛ وانظر بِن□ينوتو چلّيني Benvenuto Cellini, II 13. فكانوا يخلطون الألماس المجروش بالطّعام، وهو لَيس سماً بذاته، ولكنه بسبب صلابته الشّديدة وزواياه الحادة لا يستدير كغيره من الأحجار إذا ابتلعها الإنسان، بل إذا دخل مع الطّعام في الجسم فإنه يلتصق أثناء الهضم بجدران المعدة والأمعاء، فإذا ضغطه الطّعام خرق الموضع الذي التصق به ومات الإنسان من فوره؛ وليس من بين الأحجار الأخرى حتى الزّجاج ما يلتصق التصاق الماس، بل هي تمرّ مع الطّعام. ↑

284. لطائف المعارف للثّعالبي ص 15؛ ويذكر ماركو پولو Marco Polo, Lemke p. 93 أن الفيروزج يوجد بكرمان أيضاً. ↑

285. Fraser, Journey into Khorasan, London, 1852. p. 407 ff وقد وصف بريكتو Bricteux في كتابه Au Pays du lion et du soleil, p. 251-55 نقلا عن غروتِه Grothe, Persien, 19. العمليات التي تجري اليوم لاستخراج الفيروزج بنيسابور. ↑

286. محاسن التّجارة ص 16. ولعل هذا نقل عن أحوال القرن السّادس الهجري. ↑

287. المصدر ذاته، ص 17. ↑

288. أحسن التّقاسيم للمقدسي ص 101. ↑

289. ابن حَوْقَل في كلامه عن بذخشان. ↑

290. المقريزي ج 1 ص 193 نقلا عن الجاحظ، ومُروج الذّهب ج 3 ص 43 وما بعدها، وكان يوجد بالهند مثل هذا الزُّمُرُّد. ↑

291. مُروج الذّهب ج 3 ص 33. ↑

292. الهَمْداني ص 203. ↑

293. مُروج الذّهب، ج 4 ص 97، والمقدسي ص 228، وكتاب الجماهر للبيروني (Der Islam, II. 345. ff.) ويقول الرّحالة الصّيني تشاو - جو - كوا Chau-Ju-Kua عام 1300 م أن المرجان يوجد في غرب البحر الأبيض المتوسط (انظر ترجمة هيرث Hirth ص 154، 226). ↑

294. ابن حَوْقَل ص 51. ↑

295. المقدسي ص 236، والإدريسي طبعة دوزي ص 116. ↑

296. الإدريسي، طبعة دوزي ص 168. ↑

297. البيروني كتاب الجماهر 1. c. ↑

298. Marco Polo, I, ch,29. ↑

299. M. Hartmann, Chinesisch Turkestan, S. 63. ↑

300. Chu-Ju-Kua, S. 229. ↑

301. مُروج الذّهب ج 1 ص 328، والإدريسي طبعة جوبير Jaubert ج 1 ص 373 وما بعدها؛ وانظر ما ذكره پالغريـ Palgrave في كتاب Zehme, Arabien, S. 208. وقد غلط بنيامين التّطيلي (Benjamin, 89) حين حدّد أول الغوص بأنه في أكتوبر. ↑

302. عجائب الهند ص 135؛ والإدريسي ج 1 ص 373. ↑

303. طبعة أشير Asher ص 90. ↑

304. انظر كتاب Zehme, Arabien, S. 208. ويذكر غروتِهGrothe, Persien, S. 19. بحثاً صغيراً للفرنسي پيريز Perez عنوانه Six Semaines de dragages sur les bancs perliers du Golfe Arabe (Orleans, 1908) ↑

305. خزانة الأدب ج 1 ص 544، وترجم شعر الأعشى لايال Lyall في مجلة J. A. R. S. 1902 ص 461. ↑

306. مُروج الذّهب للمسعودي ج 1 ص 329 وما بعدها. ↑

307. كتاب الهند للبيروني ترجمة زاخاو ج 1 ص 211. ↑

308. الإدريسي طبعة جوبير ج 1 ص 373 وما بعدها. ↑

309. Chau-Ju-Kua, Trans. Hirth P. 229 f.

نقلاً عن الرّحالة لينغ واي تاي تا (Ling-wai-tai-ta) الذي كتب حوالي عام 1174 م. ↑

310. Bretschneider, Mediaeval Researches, I, 145. ↑

311. مُروج الذّهب للمسعودي ج 3 ص 8. ↑

312. .Chau- Ju-Kua p. 232 ↑

313. مُروج الذّهب ج 3 ص 8. ↑

314. المصدر ذاته، ج 3 ص 2. ↑

315. المقدسي ص 180، 203؛ وانظر: بنيامين التّطيلي Benjamin, ed. Asher, p. 30. والإصطخري ص 24، 35. ↑

316. المقدسي ص 100. ↑

317. رسائل الجاحظ ص 71. ↑

318. الإصطخري ص 312. ↑

319. المقدسي ص 283. ↑

320. الإصطخري ص 268. ↑

321. انظر الفصل الخاص بالملاحة البحريّة. ↑

322. الإصطخري ص 63. ↑

323. الإدريسي طبعة دوزي ص 190، 280. ↑

324. ابن حَوْقَل ص 272. ↑

325. الإصطخري ص 212. ↑

326. المقدسي ص 470. ↑

327. ابن الفقيه الهَمَذاني ص 254. ↑

328. فيما يتعلّق بتُركستان انظر كتاب بُوسّه Busse ص 55. ↑

329. كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 63. ↑

330. مسكويه ج 6 ص 376. ↑

331. المصدر ذاته، ج 6 ص 219. ↑

332. مفاتيح العلوم طبعة □ان □لوتن ص 68. ↑

333. الإصطخري ص 261 وما بعدها؛ والمقدسي ص 330. ↑

334. مفاتيح العلوم ص 68 وما بعدها. ↑

335. المقدسي ص 231. ↑

336. جغرافية اليعقوبي ص 274، والمقدسي ص 329؛ وما ذكره شيفر في رحلة ناصر خسرو ص 278؛ وانظر الفصل الخاص بالمدن ص 22. ↑

337. فيما يتعلّق بنظام الكاريس انظر: W. Busse, Bewässerungswirtschaft in Turan, S. 321 ff; Sven Hedin, Zu Land nach Indien, I. 184 ; Grothe, Wanderungen in Persien, 1910, S. 105. ↑

338. مفاتيح العلوم ص 71. ↑

339. جغرافية اليعقوبي ص 313. ↑

340. الجوهري تحت كلمة دلو. ↑

341. المقدسي ص 411، 444. ↑

342. تاريخ الطّبري ج 1 ص 827، وانظر ترجمة الجزء الخاص بفارس من تاريخ الطّبري لنولدِكِه ص 33، حاشية 2. ↑

343. المقدسي ص 444. ↑

344. المقدسي ذاته، ص 411؛ وياقوت ج 1 ص 411-412 نقلا عن أبي دُلَف. ↑

345. الهَمْداني ص 138. ↑

346. ص 112. ↑

347. v. Busse, Bewässerung… S. 111. ↑

348. v. Schwarz, Turkestan. S. 341 ff, Busse, S. 32. ↑

349. v. Middendorf, Mem. Acad. St. Petersbourg, VII, Bd. 29. ↑

350. ↑ .Sykes, A travers la Perse Orientale, Paris, Hachette, 1907. p. 193

351. الإصطخري ص 244. ↑

352. ↑ Sykes; Sven Hedin, Zu Land Nach Indien, II, 331. I c

353. المقدسي ص 206. ↑

354. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 2 ص 185. ↑

355. المقدسي I c. ↑

356. رحلة ناصر خسرو ص 118. ↑

357. المقدسي ص 357. B G IV, p 288 ↑

358. البكري طبعة دى سلان ص 48، واليوم يُحسب الوقت الذي تروي فيه كل عائلة من العائلات بمدينة سوس بأن يوضع إناء مخروق في حوض كبير به ماء، فإذا أمتلأ الاناء ماء ووصل إلى قرار الحوض انتهى وقت السّقي (انظر M. Zeys, Une Française au Maroc, p. 78. ↑

359. ابن حَوْقَل ص 299. ↑

360. معجم البلدان لياقوت ج 1 ص 86، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ص 3. ↑

361. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 306. ↑

362. ابن البلخي في مجلة JRAS, 1902. P. 329. (كتب ابن البلخي حوالي عام 500 هـ 1107م). ↑

363. ↑ .De Goeje, Mem. Sur les Carmathes, p. 29

364. ↑ .v. Schwarz, Turkestan, p. 365

365. ↑ Berlin, P. 1861 s. 66

366. .De Goeje, Memoires, 22 f

وفي حوادث عام 270 هـ 883 م أن أحمد ابن طولون صاحب مصر والشام أكثر من لبن جاموس قدّم له، فأصابته تخمة، ومات (تاريخ أبي الفداء ج 2 ص 270)، وكذلك كان من الأشياء التي أحصاها المقدسي بفلسطين لبن الجاموس في القرن الرّابع (المقدسي ص 181). ↑

367. المقدسي ص 116، ويحكي ابن خُرداذبِه (ص 15) أن الحجاج منع من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزّراعة. ↑

368. ابن حَوْقَل ص 208. ↑

369. حكاية أبي القاسم طبعة متس، وكذلك كانت قبائل القرغيز متأثرة بالطبّ العربي، فهم لا يأكلون لحم البقر، ولا يأكله الفقراء إلا مكرهين، وهم يزعمون أنه عسير الهضم، فهو أضر شيء بالصّحة، وأنه يحدث آلام المعدة والرّأس. (Radloff, Aus Sibirien, II, S. 439). ↑

370. كتاب طب الفقراء، مخطوط ميونيخ ورقة 68. ↑

371. ابن رُستِه Bible. Geog. VII ص 112. ↑

372. نقلاً عن Glasser في كتاب Jacob, Altarab, Beduinenleben, p. 94. ↑

373. البكري طبعة دى سلان ص 5. ↑

374. الإصطخري ص 280. ↑

375. المقدسي ص 482. وانظر كلمة فالج عند الجوهري. ↑

376. مُروج الذّهب ج 3 ص 41. وفيما يتعلّق بما كانت تقطعه الجمازات وتقوم به، انظر الفصل الخاص بالتّجارة. ↑

377. المقدسي ص 145. ↑

378. Marco Polo, P. 91, 454. ↑

379. البكري ص 148؛ وانظر Marquart, Die Beninsammlung, S. CLXVII وهو يقول إن اسم جزر كناريّا مشتق من ذلك. ↑

380. رحلة عبد اللطيف البغدادي، ترجمة دى ساسي ص 135 وما بعدها، وفي حاشية رقم 3 جمع دى ساسي النّصوص القديمة. ↑

381. Geoponica, 13, 6. ↑

382. المقدسي ص 162. ↑

383. تاريخ الشّافعية: Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 129. ↑

384. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 52. ↑

385. حكاية أبي القاسم صفحة 36. ↑

386. Plinius, Hist. Nat. 14. ↑

387. وحتى أواخر القرن الثّامن عشر كانت مصر تصدر الكتّان إلى الشّام وتستورد منها القطن. (Brown, Travels in Africa, London, 1799 p, 354). ↑

388. المقدسي ص 203؛ ارتفع سعر القمح بمصر، حتى مات النّاس من الجوع والجهد، وكانوا يأكلون بذور الكتّان (يحيى بن سعيد ورقة 78 أ) انظر Eutychius p. 71. ↑

389. المقدسي ص 442. ↑

390. المصدر ذاته، ص 202. ↑

391. العقد الفريد ج 1 ص 46. ↑

392. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 163. ↑

393. حكاية أبي القاسم ص 93، 109. ↑

394. الفِهْرِسْت ص 285. ↑

395. ابن حَوْقَل ص 101. ↑

396. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 177، وابن دقماق ج 2 ص 79. ↑

397. ابن حَوْقَل ص 105. ↑

398. الموشّى للوشّاء طبعة برونو ص 124؛ وكتاب مرآة المروءات للثّعالبي مخطوط برلين رقم pet. Fol. 59 ورقة 129 ب؛ وحكاية أبي القاسم ص 33. ↑

399. المواعظ والاعتبار ج 1 ص 177. ↑

400. ابن دقماق ج 2 ص 79. ↑

401. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 229. وذكر ياقوت (معجم البلدان) في العصر المتأخر بلداً بالعراق تسمى الدَّبيقية لم أر لها قط ذكراً في القرن الرّابع، وهذا لا يدلّ على انتقال صناعة الكتّان المصرية إلى هناك، فربّما يكون هذا الموضع سمّي بذلك نسبة للقماش الدّبيقي المشهور، كما سمي موضع قرب بغداد باسم سوسنجرد (انظر Carabacek, Die Persische Nadelmalerei, S. 117). ↑

402. معجم البلدان لياقوت ج 1 ص 190. ↑

403. رحلة ناصر خسرو ص 51 من النّص الفارسي p. 36. وحكاية أبي القاسم ص 53-54 مثلاً. ↑

404. رحلة ناصر خسرو ص 36 من ترجمة شيفر؛ وحكاية أبي القاسم ص 3. على أن مؤلفي القرن الرّابع لم يصفوا أبا قلمون هذا، فهو عند المقدسي (ص 240) من عجائب المغرب، ويصفه بأنه دابّة تحتك بحجارة علي شط البحر؛ وهو عزيز الوجود يجمع وتنسج منه ثياب تتلوّن في اليوم ألواناً، وربّما بلغ الثّوب منه عشرة آلاف دينار، وفي القرن الخامس الهجري وجدت مرتبة قلموني في خزائن الفرش والأمتعة التي للفاطميين (المواعظ والاعتبار جزء ص 416). ↑

405. ميخائيل السّرياني نشرة شابو Michael Syrus, ed. Chabot, 516. ↑

406. انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية. ↑

407. المقدسي ص 433. ↑

408. المقدسي ص 435. ↑

409. JRAS, 1902, S. 337. ↑

410. يقول الثّعالبي: وقد علم النّاس أن القطن لخُراسان وأن الكتّان لمصر (لطائف المعارف ص 97). ↑

411. Bretschneider, Mediaeval Researches. I. S. 70, 31. ↑

412. ابن حَوْقَل ص 328. ↑

413. W. Busse, Bewässerungwirt. in Turan, S. 72. ↑

414. انظر الفصل الخاص بالمالية. ↑

415. البكري طبعة دى سلان ص 59، 69. ↑

416. Moro Rasis, p. 56. ↑

417. ابن حَوْقَل ص 223. ↑

418. المقدسي ص 323، ابن حَوْقَل ص 316، وابن الفقيه الهَمَذاني ص 320، ولطائف المعارف ص 119. ↑

419. الدّيوان طبعة بيروت ص 17. ↑

420. ص 37. ↑

421. يتيمة الدّهر ج 2 ص 62. ↑

422. ابن حَوْقَل ص 362. ↑

423. Vámbéry, Geschichte Bocharas, S. 63. ↑

424. ابن حَوْقَل ص 2. ↑

425. لطائف المعارف للثّعالبي ص 131، بل كان الدّيباج يجلب إلى بلاد المسلمين من فرنسا (ياقوت ص 270). ↑

426. الإصطخري ص 212، وابن حَوْقَل ص 272. ↑

427. ابن حَوْقَل ص 246، وهذه الصّناعة هي أغلى الصّناعات ببغداد اليوم، وكان المعروف أن أصل القز بجُرجان وطبرستان جاء من مرو (ابن حَوْقَل ص 316)؛ وفي القرن الرّابع كان بزر الإبْرَيْسَم يؤخذ كل سنة من جُرجان إلى طبرستان (ابن حَوْقَل ص 272). ↑

428. Karabacek, Die Persische Nadelmalerei Sûsangird, Leipzig, 1881. ↑

429. لطائف المعارف للثّعالبي ص 111، 222، وحكاية أبي القاسم ص 36. ↑

430. الأغاني ج 5 ص 173. ↑

431. مُروج الذهب ج 6 ص 334. ↑

432. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 48. ↑

433. مسكويه ج 5 ص 389. ↑

434. Elias Nisib. S. 202. ↑

435. الإصطخري ص 153. ↑

436. ابن رُستِه ص 153. ↑

437. لطائف المعارف ص 128، ويلي ذلك صوف تكريت ثم صوف فارس، ويرجع أصل هذا النّص الذي ذكره الثّعالبي إلى كتاب التّجارة للجاحظ (انظر مجلة جمعيّة المستشرقين الألمان ZDMG, VIII, 529). ↑

438. مُروج الذّهب للمسعودي ج 2 ص 102. ↑

439. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 416-417. ↑

440. جغرافية اليعقوبي ص 331. ↑

441. ابن رُستِه ص 186. ↑

442. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 52، والمقريزي ج 1 ص 417، وانظر v. Kremer, Kulturgeschichte, II. 289. ↑

443. المقدسي ص 118. ↑

444. المصدر ذاته، ص 203، 442. ↑

445. الإصطخري ص 93. ↑

446. المقدسي ص 443. ↑

447. الإصطخري ص 153، وابن حَوْقَل ص 213. ↑

448. ابن حَوْقَل ص 213. ↑

449. المقدسي ص 408 مثلاً، ومفاتيح العلوم ص 71. ↑

450. المقدسي ص 401، 406. ↑

451. ابن حَوْقَل ص 222. ↑

452. المقدسي ص 125. ↑

453. الإصطخري ص 273 بخُراسان؛ ويظهر أن إدارة الطّواحين على الدّواب لم تكن عادة أهل فارس؛ ويذكر عن أهل مدينة خلار، التي كانت تمدّ فارس كلها بحجارة الطّواحين، أنهم يطحنون غلالهم في القرية المجاورة لهم، لأنه لم يكن في بلدهم رحى مائية (ابن البلخي الذي كتب بنواحي عام 500 هـ / 1107 م فيJRAS, 1902. S. 335). ↑

454. البكري طبعة دى سلان ص 162. ↑

455. ابن حَوْقَل ص 147-148. ↑

456. جغرافية اليعقوبي ص 243. ↑

457. مُروج الذّهب للمسعودي ج 4 ص 227. ↑

458. ابن حَوْقَل ص 299، والمقدسي ص 333. ↑

459. Sven Hedin, Zu Land nach Indien, Bd. II, S. 147. ↑

460. مطالع البدور للغزولي طبعة مصر 1299 هـ ج 1 ص 50؛ أما الطّواحين الفارسية التي ذكرها البكري (طبعة دى سلان ص 36) بشمال أفريقيا، وذكرها أبو صالح الأرمني في تاريخه (ص 63 أ)، فلا نجد لها ذكراً في المعاجم، ولكنها كانت تستعمل في تقطيع قصب السّكر. (Lippmann, Gesch. des Zuckers S. 110). ↑

461. وكان يصنع من البردى القراطيس أو الطّوامير، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر (حُسن المحاضرة للسّيوطي ج 2 ص 194)، ولا أدري معنى قول عمر بن أبي ربيعة «وقرطاسية قُوهيّة» (ديوان عمر، طبعة شد□ارتس، قصيدة رقم 32. ببيت 3 ص 30)، وربّما يكون الصّواب قَهويّة (يعني كلون الخمر). ↑

462. لطائف المعارف ص 126. ↑

463. جغرافية اليعقوبي ص 338. ↑

464. ابن حَوْقَل ص 86. ↑

465. Hehn, Kulturpflanzen, 8 Auf, S. 312. ↑

466. Karabacek: Mitteilungen aus den Papyrus Rainer, II/III S. 98. ↑

467. المصدر ذاته، ص 114 وما يليها. ↑

468. الإصطخري ص 288. ↑

469. المقدسي ص 180. ↑

470. رحلة ناصر خسرو ص 12، ويذكر الإدريسي في القرن السّادس أنه يُعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، وأنه يعم المشارق والمغارب (الإدريسي طبعة دوزي ص 192). ويقول كاراباتشيك (Karabacek, S. 121) إنه أنشيء مصنع لعمل الورق السَّمَرقندي ببغداد منذ القرن الثّاني الهجري؛ وهذا يعارض ما صرح به الإصطخري والثّعالبي، ويظهر أن الثّعالبي نقل عن مصدر قديم لعلّه كتاب التّجارة للجاحظ؛ هذا إلى عدم ذكر خبر هذا المصنع بالمرة في كتب المؤلفين القدماء مع أن منهم من كتب عن بغداد ووصفها وصفاً دقيقاً. والمصدر الوحيد الذي اعتمد عليه كاراباتشيك هو ابن خلدون، ولكنه متأخر جداً؛ ولم يذكر صاحب المواعظ والاعتبار وصاحب ديوان الإنشاء أكثر من استعمال الورق في ديوان هارون الرّشيد. ويذكر ياقوت (معجم البلدان ج 2 ص 522) أنه في عصره كان الكاغد يعمل بدار القز ببغداد. وقد أراد كاراباتشيك، متابعاً لكريمر، أن يتخذ ممّا قاله صاحب الفِهْرِسْت (ص 10) من أنه عثر على وثائق مكتوبة على ورق تهامي دليلاً على وجود موضع ثالث لعمل الورق على الشّاطئ الجنوبي الغربي لجزيرة العرب؛ وهذا غير محتمل قط، وهو يعارض ما ذكره الإصطخري. على أنه إذا كان الثّعالبي (ZDMG. VIII, 526) يثني على قراطيس مصر بأنها أحسن وأنعم وأرفق، فليس بواضح من ترجمة فون هامر، إن كان الثّعالبي يقصد البردي أم الورق؛ ويجوز أن الثّعالبي كان يتكلم مع ذلك عن عصور أقدم، وهذا يصبح مؤكداً، إذا عرفنا ما حكاه ياقوت (إرشاد الأريب ج 2 ص 412) من أن الوزير أبا الفضل بن الفُرات كان يستعمل له الكاغد بسَمَرقند ويحمل إليه بمصر في كل سنة (وتوفي ابن الفُرات هذا عام 391 هـ 1001 م) وأن أحد العلماء وقعت له جملة من كتب هذا الوزير؛ فكان إذا رأى ورقة بيضاء في أحدها انتزعها حتى عمل من ذلك كتبا كتب فيها، وهذا يدلّ على أن الكاغد لم يكن يعمل بمصر. ↑

471. رسائل الخوارزمي ص 25. ↑

472. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 447. ↑

473. الهَمْداني ص 132. ↑

474. المقدسي ص 141. ↑

475. المصدر ذاته، ص 180. ↑

476. المقدسي ص 356. ↑

477. I, 4. ↑

478. صحيح البُخاري: II, 4. ↑

479. كتاب الوزراء للصّابي نشرة أمدروز Amedroz ص 478. ابن الفقيه الهَمَذاني ص 270. ↑

480. يُسمّون الرَّذَنيّة Râdhânijjah ويقول سيمونسن Simonsen, Revue des études juives. 1907, S. 141 f. إنها نسبة إلى نهر الرّون Rhône، ولكن دى خويِّه لا يوافق على هذا التّفسير القريب De Goeje, Verslagen en Mededeelingen, Amsterdam, 1909, p. 253. ورأى أنه غير وجيه. وقد تكلّم بالبولوس Balbulus عن سفن اليهود في البحر الأبيض في ذلك العصر (آخر القرن التّاسع الميلادي) في حكايات شارل الأكبر، فقال: يرى الإنسان في مدينة من مدن الشّاطئ بغالة النّربونية سفنا يقول البعض إنها سفن يهودية ويقول البعض إنها أفريقية أو سفن لتجارة بريطانيين: Notker Balbulus, Karl. II, Kap. 14. ↑

481. ابن الفقيه الهَمَذاني ص 270. ↑

482. ابن خُرداذبِه ص 153، وابن الفقيه الهَمَذاني ص 270. ↑

483. ابن خُرداذبِه ص 154، وابن الفقيه الهَمَذاني ص 271. ↑

484. وذلك بإرسال أحمد بن فضلان، وقد وصل إلينا بعض ما حكاه. ↑

485. مُروج الذّهب ج 2 ص 15. ↑

486. Heyd, Levantehandel, I, 69. ↑

487. Schlumberger, Epopée Byzantine, S. 9. ↑

488. معجم البلدان لياقوت تحت كلمة صين نقلا عن أبي دُلَف. ↑

489. ابن حَوْقَل ص 281. وانظر: Dorn, Caspia, Mém, Acad. Petersbourg, 1875. ↑

490. ابن رُستِه ص 141. ↑

491. ابن حَوْقَل ص 281. ↑

492. Westberg, Ibrahim Ibn Ja'qûbs Reiseberichte, S. 53. 155. ↑

493. ابن حَوْقَل ص 225 وما بعدها، و Mérv. de l'Inde, 142. 144. 161. ↑

494. انظر الفصل الخاص بالملاحة البحريّة. ↑

495. ابن خُرداذبِه ص 70. ↑

496. Vogt, Basile, I. S. 393. ↑

497. المقدسي ص 123. ↑

498. Gelzer, Byzantinische Kulturgeschichte, 1909. S. 79.

وكذلك كان بين بيزنطة وبين كلو□يس Chlodwig ملك الفرنجة معاهدة كهذه. ↑

499. كتاب الخَراج، طبعة يوينبول ص 52. ↑

500. قُدامة بن جعفر ص 239. ↑

501. v. Kremer, Einnahmebudget. ↑

502. Graetz, Geschichte der Juden, V. 4. Aufl. S. 196. ↑

503. إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 153. ↑

504. كتاب الوزراء للصّابي نشرة أمدروز ed. Amedroz ص 202. ↑

505. الإصطخري ص 314، 323. ↑

506. المصدر ذاته، ص 156. ↑

507. انظر أيضاً رسائل الهَمَذاني طبعة القسطنطينية 1298 هـ ص 11. ↑

508. أمدروز (حاشية رقم 1 في كتاب الوزراء للصّابي ص 36)؛ وفي عام 330 هـ 942 م ضرب ناصر الدّولة بن حمدان ديناراً كاملا قيمته ثلاثة عشر درهماً، على حين أن الدّينارِ

كان يساوي من قبل عشرة دراهم JA, Sêr, VII, Bd. 15, 259 وكان الدّينار أحياناً يساوي خمسة عشر درهماً (عجائب الهند ص 52). ↑

509. JA, Sér. VII Bd. 14. p 524. ↑

510. Amedroz, JRAS, 1906, 475. ↑

511. ابن الجوزي ورقة 191 أ. ↑

512. كتاب الوزراء للصّابي ص 36 حاشية رقم 1. ↑

513. كتاب الوزراء للصّابي ص 402. ↑

514. مادة زبق عند الجوهري، وكانت الفضّة التي تضرب تذاب مع الزّئبق. انظر Amedroz, JRAS, 1906, P. 479. ↑

515. المقدسي ص 99. ↑

516. Abu Jûsuf JA, Sêr. VII, Bd, 19 S. 26. ↑

517. المصدر ذاته، ص 25-26. ↑

518. يجد الباحث بيانها عند R. Grasshoff, Die. Suftaga und Hawala der Araber, Jur. Dissert, Königsberg, 1891. ↑

519. مصارع العشاق ص 10. ↑

520. ص 64 من طبعة شيفر. ↑

521. المُغرب لابن سعيد ص 32. ↑

522. صحيح البُخاري طبعة 1309 هـ ج 1 ص 14، وكتاب الأغاني ج 5 ص 15، وديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 137، كتاب الوزراء للصّابي ص 77. ↑

523. ابن حَوْقَل ص 42، 70؛ وكانت المسافة بين سجلماسة وأودغشت إحدى وخمسين مرحلة (المُغرب للبكري ص 156؛ وما بعدها). ↑

524. البيهقي؛ نشرة شـ□الي Schawally. ↑

525. المصدر ذاته، ص 399. ↑

526. كتاب الدّيارات للشّابشتي ورقة 88 أ. ↑

527. رحلة ناصر خسرو ص 253 من التّرجمة؛ وقد مرّ ناصر خسرو بأصفهان عام 444 هـ 1051 م. ↑

528. رحلة ناصر خسرو ص 86. ↑

529. ولكن لم يكن هناك نظام الجيرو giros كالذي بلغ منتهى كماله في مصر على عهد اليونان. انظر Preisigke, Girowesen im griechischen Ägypten, Strassburg, 1910. ↑

530. كتاب البلدان Bibl. Geog. , V, 11. ↑

531. رسائل المَعَرِّي طبعة مرغوليوث ص 75. ↑

532. الإصطخري ص 19. ↑

533. ابن حَوْقَل ص 41. ↑

534. جغرافية اليعقوبي B. G. VII ص 327. ↑

535. يقول المقدسي (ص 35) من كان مراده التّجارة فعليه بمصر أو عدن أو عمان. ↑

536. لطائف المعارف ص 101. ↑

537. الكندي ص 402 نشرة غست Guest. ↑

538. المُغرب لابن سعيد نشرة تالكويست Tallquist 118 fol. ↑

539. المقدسي ص 338؛ وبأصفهان اليوم خمسة آلاف يهودي (انظر Jackson, Persia, p, 205)

↑

540. مسكويه ج 4 ص 408. ↑

541. انظر فصل الحاصلات. ↑

542. كتاب الهند للبيروني ج 1 ص 206. ↑

543. بطرس بن راهب (في مجموعة Petrus Ibn Rahib. Gorp. Scrip. Orient. Christianorum ص 132، وتاريخ الشّيخ أبي صالح). نشرة إيتس ed. Evetts, fol. 48a. ↑

544. الاتّعاظ للمقريزي ص 87. ↑

545. رحلة ناصر خسرو التّرجمة ص 159. ↑

546. v. Kremer, Einnahmebudget, S. 343. ↑

547. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 74. ↑

548. كتاب الوزراء للصّابي ص 178. ↑

549. المصدر ذاته، ص 159، وتذكر المصادر اليهودية يوسف بن فنحاس وصهره متيرا Metira زوج ابنته من بين أكبر رجال اليهود ببغداد (انظر: Grätz, Gesch. der Juden, V. 4 Aufl. S. 277). ↑

550. مسكويه ج 5 ص 408. ↑

551. ابن الجوزي ورقة 150 أ. ↑

552. انظر مادة بلط في تاج العروس. ↑

553. ولا يذكر هذا إلا منذ القرن السّادس الهجري، (انظر: Houtsma, Seldschuken, I, 48. ↑

554. Gelzer, Kulturgeschichte, S. 80. ↑

555. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 94، line 2 a f. ↑

556. المصدر ذاته، ص 381. ↑

557. كان الجهبذ ينتهي عمله ببغداد عند الظّهر (إرشاد الأريب ج 1 ص 399) وكانت هُرمُز مجمع تجارة كرمان وفرضة البحر، وهي وبندر عبّاس في أيامنا يسودها أردأ طقس، ولذلك لم يكن بها مساكن كثيرة، وإنما كانت مساكن التّجار متفرقة في قرى تمتدّ نحواً من فرسخين (الإصطخري ص 166). ↑

558. المقدسي ص 129. ↑

559. مقامات الهَمَذاني ص 57 وما بعدها من طبعة بيروت. ↑

560. الصّداقة والصّديق للتّوحيد. طبعة قسطنطينية 1301 هـ ص 48. ↑

561. تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 28. ↑

562. المقدسي ص 225-226. ↑

563. المصدر ذاته، ص 405-406، وكان على وادي درعة بمَرَّاكش سوق في كل يوم من أيام الجمعة لكثرة النّاس عليه (المُغرب للبكري نشرة دى سلان ص 152). ↑

564. Pückler, Semilasso in Africa, II. 107. ↑

565. Glasser, Petermannas Mitteilungen, 1886. S. 41. ↑

566. المقدسي ص 433. ↑

567. المصدر ذاته، ص 413-425. ↑

568. المصدر ذاته، ص 425، وكانت هذه المباني تسمى خانات، وفيما وراء النّهر كان الواحد يسمى تيما (مقدسي 31)؛ والدّكّان الواحد يسمى مخزِون (الكلمة الأوروبية magasin) والمخزن الكبير يسمى خانبار وجمعها خانبارات، (المُنتظَم ورقة 180 ب، 182 أ). ↑

569. ص 101. ↑

570. المصدر ذاته، ص 413. ↑

571. ونسب هذا القول إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلّم كما كتب غيره، (مختلف الحديث لابن قتيبة ص 90). ↑

572. طبقات السّبكي ج 2 ص 103. ↑

573. المدينة الفاضلة للفارابي طبعة فريدريش ديتريصي Friedrich Dieterici ص 90. ↑

574. المغرب لابن سعيد ص 17. ↑

575. الأوراق للصّولي ص 91. ↑

576. رحلة ناصر خسرو ص 152. ↑

577. Quatremère, Hist. des Mameloucs. P. 247. ↑

578. الأغاني ج 5 ص 119. ↑

579. الجامع الصّغير على هامش كتاب الخَراج لأبي يوسف، ص 78، 79. ↑

580. انظر زاخاو: Sashau, Muhammedanisches Recht. S. 278. ↑

581. الدّيوان ج 1 ص 135. ↑

582. مُروج الذّهب للمسعودي ج 4 ص 93. J. Marquart, Beninsammlung, CLXXX ff. ↑

583. Petachiâ, JA. 1831, P. 373. ↑

584. انظر: v. Kremer, Einnahmebudget, S. 343. ↑

585. Sachau. Syrische Rechtsbücher II. S. 157. ↑

586. ديوان ابن المُعتزّ ج 1 ص 136. ↑

587. إرشاد الأريب لياقوت ج 5 ص 458. ↑

588. محمّد بن الحسن على هامش كتاب الخَراج لأبي يوسف ص 78. ↑

589. Wansleb, Beschreibung Ägyptens, S. 63. ↑

590. وهذا يتفق مع ما كان واقعاً بالفعل، وإن كان الإصطخري (ص 99) ذكر في فارس وحدها اثني عشر نهراً كباراً «تحمل السّفن إذا أجريت فيها»؛ أما نهر هيدمند بسجستان، وهو ينبع من جبال هندكوش والجبال الهندو أفغانيّة أيضاً، فكانت تجري فيه السّفن إذا امتدّ الماء، (ابن حَوْقَل ص 301). ويذكر سترابو Strabo, XV, 1 أن الفنيقيين كانوا يسيرون سفنهم على نهر الأردن. أما في العصور الوسطى فكانت الملاحة على هذا النّهر نادرة، كما هي اليوم؛ فلم يكن هناك إلا سفن صغار يسافر النّاس عليها فوق البحيرة الميتة بين زعر والدّارة وأريحة وسائر أعمال الغور (الإدريسي طبعة براندل ص 4). ↑

591. وكان بين أهل كشمير وبين المنصورة مسيرة سبعين يوماً؛ فكانوا يركبون السّفن على نهر السِّند، وهو يزيد في وقت زيادة دجلة والفُرات، ويضعون جذور شجر المغاد في أكياس زنة

كل منها من سبعمئة إلى ثمانمئة رطل ويضعون الأكياس في جلود يطلونها بالقطر لكي لا ينفذ إليها الماء، ثم يحزمون الأكياس أزواجاً ليقعدوا أو يقفوا عليها، فيصلون المنصورة بعد سبعة وأربعين يوماً من غير أن تبتل الجذور (Mérv. de l'Inde, S. 104). ↑

592. انظر ميدندورف:

v. Middendorf, Mémoires de l'Académie de St. Petersbourg,VII, Bd. 29. S. 189. ↑

593. v. Schwarz, Turkestan, S. 425. ↑

594. مسكويه ج 6 ص 44، 57، 111. ↑

595. المُغرب ص 29. ↑

596. كتاب الوزراء للصّابي ص 310. ↑

597. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 125 مثلاً فيما يتعلّق بالقرن الرّابع. ↑

598. ابن خُرداذبِه ص 72. ↑

599. مُروج الذّهب ج 3 ص 40. ↑

600. كتاب الوزراء ص 257. ↑

601. ابن حَوْقَل ص 158. ↑

602. المقدسي ص 138. ↑

603. مسكويه ج 6 ص 234. ↑

604. المقدسي ص 124. ↑

605. الدّيارات للشّابشتي ورقة 17 أ، 26 ب، وكتاب تاريخ بغداد طبعة سلمون ص 36 ب، وهي تسمى السُّمَيريات المعبرانيات. ↑

606. مجلة المشرق ج 4 ص 992. ↑

607. كتاب الوزراء للصّابي ص 19. ↑

608. الطبري ج 3 ص 952 وما بعدها، وقد مدح أبو نواس الخليفة بقصيدة في هذه المناسبة. ↑

609. مُروج الذّهب للمسعودي ج 8 ص 377. ↑

610. كتاب العيون والحدائق III مخطوط برلين ورقة 183 ب. ↑

611. مسكويه ج 6 ص 218. ↑

612. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 477. ↑

613. ابن الجوزي نسخة برلين ورقة 125 أ. ↑

614. ابن أبي أصيبعة ج 1 ص 179؛ وانظر: Gildmeister, NGGW, 1882, S. 439. ↑

615. المقدسي ص 118. ↑

616. القمايا Qamaya (حكاية أبي القاسم ص 108)؛ ولا توجد في المعاجم. ↑

617. كتاب الدّيارات للشُّابشتي ورقة 38 ب. ↑

618. ابن رُستِه ص 135. ↑

619. يحيى بن سعيد ورقة 85 أ. ↑

620. رسائل ص 79. ↑

621. ديوان ابن الحَجَّاج مخطوط لندن 170 أ X, fol. 218. كتاب الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي ج 2 ص 107. ↑

622. المصدر ذاته، ج 2 ص 108. ↑

623. ثمار القلوب للثّعالبي في مجلة ZDMG, VIII, S. 306. ↑

624. مسكويه ج 6 ص 171 وما يليها؛ وابن الأثير ج 8 ص 362 – 368 وما بعدها. ↑

625. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 235. ↑

626. ابن حَوْقَل ص 119. ↑

627. ابن رُستِه ص 184. ↑

628. المصدر ذاته، ص 185. ↑

629. المقدسي ص 198. ↑

630. مُروج الذّهب للمسعودي ج 3 ص 40؛ وانظر حكاية عبد الله بن سليم في آخر القرن الرّابع الهجري عند المقريزي، وراجع: Marquart, Die Beninammlung, S. CCXLIX. ↑

631. الإدريسي طبعة دوزي ص 20-21. ↑

632. Marco Polo, I, p. 48. ↑

633. الهَمْداني ص 183، إن الطّريق الذي يكثر الاختلاف عليه يسمى المحجّة، وإن الطّريق المدروس يسمى الإيتار المليكي، ولا يقوله العرب إلا مصغَّرًا، والمقياس ملكي، وحبال الطّريق أيتاره. ↑

634. رحلة ناصر خسرو ص 118. ↑

635. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 213. ↑

636. كتاب الهند للبيروني ترجمة زاخاو ج 1 ص 22. ↑

637. رحلة تشان تشونغ Tschan Tschung عام 1221 م، وانظر بريتشنايدر Bretschneider, Mediaeval Researches, I, 89. ↑

638. الإصطخري، ص 197؛ رحلة ناصر خسرو ص 256. ↑

639. الإصطخري ص 290. ↑

640. ابن حَوْقَل ص 208. ↑

641. كتاب الفِهْرِسْت ص 343. ↑

642. المقدسي ص 418. ↑

643. كتاب الدّيارات للشُّابشتي ورقة 95 ب، 113 أ، وانظر Streck, Landschaft Balylonien, 179. ومعجم البلدان لياقوت ج 2 ص 645. ↑

644. ترجمة ستِنفِلد لصبح الأعشى للقلقشندي ص 82. ↑

645. ابن حَوْقَل ص 49. ↑

646. المصدر ذاته، ص 168. ↑

647. صورتها موجودة في كتاب Hugo Grothe, Geographische Charakterbilder aus der asiatischen Türkei. ↑

648. الكامل لابن الأثير ج 9 ص 210. ↑

649. Bretschneider, Med. Res. 1, 75. ↑

650. كتاب الوزراء للصّابي ص 257. ↑

651. Le Strange, p. 239. ↑

652. المقدسي ص 411. ↑

653. معجم البلدان ج 1 ص 416. ↑

654. ثمار القلوب للثّعالبي ZDMG, VIII 524 f. والإصطخري ص 62؛ والتّنبيه والإشراف للمسعودي ص 64، 144، والمقدسي ص 147 و Le Strange, the Lands of the eastern Caliphate, p. 124. ، وقد لاحظ بعض رحالة الرّومان أهمية هذه القنطرة، فيشار إليها في كتاب: Tab. Peut. بعبارة نحو قنطرة سنجة Pontem Singe، انظر: Miller, Itin. Romana p. 756. ↑

655. ابن حَوْقَل ص 170. ↑

656. كتاب البدء والتّاريخ للمُطهّر، نشررة هوار Huart، ج 4 ص 87. ↑

657. Sven Hedin, Du\rch Asiens Wüsten, II, 152. ↑

658. وتورد الرّوايات العربية ذلك، انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 229. ↑

659. وقد استعمل هذا اللفظ من قبل امرؤ القيس في شعره، انظر Ahlwardt, Six Diwans, p. 130. Vs. 27 ↑

660. ومعناها السّاعي على قدميه؛ ويلاحظ أثر كلمة ped الرّومية في هذه التّسمية، ولهذا اللفظ صيغة هندية هي كلمة بانك، انظر عجائب الهند ص 106. ↑

661. معناه الصّياد؛ وقد استعمل الخوارزمي في القرن الرّابع هذا اللفظ في رسائله (ص 53). ↑

662. ابن خُرداذبِه ص 112. ↑

663. الكامل للمبرد طبعة مصر 1308 ج 1 ص 286. ↑

664. سلسلة التّواريخ ص 113؛ وتحذيف أذناب الدّواب لتعليمها مذكور في الجاهلية (انظر Ahlwardt, Six Diwans, S. 138. Vs, 28). وذكر حمزة الأصفهاني (تاريخ سني ملوك الأرض ج 1 ص 39 طبعة غوت□الت Gottwaldt. أن كلمة بريد مشتقة من لفظ بريدة ذنب الفارسية؛ عربت وحذف نصفها الآخر؛ ونسخها الثّعالبي طبعة تسوتنْبِرغ Zutenberg ص 398. ↑

665. الفرسخ ثلاثة أميال - ابن خُرداذبِه ص 83، والمقدسي ص 65، وكتاب البدء والتّاريخ للمُطهَّر المقدسي نشرة هوار Huart ج 4 ص 85. ↑

666. مثال ذلك فيما يتعلّق بجزيرة العرب لدى قُدامة ص 190؛ وفيما يختص بالمشرق انظر ابن رُستِه ص 168. ↑

667. وكان في الهند من أقدم العصور أعمدة مُقامة كل عشر مراحل لتعليم الطّريق والمسافات، انظر Strabo, XV, 1. ↑

668. مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 63، والمقدسي ص 66، ويقول المقدسي إن في البريد خلافا، فهو بالبادية والعراق اثنا عشر ميلاً، وفي الشّام وخُراسان ستة، وهذا خلاف ما أورده قُدامة فيما يختص بالعراق؛ ويغلب على الظّن أن إطالة المسافة بين الأميال حدثت في زمن متأخّر عندما تحول العراق إلى صحراء، وقد قدر ابن خُرداذبِه سكك البريد في الدّولة الإسلامية كلها بتسعمئة وثلاثين سكّة (ابن خُرداذبِه ص 153). ↑

669. الأوراق للصّولي، مخطوط باريس ورقة 136. ↑

670. ابن خُرداذبِه ص 29. ↑

671. ابن حَوْقَل ص 130. ↑

672. أما الطّريق الكبير الذي يسير من المدائن إلى حرّان ماراً بحترا، والمبين في خارطة پُويْتينغر Peutinger فكان قد هجر منذ زمن بعيد. ↑

673. قُدامة ص 227 وما يليها. ↑

674. كان الطريق قديما يسير بحذاء الشاطئ الشرقي للفرات؛ انظر الخارطة التي وضعها پُويْتينغر. ↑

675. v. Kremer, Einnahmebudget, 307. ↑

676. الفرج بعد الشّدّة للتّنوخي ج 3 ص 76، وكان آخرون يأخذون طريقا آخر يتفرع من هذا عند نقطة أعلى، على مجرى الفرات، ثم يدورون حول الرُّصافة، ويسيرون إلى دمشق، وفي عام 440 هـ 1048 م فعل هذا ابن بطلان ليصل إلى حلب (أخبار الحكماء للقفطي ص 295)، وكان يخشى فيه من نهاية البدو، انظر الفرج بعد الشّدّة ج 2 ص 109. ↑

677. ابن رُستِه ص 167. ↑

678. المقدسي ص 278. ↑

679. Richthofen, China, I, 456. ↑

680. ضبط اسم هذا المكان وموقعه بعد نشر كتاب الجردوزي (طبعة بارتولد ص 89 وما بعدها) وربّما كان قول قُدامة (ص 208) إن أطباش مدينة علي عقبة مرتفعة بين التّبت وفرغانة ويوشجان، هي الحجة التي أسند إليها دى خويِّه في قوله إن يوشجان هي الأقليم الذي يقع حول خُتَن.De Goeje, De Muur van Gog en Magog, Vers, der Amsterd. Acad. 1888, 114.)؛ ولكن العبارة لا تستقيم مع هذا، لأن من الواضح أن الطّريق إلى ممرّ أوش نحو أوز كند يتجه إلى الشّمال، وتتجلى حقيقة الأمر إذا عرفنا أن حوض التّاريم كان بعد إذ ذاك داخلا في إقليم على ما حكاه أبو دُلَف (معجم ياقوت ج 3 ص 447). وقد ذكر المُطهَّر المقدسي (ج 4 من كتاب البدء والتّاريخ) أن خُتَن هي قصبة التّبت، وهذا يطابق ما ورد في النّصوص الصّينية، ففي القرن الثّامن الميلادي كانت البلاد الواقعة بين جبال التّين وتيان شان تؤدي الجرية إلى التّبت J. A. , 1900, XV, 24، وظلت التّبت محتفظة بها معظم القرن التّاسع، ثم انسلخت عنها، ودخلت في حوزة الأتراك الأويرانية والخرلوكية JRAS, 1898, S. 814. وفي قول ابن خُرداذبِه (ص 30) إن شرقي تُركستان كانت التّبت. ونجد الإدريسي (ترجمة جوبير ج 1 ص 490) في حوالي عام 550 هـ / 1150 م يسمى خُتَن قصبة التّبت. وأخيراً فإن ممّا يبطل رأي دى خويِّه ما جاء في كتاب أبي الفداء (طبعة رينو ص 505) نقلا عن البيروني والجردوزي والسّمعاني (توفي عام 562 هـ 1167 م) من تسمية خُتَن باسمها الحالي. ↑

681. ابن خُرداذبِه ص 28 وما يليها، وكتاب الخَراج ص 204 وما بعدها، والمقدسي ص 341. ↑

682. الجردوزي نشرة بارتولد Barthold ص 91. ↑

683. Richthofen, China, I, 540. ↑

684. S. Hedin, Durch Asiens Wüsten, I S. 466. ↑

685. Marquart, Osteuropäische Streifzüge, S. وانظر ،...De Goeje, De Muur 74 ff. ↑

686. Richthofen, China, I, 560،

وذكر ذلك أيضاً الرّحالة الصّيني وانج ين تي، الذي سافر بين عامي 981-983 م انظر: JA, 1847. Vol. I, 63. ↑

687. Richthofen, China, I, 562. ↑

688. كتاب البلدان لليعقوبي ص 287، وكتاب الخَراج لقُدامة ص 209 وما يليها. ↑

689. المقدسي ص 493؛ وفي عام 1881 م و1892 م أقام بعض أهل يزد بناءاً فخماً للمسافرين عند ملتقى الطّريقين من طهران إلى طبس ومن يزد إلى طبس وشماليها. انظر Sven Hedin, Zu Land nach Indien, II,73 ff. ↑

690. المقدسي ص 488 وما يليها. ↑

691. كتاب الخَراج لقُدامة ص 186. ↑

692. ابن الجوزي ورقة 71 أ. ↑

693. النّجوم الزّاهرة ج 1 ص 174. ↑

694. لهذا لا يتكلم قُدامة عن طريق السّاحلي. انظر كتاب الخَراج ص 222. ↑

695. ابن خُرداذبِه ص 89. ↑

696. المصدر ذاته، ص 55. ↑

697. J. Marquart, Beninsammlung, S. CV. ↑

698. ابن حَوْقَل ص 42-66. ↑

699. مُروج الذّهب ج 6 ص 263. ↑

700. المحاسن والمساوئ للبيهقي ص 429 من الطّبعة الأوروبية. ↑

701. فتوح البلدان للبلاذري ص 402. ↑

702. De Goeje, ZDMG, 52. S. 76. ↑

703. ابن طيفور fol. 131 b. ↑

704. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 53. ↑

705. المُنتظَم لابن الجوزي ورقة 34 ب، وراجع Quatremère, Hist, Maml. II, 289. نقلا عن كتاب الانشاء، ولا تزال كلمة ساع هي اسم حامل البريد إلى اليوم. ↑

706. المُنتظَم ورقة 34 ب، وابن الأثير ج 8 ص 425. ↑

707. الكامل لابن الأثير ج 8 ص 480، وانظر لطائف المعارف للثّعالبي ص 15، وهو يقول إن الجمّاز مشتق من فعل جَمَزَ jamaza، ولا تزال أسرع الجمال بفارس هي الجمال البلخية، والواحد منها يسمى جَمْبَس، ويقطع في اليوم مئة كيلومتر بلا أقل مشقة (انظر Sven Hedin, Zu Land nach Indien, II, 346) وكلمة جَمْبَس jambas غالباً اشتقاق عامّي من الفارسية. ↑

708. Führer Durch die Ausstellung Rainer S. 53. ↑

709. المَرُّاكشي ترجمة فانيان Fagnan ص 299. ↑

710. Diels, Antike Technik, S. 68. ↑

711. De Goeje, Mém. Sur les Carmathes, p. 207،

وكان أول ما ذكر خبر الحَمام الزّاجل بالصّين حوالي عام 700 م، والظّاهر أن تجار العرب أو الهنود كانوا أول من جلبه إلى هناك، (انظر ترجمة كتاب الرّحالة تشاو جو كوا Chau-Ju-Kua ص 28 حاشية رقم 2). ↑

712. كتاب الوزراء للصّابي ص 33. ↑

713. صلة تاريخ الطّبري لعريب بن سعد ص 110 وما يليها. ↑

714. مسكويه ج 5 ص 306، وابن الأثير ج 8 ص 135، 240. ↑

715. مسكويه ج 5 ص 298. ↑

716. المصدر ذاته، ص 416. ↑

717. المصدر ذاته، ج 6 ص 22، ونجد مثل هذا كثيراً في التّواريخ المتأخرة. ↑

718. ثمار القلوب للثّعالبي: ZGMG, VIII, S. 512. ↑

719. عُمدة الطّالب في أنساب آل أبي طالب للأصيلي، مخطوط باريس رقم arab. 636, fol, 171. a. ↑

720. المُنتظَم لابن الجوزي نسخة برلين ورقة 145 أ وانظر pigeon-telegrams مسكويه ج 6 ص 13، 19، 412. ↑

721. كتاب الأغاني ج 19 ص 147. ↑

722. سلسلة التّواريخ، طبعة رينو ص 42. ↑

723. C. H. Becker, Der Islam, II, 369. ↑

724. المُغرب لابن سعيد طبعة فولرز Vollers ص 53. ↑

725. المقدسي 429. ↑

726. ابن خُردادبِه ص 153؛ جغرافية الإدريسي طبعة براندل Brandel (أوبسالا) ص 2؛ والمواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 213؛ ومُروج الذّهب للمسعودي ج 1 ص 365. ↑

727. جغرافية الإدريسي l, c p. 29. ↑

728. ماركو بولو I. 18. ↑

729. مُروج الذّهب للمسعودي ج 1 ص 365. ↑

730. عجائب المخلوقات للقزويني ج 1 ص 172 (طبعة ُستِنفِلد)، وورد هذا التّعليل قبل ذلك في جغرافية الإدريسي (ترجمة جوبير، ج 1 ص 46) نقلاً عن كتاب العجائب للحسن بن المنذر (وهو من الذين ألفوا في العجائب) ثم القزويني طبعة ُستنفِلد I, 172 أما المُطهَّر المقدسي الذي ألف كتابه البدء والتّاريخ، وهو في وسط فارس بعيداً عن البحار، فقد خلط الأمر وقال إنه لا يمكن لأية سفينة أن تجري في البحر الغربي لأن جبال المغناطيس تجذب المسامير (طبعة هوار، ج 1 ص 89). ↑

731. Fr. Mirth, Die Länder des Islam nach chinesischen Quellen. ↑

732. رحلة ابن جُبير ص 253. ↑

733. Marco Polo, I. 18; III, 1. ↑

734. جغرافية الإدريسي طبعة براندل ص 2. ↑

735. مُروج الذّهب ج 8 ص 128. ↑

736. سلسلة التّواريخ طبعة رينو ص 16. ↑

737. المصدر ذاته، ص 17. ↑

738. Hirth & Rockhill, Chau-Ju-Kua. P. 9. ↑

739. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 204 نقلا عن كتاب النّبات للدّينوري وفي هذا الكتاب حرفت كلمة لبخ إلى بنج. ↑

740. وكانت مصر تستورد خشب السّفن من مدينة البندقية حتى أوائل القرن التّاسع عشر، كانت تأخذ بعض خشب الوقود من آسيا الصّغرى U. J. Seetzen, Reisen, III, 207 f. ويقال إنها في وقتنا هذا تستورد الخشب الذي تصنع منه أشرعة السّفن الجارية في النّيل من الغابة السّوداء في با□اريا. ↑

741. يحيى بن سعيد الأنطاكي ورقة 113 أ. ↑

742. المقدسي ص 12. ↑

743. Klaroth, Lettres sur l’invention de la Boussole, Paris 1834. ↑

744. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 210. ↑

745. Mérveilles de l’Inde, p. 87. ↑

746. المصدر ذاته، ص 30. ↑

747. المصدر ذاته، ص 46. ↑

748. ابن حَوْقَل ص 103، وقد ذكر ماركو بولو أن الملّاحين في المشرق إذا وجدوا الرّبح غير مواتية استعملوا أشرعة قوارب السّفينة متعارضة Marco Polo, III, 2. . ↑

749. عجائب الهند ص 7. ↑

750. Chau-Ju-Kua, S. 32. ↑

751. Gildemeister, GGN, 1882 S. 444. ↑

752. Chau-Ju-Kua, S. 28. ↑

753. عجائب الهند ص 46. ↑

754. جغرافية الإدريسي طبعة دوزي ص 214. ↑

755. كانت أنطاكية معتبرة في عهد پروكوپيوس Procopius أولى المدن الرّومانية في المشرق (انظر Heyd, Levantechandel, I, 24.). ↑

756. ابن خُرداذبِه ص 153، وانظر ميخائيل السّرياني نشرة شابو Michael Syrus, ed. Chabot, p. 521, 537. ↑

757. مُروج الذّهب للمسعودي ج 1 ص 332. ↑

758. جغرافية اليعقوبي ص 327. ↑

759. ابن حَوْقَل ص 46. ↑

760. كان العرب يظنون كما ظن القدماء قبلهم أن البحر في أقصاه مظلم، ولذلك كان أهل المشرق يسمون أقصى البحر بالبحر الزّفتي، لأن ماءه كدر ورياحه شديدة وهو دائم الظّلمة تقريباً، انظر جغرافية أبي الفداء طبعة رينو ج 2 ص 26. ↑

761. جغرافية الإدريسي طبعة دوزي ص 184. ↑

762. الإصطخري ص 30 ومُروج الذّهب ج 3 ص 56 والإدريسي، طبعة براندل ص 1. ↑

763. Wüstenfeld, Qalqaschandi, 169.

ترجمة من صبح الأعشى ج 3 ص 468). ↑

764. رحلة ناصر خسرو ص 64 من الأصل الفارسي، وقد زار هذا الرّحالة عيذاب عام 442 هـ 1050 م. ↑

765. المواعظ والاعتبار للمقريزي ج 1 ص 194-197، ص 202-203. ↑

766. جغرافية الإدريسي، ترجمة جوبير،ج 1 ص 133. ↑

767. ص 66. ↑

768. مُروج الذّهب ج 1 ص 233. ↑

769. المصدر ذاته، ج 3 ص 31. ↑

770. المصدر ذاته، ج 3 ص 6. ↑

771. جغرافية الإدريسي (ترجمة جوبير) ج 1 ص 65. ↑

772. انظر مثلاً ما كتبه شورتس Schurtz في كتاب: Helmholt, Weltgeschichte, III, S. 428. ↑

773. ابن رُستِه p. 86 foll. ↑

774. ميخائيل السّرياني نشرة شابو Michael Syrus, ed. Chabot, P. 514. ↑

775. المقدسي ص 12. ↑

776. مُروج الذّهب للمسعودي ج 3 ص 37، والمقدسي ص 14. ↑

777. فهرس المكتبة الجغرافية ص 951؛ وعجائب الهند ص 193. ↑

778. المقدسي ص 34. ↑

779. المصدر ذاته، ص 97. ↑

780. الإصطخري ص 34. ↑

781. سلسلة التّواريخ، طبعة لانغليه Langlés ص 51 (ألّف هذا الكتاب حوالي عام 300 هـ). ↑

782. البلخي JRAS, 1912, P, 188. ↑

783. ص 206. ↑

784. الإصطخري ص 138. ↑

785. عجائب الهند ص 98. ↑

786. وليس هو قائد السّفينة، لأن القائد يسمى الرّأس أو الرّبان (المقدسي ص 31)، فكان النُّاخداه بابشاد، وهو الرّجل الذي يسافر على سفينته، يصطحب معه رُباناً يتولّى أمر الملاحة، والحكايات المتعلّقة بالمهارة الملاحية لا تنسب إلى النُّاخداه بل إلى الرّبان، أما اليوم فيغرق النّاس في البحر الأحمر بين من يسمى ناخُداه البحر، وهو الرّئيس الحقيقي للسّفينة، وهو يقودها ويرأس بحارتها ويمسك الدّفة، (وهذا عجيب)، وبين ناخُداه البرّ الذي هو صاحب السّفينة، انظر Malzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865. I, S. 71. ↑

787. عجائب الهند ص 22. ↑

788. المصدر ذاته، ص 22. ↑

789. الإصطخري ص 79. ↑

790. المقدسي ص 118. ↑

791. كتاب الوزراء للصّابي ص 73. ↑

792. إرشاد الأريب لياقوت ج 1 ص 77. ↑

793. الإصطخري ص 32؛ والمقدسي ص 12، وهو يذكر أنه كان عند عبادان بيوت كثيرة توقد فيها النّار. ↑

794. يتيمة الدّهر للثّعالبي ج 2 ص 134. ↑

795. مُروج الذّهب للمسعودي ج 1 ص 230. ↑

796. ص 90. ↑

797. ص 12. ↑

798. جمعت المراجع الصّينية أخيراً في كتاب تشاو جو كوا الذي نشره هيرث وروكهيل Fr. Hirth, W. Rockhill في سانت بطرسبورغ عام 1912 م ص 9 وما يليها. ↑

799. المصدر ذاته، ص 9. ↑

800. المصدر ذاته، ص 14 وما بعدها. ↑

801. سلسلة التّواريخ ص 14، طبعة رينو. ↑

802. المصدر ذاته، ص 46. ↑

803. المصدر ذاته، ص 35؛ وانظر مُروج الذّهب للمسعودي ج 1 ص 308، ويستبعد هيرث وصاحبه في كتاب Chau-Ju-Kua (ص 15 حاشية رقم 3) أن تكون هذه المراكب أو قوادها صينيين، لأن أهل الصّين كانوا حتى آخر القرن الثّاني عشر لا يعرفون عدن ولا سيراف، ولا أسماء هذين البلدين، ويؤيد هذا أيضاً أن العرب لم يذكروا شيئاً قط عن الملاحين الصّينيين، وأن مراكب الصّين لم تختلف إلى المياه العربية بعد أن دمّرت مراكز المسلمين التّجارية في الصّين، فالمقصود إذن من عبارة مراكب الصّين أنها مراكب صينية يملكها المسلمون وتسير بين بلادهم وبين الصّين. ↑

804. سلسلة التّواريخ ص 62 وما بعدها؛ ومُروج الذّهب ج 1 ص 302؛ وتاريخ أبي الفداء في حوادث عام 264 هـ. ↑

805. انظر أيضاً Fr. Hirth and Rockhill, Chau-Ju-Kua p. 15. ↑

806. Richthofen, China, I. 572. ↑

807. معجم البلدان لياقوت ج 3 ص 453. ↑

808. ج 3 ص 308. ↑

809. Chau-Ju-Kua, S. 31. f. ↑

810. المصدر ذاته، ص 17 وما يليها، وص 119. ↑

811. المصدر ذاته، ص 23. ↑

812. المصدر المتقدم ص 24. ↑

813. وكذلك يقول الكاتب الصّيني Chau-Ju-Kua في القرن الثّالث عشر الميلادي إن الرّحلة من سومطرة إلى ملبار تستغرق شهراً مع الرّياح الموسمية p. 87، وانظر أيضاً Marco Polo, III, 4؛ وقد سلك هذا الطّريق في القرن الخامس عشر الميلادي الحاج فاه هين الصّيني عائدا إلى وطنه. ↑

814. وهذا على الأقل ما حكاه أحد الرّحالين الصّينيين في القرن الثّاني عشر الميلادي، انظر Chau-Ju-Kua, 114. ↑

815. عجائب الهند ص 85. ↑

816. المصدر ذاته. ↑

817. المصدر ذاته، ص 91. ↑